# ميخائيل بولغاكوف

# المعلم ومرغريتا

## رواية

ترجمة : يوسف حلاّق
مراجعة : عبد الله حبه



دار «رادوغا»
موسكو

Михаил Булгаков

МАСТЕР И МАРГАРИТА

РОМАН

*На арабском языке*

© حقوق الترجمة والنشر محفوظة لدار «رادوغا» ١٩٩٠

طبع في الاتحاد السوفييتي

Б $\frac{4702010201-518}{031/01/-90}$ 057-90 ISBN 5-05-003873-1

## ميخائيل بولغاكوف وروايته

تصدر رواية ميخائيل بولغاكوف (١٨٩١-١٩٤٠) «المعلم ومرغريتا» ، إحدى الروائع الأدبية للقرن العشرين ، باللغة العربية في عام الذكرى المئوية لمولد الكاتب .

ومصير التراث الأدبي لميخائيل بولغاكوف موضوع تاريخي لفاجعة نادرة المثال . انه المصير المحزن لفن رفيع ، كان يبحث عن الاعتراف العادل به .

منذ فترة وجيزة لم يكن بولغاكوف معروفاً في وطنه وقريباً الى النفوس سوى لدى طائفة صغيرة من الباحثين الأدبيين المختصين ، والمتضلعين بمسرح الثلاثينيات الذين بقي في ذاكرتهم نجاح اخراج «أيام آل توربين» في مسرح موسكو الفني ، وعدد من القراء المتوقين للمعرفة .

أما الآن فلا يماري احد في ان بولغاكوف يعتبر من شيوخ الأدب السوفييتي ، وتتراءى في الاحكام الصادرة بشأنه نبرات مختلفة تماماً عن السابق ، وفي التعاطف الشعوري المغاير لدى القراء ازاء خبرته الادبية الخصوصية جداً .

وهذا كله يعكس التغيرات الكبيرة في الوعي الجمالي للشعب ، المتاتية - وهذا مفهوم - عن التطورات الاجتماعية الهامة التي جرت في الاتحاد السوفييتي في الأعوام الأخيرة .

وقد اثرت هذه التغيرات باجلى صورة في مصير رواية بولغاكوف «المعلم ومرغريتا» .

وكتب المؤلف روايته مع ثقته باستحالة نشرها في أيام

حياته . والآن بعد ان شهدت الرواية النور عقب أكثر من ربع قرن على كتابتها اصبحت معروفة لدى جميع القراء في العالم . وتعتبرها العقول المبدعة البارزة احدى ذرى ظواهر الأدب الروائي في القرن العشرين . فوضعها جنكيز ايتماتوف الى جانب «الدون الهادئ» لشولوخوف ، مبيناً ان التفاوت فيما بينهما هو في درجة تيسرها لاوسع جماهير القراء ، ومشيراً الى توجه ادب بولغاكوف نحو الصفوة الى حد ما .

هذا كله صحيح ، كما ان القول الأخير صائب أيضاً . لكن لا يجوز ، طبعاً ، اعتبار رواية «المعلم ومرغريتا» رواية للنخبة من القراء . ولا جدال في ان من الممكن تفهم جميع تفاصيلها بدقة بشرط توفر الأعداد الثقافي العام والاطلاع على الاحداث التاريخية . لكن الظاهرة الفذة لاستيعاب الرواية تكمن في انها تحظى بالاقبال لدى القراء اليافعين أيضاً . واغلب الظن ان السبب يعزى الى اسلوب الرواية المميز للحكايات والأعمال الخيالية ، والقريب حتى من وعي الاطفال الذي تعوزه القدرة ، كما هو معروف ، على ادراك أشياء كثيرة ، بيد ان بميسوره تقبل امور كثيرة في أي عمل ادبي غير اعتيادي .

وغالبا ما يعود الفكر النقدي لغرض تفسير «ألغاز» «المعلم ومرغريتا» الى تشبيهها بابداع جوجول ، وهذا شيء طبيعي ، لان بولغاكوف كان يعتبر مؤلف «النفوس الميتة» استاذه .

الا ان النقاد غالبا ما يفرطون ، لدى دراسة ابداع بولغاكوف ، في ذكر اسلافه الآخرين . وهم في الأدب الروسي – دوستويفسكي وسالتيكوف-شيدرين واندريه بيلي ومایاكوفسكي (ككاتب مسرحي) ، وفي الادب الاجنبي – يرد في الطليعة هوفمان ، الكاتب الرومانسي الالماني ، الذي اعاد خلق العالم بصفته ما يشبه اللاواقع . كما تذكر اسماء اخرى . ولا ريب في ان هذا الكشف سيزداد .

لكن ، لعل ما هو أهم ان «المعلم ومرغريتا» – آخر كتب بولغاكوف ، ويعتبر أحياناً بصفته وصيته الابداعية – تؤخذ بجلاء أكثر فأكثر بالارتباط مع الاعمال السابقة للكاتب . وهذه الارتباطات استيحائية ومباشرة ، ويدل الكثير منها على ان الكاتب واصل في عمله المجازي الساخر المترع بالمبالغة تطوير مواضيع



اعماله السابقة ، الواقعية تماماً في اسلوبها (رواية «الحرس الأبيض» و«الرواية المسرحية» – ولم يكملها الكاتب – والمسرحيتان «الهروب» و«أيام آل توربين» ، والاعمال المعدة للمسرح والقصص) .

كانت المحاولات الادبية الأولى لبولغاكوف ترتبط من جانب باهتماماته المهنية في شبابه ، ومن جانب آخر – بالاحداث التاريخية في تلك الفترة .

ولد ميخائيل افاناسيفيتش بولغاكوف في عام ١٨٩١ بمدينة كييف في عائلة عالم ديني ، ومؤرخ جاد لنظريات الاديان ، واستاذ مساعد في الاكاديمية الدينية بكييف . اما امه فكانت معلمة ، وابنة ايكنمس (أول الكهنة) في الكاتدرائية . وبعد عامين من وفاة الاب اضحى ميخائيل بولغاكوف ، وكان قد بلغ سن الثامنة عشرة ، طالباً في كلية الطب بجامعة كييف .

وفي عام ١٩١٦ بدأ العمل ، وكان قد حصل على شهادة الطب بدرجة امتياز ، في المستشفيات العسكرية على الجبهة باوكرانيا ، ثم عمل طبيباً باحد اقضية محافظة سمولينسك . وقد انغمر في العمل بنكران ذات . وسنعرف هذا من كتابه «مذكرات طبيب شاب» وروايته «المورفين» وقصصه .

عاد بولغاكوف الى كييف بعد ثورة اكتوبر ، وعانى بسبب الاحداث الدامية في المدينة ، الناجمة عن افعال سلطات الاحتلال والحرس الأبيض ورجال بيتليورا (من القوميين الاوكرانيين) .

وحين اقيمت السلطة السوفييتية * في عام ١٩١٩ في كييف (ابان الربيع والصيف) ، واصل بولغاكوف ممارسة مهنته كطبيب . وفي الوقت ذاته بدأ بالكتابة – قبل كل شيء ، طبعاً ، عن عمله الذي رسخ في وعيه الى الابد بصفته من اعمال الرحمة العظيمة . و«مذكرات طبيب شاب» ليست يوميات وحتى ليست ملاحظات بشكل تحقيقات صحفية ، لكنها تتصف بسمات القصة القصيرة ، بيد ان عنصر السيرة الذاتية واضح فيها بجلاء ، كما هي الحال في اعماله الرئيسية ، المتأخرة .

---

* طرد الغزاة الاجانب والحرس الأبيض من اوكرانيا نهائيا في مطلع عام ١٩٢٠ .

لكن مهما كانت الممارسة الطبية قريبة الى روح بولغاكوف ، فان الكوارث الاجتماعية لتلك الاعوام ، والاشهر المأساوية في كييف التي كانـــت تتناقلها الايدي ، غـــدت مصدراً انفعالياً وموضوعياً اقوى لاعمـــال البحث الفني لدى الكاتب الشاب . طبعاً ، ان اكتشافاته الكبيرة لم تتحقق دفعة واحدة .

فقد بدأ بولغاكوف ككاتب مسرحي قبل ان ينجز «مذكرات طبيب شاب» و«المغامرات العجيبة لدكتور» . وقدمت مسرحياته على خشبة المسرح . ففي عامي ١٩٢٠ و١٩٢١ صفق اهالي مدينة فلاديقفقاس (اورجونيكيدزه حالياً) لدى مشاهدة عرض «الاخوان توربين» . كما كتب مسرحيات كوميدية عرض بعضها على خشبة المسرح ايضاً .

واغلب الظن ان المؤلف لم يكن راضياً عنهـــا جميعاً :فقد اتلف بعد ثلاثة اعوام مخطوطة المسرحية الانفة الذكر . ووجب ان يجد الانعكاس الفني ما شاهده الكاتب في أعوام الثورة . وكانت النبضة التاريخية قويـــة ، وعاشت في اعماق بولغاكوف ووعدت بنتائج ابداعية كبيرة .

وفي فترة أعوام ١٩٢٢-١٩٢٤ الف الكاتب بعد الانتقال الى موسكو نهائياً روايـــة «الحرس الأبيض» ، أول عمل روائـــي كبير له .

وحدث هذا في الوقت حين كان الفن السوفييتي الفتي يسعى بنشاط غير اعتيادي الى استكناه مغزى العصر الثوري ، وادراك مصائر الشعب والانتلجنسيا . وظهرت الى الوجود الكتب الممتازة لالكسي تولستوي وسيرافيموفيتش وبابيل ، وانبثقت فكـــرة «الدون الهادئ» لشولوخوف . وكانت رواية بولغاكوف تتجاوب مع روح اعمال البحث الفني الرئيسية لتلك الفترة .

فمـــا الذي كان يقربـــه الى الذين يعدون بحق رواد الفن الاشتراكي ؟ بادئ ذي بدء ، ان رواية «الحرس الأبيض» لم تترك اية شكوك بصدد المصير اللاحق للعالم القديم : فلا عودة له ، والامر الاساسي ، ان انهياره يمثل خيراً بالنسبة الى روسيا من الناحية الوطنية التاريخية .

وبدا هذا الانهيار لبولغاكوف ، طبعاً ، ليس كحدث تاريخي منفرد له حدوده الوطنية . فقد اكسبه طابعاً كونياً وبشرياً عاماً .



ومن هنا تأتي مراجعة الكاتب لنصوص الكتاب المقدس ، وفي طليعتها سفر الرؤيا (رؤيا يوحنا اللاهوتي) ، ومنه اخذ احدى العبارات التي تتصدر الرواية («ودينَ الاموات مما هو مكتوب في الاسفار بحسب اعمالهم . . .») . ولا يجوز القول ان بولغاكوف كان متضامناً كلياً مع البلاشفة ، الا ان «الحرس الأبيض» تشكل محاكمة روائية لماضي روسيا .

اذن كانت تنبثق في ابداع الكاتب قبل وقت طويل من كتابة «المعلم ومرغريتا» مواضيع الكتاب المقدس ، التي هدفها الوحيد تشديد الوظيفة التعميمية لشخوصه .

والجدير بالذكر ان البحث كان يجري منذ فترة العمل في تاليف «الحرس الابيض» عن السخرية والعناصر الخيالية الضرورية من أجل بلوغ الهدف الفني المختـــار . ففي عام ١٩٢٤ كتب بولغاكـــوف «نشيد الشيطـــان» – وهي روايـــة ساخرة عن البيروقراطية . ويتجلى فيها بحالة جنينية الاسلوب الساخر لرواية «المعلم ومرغريتا» . وفي اواسط العشرينيـات كتب الروايتين القصيرتين الخياليتين-الساخرتيـن «البيوض القاتلـــة» و«قلب كلب» ، اللتين اعيد اصدارهما مؤخراً (صدرت «قلب كلب» لأول مرة في الاتحـاد السوفييتي عام ١٩٨٧) ، واخرجت في المسرح وترجمت الى كثير من اللغات الاجنبية .

وفي النصف الثاني من العشرينيات صار ميخائيل بولغاكوف يعمل بطاقة ابداعية كبيرة . ودراما «أيام آل توربين» ، التي كرر فيها الكاتب – الوفي الى العنصر المؤثر الرئيسي لروايته الأولى – بعض احداثهـــا ، لكنه مضى ابعد في تكريس التفوق الاخلاقي للقوى الثوريـــة ، قد جلبت الشهرة الى بولغاكوف . واستولت على ستانيسلافسكي كبير المخرجين فكرة تجسيدها على خشبة المسرح . لكن النقاد السطحيين والمبتذلين من الرابطة الروسية للكتاب البروليتاريين ، احدى التكتلات الرئيسية في اعوام العشرينيات ، لم يتقبلوا المسرحية التي كانت ترغم الناس على البكاء والضحك في آن واحد (وكان هذا رد فعل ستانيسلافسكي ايضاً) .

كما استقبلت بعداء أكبر مسرحيتـــه التالية «الهروب» التي حظر تقديمها حتى على ستانيسلافسكي نفسه ، مما اصاب المخرج

العظيم بكدر مرير . فتلبدت السحب فوق بولغاكوف . ومع هذا عمل بحماس اكبر وبنكران ذات في تاليف كتابه «الرئيسي» – رواية «المعلم ومرغريتا» .

وكرس بولغاكوف الى هذا العمل جميع الأعوام الأخيرة من حياته (توفي في عام ١٩٤٠ بعد مرض ثقيـــل ومضن هو تصلب الكليتين) .

لقد تحدد في الثلاثينيات نهائياً موضوعه الروائي الرئيسي : الصراع بين الخير والشر . وكما هي الحال سابقاً كان الكاتب ينجذب الى مختلف الأنواع الفنيـــة فكتب مسرحية عن موليير ورواية عنه من اجل سلسلـــة كتب «سير مشاهير الرجال» ، والرواية القصيرة ذات عنصر السيرة الذاتية «كتابات على اطراف الاكمام» ، والأعداد المسرحي لرواية «النفوس الميتة» لجوجول ، لكن الشيء الرئيسي طبعاً هو كتابة الرواية .

وعلى تخوم العشرينيات والثلاثينيات شعر بولغاكوف بشكل واضح بمأساوية وضعه ككاتب . ففي اعقاب مسرحية «الهروب» رفض المسئولون عن سياسة الريبرتوار مسرحياتـه الواحدة تلو الاخرى .

وبعد رسالة يائسة وجهها الكاتب الى الحكومة * حصل عـلى وظيفة دائمية في المسرح الفني . وشيئـــاً فشيئاً تم من جديد نشر واخراج بعض مسرحياته (كان ستالين يبدي اهتماماً «غريباً» بعرض مسرحية «أيـــام آل توربين» في مسرح موسكو الفني ، وشاهده عدة مرات) .

مع ذلك لـــم يعتبر بولغاكوف «من الاهـــل» في الاوساط الادبية والمسرحية ، وحتى ستانيسلافسكي لم يكن يفهم دائماً

---

* كتب ميخائيل بولغاكوف الى ستالين عدة مرات . وقد رجا في رسالته المؤرخة في ٣ سبتمبر عام ١٩٢٩ السماح له بالسفر مع زوجته الى خارج البلاد . وكتب بولغاكوف الرسالة الثانية «الى حكومة الاتحاد السوفييتي» في مارس عام ١٩٣٠ في لحظة عصيبة جداً ، حين فقد اي أمل في النشر وكذلك في الحصول على اي عمل عموماً . وفي هذه المرة تلقى الجواب – وهو المكالمة الهاتفية الشهيرة مع ستالين في ١٨ ابريل عام ١٩٣٠ . وبعد المحادثة مع ستالين اتخذ الكاتب قراره النهائي بالعمل في ارض وطنه ، وبالتخلي عن مغريات الهجرة .



خصوصية اسلوبه الساخر . وليس عجباً ان «الرواية المسرحية» التي لم يكملها ، والتي يتحدث فيها باسلوب طريف تقترن فيه الشاعرية بالفكاهة عن سنوات العمل البهيجة والمؤلمة في مسرح موسكو الفني ، كتبت في المخطوطة بعنوان آخر هو – «مذكرات مرحوم» .

لكن لـــم يعد بمقدور شيء ايقاف الكاتب عن انجاز كتابه الرئيسي . ولئن احـــرق بولغاكوف في عام ١٩٣٠ جميع صفحات مخطوطة الرواية تقريباً ، فانه صار لاحقاً يستعيد في ذاكرته كل ما اتلفته يداه ، ولم يكرر مثل هذه المحاولة المأساوية ابداً .

لقد اغنى بولغاكوف الأدب السوفييتي بكتابته رواية «المعلم ومرغريتا» بنوع أدبي فذّ جديد ، لم تعط نظرية الأدب تعريفاً له حتى الآن . فان «المعلم ومرغريتا» هي عرض تاريخي ساخر لحياة المدينة في العشرينيات والثلاثينيات التـــي كانت متيسرة لبصيرة الكاتب الروائية الواسعة . وقد يبدو مثل هذا التوصيف بمثابة مفارقة : فمن السهل التشكيك بامكانيـة الجمع بين الهجاء الساخر ، بتحيزه الذاتي ، وبين العرض التاريخي بموضوعيته الالزامية . لكن الأدب الكلاسيكي الروسي قدم قبل بولغاكوف بزمن طويل امثلة لهذه التوليفة المتناقضة ظاهرياً : على سبيل المثال ان الروايـــة الفذة لسالتيكوف-شيدرين «قصة مدينـة» المتميزة بالاحتدام المجازي للاحداث والشخصيـات قد أعادت خلق العالم الشامل للحياة الروسية في القرن الماضي ، حيث كانت تسود السلطة المطلقة لافراد معدودين وخضوع الآلاف .

لكن «المعلم ومرغريتا» ليست مجرد تكرار لتقاليد الأدب الهجائي الساخر الكلاسيكي . اذ تكمن فرادة العمل كنوع أدبي في الجمع الجسور في سبيكة واحدة بين السخرية والطرح المهيب والملحمي لاسطورة عريقة في القدم . وما نقصده هو ما يسمى بالفصول القديمة للرواية ، الفصول عن بيلاطس البنطي حاكم اليهودية الروماني والفيلسوف الجوّاب يشوع الغانصري (هكذا يسمي بولغاكوف يسوع المسيح) ، التي تقطع ثلاث مرات سرد الاحداث العصرية . وترجع احداث هذه الفصول الى القرن الأول للميلاد . ويمكن ان نحدس بيسر وراء اورشليم ملامح اورشليم التاريخية – مركز اقليم اليهودية في عصر الامبراطور الروماني

تيبريوس . وكان يتولى السلطة العليا ايامذاك والي الامبراطور – الحاكم الذي تولى ادارة اليهودية بصفتها جزءاً من محافظة سورية الرومانية . وبيلاطس البنطي شخصية تاريخية ، واعتماداً على بعض المصادر الحاكم الخامس ، وعلى مصادر اخرى الحاكم السادس لليهودية . ووفقا للتقاليد المسيحية فقد جرت في فترة حكمه اهم الاحداث الواردة في الانجيل – اي ظهور المسيح ، الانسان الرب ، منقذ العالم يسوع واعدامه الرهيب بالصلب .

وقد يبدو لكثير من القراء ان الحديث عن يوم من أيام الحاكم الروماني اكثر الصفحات تأثيراً في رواية «المعلم ومرغريتا» . لكن ينبغي الا يؤخذ هذا الحديث كاقصوصة محشورة فيها . اذ يكمن سر الوحدة البنيوية للرواية بأجمعها في الخطوط التي تربط ما بين الماضي البعيد واليوم الحاضر ، وفي عدم انفصامهما وتواصلهما في المقاييس الأساسية الرئيسية للوجود .

وفي جوهر الامر تكمن في التضاد بين الخير والشر الوحدة الرئيسية للاحداث التي تبدو غير مترابطة وغير متشابهة لفصول الرواية «القديمة» والحديثة .

ولدى متابعة النزال بين بيلاطس البنطي ويشوع نغدو في دائرة القضايا التي تشغل فكر المؤلف في مشاهد الرواية التي تجري بموسكو – اي عن الانسان ، وعن تصارع الخير والشر فيه ، وعن عجز ارادة الانسان وجبروتها .

وتظهر شخصية بيلاطس الصراع الداخلي لشخصية الفرد ولهذا فهي دراماتيكية على طريقتها . اذلا تعوزه التأملات والمشاعر الانسانية والشفقة . فهو لا يود هلاك يشوع بلا معنى . اما الفيلسوف الجواب باحاديثه غير المألوفة عن كون الانسان طيب القلب ، فهو يروق له لامر ما . وبيلاطس مستعد لانقاذه من تزمت ابناء جلدته ولاخفائه عنده في قيصرية ستراتونوفا . وتاتي لحظات يتراءى فيها ان الحاكم الروماني لن يقترف الفعلة الوحشية بحق الرجل العنيد الاعزل . لكن يتصادم في اعماق الحاكم امران غير متكافئين هما : الارادة الشخصية وحكم الظروف . وقد تغلب يشوع على الاخير روحياً ، بينما لم يتسن ذلك لبيلاطس . فهو بصفته انساناً – لا يستحسن الحكم بالاعدام ، لكنه بصفته حاكماً – يصادق عليه : لان الخوف من القيصر فوق قدرته .



والحق ان يشوع نفسه يصدر الحكم على نفسه حين يكشف أمام بيلاطس طوباويته الجسورة بقوله : ستحل نهاية حكم الامبراطور ، وسلطة القيصر .

ذلكم هو الموضوع الازلي للأدب العالمي وذلكم هو جوهر الواقعية الروائية اي : من هو الانسان ؟ وهل يتحمل الانسان المسئولية عن افعاله ؟ وهل بوسع اكثر الظروف قسوة ان تشكل تبريراً لاقتراف افعال لااخلاقية ؟ ويجيب بولغاكوف على هذا بشخصية بيلاطس لديه وبمصيره وبعذاباته الروحية قائلاً : نعم ، انه يتحمل المسئولية . فهو مسئول أمام ضميره ، ولا يمكن ان يغدو اي شيء تبريراً له ، ان كان قد اختار الشر .

ان قصة بيلاطس البنطي ويشوع ذات صلة مزدوجة مع تقلبات الاحداث الرئيسية للرواية . انها تشكل محتوى الرواية التي يكتبها المعلم (فان مصير مخطوطته المحترقة والمعاد كتابتها بالذات قد ولدت عبارة فولاند التي غدت مثلاً يضرب به وهي : «المخطوطات لا تحترق») . وثانياً ان هذه القصة الرهيبة يبدو وكأنها تختتم في النص الرئيسي للرواية . وقد يتراءى للقارئ اية خاتمة اخرى يمكن ان توجد غيرها : فان يشوع قد صلب .

لكن المؤلف اراد القول : ان انتصار الشر على الخير لا يمكن ان يغدو النتيجة النهائية للمجابهة الاجتماعية-الاخلاقية . فهذا حسب رأي بولغاكوف امر لا تقبله طبيعة الانسان ، كما لا يجب ان يسمح به مجمل سير الحضارة .

والمؤلف على يقين من ان الممهدات لمثل هذا الاعتقاد قد تجسدت في افعال . . . الحاكم الرومانسي نفسه . فهو بالذات ، والذي حكم بالموت على الجواب التعيس ، قد امر بان يقتل سراً يهوذا الذي خان يشوع . ويتبين ان البعد الانساني يكمن في البعد الشيطاني وينزل القصاص – ولو بجبن – بمن اقترف الخيانة . لكن هذا يمثل جزءاً صغيراً فقط من القصاص . ومن الجلي ان بولغاكوف لا يجد في ذلك الكفاية .

وعندئذ يظهر في «المعلم ومرغريتا» فولاند ، الذي تفسر شخصيته بعبارات مأخوذة من «فاوست» لغوته ، وادرجت في صدر الرواية : «انا جزء من تلك القوة التي تريد دائماً الشر فلا تفعل دائماً الا الخير» .

ويمثل هذا استعارة للتناقض البشري الذي يجب لحله ، حسب راي بولغاكوف (وتكمن في هذا احدى الافكار الرئيسية للكاتب في الرواية) ان يكرس التفاؤل التاريخي للمجتمع .

واذا بممثلي الشرّ الشيطاني يصبحون من صانعي الخير ، ومنفذي العدالة ، بغية التكفير نهائياً عن جريرتهم حيال الجوابين الازليين والنساك الروحانيين الذين يمضون الى المحرقة دوماً في سبيل افكارهم . فينسلخ فولاند من حومة الشر المعتادة ويبدو كما لو انه يتلقى بالمقابل سيف العقاب العادل من قوى الخير .

ويقع تحت طائل الضربات الماحقة لفولاند كل ما هو دنيء في البهرجة الموسكوفية للموظفين وانصاف المثقفين والدهماء العاديين الذين يصورهم الروائي تصويراً كاريكاتيرياً هزلياً . ويشخص العالم هنا كما لو كان مقلوباً راساً على عقب : اذ يغدو من المستحيل تقريباً القول ، اين تصدح انشودة الشيطان الحقيقية – في الوسط القريب من الادباء والفنانين أم في طفرات الشيطان الموجود في كل مكان وحاشيته من الابالسة . ويتلقى ما يستحقونه من جزاء اللصوص النهابون والعاطلون والمرتشون والكذابون والبيروقراطيون واصحاب الوشايات . . . وهل كان برليوز سيلقى مصيره ذلك بدون سبب . ان احتمال هذا بعيد . . . فهذا الثرثار المغرور بنفسه ، المشرف على الفن ، والمقرر لمصائر الناس ، لا يبعث مشاعر طيبة كثيراً .

ومع هذا لماذا اعطى المؤلف الى فولاند بالذات الحق في انزال عقوبة الاعدام أم اعلان العفو ؟ وما هذا – هل هو تكفير عن الشر ، كما قلنا آنفاً ؟ اغلب الظن ، انه كذلك . لكن يتعين عندئذ اعتبار فكرة المؤلف طوباوية . انها انسانية بلا ريب ، لكنها طوباوية .

ولربما يبدو بولغاكوف هنا باكبر قدر بصفته من اتباع جوجول ودوستويفسكي . وطبعاً تبدو جلية للعيان الاصداء من حيث الصور الادبية والمواضيع والاسلوب مع الكاتبين الكلاسيكيين . فمثلاً ، الا يذكرنا الحوار المأساوي بين بيلاطس ويشوع بحديث المفتش العظيم والمسيح في «الاخوة كارامازوف» لدوستويفسكي ؟

لكن لعل اهم تطابق بين بولغاكوف وسابقيه يتجلى فيما



جرت العادة على تسميته بالمنهج الايجابي للكاتب . فهنا بالذات تكمن قوة بولغاكوف وضعفه ، شأنه شأن معلميه ، اللذين تضمن منهاجهما فكرة السبل الاخلاقية لتحويل الشرّ الى خير باعتباره البلسم الشافي من مصائب البشر الاساسية .

بالمناسبة ان صاحب «المعلم ومرغريتا» غالباً ما يصحح مواضيع اعمال معلميه العظيمين . فان يشوع ليس بالمسيح المطيع لدى دوستويفسكي ، والذي يقبّل المفتش صامتاً وبهذا يبارك الاخير لحكمه الدكتاتوري للبشر . نعم ، ان يشوع بولغاكوف اعزل وضعيف في الحياة الدنيوية ، وفي مصيره الشخصي . لكنه شجاع وصلب ، وعظيم حقاً في تبشيره بالخير ، وهو لا يقبل بالحل الوسط مع سلطة روما ، وتقوم في احلامه «مملكة الحق والعدل» .

كما يواصل بولغاكوف تقاليد الكتاب الكلاسيكيين العظام في امر آخر هو نزع السمة الجمالية للعالم الجاري تصويره ، والذي يعتبر شيئاً مبدئياً بالنسبة للكاتب . فهذا يفسر اسلوب الرواية كله ، وبضمن ذلك ، كل شيطنة وبهللة ولا واقعية سلوكات كوروفيوف وازازيللو وبيغيموت وفارينوخا ونيكانور ايفانوفيتش وموظفي مسرح «الفاريتيه» ورابطة ادباء موسكو (الماسوليت) ، وجميع الذين يشكلون جو الهرج والمرج الخيالي والسيركي في الرواية .

«الجمال سينقذ العالم» – ان هذه الصيغة الرفيعة لدوستويفسكي قد ابدى شكوكه فيها قائلها نفسه . كما لم يثق بها ليف تولستوي ، ناهيك عن سالتيكوف-شيدرين .

واخذ بولغاكوف الكاتب الساخر بنظر الاعتبار هذه الخبرة بالذات اذ تطلبت مهمته الروائية ان يغدو نزع السمة الجمالية ما يكاد يمثل اهم عنصر في العملية الروائية . وهو لم «يرحم» حتى مرغريتا ، الملاك الحارس للمعلم .

ولربما تتراءى في هذه الشخصية (والكثير من سماتها استوحي من شخصية يلينا سيرغييفنا ، زوجة الكاتب ، ورفيقته المخلصة في عمله السامي والصعب) ، باجلى صورة جرأة بولغاكوف الابداعية وتحديه الجريء لقوانين علم الجمال الراسخة .

وترد على لسان مرغريتا ، من ناحية ، اكثر الالفاظ شاعرية

عن الانسان المبدع ، وعن خلوده ، وعن «البيت الازلي» الرائع ، الذي سيغدو مكرمة تمنح اليه . ومن ناحية اخرى ، نجد انها حبيبة المعلم بالذات تطير فوق بولفارات وسقوف موسكو ممتطية فرشاة تنظيف الارض ، وتحطم زجاج النوافذ ، وتغرز «مخالبها الحادة» في اذن بيغيموت وتشتمه بلفظة بذيئة ، وترجو فولاند ان يحول مدبرة شئون المنزل ناتاشا الى ساحرة ، وتنتقم من الناقد الادبي التافه لاتونسكي ، وتصب دلو ماء في ادراج مكتبه . ومن العسير ان نجد في الادب العالمي مثل هذا الخلط في الاساليب .

فمن اين جاء ؟ انه في نهاية المطاف ناجم عن تجاور المأساة مع الهزل ، وما هو رفيع مع المضحك ، والذي اظهره تاريخ البشرية في جميع مراحل تطورها . وحين ربط بولغاكوف الازمان جمع بين صفات واشكال الوجود التي يستثني بعضها البعض ، كما يبدو ، باقصى قدر . فان الحماس الفخم ، والنبرات الرقيقة والقهقهة المتوحشة المشوبة بالصرير ، والصفير اللصوصي والتملق الدواويني المقترن بالخنوع المميز للخدم ، وعبادة الخلود وارضاء حاجات اللحظة الراهنة (وكما يقول سالتيكوف-شيدرين «ارضاء حاجات البطن») ، والوسوسة الناجمة عن الجهل والتبصر الحكيم ، وجمال العالم مع زبالته ودماءه ، وانسجام الموسيقي والفوضى – ان هذا جميعاً قد عرض في الرواية امام القارئ ويطلب منه الاصغاء اليه ، دونما حاجة الى تأكيد خاص ما ، لان هذا كله كان دائماً وابداً مقترناً ببعضه البعض على هذه الشاكلة .

ان رواية بولغاكوف التي لم تفك رموزها جميعاً واضحة في امر واحد على أقل تقدير وهو انها تتحدث عن ايمان الكاتب بانتصار المبدأ الابداعي ، وبحتمية انتصار الخير على الشر في النهاية . ولربما ان ايمان الكاتب هذا في انتصار الخير يجعله يوجه ما يشبه العتاب الى بطله الرئيسي – المعلم ، يتضمن الكثير من الامور الشخصية والمعاناة الذاتية . ويثير الاعجاب فيه الاخلاص العظيم للابداع ، والوفاء للمعتقدات ، واحتقار البهرجة والغرور ، وايمانه العميق بان الفكرة الانسانية الجريئة والخيرة لن تموت ابداً .



لكن لم اكرمه الكاتب بالطمأنينة فقط ، ولماذا لم يستحق المعلم النور ؟ ربما لان المعلم لم يصمد في نهاية المطاف لمصائب وارزاء الحياة ، واستسلم بعد سيل المقالات الحاقدة والافترائية بصدد روايته ، واستسلم لشعور الخوف ، وصار ينفر من عمله ؟ ربما . لكن تبدو شخصية الشاعر «الذي يستعيد بصيرته» ايفان بيزدومني ، الانسان ذو الضمير «المخدوش» ، بمثابة غفران الى المعلم .

ويختتم الفصل الاخير قبيل «الخاتمة» ، بالعبارات التالية : «احدهم اطلق سراح المعلم كما اطلق هو نفسه (المعلم) سراح البطل الذي خلقه ، قبل قليل . وهذا البطل غار في الهاوية ، غاب دون رجعة ابن الملك المنجم حاكم اليهودية الخامس الظالم بيلاطس البنطي الذي غفر له ليلة الاحد» .

دعنا نكرر الاقوال عن الطوباوية : من المستبعد التصديق في امكان التكفير عن الشر ذاتياً ، وفي امكان الخلاص بالغفران الشامل . لكننا لن نصدر حكماً صارماً على ايمان مؤلف الرواية هذا : فما هو بنتاج الوعي الفردي للكاتب ايامذاك فقط ، وليس بمقدور الجميع معرفة (والاصعب من ذلك – القول) اية قوى واقعية قادرة على سحق امثال بيلاطس . وليساورنا شعور الامتنان بلا حدود الى الفنان البارز المعلم ، الذي مجّد الروح الابداعية وثبت المثل العليا للعدالة الاخلاقية .

**البروفيسور بيوتر نيكولايف ،**
**العضو المراسل لاكاديمية**
**العلوم السوفييتية ترجمة :**
**عبد الله حبه**

# الجـــــزء الاول

. . . ومن انت اذن ؟
– انا من تلك القوة التي تريد
دائما الشر فلا تفعل دائما الا الخير
غوته ، «فاوست»

## الفصل الأول

## لا تتحدثوا أبداً الى الغراب !

في اصيل يوم من ايام الربيع لم يعرف لحره مثيل ظهر في بتريرشيي برودي في موسكو ذات مرة مواطنان . كان احدهما ، وهو الذي يرتدي بدلة صيفية رمادية اللون ، قصير القامة مكتنز الجسم أصلع يحمل بيده قبعته اللائقـــة على شكل فطيرة وعلى وجهه المحلوق بعناية استقرت نظارة في اطار قرني اسود ذات مقاس خارق . اما الثاني ، وهـــو شاب عريض الكتفين اشعث الشعر ضارب الى الحمرة على راسه كبية ذات مربعات ، مائلة على قذاله ، فكان يرتدي قميص كاوبـــوي وبنطالاً ابيض مكرمشاً وينتعل خفاً اسود .

لم يكن المواطن الأول سوى ميخائيل الكسندروفيتش برليوز رئيس مجلس ادارة واحد من اكبر تجمعـــات موسكو الأدبية المعروفة اختصاراً باسم **ماسوليت** ، ورئيس تحرير مجلة ادبية سميكة ، اما رفيقه الشاب فهو الشاعر ايفان نيقولايفتش بونيريف الذي كان يكتب تحت اسم مستعار هو بيزدومني .

كان اول ما فعله الكاتبان حين بلغا ظلال شجرات الزيزفون التي بدات الخضرة تكسوهـا أن اندفعا الى كشك صبغ بألوان مختلفة كتب عليه «بيرة ومياه معدنية» .

ويترتب علينا هنا ان نشير ايضاً الى وجه الغرابة الأول في هذا المساء الفظيع من امسيات ايار ، اذ لم يكن هناك احد ليس قرب الكشك وحسب ، بل في كل الممرّ الموازي لشارع مالايا بروناية . ففي هذه الساعة التي اخذت الشمس فيها تهوي



في غلالة من الضبـاب الجاف وراء سادوفويي كولتسو بعد أن ظلت النهار كله تكوي موسكو بلهيب اشعتها ولم يعد ، على ما يبدو ، بمقدور المرء أن يتنفس ، لم يات احد ليستفيء بشجيرات الزيزفون ، ولم يجلس احد الى مقعد في الحديقة ، وخلا الممر خلواً تاماً من العابرين .

– اعطيني نارْزان * ، – قال برليوز يطلب ماء معدنياً من المراة الجالسة في الكشك .

– ليس عندنا نارزان ، – اجابته المراة وقد لاح على وجهها استياء لم يدرك سببه .

– وهل عندك بيرة ؟ – قـــال بيزدومني بصوت ابـــح مستفسراً .

– سياتون بالبيرة عند المساء .

– وماذا عندك اذن ؟ – سأل برليوز .

– شراب المشمش ، لكنه دافئ .

– حسناً ، هاتيه ، هاتيه ، هاتيه ! . .

نفث شرابُ المشمش رغوة صفراء وافرة فسرت في الهواء رائحة كرائحة دكان حلاقة . وما ان اتى الاديبان على شرابهما حتى اخذا يحزقان ، فدفعا ما عليهما وجلسا على مقعد : وجههما الى بركة الماء ، وظهرهما الى شارع مالايا بروناية .

وهنا حدثت المفاجأة الغريبة الثانية ، وكانت تتعلق هذه المرة ببرليوز وحده . فقد توقف عن الحزق فجأة ، ودقّ قلبه دقة وهوى الى مكان ما لحظة ، ثم عاد الى مكانه وقد انغرزت فيه إبرة كليلة . واستولى على برليوز الى ذلك خوف غير مفهوم لكنه من القوة بحيث ود ان يعدو حالاً من بتريرشيي بردوي هارباً لا يلوي على شيء . تلفت برليوز حوله بكآبة دون ان يدرك مع هذا ما الذي اخافه . كان وجهه ممتقع اللون . اخذ منديلاً ومسح به جبينه وقال في نفسه : «ما هذا الذي حدث لي ؟ انه لم يحدث لي من قبل ابداً . . . قلبي بدأ يوجعني . . . انه الاعياء . آن

---

* هو نوع من المياه المعدنية مصادره في شمال القفقـــاس . المترجم .

لي كما يبدو ان اترك كل شيء وارمي به الى الشيطان واذهب الى كيسلوفودسك * . . .» .

وهنا تكثف الهواء القانط امامه ، ومن هذا الهواء تشكل سيّد شفاف ذو منظر جدّ غريب : تعلو راسه الصغير سدارة شوّار وعليه جاكيتة صغيرة ضيقة ذات مربعات . . . كان بطول ساجن ** ، لكنه كان ضيق الكتفين ونحيفاً بشكل لا يصدق ، وكان وجهه ، وارجو ان تلاحظوا ذلك ، ينمّ عن السخرية .

ازداد امتقاع وجه برليوز الذي سارت حياته على نحو لم يعتد معه ظواهرها الغريبة ، وجحظت عيناه ، وقال في نفسه وهو في حالة من البلبلة والاضطراب : «هذا غير ممكن ، مستحيل ! . .»

ولكن هذا هو الذي حدث مع الأسف : كان السيد الطويل ، الذي يمكن رؤية الاشياء من خلاله ، يتمايل امام برليوز ذات اليمين وذات الشمال دون ان تمس قدماه الأرض .

وتملك برليوز رعب جعله يغمض عينيه . وحين فتحهما رأى ان كل شيء انتهى وان السراب أمام عينيه قد اضمحل والسيد في الجاكيتة ذات المربعات اختفى وان الابرة الكليلة انسحبت في الوقت نفسه من قلبه .

– تفو ، يا للشيطان ! – هتف رئيس التحرير ، – هل تعلم ، يا ايفان ، اني كدت أصاب من برهة بنوبة بسبب هذا الحرّ ! بل أصابني ما يشبه الهلوسة ، – اردف برليوز محاولاً اصطناع ضحكة ، لكن القلق كان ما زال يغشى عينيه والرعشة تسري في يديه .

لكنه عاد الى هدوئه شيئاً فشيئاً وروّح وجهه بمنديل :

– اى ، اذن . . . – قالها في شيء من الهمة والنشاط واستأنف الحديث الذي انقطع خلال تناولهما شراب المشمش .

كان الحديث ، كما عُرف فيما بعد ، يتعلق بيسوع المسيح . والقضية هنا هي ان رئيس التحرير كان قد طلب من الشاعر

---

* منتجع في القفقاس مشهور بمياهه المعدنية . **المترجم** .

** الساجن مقياس روسي قديم للطول يساوي مترين وثلاثة عشر سنتمتراً . **المترجم** .



قصيدة طويلة مناوئة للدين من اجل العدد القادم من المجلة . ولقد كتب ايفان نيقولايفتش هذه القصيدة ، وكتبها في فترة وجيزة جداً ، لكنها لم ترضِ رئيس التحرير في قليل أو كثير مع الأسف . لقد رسم بيزدومني الشخص الرئيسي في قصيدته ، أي يسوع ، بالوان جدّ قاتمة ، ومع هذا كان عليه ، في رأي رئيس التحرير ، ان يعيد كتابتها من جديد . وهاهو ذا رئيس التحرير يلقي الآن على الشاعر ما يشبه محاضرة عن يسوع ليبين له الخطأ الأساسي الذي وقع فيه . ويصعب علينا القول على وجه الضبط ما الذي جعل ايفان نيقولايفتش يقف هذا الموقف الصعب : أهي قوة موهبته التصويرية أم جهله الكامل بالموضوع الذي يتهيأ للكتابة فيه . لكن يسوع كما صوره ظهر وكأنه شخص حي تماماً ، وان لم يكن جذاباً . أما برليوز فكان يريد ان يبرهن للشاعر أن الشيء الرئيسي في الموضوع ليس كيف كان يسوع – سيئاً أم جيداً ، بل ان يسوع هذا كشخصية لم يوجد اطلاقاً على الأرض ، وان كل ما يروى عنه ان هو الا محض اختلاق ، ان هو الا اسطورة من تلك الأساطير المعروفة والمتداولة .

ويجدر التنويه بان رئيس التحرير كان انساناً واسع الاطلاع ، وبأنه كان يستشهد في حديثه ببراعة فائقة بالمؤرخين القدامى كفيلون الاسكندري المشهور ، ويوسف فلافيوس صاحب الثقافة الرفيعة اللذين لم يذكرا كلمة واحدة أبداً عن وجود يسوع . وأشار ميخائيل الكسندروفتش في معرض حديثه ، وهو صاحب المعرفة العميقة والمتعددة الجوانب فعلاً ، الى أن ذلك المقطع في الكتاب الخامس عشر والفصل الرابع والأربعين من «حوليات» تاسيت المشهورة الذي يرد فيه حديث عن صلب يسوع ليس سوى تزوير دس في وقت لاحق .

كان الشاعر ، الذي كان كل ما يسمعه من رئيس التحرير جديداً عليه ، يصغي باهتمام الى ميخائيل الكسندروفتش محملقاً فيه بعينيه الخضراوين الأريبتين لا يشغله عنه شاغل سوى الحزق ينتابه بين حين وآخر فيلعن شراب المشمش همساً ويعود الى اصغائه .

وقال برليوز :

– عموماً ، ليس هناك ديانة من ديانات الشرق لم تلد فيها عذراء ، إلهاً . والمسيحيون كغيرهم تماماً ابتدعوا يسوعهم الذي لم يوجد ابداً على هذه الأرض في حقيقة الأمر ، وهم في ذلك لم يأتوا بجديد . فلا بد من التركيز على هذا بالذات . . .

كان صوت برليوز العالي يتردد في الممر الخالي ، وبقدر ما كان ميخائيل الكسندروفتش يتوغل في تلك المجاهل التي لا يستطيع التوغل فيها ، دون خوف من ان تلوى رقبته ، الا انسان مثقف جداً ، كان الشاعر يتعرف على المزيد من الأشياء الشائقة والمفيدة عن أوزيرس المصري إله الخير وابن السماء والأرض ، وعن الإله الفينيقي تموز ، وعن مردوك وحتى عن إله أقل شهرة هو الإله الرهيب فيتسليبوسلي الذي كان الاتسيتكيون في المكسيك يجلونه أكبر الاجلال .

وفي اللحظة التي كان ميخائيل الكسندروفتش يروي فيها الى الشاعر كيف كان الاتسيتكيون يصنعون تمثال فيتسليبوسلي من العجين – في هذه اللحظة بالذات ظهر في الممر أول شخص .

فيما بعد ، ولنقلها بصراحة – عندما فات الأوان – قدمت هيئات مختلفة افاداتها التي تتضمن أوصافاً لهذا الشخص . ومقارنة هذه الافادات لا يمكن الا أن تدعو الى العجب . فقد جاء في الافادة الأولى مثلا ، ان هذا الشخص كان قصير القامة ذا اسنان ذهبية يعرج على رجله اليمنى . وجاء في الافادة الثانية أنه كان هائل القامة ، تيجان أسنانه من البلاتين ويعرج على رجله اليسرى . أما الافادة الثالثة فتعلن بايجاز أنه لم تكن فى هذا الانسان علامات فارقة .

ويجدر بنا الاعتراف أن أياً من هذه الافادات لا يصلح لشيء .

نقول قبل كل شيء ان هذا الشخص لم يكن يعرج على اي من رجليه ، وانه لم يكن قصير القامة ولا هائلها بل ، بكل بساطة ، طويلها . أما أسنانه فنصفها الأيسر كان ملبساً بالبلاتين ونصفها الأيمن بالذهب . كان يرتدي بدلة رمادية ثمينة وينتعل حذاء اجنبياً من نفس اللون ويميل قبعته الرمادية على أذنه بفتوة ويتأبط عصا ذات مقبض أسود على شكل رأس كلب . كان منظره يوحي بأنه في الأربعين او تجاوزها قليلاً ذو فم



ملتوٍ ، وذقن محلوقة بعناية ، اسمر اللون . عينه اليمنى سوداء واليسرى لأمر ما خضراء . حاجباه أسودان إنما أحدهما اعلى من الآخر . وباختصار كان اجنبياً .

نظر الأجنبي شزراً الى رئيس التحرير والشاعر حين مر بقرب المقعد الذي كانا يجلسان عليه وتوقف وجلس فجأة على المقعد المجاور على بعد خطوتين من الصديقين .

– «الماني» ، – قال برليوز في سره .

– «انكليزي ، – قال بيزدومني في سره – عجيب ، انه لا يشعر بالحر وهو في هذه القفازات» .

تامل الأجنبي البيوت العالية المحيطة بالبركة على شكل مربع ، وكان واضحاً انه يرى هذا المكان لأول مرة ، وان هذا المكان يثير اهتمامه .

ثم ثبت نظره على الطبقات العليا التي كان زجاجها يعكس على نحو يعمي الأبصار الشمس المائلة والغاربة الى الأبد عن ميخائيل الكسندروفتش ، ثم حول بصره الى الأسفل حيث بدا لون الزجاج يقتم مع حلول المساء ، وابتسم ابتسامة ساخرة مترفعة ، وزر عينيه ، ووضع يديه على مقبض العصا واسند ذقنه الى يديه .

وكان برليوز يتابع حديثه :

– لقد وصفت يا ايفان بشكل رائع وساخر ميلاد يسوع ابن اللّه ، على سبيل المثال . لكن المسألة يا ايفان انه ولدت قبل يسوع مجموعة كاملة من ابناء اللّه كاينتس الفريجي مثلاً . ومختصر الكلام أن أياً من هؤلاء لم يولد ولم يوجد بمن فيهم يسوع ، وكان من الضروري ، بدلاً من ميلاد المسيح ومجيء المجوس مثلاً ، ان تصف الشائعات السخيفة حول هذا الميلاد . . . والا تبين من قصتك انه ولد فعلاً ! . .

هنا حاول بيزدومني ان يوقف هذا الحزق الذي نغص عليه مزاجه ، فحبس أنفاسه مما جعله يحزق بصوت أعلى والم اكبر ، وفي هذه اللحظة قطع برليوز حديثه اذ ان الأجنبي نهض فجأة وتوجه الى الكاتبين .

نظر اليه هذان نظرة دهشة وحيرة .

– اعذراني من فضلكما ، – قال بلكنة اجنبية دون ان

يشوه الكلمات مع هذا ، – ان كنت سمحت لنفسي دون معرفة سابقة . . . لكن موضوع حديثكما العلمي أثار اهتمامي بحيث . . .

وهنا رفع طاقيته باحترام ، فلم يكن امام الصديقين الا ان ينهضا وينحنيا مسلمين .

«لا ، الأرجح انه فرنسي . . .» ، – قال برليوز في سره .

«بولوني ؟ . .» – قال بيزدومني في سره .

من الضروري ان نضيف ان الأجنبي اثار من الكلمات الأولى التي نطق بها شعوراً من الاشمئزاز في نفس الشاعر ، اما برليوز فكان اقرب الى الاعجاب به ، لا ليس الاعجاب بالضبط بل . . . كيف اقول هذا . . . ربما من الأنسب القول ان هذا الأجنبي اثار اهتمامه .

– هل تسمحان لي بالجلوس ؟ – قال لهما في ادب ، فما كان من الصديقين الا ان ابتعدا احدهما عن الآخر كانما عفوياً ليفسحا له مكاناً بينهما . جلس الأجنبي بينهما برشاقة وانخرط في الحديث فوراً .

– ان لم يخني سمعي تفضلت وقلت ان يسوع لم يوجد اليس كذلك ؟ – سأل الأجنبي برليوز وهو يرفع اليه عينه اليسرى الخضراء .

– لا ، لم تخطئ السمع ، – اجاب برليوز بتأدب ، – هذا ما قلته بالضبط .

– آه ، ما امتع ما تقول ! – هتف الأجنبي .

– «وما دخله في الامر ؟» – قال بيزدومني في نفسه وقطب جبينه .

– وانت موافق على ما يقوله محدثك ؟ – قال الغريب مستفسراً وهو يستدير نحو اليمين باتجاه بيزدومني .

– مائة بالمائة بتمامها وكمالها ! – أجاب بيزدومني الذي كان يحب التعبير عن افكاره بطريقة مزوقة مؤكداً .

– بديع ! – هتف محدثهما الطفيلي ، ولسبب ما تلفت حوله كاللصوص ثم اردف وهو يخفض صوته الجهير : – اغفرا لي لجاجتي ، لكني فهمت من بين أشياء اخرى أنكما لا تؤمنان بالله ، اليس كذلك ؟ – وهنا اصطنع عينين مذعورتين



واردف : – اقسم اني لن اقول هذا لأحد .

– نعم ، نحن لا نؤمن بالله ، – اجابه برليوز وهو يبتسم ابتسامة طفيفة من الذعر الذي بان في عيني السائح الاجنبي ، – انما يمكننا الكلام في هذا الموضوع بحرية تامة .

استلقى الأجنبي على ظهر المقعد وسأل وهو يكاد يزعق من شدة الفضول :

– انتما ، انتما ملحدان ؟ !

– نعم ، نحن ملحدان ، – اجابه برليوز وهو يبتسم ، اما بيزدومني ففكر في استياء : «لقد علقت بنا هذه الاوزة الاجنبية !» .

– آه ، يالللروعة ! – صرخ الأجنبي العجيب وادار راسه يلتفت تارة الى برليوز وتارة الى بيزدومني .

فقال برليوز بأدب دبلوماسي :

– في بلدنا الالحاد لا يدهش احداً ، فان اغلبية الناس عندنا كفت منذ أمد بعيد وعن وعي عن تصديق هذه الخرافات حول الله .

وهنا بدر من الأجنبي تصرف غريب جداً : فقد هب واقفاً وشد على يد رئيس التحرير المبهوت وهو يقول :

– اسمح لي ان اشكرك من صميم قلبي !

– علام تشكره ؟ – قال بيزدومني يستفسر وهو يغمز بعينه .

– على هذه المعلومات القيمة التي اراها في غاية الأهمية بالنسبة لي كسائح ، – اجابه هذا الرجل الغريب الأطوار القادم اليهم من وراء الحدود وهو يرفع اصبعه في حركة ذات معنى .

والظاهر ان هذه المعلومات القيمة احدثت بالفعل اثراً عظيماً في نفس السائح ، لانه اخذ يردد نظره بين البيوت بذعر ، كانه يخشى ان يرى في كل نافذة فيها ملحداً .

«لا ، انه ليس انجليزياً . . .» – قال برليوز في سره . وقال بيزدومني : «اين تعلم الكلام بالروسية على هذا النحو ، هذا هو المهم !» ، وعبس من جديد .

واردف الضيف الأجنبي بعد تفكير مشوب بالقلق :

– لكن اسمحا لي بسؤال : ماذا نفعل بتلك البراهين عن

وجود الله وعددها خمسة على وجه الضبط كما هو معروف للجميع .

– هيهات ! – اجابه برليوز في اسف ، – ان ايا من هذه البراهين لا يساوي شيئاً ، ولقد اودعتها البشرية الارشيف منذ امد بعيد . ولا بد انك توافقني على انه ، على مستوى العقل ، لا يمكن ان يقوم اي برهان على وجود الله .

وهتف الأجنبي :

– برافو ، برافو ! انك تكرر حرفياً فكرة الشيخ القلق عمانوئيل في هذه المسالة . لكن الشيء الغريب انه قوض هذه البراهين الخمسة كلها تقويضاً كاملاً ، واقام برهانه الخاص ، السادس كانما ليسخر من نفسه .

واجابه رئيس التحرير المثقف معترضاً وهو يبتسم ابتسامة ذكاء :

– برهان كنط غير مقنع هو الآخر . وليس عبثاً ما قاله شيلر من ان افكار كنط في هذه المسالة لا يمكن ان ترضي الا العبيد ، اما شتراوس فكان ، بكل بساطة ، يسخر من هذا البرهان .

كان برليوز يتكلم ، ويفكر في الوقت نفسه قائلاً في سره : «لكن من تراه يكون مع هذا ؟ ولماذا يتكلم الروسية بهذه الطلاقة ؟» .

ولم يطق ايفان صبراً فانفجر يقول على نحو لم يتوقعه احد :

– ولماذا لا ياخذون كنط هذا ويلقون به في سولوفكي * نحو ثلاث سنوات على براهينه هذه !

– ايفان ! – همس برليوز في ارتباك .

لكن اقتراح ايفان القاء كنط في سولوفكي لم يدهش الأجنبي ، بل ، على العكس ، اثار حماسته . فهتف ، ولمعت عينه اليسرى الخضراء المصوبة الى برليوز :

– بالضبط ، بالضبط ! انه المكان الذي يليق به ! ولقد قلت له اذاك على الفطور : «الأمر امرك ، يا بروفيسور ، لكنك

---

* جزر في البحر الأبيض كانت مكاناً للنفي . **المترجم** .



اتيت بشيء غير متماسك ! قد يكون ما اتيت به شيئاً ذكياً ، لكنه مستغلق على الفهم ، وسيسخرون منك» .

حملق برليوز واخذ يفكر : «على الفطور . . . قال لكنط ؟ . . بماذا يهرف ؟» .

– لكن الالقاء به في سولوفكي غير ممكن ، – استطرد الأجنبي موجهاً كلامه الى الشاعر وغير عابئ بدهشة برليوز ، – غير ممكن لسبب بسيط وهو انه موجود من مائة عام واكثر في مكان ابعد من سولوفكي كثيراً ويستحيل اخراجه من هناك بأي شكل كان ، اؤكد لك !

– وا اسفاه ! – رد الشاعر المشاكس .

– وانا آسف ايضاً لذلك ، – قال الرجل المجهول مؤكداً وعينه تلمع ثم اردف : – لكن السؤال الذي يؤرقني هو التالي : اذا كان الله غير موجود فإني اتساءل : من ذا الذي يحكم الحياة الانسانية وبشكل عام النظام القائم على الأرض ؟

– الانسان ذاته هو الذي يحكمهما ، – بادر بيزدومني الى الاجابة بصرامة عن هذا السؤال الذي يجب الاعتراف انه لم يكن واضحاً جداً بالنسبة اليه .

ورد المجهول برقة :

– العفو ، لكن كي يستطيع الانسان ان يحكم ، يجب ان تكون لديه بشكل او بآخر خطة دقيقة لفترة معقولة الى حد ما . فاسمحا لي بتوجيه هذا السؤال : كيف يستطيع الانسان ان يحكم اذا كان عاجزاً ليس فقط عن وضع خطة ، اي خطة ، لفترة وجيزة تافهة ، ولنقل لألف سنة قادمة ، بل عن ضمان غده هو ؟ وبالفعل ، – وهنا استدار المجهول نحو برليوز ، – تصور انك ، على سبيل المثال ، اخذت تحكم وتتصرف بالآخرين وبنفسك ، وانك اخذت على وجه العموم ، تستطيب ذلك وفجاة . . . كخ . . . كخ ، يتبين ان عندك ورماً خبيثاً في الرئة . . .

– هنا اطلق ضحكة في تلذذ كانما بعث ذكر الورم الخبيث في الرئة الرضا في نفسه ، – اجل ، ورم خبيث ، – قال مردداً هذه العبارة المجلجلة وهو يزر عينيه كالقط ، – اذاك ينتهي حكمك ، فلا يعود يهمك مصير سوى مصيرك ذاته ، ويأخذ أهلك الأقربون بالكذب عليك . اما انت ، وقد احسست بأن الأمر ليس على

ما يرام ، فتندفع تتردد على الاطباء اولاً ثم على المشعوذين ولربما ذهبت الى البصارات ، مع انك تدرك ان هذا كله دون جدوى . وتاتي النهاية المأساوية : هاهو ذا الذي كان الى فترة وجيزة يحسب انه يحكم شيئاً ما ويسيره يرقد الآن فجاة دون حراك في صندوق خشبي ، واذ يدرك المحيطون به أن لا نفع في هذا الراقد امامهم ، يلقون به في المحرقة . وقد يحدث ما هو اسوأ : يتهيأ احدهم للذهاب الى كيسلوفودسك ، – وهنا ضيق الأجنبي عينيه باتجاه برليوز ، – انه امر تافه كما يبدو ، الا انه لا يستطيع تحقيق حتى هذا الأمر التافه ، لان قدمه تزل به فجاة لسبب لا يدريه فيقع تحت عجلات حافلة كهربائية ! فهل تقول بعد هذا انه هو الذي حكم نفسه على هذا النحو ؟ أليس من الأسلم القول ان شخصاً آخر هو الذي حكمه ؟ – وهنا اطلق المجهول ضحكة غريبة .

احس برليوز ، وهو يستمع الى هذا الحديث المزعج عن الورم والحافلة باهتمام عظيم ، ان بعض الأفكار المقلقة اخذت تؤرق باله : «انه ليس اجنبياً ! – قال في نفسه ، – انه ليس اجنبياً ! . . – انه شخص غريب ، غريب جداً ، ولكن من تراه يكون ؟» .

– انك تريد ان تدخن كما أرى ، – التفت الرجل المجهول الى بيزدومني فجاة ، – اي السجائر تريد ؟

– وهل لديك انواع منها ؟ – سأله الشاعر الذي نفدت سجائره بتجهم .

– أيها تفضل ؟ – كرر المجهول سؤاله .

– ولتكن «ناشا ماركا» ، مثلاً . – اجابه الشاعر بحقد .

اخرج الغريب من جيبه فوراً علبة سجائر وقدمها الى بيزدومني :

– «ناشا ماركا» .

لم يبهت رئيس التحرير والشاعر لوجود سجائر «ناشا ماركا» بالذات في العلبة قدر ما بهتا للعلبة ذاتها . فقد كانت من الذهب الخالص هائلة الحجم لمع على غطائها حين فتحه مثلث من الماس ذو بريق أزرق وأبيض .

هنا فكر الأديبان على نحوين مختلفين : «لا ، انه اجنبي» –



قال برليوز في نفسه ، وقال بيزدومني : «لياخذه الشيطان ، من تراه يكون ؟» .

اخذ الشاعر وصاحب العلبة يدخنان في حين امتنع برليوز الذي لم يكن يدخن عن تناول سيجارة ، فقد قرر في نفسه :

«يجب ان ارد عليه هكذا : اجل ، الانسان فانٍ ، لا احد يماري في ذلك . لكن القضية ان . . .» .

ولم يكد ينطق هذه الكلمات في نفسه حتى قال الأجنبي :

– اجل ، الانسان فانٍ ، لكن هذه ليست سوى نصف مصيبة ، والأسوأ منها انه يموت احياناً ميتة فجائية وهنا سر الأمر ! فهو ، على اي حال ، لا يستطيع ان يقول ما الذي سيفعله مساء اليوم .

«ياله من طرح سخيف للمسالة . . .» – فكر برليوز في سره واردف يقول معترضاً :

– لا ! انك تبالغ هنا . فانا اعرف على نحو دقيق الى حد ما ما سافعله مساء . وبطبيعة الحال ، اذا لم تسقط على راسي في شارع برونايا قرميدة . . .

لكن الرجل المجهول قاطعه بصوت رزين :

– لم يحدث ابداً ان سقطت قرميدة على راس احد هكذا فجاة ، دون سبب . واريد هنا ان اؤكد لك خاصة ان مثل هذا الخطر لا يتهددك على الاطلاق ، فانت ستموت لسبب آخر .

– لعلك تعرف نوع الميتة التي سأموتها بالضبط ؟ – قال برليوز مستفسراً بسخرية واضحة تماماً وهو يشعر انه ينخرط في حديث سخيف بالفعل . – هلا قلت لي ؟

– بكل سرور ، – اجابه الرجل الغريب ، واخذ يقيسه بعينيه كانما يستعد لخياطة بدلة له ، وغمغم بين اسنانه شيئاً من هذا القبيل : «واحد ، اثنان . . . عطارد في البيت الثاني . . . غاب القمر . . . ستة – مصيبة . . . مساء – سبعة . . .» – ثم اعلن بصوت عالٍ ومغتبط : – سيقطع راسك !

حملق بيزدومني في هذا الغريب القليل الحياء في حقد ووحشية ، اما برليوز فساله وهو يصطنع ابتسامة ساخرة :

– من الذي سيقطع راسي ؟ هل هم الأعداء ؟ المتدخلون ؟

– لا ، – اجابه محدثه ، – بل امراة روسية ، كومسومولية .

– هم . . . ، – جمجم برليوز الذي اخذت مزحة هذا الغريب تثيره ، – لكن ، العفو ، هذا امر قليل الاحتمال .

واجابه الأجنبي :

– وانا بدوري اطلب منك العفو ، لكن هذا ما سيكون . آه ، بودي ان اسالك عما تنوي ان تفعله مساء اليوم ، اذا لم يكن في الأمر سر .

– لا يوجد اي سر . الآن ساعرج على بيتي في سادوفايا ، وفي الساعة العاشرة من هذا المساء سيعقد اجتماع في **ماسوليت** وسيكون برناستي .

– لا ، لا يمكن ان يكون هذا مطلقاً ، – اعترض الأجنبي جازماً .

– لماذا ؟

– لأن . . . ، – اجاب الأجنبي ، وتطلع بعينين مزرورتين الى السماء حيث كانت الطيور السود تتشاقى بصمت وقد استشعرت برودة المساء ، – لان انوشكا اشترت زيت عباد الشمس ، ولم تشتره وحسب بل اراقته . وعلى هذا لن يعقد الاجتماع .

وهنا ، كما هو مفهوم تماماً ، خيم الصمت على الجالسين تحت شجرات الزيزفون .

– عفواً ، – اردف برليوز بعد فترة وهو يتطلع الى هذا الأجنبي الذي ينطق بهذه السخافات ، – ما شان زيت عباد الشمس هنا . . . واي انوشكا هذه ؟

وقال ايفان فجاة وكانه قرر ، فيما يبدو ، اعلان الحرب على محدثهما المتطفل :

– اليكم ما شانه ، الم يصدف ، يا حضرة المواطن ، ان كنت في مصحة للأمراض النفسية ؟

– ايفان ! . . . ، – هتف ميخائيل الكسندروفتش بصوت خفيض .

لم يبدُ على الأجنبي اي ضيق ، بل على العكس اطلق ضحكة تفيض بالبهجة والغبطة . هتف ، وهو يضحك ، إنما دون ان يحول عينه غير الضاحكة عن الشاعر :

– بلى ، كنت ، كنت ، واكثر من مرة ! واي مكان لم اكن



فيه ! وان آسف على شيء فعلى انه لم تتح لي هناك فرصة سؤال البروفيسور عن الشيزوفرينيا . فهلا سالته عنها يا ايفان نيقولايفتش !

– ومن اين عرفت اسمي ؟

– عفوك ، يا ايفان نيقولايفتش ، ومن لا يعرفك ، – وهنا اخرج الأجنبي عدد الامس من صحيفة «ليتيراتورنايا غازيتا» من جيبه ، فراى ايفان نيقولايفتش صورته على صفحتها الأولى وتحتها قصيدته . لكن هذه القصيدة التي كانت عنوان مجده وشهرته ، والتي ملات قلبه غبطة بالأمس ، لم تبعث في قلبه اي شعور بالغبطة الآن . فقال وتجهم وجهه :

– استميحك العذر ، الا تستطيع ان تنتظرنا دقيقة ؟ اريد ان اقول كلمتين لرفيقي .

– او ، بكل سرور ، – هتف الغريب ، – المكان رائع هنا تحت اشجار الزيزفون ، وانا ، على اي حال ، لست على عجلة من امري .

– اسمع ما اقوله لك يا ميشا ، – همس الشاعر وهو يسحب برليوز جانباً ، – انه ليس سائحاً اجنبياً بل جاسوس . انه مهاجر روسي تسلل الينا . اطلب منه وثائقه والا هرب . . .

– هل تظن ذلك ؟ – همس برليوز هو الآخر وقد ساوره القلق . بينما ردد في سره : «لكن ايفان على حق ، على حق !» .

– صدقني ، – وشوش ايفان برليوز في أذنه بصوت جشر ، – انه يتظاهر بالغباء لكي يحصل على معلومات . الم تسمع كيف يتكلم الروسية ، – اردف ايفان وهو يتطلع الى الغريب بطرف عينه كي لا يفرّ هذا ، – هيا بنا نوقفه والا هرب . . .

وامسك الشاعر بيد برليوز وجذبه نحو المقعد .

لم يكن الغريب يجلس ، بل يقف الى جانب المقعد وهو يمسك بيده كتيباً ذا غلاف رمادي داكن وظرفاً سميكاً من ورق صقيل وبطاقة زيارة .

– اعذراني لأنني في غمرة النقاش نسيت أن أقدم نفسي . هذه بطاقتي وجواز سفري ودعوة للقدوم الى موسكو للتشاور ، – قال الغريب برزانة وهو يلقي على الأديبين نظرة ثاقبة .

ارتبك الأديبان . «يا للشيطان ، لقد سمع كل شيء !» –

قال برليوز في سره ، وبحركة مهذبة افهم الغريب أن لا ضرورة لابراز وثائقه . لكن الشاعر استطاع ، فيما كان الغريب يمد يده بالوثائق الى برليوز ، ان يقرأ كلمة بروفيسور والحرف الأول من كنيته «ف» مكتوباً مرتين مطبوعين على بطاقة الزيارة بأحرف لاتينية .

– تشرفنا ، – غمغم رئيس التحرير خلال ذلك بارتباك ، بينما اخفى الأجنبي الوثائق في جيبه .

وهكذا عادت الأمور بينهم الى مجاريها فجلسوا على المقعد ثانية .

– أتلقيت الدعوة للحضور الينـــا بصفة مستشـــار يا بروفيسور ؟ – سأله برليوز .

– نعم ، بهذه الصفة .

– الماني ، اليس كذلك ؟ – سأله بيزدومني مستفسراً .

– انا ؟ . . – اعاد البروفيســور السؤال واستغرق في التفكير فجأة ثم اردف : – نعم ، الماني ان شئت . . .

– انك تتكلم الروسية بشكل رائع ، لاحظ بيزدومني .

– أو ، عموماً انا عليم باللغات ، واعرف عدداً كبيراً جداً منها .

– وما هو اختصاصك ؟ – قال برليوز مستفسراً .

– أنا اختصاصي بالسحر الشيطاني .

«غريبة ! . .» – قال ميخائيل الكسندروفتش في سره وهو يحس بشيء يدق صدغه ، لكنه اردف يسأله بصوت متلعثم :

– و . . . و . . . أنت هل دعيت بسبب اختصاصك هذا ؟

– نعم ، بسببه ، – قال البروفيسور مؤكداً واردف يوضح الأمر : – لقد عثر في المكتبة الوطنية عندكم على المخطوطات الأصلية للاختصاصي في السحر الشيطاني هربرت افريلاكسكي من القرن العاشر . والمطلوب مني أن احققها ، اذ اني الاختصاصي الوحيد في العالم في هذا المجال .

– آ – آ ! انت مؤرخ اذن ؟ – سأله برليوز بشعور من الارتياح والاحترام .

– نعم ، مؤرخ ، – أجابـــه العالم مؤكداً واردف قائلا بلا



مناسبة : – اليوم مساء ستحدث قصـــــة مثيرة في بتريرشيي برودي !

وتولت رئيس التحرير والشاعر من جديد دهشة عظيمة ، لكن البروفيسور أومأ اليهما وهمس يقول لهما وقد مالا نحوه :

– ليكن في علمكما ان يسوع وُجدَ .

– بطبيعة الحال ، يابروفيسور ، – أجابه برليوز وهـــو يصطنع ابتسامة ، – نحن نحترم معارفك الواسعة ، انما لنا وجهة نظر اخرى في هذه المسألة .

– لا داعـــي لأي وجهات نظر ! – أجاب البروفيســـور الغريب ، – لقد وُجدَ ، ولا شيء أكثر من ذلك .

– انما لا بد من برهان . . . ، – أخـــذ برليـــوز في الاعتراض .

– لا حاجة الى اية براهين ، – أجابه البروفيسور واردف يقول بصوت خافت وقد اختفت لكنته لسبب لم يدريا : – الأمر في غاية البساطة : في بردة بيضاء . . .

## الفصل الثاني

## بيلاطس البنطي

في بردة بيضاء ذات بطانة حمراء بلون الدم ، وفي مشية فرسان صائتة ، خرج الى رواق الأعمدة المسقوف الذي يصل بين جناحي قصر هيرودس العظيم ، في الصباح الباكر من يوم الرابع عشر من نيسان ، حاكمُ اليهودية بيلاطس البنطي .

أشد ما كان الحاكم يكرهه على وجه هذه الأرض هو رائحة عطر الورد ، وكان كل شيء ينبيء الآن ان امامه يوماً سيئاً ، ذلك ان هذه الرائحة بدأت تطارده من الفجر . كان يبدو له ان أشجار السرو والنخيل في الحديقة هي التي تنفث هذه الرائحة ، وان هذه الرائحة اللعينة تختلط برائحة الجلد والحرس . ومن البيوت الصغيرة وراء القصر ، حيث نزلت الكتيبة الأولى من الفرقة الثانية عشرة المعروفة بالصاعقـــة التي واكبت الحاكـــم الى

أورشليم ، كان يغمر الرواق دخان ينسل اليه عبر الباحة العليا للحديقة ، وكانت تخالط هذا الدخـــان المر ، الذي ينبئ ان الطباخين في الوحدات اخذوا يعدون الغداء ، رائحة عطر الورد الدهنية تلك . ايتها الآلهة ، ايتها الآلهة ، علام تعاقبينني ؟

«نعم . هذا واضح لا شك فيه ! انه هـــو ، هو نفسه ذلك المرض الفظيع الذي لا شفاء منه – الشقيقة . لقـــد عادت من جديد . لا علاج لها ولا مهرب منها . سأحاول الا أحرك رأسي» .

جلس الحاكم على اريكة اعدت له على ارض الرواق المزينة بالفسيفساء قرب الفسقية . جلس دون ان يلتفت الى أحد ومد يده جانباً .

وفي هذه اليد وضع امين السر قصاصة مـــن ورق الرق باحترام . مر الحاكم مروراً سريعاً بطرف عينه عليها دون ان يستطيع مغالبة تكشيرة الألم الذى الم به ، واعاد ورقة الرق الى امين سره وقال له بجهد :

– المتهم الذي من الجليل ؟ هل حوّلت قضيته الى حاكـــم الولاية ؟

– نعم ، أيها الحاكم .

– وماذا كان رأيه ؟

– رفض اعطاء رأي في القضية ، ورفع حكم الموت الذي اصدره المجمع الكبير اليك للمصادقة عليه ، – قال امين السر يشرح الأمر .

– احضروا المتهم ، – قال الحاكم بصوت خفيض ووجنته تختلج .

وللحال دخل اثنان من الجنود الى الشرفة ، ذات الاعمدة ، يقتادان من باحة الحديقة شخصاً في السابعة والعشرين من عمره تقريباً ، ووقفا به امام اريكة الحاكم . كان هذا الشخص يرتدي ثوباً يونانياً * ازرق رثاً ممزقاً ، معصوب الراس بعصابة بيضاء ذات سير حول جبينه ، يداه موثقتان خلف ظهره ، وتحت عينه

---

* ثوب يلقى على الخصر الايمن وينعقـــد على الكتف اليسرى . المترجم .



اليسرى كدمة كبيرة وفي زاوية فمه سحجة تخثر دمها . كان المتهم يرنو الى الحاكم بفضول مشوب بالقلق .

صمت الحاكم قليلاً ، ثم سأله بصوت خفيض بالآرامية :

– انت اذن من كان يحرض الشعب على هـــدم هيكـــل اورشليم ؟

كان الحاكم يجلس اذاك جامداً كالحجر ، لم تتحرك فيه حين نطقه هذه الكلمات سوى شفتيه . ولم يكن على جموده هـذا الا لانه كان يخاف تحريك رأسه الذي كان يؤلمه ألماً فظيعاً .

انحنى الرجل الموثق اليدين الى الأمام قليلاً وشرع يقول :

– صدقني أيها الانسان الطيب . . .

لكن الحاكم قاطعه على الفور دون ان يتحرك فيه عضو ودون ان يرفع صوته :

– أانا الذي تدعوه انساناً طيباً ؟ انك لمخطئ . الجميع في اورشليم يتهامسون فيما بينهم أني وحش ضار ، وهذا صحيح تماماً ، – واردف باللهجة الرتيبة نفسها : – إليّ بقائد المائة قاتل الجرذان .

بدا للجميع ان الدنيا أظلمت على الشرفة عندما مثل مارك قائد المائة الخاصة الملقب «قاتل الجرذان» امام الحاكم .

كان قاتل الجرذان طويل القامة ، اطول كثيراً من أي جندي آخر من جنود الفرقة ، وعريض المنكبين بحيث حجب بجسمـــه الشمس التي لما تعلُ الا قليلاً حجباً تاماً .

وتوجه الحاكم اليه باللاتينية :

– هذا المجرم يدعوني طيباً . اخرجه من هنا دقيقة وافهمه كيف يكلمني . انما اياك وتشويهه .

شيع الجميع مارك قاتل الجرذان الذي أومأ للمعتقل بيده أن يتبعه بأبصارهم ما عدا الحاكم الذى ظل على جموده .

والواقع ان الجميع كانوا يتابعون قاتل الجرذان بأبصارهـم حيثما ظهر لطوله ، أما الذين كانوا يرونه للمرة الأولى فلوجهـه المشوه ايضاً : ذلك أن انفه هشم ذات مرة بضربة مـن هراوة جرمانية .

اصطكت جزمة مارك الثقيلة على الفسيفساء ، وتبعه الرجـل الموثق بخطوات خرس . وران على الرواق صمت كامل لا يجرحه

سوى الحمام يسجع في باحة الحديقة الموازية للشرفة ، والماء يغني اغنية غامضة لطيفة عن الفسقية .

وود الحاكم لو ينهض ويضع صدغه تحت التيار المنبجس من الفسقية ويتجمد في هذا الوضع . لكنه كان يعرف أن هذا ايضاً لن يفيده في شيء .

استل قاتل الجرذان ، بعد أن اقتاد المعتقل من الرواق الى الحديقة ، سوطاً من يدي الجندي الواقف عند قاعدة تمثال برونزي ، ولوح به في رفق في الهواء ، وهوى بـــه على كتفي المعتقل . كانت حركة قائد المائة خفيفة لا مبالية ، لكن الرجل الموثق سقط على الأرض فوراً كانما قطعت قدماه وقد انقطعت انفاسه وشحب لون وجهه وتبلهت عيناه . لكن مارك رفعه بيسر في الهواء بيده اليسرى وحدها كانه كيس فارغ واوقفه على قدميه وقال له بصوت اخن وهو ينطق الكلمات الآرامية بلكنة :

– عليك ان تدعو الحاكم الروماني الوالي وليس اي شيء آخر . عليك ان تقف بخشوع . هل فهمتني أم اضربك ؟

ترنح المعتقل لكنه تمالك نفسه فعاد اليه لونه والتقط انفاسه واجاب بصوت أجش :

– لقد فهمتك . لا تضربني .

وبعد دقيقة عاد الى وقفته السابقة أمام الحاكم .

وتردد صوت باهت ، عليل :

– اسمك ؟

– اسمي ؟ – رد المعتقل على عجل معبراً بكيانه كله عـــن استعداده لاعطاء اجوبة واضحة وعدم اثارة المزيد من السخط .

– اسمي انا أعرفه ، – قال الحاكم بصوت خفيض . – لا تتظاهر بأنك اغبى مما انت فعلاً . اسمك ؟

– يشوع ، – أسرع المعتقل يجيب .

– هل لك لقب تعرف به ؟

– الغا نوصري .

– واين ولدت ؟

– في مدينة هامالا ، – أجاب المعتقل وهو يشير بحركة من راسه الى انه توجد هناك ، فى مكان ما بعيد عن يمينـــه في الشمال مدينة اسمها هامالا .



– ومن هما والداك ؟

– لا اعرف بدقة ، – أجاب المعتقل بحيوية ، – اني لا اذكر والدي . كان يقال لي ان والدي سوري . . .

– اين محل اقامتك الدائمة ؟

– ليس لي محل اقامة دائمة ، – أجاب المعتقل في حياء ، – اني انتقل من مدينة الى أخرى .

– ما قلته يمكن التعبير عنه باختصار ، بكلمة واحدة – متشرد ، – قال الحاكم واردف يسأله : – هل لك أقارب ؟

– ليس لي احد . انا وحيد في هذا العالم .

– هل تعرف القراءة والكتابة ؟

– نعم .

– هل تعرف لغة غير الآرامية ؟

– نعم ، اليونانية .

ارتفع الجفن المتورم قليلاً واستقرت عين الحاكم المغطاة بسحابة من الألم على المعتقل ، بينمـــا ظلت عينـــه الأخرى مغمضة .

وقال بيلاطس باليونانية :

– انت اذن الذي كان يتهيأ لهدم الهيكل وكان يدعو الشعب الى ذلك ؟

وهنا دبت الحياة في المعتقل من جديد ، ولم تعد عيناه تشيان بالذعر ، واجابه باليونانية :

– اني ايها الانسان الطيـــ . . . – وهنا لاح الرعب في عيني المعتقل لكونه كاد يزل في الكلام ، – اني أيها الوالي لم اسع يوماً في حياتي الى هدم الهيكل ، ولم احرض أحداً على هذا العمل الأخرق .

لاحت الدهشة على وجه امين السر الذي كان منكباً على منضدة واطئة يسجل شهادته ، فرفع راسه لكنه عاد فوراً يحنيه فوق ورقة الرق .

وعاد الحاكم يقول بالصوت الرتيب نفسه :

– يفد الى هذه المدينة في العيد أناس مختلفون ، فيهـــم السحرة والمنجمون والعرافون والقتلة ، وفيهم أحياناً الأفاكون .

انت ، مثلا ، افاك ، كذاب . لقد سجل عنك بوضوح انك كنت تحرض على هدم الهيكل . وهذا ما يشهد به الناس .

– هؤلاء الناس الطيبون ، – قال المعتقل واردف على عجل : ايها الوالي ، – ثم تابع : – هؤلاء لم يتعلموا شيئاً وشوشوا كل ما قلته وبوجه عام بدأت اخشى ان تستمر هذه البلبلة وقتاً طويلاً جداً . وذلك كله لأنه لا يسجل ما اقول بأمانة .

وران الصمت . والآن ، كانت العينان المريضتان ترمقان المعتقل بنظرات ثقيلة .

– اكرر ما قلته لك ، وللمرة الأخيرة : كف عن التظاهر بالجنون ايها الوغد ، – قال بيلاطس بصوت رخو ورتيب . – ما سُجل عنك قليل لكنه كاف لشنقك .

– لا ، لا ايها الوالي ، – قال المعتقل وهو يستجمع كل قواه رغبة في اقناعه ، – هناك شخص يتبعني ومعه رق من جلد الماعز يسجل عليه دون انقطاع . وذات مرة اختلست نظرة الى هذا الرق فتملكني الرعب . يقيناً ، ليس فيما سجله هناك شيء مما قلته . فأخذت اتوسل اليه : احرق رقك هذا بحق الله ! لكنه انتزع الرق من يدي وهرب .

– ومن يكون هذا الشخص ؟ – سأله بيلاطس باشمئزاز ومد يده الى صدغه .

– انه متى اللاوي ، – أجاب المعتقل يوضح الأمر بطيب خاطر ، – كان يجمع اتاوة ، وقد التقيت به لأول مرة في طريق في فيفاجيا ، هناك حيث يبرز بستان التين في هيئة زاوية ، وخضت في حديث معه . عاملني في بادئ الأمر بعداء بل انه اهانني ، يعني اعتقد انه يهينني بنعته اياي بالكلب ، – هنا لاحت ابتسامة ساخرة على وجه المعتقل ، – فانا شخصياً لا ارى اي عيب في هذا الحيوان حتى اغضب من هذه الكلمة . . .

توقف امين السر عن التسجيل والقى خلسة على الحاكم هذه المرة لا على المعتقل نظرة دهشة .

– . . . الا انه بدأ يلين بعد ان استمع الي ، – قال يشوع متابعاً حديثه ، – واخيراً رمى أمواله على الطريق وقال انه ذاهب يتجول معي . . .



رسم بيلاطس بوجنة واحدة فقط ابتسامة ساخرة وتمتم وهو يكشر اسنانه الصفر ويستدير بكامل جذعه الى أمين سره :

– اي ، اورشليم ! اي شيء لا تسمعه فيها . هل سمعت : جامع الاتاوة يرمي النقود على قارعة الطريق !

لم يدر أمين السر ماذا يجيب سيده ، فرأى من الواجب أن يكرر ابتسامته .

– ان النقود صارت بغيضة عليه ، – قال يشوع يشرح تصرفات متى اللاوي الغريبة واردف : – ومن تلك اللحظة صار رفيق طريقي . . .

القى الحاكم ، وهو لا يزال مكشرا ، نظرة على المعتقل ثم على الشمس التي لا زالت ترتفع باطراد فوق تماثيل الجياد المنتصبة في ميدان السباق الممتد عن يمينه بعيدا في الأسفل ، وفجأة خطر له ، وهو لا يزال يعاني من كآبة شديدة ، ان ايسر الأمور ان يطرد هذا اللص الغريب من الشرفة بعد ان ينطق كلمة واحدة فقط «اشنقوه !» ، وان يطرد حرسه أيضاً ، ويمضي من الرواق الى داخل القصر فيأمر بتعتيم غرفته ويرتمي على متكئه ويطلب ماء بارداً ، وينادي بصوت حزين كلبه بنغا ويشكو له امر الشقيقة . وفجأة لمعت في راس الحاكم المريض فكرة مغرية – فكرة تناول السم .

نظر الى المعتقل بعينين غائمتين ولزم الصمت حيناً وهو يحاول جاهداً ان يتذكر سبب وقوف هذا المعتقل بوجهه المشوه بالضربات بين يديه في هذا القيظ الأورشليمي الصباحي الذي لا يرحم ، وما هي الاسئلة التي عليه ان يطرحها عليه أيضاً ، هذه الاسئلة التي لا تعني أحداً ولا تهمه .

– متى اللاوي ؟ – سأل المريض بصوت ابح واغمض عينيه .

– أجل ، متى اللاوي ، – تناهى اليه صوت عالٍ يزيد في عذابه .

– ومع هذا ألم تكلم الشعب في السوق عن الهيكل ؟

بدا لبيلاطس ان صوت محدثه يخزه في صدغه وانه يسبب له ألماً لا يوصف . وكان هذا الصوت يقول له :

– قلت ، ايها الوالي ، ان هيكل الايمان القديم سيسقط وسيقوم هيكل الحقيقة الجديد . وما قلت هذا الا ليصبح الأمر أكثر وضوحاً للناس واقرب الى افهامهم .

– ولماذا أثرت البلبلة والاضطراب في نفوس الناس في السوق ، أيها المتشرد ، بكلامك عن الحقيقة التي لا تدركها ؟ ما هي الحقيقة ؟

وهنا قال الحاكم في سره : «ايتها الآلهة ! اني اسأله عن اشياء لا لزوم لها في المحكمة . . . عقلي لم يعد يسعفني . . .» ، ومرة أخرى تراءت أمام عينيه الكأس وفيها سائل قاتم . «السم ، اليّ بالسم !» .

وعاد يسمع الصوت يقول له :

– تتمثل الحقيقة قبل كل شيء في ان راسك يؤلمك ، وهذا الألم من القوة بحيث اخذت من جبنك تفكر في الموت . وانت لست عاجزاً عن الكلام معي وحسب ، بل انه يصعب عليك حتى مجرد النظر الي . فانا الآن جلادك رغماً عني ، وهذا ما يحزنني . بل انك لا تستطيع التفكير في اي شيء ، وجلّ مناك أن يحضر كلبك – المخلوق الوحيد الذي تشعر ببعض التعلق نحوه على ما يبدو . لكن آلامك ستزول بعد حين ويفارقك وجع راسك .

حملق امين السر في المعتقل ولم يكمل كتابة كلماته .

رفع بيلاطس الى المعتقل عينين تفيضان بالعذاب فراى ان الشمس قد ارتفعت في كبد السماء فوق ميدان سباق الخيل وان شعاعها انسلّ الى الرواق واخذ يمتد الى نعل يشوع البالي ، وان يشوع يحاول تجنب الشمس .

وفجأة هب بيلاطس واقفاً عن اريكته وضغط بيديه على راسه ، وقد لاح الرعب على وجهه الحليق الضارب الى الصفرة . لكنه ما لبث ان كبته بجهد ارادي فائق وعاد يتهالك على مقعده .

كان المعتقل في اثناء ذلك يتابع كلامه ، لكن امين السر لم يعد يسجل اي شيء مما يقول ، بل مد رقبته كالاوزة وكل همه الا يفوت اي كلمة من كلمات يشوع .

– هاقد انتهى كل شيء ، – قال المعتقل وهو ينظر الى



بيلاطس بعين العطف ، – وانا في غاية السرور لذلك . وبودي ، ايها الوالي ، لو انصحك بمغادرة القصر لبعض الوقت والتنزه على الاقدام في اي مكان من الضاحية وليكن في البساتين التي على جبل الزيتون . ستهب عاصفة مطرية ، – هنا استدار المعتقل وزرّ عينيه وهو يتطلع الى الشمس ، – ولكن ليس الآن ، بل فيما بعد ، قبيل المساء . هذه النزهة ، فيما أرى ، ستعود عليك بنفع عظيم ، وبودي لو أرافقك فيها . فقد راودتني بعض الأفكار الجديدة التي قد تبدو لك ممتعة ، حسب رأيي ، والتي اود تبادل الراي فيها معك ، لا سيما انك تبدو لي انساناً على قدر كبير من الذكاء .

غشيت صفرة الموت وجه امين السر وسقط الملف من يده على الأرض .

– مصيبتك ايها الوالي ، – تابع الرجل الموثق الذي لم يعد احد يوقفه عن الكلام ، – انك منغلق على نفسك أكثر مما ينبغي ، وفقدت الايمان بالناس نهائياً . ولا بد أن توافقني على أنه لا يجوز ان تقف كل تعلقك على كلب . حياتك تافهة ايها الوالي ، – وهنا سمح الموثق لنفسه بابتسامة .

لم يعد يشغل فكر امين السرّ الآن سوى امر واحد : ايصدق اذنيه ام لا . ولم يكن امامه الا ان يصدق . اذاك حاول ان يتصور ما هو بالضبط الشكل الغريب الذي سيتخذه غضب الحاكم السريع الانفعال بعد سماعه هذه الوقاحة المنقطعة النظير . لكن امين السر عجز ، رغم معرفته الوثيقة بالحاكم ، عن تصور هذا الشكل .

عند ذاك سمع صوت الحاكم الأجش المحبط يقول باللاتينية :

– حلوا وثاقه .

دق احد الجنود المرافقين الأرض برمحه وناوله جندياً آخر ، ثم دنا من المعتقل ونزع الحبل من يديه . اما امين السر فرفع الملف عن الأرض وقرر الا يسجل شيئاً والا يدهش لشيء الى حين .

– قل لي ، – سأله بيلاطس بصوت خافت باليونانية ، – هل انت طبيب عظيم ؟

– لا ، لست طبيباً ، أيها الوالي ، – أجاب المعتقل وهو يفرك بمتعة رسغ يده الأحمر المدعوك والمنتفخ .

اخترم بيلاطس المعتقل بعينين عابستين ، صارمتين وقد زال منهما زوغانهما وتطاير منهما شررهما المعهود .

– لم اسالك بعد ، – قال بيلاطس ، – الا تعرف اللاتينية ياترى ؟

– بلى ، اعرفها .

عاد الى وجنتي بيلاطس الضاربتين الى الصفرة لونهما فساله باللاتينية :

– كيف عرفت اني كنت انوي مناداة كلبي ؟

– هذا امر في غاية البساطة ، – اجابه المعتقل باللاتينية ، – بسطت يدك في الهواء (وهنا كرر المعتقل حركة بيلاطس) كانما كنت تريد ان تطبطب ، وشفتاك . . .

– أجل ، – قال بيلاطس .

وصمتا حيناً ، ثم سأله بيلاطس باليونانية :

– اذن انت طبيب ؟

– لا ، لا ، – اجاب المعتقل سريعاً ، – صدقني ، لست طبيباً .

– حسن . اذا كنت تريد ان تحتفظ بهذا سراً فليكن ، اذ ليس له علاقة مباشرة بموضوعنا . انت تؤكد اذن انك لم تدع الى هدم . . . أو حرق الهيكل أو تقويضه بأي طريقة كانت ؟

– اكرر القول ، ايها الوالي ، اني لم ادع احداً للقيام بأعمال كهذه . أتراني معتوهاً ايها الوالي ؟

– لا ، لا ، انت لا تشبه معتوهاً ، – اجاب الحاكم بصوت خفيض وابتسم ابتسامة غريبة مرعبة ، – اقسم اذن انه لم يحدث شيء من هذا .

– بماذا تريد أن أقسم لك ، – سأل محلول اليدين باندفاع . . .

– وليكن بحياتك ، – اجاب الحاكم – فهذا هو الوقت المناسب لتقسم بها فهي معلقة بشعرة ، وعليك ان تعرف هذا .



– أتعتقد حقاً ، ايها الوالي انك علقتها ؟ اذا كنت تظن ذلك فانت على خطأ مبين .

ارتجف بيلاطس وقال له من بين أسنانه :

– باستطاعتي قطع هذه الشعرة .

– وفي هذا ايضاً انت مخطىء ، – رد عليه المعتقل وهو يشرق بابتسامة ، ويستر وجهه من نور الشمس بيده . – الا ترى ايها الوالي انه لا يستطيع قطع الشعرة الا الذي علقها ؟

– نعم ، نعم ، – اجاب بيلاطس وهو يبتسم ، – لا اشك الآن في ان العاطلين الكسالى في اورشليم تعقبوك خطوة خطوة . لكني لا ادري من علق لسانك في حلقك ، انما الذي علقه علقه جيداً . وبالمناسبة قل لي – اصحيح انك اتيت أورشليم من باب سوز راكباً على حمار تواكبك الدهماء التي كانت تطلق الهتافات لك كما لو انك نبي ؟ – وهنا اشار الحاكم الى الملف .

القى المعتقل على الحاكم نظرة ذهول وقال :

– لا املك حتى حمار ايها الوالي . لقد دخلت اورشليم من باب سوز حقاً ، ولكن على قدمي لا يرافقني الا متى اللاوي ولا يهتف لي أحد ، لأنه لم يكن أحد في اورشليم يعرفني آنذاك .

واردف الحاكم بيلاطس يسأله دون ان يحول نظره عنه :

– الا تعرف أشخاصاً باسم ديسماس ، وهيستاس وفرافان ؟

– لا اعرف هؤلاء الأشخاص الطيبين ، – اجاب المعتقل .

– حقاً ؟ – حقاً .

– والآن قل لي : لماذا تستعمل طول الوقت هذه العبارة «الناس الطيبون» . أتراك تدعو كل الناس طيبين ؟

– نعم كلهم ، فليس هناك أشرار على هذه الأرض .

– لأول مرة أسمع بهذا ، – قال بيلاطس وهو يبتسم ابتسامة ساخرة ، – ربما لا اعرف الحياة الا قليلاً ! – ثم التفت الى امين سره وقال له : «بامكانك الا تواصل التسجيل» مع ان امين سره لم يكن يسجل شيئاً ، ثم استانف موجهاً كلامه الى المعتقل : – لعلك قرات هذا في أحد الكتب اليونانية ؟

– لا ، بل توصلت اليه بعقلي .

– وانت تبشر به ؟

– اجل .

– اليك قائد المائة مارك على سبيل المثال ، لقد لقب قاتل الجرذان ، فهل هو انسان طيب ؟

– نعم ، – اجاب المعتقل ، – غير انه انسان سيء الحظ في الحقيقة . لقد اصبح انساناً قاسي القلب جلفاً بعد ان شوهه الناس الطيبون . بودي لو اعرف من شوهه .

– استطيع ان اخبرك بطيب خاطر ، – رد بيلاطس ، – فقد شهدت ذلك بنفسي . لقد انقض عليه الناس الطيبون كما الكلاب على دب ، واخذ الجرمانيون ينهشونه في رقبته ويديه ورجليه . كانت كتيبة المشاة قد طُوقت تماماً ، ولو لم تقتحم كتيبة الخيالة جناح العدو ، وكنت انا الذي يقودها ، لما اتيح لك ، ايها الفيلسوف ، ان تتحدث الى قاتل الجرذان . ولقد كان هذا في المعركة التي جرت قرب اديستافيزو ، في وادي العذارى .

– حبذا لو استطيع التحدث اليه قليلاً ، – قال المعتقل فجاة كمن يحلم ، – فأنا على يقين انه سيتغير تغيراً كبيراً .

– اعتقد ان قائد الفرقة لن يسرّ كثيراً اذا فكرتَ في التحدث الى اي من ضباطه او جنوده . وعلى اي حال فان هذا لن يحدث لحسن حظنا وحظك ، وساكون انا اول من يهتم بذلك .

في اثناء ذلك اندفعت الى الرواق سنونو ودارت دورة تحت السقف المذهب ، ثم حطت وهي تكاد تلمس بجناحها وجه تمثال نحاسي في المحراب وتوارت خلف تاج احد الأعمدة – ربما راودتها فكرة بناء عش لها هناك .

وفي اثناء طيران السنونوة كانت قد تشكلت في راس الحاكم الذي عاد اليه اشراقه وصفاؤه الصيغة التالية : لقد درس الوالي قضية الفيلسوف المتشرد يشوع الملقب بالغا نوصري ولم ير فيها اي ركن من اركان الجريمة ، وبالذات لم ير اي علاقة بين اعمال يشوع والاضطرابات التي قامت في اورشليم من فترة . لقد تبين له ان هذا الفيلسوف المتشرد مريض نفسياً ، وبالتالي فهو لا يصادق على حكم الموت الصادر عن المجلس الأصغر .



ولكن نظراً لأن اقوال الغا نوصري الجنونية ، الخيالية قد تؤدي الى اضطرابات في اورشليم ، يقرر الحاكم ابعاد يشوع من اورشليم وسجنه في قيصرية ستراتونافا على البحر الأبيض المتوسط ، اى على وجه الضبط هناك حيث محل اقامة الحاكم .

ولم يبق له سوى املاء ما قرر على امين سره .

صفقت السنونو بجناحيها فوق راس الوالي مباشرة ، ومرقت باتجاه جام الفسقية وانطلقت خارجاً . ورفع الحاكم عينيه الى المعتقل فابصر عمود غبارٍ يشب قربه .

– هذا كل ما يتعلق به ؟ – سال بيلاطس امين سره .

– لا ، مع الأسف ، –اجابه امين السر على غير توقع ، وقدم الى بيلاطس قطعة اخرى من الرق .

– وماذا هناك ايضاً ؟ – تساءل بيلاطس وقطب حاجبيه .

وما ان قراها حتى ازداد لون وجهه تغيراً : أهو الدم القاتم تدفق الى رقبته ووجهه أم ان شيئاً ما آخر حدث له ، لكن جلده فقد صفرته ودكن ، بينما بدت عيناه وكانهما غارتا .

ومرة اخرى كان الدم الذي تدفق الى صدغيه واخذ يدقهما دقاً هو السبب على الأرجح ، الا ان شيئاً ما الم ببصره . وهكذا فقد بدا له ان راس المعتقل سبح الى مكان ما لم يتبينه وحل محله راس آخر ، وعلى هذا الراس الأصلع كان اكليل ذهبي قليل الأسنان ، وعلى الجبين قرحة مدورة مطلية بالمرهم تستاكل الجلد ، وكان فمه ادرد ، غائراً ، شفته السفلى متدلية ، نزوية . بدا لبيلاطس ان اعمدة الشرفة الوردية واسطح اورشليم البعيدة ، هناك وراء الحديقة ، قد اختفت ، وان كل شيء حوله غرق في خضرة حدائق كابريا الكثيفة . وشعر انه حدث شيء ما غريب لسمعه . كانما عزفت ابواق في مكان ما بعيد عزفاً خافتاً متوعداً ، وسمع بوضوح تام صوتاً اخن يمط بعجرفة كلماته : «قانون القدح في الذات الملكية . . .»

ومرقت في ذهنه الأفكار قصاراً مفككة ، غريبة : «هلكت !» ثم «هلكنا ! . .» وكانت احداها ، وهي في غاية السخف ، تتعلق بخلود ما لا بد آت (ومع مَنْ) ، لكن هذا الخلود بعث فيه لأمر ما كآبة لا تحتمل .

استجمع بيلاطس كل قواه ، وطرد هذه الرؤيا ، وعاد ببصره الى الشرفة ، فراى امامه عيني المعتقل من جديد .

– اسمع ، ايها الغا نوصري ، – قال الحاكم ، وهو ينظر الى يشوع نظرة غريبة : كان وجه الحاكم غاضباً ، لكن القلق كان يساور عينيه ، – هل قلت شيئاً في وقت من الأوقات في حق قيصر العظيم ؟ اجبني ! هل قلت . . . ام . . . لم تقل ؟

– مط بيلاطس كلمة «لم» اكثر مما يفترض في محكمة ، وضمن نظرته الى يشوع فكرةً بدا انه كان يريد الايحاء له بها .

– قول الحقيقة يسير وعذب ، – اجابه المعتقل .

– لا يهمني أن أعرف ان كنت تطيب نفساً بقول الحقيقة او لا تطيب ، – اجابه بيلاطس بصوت مخنوق ، غاضب ، – انما لا بد لك من قول الحقيقة وستقولها . لكن رز لدى قولها كل كلمة من كلماتك ان كنت لا تريد لنفسك ميتة محتمة وحسب ، بل شنيعة ايضاً .

لا احد يدري ما الذي حدث لحاكم اليهودية ، لكنه سمح لنفسه أن يرفع يده كانما ليتقي اشعة الشمس ويبعث من ورائها كما من وراء ترس نظرة موحية :

– اجبني اذن ، هل تعرف شخصاً من قيريافا اسمه يهوذا ، وماذا قلت له عن قيصر بالضبط ، هذا ان قلت له شيئاً ؟

– حدث هذا على النحو التالي ، – اخذ المعتقل يروي القصة باقبال ، – مساء امس الأول تعرفت قرب الهيكل على شاب قال ان اسمه يهوذا وانه من مدينة قيريافا . وقد دعاني الى بيته في القسم السفلي من المدينة وقراني . . .

– وهل هو انسان طيب ؟ – ساله بيلاطس وقد لمعت نار جهنمية في عينيه .

– طيب ومحب للمعرفة جداً ، – اجاب المعتقل مؤكداً ، – وقد ابدى اهتماماً عظيماً جداً بافكاري واستقبلني بترحاب بالغ . . .

– واشعل القناديل . . . ، – قال بيلاطس بين اسنانه مجارياً المعتقل بينما كانت عيناه تبرقان .

– اجل ، – تابع يشوع وقد اخذته الدهشة قليلاً لسعة



اطلاع الحاكم ، – لقد طلب الي ابداء رايي في سلطة الدولة . فقد كانت هذه المسالة تثير بالغ اهتمامه .

– وماذا قلت له ؟ – ساله بيلاطس ، – ام انك ستجيبني انك نسيت ما قلته ؟ – كان في لهجة بيلاطس وهو يقول جملته الأخيرة هذه ما يوحي بانه فقد اي امل .

– قلت له فيما قلت ان اي سلطة هي قهر يمارس على الانسان ، وانه سياتي يوم لن تكون فيه سلطة لقيصر او اي سلطة اخرى . اذاك ينتقل الانسان الى ملكوت الحقيقة والعدل حيث تنعدم الحاجة الى اي سلطة .

– وماذا ايضاً !

– لا شيء ، – قال المعتقل ، – عندها اقتحم اشخاص البيت فاوثقوني وقادوني الى السجن .

كان أمين السر يرسم بسرعة على الرق ما يسمع محاولاً الا تفوته كلمة .

وارتفع صوت بيلاطس الواهن والمريض يقول :

– لم توجد على الأرض ، ولا توجد ، ولن توجد ابداً بالنسبة الى بني البشر سلطة اعظم واروع من سلطة الامبراطور تيباريوس !

ولسبب ما كان الحاكم ينظر الى أمين سره وحرسه نظرة حقد .

– وانت ايها المجرم المجنون ليس لك ان تتكلم في هذا الأمر ! – وهنا صرخ بيلاطس : – اخلوا الشرفة من الحرس !

– ثم استدار الى امين سره واردف : اتركني وحدي مع المجرم ، فالقضية هنا تمس الدولة .

رفع الحرس رماحهم وخرجوا من الشرفة الى الحديقة يدقون الأرض بنعالهم دقات رتيبة . وتبعهم أمين السر .

وران صمت على الشرفة بعض الوقت لم يقطعه الا سقسقة الماء في الفسقية . راى بيلاطس صحن الماء فوق الماسورة ينتفخ وتتكسر حوافه وتتساقط خيوطاً خيوطاً .

كان المعتقل اول من تكلم :

– أرى انه حلت مصيبة بسبب حديثي مع هذا الشاب

الذي من قيريافا . ولدي شعور داخلي ، ايها الوالي ، بـــان مكروهاً سيصيبه ، واني لارثي له كل الرثاء !

– اظن ، – اجابه الحاكم وهو يطلق ضحكة غريبة ، – انه يوجد على هذه الأرض من هـــو احق برثائك من يهـــوذا القيريافي ، ومن مصيره سيكون اسوا كثيراً من مصير يهوذا ! ولكن قل لي ، هل هذا السفاح مارك قاتـــل الجرذان الذي يقوم بمجازره عن قناعة وببرودة دم ، وهل هؤلاء الناس الذيـــن اوسعوك ضرباً على عظاتك كما ارى ، – هنا اشار الحاكم الى وجه يشوع المشوه ، – وهل هذان اللصان ديسماس وهيستاس اللذان قتلا مع شركائهما اربعة من الجنود ، واخيراً هل هذا الخائن القذر يهوذا اناس طيبون كلهم ؟

– اجل ، – اجابه المعتقل .

– وهل سيأتي ملكوت الحقيقة ؟

– سيأتي ايها الوالي ، – اجابه يشوع بلهجة لا تـــدع مجالاً للشك .

– لـــن يأتي ابداً ! – صرخ بيلاطس فجاة بصوت مرعب جعل يشوع يترنح . مثل هذه الصرخة اطلقها بيلاطس في فرسانه من سنوات بعيدة في وادي العذارى : «قطعوهم ! قطعوهـــم ! العملاق قاتل الجرذان وقع في ايديهم !» . ثم رفع صوته الذي اوهنه اصدار الأوامر ليسمع كلماته من في الحديقة : مجرم ! مجرم ! مجرم !

ثم خفض صوته وسأل :

– يايشوع الغا نوصري ، هل تؤمن باية آلهة ؟

– اللّه واحد ، – اجابه يشوع ، – وانا اؤمن به .

– ابتهل اليه اذن ! ابتهل بحرارة وقوة ! وعلى اي حال ، – هنا وهن صوت بيلاطس وانخفض ، – هذا لن يفيدك . – ثم اردف يسأله بصوت حزين لسبب ما وهو لا يدري ما الـذي ينتابه : – هل لك زوجة ؟

– لا ، انا وحيد .

– ياللمدينة البغيضة ! – غمغم الحاكم فجاة دونما سبب ظاهر ، وهز كتفيه كمن اصابته قشعريرة وفرك يديه كانـــه



يغسلهما واردف : – حقاً ، كان من الأفضل لو انهم قتلوك قبل لقائك بيهوذا القيريافي .

– حبذا لو اطلقت سراحي ايهـــا الوالي ، – قال يشوع يرجوه فجاة وقد ترددت في صوته نبـرة قلق ، – فانا ارى انهم ينوون قتلي .

تشنج وجه بيلاطس ، لكنه قال ليشوع وقد صوب اليه عينين احمر بياضهما من الدم المحتقن في عروقه :

– هل تعتقد ايها التعس ان بامكان حاكم روماني اطـلاق سراح شخص قال ما قلته ؟ ايتهـــا الآلهة ! ايتها الآلهة ! ام تحسب اني على استعداد للحلول مكانك ؟ اني لا اشاطـــرك افكارك . واصغ الي جيداً : اذا تفوهت من هذه الدقيقة بكلمة او حدثت احداً ، فحذار مني ! واكرر : حذار .

– ايها الوالي . . .

– اخرس ! – صرخ بيلاطس وراح يلاحق السنونو التي عادت ترفرف في الشرفة بنظرة حانقة . – الي ! – دوى صوته من جديد .

وعندما عاد امين السر والحرس الى اماكنهم اعلن بيلاطس انه يصادق على حكم الموت الذي اصدره المجلس الأصغر في اجتماعه بحق يشوع الغانوصري . فسجل امين السر ما قالـــه بيلاطس .

بعد دقيقة كان مارك قاتل الجرذان يمثل امام بيـــلاطس الذي امره بتسليم المجرم الى رئيس جهاز الأمـــن السري وتبليغه ضرورة عزل يشوع الغا نوصري عن المحكومين الآخرين ، والايعاز الى افراد الجهاز بعدم التحدث الى يشوع في اي امـــر كان ، وعدم الاجابة على اي سؤال من اسئلته تحت طائلـــة العقوبة القصوى .

وبايماءة من مارك طوق الحرس يشوع وقادوه الى خارج الشرفة .

ثم مثل امام الحاكم شخص وسيم ممشوق القامة ذو لحيـة شقراء تلمع على صدره رؤوسٌ اسودٌ ، وعلى قمة خوذتـــه ريشٌ نسور ، وعلى حمالة سيفه انواط ذهبية ، ينتعل حـذاء بنعل ذي ثلاث طبقات مشدوداً الى ركبته باشرطة ، ويلقي على كتفه الأيسر بردة ارجوانية . ولم يكن هذا الشخص سوى رئيس

الفرقة . فسأله الحاكم عن مكان تواجد كتيبة السيبستيائيين الآن ، فأبلغه ان السيبستيائيين يطوقون الآن الساحة التي أمام ميدان الخيل حيث سيعلن على الشعب الحكم الصادر بحق المجرمين .

اذاك أمر الحاكم رئيس الفرقة بفرز مائتين من الكتيبة الرومانية . احداهما بامرة قاتل الجرذان ومهمتها مرافقة المجرمين والعربات التي تقل أدوات التنفيذ والجلادين لدى توجهها الى الجبل الاقرع ، ثم ضرب طوق على قمته . أما المائة الثانية فعليها التوجه حالاً الى الجبل الاقرع والبدء في تطويقه فوراً . ولهذه الغاية ، أي لتأمين الحماية على الجبل الاقرع ، طلب الحاكم من قائد الفرقة ارسال فوج اسناد من الخيالة هو الالاي السوري .

عندما غادر رئيس الفرقة الشرفة ، أمر الحاكم أمين سره بدعوة رئيس المجمع الكبير واثنين من اعضائه ورئيس حرس هيكل اورشليم الى قصره ، ثم اضاف انه يطلب ترتيب الأمور بحيث يستطيع التحدث على انفراد مع رئيس المجمع قبل اجتماعه بهؤلاء جميعاً .

تم تنفيذ اوامر الحاكم بسرعة ودقة . ولما تكد الشمس التي كانت تكوي هذه الأيام اورشليم بضراوة فائقة تبلغ السمت ، حتى كان الحاكم والقائم بأعمال رئيس المجمع الكبير كاهن يهودية الأعظم يوسف قيافا يلتقيان على باحة الحديقة العليا قرب أسدين ابيضين من المرمر يحرسان الدرج .

كان الهدوء يخيم على الحديقة ، لكن الحاكم سمع بأذنه المرهفة ، وهو يخرج من الرواق الى الباحة العليا للحديقة بأشجار نخيلها المنتصبة على جذوعها الهائلة التي تشبه قوائم الفيل ، حيث انبسطت أمام ناظريه مدينة اورشليم البغيضة الى قلبه كلها بجسورها المعلقة وقلاعها – والأهم من هذا – بتلك الكتلة المرمرية ذات الحراشف الذهبية كحراشف الحرذون التي تقوم مقام السطح والتي اسمها هيكل اورشليم ، سمع الحاكم في مكان ما بعيد في الأسفل حيث يفصل جدار حجري المدرجات الدنيا من حديقة القصر عن ساحة المدينة همهمة خفيفة تعلو أحياناً فيما لا تدري ان كانت انيناً أو صراخاً واهناً رقيقاً .

ادرك الحاكم أنه اجتمع هناك في الساحة حشد هائل من



سكان اورشليم الذين أثارتهم الاضطرابات الأخيرة ، وان هذا الحشد ينتظر بفارغ الصبر اعلان الحكم ، وان باعة الماء ينادون على مائهم .

استهل الحاكم كلامه بدعوة الكاهن الاعظم الى الشرفة للاحتماء بها من هذا القيظ الذي لا يرحم ، لكن قيافا اعتذر بأدب موضحاً أنه لا يستطيع ذلك . اذاك وضع بيلاطس قلنسوته على رأسه الذي اخذ الصلع يدب فيه وبدأ الحديث ، وكان حديثه باليونانية .

قال بيلاطس انه درس قضية يشوع الغا نوصري وصادق على حكم الموت .

وعلى هذا ، هناك ثلاثة من اللصوص حكم عليهم بالاعدام الذي يجب ان ينفذ اليوم وهم ديسماس وهيستاس وفرافان بالاضافة الى يشوع الغا نوصري هذا . الأولان اللذان حاولا تحريض الشعب على عصيان القيصر قبضت عليهما السلطة الرومانية بعد قتال ، ولذا فهما من اختصاص الحاكم وبالتالي لن نبحث أمرهما هنا . أما الآخران ، فرافان والغا نوصري ، فقد القت القبض عليهما السلطة المحلية وحاكمهما المجمع الكبير . وقد نص القانون كما جرى العرف على وجوب اطلاق سراح احدهما تكريماً لعيد الفصح العظيم الذي يحل اليوم .

وعلى هذا يرغب الحاكم في معرفة اي المجرمين ينوي المجمع الكبير اطلاق سراحه : فرافان أم الغا نوصري . خفض قيافا راسه دليل فهمه السؤال واجاب :

– يطلب المجمع الكبير اطلاق سراح فرافان .

كان الحاكم يعرف جيداً ان هذابالضبط سيكون جواب الكاهن الأعظم ، لكن مهمته كانت تقوم على اظهار ان مثل هذا الجواب يثير دهشته .

ولقد فعل بيلاطس هذا بمهارة كبيرة . فقد رفع حاجبيه فوق وجهه المتغطرس ، وثبت في عيني الكاهن الاعظم عينين تملؤهما الدهشة ، وقال بصوت ناعم :

– اعترف بان هذا الجواب اذهلني ، واخشى ان يكون هناك سوء فهم .

ثم راح بيلاطس يشرح موقفه بقوله ان السلطة الرومانية

لا تحاول على الاطلاق التطـــاول على حقوق السلطة الدينيـــة المحلية ، وهذا أمر يعرفه الكاهن الأعظم حق المعرفة ، الا ان في هذه الحالة بالذات ثمة خطأ واضحاً كل الوضوح . والسلطـــة الرومانية معنية ، بطبيعة الحال ، بتقويم هذا الخطأ .

وبالفعل فان جرائم فرّافان والغا نوصري لا يمكن ان تقارن من حيث خطورتها اطلاقاً . فاذا كان الثاني ، وهو انسان معتوه دون شك ، مذنباً لتفوهه بكلام سخيف احدث بلبلة في سكان أورشليم وبعض المناطق الأخرى ، الا ان جرائم الأول أخطـــر بكثير . فبالاضافة الى انه سمح لنفسه بدعوة الشعب صراحة الى العصيان ، قام بقتل الحارس الذي حاول القاء القبض عليه . وعلى هذا ففرّافان اشد خطورة من الغا نوصري بكثير .

وبناء على ما تقدم يطلب الحاكم من الكاهن الأعظم اعادة النظر في قراره واطلاق سراح اقـــل المجرمين خطورة وهـــو الغانوصري دون شك . أليس كذلك ؟

صوب قيافا الى عيني بيلاطس نظرة مباشرة ، وقال لـه بصوت خافت لكنه حازم ان المجمع الكبير درس القضية بامعان وانه يعلم الحاكم للمرة الثانية بنية المجمع اطـــلاق سراح فرافان .

– ماذا تقول ؟ حتى بعد التماسي ؟ التماس الرجل الذي تنطق السلطة الرومانية في شخصه ؟ أعد على سمعي للمـــرة الثالثة ما قلته أيها الكاهن الأعظم .

– وللمرة الثالثة نعلمك بأننا سنطلق سراح فرّافان ، – أجاب قيافا بصوت خافت .

قضي الأمر ، ولم يعد هناك ما يتحدثان فيه . الغا نوصري يرحل الى الأبد ، وليس هناك من يداوي آلام الحاكم الرهيبة ! لا دواء لها الا الموت . انما لم تكن هذه الفكرة هي التي صعقت بيلاطس الآن . فقد كانت تلك الكآبة غير المفهومة التي تولته على الشرفة هي التي تخترق الآن كيانه كله . حاول على الفور تفسيرها ، وكان تفسيره غريباً : بدا له بشكل غامض انه لـــم يقل للغا نوصري كل ما كان يريد قوله ، ولعله لم يسمع من الغا نوصري كل ما قاله .

طرد بيلاطس هذه الفكرة فاختفت في لحظة كما ظهرت .



اختفت لكن الكآبة ظلت تتملكه لا يعرف لها تفسيراً ، ذلك ان الفكرة الأخرى القصيرة التي لمعت في ذهنه كالبرق وانطفـات فوراً فكرة «الخلود . . . جاء الخلود . . .» لم تستطع هـــي ايضاً تفسيرها . خلود مَنْ جاء ؟ لم يدرك الحاكـم ذلك ، لكن فكرة هذا الخلود الملغز جعلته يقشعر من البرد وهو واقف تحت اشعة الشمس الحارقة .

– حسناً ، – قال بيلاطس ، – فليكن ما تريد .

وتلفت مجيلاً بصره فيما حوله فدهش للتغير الذي حصل : اختفت الشجيرة المثقلة بالورود ، واختفت شجرات السرو التي تطوق الباحة العليا للحديقة وشجرة الرمان والتمثـال الأبيض الغارق في الخضرة ، وحتى الخضرة ذاتها اختفت ، واخـذت تموج مكانها أجمة ارجوانية تهتز فيها الاعشاب المائية وتتحرك الى مكان مجهول وبيلاطس نفسه يتحرك معها . كان الآن اشد أنواع الحنق يجرفه وهو يخنقه ويحرقه – حنق العجز .

وتمتم :

– أكاد أختنق ، أكاد اختنق .

وبيده الباردة المبللة بالعرق قطع البكلة التي على ياقـــة البردة فسقطت على الحصى .

– الجو خانق اليوم ، لا بد وان تهب عاصفة رعدية ، – قال قيافا دون ان يرفع عينيه عن وجه الحاكم المحمر ، وهـو يتنبأ بكل الآلام القادمة : «ما أفظع شهر نيسان هذا العام !» .

– لا ، ليس بسبب الجو الخانق ما شعرتُ به ، بل لمـا دار بيننا ياقيافا ، – واردف وهو يضيق عينيه ويبتسم : – احرص على نفسك أيها الكاهن الأعظم !

لمعت عينا الكاهن الأعظم القاتمتان ، لكنه اصطنع الدمثـة ليس أسوأ مما اصطنعها الحاكم من قبل .

– ما الذي أسمعه ، أيها الحاكم ؟ – أجابه قيافا بأنفـــة وهدوء ، – هل تهددني بعد الحكم الذي صدر وصدقته بنفسك ؟ هل هذا معقول ؟ لقد اعتدنا ان ينتقي الحاكم الروماني كلماته قبل ان يقول اي شيء . أخشى ان يكون أحد سمعنا أيهـــا الوالي !

تطلع بيلاطس الى الكاهن الأعظم بعينين ميتتين وكشر عن اسنانه ثم رسم ابتسامة على وجهه :

– ماذا تقول أيها الكاهن الأعظم ؟ من الذي يستطيع ان يسمعنا هذه الساعة هنا ؟ أتراني اشبه هذا المجنون الغر المتسكع الذى سيعدم اليوم ؟ أتحسبني ولداً ياقيافا ؟ اني اعرف ما أقوله واين أقوله . الحديقة محاصرة والقصر محاصر بحيث لا تستطيع فارة النفاذ من أي شق ! وليس الفارة وحدها هي التي لا تستطيع النفاذ ، بل حتى ذاك . . . ما اسمه ؟ ذاك الذي من مدينة قيريافا . بالمناسبة هل تعرف هذا الشخص ، أيها الكاهن الأعظم ؟ أجل . . . لو استطاع هذا الشخص النفاذ الى هنا لندم ندماً مراً ، صدقني . واعلم ، أيها الكاهن الأعظم ، انك لن ترى بعد اليوم راحة او طمأنينة ، لا انت ولا شعبك ، واشار بيلاطس الى مكان ما في البعيد عن يمينه حيث الهيكل يتوهج بنور الشمس فوق مرتفع ، – وأنا ، بيلاطس البنطي الفارس ذو الرمح الذهبي ، أقول لك هذا !

– أعرف ، أعرف ! – أجابه قيافا ذو اللحية السوداء بجراة وبرقت عيناه ، ثم رفع يديه الى العلاء واردف : – يعرف شعب يهودية انك تبغضه أشد البغض وانك ستسبب له الآماً كثيرة ، لكنك لن تستطيع اهلاكه ! الله سيحميه ! وقيصر العظيم سيسمع نداءنا ويحمينا من بيلاطس الفاتك !

– لا ! – صرخ بيلاطس ، ومع كل كلمة كان يقولها كانت نفسه تزداد راحة وطمأنينة اذ لم يعد هناك ما يدعوه الى التظاهر والى تخير الفاظه . – لقد شكوتني الى قيصر أكثر مما ينبغي ، وقد حانت ساعتي الآن ، ياقيافا ! سابعث برسول الآن ليس الى عامل القيصر في انطاكية ، وليس الى روما ، بل الى الامبراطور نفسه في كابريا يعلمه انكم في اورشليم تتسترون على مجرمين عريقين ومعروفين وتحمونهم من الموت . اذاك لن اسقي اورشليم من ماء بركة سليمان كما كنت اريد لكم ولخيركم ! لا ، لن اسقيها ماء ! تذكر كيف اضطررت بسببكم الى نزع التروس التي تحمل العلامة الامبراطورية عن الجدران ، وكيف اضطررت الى تحريك القوات ، بل اضطررت الى المجيء هنا بنفسي لارى ما يجري ! تذكر كلامي أيها الكاهن الأعظم . سترى أكثر من كتيبة



في اورشليم ! نعم ، ستدق ابواب اورشليم فرقة فولميناتوس باكملها وفرسان العرب . اذاك ستسمع نحيباً وبكاء مراً ! وستذكر فرافان الذي انقذته من الموت ، وتندم على انك دفعت الى الموت بفيلسوف يبشر بالسلام .

غشيت وجه الكاهن الأعظم بقع حمر وتلالات عيناه ، لكنه اصطنع ابتسامة كشفت عن اسنانه كما فعل الحاكم من قبل واجاب :

– وهل تصدق انت نفسك أيها الحاكم ما تقوله الآن ؟ لا ، لا تصدقه ! لا ، ليس سلاماً ما حمله الينا في اورشليم مغوي الشعب هذا ، وانت نفسك ، ايها الفارس ، تدرك هذا تمام الادراك . انك لم ترد اطلاق سراحه الا ليزرع البلبلة والشقاق في الشعب ، وينتهك حرمة دينه ويسلط سيوف روما على رقابه ! لكني اقول لك ، أنا كاهن يهودية الأعظم ، اني لن ادع أحداً يدنس ايماننا وسادافع عن شعبي ما دام في عرق ينبض ! هل تسمعني يابيلاطس ؟ – وهنا رفع قيافا يده فيما يشبه الوعيد واردف : – اسمع كلامي ، أيها الحاكم !

وصمت قيافا ، فبدا للحاكم كانه يسمع من جديد هدير البحر تتدحرج امواجه حتى اسوار حديقة هيرودس الكبير . وكان هذا الهدير يتصاعد من الاسفل حتى يبلغ رجلي الحاكم ووجهه . وسمع بيلاطس خلف ظهره فيما وراء جناحي القصر اشارات انذار تطلقها الابواق ، ومئات الأرجل تتحرك في تثاقل ، وصليل حديد ، فادرك على الفور ان فوج المشاة الروماني يتحرك ، بناء على اوامره ، في طريقه الى العرض الذي سيقام قبل تنفيذ حكم الاعدام والذي كثيراً ما اوقع الرعب في قلوب المتمردين واللصوص .

– هل تسمعني يابيلاطس ؟ – كرر الكاهن الأعظم القول بصوت خفيض ، – هل يمكنك حقاً ان تقول ان هذا كله ، – وهنا رفع الكاهن الأعظم يديه فسقطت قلنسوته الداكنة عن راسه ، – من صنع هذا اللص المسكين فرافان ؟

مسح الحاكم بظاهر رسغه جبينه المبلل ، البارد واطرق الى الارض ثم رفع عينين ضاقت حدقتاهما الى السماء ، فاذا الكرة المتوهجة صارت فوق راسه تقريباً ، بينما انكمش ظل قيافا تماماً قرب ذيل الأسد ، وقال بصوت خافت لا مبالٍ :

– يكاد النهار ينتصف ونحن ماخوذان بالحديث ، بينما علينا متابعة ما بدأناه .

وبعبارات اعتذار بالغة التادب دعا بيلاطس رئيس الكهنة الى الجلوس على مقعد في ظل شجرة المنوليا والانتظار ريثما يفرغ من استدعاء الأشخاص الآخرين الضروريين لعقد اجتماع اخير قصير ، ومن اعطاء امر آخر يتعلق بتنفيذ الحكم .

انحنى قيافا في أدب واضعاً يده على قلبه وبقي في الحديقة ، بينما عاد بيلاطس الى الشرفة . وهناك امر امين سره ، الذي كان في انتظاره ، بدعوة رئيس الفرقة وقاضي الكتيبة وكذلك اثنين من اعضاء المجمع الكبير ورئيس حرس الهيكل الذين كانوا ينتظرون الاستدعاء في الاستراحة المستديرة ذات الفسقية التي في المدرج التالي الاسفل للحديقة ، واردف انه سيخرج اليهم عما قليل وتوجه الى داخل القصر .

وفيما كان امين السر يعد لعقد الاجتماع ، كان الحاكم يختلي في غرفة ظليلة تحجب عنها نور الشمس ستائر صفيقة بشخص تغطي نصف وجهه قلنسوة على الرغم من ان اشعة الشمس في هذه الغرفة لا يمكنها ان تضايقه . كان هذا اللقاء قصيراً للغاية . قال له فيه الحاكم بضع كلمات بصوت خافت غادر الشخص بعدها القصر بينما عاد بيلاطس الى الحديقة عبر الرواق .

وهناك اكد في حضور كل الذين رغب في حضورهم وبصوت مهيب وجاف تصديقه على حكم الموت الصادر بحق يشوع الغا نوصري واستطلع رسمياً آراء اعضاء المجمع الكبير في المجرم الذي يرون ابقاءه على قيد الحياة ، واذ أتاه الجواب ان فرافان قال الحاكم :

– حسن جداً ، – ثم امر امين سره بتدوين ذلك في المحضر ، وشدّ بيده على البكلة التي رفعها امين سره من على الرمل وأعلن بصوت مهيب : – هيا !

وعلى الاثر تحرك الحاضرون واخذوا يهبطون الدرج المرمري العريض بين جدارين من الورود العابقة بعطر مخدر ، حتى سور القصر ، فالبوابة المؤدية الى ساحة كبيرة مرصوفة ببلاط املس تبدو في آخرها اعمدة ميدان اورشليم للسباق وتماثيله .

ما ان خرجت هذه الجماعة من الحديقة الى الساحة وارتقت



المنصة الحجرية الفسيحة المطلة عليها ، والقى بيلاطس حوله نظرة من بين جفونه نصف المغمضة حتى تبين له الموقف الذي هو فيه . كانت المسافة التي قطعها للتو ، اي المسافة الممتدة من سور القصر حتى المنصة ، خالية ، اما الميدان امامه فلم ير منه بيلاطس شيئاً – كانت الجماهير قد التهمته . ولولا ثلاثة صفوف من الجنود السيبستيائيين عن يسار بيلاطس وثلاثة صفوف من الجنود الايثوريين عن يمينه لغمرت الجماهير المنصة ذاتها وتلك المساحة الخالية .

وهكذا ارتقى بيلاطس المنصة وهو يضغط بقبضته آلياً البكلة العديمة النفع ويزر عينيه . ولم يكن بيلاطس يزر عينيه لان الشمس كانت تحرقهما ، لا ، بل لأنه لم يكن يريد ، لسبب لا يدركه ، رؤية عصبة المجرمين الذين كان يعرف تماماً انهم يحضرون اثره الى المنصة .

ما ان لاحت البردة البيضاء ذات البطانة الارجوانية على الكتلة الحجرية العائمة فوق هذا البحر البشري حتى صكت سمع بيلاطس الذي لم يكن يرى شيئاً موجة صوتية «ها – ا – ا – . . .» بدأت من مكان ما بعيد قرب ميدان الخيل خافتة ، ضعيفة ثم اشتدت فصارت كالرعد ، ثم عادت الى الهبوط بعد ان استمرت ثواني . «لقد راوني» – قال الحاكم في سره . لكن الموجة الصوتية عادت الى الاشتداد فجأة ، ولما تبلغ ادنى مستوياتها ، لتطغى على الموجة الأولى ، وكما يعلو الزبد موج البحر ، علا الموجة الصوتية الثانية صفير وانات نسائية متفرقة لكنها واضحة في هذا الرعد . «لقد ساقوهم الى المنصة . . . – قال بيلاطس في نفسه ، – وما هذه الانات الا لأنه دعست بعض النسوة عندما اندفع الحشد الى الأمام» .

تريث بعض الوقت لادراكه انه ليس بمقدور اي قوة اجبار الجماهير على الصمت الا بعد ان تفرغ كل ما يجيش في داخلها فتصمت من تلقاء نفسها .

وما ان حانت هذه اللحظة حتى رفع الحاكم يده اليمنى الى العلاء فتلاشى آخر صوت .

اذ ذاك ملأ بيلاطس صدره بقدر ما استطاع من الهواء الساخن وصرخ فانداح صوته المتقطع فوق آلاف الرؤوس :

– باسم الامبراطور قيصر !

وعلى الفور صكت سمعه عدة مرات هتافات حديدية متقطعة – كان الجنود في الكتائب يهتفون بأصوات مخيفة وقد اخذوا يقذفون الحراب والشارات في الهواء :

– عاش قيصر !

رفع بيلاطس راسه ودفنه في قرص الشمس مباشرة فاتقدت تحت جفنيه نيران خضراوان والتهب دماغه وترددت فوق الجماهير كلمات آرامية مبحوحة :

– هناك اربعة مجرمين اعتقلوا في اورشليم لقيامهم بجرائم قتل وتحريض على العصيان وانتهاك للقانون واساءة للمعتقدات وحكم عليهم بالموت المشين – بالصلب على الخشبة ! وهذا الحكم سينفذ الآن على الجبل الاقرع ! واسماء المجرمين هي ديسماس وهيستاس وفرافان والغا نوصري . وهاهم اولاء امامكم .

واشار بيلاطس بيده الى اليمين لا لانه يرى المجرمين ، بل لانه يعرف انهم هناك ، حيث يجب ان يكونوا .

ردت الجماهير بهمهمة طويلة لا تدري اهي همهمة دهشة ام ارتياح . واردف بيلاطس بعد ان خبت الهمهمة :

– لكن لن يعدم منهم الا ثلاثة ، ذلك ان الامبراطور قيصر سيد الكرم والشهامة ، بناء على القوانين والاعراف ، واكراماً لعيد الفصح ، سيعيد الى المجرم الرابع الذي يختاره المجلس الاصغر ، وتوافق عليه السلطة الرومانية ، حياته الحقيرة .

كان بيلاطس يصرخ بهذه الكلمات ويصغي في الوقت نفسه الى الصمت العظيم يحل محل الهمهمة . لم تعد اي نامة او حس تتناهى الى سمعه ، بل كانت لحظة بدا فيها لبيلاطس ان كل شيء حوله تلاشى . ماتت المدينة البغيضة الى قلب بيلاطس وبقي هو وحده منتصباً تلذعه اشعة الشمس العمودية وهو يشخص الى السماء . توقف قليلاً ثم راح يصرخ :

– اسم الذي سيطلق الآن سراحه امام اعينكم . . .

وتوقف مرة اخرى ممسكاً عن ذكر الاسم ليتيقن مما اذا كان قد قال كل شيء ، لانه كان يعلم ان المدينة الميتة ستبعث بعد نطقه اسم صاحب الحظ السعيد ولن يكون بالامكان سماع اي كلمة بعد ذلك .



«هل هذا كل شيء ؟ – همس بيلاطس بصوت غير مسموع في سره ، – نعم ، كل شيء . الاسم !» .

وهتف مطلقاً حرف الراء فوق المدينة الصامتة كقصف الرعد :

– فرافان !

بدا له ان الشمس رنّت وانشقت فوق رأسه وصبت على اذنيه ناراً . وفي هذه النار اصطخب الهدير بالنحيب بالزعيق بالانين بالقهقهة بالصفير .

استدار بيلاطس وعاد ادراجه الى درجات السلم وهو لا يتطلع الا الى المربعات الحجرية المختلفة الالوان تحت قدميه كي لا تزلا . كان يعرف ان قطع النقود البرونزية والتمر تتطاير الآن على المنصة خلف ظهره كالبرد ، وان الناس في هذا الجمهور العاوي يتدافعون ويتسلق الواحد منهم كتفي الآخر ليروا باعينهم المعجزة : انسان في قبضة الموت يتملص من هذه القبضة ! وليروا جنود الفرقة ينزعون الحبل محدثين له دون قصد ألماً حارقاً في يديه المخلعتين عندالتحقيق ، وكيف كان يبتسم مع هذا ابتسامة بلهاء ، مجنونة وهو يقطب جبينه ويتاوه .

كان يعرف ان الحرس في هذا الوقت يقودون الثلاثة الآخرين مكبلي الايدي الى الدرجات الجانبية ليمضوا بهم في الطريق المؤدية الى ضاحية المدينة الغربية حيث الجبل الاقرع . ولم يفتح بيلاطس عينيه الا بعد ان صار خلف المنصة لعلمه انه اصبح الآن في مامن ، اذ لم يعد باستطاعته رؤية المحكومين من مكانه هذا .

كانت اصوات المنادين الحادة والواضحة الآن تختلط بانين الجماهير التي بدات خواطرها تهدا وهي تردد بعضها بالآرامية وبعضها باليونانية كل ما قاله بيلاطس على المنصة . وبالاضافة الى ذلك تناهى الى سمعه وقع متقطع وسريع لحوافر خيول تقترب ، واصوات بوق قصيرة وفرحة يتجاوب معها صفير اطفال ثاقب من سطوح بيوت الشارع المؤدي من السوق الى ميدان الخيل ، وصيحات «احترس !» .

ولم يتوقف الحاكم وقائد الفرقة واميين السر والحرس الا حين لوح لهم الجندي الواقف وحيداً في الرقعة الخالية من الميدان بالشارة التي يحملها بيده .

كان فوج الخيالة ينطلق بخبب متسارع الى الساحة ليقطعها عرضاً الى الزقاق المحاذي للسور الحجري الذي تتسلقه دوالي الكرمة متحاشياً الكتل البشرية وسالكاً اقصر الطرق الى الجبل الاقرع .

عندما حاذى قائد الفوج المنطلق على جواده بيلاطس ، وكان سورياً ، صغيراً كطفل وشديد السمرة كخلاسي ، أطلق صرخة حادة واستل سيفه من غمده . جفل جواده الأدهم الحرون المتصبب عرقاً وشب على قائمتيه . اغمد قائد الآلاي سيفه ، وعاجله بلسعة سوط على نحره كبحت جماحه ، وانطلق به في الزقاق عدواً . وانطلق في اثره الفرسان ، ثلاثة في كل صف ، في سحابة من الغبار ورؤوس حرابهم الخيزرانية الخفيفة تهتز ومرقوا بمحاذاة الحاكم وقد بدت تحت عمائمهم البيضاء وجوههم بأسنانها اللامعة المكشرة بمرح اشد سمرة .

اندفع الفوج الى الزقاق مثيراً وراءه سحابة غبار جاوزت السماء . وكان آخر من عبر الى جانب الحاكم جندي على ظهره بوق يتوهج تحت اشعة الشمس .

تابع الحاكم سيره وهو يغطي وجهه بيده من الغبار ، ويقطب حاجبيه في امتعاض ، حاثاً الخطو الى باب حديقة القصر يتبعه قائد الفرقة وامين السر والحرس .

كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً .

## الفصل الثالث

## البرهان السابع

– أجل ، كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً ، أيها الموقر ايفان نيقولايفتش ، – قال البروفيسور .

مسح الشاعر وجهه بيده كمن يصحو من نومه ، فراى المساء قد اطبق على بتريرشيي برودي .

كان الماء في البركة قد اسود ، ومن الزورق الخفيف المنزلق على صفحته كانت تسمع ضربات مجداف وضحكات امراة . وظهر



اناس على المقاعد في الممرات ، انما ظهروا ، في هذه المرة ايضاً ، على جوانب المربع الثلاثة الأخرى كلها ما عدا الجانب الذي كان يجلس فيه أصحابنا .

بدت السماء فوق موسكو وقد كمد لونها ، وبان القمر في قبتها بدراً ابيض لما يتشرب بصفرة الذهب . صار الجالسون تحت اشجار الزيزفون يتنفسون بيسر اكبر وصارت اصواتهم تتردد على نحو ارق – برقة المساء .

«كيف لم الاحظ انه لفّق في هذه الأثناء قصة كاملة ؟ . . . – فكر بيزدومني ، – فهاهو ذا المساء حلّ ! ام لعل الرجل لم يرو شيئاً من هذا ، بل انا الذي غفوت ورايت هذا كله في الحلم ؟» .

انما علينا ان نفترض ان البروفيسور هو الذي روى عليهما ما روى ، والا كان علينا ان نسلم بان برليوز ايضاً راى في الحلم مثل الذي رآه بيزدومني ، ذلك ان برليوز قال للبروفيسور وهو يتفرس في وجهه :

– قصتك مشوقة جداً ، يابروفيسور ، على الرغم من انها لا تتطابق اطلاقاً وقصص الاناجيل .

– عفواً ، – اجاب البروفيسور وهو يبتسم ابتسامة خفيفة متنازلة ، – قد يُغفر لغيرك هذا القول ، اما انت فالمفروض ان تعرف ان شيئاً مما جاء في الاناجيل لم يحدث ابداً . فاذا ما اخذنا بالاعتماد على الاناجيل مصدراً تاريخياً . . . ، – وهنا رسم ابتسامة خفيفة اخرى ، اما برليوز فشعر بالاحباط ، لان هذا بالضبط ما كان يقوله بالحرف الواحد لبيزدومني وهما في طريقهما من شارع برونايا الى بتريرشيي برودي .

ولاحظ برليوز :

– هذا صحيح ، لكني اخشى الا يستطيع أحد ايضاً اثبات صحة ما رويته .

– لا ! بامكانه اثبات ذلك ! – اجابه البروفيسور بلكنة اعجمية اول الأمر ، وانما بثقة بالغة . وفجاة اشار اليهما اشارة غامضة ان اقتربا .

واقتربا منه ، كل من جانب ، فقال لهما وقد اختفت لكنته ، والشيطان وحده يعلم لم كانت تختفي حيناً وتظهر حيناً آخر :

– القضية ان . . . ، – وهنا تلفت البروفيسور حوله في ذعر وقال همساً ، – القضية اني شخصياً حضرت هذا كله . كنت على الشرفة عند بيلاطس البنطي ، وفي الحديقة ساعة تحدث الى قيافا ، وعلى المنصة وان خفية ، متنكراً كما يقال . انما ارجوكم : لا تتفوهوا أمام احد بكلمة مما قلته ، بل حافظوا عليه في سرية تامة ! . . تس !

ران الصمت . وسأل برليوز وقد تهدج صوته وشحب لونه :

– انت . . . منذ متى انت في موسكو ؟

– في هذه الدقيقة فقط وصلت الى موسكو ، – اجاب البروفيسور في ارتباك . وهنا فقط فطن الصديقان الى التمعن في عينيه كما ينبغي فتيقنا ان عينه اليسرى الخضراء بلهاء تماماً ، أما عينه اليمنى ففارغة ، سوداء وميتة .

«بالفعل توضح كل شيء ! – قال برليوز في سره وقد انتابه الارتباك ، – اما انه اتى الينا الماني مجنون أو انه فقد عقله هنا في بتريرشيي . يالها من قصة !»

اجل ، لقد توضح كل شيء فعلاً : الفطور البالغ الغرابة عند الفيلسوف المرحوم كنط ، وهذا الكلام الأخرق عن زيت عباد الشمس وانوشكا وتنبؤاته عن الراس الذي سيقطع وما الى ذلك – كان البروفيسور مجنوناً .

وعلى الفور فطن برليوز الى ما يجب ان يفعله . فقد القى ظهره الى مسند المقعد الخلفي وغمز بيزدومني من وراء ظهر البروفيسور أن لا يعارضه لكن الشاعر الذي أخذ الذهول منه كل مأخذ لم يفهم هذه الايماءات .

– نعم ، نعم ، نعم ، – اردف برليوز في انفعال ، – على أي حال هذا كله ممكن ! بل انه ممكن جداً بيلاطس البنطي هذا ، والشرفة وما الى ذلك . . . وانت هل وصلت بمفردك او مع عقيلتك ؟

– وحدي ، وحدي ، انا دائماً وحدي ، – اجابه البروفيسور بمرارة .

– واين اغراضك يابروفيسور ؟ – ساله برليوز مستميلاً ، – في «الميتروبول» ؟ اين نزلت ؟

– انا ؟ لم انزل في اي مكان ، – اجاب الالماني المعتوه



وهو يجيل عينه الخضراء في ارجاء بتريرشيي برودي فى كآبة ووحشية .

– كيف ؟ ولكن . . . اين ستسكن اذن ؟

– في شقتك ، – اجابه المجنون دون تكلف فجاة وغمز بعينه .

– بكل . . . بكل سرور ، – غمغم برليوز ، – لكنك حقاً ، لن تشعر بالراحة في بيتي . . . بينما في «الميتروبول» غرف رائعة . . . انه فندق من الدرجة الأولى .

– والشيطان ايضاً غير موجود ؟ – توجه المريض فجاة بالسؤال الى ايفان نيقولايفتش بلهجة مرحة .

– والشيطان ايضاً . . .

– لا تعارضه ، – همس برليوز بصوت كانه خارج من شفتيه فقط وهو يتهافت على نفسه خلف ظهر البروفيسور ويكشر .

– لا وجود لأي شيطان ! – صرخ ايفان نيقولايفتش يقول غير ما يجب ان يقول وقد ضاق ذرعاً بهذا الهراء ، – ما هذا البلاء ! هل كففت عن هذه الهلوسة !

وهنا اطلق المجنون قهقهة طيرت العصفور من الزيزفونة التي فوق راس الجالسين .

– اوه هذا شيء ممتع بالتاكيد ، – اردف البروفيسور وهو لا يزال يهتز من القهقهة ، – ما هذا الذي يجري عندكم ، ما ان تسأل عن شيء حتى يقال لك غير موجود ! – وفجاة كف عن القهقهة اذ انتابته بعدها ، وهذا مفهوم جداً في حالته المرضية ، حالة قصوى مناقضة . فقد ثارت ثائرته وصرخ بصوت صارم : – اذن انت تصر على إنه غير موجود ؟

– هدئ من روعك ، هدئ من روعك يابروفيسور ، – غمغم برليوز خشية اثارة المريض النفسي ، – اجلس دقيقة هنا مع الرفيق بيزدومني ريثما اتصل بالهاتف الذي على ناصية الشارع ، ثم نصحبك الى حيث تريد ، فانت لا تعرف المدينة . . .

يجب الاعتراف ان خطة برليوز كانت محكمة : كان يجب عليه ان يهرع الى أقرب كشك هاتف ويبلغ مكتب الأجانب ان

مستشاراً أجنبياً يجلس الآن في بتريرشيي برودي في حالة غير طبيعية بتاتاً ، وانه من الواجب اتخاذ اجراءات كيلا تحدث قصة مزعجة .

– تتصل بالهاتف ؟ كما تريد ، اتصل ، – قال المريض بصوت حزين موافقاً ، وفجأة طلب اليه بحماسة قائلا : – لكني اتوسل اليك ، ونحن نفترق ، ان تؤمن على الأقل بأن الشيطان موجود ! اني لا اطلب منك اكثر من هذا ! وليكن في علمك انه يوجد على وجوده برهان سابع وهو أصدق البراهين وسيظهر لك على الفور .

– حسناً ، حسناً ، – قال برليوز بود زائف ثم غمز الشاعر الحائر الذي لم تطب له فكرة حراسة هذا الالماني المجنون وانطلق الى المخرج من حديقة بتريرشيي برودي عند التقاء شارع بروناياً وزقاق ايرموليفسكي .

وكأنما تعافى البروفيسور للحال واشرق وجهه فصاح في اثر برليوز :

– ميخائيل الكسندروفتش !

ارتعد برليوز والتفت لكنه طمأن نفسه بأن البروفيسور لا بد ان يعرف اسمه واسم أبيه من بعض الصحف ايضاً . واردف البروفيسور يصيح وقد كور كفيه على شكل بوق :

– هل تريد فآمر بارسال برقية الى عمك في كييف فوراً ؟

ومرة أخرى ارتعدت فرائص برليوز . فمن اين لهذا المجنون ان يعرف بوجود عمه في كييف ؟ هذا الأمر لم تذكره اي صحيفة بالتاكيد . ايه ، افلا يكون بيزدومني على حق ! واذا كانت وثائقه مزورة ؟ آه ، ياله من شخص غريب ! الهاتف ، الهاتف ! يجب الاتصال بالهاتف فوراً ! ولا بد ان يكشفوا حقيقة امره بسرعة !

واذ لم يعد يسمع شيئاً واصل انطلاقه .

وهنا عند المخرج المؤدي الى بروناياً نهض عن المقعد للقاء رئيس التحرير نفس الشخص الذي تشكل امامه اذ ذاك في ضوء الشمس من القيظ المدهن ، لكنه لم يكن الآن من الهواء ، بل عادياً – من لحم ودم . واستطاع برليوز في نور الغسق تبين شاربيه كريش الدجاج وعينيه الصغيرتين الساخرتين نصف



الثملتين وبنطاله ذي المربعات المشدود بحيث ظهر تحته جوربان ابيضان متسخان .

كاد ميخائيل الكسندروفتش ينكص على عقبيه ، لكنه عزى نفسه بالقول انها مطابقة لا معنى لها ، وان لا وقت الآن ليشغل فكره بها .

– هل تبحث عن الباب الدوار ايها المواطن ؟ – سأله الشخص ذو الرسوم المربعة بصوت صادح مفرقع ، – الى هنا من فضلك ! سر امامك راساً تخرج الى حيث يجب أن تخرج ! هل لك بربع ليتر . . . الى مرتل سابق . . . يسترد به عافيته . . . لقاء ارشاده ! – اردف الشخص وهو ينحني وينزع سدارته عن رأسه بخفة .

لم يعر برليوز المرتل السائل المتصنع اهتماماً بل عدا الى الباب الدوار وامسك به فاداره وكاد يخطو فوق السكة الحديدية حين تواثب الى عينه ضوء أبيض واحمر : كانت كلمتان تتوهجان في علبة زجاجية «احذر الترام !» .

وللحال اندفع هذا الترام منعطفاً على خطه الجديد من ايرموليفسكي الى بروناياً . وما ان انعطف ومضى على خطه حتى توهج من داخله بالكهرباء فجأة وعوى وازداد اندفاعه .

وعلى الرغم من وقوف برليوز الحذر في مكان آمن ، قرر العودة الى وراء الحاجز . وضع يده على الباب الدوار وتراجع خطوة . لكن يده زلقت وافلتت ، وانسابت احدى رجليه على البلاطة المنحدرة حتى تتصل بالخط الحديدي ، وكانها تنزلق على جليد ، بينما انقذفت رجله الأخرى الى الأعلى . واندفع برليوز باتجاه السكة الحديدية .

حاول برليوز التشبث باي شيء ، لكنه سقط على ظهره وارتطمت قفاه ارتطاماً خفيفاً بالبلاط . وتمكن في هذه الأثناء من ان يرى في قبة السماء ، ولكن لم يعد يدري الى يمينه أم يساره ، البدر يلمع ذهباً . استطاع برليوز أن ينقلب على جنبه وان يشد في اللحظة نفسها رجليه الى بطنه بحركة عنيفة . وتبين وهو ينقلب وجه سائقة الترام المبيض تماماً من الرعب يندفع نحوه بقوة لا تقاوم ، وعلى راسها عصابة قانية الحمرة . لم تند عن برليوز صرخة ، لكن الشارع حوله ضج كله باصوات

نسائية يائسة . وشدت السائقة المكبح الكهربائي بغتة فكبت الحافلة بمقدمتها على الأرض وارتجت لحظة بعنف فتطاير زجاج النوافذ محدثاً قصفاً ودوياً شديدين . وهنا صرخ شخص ما في دماغ برليوز في يأس : «حقاً ؟ . .» . ومرة اخرى هي الأخيرة لاح القمر لكنه كان الآن متقصفاً كسراً كسراً واطبق الظلام .

وغطت الحافلة برليوز ، فاذا بشيء قاتم مدور يتطاير الى البلاطات المنحدرة قرب الحاجز المشبك لممر بتريرشيي ، ثم ياخذ بالتدحرج عليها والقفز على بلاطات شارع بروناياً .

لم يكن هذا الشيء سوى راس برليوز المقطوع .

## الفصل الرابع

## المطاردة

خبت صيحات النساء الهستيرية وصمتت صفارات الشرطة ونقلت سيارتا صحة المصابين : الأولى جثة برليوز المقطوعة الراس وراسه المقطوع الى معرض الجثث والثانية السائقة الحسناء التي اصابتها شظايا الزجاج المتناثر بجروح ، وازال الكناسون في مراييلهم البيض شظايا الزجاج وطمروا برك الدم بالرمل ، اما ايفان نيقولايفتش فقد تسمر على المقعد الذي سقط عليه دون ان يبلغ الباب الدوار .

حاول النهوض عدة مرات ، لكن قدميه لم تطاوعاه – فقد اصاب بيزدومني ما يشبه الشلل .

ما ان سمع الشاعر اول صرخة حتى اندفع عدواً الى الباب الدوار وراى راس برليوز يتدحرج على الرصيف . لقد جن جنونه مما سمع وراى ، حتى انه وقد هوى على المقعد اخذ يعض يده حتى سال منها الدم . لقد نسي امر الالماني المجنون بطبيعة الحال ، ولم يحاول الا امراً واحداً ان يفهم كيف يمكن لهذا ان يحدث – قبل دقيقة كان يتحدث الى برليوز والآن راسه . . .



كان الناس يتراكضون في الممر قرب الشاعر في اضطراب متصايحين بكلمات لم يع منها ايفان نيقولايفتش شيئاً .

وفجاة التقت امراتان عرضاً قرب بيزدومني فصرخت احداهما ، وهي ذات انف دقيق وراس مكشوف ، تقول للاخرى فوق اذن الشاعر تماماً :

– آنوشكا ، آنوشكانا التي من شارع سادوفايا ! انها فعلتها ! اشترت من البقالية ليتراً من زيت عبّاد الشمس ، ثم هناك عند الباب الدوار سقطت منها القنينة ! لقد لطخت كل تنورتها . . . كم سبت وكم شتمت ! والآخر ، هذا المسكين ، زلقت قدمه وراح على السكة . . .

من كل ما صرخت به المراة لم يعلق بدماغ ايفان نيقولايفتش المختل الا كلمة واحدة : «آنوشكا» . . .

– آنوشكا . . . آنوشكا ؟ – تمتم الشاعر وهو يتطلع حوله في قلق ، – عفواً ، عفواً . . .

بكلمة «آنوشكا» كانت ترتبط كلمات «زيت عباد الشمس» ثم ، ولسبب لا يدريه ، كلمتا «بيلاطس البنطي» . استبعد الشاعر بيلاطس ، واخذ يعقد السلسلة حلقة حلقة بدءاً من كلمة «آنوشكا» . وقد انعقدت له حلقاتها بسرعة فائقة وادت في الحال الى البروفيسور المجنون .

عفواً ! لكنه هو نفسه الذي قال ان الاجتماع لن يعقد ، لان آنوشكا اراقت الزيت . وهاهو ذا لن ينعقد ! واكثر من هذا : قال بصراحة ان امراة ستقطع راس برليوز ؟! نعم ، نعم ، نعم ! لقد كان سائق الترام امراة ؟ ! هذا كله ما عساه يكون ؟ آ ؟

لم يبق في راس الشاعر ذرة شك في ان هذا المستشار الغامض كان يعرف على وجه الدقة ومسبقاً بصورة ما هذه الميتة الشنيعة التي ماتها برليوز . وهنا اخترقت دماغ الشاعر فكرتان . الأولى : «انه ليس مجنوناً على الاطلاق ! والتفكير في هذا سخافة !» والثانية : «الا يكون هو الذي رتّب هذا كله ؟!» .

ولكن ، عفواً ، كيف كان هذا ؟

– اى . . . لا ! هذا ما سنعرفه !

وبجهد كبير تحامل ايفان نيقولايفتش على نفسه ، فهب ناهضاً

من مقعده واندفع عائداً ادراجه الى حيث كان يتحدث الى البروفيسور . ولحسن حظه تبين له ان البروفيسور لم يبرح مكانه .

لقد اضيئت المصابيح في شارع بروناياً ، اما بتريرشيي برودي فانارها البدر الذهبي ، وفي ضوء البدر الغامض دائماً بدا لايفان نيقولايفتش وكان البروفيسور يمسك تحت ابطه بسيف لا عصا .

كان المرتل الدجّال المتقاعد يجلس في المكان نفسه الذي كان ايفان نيقولايفتش نفسه يجلس فيه من برهة . لكن المرتل كان قد وضع الآن نظارة انفية غير لازمة له اطلاقاً ، كما تهيأ لايفان نيقولايفتش بجلاء ، فقد كانت احدى عينيها بزجاجة متشققة والأخرى بدون زجاجة اطلاقاً . وفي هذه الصورة بدا السيد ذو الرسوم المربعة اشد كراهية مما كان حين دل برليوز على الطريق المؤدية الى السكة الحديدية .

وبقلب دبت فيه البرودة دنا ايفان من البروفيسور وتفرس في وجهه فتيقن أن ليس على هذا الوجه ، ولم تكن عليه ابداً علامات الجنون .

وساله بصوت مخنوق :

– اعترف ، من تكون ؟

قطب الأجنبي جبينه ، وتطلع الى الشاعر كأنما يراه لأول مرة وأجاب بجفاء :

– لا تفهم . . . روسي كلام . . .

– انه لا يفهم ! – تدخل المرتل في الحديث من مقعده مع ان احداً لم يطلب اليه توضيح ما قاله الأجنبي .

– لا تتظاهر بالمسكنة ! – قال ايفان متوعداً ، وشعر ان البرد يتسلل الى فم معدته . – قبل فترة وجيزة كنت تتكلم الروسية بطلاقة متناهية . انت لست المانياً ولا بروفيسوراً ! انت قاتل وجاسوس ! أوراقك ! أوراقك ! – صرخ ايفان بغيظ .

عوج البروفيسور الغامض بتفور فمه الأعوج اصلاً وهز كتفيه . .

وتدخل المرتل المقرف ثانية :



– ايها المواطن ، لماذا تزعج السائح على هذا الشكل ! ؟ سيتحاسب حساباً عسيراً على هذا ! – اما البروفيسور المريب فقد اصطنع وجهاً يفيض بالترفع واستدار ومضى مبتعداً .

شعر ايفان انه يفقد صوابه . فتوجه الى المرتل يقول له ونفسه يكاد يتقطع :

– ايه ، أيها المواطن ، ساعدني في الامساك بالمجرم ! من واجبك ان تفعل هذا .

دبت في المرتل حيوية فائقة فهب واقفاً وصرخ :

– من المجرم ؟ اين هو ؟ المجرم الأجنبي ؟ – هنا تلألأت عينا المرتل ببريق البهجة ، – هذا ؟ اذا كان مجرماً فاول ما يجب فعله ان ننادي : والا فر منا . هيا نصرخ معاً . بصوت واحد ! – وهنا فغر المرتل شدقه .

امتثل ايفان الحائر للمرتل الهازل وصرخ : «النجدة» ، لكن المرتل خدعه فلم يصرخ .

لم تأت صرخة ايفان اليتيمة المبحوحة بالنتائج المرجوة . بل ان صبيتين كانتا تمران هناك جفلتا ، وسمع كلمة «سكران !» .

– انت شريكه اذن ؟ – صرخ ايفان وقد تملكه الغضب ، – ما هذا ، هل تسخر مني ؟ دعني !

اندفع ايفان الى اليمين فاذا بالمرتل يندفع معه الى اليمين ! فاندفع الى اليسار فاذا بالسافل يندفع الى اليسار .

– هل تتعثر عند قدمي عمداً ؟ – صرخ ايفان كالوحش – ساسلمك أنت نفسك الى الشرطة !

وحاول ايفان امساك هذا السافل من كمه لكنه اخطأه فاختفى المرتل كان الأرض انشقت عنه وابتلعته . تأوه ايفان والقى نظرة الى البعيد فرأى المجهول البغيض . كان عند المخرج المؤدي الى زقاق بتريرشيي ، ولم يكن وحده ، فقد تمكن المرتل الأكثر من مريب اللحاق به خلال ذلك . ولم يكن هذا كل شيء ، بل انضم اليهما قط ضخم كالخنزير ، أسود كالغراب أو السخام ، ذو شاربين هائلين كشوارب الفرسان ، لا يدري احد من اين وكيف ظهر الى جانبهما . كان الثلاثة يمضون باتجاه زقاق بتريرشيي الا ان الهر كان يمشي على قائمتيه الخلفيتين .

وحث ايفان الخطو اثر هؤلاء الأشرار لكنه سرعان ما اقتنع بأنه سيكون من الصعوبة بمكان اللحاق بهم .

وفي غمضة عين عبر الثلاثي الزقاق وصار في شارع سبيريدونوفكا . ومهما حاول ايفان حث الخطى ، لم تكن المسافة بينه وبينهم تتقلص مقدار شعرة . وما ان ثاب الشاعر الى نفسه حتى وجد نفسه عند بوابة نيكيتسكي . وهنا ساء وضعه اذ بعد زقاق سبيريدونوفكا الهادئ كان الشارع هنا يعج بالناس . اصطدم ايفان بأحد المارة فأمطره هذا سيلاً من الشتائم . زد على ذلك ان العصابة قررت هنا اللجوء الى اسلوب العصابات المفضل – الى التفرق .

قفز المرتل على الماشي الى الباص المنطلق الى ساحة اربات بخفة عظيمة وتوارى عن الأنظار . واذ رأى ايفان انه أضاع أحد الملاحقين ركز اهتمامه على القط فرأى هذا القط الغريب يدنو من سلم عربة الترام «أ» ذات المحرك الواقفة في موقفها ويدفع بوقاحة امرأة أخذت تزعق من ذعرها ، ويتشبث بالدرابزين ، بل يحاول دس فكّة في يد الجابية عبر النافذة المفتوحة بسبب الجو الخانق .

صعق تصرف القط ايفان بحيث جمد في مكانه أمام البقالية في زاوية الشارع ، لكنه صُعق أكثر من تصرف الجابية . فما ان رأت هذه القط ينسل الى الترام حتى أخذت تزعق بغيظ اهتز له جسمها كله :

– ركوب القطط ممنوع ! ممنوع الركوب برفقة القطط ! بس ! انزل والا دعوت الشرطة !

وللحقيقة نقول ان ما اذهل الجابية والركاب لم يكن جوهر الموضوع : فان ينسل قط الى ترام ليس سوى نصف مصيبة ، اما ان يتأهب للدفع !

ولقد تبين ان القط ليس قادراً على الدفع وحسب ، بل انه حيوان منضبط أيضا . فلدى أول زعقة من الجابية أوقف تقدمه وقفز من السلم وجلس على الموقف وهو يمسح شاربيه بالفكة . لكن ما ان شدت الجابية الحبل وتحرك الترام حتى تصرف القط كما يتصرف اي شخص يطرد من ترام لا بدّ له من ركوبه . فقد انتظر حتى مرت أمامه العربات الثلاث كلها



فقفز على القوس الخلفي لآخرها ، وتشبث بقائمته بأنبوب هناك بارز من جدار العربة ومضى موفراً هكذا الفكة على نفسه .

ولانشغال ايفان بهذا القط اللعين كاد يضيع أخطر الثلاثة – البروفيسور . لكن هذا ، لحسن الحظ ، لم يتمكن من التواري . فقد لمح ايفان قبعته الرمادية المستديرة في الزحام في أول شارع بولشايا نيكيتسكايا أو هرتسن . وفي ومضة عين صار ايفان هناك . لكن التوفيق لم يحالفه . حث الشاعر الخطى ، بل انه أخذ يعدو صادماً المارة ، لكنه لم يزدد من البروفيسور قرباً حتى ولو لسنتمتر واحد .

وبهت ايفان رغم شدّة اضطرابه للسرعة الخارقة التي تمت بها المطاردة . فلم تكد تمضي عشرون ثانية حتى كان يقطع شارع نيكيتسكايا الى ساحة اربات التي بهرت عينيه باضوائها . ومضت بضع ثوان أخرى فاذا هو في زقاق عاتم ذي أرصفة ملتوية عثرت قدم ايفان نيقولايفتش عليها فهوى على الأرض ورض ركبته . ومن ثم وجد نفسه من جديد في شارع عريض مضاء – شارع كروبوتكينسكايا ، ثم في زقاق ، ثم في اوستوجينكا فزقاق آخر كئيب ، بشع ، مضاء بأنوار خافتة . هنا بالضبط أضاع ايفان نيقولايفتش نهائياً من كان في مسيس الحاجة اليه . اختفى البروفيسور .

اختلط الحابل بالنابل في رأس ايفان نيقولايفتش ، انما لفترة قصيرة ، ذاك انه تصور أن البروفيسور لا بد ان يكون بالتأكيد في البناية رقم ١٣ ، وفي الشقة ٤٧ حتماً .

مرق ايفان نيقولايفتش من المدخل الخارجي وطار الى الطابق الثاني . وجد الشقة المطلوبة على الفور وأخذ يقرع جرس الباب بالحاح . ولم يطل انتظاره فقد فتحت له فتاة صغيرة في الخامسة من عمرها تقريباً ، ومضت فوراً دون أن تسأل الطارق شيئاً .

في مدخل الشقة الضخم المهمل اهمالاً فظيعاً ، والمضاء بنور خافت من مصباح كربوني صغير جداً تحت سقف عالٍ اسود من الوسخ ، كانت تتدلى على الجدار دراجة دون اطارات ، ويقوم في جانبه صندوق هائل مصفح بالحديد ، وعلى رف فوق المشجب قبعة شتوية تتدلى اذناها الطويلتان الى أسفل . وخلف أحد

الأبواب كان يدوي صوت رجالي غاضب من المذياع بأبيات من الشعر .

لم يشعر ايفـــان نيقولايفتش بأي ارتباك في هذا الوضع الجديد غير المألوف ، بل اندفع على وجهه في الممر وهو يقول لنفسه : «لقد أختبأ في الحمام طبعاً !» . كان الممر مظلماً ، الا أن ايفان نيقولايفتش رأى ، وهو يخبط بين الجدران ، شريطاً خفيفاً من الضوء تحـــت أحد الأبواب ، فتلمس مقبضه وجذبه برفق . سقط الخطاف فوجد ايفان نفسه في الحمام كما توقـــع بالضبط ، وحسب ان الحظ حالفه .

الا ان الحظ لم يحالفه كما كان ينبغي ! نفح وجه ايفـــان دفء مشبع بالرطوبـــة ، وعلى نور جمرات الفحم في المسخـــن استطاع ان يتبين طسوتاً كبيرة معلقة على الجدار ومغطساً ملطخاً كله ببقع سود مخيفة بفعل الميناء المتآكل والمتساقط . وفي هذا المغطس كانت تقف امرأة عارية يغطيها الصابون وتحمـــل ليفة في يدها . زرّت المرأة عينيهـــا في نظرة كليلة الى ايفان المتسلل ، لكنهـــا أخطأت تمييزه في هذه الاضاءة البشعة على الأرجح ، فقالت بصوت خافت مرح :

– كيروشكا ! لا تحاول ! هل جننت ؟ . . فيدور ايفانيتش عائد للحال . هيا من هنا في الحال ! – ولوحت بالليفة صوب ايفان .

كان الإشكال واضحاً ، وسببه ايفان نيقولايفتش بطبيعـــة الحال . لكنه لم يشأ ان يعترف بخطئه ، بل هتف في لهجـــة عتاب : «يالمعاهرة !» ولسبب لم يدركه وجد نفسه في المطبخ . لم يكن في المطبخ أحد ، اللهـــم الا نحو عشرة وابورات كاز مطفأة تقبع صامتة في نصف الظلمة على الموقد ، والا ضوء القمر ينسل شحيحاً من النافذة المغبرة التي لـم تمسح من سنوات لينير زاوية تتدلى فيها ايقونة منسية يعلوها الغبـــار ونسيج العنكبوت ويبرز وراء قفصها الزجاجي طرفا شمعتين من شمعات الأعراس ، وايقونة أخرى أصغر من الورق معلقة تحتها .

لا أحد يدري ما الذي دار برأس ايفان . لكنه ، قبل ان ينطلق الى المدخل الخلفي ، أخذ احدى الشمعتين وكذلك الايقونة الورقية ، وغادر بهما الشقة الغريبة وهو يجمجم بكلمات غير



مفهومة مع شعور بالحيرة مما رآه وعاناه في الحمام ورغبة لاارادية في كشف سر كيروشكا الوقح هذا ، وما اذا لم يكن هو صاحـب القبعة المقيتة ذات الأذنين .

وفي الزقاق الكئيب الخالي تلفت الشاعر حوله يبحث عن الهارب ، لكنه لم يعثر لـــه على اي أثر . اذاك قال ايفان في نفسه جازماً :

– انه على نهر الموسكوفا طبعاً ! هيا !

كان يجب أن يُسأل ايفان نيقولايفتش لماذا يفترض وجود البروفيسور على نهر الموسكوفا بالذات وليس في اي مكان آخر . لكن المصيبة انه لم يكن هناك من يسأله ، فقد كان الزقاق المقيت خالياً من الناس تماماً .

وبعد فترة جد وجيزة كان بالامكان رؤية ايفان نيقولايفتش على درجات رصيف نهر الموسكوفا الغرانيتية .

خلع ايفان ثيابه وعهد بهـــا الى رجل ملتحٍ لطيف المظهر يدخن لفافة قرب قميص طويـــل أبيض ممزق وحذاء بال حلّ رباطه . لوح بيديه كي يتبرد قليلاً ثم قذف بنفسه في الماء . أحس بأنفاسه تنحبس في صدره لشدة برودة الماء ، بل راودته لحظة فكرة انه لن يستطيع الطفو على سطح الماء . لكنه طفا مع ذلك وأخذ يعوم وهو يلهث وينخر ، وقد تكورت عينـــاه من الرعب ، في ماء أسود تفوح منه رائحـــة النفط بين التعرجات المتكسرة لمصابيح الضفة .

وعندما عاد ايفان المبلل يحجل على درجات الملعب الى حيث بقي لباسه بحراسة الملتحي ، تبين له أنهما كلاهما ، اللباس والملتحي نفسه ، اختطفا ولم يبق في المكان الذي ترك فيه كومة ثيابه سوى السروال الداخلي المخطط والقميص الممزق والشمعة والأيقونة الصغيرة وعلبة الثقاب . وبغيظ العاجز لوح ايفـان بقبضته لشخص ما في البعيد متوعداً وارتدى ما تُرك له .

وهنا أخذت فكرتان تؤرقانه : الأولى اختفاء بطاقة عضويته في **الماسوليت** التي لم يكن يفترق عنها أبداً ، والثانية ان كان بامكانه أن يسير في موسكو على هذه الصورة دون عائق ، فهو في السروال الداخلي فقط . . . ولكن ما شأن الناس به ، المهـم الا يحدث اي تعنت لا مبرر له أو تأخير .

قطع ايفان أزرار السروال الداخلي عند الكاحل لعله بذلك يشبه بنطالاً صيفياً ، وتناول الايقونة والشمعة وعلبة الثقاب وانطلق وهو يقول لنفسه :

– الى غريبوييدوف ! انه هناك دون شك .

كانت المدينة قد اخذت تعيش حياتها المسائية . وكانت الشاحنات تنطلق في سحابات من الغبار مصلصلة بسلاسلها وعلى ظهرها يستلقي على الأكياس رجال ببطون مشرئبة الى اعلى . كانت كل النوافذ مشرعة ، وفي كل نافذة من هذه النوافذ كان يشع نور تحت غطاء برتقالي ، ومن كل النوافذ ، ومن كل الأبواب ، ومن كل الاطناف ، من الأسطح والعلالي ، من الأقبية والأفنية كان ينطلق هدير البولونيز من اوبرا «يفغيني اونيغين» مبحوحاً .

وكان لمخاوف ايفان نيقولايفتش ما يبررها تماماً : فقد اخذ المارة يلتفتون اليه ويشيحون بوجوههم . وعلى هذا فقد قرر هجر الشوارع الكبيرة ، والتسلل في الأزقة الضيقة حيث الناس اقل لجاجة ، وحيث احتمالات معاكسة الناس لانسان حاف ومضايقتهم له بأسئلة عن السروال الداخلي الذي لم يرغب في اصرار أن يشبه البنطال اقل .

وكما قرر ايفان فعل . توغل في الشبكة الغامضة من ازقة اربات ، واخذ يتسلل بمحاذاة الجدران وهو ينظر حوله بذعر ويتلفت كل دقيقة ، ويختبئ احياناً في المداخل متحاشياً مفترقات الطرق التي تقوم عليها اضواء المرور والأبواب الأنيقة لدور السفارات .

وعلى طول طريقه الصعب هذا لم يدر لماذا كانت هذه الأوركسترا ، التي تملأ كل مكان والتي يرافقها صوت غليظ ثقيل يغني حبه لتاتيانا ، تعذبه هذا العذاب الذي لا يوصف .

## الفصل الخامس

## . . . وحدث في غريبوييدوف

كان البيت العتيق العاجي اللون يقع بطابقيه الاثنين على البولفار المحلق في عمق حديقة ذابلة يفصلها عن رصيف



البولفار حاجز من الحديد المشبك المنقوش . وكانت الباحة الصغيرة امام البيت مفروشة بالاسفلت . وكانت هذه الباحة تتحول في الشتاء الى كثيب ثلجي تعلوه مجرفة ، وفي الصيف الى مطعم صيفي رائع تعلوه مظلة من القماش القنبي .

وكان هذا البيت يدعى «بيت غريبوييدوف» على أساس أن عمة الكاتب الكسندر سرغييفتش غريبوييدوف كانت تملكه في زمن ما ، حسب ما يقال . لكن هل ملكت حقاً هذا البيت أم لا ، ذلك أمر لا نعرفه بالضبط . بل يُذكر ايضاً انه لم تكن لغريبوييدوف أبداً على ما يبدو اي عمة صاحبة بيت . . . الا انهم هكذا سموا البيت . زد على ذلك ان احد كذابي موسكو كان يدعي ان الكاتب المشهور قرأ لعمته تلك مقاطع من مسرحيته «الشقاء بسبب العقل» وهي مستلقية على الصوفا في القاعة المستديرة ذات الأعمدة التي في الطابق الثاني على وجه الضبط . وعلى أي حال ، الشيطان اعلم – لعله قرأ لها بالفعل . لكن ليس هذا هو المهم !

المهم ان **الماسوليت** الذي كان يقوم على رأسه المسكين ميخائيل الكسندروفتش برليوز قبل حضوره الى بتريرشيي برودي هو الذي يملك هذا البيت في الوقت الراهن .

وعلى غرار اعضاء **الماسوليت** لم يكن احد يدعو البيت «بيت غريبوييدوف» ، بل كان الجميع يقولون ببساطة «غريبوييدوف» : «البارحة امضيت ساعتين عند غريبوييدوف اسعى . . .» . – «وماذا كانت النتيجة ؟» – «ظفرت ببطاقة الى يالطا لمدة شهر» – «برافو !» . او : «اذهب الى برليوز . انه يستقبل اليوم في غريبوييدوف من الرابعة حتى الخامسة . . .» وهكذا دواليك .

استقر **الماسوليت** في غريبوييدوف على نحو لا ابدع منه ولا أريح . كان الداخل الى غريبوييدوف يتعرف من غير قصد أول ما يتعرف على اعلانات الحلقات الرياضية المختلفة ، وعلى صور اعضاء **الماسوليت** الجماعية والفردية المعلقة على جدران الدرج المؤدي الى الطابق الثاني .

وعلى باب الغرفة الأولى في هذا الطابق العلوي كانت تبرز كتابة بخط كبير «مجموعة صيد السمك والاصطياف» والى جانبها مباشرة صورة شبوط عالق بصنارة .

وعلى باب الغرفة رقم ٢ كُتب كلام غير مفهوم تماماً : «رحلة ابداعية ليوم واحد . المراجعة عند م . ف . بودلوجنايا» .

وكان الباب التالي يحمل كتابة موجزة ، لكنها غير مفهومة على الاطلاق : «بيريليغنو» . ثم تأخذ عينا من يزور غريبوييدوف عابرا تزغلان من الكتابات المبرقشة على ابواب الغمة المصنوعة من خشب الجوز : «تسجيل الدور للحصول على ورق عند بوكليفكينا» ، «الصندوق» ، «الحسابات الشخصية لأصحاب السكيتشات» .

واذا ما تيسر للمرء شق الصف الطويل جداً الذي يبدأ تحت ، من غرفة البوابين ، استطاع ان يرى كتابة على باب يتزاحم الناس عنده كل ثانية «قضايا الشقق» .

وبعد «قضايا الشقق» كانت تنبسط امام عيني الزائر يافطة فخمة رسمت عليها صخرة يعدو على قمتها فارس يضع عباءة ويحمل بندقية على كتفه . وتحته قليلاً أشجار نخيل وشرفة ، وعلى الشرفة يجلس شاب تتدلى ذؤابة من شعره ويحمل قلماً بيده ويحدق الى العلاء بعينين جسورتين للغاية . ثم كتابة : «اجازات تفرغ كامل للابداع من اسبوعين (للقصة) وحتى عام واحد (للرواية والثلاثية) ، يالطا ، سووق‌سو ، بوروفويي ، تسيخيدزيوي ، ماخنجوري ، لينينغراد (القصر الشتوي)» . وعند هذا الباب ايضاً كان يقف طابور لكنه ليس ضخماً — نحو مائة وخمسين شخصاً .

تلي ذلك ، وبالتساوق مع منعرجات بيت غريبوييدوف العشوائية — مرتفعاته ومنحدراته ، «ادارة **الماسوليت**» ، «الصناديق رقم ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥» ، «هيئة التحرير» ، «رئيس **الماسوليت**» ، «صالة البليار» ، ثم اقسام فرعية مختلفة واخيراً تلك القاعة اياها ذات الأعمدة حيث كانت الغمة تستمتع بملهاة ابن اخيها العبقري .

وكان كل زائر يجد نفسه في غريبوييدوف يدرك على الفور ، هذا ان لم يكن على غباء مطبق ، مقدار ما ينعم به هؤلاء المحظوظون اعضاء **الماسوليت** من رغد وطيب عيش ، ويبدا الحسد الأسود ينخر قلبه للتو . وللتو ايضاً كان يرفع الى السماء عتاباً مراً على انها لم تنعم عليه منذ ولادته بموهبة



ادبية ، اذ بدونها ، وهذا طبيعي ، من العبث ان يحلم بامتلاك بطاقة عضوية الماسوليت البنية ذات الكنار الذهبي المريض التي تفوح منها رائحة جلد ثمين — تلك البطاقة التي تعرفها موسكو كلها .

من ذا الذي بامكانه قول كلمة دفاع عن الحسد ؟ انه عاطفة من نوع ردي ، لكن علينا ، مع هذا ، ان نتفهم وضع الزائر . فما رآه في الطابق الثاني من بيت الغمة لم يكن كل شيء ، بل ابعد من ان يكون كل شيء . فالطابق السفلي من بيت الغمة كان مشغولاً كله بمطعم واي مطعم ! اعتبر ، والحق يقال ، احسن مطعم في موسكو . وما ذلك لأن المطعم كان يمتد قاعتين كبيرتين ذواتي سقفين مدببين مزخرفين بجياد ليلكية ذات اعراف اشورية ، او لانه كان على كل طاولة مصباح مغطى بشال ، او لانه لم يكن باستطاعة كل من هب ودب دخوله وحسب ، بل لأنه كان بنوعية اطباقه يبذ اي مطعم في موسكو ، ولأن هذه الاطباق كانت تقدم بانسب الأسعار ، اسعار لا تثقل كاهل زبائنه .

وعلى هذا ليس في هذا الحديث ، مثلاً ، والذي سمعه ذات مرة كاتب هذه السطور الصادقة كل الصدق قرب الحاجز الحديدي المشبك من غريبوييدوف ما يثير الاستغراب :

— اين تتعشى اليوم يا أمفروسي ؟

— ما هذا السؤال ، ياعزيزي فوكا ، هنا طبعاً ! لقد اسر لي اليوم ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش انه سيقدم طبق من سمك الصندر «أ نتوريل» ! شيء رائع !

— تعرف كيف تعيش ، يا أمفروسي ! — اجاب فوكا الهزيل المهمل المنظر ، المغطى الرقبة بالدمل الكبير ، أمفروسي الشاعر العملاق القامة ذا الشفتين الورديتين والشعر الذهبي والخدين المنتفخين متنهداً .

— ليست هذه شطارة خاصة ، — رد أمفروسي معترضاً ، — بل رغبة طبيعية في العيش عيشة انسانية . تريد ان تقول انه يمكن ان نجد سمك الصندر في «الكوليزي» ايضاً . لكن قيمة طبق سمك الصندر هناك ثلاثة عشر روبلاً وخمسة عشر كوبيكاً ، بينما هي عندنا هنا خمسة روبلات وخمسون كوبيكاً ! زد على ذلك ان سمك الصندر في «الكوليزي» بانت من ثلاثة أيام ، وزد

على هذا وذاك انك لا تستطيع ان تضمن الا يرمى أول شاب ينسل من زقاق تياترالني عنقوداً من العنب في سحنتك . لا ، انا قطعاً ضد «الكوليزي» ، – كان صوت أمفروسي المتانق في الاكل والشراب يدوي في البولفار كلـــه . – لا تحاول اقناعي يافوكا .

– اني لا احاول اقناعك يا امفروسي ، – اجابه فوكـا بصوت كالصاصاة . – بامكاني ان اتعشى في البيت .

– كما تشاء ، اجاب امفروسي بنفس صوته الداوي . – اتصور زوجتك وهي تحـاول وضع طبق من سمك الصنـدر «أ نتوريل» في طنجرة في المطبخ العمومي ! هي – هي –هي ! . . اورفوار فوكا ، – واسرع وهو يدندن الى الشرفة تحت المظلة الواقية .

أو – أو – أو . . . نعم كان هذا كله واكثر ! . . ومـا اشد ما يذكر القدامى من سكان موسكو غريبوييدوف الشهير ! فما طبق سمك الصندر المسلوق هذا ! انه ليس سوى تفاهة ايها العزيز امفروسي ! والحفش ، الحفش الصغير في الحلـة الفضية ، الحفش قطعاً قطعاً محشـاة برقاب السرطان النهري والكافيار الطازج ؟ والبيض «كوكوت» بعصيدة الفطر في فناجين ؟ ولحم الشحرور الم يعجبك ؟ الشحرور بالكماة ؟ والسمانى على الطريقة الجنويّة ؟ وكل هذا بعشرة روبلات وخمسين كوبيكاً ! والجاز والخدمة المهذبة ! وصحن حساء «البرينتانيير» المذهب على سماط ناصع على الشرفة في ظـل دوالي الكرمة المتشابكة في شهر تموز حينما تكون اسرتك كلها في الفيلا وانت في المدينة بسبب شؤون ادبية عاجلة ؟ هل تذكر يا امفروسي ؟ ما اسخف هذا السؤال ! فانا ارى من شفتيك انك تذكر . فما اطباق سمك الصندر واللور ! والشنقب والبكاشين ودجاجة الغابـة ودجاجة الارض في اوانهـــا والسمانى ! ومـــاء النارزان يقرقر في الحلق ؟ ! لكن كفاك ، يا قارئي ، اخذت تشرد ! فهيا معي ! . .

في منتصف الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم الذي قتل فيه برليوز في بتريرشيي برودي ، لـم تكن تضيء في الطابق العلوي الا غرفة واحدة . وفي هذه الغرفة التقى اثنا عشر اديباً



للاجتماع الموعود . كانوا ينتظرون قدوم ميخائيل الكسندروفتش ، وكان الانتظار بدأ يرهقهم .

كانوا يجلسون على الكراسي وعلى الطاولات ، بل حتى على رفي النافذتين في مكتب ادارة **الماسوليت** ، وكانوا يعانون معاناة حقيقية من الجو الخانق . فلـم تكن اي نسمة منعشة تنفذ الى الغرفة من النافذتين المشرعتين ، بل كانت موسكو تنفث القيظ الذي اختزنته في اسفلتها طول النهار ، وكان واضحاً ان الليل لن يخفف من حدة هذا الجو الخانق . وكانت رائحـة البصل تهب عليهم من قبو بيت العمة حيث يعمل مطبخ المطعم . كانوا جميعهم يريدون أن يبلوا ريقهم ، وكانوا كلهـم متوتري الاعصاب ، ساخطين .

سحب بيسكودنيكـوف ، وهو كاتب قصص قصيرة رائجة هادئ ، لائق الملبس وذو عينين يقظتين لكنهما في الوقت نفسه لا تستقران على شيء ، ساعته . كان العقرب يزحف نحو الحادية عشرة . نقر بيسكودنيكوف على ميناء الساعة باصبعه وأراه جاره الشاعر دفوبراتسكي الذي كان يجلس على الطاولـة ويزرجح قدميه في حذائهما الأصفر ذى النعل المطاطي من مللـه .

– ومع هذا . . . ، – جمجم دفوبراتسكي .

–لا بد ان الرجل تاخر في كلازما ، – ردّت بصوت غليظ نستاسيا لوكينيشنا نيبريمينوفـا ، وهي يتيمة أب من تجار موسكو اصبحت فيما بعد كاتبة تؤلف قصصاً عن المعارك البحرية تحت اسم مستعار «الملاح جورج» .

– العفو ! ، – تدخل كاتب الاسكيتشات الشعبية زاغريفوف بجراة في الحديث . – وانا ايضاً بودي لو اشرب قدحاً مـن الشاي على الشرفة بدلاً من ان اجلس هنا وانسلق . الاجتماع في العاشرة اليس كذلك ؟

– الجو لطيف الآن في كلازما ، – قالت «الملاح جورج» ، التي كانت تعرف تماماً ان قرية بيريليغنو حيث الفيلات العائدة **لماسوليت** تقع على ضفة نهر كلازما موضع وجع بالنسبة للجميع ، كأنما لتزيد من برم الحاضرين . – لا بد ان الحساسين تغرد الآن هناك . وانا شخصياً أقبل على العمل على نحو افضل في الضاحية ولاسيما في الربيع .

– للعام الثالث على التوالي وأنا أسدد الاشتراك المطلوب كيما استطيع ارسال زوجتي المصابة بتضخم الغدة الدرقية الى هذه الجنة ، ومع هذا لم تلح حتى الآن بارقة أمل بين الأمواج ،

– قال الكاتب القصصي ايرونيم بوبريخين بسخرية ومرارة .

– هـذا يتوقف على صاحب الحظ ! . . . ، – هدر صوت الناقد أبابكوف من رف النافذة .

تلألأت عينا «الملاح جورج» الصغيرتان بالغبطة ، وقالت وهي تحاول تلطيف صوتها الغليظ :

– لا داعي للحسد أيها الرفاق . ليس هناك سوى اثنتين وعشرين فيلا ، والآن يجري بناء سبع فقط ، بينما نحن ثلاثة آلاف في **الماسوليت** .

– ثلاثة آلاف ومائة واحد عشر ، – تدخل أحدهم من الزاوية مصححاً .

–أرأيت ! – تابعت «الملاح» . – مـا العمل اذن ؟ من الطبيعي ان يحصل على الفيلات أكثرنا موهبة . . .

– الجنرالات ! – زج كاتب السيناريو غلوخاريوف نفسه في خضم المشاحنة زجاً .

تظاهر بيسكودنيكوف بالتثاؤب وغادر الغرفة .

– وحده في خمس غرف في بيريليغنو ، – قال في اثـره غلوخاريوف .

– ولافروفيتش وحده في ست غرف ، – صرخ دينيسكين ، – وغرفة الطعام عنده من خشب البلوط !

– اي ، ليس هذا موضوعنـا الآن ، – هدر ابابكوف ، – بل ان الثانية عشرة انتصفت .

وتعالى اللغط والصخب فيما بدا نوعاً من التمرد والعصيان . واخذوا يهتفون الى بيريليغنو البغيضة ، فلم يقعوا على الفيلا المطلوبة ، بل على فيلا لافروفيتش . قيل لهم انه خرج الى ضفة النهر فتعكر مزاجهم تماماً . ثم هتفوا هكذا – كيفما اتفق الى جمعية الأدب على الرقم الاضافي ٩٣٠ ، فلم يعثروا هناك على أحد بطبيعة الحال .

– كان بوسعه ان يهتف ! – صرخ دينيسكين وغلوخاريوف وكفانت .



آه ، عبثاً كانوا يصرخون : اذ لـم يكن بوسع ميخائيل الكسندروفتش ان يهتف الى اي مكان كان . فبعيداً ، بعيداً عن غريبوييدوف ، وفي قاعة ضخمة تنيرها مصابيح بقوة ألف شمعة كان يتمدد على ثلاث مناضد من الزنك ما كان الى وقت قريب ميخائيل الكسندروفتش .

كانت على المنضدة الأولى جثـة برليوز العارية التي تخثر الدم عليها ويده المهشمـة وقفصه الصدري الممزق ، وعلى الثانيـة رأسه بأسنانه الأماميـة المحطمة وعينيه المفتوحتين المتعكرتين اللتين لم يُخفِهما الضوء الجارح ، وعلى الثالثة كومة من الخرق الخشنة .

وكان يقف الى جانب المقطوع الرأس ممثل الطب الشرعي وهو بروفسور في الباثولوجيا التشريحيـة ، ومساعده المشرح ، وممثلو التحقيق ، ونائب ميخائيل الكسندروفتش برليوز في رئاسة **الماسوليت** الأديب جيلدييبين الذي استدعي بالهاتف من قرب زوجته المريضة .

كانت قد وصلت سيارة الى بيت جيلدييبين فحملته مع ممثلي التحقيق (وكانت الساعة تقارب منتصف الليل) الى شقة القتيل اولاً حيث تم ختم اوراقه ، ثم الى معرض الجثث .

وكان الواقفون الآن الى جانب رفات المرحوم يتشـاورون فيما الأفضل فعله : هل يخيطون الرأس المقطوع الى الرقبة أو يعرضون جثمانه في قاعة غريبوييدوف بعد ان يغطوا القتيل حتى ذقنه تغطية محكمة بغطاء أسود ؟

اجل ، لم يكن بوسع ميخائيل الكسندروفتش ان يهتف الى اي مكان ، وعبثاً كان دينيسكين ، وغلوخاريوف وكفانت مـع بيسكودنيكوف يتصايحون ويسخطون . ففي منتصف الليل تماماً غادر الأدباء الاثنا عشر الطابق العلوي ونزلوا الى المطعم . وهنا عادوا فذكـروا من جديد ميخائيـل الكسندروفتش بالسوء في سرهم ، اذ كانت كل الطاولات التي على الشرفة مشغولة بطبيعة الحال ، مما اضطرهـم الى الجلوس للعشاء في هاتين القاعتين الجميلتين حقاً انما الخانقتين .

وفي الثانية عشرة تماماً قصف في القاعة الأولى شيء ما وصوح وتناثر وتقافز ، وللحال تعالى على ايقاعه صوت رجالي حاد يصرخ

باندفاع : «هليلويا !» . كان هذا الجاز المشهور التابع لبيت غريبويبدوف . بدا كان الوجوه المتصببة بالعرق اشرقت ، والجياد المرسومة على السقف دبت فيها الحياة ، ونور المصابيح ازداد وهجاً ، وفجاة كانما افلتت كلا القاعتين ثم الشرفة من عقالها فاخذت ترقص .

رقص غلوخاريوف مع الشاعرة تمارا بولوميسيتس ، ورقص كفانت ، ورقص الروائي جوكولوف مع ممثلة سينمائية في فستان اصفر . ورقص دراغونسكي وتشيردكتشي ، ودينيسكين الضئيل مع العملاقة «الملاح جورج» ، ورقصت المهندسة المعمارية الحسناء سيميكينا-غال وقد تشبث بها مجهول في بنطال كتاني ابيض . رقص اعضاء **الماسوليت** وضيوفهم ، موسكوفيين وغير موسكوفيين ، الكاتب ايوهان من كرونشتات ، وشخص من روستوف يظهر انه مخرج اسمه فيتيا كوفتيك ، على خده قوبة ليلكية كبيرة . رقص ابرز ممثلي جمعية الشعر في **ماسوليت** اي بافيانوف وبوغوخولسكي وسلادكي ، وشبيتشكين واديلفينا بوزدياك ، وشبان مجهولو العمل بشعرهم المسرح على طريقة «بوكس» واكتافهم المبطنة بالقطن ، ورقص كهل متقدم في السن علقت في لحيته ريشة من البصل الاخضر وكانت تراقصه عانس كهلة في فستان قصير مكرمش من الحرير البرتقالي امتص عافيتها فقر الدم .

وكان الندل المتصببون عرقاً يحملون كؤوس البيرة المتعرقة فوق رؤوسهم ويصرخون باصوات مبحوحة تشي بالحقد : «عفواً ، ايها المواطن !» . وفي مكان ما كان صوت احدهم يصدر تعليماته بالبوق : «كباب واحد ! قدحان من الفودكا ! حساء بولوني باللحم !» ولم يعد الصوت الحاد يغني ، بل صار يعوي : «هليلويا !» . وكانت قرقعة الأواني التي كانت الغسالات يدفعنها الى المطبخ على مستوى مائل تطغي على قرقعة الصنوج الذهبية في الجاز . وبكلمة كان الجحيم .

وفي منتصف الليل كانت في الجحيم رؤيا . فقد خرج الى الشرفة رجل وسيم يرتدي فراكاً ، ذو عينين سوداوين ولحية تحاكي الخنجر ، وأجال في ارجاء مملكته نظرة جليلة . يقول الصوفيون انه في وقت من الأوقات لم يكن هذا الرجل الوسيم



يرتدي فراكاً ، بل كان يتمنطق بسير عريض من الجلد تتدلى منه مقابض مسدسات ، وكان شعره الذي بلون جناح الغراب مشدوداً بمنديل من الحرير الأحمر ، وكانت سفينة بصاريتين تمخر البحر الكاريبي تحت امرته وهي تحمل علماً أسود رسم عليه راس آدم .

لكن لا ، لا ! كذب الصوفيون الغاوون ، فليس على هذه الارض شيء اسمه البحر الكاريبي ، ولا يمخر عبابه اي قراصنة جسورين ولا تطاردهم فيه اي سفن حربية ، ولا ينتشر فوق موجه اي دخان مدافع . لا شيء هناك ، ولم يوجد شيء ! أما هنا فهاك شجرة الزيزفون الذاوية ، وهاك الحاجز الحديدي المشبك وبعده البولفار . . . كلها موجودة . . . والجليد الذي يذوب في الاناء ، وتلكما العينان الشبيهتان بعيني الثور والمحتقنتان بالدم هناك وراء الطاولة المجاورة . . . شيء مرعب ، مرعب . . . ايتها الآلهة ، ايتها الآلهة ، الي بالسم ، بالسم ! . .

وفجاة رفت وراء الطاولة كلمة : «برليوز ! !» . وفجاة خار صوت الجاز وسكن كانما احدهم لكمه بقبضته . «ماذا ، ماذا ، ماذا ، ماذا ؟ ! !» . — «برليوز ! ! !» . واخذوا يثبون من مقاعدهم وهم يتصايحون . . .

أجل . طغت موجة من الحزن لدى سماعهم بهذا الخبر المريع عن ميخائيل الكسندروفتش . احدهم صار يسعى ويصرخ انه من الضروري للحال وقبل ان يغادر اي كان مكانه ان يكتبوا برقية جماعية ويرسلوها على الفور .

لكننا نتساءل : اي برقية هذه والى اين ؟ ولماذا نرسلها ؟ وبالفعل ، الى اين ؟ وما حاجة من قفاه المفرطح يضغط الآن بين يدي المشرح المطاطيتين ، ومَنْ رقبته يخزها الآن البروفيسور بابر معقوفة ، الى برقية ، اي برقية ؟ لقد قتل ، وليست هناك حاجة الى اي برقية . انتهى كل شيء ، فتعالوا لا نثقل على مصلحة البرق .

أجل ، قتل ، قتل . . . لكننا نحن لا زلنا أحياء !

أجل . طغت موجة من الحزن ، وظلت تطغى وتطغى ثم أخذت تنحسر . كان احدهم قد عاد الى طاولته ، وتناول قليلاً من الفودكا واكل — خلسة اول الأمر ثم على المكشوف . وبالفعل

هل نترك أضلاع الدجاج تضيع منا ؟ وكيف لنا ان نمد يد العون الى ميخائيل الكسندروفتش ؟ هل بأن نبيت على الطوى ؟ لكننا احياء ، احياء لا زلنا !

وبالطبع اقفل البيانو بالمفتاح وتفرق اعضاء فرقة الجاز ، بينما هرع بعض الصحفيين الى صحفهم ليكتبوا مقالات التأبين في برليوز . وسرعان ما عرف ان جيلديبين وصل من معرض الجثث ، واخذ مكانه في مكتب المرحوم في الطابق العلوي . وللحال سرت في الحاضرين همهمة بأنه سيحل محل برليوز . استدعى جيلديبين الى مكتبه من المطعم اعضاء الادارة الاثني عشر كلهم ، وباشروا على الفور ، وفي مكتب برليوز اياه ، لمناقشة الامور العاجلة . وكانت هذه الامور تتعلق بترتيب قاعة غريبويبدوف ذات الاعمدة وبنقل الجثمان من المشرحة الى هذه القاعة ، وبكيفية افساح المجال أمام الجمهور لالقاء نظرة الوداع الأخيرة عليه ، وباشياء اخرى تتصل بهذا الحدث الأليم .

وعاد المطعم يعيش حياته الليلية المالوفة ، وكان بالامكان ان يعيشها حتى موعد الاغلاق أي حتى الرابعة صباحاً لو لم يحدث شيء خارق تماماً ذهل له رواد المطعم أشد مما ذهلوا لنبأ مصرع برليوز .

كان الحوذية الساهرون عند بوابة بيت غريبويبدوف أول من استشعر القلق والاضطراب . وقد سُمع احدهم ينهض من مقعده ويصرخ :

– اي ! انظروا !

وعلى الأثر ، وأني تطلعت ، كنت ترى شعلة متقدة عند الحاجز الحديدي المشبك . واخذت الشعلة تدنو من الشرفة ، واخذ الجالسون الى طاولاتهم ينهضون ويمعنون النظر فيها ، فابصروا شبحاً ابيض يخطو الى المطعم مع الشعلة . ولما بلغ التعريشة تجمد الجميع وراء طاولاتهم جاحظي العيون وقطع سمك الحفش عالقة في شوكهم . أما البواب الخارج آنذاك من باب مشجب المطعم ليدخن ، فداس سيجارته بقدمه وتحفز لملاقاة الشبح بغرض واحد ، هو سد الطريق عليه الى المطعم . لكنه لسبب ما لم يفعل ، بل توقف وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة بلهاء .



جاز الشبح فجوة في التعريشة ودخل الشرفة دون عائق . وهنا ادرك الجميع أن ما رأوه لم يكن شبحاً على الاطلاق بل الشاعر الذائع الصيت ايفان نيقولايفتش بيزدومني .

كان حافي القدمين ، في قميص ممزق ضارب الى البياض شبكت على صدره بدبوس انكليزي ايقونة ورَقية صغيرة مع صورة مطموسة لقديس مجهول ، وسروال تحتاني ابيض مخطط ، وهو يحمل بيده شمعة عرس مشتعلة . كان خد ايفان نيقولايفتش ممزقاً حديثاً . كان يصعب قياس عمق الصمت الذي ساد الشرفة . انما شوهدت البيرة في يد أحد الندل تنسكب من كأس مائلة على الأرض .

رفع الشاعر الشمعة فوق رأسه وقال بصوت عال :

– مرحباً ايها الأصدقاء !

ثم ألقى نظرة تحت اقرب طاولة اليه وهتف في كآبة :

– لا ، ليس هنا !

وسمع صوتان . قال الصوت الغليظ دون رحمة :

– الأمر واضح . هذيان رعاشي !

أما الصوت الثاني ، النسائي ، المذعور فقال :

– كيف تركته الشرطة يسير في الشوارع على هذا الشكل ؟

سمع ايفان نيقولايفتش ما قاله الصوت الثاني فرد قائلاً :

– حاولوا القاء القبض علي مرتين في سكاتيرني وهنا في بروناياً ، لكني تسللت السياج وتملصت منهم ، وهاهو ذا خدي ممزّق كما ترون ! – وهنا رفع ايفان نيقولايفتش الشمعة وهتف قائلاً : – ايها الاخوة في الأدب ! (كان صوته المبحوح قد اشتد وأصبح أكثر حدة) . اسمعوني جميعاً ! لقد ظهر ! امسكوه على الفور ، والا سبب لنا مصائب لا توصف !

وانطلقت الأصوات من كل جانب :

– ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا قال ؟ من الذي ظهر ؟

– المستشار ! – اجاب ايفان ، – وهذا المستشار هو الذي قتل للتو ميشا * برليوز في بتريرشيي برودي .

---

* ميشا : تصغير ميخائيل . **المترجم** .

وعندئذ تدافع الناس من القاعة الداخلية الى الشرفة وتزاحموا حول شعلة ايفان .

وسمع فوق اذن ايفان نيقولايفتش صوت هادئ ومؤدب :

– العفو ، العفو ، قل بالتحديد : كيف قتل ؟ ومن الذي قتله ؟

– مستشار اجنبي ، بروفيسور وجاسوس ! – رد عليه ايفان وهو يتلفت حوله .

وسمع ايفان همساً في اذنه :

– وما كنيته ؟

– هنا المشكلة ! – هتف ايفان في كآبة ، – لو كنت اعرف كنيته ! فانا لم اتبين كنيته على بطاقة الزيارة . . . لا اذكر منها الا الحرف الأول ف ، كنيته تبدا بحرف ف ! ما عساها تكون ؟ – اردف ايفان يتساءل وقد وضع يده على جبينه ، ثم غمغم فجأة : – ف ، في ، في ، في ! فا . . . فو . . . فاشنر ؟ فاغنر ؟ فاينر ؟ فيغنير ؟ فينتير ؟ – كان شعر ايفان يهتز فوق راسه من شدة التوتر .

– فولف ؟ – صاحت امراة بصوت حزين .

غضب ايفان وصرخ وهو يبحث بعينيه عن تلك المراة :

– غبية ! وما دخل فولف هنا ! فولف ليس له اي علاقة بالموضوع ! فو . . . فو . . . لا ! لا استطيع باي شكل ان اتذكر ! اذن اليكم ما يجب ان نفعله ايها المواطنون : تلفنوا للشرطة على الفور كي ترسل خمس دراجات نارية مع رشاشاتها ليبحثوا عن البروفيسور . ثم لا تنسوا ان تقولوا لهم ان معه اثنين آخرين : شخص طويل القامة في لباس ذي رسوم مربعة . . . ونظارة انفية لها عدسة مشققة . . . وقط اسود ، سمين . وانا في هذه الاثناء سافتش غريبويدوف . . . اني اشعر انه هنا !

وتولى ايفان هيجان فدفع من حوله واخذ يلوح بالشمعة مريقاً الشمع على نفسه ويتطلع تحت الطاولات . وهنا سُمِعت كلمة : «الدكتور !» ، وما لبث أن ظهر وجه باش لحيم ، حليق ومكتنز ، عليه نظارة قرنية أمام ايفان .

– هدئ روعك ، يارفيق بيزدومني ! – قال له هذا الوجه



بصوت يوبيلي . – لقد هزك موت ميخائيل الكسدروفتش . . . لا بل ببساطة : ميشا برليوز الذي نحبه جميعاً . وهذا امر نفهمه جميعنا جيداً . انت بحاجة الى الهدوء . . . وسيقودك بعض الرفاق الى السرير ، وهناك تغفو قليلاً وترتاح . . .

– انت ، – قاطعه ايفان مكشراً ، – الا تدرك انه يجب القبض على البروفيسور بدلاً من هذا الهراء ؟ يالك من غبي !

– المعذرة ، يارفيق بيزدومني ، – اجابه الوجه ، وهو يحمّر ويتراجع ، نادماً ، فيما يبدو ، على انه حشر نفسه في هذه القضية .

– لا ، قد اعذر ايا كان ، لكن ليس انت ، – قال ايفان نيقولايفتش بحقد بارد .

وتشنج وجه ايفان ، فنقل الشمعة بسرعة من يده اليمنى الى اليسرى ولوح بملء يمناه وصفع الوجه المتعاطف معه على اذنه .

وهنا فطنوا الى وجوب الانقضاض على ايفان ، وانقضوا عليه فعلاً . انطفأت الشمعة ، وانزلقت نظارته عن وجهه فداستها الأرجل على الفور . ندّ عن ايفان زعيق قتالي مخيف سُمع للذة الجميع ، حتى في البولفار ، وراح يدافع عن نفسه . تقصفت الأواني التي وقعت على الأرض وزعقت النساء وولولن .

وفيما كان الندل يشدون وثاق ايفان بالمناشف ، كان الحوار التالي يدور في غرفة المشجب بين قبطان السفينة ذات الصاريتين والبواب .

– هل رايت انه في السروال التحتاني ؟ – سأل القرصان ببرود .

– لكن كيف لي ان امنعه من الدخول ، يارتشيبالد ارتشيبالدوفتش ، وهو عضو **الماسوليت** ؟ – اجابه البواب وقد تملكه الخوف .

– هل رايت انه في السروال التحتاني ؟ – كرر القرصان سؤاله .

– المعذرة ، يارتشيبالد ارتشيبالدوفتش ، – اجابه البواب وقد احمر وجهه ، – لكن ماذا كان بيدي ان افعل ؟ أنا ادرك ان هناك سيدات على الشرفة . . .

– السيدات لا شأن لهن بهذا الموضوع . سيان بالنسبة لهن ، – أجاب القرصان وهو يحرق البواب بعينيه ، – أما بالنسبة للشرطة فليس الأمر واحداً ! الواحد منا لا يمكنه ان يسير في شوارع موسكو بملابسه الداخلية الا في حالة واحدة – اذا كان بمرافقة الشرطة ، والا الى مكان واحد – الى قسم الشرطة ! وانت ، اذا كنت بواباً حقاً ، عليك ان تعرف ان واجبك حين تشاهد شخصاً كهذا أن تأخذ في الصفير فوراً ، دون ان تضيع ثانية واحدة . هل تسمعني ؟

سمع البواب الذي كاد يفقد صوابه دوياً وصوت أوان تتكسر وصيحات نساء تتناهى اليه من الشرفة .

– ما الذي تريدني أن افعله بك جزاء فعلتك هذه ؟ – سأله القرصان .

أما البواب فاتخذ جلد وجهه لون مصاب بالتيفوس وماتت الحياة في عينيه . وتهيأ له ان الشعر الأسود ، المفروق الآن ، غطي بحرير احمر لامع ، وان واقية الصدر والفراك اختفيا وان مقبض مسدس ظهر خلف النطاق . وتصور البواب نفسه مشنوقا على الصاري الامامي . رأى بأم عينيه لسانه المتدلي من فمه ورأسه الفاقد الحياة الهاوي على كتفه ، بل سمع طبطبة الموج يضرب جوانب السفينة . وتقصفت ركبتا البواب . وهنا اشفق القرصان عليه واطفأ نار عينيه الحارقة .

– اسمع يانيقولاي ! انها آخر مرة ! نحن لسنا بحاجة الى بوابين امثالك في المطعم . الأفضل ان تعمل حارس كنيسة ، – قال القبطان ثم أمره قائلاً بدقة ووضوح وسرعة : – استدع بنتيلي من البوفيه وشرطياً ليسجل البروتوكول . ثم الى مصحة الامراض العقلية بالسيارة – واردف : – اصفر ! !

وبعد ربع ساعة رأى الناس ليس في المطعم وحده ، بل على البولفار وفي نوافذ البيوت المطلة على حديقة المطعم ، وقد استبد بهم الذهول الشديد ، راوا بنتيلي والبواب والشرطي والنادل والشاعر روخين يخرجون من باب غريبوييدوف وهم يحملون شاباً ملفوفاً في قمط كالدمية . كانت عينا الشاب مغرورقتين بالدموع ، وكان يبصق جاهداً أن يقع بصاقه على روخين بالذات ، ويصرخ وهو يغص بدمعه :



– الوغد !

ادار سائق الشاحنة المحرك بوجه ينضح بالشر . والى جانبه كان حوذي يسوط جواده بعنان ليلكى على كفله ويصرخ :

– على عربة سريعة ! نقلت الى مستشفى المجانين ! . .

وكان الجمهور المحتشد يهدر حولهم وهو يناقش هذا الحدث الفريد ؛ ونقول باختصار : شكل هذا الحدث فضيحة شنيعة ، شائنة ، قذرة ، مُضلة لم تنته فصولها الا حين ابتعدت الشاحنة عن بوابة غريبوييدوف حاملة على متنها ايفان نيقولايفتش المسكين والشرطي وبنتيلي وروخين .

## الفصل السادس

## فصام ، كما قيل

كان الوقت منتصف الثانية بعد منتصف الليل حين دخل قاعة الاستقبال في مستشفى الأمراض العقلية المشهور الذي أنجز بناؤه من وقت قريب على ضفة النهر في ضواحي موسكو رجل ذو لحية مدببة وثوب ابيض . وكان هناك ثلاثة ممرضين لا يرفعون عيونهم عن ايفان نيقولايفتش الجالس على الديوان ، والشاعر روخين الذي كان في حالة اضطراب شديد ، بينما كانت المناشف التي شدّ بها وثاق ايفان نيقولايفتش متكومة على الديوان نفسه . وبدا ايفان نيقولايفتش ورجلاه طليقة .

حين رأى روخين الداخل شحب لونه وسعل وقال بوجل :

– مرحباً دكتور .

انحنى الدكتور يرد التحية لروخين ، لكنه لم يكن ، وهو ينحني ، ينظر اليه ، بل الى ايفان نيقولايفتش .

كان هذا يجلس على الديوان جامداً مقطب الحاجبين وقد ارتسمت على وجهه امارات الغضب بل انه لم يحرك ساكناً لدى دخول الطبيب .

– هاكم ، يادكتور ، الشاعر المعروف ايفان بيزدومني . . . كيف اقول لك . . . نخشى ان يكون اصيب بالهذيان

الرعاشي ، . . . – قال روخين لسبب ما همساً كمن يفضي بسرّ وهو يلتفت الى ايفان نيقولايفتش في خوف .

– هل شرب كثيراً ؟ – ساله الدكتور من بين أسنانه .

– لا ، شرب لكن ليس بالقدر . . .

– هل صاد او امسك صراصير او جرذاناً او كلاباً سائبة ؟

– لا ، – اجاب روخين وهو يرتعد ، – لقد رايته البارحة واليوم صباحاً وكان بصحة تامة . . .

– ولماذا لا يلبس سوى سروال تحتاني ؟ هل اخذتموه من سريره ؟

– لقد اتى الى المطعم على هذا الشكل يادكتور . . .

– آ ، آ ، – قال الدكتور بارتياح عظيم ، – ولماذا هذه الخدوش ؟ هل تعارك مع احد ؟

– سقط عن السياج ، ثم لكم احدهم في المطعم . . . ثم آخر . . .

– ايوا ، ايوا ، ايوا ، – قال الدكتـــور ، ثم التفت الى ايفان واردف : – مرحباً !

– اهلاً ايها الانسان الضار ! – اجابه ايفان بصوت عال وغاضب .

ارتبك روخين حياء حتى انه لم يجسر على رفع عينيه الى الدكتور المهذب . لكن هذا لم يشعر بأي استياء ، بل خلـــع نظارته بحركة سريعة مالوفة وشمر طرف سترته واخفى نظارته في جيب بنطاله الخلفي وسال ايفان :

– كم عمرك ؟

– اذهبوا عني جميعكم الى الشيطان ! – صرخ ايفان بفظاظة وادار وجهه .

– لماذا غضبت ؟ هل قلت لك شيئاً غير مستحب ؟

– عمري ثلاث وعشرون سنة ، – قال ايفان وهو في حالة من الهياج ، – وسأرفع شكوى عليكم جميعاً ، وعليك بنوع خاص يا وغد ! – كان يخص روخين بكلماته الأخيرة هذه .

– وعلام تريد أن تشكونا ؟

– على انكم اخذتموني ، انا الانسان السليم ، وزججتم بي



عنوة في مستشفى المجانين ! – رد ايفان وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ .

هنا انعم روخين النظر في وجه ايفان فشعر بالبرد يسري في اوصاله : يقيناً ، لم يكن في عينيـــه اي عبارة من عبارات الجنون . فقد عادتا الى سابق عهدهما من الصفاء بعد الكدر الذي كان يغشاهما في غريبوييدوف .

«يالهي ! ، – قال روخين في سره في ذعر ، – احقاً انـــه سوي ؟ ونحن ماذا فعلنا ! لماذا جررناه الى هنا ؟ انه سوي ، سوي ، انما وجهه مخدش . . .»

قال له الطبيب بصوت هادئ وهو يقتعد كرسياً ابيض ذا قائمة لماعة :

– انك لست في مستشفى مجانين ، بل في مستوصف ، ولن يحجزك احد اذا لم يكن هناك داع .

نظر اليه ايفان نيقولايفتش نظرة ارتياب ، لكنه غمغم مع ذلك :

– شكراً لك يالهي ! وُجد اخيراً انسان سوي بيـــن هؤلاء البلهاء واولهم ساشكا الغبي العديم الموهبة !

– ومن ساشكا العديـــم الموهبـــة هذا ؟ – قال الطبيب مستفسراً .

– هاهو ذا ، روخين ، – اجاب ايفان وهو يشير بأصبعه الوسخة باتجاه روخين .

تفجر روخين من السخط وفكر في مرارة :

«وهذا بدلاً من ان يشكرني لأني تعاطفت معه واشفقت عليه ! انسان دنيء فعلاً !» .

– انه مثال الكولاك بنفسيته ، – قال ايفان نيقولايفتش الذي خطر له ، على ما يبدو ، ان يفضح روخين ، – وهو الى ذلك كولاك يحاول جاهداً التستر بستار البروليتاري . انظروا الى سحنته الكئيبة هذه وقارنوها بأبياته الرنانة التي نظمها بمناسبة الأول من ايار ! • خـــي – خـــي – خـــي . . . «رفرفـــي !» و«اخفقي !» . . . ثم انظروا الى داخله جيداً – الى ما يفكر . . .

---

• المقصود عيد الاول من ايار . **المترجم** .

وستغفرون أفواهكم من الدهشة ! – وانفجر ايفان نيقولايفتش في ضحكة لا تنبئ بخير .

كان روخين يتنفس بصعوبة وقد احمر وجهه ، ولم يكن يفكر الا في شيء واحد – في انه أدفأ أفعى على صدره ، وانه تعاطف مع شخص تبين بالتجربة انه عدو حقود ، والأهم عجزه عن فعل أي شيء : فهل من المعقول ان يتشاتم مع مريض نفسي ؟ !

– ولماذا أتوا بك انت بالذات الى هنا ؟ – سأله الطبيب بعد ان استمع باهتمام الى اتهامات بيزدومني .

– ليأخذهم الشيطان ، هؤلاء البلهاء ! امسكوني واوثقوني بخرقٍ ثم حملوني في شاحنة !

– اسمح لي بسؤال : لماذا أتيت الى المطعم في ملابسك الداخلية وحدها ؟

– لا غرابة في الأمر ، – اجاب ايفان ، – ذهبت اسبح في نهر الموسكوفا وهناك سرقوا ملابسي وابقوا لي على هذه السقاطة ! ولكن أيعقل ان اسير في موسكو عارياً ؟ لذلك ارتديت ما تركوه لي واسرعت الى غريبويبدوف ، الى المطعم .

نظر الطبيب الى روخين متسائلاً فغمغم هذا متجهماً :

– هذا اسم المطعم .

– آ ، – قال الطبيب ، – لماذا اسرعت الى هناك ؟ هل كنت على موعد عمل ؟

– كنت أبحث عن المستشار للقبض عليه ، – اجابه ايفان نيقولايفتش وتلفت حوله بقلق .

– اي مستشار ؟

– برليوز . . . هل تعرفه ؟ – سأل ايفان بلهجة ذات معنى .

– ذاك . . . الموسيقار ؟

شعر ايفان بخيبة أمل .

– ما شأن الموسيقار بالموضوع ؟ اي نعم ، اي لا ! . . الموسيقار له نفس كنية ميشا برليوز !

لم تكن لدى روخين رغبة في اي كلام ، ومع هذا اضطر لتوضيح الأمر .

– اليوم مساء دُعِيَ سكرتير **الماسوليت** برليوز تحت عجلات الترام في بتريرشيي .



– لا تهرف بما لا تعرف ! – توجه ايفان الى روخين في سخط – انا الذي كان حاضراً ، لا انت ! هو الذي رتّب عمداً امر سقوطه تحت عجلات الترام !

– هل دفعه ؟

– ما شأن «الدفع» هنا ؟ – صاح ايفان مغيظاً من البلادة العامة ، – امثاله لا يحتاجون الى «دفع» أحد ! باستطاعتهم ان يقوموا باعمال والعياذ بالله ! كان يعرف مسبقاً ان برليوز سيسقط تحت عجلات الترام !

– وهل رأى هذا المستشار أحد غيرك ؟

– هنا المشكلة انا وبرليوز وحدنا اللذان رأياه .

– حسن . وما هي الاجراءات التي اتخذتها لالقاء القبض على هذا القاتل ؟ – وهنا استدار الطبيب واوما بعينه الى امرأة في سترة بيضاء كانت تجلس الى طاولة جانبية . سحبت المرأة ورقة واخذت تملأ المواضع الخالية بين اعمدتها .

– اليكما . اخذت شمعة من المطبخ . . .

– هذه ؟ – سأله الطبيب وهو يشير الى الشمعة المكسورة الملقية مع الأيقونة على الطاولة امام المرأة .

– نعم ، هي نفسها ، ثم . . .

– ولماذا الأيقونة هي الأخرى ؟

– الأي . . . الأيقونة . . . ، – وهنا احمر وجه ايفان ، – الأيقونة تخيف أكثر من اي شيء آخر ، – وهنا عاد واومأ باصبعه في اتجاه روخين ، – لكن القضية انه ، المستشار ، انه ولنقلها بصراحة . . . انه مشارك . . . يشارك ارواحاً شريرة . . . وبدونها يستحيل القبض عليه .

ولسبب ما وقف المرضون وقفة استعداد ولم يعودوا يحولون اعينهم عن ايفان .

واردف ايفان يقول :

– نعم . . . مشارك ! انها حقيقة لا تدحض . لقد تحدث شخصياً الى بيلاطس البنطي . لا داعي لأن تنظر اليّ هكذا ! اني اقول الحقيقة ! لقد رأى كل شيء – الشرفة واشجار النخيل . باختصار ، كان عند بيلاطس البنطي ، وانا اضمن صحة هذا القول .

– نعم . . . نعم . . .
– وهكذا علقت الأيقونة على صدري واسرعت . . .
وهنا دقت الساعة فجأة دقتين .
– اوه ! – صاح ايفان وهب عن الديوان ، – انها الثانية وانا اضيع الوقت معكم ! عفواً ، اين الهاتف ؟
– دعوه ، – امر الطبيب الممرضين .
تمسك ايفان بسماعة الهاتف ، بينما اخذت المرأة تستفسر من روخين بصوت خافت :
– هل هو متزوج ؟
– لا ، اعزب ، – أجاب روخين في ذعر .
– عضو نقابة ؟
– اجل .
– الشرطة ؟ – صرخ ايفان في السماعة ، – الشرطة ؟ ايها الرفيق المناوب ، مُرْ على الفور ان يرسلوا خمسة من راكبي الدرّاجات النارية مع رشاشاتهم للقبض على مستشار أجنبي . ماذا ؟ مروا علي وأنا اذهب معكم بنفسي . . . معكم على الخط الشاعر بيزدومني من مستشفى المجانين . . . ما هو عنوانكم ؟ – سأل بيزدومني الطبيب همساً وهو يغطي السماعة براحته ، ثم عاد يصرخ في السماعة من جديد : – هل تسمعني ؟ الو . . . فضيحة ! – زعق ايفان فجأة وقذف بالسماعة عرض الحائط . ثم استدار الى الطبيب ومد له يده وقال بصوت جاف «الى اللقاء» وهمّ بالخروج .
– العفو ، الى اين تريد الذهاب الآن ؟ – قال له الطبيب وهو يتفرّس في عينيه ، – الوقت متأخر وانت في ملابسك الداخلية . . . انك لست على ما يرام . . . ابق عندنا !
– دعوني ، – قال ايفان للممرضين الذين تراصوا عند الباب . – هل تدعونني أم لا ؟ – صرخ الشاعر بصوت مرعب .
ارتعدت فرائص روخين ، اما المرأة فقد ضغطت زراً في المنضدة فظهرت على سطحها علبة صغيرة لامعة وانبولة ملحومة .
– هكذا اذن ؟ ! – قال ايفان وهو يلقي حوله نظرات حيوان متوحش وقع في فخ ، – حسناً ! الوداع . . . – وقذف بنفسه من خلال ستارة النافذة ورأسه الى الأمام . دوت ضربة ،



لكن الزجاج المقاوم للصدمات خلف الستارة تحمل الضربة ، وما هي الا لحظة حتى كان ايفان يتخبط بين ايدي الممرضين . كان ينخر ويحاول عضهم ويزعق :
– اي زجاج عندكم ! . . دعوني ، دعوني ، اقول لكم !
لمعت المحقنة في يدي الطبيب . وبحركة واحدة كانت المرأة قد شقت كم القميص البالي وقبضت على يد ايفان بقوة غير نسائية . فاحت رائحة الاثير فخارت قوى ايفان بين ايدي الأشخاص الأربعة . وانتهز الطبيب البارع هذه اللحظة فغرز الابرة في يد ايفان . سند الأربعة ايفان ثواني ثم مددوه على الديوان .
– ياقطاع الطرق ! – صرخ ايفان ووثب من الديوان لكنهم اعادوه اليها . وما ان اخلوا سبيله حتى حاول النهوض ثانية ، لكنه ما لبث ان تهاوى على الديوان من تلقاء نفسه . صمت ايفان وهو يتلفت ملقياً على من حوله نظرات وحشية ، ثم تثاءب فجأة ، ثم ابتسم ابتسامة تشي بالحقد والضغينة .
– حبستموني مع هذا . . . – قال ايفان ، وتثاءب مرة أخرى ثم تمدّد فجأة ووضع رأسه على المخدة وقبضته تحت خده كالأطفال ثم غمغم بصوت ناعس ، ودون حقد : – اي ، حسناً ، حسناً جداً . . . انتم انفسكم ستدفعون جزاء هذا كله . لقد حذرت ، والباقي عليكم . . . كما تريدون ! أكثر ما يهمني الآن هو بيلاطس البنطي . . . بيلاطس . . . – وهنا اغمض عينيه .
– حمام ، الغرفة المفردة رقم ١١٧ مع حراسة ، – قال الطبيب يصدر تعليماته وهو يضع نظارته . وهنا ارتعد روخين مرة اخرى : فقد انفتح باب ابيض دون أن يسمع له صوت ، وظهر وراءه ممر مضاء بمصابيح ليلية زرق ، ودخل من الممر سرير يتحرك على عجلات مطاطية صغيرة نقلوا اليه ايفان الذي غشيته سكينة ، ثم عاد السرير الى الممر وانغلق الباب .
وسأل روخين المصعوق همساً :
– اذن هو مريض فعلاً ، يادكتور ؟
– بالطبع ، – اجاب الطبيب .
– وما الذي حدث له ؟ – سأل روخين بوجل .
تطلع الطبيب المتعب الى روخين واجابه بفتور :

– تهيج حركي وكلامي . . . تفسيرات وكلام مصدرهـــا الهذيان . . . الحالة معقدة كما يبدو . . . فنصّام على الأرجح . اضف الى ذلك الادمان على الشراب . . .

لم يفهم روخين من كلمات الدكتور شيئاً سوى أن احوال ايفان نيقولايفتش سيئة كما يبدو ، فتنهد، وسأل :

– وما معنى أنه لا يتحدث الا عمن يدعوه المستشار ؟

– لقد رأى على الأرجح شخصاً هز خياله المختل ، او لعله كان يهلوس . . .

وبعد عدة دقائق كانت الشاحنة تعود بروخين الى موسكو . كان ضوء النهـــار قد بدأ يبزغ فبدا نور المصابيح التي لمّا تطفأ في الطريق نافلاً وبشعاً . وكان السائق حانقاً من ليله الذي ضاع ، فكان يسوق سيارته باقصى مـــا يمكن مندفعاً بهـــا في المنعطفات .

هاهي ذي الغابة تهوي خلفه ، والنهر يغيب في مكان ما الى جانبه ، وأشياء أخرى مختلفة كل الاختلاف تندفع باتجاه الشاحنة : اسوار مع اكشاك حراسة واكوام حطب ، واعمدة شاهقة وصوارٍ وعلى الصواري نُظمت بكرات ، واكوام حصى ، وارض شُرّطت بالاخاديد ، – وباختصـــار كان المـــرء يشعر أن هاهـــي ذي موسكو ، هنا قريبة وراء هذا المنعطف ، وسترتمي عليك وتحضنك .

كانت الشاحنة تهز روخين هزاً عنيفاً وتقذفه الى الأعلى ، والقطعة التي جلس عليها تحاول المرة بعد المرة ان تغور تحته ، ومناشف المطعم التي ألقاها الشرطي وبنتيلي ، اللذان عادا قبله بالترولیباص ، في الشاحنة كانت تتطاير في صندوقها . ولقد خطر له ان يجمعها لكنه لسبب ما قال في نفسه مغيظاً فيما يشبـــه الفحيح : «لياخذها الشيطان ! لماذا أتململ كالأحمق فعلاً ؟ . .» ثم قذفها بقدمه وحوّل بصره عنها .

كان روخين في حالة نفسية بشعة . ولقد اخذ يتضح له ان زيارته لبيت الكرب هذا ترك فيه اثراً شديد الوطأة . لكنه حاول ادراك ما يمزّق نفسه بالضبط . هل هو الممر بمصابيحه الزرق الذي علق بذاكرته ؟ هل هي فكرة أن لا مصيبة على وجه الأرض أسوأ من فقدان العقل ؟ نعم ، نعم بالطبع ، وهذا ايضاً . لكن



هذا أمر معروف . . . لا ، هناك شيء اخـــر . . . فما هو ؟ الاهانة ، هذا هو الشيء الآخر . أجل ، أجل ، الكلمات المهينـة التي قذفه بها بيزدومني في وجهه . والمصيبة ليســـت في انها مهينة ، بل في انها كلمات حق .

لم يعد الشاعر ينظر فيما حوله ، بل حملق في أرض الصندوق الوسخ الذي كان يهتز تحته وأخذ يغمغم ويدمدم ويقرع نفسه .

– نعم ، أشعاره . . . عمره اثنان وثلاثون عاماً ! وبالفعل ماذا بعد ذلك ! – بعد ذلك سيكتب بضع قصائد في العام . – حتى الشيخوخة ؟ – نعم ، حتى الشيخوخة . – وما الذي ستحمل اليه هذه القصائد ؟ الشهرة والمجد ؟ «ما هذا الهراء ! على الأقل لا تخدع نفسك . الشهرة والمجد لن يكونا أبداً من نصيب من يكتب شعراً سيئاً . ولماذا يكون سيئاً ؟ لقد قال الحقيقة ، نعم الحقيقة ! – قال روخين موجهاً الكلام الى نفسه دون رحمة أو شفقة ، – اني لا أؤمن بشيء مما أكتب ! . .»

وأدركت الشاعر نوبة خوار عصبي فتمايل ولم تعد الارض تهتز تحته . ثم رفع روخين رأسه فرأى أنه بلغ موسكو من وقت بعيد ، بل ان الفجر انبلج فوق موسكو وان السحاب مشوب بلون الذهب ، وان الشاحنـــة تقف وراء طابور من السيارات عند المنعطف المؤدي الى البولفار ، وان شخصاً معدنياً ينتصب على قاعدته على مقربة منه وقد حنى رأسه ، وانه ينظر الى البولفار نظرة لامبالاة .

وتفجرت في رأس الشاعر المتوعك الصحة افكار غريبة . «هاكم مثال المحظوظ الحقيقي . . . – وهنا هب روخين واقفاً بملء قامته في صندوق الشاحنة ورفع يده مهدداً لسبب ما عـــلى الشخص الحديـــدي الذي لم يكن يتعرض لأحد ، – أياً كانت الخطوة التي خطاها في حياته ، وأياً كانت الحوادث التي مرت به ، فان كل شيء كان يخدمه ، وكل شيء كان يزيد من مجده ! لكن ماذا فعل ؟ لا استطيع أن أفهم . . . هل هناك معنى خاص في هاتين الكلمتين : «العاصفة كالديجور . . .» ؟* لا أفهم ! . . لقد حالفه الحظ ، حالفه الحظ وكفى ! – أردف روخين فجأة بحقد

* من قصيدة الشاعر الروسي الكبير الكسندر بوشكين (١٧٩٩–١٨٣٧) . المترجم .

مستنتجاً ، واحس ان الشاحنة تحركت تحته ، – أطلق ، اطلق عليه النار هذا الحارس الابيض فهشم له فخذه وضمن لـــه الخلود . . .» .

وتحرك الطابور . وبعد دقيقتين لا أكثر كان الشاعر يدخل شرفة غريبوييدوف وقد بدت عليه علامات المرض التام بل حتى الشيخوخة . كانت الشرفة خالية الا من مجموعة تنهي ما بين ايديها من مشروب في احدى الزوايا وفي وسطهـــا يسعى عريف حفلات يعرفه تماماً يضع طاقية ويحمل بيده كأساً من «الأبراو» .

استقبل ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش روخين المثقل بالمناشف بترحاب كبير واراحه على الفور من هذه الخرق الملعونة . ولو لم يكن روخين محطماً ممـــا عاناه في المستشفى وفي الشاحنـــة ، لاستمتع ، على وجه التأكيد ، برواية ما جرى في المستشفى ، ولأغنى روايته وزوقها بتفاصيل من خياله . انما الآن لم تكن به اي رغبة في ذلك . زد على ذلك ان روخين الآن ، بعد العذاب الذي عاناه في الشاحنة ، وعلى ضعف ملاحظته ، ألقى لأول مرة نظرة حادة متفحصة على وجه القرصان وادرك ان هذا بالرغم من طرحه الأسئلة عن بيزدومني ، بل بالرغم من اطلاقه بين الفينة والفينة صيحات مثل «أي ياياي» ، انسان لا مبالٍ اطلاقاً بمصير بيزدومني في حقيقة الأمر ولا يشعر بذرة اشفاق عليه . «مرحى له ! وحسناً يفعل !» – فكر روخين في سره في غيظ وقعٍ مدمر ، ثم قطع حديثه عن الفصّام وقال :

– هل لي بكأس من الفودكا يا ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش . . .

اصطنع القرصان وجهاً متفهماً متعاطفاً وهمس :

– فاهم . . . حالاً . . . – ولوح بيده للنادل .

وبعد ربع ساعة كان الشاعر يجلس وحده تماماً ، وقد انحنى فوق طبق السمك يعب القدح تلو القدح وهو على ادراك ويقين بأنه فات الأوان لأن يصلح شيئاً في حياته ، وبأن الشيء الوحيد الممكن هو النسيان .

لقد أنفق ليله في حين كان الآخرون ياكلـــون ويشربون ويلهون . ولقد ادرك الآن ان ليس بمقدوره ان يعيده . كان يكفيه أن يرفع رأسه فوق المصباح باتجاه السماء ليدرك ان الليل ضاع دون رجعة . راح الندل ينزعون السمط عن الطاولات



على عجل . والقطط التي تسعى قرب الشرفة ذوات مظهر صباحي وأخذ النهار يتساقط على الشاعر متدفقاً ، جارفاً .

## الفصل السابع

## الشقة المشؤومة

لو قيل لستيوبا ليخودييف صبيحـــة اليـــوم التالي : «ستيوبا ، سيطلقون عليك النار أو تنهض للحال !» ، لأجاب ستيوبا بصوت فاتر يكاد لا يسمـــع : «اطلقوا علي النار ، افعلوا بي ما تشاؤون ، لكني لن انهض» .

وليت الأمر امر النهوض وحسب . فقد بدا له انـــه لا يستطيع فتح عينيه ، لأنه مـــا ان يفعل حتى يلمـــع البرق ويتطاير رأسه شظايا على الفور . كان ناقوس ثقيل يدوي في هذا الراس ، وكانت بقع بنية ذات حواش نارية خضر تسبـــح بين كرتي عينيه وجفونه المغمضة ، وبالاضافة الى هذا كله كان يشعر بالغثيان ، وان هذا الغثيان ، كما بدا لـــه ، مرتبط باصوات حاك لجوج .

حاول ستيوبا ان يتذكر شيئاً ما ، لكنه لم يذكر الا شيئاً واحداً – البارحة ، فيما يبدو ، وفي مكان لا يعرفه كان يقف حاملاً فوطة بيده ويحاول تقبيل سيدة ما ، وانه وعدها الـى ذلك بان يوافيها الى بيتها في اليوم التالي عند الظهر تماماً ، وان هذه السيدة كانت تمانع قائلة : «لا ، لا ، لن أكون في البيت !» ، بينما كان ستيوبا يصر بعناد : «ومع هذا سآتي !» .

لكنه لم يكن يعرف بتاتاً من هي هذه السيدة ، ولا مـــا هو الوقت الآن ، ولا ما هـــو اليوم ، ولا مـــا هو الشهر ، والأسوأ من هذا كله لم يكن بوسعه ان يعرف مكان وجوده . حاول ان يبدأ من النقطة الأخيرة بالذات ، وفتح جفني عينـــه اليسرى الملتصقين ، فلاح له في نصف العتمة المخيمة ضـــوء باهت ينعكس من مكان ما . وادرك ستيوبا اخيراً أنها المرآة القائمة وانه مستلق على ظهره في سريره ، أي في سرير زوجة

الصائغ سابقاً ، وفي غرفة النوم . وهنا احس بما يشبه ضربة قوية على راسه فاغمض عينيه واخذ يئن .

ولنوضح الأمر : عندما صحا مدير مسرح «فاريبتيه» ستيوبا ليخوديف صباحاً وجد نفسه في تلك الشقة نفسها التي كان يشغلها مناصفة مع المرحوم برليوز في عمارة من ستة طوابق تقع على شكل حرف النون (ن) في شارع سادوفايا .

ويجب القول ان الشقة هذه – وهي برقم ٥٠ – كانت تتمتع من وقت بعيد بسمعة ان لم نقل سيئة فهي غريبة على اي حال . فمن عامين كانت تملكها ارملة الصائغ دي فوجيري . كانت آنا فرانتسيفنا دي فوجيري ، وهي امراة في الخمسين من العمر محترمة وعملية جداً ، وكانت تؤجر ثلاثاً من غرفها الخمس الى شخصين : اولهما كنيته بيلوموت على ما يبدو ، وثانيهما ذو كنية ضائعة .

ومن يومها ، من عامين بدات تحدث في الشقة امور غامضة : اخذ الناس يختفون دون أثر من هذه الشقة .

ففي احد ايام العطل حضر ذات مرة الى الشقة شرطي واستدعى المستاجر الثاني (الذي ضاعت كنيته) وقال له انه مطلوب الى المخفر لدقيقة كي يوقع على شيء ما . امر المستاجر انفيسا خادمة آنا فرانتسيفنا القديمة والأمينة ان تقول لمن قد يطلبه بالهاتف انه عائد في غضون عشر دقائق ، ثم خرج مع الشرطي المتادب الذي كان يضع في يده قفازاً ابيض . لكنه لم يعد في غضون عشر دقائق ، بل لم يعد ابداً . والأغرب من هذا كله ان الشرطي ، كما يبدو ، اختفى معه .

وقالت انفيسا التقية ، بل لنقلها صراحة – انفيسا المؤمنة بالخرافات – لأنا فرانتسيفنا المنهارة ان هذا عمل من اعمال السحر ، وانها تعرف جيداً من خطف المستاجر والشرطي كليهما ، لكنها لا تريد ان تذكر الاسم ليلاً . ولكن ما ان تبدا اعمال السحر حتى لا يعود هناك ما يوقفها كما هو معروف . لقد اختفى المستاجر الثاني يوم الاثنين كما يذكر الرواة ، ويوم الأربعاء اختفى بيلوموت كانما غار في الأرض ، لكنه اختفى في ظروف مختلفة . ففي صباح ذلك اليوم حضرت كالعادة السيارة لتقله



الى عمله ، واقلته ، لكنها لم تعد به ، وهي نفسها لم تعد ابداً .

انتاب مدام بليوموت حزن ورعب يعزان عن الوصف . لكن الحزن كالرعب شعور لا يعمر طويلاً مع الأسف . ففي تلك الليلة بالذات ، وبعد ان عادت آنا فرانتسيفنا مع انفيسا من الفيللا التي ذهبت اليها لسبب ما على عجل ، لم تجد المواطنة بيلوموت في الشقة . وليس هذا كل شيء ، بل كان بابا كلتا الغرفتين اللتين يستاجرهما بيلوموت وزوجته مختومين .

ومر يومان بالتي هي احسن . لكن في اليوم الثالث غادرت آنا فرانتسيفنا ، التي ظلت طول اليومين الماضيين تعاني من الارق ، الشقة مرة أخرى الى الفيللا على عجل . . . ترى هل هناك حاجة الى القول انها لم تعد !

ذرفت انفيسا التي اضحت وحيدة دموعاً غزيرة ثم اوت الى فراشها في الثانية بعد منتصف الليل . ما الذي حدث لها بعد ذلك امر لا نعرفه ، لكن قاطني الشقق الأخرى رووا فيما بعد ، والعهدة عليهم ، انهم سمعوا طوال الليل في الشقة رقم ٥٠ خبطاً ونقراً وان النوافذ ظلت مضاءة بنور الكهرباء حتى الصباح . وفي الصباح تبين ان لا اثر لأنفيسا !

وظل الناس طويلاً يروون عن الذين اختفوا من الشقة وعن الشقة الملعونة نفسها مختلف الروايات والحكايات الغريبة ، من ذلك مثلاً ان انفيسا النحيلة والتقية هذه كانت تحمل في كيس صغير من جلد الشاموا تضعه على صدرها المتيبس خمساً وعشرين ماسة ضخمة تخص آنا فرانتسيفنا ، وانه انكشفت بحد ذاتها ، في عنبر الحطب ، في تلك الفيللا التي ذهبت اليها آنا فرانتسيفنا على عجل ، كنوز لا تحصى من نوع تلك الماسات ونقود ذهبية مسكوكة في عهد القيصر . . . وما الى ذلك من روايات مماثلة . لكننا لا ناخذ على عاتقنا صحة ما لا نعرف .

ومهما يكن من امر ، لم تبق الشقة فارغة ومختومة الا اسبوعاً ، انتقل بعده اليها المرحوم برليوز وزوجته وستيوبا اياه وزوجته . ومن الطبيعي تماماً انه ما ان داست اقدامهم الشقة اللعينة حتى بدات تحدث لهم اشياء الشيطان اعلم بها . ونقول تحديداً ان كلتا الزوجتين اختفتا في شهر . لكن

هاتين لم تختفيا دون أثر . فقد قيل ان زوجة برليوز شوهدت في خاركوف بصحبة مصمم رقصات باليه ، وان زوجة ستيوبا وجدت في بوجيدومكا حيث نجح مدير مسرح «الفاريبتي» ، كما تلوك الألسن ، في ان يؤمن لها من خلال معارفه وعلاقاته الكثيرة غرفة بشرط واحد : الا تطأ قدمهـــا شارع سادوفايـــا على الاطلاق . . .

وهكذا ندت عن ستيوبا أنة . اراد ان يستدعي الخادمـــة غرونيا ويطلب اليها ان تأتيه ببعض البيراميدون ، لكنه فطن الى ان هذا طلب لا معنى له . . . وانه لا يمكن ان يوجـد لدى غرونيا اي بيراميدون ، فحاول ان يستنجـــد ببرليوز . ارتفع صوته مرتين فيما يشبه الأنين ينادي : «ميشا . . . ميشا . . .» ، لكنكم تدركون جميعاً انه لم يتلق اي جواب . كان الصمت التام يطبق على الشقة .

حرّك ستيوبا اصابع قدميه فحزر انه يرقد في جوربيه ، فمرّ بيد مرتعشة على فخذه ليتأكد مما اذا كان يلبس بنطاله ام لا ، لكنه لم يستطع مع هذا التأكد .

واذ راي اخيراً ان الجميع تخلوا عنه وانه وحيد وانه ليس بوسع احد ان يهب لنجدته ، قرر النهوض مهما كلفه ذلك من جهد .

فتح ستيوبا جفنيه الملتزقين فراى انه ينعكس في المرآة القائمة على شكل انسان ذي شعر منفوش في مختلف الاتجاهات ، وسحنة منتفخة مغطاة بشعر قصير خشن اسود ، وعينيـــن متورمتين ، وقميص وسخ ذى ياقة وربطـــة عنق ، وسروال تحتاني وجوارب .

هكذا راى نفسه في المرآة ، لكنه راى الى جانبها ايضـاً شخصاً غريباً متسربلاً بالسواد وعلى راسه قبعة مستديـرة سوداء .

تداعى ستيوبا على السرير وحملق قدر ما وسعته الحملقة في الغريب بعينين محتقنتين بالدم .

وكان الغريب هو الذي قطع الصمت حين نطق بصوت خفيض وغليظ تشوبه لكنة اجنبية بالكلمات التالية :

– صباح الخير ياجزيل اللطف ستيبان بوغدانوفتش !



اعقب هذه الكلمات توقف بذل فيه ستيوبا قصارى جهده ليقول :

– نعم ! ماذا تريد ؟

وبُهت ستيوبا نفسه اذ لم يتعرف الى صوته ، فقد خرجت كلمة «نعم» ولادية عالية ، و«ماذا» عميقة ، اما «تريد» فلم تخرج من بين شفتيه .

ابتسم الغريب بود واخرج ساعة ذهبية كبيرة رســـم على غطائها مثلث الماسي ودقها احدى عشرة دقة وقال :

– الحادية عشرة ! وها انا ذا انتظر نهوضك من ساعـة كاملة ، ذلك انك حددت لي العاشرة كي احضر اليك . وهـا انا ذا !

تلمس ستيوبـــا البنطال الذي على الكرسي قرب السرير وهمس :

– عفواً . . . – ثم ارتداه بسرعة وساله بصوت أجش :

– ما كنيتك من فضلك ؟

كان يشعر بصعوبة في نطق كلماته ، ذلك انه كان يشعر مع كل كلمة ينطقها وكان ابرة تغرز في دماغـــه وتسبب له الماً جهنمياً .

– كيف ؟ وكنيتي ايضاً نسيتها ؟ – قال الغريب وابتسم .

– العفو . . . – اجاب ستيوبا بصوت ابح وهو يشعر ان الخمار يقدم له عَرَضاً جديداً : فقد بدا له ان ارض الغرفة قرب السرير انشقت وانه هاوٍ حالاً الى اعماق الجحيم .

– ياعزيزي ستيبان بوغدانوفتش ، – قال الزائر وهـو يبتسم ابتسامة دهاء ، – لن يساعدك اي بيراميدون . اتبع القاعدة القديمة الحكيمة : كل داء ضده من جنسه . . . الشيء الوحيد الذي يعيدك الى الحياة هو قدحان صغيران من الفودكا مع وجبة حادة وساخنة .

كان ستيوبا انساناً ماكراً ، ولهذا راى ، رغم شدة مرضه ، ان عليه ، وقد الفوه على هذا المنظر ، ان يعترف بكل شيء .

– بصراحة ، – قال وهو يكاد لا يقوى على تحريك لسانه ، – البارحة شربت قليلاً . . .

– لا تزد على ذلك ! – اجابه الزائر وتنحى بكرسيه جانباً .

رأى ستيوبا ، وقد اتسعت عيناه دهشة ، ان على الطاولة الصغيرة صينية عليها خبز مقطع وكافيار اسود مكبوس في وعاء صغير ، وفطر ابيض مخلل في صحن صغير ، وشيء ما لم يتبينه في طنجرة ، وفودكا في دورق زوجة الصائغ الكبير . ومما بهت له ستيوبا بوجه خاص ان الدورق كان يتعرق من البرد . وبالمناسبة هذا امر مفهوم ، فالدورق كان موضوعاً في وعاء مملوء بقطع الجليد . ونقول باختصار كانت المائدة معدة اعداداً نظيفاً ، بارعاً .

ولم يدع الغريب دهشة ستيوبا تبلغ حد المرض فسكب له نصف قدح من الفودكا بحركة حاذقة .

– وانت ؟ – صاح ستيوبا .

– بكل سرور !

وبيد مرتعشة رفع ستيوبا القدح الى شفتيه اما الغريب فابتلع ما في قدحه دفعة واحدة . فقال له ستيوبا ، وهو يمضغ قطعة كافيار ، وكأنما يعتصر كلماته من حلقه اعتصاراً :

– وانت . . . الا تتمزز ؟

– شكراً ، انا لا اتمزز ابداً ، – اجابه الغريب وسكب قدحاً ثانياً . وفتحت الطنجرة فاذا بمقانق بالبندورة في داخلها .

وهنا ذابت الخضرة الملعونة امام عيني ستيوبا ، واخذت الكلمات تنطق ، والأهم انه تذكر بعض الأمور . وعلى وجه الضبط ان الأمر حدث في سخودنيا * ، في فيلا مؤلف الاسكتشات خوستوف ، وان خوستوف هذا هو الذي اخذه بسيارة اجرة الى هناك . بل تذكر ايضاً كيف استاجرا السيارة قرب فندق «الميتروبول» ، وانه كان معهما ايضا شخص آخر ربما كان ممثلاً ، لم يعد يدري . . . ومعه حاكٍ في حقيبة . نعم ، نعم ، نعم ، كان هذا في الفيلا ! ويذكر ايضاً ان الكلاب اخذت تنبح بسبب هذا الحاكي ! فقط السيدة التي اراد ستيوبا ان

---

* مدينة في ضواحي موسكو . المترجم .



يقبلها ظلّت لغزاً . الشيطان اعلم من هي . . . يبدو انها تعمل في الراديو ، ومن الجائز ان لا .

وهكذا اخذ امسه ينجلي له شيئاً فشيئاً ، الا ان ما كان يشغل بال ستيوبا الآن اكثر بكثير هو يومه هذا ، وعلى الأخص ظهور الغريب في مخدعه ، زد على ذلك المزّة والفودكا . نعم ، هذا امر لا بأس في جلائه !

– والآن آمل ان تكون ذكرت كنيتي !

لكن ستيوبا ابتسم خجلاً وظل على حيرته ملوّحا ذراعيه .

– غريب ! اشعر انك شربت نبيذ «البورتفين» بعد الفودكا !رجاء ،هل هذا معقول ؟

– اريد ان اسالك شيئا واريده ان يبقى سراً بيننا ، – قال ستيوبا مداهناً .

– او ، بالطبع ، بالطبع ! لكني لا اضمن خوستوف بطبيعة الحال .

– وهل تعرف خوستوف حقاً ؟

– البارحة رايت هذا الشخص عندك في المكتب للحظة ، وانما تكفي المرء نظرة عابرة الى وجهه لكي يعرف انه وغد وميال للمشاحنة وانتهازي ومتزلف .

«تماماً !» ، – قال ستيوبا في سره وقد صعق من وصف خوستوف هذا الوصف الصحيح ، الدقيق والموجز .

نعم ، كان امسه يتشكل في ذهنه على شكل قطع صغيرة يلتصق بعضها ببعض ، لكن القلق لم يزاول ، مع هذا ، مدير مسرح «فاريتيه» . فقد كان في امسه هذا خرق واسع جداً ، ثغرة عملاقة سوداء . وهذا الغريب بالذات صاحب القبعة المستديرة ، صدقوا او لا تصدقوا ، لم يره ستيوبا في مكتبه البارحة ابداً .

– البروفيسور فولند ، استاذ في السحر الشيطاني ، – قال الزائر بوقار وقد شعر بحرج موقف ستيوبا وارتباكه ، وروى له كل شيء بالترتيب .

امس نهاراً وصل الى موسكو من الخارج ، وتوجه على الفور الى ستيوبا ، وعرض عليه اقامة حفلاته في مسرح «فاريتيه» . اتصل ستيوبا هاتفياً بلجنة منطقة موسكو للعروض المسرحية

والتمثيلية ونسق الموضوع معها (شحب وجه ستيوبا واخذ يغمز بعينيه) ، ثم وقع مع البروفيسور فولند عقداً على سبعة عروض (فغر ستيوبا فاه) واتفقا على ان يحضر فولند اليه اليوم صباحاً في العاشرة للاتفاق على التفاصيل نهائياً . . . وهاهو ذا فولند قد حضر !

وعندما حضر استقبلته الخادمة غرونيا التي افهمته أنها هي الاخرى وصلت للتو ، وانها ليست خادمة دائمة في هذا البيت ، وان برليوز غير موجود ، وان الزائر ، اذا كان يرغب في رؤية ستيبان بوغدانوفتش ، فما عليه الا ان يذهب الى غرفة نومه بنفسه . فستيبان بوغدانوفتش يغط في نوم عميق بحيث لا تجد نفسها على استعداد لايقاظه . واذ راى الفنان الحالة التي فيها ستيبان بوغدانوفتش أرسل غرونيا الى اقرب بقالية لتاتي بفودكا وطعام ثم الى الصيدلية لتاتي بالجليد . . .

– اسمح لي بتسوية حسابي معك ، – هر ستيوبا المحطم واخذ يبحث عن محفظة نقوده .

– ما هذا الهراء ! – صاح الفنان الزائر رافضاً سماع اي شيء بخصوص هذا الموضوع .

وهكذا أصبح موضوع الفودكا والطعام واضحاً ، ومع هذا كان منظر ستيوبا يثير الشفقة : فهو يقيناً لا يذكر اي شيء عن العقد ، ولم ير اطلاقاً فولند هذا البارحة . اجل ، خوستوف كان موجوداً ، اما فولند فلا .

– اسمح لي بالقاء نظرة على العقد ، – ساله ستيوبا بصوت خافت .

– تفضل ، تفضل . . .

نظر ستيوبا الى الورقة وجمد ، كان كل شيء سليماً . اولاً توقيع ستيوبا اللامبالي بخط يده ، ثم حاشية جانبية بخط المدير المالي ريمسكي تجيز اعطاء الفنان فولند عشرة آلاف روبل مقدماً من أصل خمسة وثلاثين الف روبل أجره عن سبعة عروض . وأكثر من ذلك : كان على الورقة ذاتها تصريح بتوقيع فولند بأنه قبض هذه الآلاف العشر !

«ما هذا ؟ !» – قال ستيوبا المسكين في نفسه وشعر بدوار . ترى هل اخذت تنتابه اعراض لعينة من ضعف الذاكرة ؟ ! لكن



من الطبيعي أن يرى ستيوبا ، بعد ان ابرز له فولند العقد ، ان الاستمرار في رسم علامات الدهشة على وجهه امر غير لائق على اقل تقدير . لذلك استأذن ضيفه ان يغيب عنه دقيقة ، وبما انه كان يرتدي جواربه هرع الى الهاتف في المدخل . وفي طريقه الى المدخل نادى باتجاه المطبخ :

– غرونيا !

ولم يجبه أحد . وهنا القى نظرة على باب مكتب برليوز قرب المدخل ، وتجمد في مكانه من الذعر كما يقال . فقد راى على مقبض الباب ختماً هائلاً بالشمع الأحمر مربوطاً بحبل . «مرحى ! هذا ما كان ينقصنا !» – زار شخص ما في راس ستيوبا . وهنا اندفعت افكار ستيوبا كما لو على خط حديدي لكن هذا الخط ، كما يحدث دائماً في وقت الكوارث ، ذو اتجاه واحد الشيطان أعلم ما هو . ويصعب على المرء حتى تصوير هذا الخليط العجيب من الافكار في راس ستيوبا . فهنا هذا الشيطان ذو القبعة المستديرة السوداء وفودكاه الباردة وعقده غير المعقول ، وهنا ايضا ، الى هذا كله ، الختم على الباب ! يعني ، اذا قلت لأي كان ان برليوز أتى فعلة ما ، لا والله لن يصدقك ، الا ان الختم . . . هاهو ذا موجودا ! ايه . . .

وهنا تململت في دماغ ستيوبا هواجس جد مزعجة عن مقالة دسها منذ قليل في يدي ميخائيل الكسندروفتش من اجل نشرها في المجلة ، وكأنه فعل ذلك خصيصاً . والمقالة ، بصراحة ، كانت سخيفة وتافهة ، والمكافأة تافهة . . .

وعقب تذكر المقالة مرق تذكر حديث مريب جرى ، كما يذكر ، مساء الرابع والعشرين من نيسان هنا ، في غرفة الطعام ، حين كان ستيوبا يتناول عشاءه مع ميخائيل الكسندروفتش . بطبيعة الحال ، يعني ، لا يمكن ان نصف هذا الحديث بانه كان مريباً بملء معنى الكلمة (فستيوبا لم يكن ليتورط في حديث كهذا) ، لكن الحديث كان يدور حول موضوع عقيم . وكان بالامكان ، ايها المواطنون ، الا يباشر هذا الحديث بحرية تامة . فقبل الختم كان يمكن اعتبار هذا الحديث ، دون شك ، حديثاً جد تافه ، اما بعد الختم . . .

بدأت الافكار تغلي في راس ستيوبـــا : «آه ، برليوز ! برليوز ! لا استطيع ان اتصور !» .

لكن الوقت لم يكن يتسع للحزن والأسف ، وادار رقـم الهاتف في مكتب المدير المالي لمسرح «فاريتيه» ريمسكي . كان موقف ستيوبا دقيقاً : فهذا الأجنبي قد يغضب ، لأن ستيوبا يحاول التأكد من صحة اقواله بعد ان أبرز له العقد ، ثم ان التحدث الى المدير المالي في هذا الموضوع شائك للغاية . وبالفعل ، فانت لن تسأله هكذا : «قل لي ، هل وقعت انـا البارحة عقداً بخمسة وثلاثين الف روبل مع بروفيســور في السحر الشيطاني ؟» . لا ، الاستفسار على هذا النحو لا يجدي !

– نعم ! – دوى في السماعة صوت ريمسكي الحـاد ، المزعج .

– مرحباً ، غريغوري دانيلوفتش ، – قال ستيوبا بصوت خافت ، – أنا ليخودييف . هناك أمر . . . هِمْ ، هِمْ . . . يجلس عندي . . . هذا . . . الفنّان فولند . . . اردت ان اسالك : ماذا بشأن امسية اليوم ؟ .

– آه ، الساحر ؟ – ردّ عليه ريمسكي في السماعة ، – الاعلانات ستكون جاهزة على الفور .

– ها ، ها ، – قال ستيوبا بصوت واهن ، – الـى اللقاء اذن . . .

– وهل ستاتي قريباً ؟ – سال ريمسكي .

– خلال نصف ساعة ، – اجابه ستيوبا وعلق السماعة ، وضغط راسه المحموم بيديه . آه ، يالها من قصة بشعة ! ما الذي دهى ذاكرتي ، ايها المواطنون ؟ آ ؟

الا انه لم يكن من اللائق ان يتاخر ستيوبا في المدخل اكثر مما تاخر ، فوضع للحال خطته وهي أن يخفي بكل الوسائـل نسيانه الذي لا يصدق هذا . أما الآن فعليه ان يستفهم مـن الرجل الأجنبي بالمكر والدهاء عما ينوي عرضه اليوم مسـاء بالضبط في مسرح «فاريتيه» الذي يقوم ستيوبا على ادارته .

وهنا تحول ستيوبا عن جهاز الهاتف فراى بجلاء في المرآة الموجودة في المدخل ، الذي لم تمسحه الكسولة غرونيا من فترة طويلة ، شخصاً غريباً فارع الطول يضع نظارة انفية (آه ، لو



كان ايفان نيقولايفتش هنا لعرف هذا الشخص فـــوراً !) . انعكست صورة ذلك الشخص في المرآة ثم اختفت للحال . ألقى ستيوبا الذي تملكه الاضطراب نظرة اكثر تمعناً على المدخـل وارتعشت اوصاله ثانية ، فقد راى في المرآة قطاً أسود هائل الحجم يعبر ثم يختفي .

انخلع قلب ستيوبا فترنح .

«ما هذا ؟ – فكر في نفسه ، – هل تراني بدأت أجن ؟ من اين هذه الانعكاسات ؟ – ثم ألقى نظرة عجلى على المدخل وصاح مذعوراً :

– غرونيا ! ما هذا القط الذي يسرح ويمرح عندنا ؟ من اين اتى ؟ ومن هذا الذي معه ؟؟

واجابه صوت لم يكن صوت غرونيا ، بل صوت الضيف من غرفة النوم :

– لا تشغل بالك ياستيبان بوغدانوفتش ، القط قطي . ارجو الا تثار اعصابك ، اما غرونيا فغير موجودة ، لقد ارسلتها الى اهلها في فورونيج بعد ان شكت من انك لم تمنحها اجازة من فترة طويلة .

كانت هذه الكلمات مفاجئة وخرقاء بحيث جزم ستيوبا انه اخطأ السمع . فهرع وقد تملكته بلبلة كاملة الى غرفة النوم وتجمد في العتبة . اهتزت شعرات راسه ونضح جبينه حبيبات عرق .

لم يكن الضيف في غرفة النوم وحده . بل في صحبة آخرين . كان يجلس على المقعد الثاني نفس الشخص الذي تراءى له في المدخل . لكنه كان الآن واضـــح المعالم تماماً : شاربـــان كريشتين . واحد زجاجي النظارة يلمع بينما الآخر غير موجود . وتبين ستيوبا في غرفة النوم ، بالاضافة الى هذا ، اشياء اسوا : كان يستلقي على بوف زوجة الصائغ شخص ثالث في وضع ليس فيه اي تكلف . وتحديداً كان قط اسود هائل الحجم يمسك باحدى قائمتيه الأماميتين قدح فودكا ، وبالثانية شوكة غُرز فيها فطر مخلل .

واخذ النور ، الضعيف في غرفـــة النوم اصلاً ، يـزداد

تضاؤلاً في عيني ستيوبا . «هكذا اذن يبدأ الجنون !» – قال ستيوبا في سره وامسك بالساكف .

– ارى انك مندهش قليلاً ، ايها العزيز ستيبان بوغدانوفتش ؟ – قال فولند لستيوبا ، الذي كانت أسنانه تصطك ، مستفسراً ، – مع انه ليس هناك ما يدعو للدهشة . هذه حاشيتي .

وهنا تناول القط بعض الفودكا . فانزلقت يد ستيوبا عن الساكف .

واردف فولند :

– وهذه الحاشية يلزمها مكان . وعلى هذا فان احدنا لا بد ان يكون زائداً في هذه الشقة . ويبدو لي ان هذا الزائد هو انت تحديداً .

– هِمْ ، هِمْ ! – قال الطويل المخطط بصوت كصوت الماعز متكلماً على ستيوبا بصيغة الجمع . – انهم يتصرفون في الفترة الأخيرة كالخنازير . يسكرون ، ويعقدون علاقات مع النساء مستغلين مركزهم ، لا يعملون شيئاً . بل ولا يستطيعون ان يعملوا شيئاً ، لأنهم لا يفهمون شيئاً فيما عهد به اليهم ، ثم يذرون الرماد في عيون رؤسائهم !

– ويستخدم سيارة الخدمة دون سبب ! – شارك القط في الوشاية وهو يلوك الفطر .

هنا حدث الظهور الرابع والأخير في الشقة ، عندما كان ستيوبا المتهاوي على أرض الغرفة يخدش بيده الموهنة الساكف .

فقد خرج من المرآة القائمة مباشرة شخص قصير القامة لكنه عريض الكتفين بشكل غير عادي ، ذو قبعة سوداء اللون صلبة القوام على رأسه وناب بارز من فمه زاد وجهه الذي لم يسر لشناعته أصلاً مثيل شناعة ، زد على ذلك لونه الأحمر كالنار .

وتدخل القادم الجديد في الحديث :

– لست أفهم كيف أصبح هذا مديراً ، – كانت خنة صوته تزداد ، – انه لا يصلح للادارة الا بقدر ما أصلح انا للأسقفية !

– انك لا تشبه الأسقف ، ياازازيلو . – لاحظ القط وهو يضع في صحنه قطعاً من المقانق .

– هذا الذي أقوله . – قال الاحمر بصوته الأخن ثم



التفت الى فولند واردف يقول باحترام : – هل تسمح لي ياسيدي ان ارميه من موسكو الى الشيطان ؟

– بسْ . بسْ !! – جار القط فجاة وقد انتصب شعر جلده .

وهنا اخذت الغرفة تدور حول ستيوبا ، فاصطدم راسه بالساكف . ولمعت في راسه فكرة وهو يغيب عن وعيه «انني اموت . . .»

لكنه لم يمت . فتح عينيه قليلاً فراى انه يجلس على شيء ما كانه من الحجر ، وحوله يهدر شيء ما . وعندما فتح عينيه كما يجب راى ان البحر هو الذي يهدر ، بل زد على ذلك ان الموج يتارجح عند قدميه تماماً ، وانه ، باختصار ، عند طرف مكسر امواج ، وان تحت قدميه بحراً آزرق متلالئاً ، ووراءه مدينة جميلة في الجبال .

واذ لم يكن ستيوبا يعرف كيف يتصرف في مثل هذه الحالات ، وقف على قدميه المرتعشتين وسار على المكسر باتجاه الشاطىء .

وعلى المكسر كان يقف شخص ، يدخن ويبصق في البحر . نظر الى ستيوبا بعينين وحشيتين وكف عن البصاق . اذاك بدر عن ستيوبا تصرف غريب : فقد ركع امام المدخن الغريب وقال له :

– اتوسل اليك ان تقول لي ما هي هذه المدينة !

– ما هذا الكلام ! – اجابه المدخن الغليظ القلب .

– انا لست سكران ، – اجابه ستيوبا بصوت أجش . – انا مريض . حدث لي امر ما ، انا مريض . . . اين انا ؟ اي مدينة هذه ؟

– حسناً . يالطا . . .

ارسل ستيوبا تنهيدة واهنة وخر على جنبه فارتطم راسه بحجر المكسر الساخن .

## الفصل الثامن

# مبارزة بين البروفيسور والشاعر

في نفس اللحظة التي غاب فيها ستيوبا عن وعيه في يالطا ، اي في حوالي منتصف الثانية عشرة ظهراً ، عاد الى ايفان نيقولايفتش بيزدومني وعيه بعد نوم طويل وعميق . ظلّ ايفان بعض الوقت يحاول ان يتذكر كيف وصل الى هذه الغرفة الغريبة بجدرانها البيض وبطاولتها الليلية العجيبة المصنوعة من معدن لماع وستارتها البيضاء التي كان يشعر بالشمس المضيئة وراءها .

هز راسه وتاكد انه لا يؤلمه ، فتذكر انه في مصحة . واستدعت هذه الفكرة ذكرى مقتل برليوز ، لكن هذه الذكرى لم تصدمه بقوة اليوم . واخذت نفسه تستعيد هدوءها ، وذهنه صفاءه بعد ان نال قسطاً وافياً من النوم . ظل ايفان مستلقياً بعض الوقت في سريره النظيف الوثير المريح ذي النوابض دون حراك ، ثم لمح زر جرس قربه . وعلى مالوف عادته في لمس الأشياء دونما داعٍ او ضرورة ، ضغط على الزر . كان ايفان يتوقع بعد ضغطه الزر ان يسمع او يرى شخصاً ، لكن ما حدث كان شيئاً مختلفاً تماماً ، فقد اضاءت في اسفل سرير ايفان اسطوانة زرقاء كتب عليها «للشرب» ؛ وبعد ان توقفت بعض الوقت اخذت تدور حتى ظهرت عليها «ممرضة» . من نافل القول ان هذه الاسطوانة الداهية أذهلت ايفان . ثم اختفت كلمة «ممرضة» لتظهر كتابة اخرى «ادع الدكتور» .

– هِمْ . . . – تمتم ايفان وهو لا يدري ما يفعل بهذه الاسطوانة . وهنا حالفه الحظ مصادفة : فقد ضغط الزر ثانية على كلمة «ممرضة» . . اجابت الاسطوانة برنين خافت وتوقفت وانطفأت ، وللحال دخلت الغرفة امراة لطيفة ممتلئة القوام في رداء ابيض نظيف وقالت لايفان :

– صباح الخير !

ولم يرد ايفان عادّاً التحية في مثل هذه الظروف غير مناسبة . وبالفعل احتجزوا انساناً سليماً في مصحة ثم يتظاهرون بان هذا هو الذي يجب ان يفعلوه !



ودون ان تفقد المراة بشاشة وجهها ، رفعت الستارة بضغطة زر الى الأعلى ، فتدفق نور الشمس الى الغرفة من خلال شبكة خفيفة واسعة الفتحات تصل حتى الأرض . وتكشفت الشبكة عن شرفة من ورائها ضفة نهر متعرج وعلى ضفته الأخرى حرش صنوبر بهيج المنظر .

– تفضل خذ حماماً ، – قالت المراة تدعوه ، وانفتح تحت يديها جدار داخلي بدا من ورائه حمام وكنيف مجهز تجهيزاً رائعاً .

وعلى الرغم من ان ايفان قرر الا يكلم المراة الا انه لم يتمالك نفسه ، وقد راى الماء يتدفق في الحمام بغزارة من صنبور لامع ، فقال في سخرية :

– ما هذا ! كانما في «الميتروبول» !

– اوه ، لا – اجابته المراة باعتزاز ، – بل افضل كثيراً . هذه التجهيزات لن ترى مثلها حتى في البلاد الأجنبية . والعلماء والأطباء يأتون الى هنا خصيصاً ليعاينوا مصحتنا . وكل يوم لا نخلو من سواح .

لدى سماع ايفان كلمة «سائح» تذكر على الفور مستشار الأمس . فاكفهر وجهه ونظر شزراً وقال :

– سواح . . . كم تعبدون السواح ! . . مع ان بينهم ، بالمناسبة ، اناساً ليسوا كما نظن ! البارحة مثلا تعرفت على واحد منهم لا احب ولا الطف !

وكاد يخوض في الكلام على بيلاطس البنطي ، لكنه امسك وقد ادرك ان هذا الكلام لا يهم المراة ، وانها ، على اي حال ، لن تستطيع تقديم اي مساعدة له .

وللحال قدّم لايفان نيقولايفتش المستحم كل ما يحتاجه الرجل بعد الحمام : قميص مكوي وسروال تحتاني وجوربان . بل اكثر من هذا : فقد فتحت المراة باب خزانة صغيرة واشارت الى داخلها وسالته :

– ماذا تريد ان تلبس : منامة ام روب دي شمبر ؟

كاد ايفان ، وقد راى اسمه يقيّد هنا ، في هذا المسكن الجديد عنوة ، ان يضرب كفاً بكف من وقاحة هذه المراة ، لكنه لم يفعل بل غرز اصبعه صامتاً في منامة من قماش قرمزي ناعم .

واقتيد ايفان بعد هذا في ممـــر خال ساكن الى مكتب ذي مقاييس بالغة الضخامة ، اطلق عليه ايفان ، الذي قرر ان يتعامل مع كل ما في هذا البناء المجهز تجهيزاً عجيباً بسخرية ، اطلق عليه في سره اسم «المعمل المطبخ» .

وكان لهذا الاسم ما يبرره . كان في المكتب خزائن خشبية واخرى زجاجية صغيرة فيها ادوات لماعة مطلية بالنيكل ، وكان هناك مقاعد معقدة التركيب بشكل خارق ، ومصابيح ذات بطون عليها واقيات لماعة ، والعديد من الزجاجات ومشاعل غازيـــة واسلاك كهربائية وادوات اخرى غريبة تماماً .

في المكتب تولى ثلاثة امر ايفان – امراتان ورجل ، وكلهم في رداء ابيض . كان اول ما فعلوه انهم اقتادوا ايفان الى زاوية خلف طاولة صغيرة بهدف واضح – استجوابه . اخذ ايفان يقلب النظر في وضعه . كانت امامه ثلاثـــة طرق ، وكان اولها الذي يغريه اشد الاغراء ان ينقض على هذه المصابيح والاشياء الداهية العجيبة ويحطمها تحطيماً ، وبهذا يعبر عن احتجاجه على احتجازه سدى . لكن ايفان اليوم كان يختلف اختلافاً كبيراً عن ايفـان الامس ، ولهذا بدا له الطريق الاول مشكوكـاً في جدواه : من يدري فقد تترسخ قناعتهم بانه مجنون هائج ، فتخلى ايفان عنه . والثاني ان يشرع على الفور في التحدث اليهـــم عن المستشار وبيلاطس البنطي . لكن تجربة الامس اثبتت له انهم لا يصدقون هذه القصة ، او انهم يفهمونها فهماً مشوهـــاً . ولهذا استبعد ايفـــان الطريق الثاني هذا ، وقرر اختيـار الطريق الثالث – الاعتصام بصمت الكبرياء .

لكن ايفان لم ينجح الا جزئياً فقد وجد نفسه ، عن رضى او غير رضى ، يجيب وان بكلمات موجزة وبوجه عابس على مجموعة كاملة من الاسئلة .

فقد استفسروا من ايفان عن كل ما يتصل بحياته السابقة بما في ذلك وقت مرضه بالحمى القرمزية منذ حوالى خمسة عشر عاماً وملابسات مرضه . وبعد ان ملئت الصفحة الأولى قُلبَتْ ، وكانت المراة ذات الرداء الابيض هي التي تولت الآن توجيه الاسئلة عن اقرباء ايفان . وبدا استجواب طويل : من مات ومتى ومن اي شيء ، هل كان يشرب ، هل كان مصاباً بامراض زهرية



وما الى ذلك . وفي اخر المطاف طلبـوا اليه التحدث عن حادثة الامس في بتريرشيي برودي ، لكنهم لم يلحوا على هذا الموضوع ، اما روايته عن بيلاطس البنطي فلم تثر فيهم اي دهشة .

واخلت المراة مكانها لرجل ، فتولى هذا امره لكن على نحو آخر ودون ان يوجه اليه اي سؤال . فقـــد قاس حرارة جسم ايفان ونبضه وحدق في عينيه بعد ان سلط عليهما نور مصباح كهربائي . ثـــم نهضت المراة الاخرى لمساعدة الرجل فوخزاه بشيء ما في ظهره وخزات غير مؤلمة ، ورسمـــا بمقبض مطرقة صغيرة اشارات على جلد صدره ، ونقرا على ركبتيه بالمطرقة مما جعل قدميه تنطان ، ووخزا اصبعاً وسحبا منها دماً ، ثم وخزاه في ثنية المرفق ، ووضعا في يديه اساور مطاطية .

وكان ايفان في غضون ذلك يضحك في سره بمرارة وهو يفكر في سخف وغرابة ما حصل . من كان يظن ذلك ! اراد ان يحذر الجميع من الخطر الذي يحمله اليهم هذا المستشار الغريب ، وعقد العزم على ملاحقته والقاء القبض عليه فلم يجن من هذا كله سوى ان وجد نفسه في المكتب الغامض ليتحدث بترهات لا اول لها ولا آخر عن عمه فيودور الذي امضى حياته يسكر في فولوغدا . ياله من سخف لا يطاق !

واخيراً تركوه وشانه فاعادوه الى غرفته حيث قدم له فنجان قهوة وبيضتا برشت وخبز ابيض مع قطعة زبدة .

قرر ايفان ، بعد ان اكل وشرب ما قدم له ، انتظار المسؤول الرئيسي في هذه المؤسسة والظفر منه ، هذا المسؤول الرئيسي ، بالرعاية والعدل .

ولم يطل انتظاره . فما كاد يفرغ من تناول الفطور ، حتى فتح باب غرفة ايفان فجـــاة ودخل اشخاص كثيرون في اردية بيض ، يتقدمهـــم شخص في نحو الخامسة والاربعين من العمر محلوق الراس بعناية على طريقة الممثلين ، ذو عينين لطيفتين انما جد ثاقبتين وطريقة في التعامل تشي بادبه الجم . وكانت كل حاشيته تبدي له علامات الحفاوة والاحترام ، ولهذا بدا دخوله الى غرفة ايفان جد مهيب . «كانه بيلاطس البنطي !» – قال ايفان في سره .

نعم ، كان هذا المسؤول الرئيسي دون شك . جلس على منضدة صغيرة دون مسند بينما ظل الآخرون وقوفاً .

– الدكتور سترافنسكي ، – قال الجالس يقدم نفسه الى ايفان وهو يلقي عليه نظرة ود .

– تفضل يالكسندر نيقولايفتش ! – قال أحدهم وهو ذو لحية مهندمة بصوت خافت ومد يده الى المسؤول الرئيسي بصحيفة ايفان المليئة .

«عملوا منها قصة !» – قال ايفان في سره . اما المسؤول الرئيسي فقد مر على الصحيفة بعينين معتادتين وغمغم : «او – هو ، او – هو . . .» وتبادل مع المحيطين به بعض عبارات بلغة قليلة الشهرة .

«ويتكلم باللاتينية مثل بيلاطس . . .» – فكر ايفان في حزن . الا ان احدى الكلمات جعلته يرتعد . وكانت هذه كلمة «الفصام» – اي واسفاه الكلمة التي تفوه بها الأجنبي اللعين في بتريرشيي برودي يوم امس والتي كررها اليوم البروفيسور سترافنسكي هنا .

«وكان يعرف هذا ايضاً !» – فكر ايفان في قلق .

كان المسؤول الرئيسي قد درج ، فيما يبدو ، على موافقة من يحيط به في كل ما يقوله ويسر به وان يعبر عن موافقته وسروره هذين بكلمة «رائع ، رائع . . .»

– رائع ! – قال سترافنسكي وهو يعيد الصحيفة لأحدهم ، ثم التفت الى ايفان يسأله : – انت الشاعر ؟

– نعم ، شاعر ، – أجابه ايفان في تجهم ، وهو يشعر للمرة الأولى في حياته بكره غامض للشعر ، حتى أشعاره التي مرت بخاطره في هذه اللحظة بدت له ، لسبب ما ، كريهة .

وسأل بدوره سترافنسكي وهو مقطب الجبين :

– انت البروفيسور ؟

رد عليه سترافنسكي بانحناءة أدب ومجاملة من رأسه .

واستطرد ايفان :

– وانت المسؤول الأول هنا ؟

حنى سترافنسكي رأسه مرة أخرى .



– انا بحاجة الى التحدث اليك ، – قال ايفان نيقولايفتش بلهجة ذات معنى .

– ولهذا بالضبط حضرت ، – رد سترافنسكي .

– المسألة ، – بدأ ايفان كلامه وقد شعر ان ساعته ازفت ، – المسألة أنهم عدوني مجنوناً ولا أحد يريد أن يستمع الي ! . .

– أو ، لا ، سنستمع اليك باهتمام شديد ، – قال له سترافنسكي بصوت رزين مطمئن ، – ولن نسمح باعتبارك مجنوناً بأي صورة من الصور .

– اسمعني اذن . امس مساء صادفت في بتريرشيي برودي شخصاً غامضاً ، لا أدري ان كان اجنبياً أم لا ، كان يعرف مسبقاً بموت برليوز ، ورأى شخصياً بيلاطس البنطي .

كانت الحاشية تصغي الى الشاعر وكان على رأسها الطير كما يقال .

– بيلاطس ؟ بيلاطس ذاك الذي عاش في ايام يسوع المسيح ؟ – سأل سترافنسكي ايفان وهو يضيق عينيه .

– هو نفسه .

– آ ، – قال سترافنسكي ، – وبرليوز هذا مات تحت عجلات الترام ؟

– نعم بالضبط ، امس مساء دعسه الترام امامي في بتريرشيي برودي ، زد على ذلك ان هذا المواطن اللغز . . .

– الذي يعرف بيلاطس البنطي ؟ – سأله سترافنسكي الذي كان يتميز ، كما هو واضح ، بقدرة كبيرة على الفهم .

– هو بالذات ، – أجاب ايفان مؤكداً وهو يتفحص وجه سترافنسكي ، – هذا المواطن ، اذن ، قال مسبقاً ان انوشكا سكبت زيت عباد الشمس . . . وقد زلت قدمه في ذلك المكان بالذات ! هل اعجبك هذا ؟ – تساءل ايفان بلهجة ذات معنى على أمل ان يحدث بكلماته هذه تأثيراً كبيراً في سترافنسكي .

لكن هذا التأثير لم يحصل ، اذ طرح عليه سترافنسكي السؤال التالي ببساطة متناهية :

– ومن انوشكا هذه ؟

وأربك هذا السؤال ايفان فتشنج وجهه .

– انوشكا لا اهمية لها في هذا الموضوع على الاطلاق ، – اجاب ايفان وقد اخذت اعصابه تتوتر ، – الشيطان اعلم من هي . مجرد حمقاء من سادوفايا . المهم هنا انه كان يعرف مسبقاً ، هل تفهمني – كان يعرف مسبقاً بأمر زيت عباد الشمس . هل تفهمني ؟

– كل الفهم ، – اجابه سترافنسكي بصوت رزين واردف يقول وهو يمس ركبة الشاعر : – وانت تابع ، لا تقلق .

– ساتابع ، قال ايفان وهو يجهد لأن يجاري لهجة سترافنسكي وقد ادرك بتجربته المرة ان الهدوء وحده يمكن ان يساعده ، – هذا الشخص الفظيع اذن ، وهو يكذب حين يدعي انه مستشار ، هذا الشخص الفظيع يتمتع بقوة خارقة . . . مثلا ، تطارده فلا تستطيع اللحاق به . ومعه اثنان ، هما ايضاً جيدان انما في جنسهما : رجل طويل بزجاج نظارة متصدع ، وقط هائل الحجم يركب الترام بمفرده . – وتابع ايفان الذي لم يكن يقاطعه أحد حديثه بمزيد من الحماسة والقناعة : –زد على ذلك انه كان شخصياً على شرفة بيلاطس البنطي ، وهذا أمر لا يحتمل الشك . فما معنى هذا ؟ آ ؟ علينا اعتقاله على الفور والا جر علينا مصائب لا توصف .

– انت اذن تسعى الى اعتقاله ، اليس هذا ما تريد قوله ؟ – سأله سترافنسكي .

«انه ذكي – فكر ايفان في سره ، – يجب الاعتراف أنه يوجد احياناً بين المثقفين ايضاً أناس اذكياء جداً . وعلينا الا ننكر ذلك !» – واجاب :

– تماماً ! وكيف لا اسعى الى اعتقاله ، فكر في هذا بنفسك ! وبدلاً من ذلك يحجزونني هنا عنوة ويسلطون على عيني مصابيحهم ، ويحمموننني ويطرحون علي اسئلة عن عمي فيودور ! . . مع انه فارق الحياة منذ أمد بعيد جداً ! واني لأطلب اطلاق سراحي فوراً .

– وماذا في الأمر ! رائع ! – رد عليه سترافنسكي ، – لقد اتضح كل شيء . وبالفعل ما الحكمة في احتجاز انسان سليم في المصحة ؟ حسن ! سأطلق سراحك على الفور اذا قلت لي انك



انسان سوي . اريدك ان تقول لي هذا لا ان تبرهن عليه . وعلى هذا ، هل انت انسان سوي ؟

وهنا اطبق صمت كامل . رفعت المرأة البدينة التي كانت ترعى ايفان في الصباح عينيها الى البروفيسور في نظرة اكبار ، بينما فكر ايفان في سره ثانية : «ذكي بالتأكيد» .

وقع عرض البروفيسور موقعاً حسناً من نفس ايفان ، لكنه فكر طويلاً طويلاً قبل ان يجيب وقد قطب جبينه . وقال اخيراً بصوت جازم :

– اني انسان سوي .

– تمام ، رائع ، – صاح سترافنسكي في ارتياح ، – اذا كان الأمر كذلك فتعال نفكر معاً بشكل منطقي . لنأخذ يوم امس ، – وهنا التفت فناولوه صحيفة ايفان حالاً . – خلال بحثك البارحة عن الشخص المجهول الذي قدم اليك نفسه على أنه من معارف بيلاطس البنطي قمت بالأعمال التالية ، – وهنا أخذ سترافنسكي يثني أصابعه الطويلة وهو ينظر الى الصحيفة تارة والى ايفان تارة أخرى ، – علقت على صدرك ايقونة . حدث ؟

– حدث ، – قال ايفان موافقاً في تجهم .

– سقطت عن السياج وجرحت وجهك . صحيح ؟ حضرت الى المطعم وانت تحمل شمعة مشتعلة بيدك وانت في ملابسك الداخلية فقط ، وفي المطعم صفعت احد الحاضرين . احضروك الى هنا مقيداً . وبعد حضورك اتصلت هاتفياً بالشرطة وطلبت منهم ارسال رشاشات . ثم حاولت القفز من النافذة . صحيح ؟ هنا لا بد أن نتساءل : هل يمكننا بتصرفنا على هذا النحو ان نقبض على شخص ما أو نعتقله ؟ اذا كنت انساناً سوياً ، فلا بد ان تجيب : لا ، ابداً . تريد ان تخرج من هنا ؟ تفضل . انما اسمح لي ان اسالك : الى اين ؟

– الى الشرطة بالطبع ، – اجابه ايفان لكن ليس بنفس اللهجة الواثقة كالسابق ، وهو يشعر ببعض الارتباك والحيرة من نظرات البروفيسور المسلطة عليه .

– من هنا مباشرة ؟

– نعم .

– الن تعرج في طريقك على شقتك ؟ – ساله سترافنسكي بسرعة .

– لا وقت لدي ! سيختفي بينما انا ادور على الشقق !

– حسن . وما هو اول شيء ستقوله لهم في قسم الشرطة ؟

– ساخبرهم عن بيلاطس البنطي ، –اجابه ايفان نيقولايفتش وغشيت عينيه سحابة قاتمة .

– اوه ، رائع ! – هتف سترافنسكي مستسلماً والتفت الى الرجل ذي اللحية يامره قائلاً : – اكتب للمواطن بيزدومني ورقة تخريج من فضلك يافيودور فاسيليفتش . انما لا تشغلوا هذه الغرفة ، كما بامكانكم الا تغيروا بياضات السرير . فالمواطن بيزدومني عائد الى هنا في ساعتين . – ثم التفت الى ايفان قائلاً : – وماذا في اليد ، لا استطيع ان اتمنى لك التوفيق ، لاني لا اؤمن بهذا التوفيق مقدار ذرة . الى اللقاء قريباً ! – ونهض فتحركت حاشيته حوله .

– على اي اساس ساعود الى هنا ؟ – ساله ايفان في قلق .

وكأن سترافنسكي كان يتوقع هذا السؤال فعاد من فوره الى الجلوس وقال :

– على اساس انك ما ان تحضر في سروالك التحتاني الى الشرطة ، وتقول انك التقيت بشخص عرف شخصياً بيلاطس البنطي ، حتى يعيدوك الى هنا على الفور لترى نفسك في هذه الغرفة نفسها .

– وما شان السروال التحتاني هنا ؟ – ساله ايفان وهو يتلفت حوله في ارتباك شديد .

– الشان الأول هو شان بيلاطس البنطي . لكن السروال التحتاني له دخله ايضاً . فنحن سنخلع عنك ثياب الدولة ونعيد اليك ثيابك . لقد احضرت الينا في سروالك التحتاني ، ومع هذا لم ترغب في التعريج على شقتك مع اني لمحت لك الى هذا . بعد ذلك انصب الحديث على بيلاطس . . . واصبحت المسالة مفهومة !

وهنا حدث لايفان نيقولايفتش شيء غريب : كانما فلت ارادته فشعر انه ضعيف وانه يحتاج الى النصح .

– وما العمل ؟ – سال في وجل هذه المرة .



– رائع ! رائع ! – ردّ سترافنسكي . – هذا سؤال معقول جداً . ساقول لك الآن ما جرى لك بالضبط . البارحة احدهم ارعبك وشوش افكارك بقصصه عن بيلاطس وغيرها ، فانطلقت في المدينة ، وانت متوتر الأعصاب مجهدها ، تحدث الناس عن بيلاطس البنطي . ومن الطبيعي جداً ، في هذه الحالة ، ان يعتبروك مجنوناً . ان خلاصك الآن ليس له الا سبيل واحد – الهدوء التام . وبالتالي لا بد لك من المكوث هنا .

– لكن يجب العثور عليه ! – هتف ايفان ، انما بصوت ضارع هذه المرة .

– حسن ، ولكن لماذا عليك ان تلاحقه بنفسك ؟ اعرض على ورقة كل شكوكك حول هذا الشخص وكل اتهاماتك له . وليس هنا ما هو اسهل من توجيه تصريحك حيث يجب ان يُوجه ، واذا كان الأمر امر مجرم كما تفترض ، فما أسرع ما يتضح الأمر . انما هناك شرط واحد : لا تجهد راسك وحاول ان تفكر اقل ما يمكن في بيلاطس البنطي . هل ما تلوكه الالسن بالشيء القليل ! انما على الانسان الا يصدق كل ما يسمع !

– فهمت ! – اعلن ايفان بحزم ، – ارجو اعطائي ورقة وقلماً .

– اعطيه ورقة وقلم رصاص قصيراً ، – امر سترافنسكي المراة البدينة ، بينما قال لايفان ما يلي : – انصحك الا تكتب اليوم شيئاً .

– لا ، لا ، بل اليوم ، اليوم لا محالة ، – صاح ايفان في قلق .

– حسن ، انما لا تجهد دماغك . ما لا تستطيعه اليوم تستطيعه غداً .

– لكنه سيهرب !

– لا ، لا ! – اعترض سترافنسكي بثقة ، – لن يهرب وانا اضمن ذلك . ثم اذكر انهم هنا سيقدمون لك كل اشكال المساعدة ، وبدونها لن تستطيع شيئاً . هل تسمعني ؟ – ساله سترافنسكي فجاة بلهجة ذات معنى وامسك بيديه ووضعهما بين يديه ، واخذ يردد على سمع ايفان وهو ينظر في عينيه طويلاً وبعناد : – سيساعدونك هنا . . . هل تسمعني ؟ سيساعدونك

هنا . . . سيساعدونك هنا . . . وستجد الراحة والاطمئنان . هنا كل شيء هادئ . . . سيساعدونك هنا . . .

تثاءب ايفان فجأة ولانت تعابير وجهه .

– نعم ، نعم ، – قال بصوت خفيض .

– رائع ! رائع ! – أنهى سترافنسكي الحديث بهذه الكلمات على عادته ، وهب واقفاً – الى اللقاء ! – وشد على يد ايفان ثم التفت وهو خارج الى الرجل ذي اللحية الصغيرة وقال له : – على فكرة ، اما الاوكسجين فجربوه . . . والمغاطس .

وفي ثوان اختفى سترافنسكي وحاشيته من أمام ايفان . ولاح وراء شبكة النافذة في شمس الظهيرة حرش الصنوبر الربيعي البهيج على الشاطئ الآخر والنهر يتلألأ أمامه .

## الفصل التاسع

## ملاعيب كوروفييف

كان نيكانور ايفانوفتش بوسوي رئيس الجمعية السكنية للبناية رقم ٣٠٢-مكرر ، القائمة في شارع سادوفايا في موسكو ، حيث كان يقيم المرحوم برليوز ، غارقاً حتى شحمة اذنيه في مشاغل وهموم هائلة من الليلة السابقة ، ليلة الأربعاء على الخميس .

ففي منتصف الليل ، كما نعرف ، حضرت اللجنة ، التي كان جيلديبين من اعضائها ، واستدعت نيكانور ايفانوفتش واخبرته بمصرع برليوز ، ثم توجهوا معاً الى الشقة رقم ٥٠ .

تم هناك ختم مخطوطات المرحوم وحاجياته . وتبين انه لم يكن في الشقة آنذاك الخادمة غرونيا ولا هذا الطائش ستيبان بوغدانوفتش . واعلمت اللجنة نيكانور ايفانوفتش انها ستأخذ معها مخطوطات المرحوم لفرزها ، وان سكن المرحوم اي الغرف الثلاث (المكتب وغرفة الاستقبال وغرفة الطعام التي كانت عائدة لزوجة الصائغ) سيوضع تحت تصرف الجمعية السكنية ، اما حاجيات المرحوم فتحفظ في سكنه حتى الاعلان عن اسماء الورثة .



انتشر خبر مصرع برليوز في البناية كلها بسرعة فائقة ، وبدأت الهواتف أولاً تنهال على بوسوي منذ السابعة من صباح الخميس ، ثم اخذ الناس يحضرون شخصياً ومعهم طلبات يدعون فيها احقيتهم في سكن المرحوم . وفي ساعتين استلم نيكانور ايفانوفتش اثنين وثلاثين منها .

وكانت هذه الطلبات تتضمن توسلات وتهديدات ودساً ووشايات وتعهدات باصلاح السكن على نفقة مقدم الطلب الخاصة ، واشارات الى ضيق المنزل الذي لا يحتمل ، والى استحالة السكن في شقة واحدة مع لصوص . ومما تضمنته هذه الطلبات وصف مذهل بقوته الفنية لسرقة احدهم فطائر صغيرة باللحم في الشقة رقم ٣١ ، وكيف دسها مباشرة في جيب جاكيتته ، ووعدان بالانتحار ، واعتراف واحد بحمل سري .

وكانوا يستدعون نيكانور ايفانوفتش الى مدخل شقته ، ويمسكونه من كمه ويهمسون له بشيء ما ويغمزونه ويعدونه بأن يردوا له جميله .

واستمر عذاب نيكانور ايفانوفتش هذا حتى بداية الساعة الأولى ظهراً ، اذ هرب ، نعم بكل بساطة هرب من شقته الى مقر الجمعية السكنية القائم قرب الباب الخارجي ، لكنه حين رأى هناك اناساً تترصده أيضاً ظل منطلقا . وبعد ان استطاع بشكل ما التملص من الذين كانوا يتعقبونه في الفناء الواسع المفروش بالاسفلت ، اختبأ في المدخل السادس للبناية وصعد الى الطابق الخامس حيث الشقة النجسة رقم ٥٠ اياها .

التقط نيكانور ايفانوفتش البدين أنفاسه أمام الشقة ثم قرع جرسها ، لكن أحداً لم يفتح له . فقرعه ثانية ثم ثالثة واخذ يدمدم ويسب ويشتم بصوت خافت . ومع هذا لم يفتح له أحد . اذاك نفد صبر نيكانور ايفانوفتش فاخرج من جيبه رزمة من نسخ المفاتيح العائدة لادارة العمارة السكنية ، وبحركة مَنْ بيده الأمر والنهي فتح الباب ودخل .

– اي ، ايتها الخادمة ، – صاح نيكانور ايفانوفتش وهو في المدخل نصف العاتم . – ما اسمك انت ؟ غرونيا ، أليس كذلك ؟ ألست هنا ؟

لم يرد عليه أحد .

اذاك نزع نيكانور ايفانوفتش الختم عن باب المكتب ، واخرج من حقيبته متراً مطوياً وخطا باتجاه المكتب .

صحيح انه خطا ، لكنه توقـــف مذهولاً في الباب ، بل ان فرائصه ارتعدت .

فقد كان يجلس الى طاولـــة المرحوم مواطن غريب نحيل وطويل يلبس جاكيتـــة ذات مربعات وقبعـــة شوّار ونظارة انفية . . . وبكلمة واحدة ذلك الشخص اياه .

– من تكون ايها المواطن ؟ – سالـه نيكانور ايفانوفتش وهو في حالة ذعر .

– فرصة سعيدة ، يا نيكانور ايفانوفتش ، – صرخ المواطن غير المنتظر بصوت عال وحاد ووثب مـــن مقعده يحيي رئيس الجمعية السكنية بالشد على يده بغتة وعنوة . ولم تبعث هذه التحية في نفس نيكانور ايفانوفتش اي شعور بالسرور او الرضى .

– المعذرة ، – قال نيكانور ايفانوفتش بلهجة ارتياب ، – لكن من تكون ؟ هل انت شخص رسمي ؟

– اي ، نيكانور ايفانوفتش ، – هتف المجهـول بود ، – ما معنى ان يكون الانسان شخصاً رسمياً او غير رسمي ؟ هذا كله يتوقف على الزاوية التي ننظر منها الى الأشياء . وهذا كله ، يا نيكانور ايفانوفتش ، اشياء شرطيـــة ورجراجة . اليوم قد لا اكون شخصاً رسمياً ، بينما غداً اكونه . وقد يحدث العكس ، يا نيكانور ايفانوفتش ، وامرُ منه ، وليتك تعرف كيف يحدث !

لم يُرض هذا القول رئيس مجلس ادارة العمارة بأي شكل من الأشكال مما دفعه الى الاستنتاج ، وهو الانسان المتشكك بطبيعته ، ان هذا المواطن المتبسط في الكلام امامه ، انما هو شخص غير رسمي ، وربما كان شخصاً بطالاً .

– ومن تكون اخيراً ؟ وما هي كنيتك ؟ – كان صوت رئيس مجلس الادارة يزداد صرامة ، بل همّ بدفع الغريب .

– كنيتي ، – اجابه المواطن الغريب دون ان يشعر بأي حرج من لهجة السؤال الصارمة ، – كنيتي ، لنقل كوروفييف . على فكرة الا تريد بعض المـــزة يا نيكانور ايفانوفتش ؟ بدون كلفة ! آ ؟

– العفو ، – قال نيكانور ايفانوفتش وقـــد اخذ السخط



يتملكه ، – اي مزة هذه التي تتكلم عنهـا ! (ويجب الاعتراف هنا ، مع ان هذا ليس بالشيء اللطيف ، ان نيكانور ايفانوفتش كان على شيء من الفظاظـــة بطبعه) . الا تعرف ان الجلوس في مسكن المتوفى ممنوع ! ماذا تفعل هنا ؟

– هلا جلست ، يا نيكانور ايفانوفتش ، – زعق المواطن دون اي ارتباك واخذ يسعى حوله مقدماً له اريكة .

دفع نيكانور ايفانوفتش الاريكة وجار وهو يتميز غيظاً :

– ومن تكون اخيراً ؟

– اذا اردت ان تعرف فانا اعمل مترجمـــاً لدى شخصية اجنبية تقيم في هذه الشقة ، – قال الذي يدعي انه كوروفييف مقدماً نفسه ، ونقر بكعب حذائه الاحمر الوسخ .

فغر نيكانور ايفانوفتش فاه . فوجود أجنبي ، وبمعية مترجم ايضاً ، في هذه الشقة كان مفاجاة كاملة له . وطالب بايضاحات .

واوضح المترجم الأمر بطيب خاطر . لقد تلقى الفنان الأجنبي السيد فولند دعوة كريمة من مدير مسرح «فاريبتيه» ستيبـان بوغدانوفتش ليخودييف لينزل فترة جولته الفنية التي تمتد نحو اسبوع في شقته ، ولقد كتب الى نيكانور ايفانوفتش البارحة في هذا الخصوص طالباً اليه تسجيل اسم الاجنبي مؤقتاً بين اسماء قاطني البناية ، ريثما يعود ليخودييف من يالطا .

– انه لم يكتب لي شيئاً ، – قال الرئيس مبهوتاً .

– هلا بحثت في حقيبتك يا نيكانور ايفانوفتش ، – قال له كوروفييف بعذوبة .

فتح نيكانور ايفانوفتش الحقيبة وهو يهز كتفيه ، ووجد فيها رسالة ليخودييف .

– كيف نسيتها ؟ – غمغم نيكانور ايفانوفتش وهو ينظر الى الظرف المفضوض ببلادة .

– ما اكثر ما تحدث مثل هذه الامور ، ما اكثر ما تحدث ، يانيكانور ايفانوفتش ! – اخذ كوروفييف يثرثر ، – السهو ، السهو ، والارهاق وارتفاع ضغط الدم ياصديقنا العزيز نيكانور ايفانوفتش ! انا شخصياً شديد السهو والشرود بشكل فظيع . لا بد ان اروي لك ونحن نتناول كاساً بعض وقائع من حياتي وستقهقه من الضحك !

– ومتى يسافر ليخودييف الى يالطا ؟ !

– لقد سافر ، سافر ! – صرخ المترجم ، – انه منطلق ، والشيطان وحده يدري اين هو الآن ! – وهنا لوح المترجم بيديه الأشبه بجناحي طاحونة .

وهنا أعلن نيكانور ايفانوفتش عن ضرورة مقابلة الأجنبي شخصياً ، لكنه جوبه برفض المترجم : مستحيل ، انه مشغول ، يروض القط .

– يمكنني ان اريك القط اذا شئت ، – اقترح عليه المترجم .

لكن نيكانور ايفانوفتش رفض بدوره هذا العرض ، فاتبعه كوروفييف على الفور بعرض آخر مفاجيء لكنه جد مغر .

بما ان السيد فولند الذي الف العيش في دور واسعة لا يرغب باي شكل من الأشكال النزول في الفندق ، الا تستطيع الجمعية السكنية تاجيره الشقة كلها ، اي بما في ذلك غرف المرحوم لمدة اسبوع ، اي طول جولة فولند الفنية في موسكو ؟

واردف كوروفييف يهمس بصوت جشر :

–الأمر سيان بالنسبة له ، للمرحوم . الا توافقني يانيكانور ايفانوفتش ان هذه الشقة لا تهمه في شيء الآن ؟

اعترض نيكانور ايفانوفتش وقد انتابه بعض الارتباك بالقول ان المفروض في الأجانب ان ينزلوا في فندق «الميتروبول» وليس في شقق خاصة . . .

– اقول لك انه صاحب نزوات لا يدري بها الا الشيطان !

– همس كوروفييف ، – لا يرغب وحسب ! انه لا يحب الفنادق !

– واردف كوروفييف يشكو بلهجة حميمة وهو يغرز اصبعه في رقبته المعروقة : – انظر اين يركب هؤلاء السواح ، لقد أزهقوا روحي ! يأتي احدهم . . . فاما ان يأخذ بالتجسس كاحط ابن كلب ، واما ان يزهق روحك بنزواته : هذا الشيء لا يعجبه ، وذاك ليس كما يجب ! . . أما جمعيتكم ، يانيكانور ايفانوفتش ، فعرضه يعود عليها بفائدة بالغة ونفع محقق . وهو لا يضن باي مبلغ ، – وهنا تلفت كوروفييف حوله وهمس في اذن رئيس الجمعية : – انه مليونير !

كان في عرض المترجم معنى عملي واضح ، وكان عرضه في



غاية الرصانة ، لكن شيئاً ما غير رصين بشكل غريب كانت تشي به طريقة المترجم في الكلام ولباسه ونظارته الأنفية المقيتة هذه التي لا تصلح لشيء . وبالتالي اخذ شيء ما غامض يثقل على نفسه ، لكنه قرر مع هذا قبول العرض . ذلك ان الجمعية السكنية كانت تعاني ، للأسف ، من عجز كبير . فقد كان عليهم ، في مطلع الخريف ، ان يشتروا مازوتاً للتدفئة المركزية ولكن كيف – لا أحد يدري . وبهذا المال الذي يعرضه هؤلاء السواح يمكنهم الخروج من المازق . لكن نيكانور ايفانوفتش العملي والحذر اعلن ان عليه اولاً ان ينسق هذا الأمر مع مكتب السواح الاجانب .

– افهم ذلك ، – صاح كوروفييف ، – يجب التنسيق ، التنسيق لا بد منه . هاهو ذا الهاتف يانيكانور ايفانوفتش ، نسقه معهم حالاً . وبخصوص المال لا تتحرج ، – اردف همساً وهو يسحب رئيس الجمعية باتجاه مدخل الشقة حيث الهاتف ، – ممن يمكنك ان تاخذ مالاً ان لم يكن منه ! لو رايت دارته في نيس ! اذا سافرت الصيف القادم خارج البلد ، تقصّد المرور عليه لتتاملها – سيأخذك العجب !

ونسق الأمر بالهاتف مع مكتب السواح بسرعة فائقة اذهلت رئيس الجمعية . فقد تبين أنهم هناك يعرفون بنية السيد فولند النزول في شقة ليخودييف الخاصة ، وانهم لا يعترضون على هذا بتاتاً .

– رائع ! – جار كوروفييف .

واعلن رئيس الجمعية الذي صعقته جلبة كوروفييف قليلاً ان الجمعية توافق على تأجير الفنان السيد فولند الشقة رقم ٥٠ لأسبوع بمبلغ . . . – وهنا تلعثم قليلاً ثم اردف :

– بمبلغ خمسمائة روبل في اليوم الواحد .

وهنا ادهش كوروفييف رئيس الجمعية نهائياً . فقد قال بصوت جشر وهو يغمز باتجاه غرفة النوم ، حيث كانت تسمع قفزات القط الثقيل الرشيقة :

– معنى ذلك ثلاثة آلاف ونصف في اسبوع ؟

ظن نيكانور ايفانوفتش ان كوروفييف سيردف الى ذلك :

«بالشهيتك يانيكانور ايفانوفتش !» – لكن كوروفييف قال شيئاً آخر تماماً :

– وهل هذا مبلغ ! اطلب خمسة يعطك .

ابتسم نيكانور ايفانوفتش في ذهول وما لبث ان وجد نفسه ، دون أن يدري ، قرب مكتب المرحـــوم حيث كتب كوروفييف بسرعة ومهارة عظيمتين العقد على نسختين . ثم اسرع الى غرفة النوم وعاد منها فاذا بالنسختين قد وقعهمـــا الأجنبي بحروف عريضة . كما وقع العقد رئيس الجمعية ايضاً . وهنـــا طلب كوروفييف ايصالاً بخمسة آلاف . . .

– اكتبها احرفـــاً يانيكانور ايفانوفتش ! . . خمسة آلاف روبل . . .

وبكلمات لا تناسب العمل الجاد الذي يقومان به «أين – تسفي – دري» * وضـــع كوروفييف خمس رزم من الأوراق المصرفية الجديدة امام رئيس الجمعية .

تخلل عد النقود مداعبات وامثال كان يطلقها كوروفييف : «المال يحب العد» ، «عينك ابصر» وما الى ذلك .

عد رئيس الجمعية النقود واخذ من كوروفييف جواز سفر الأجنبي لتسجيل الاسم ووضعه هو والعقد والنقود في حقيبته ، ثم التفت الى كوروفييف ، وهو لما يعد يتمالك نفسه ، وساله على استحياء بطاقة دخول مجانية . . .

– تكرم ، تكرم ! – جار كوروفييف ، – كم بطاقة تريد ، يانيكانور ايفانوفتش ، اثنتا عشرة ، خمس عشرة ؟

افهمه رئيس الجمعية المبهوت انه يحتاج الى بطاقتين فقط ، له ولزوجته بيلاغيبا انطونفنا .

وللحال أخرج كوروفييف مفكرة ، وحرر لنيكانور ايفانوفتش باندفاع بطاقة مجانية لشخصين في الصف الأمامي ، ثم دس بيده اليسرى البطاقة بيد نيكانور ايفانوفتش برشاقة ، بينما وضع بيده اليمنى رزمة سميكة مخشخشة في يد رئيس الجمعية الأخرى . القى نيكانور ايفانوفتش نظرة خاطفة على الرزمة فاصطبغ وجهه بحمرة شديدة واخذ يدفعها عنه .

---

* واحد اثنان ثلاثة (بالالمانية) . المترجم .



– هذا لا يجوز . . . – قال مغمغماً .

– لا تتعب نفسك ، لن اصغي اليك ، – همس كوروفييف في اذنه تماماً ، – عندنا هذا غير جائز ، اما عند الأجانب فجائز . انك ستزعله يانيكانور ايفانوفتش وهذا محرج . لقد سعيتَ وبذلتَ جهداً . . .

– القانون يعاقب بصرامة ، – همس الرئيس بصوت خافت خافت وتلفت حوله .

– واين الشهود ؟ – همس كوروفييف في اذنه الأخرى ، – اني اسالك : اين هم ؟ ومم تخاف ؟

وهنا حدثت معجزة كما اكد رئيس الجمعية فيما بعد : فقد انسلت الرزمة بنفسها من يده الى حقيبته . ثم وجد نفسه ، وهو المهدود القوى بل المحطم ، على السلـــم . كان تيار من الأفكار يضطرب في رأسه . وكان من بينها تلك الدارة في نيس ، والقط المروّض ، وعدم وجود شهود بالفعل ، وسرور بيلاغيبا انطونوفنا لدى رؤيتها البطاقة المجانية . كانت افكاراً غير مترابطة لكنها لطيفة سارة على وجه العموم . ومع هذا كله كانت هناك في اعماقه ابرة صغيرة تخـزه . هذه الابرة كانت ابرة القلق . وبالاضافة الى ذلك زلزلت كيان الرئيس وهو لا يزال على درجات السلم فكرة : «كيف استطاع المترجم الدخول الى المكتب وبابه مختوم ؟ او كيف لم يساله هو نيكانور ايفانوفتش عن ذلك ؟» . وقف رئيس الجمعية فترة ينظر ببلاهة الخروف الى درجات السلم ثم قرر تناسي هذا الموضوع وعدم تعذيب نفسه بحـــل هذه المسالة المعقدة . . .

ما ان غادر رئيس الجمعية السكنية الشقة حتى تناهى من غرفة النوم صوت منخفض :

– نيكانور ايفانوفتش هذا لم يعجبني . انه غشاش ونصاب . الا تستطيع ان تعمل بحيث لا يعود الى هنا ابداً ؟

– حسبك ان تأمر ياسيدي ! . . – اجابه من مكان مـــا كوروفييف بصوت صاف جهوري لا اثر للصرير فيه .

وعلى الفور صار المترجم اللعين في المدخل ، حيث أدار رقماً واخذ يقول في السماعة بصوت اللّه اعلم لماذا كان باكياً :

– الو ! اعتبر من واجبي ابلاغكم ان رئيس الجمعية السكنية

للبناية رقم ٣٠٢-مكرر في شارع سادوفايا نيكانور ايفانوفتش بوسوي يتاجر بالعملة الاجنبية . وفي الوقت الراهن لديه في شقته رقم ٣٥ في كوة التهوية التي في المرحاض اربعمائة دولار ملفوفة بورقة جريدة . معكم على الخط الآن في الشقة رقم ١١ من العمارة المذكورة تيموفي كفاستسوف . لكني استحلفكم ان يظل اسمي سراً . فانا أخاف من انتقام رئيس الجمعية المذكور .

وعلق السماعة ، النذل !

لا نعرف ما حدث في الشقة رقم ٥٠ بعد هذا ، لكننا نعرف ما حدث عند نيكانور ايفانوفتش . دخل نيكانور ايفانوفتش المرحاض وقفل الباب خلفه ثم اخرج من حقيبته الرزمة التي دسها له المترجم عنوة ، وتاكد من وجود اربعمائة روبل فيها . لف نيكانور ايفانوفتش هذه الرزمة في ورقة جريدة ودسها في كوة التهوية .

وبعد خمس دقائق كان رئيس الجمعية السكنية يجلس الى المائدة في غرفة الطعام الصغيرة . كانت زوجته قد احضرت من المطبخ سمكة رنكة مقطعة بعناية ، ومغطاة بطبقة كثيفة من البصل الأخضر . سكب نيكانور ايفانوفتش قدحاً من الفودكا وشربه ، ثم سكب ثانياً وشرب ، ورفع بشوكته ثلاث قطع من الرنكة . . . وفي هذه اللحظة قرع جرس الباب ، بينما كانت بيلاغييا انطونفنا عائدة من المطبخ وهي تحمل طنجرة يتصاعد منها دخان خفيف يستطيع المرء بنظرة واحدة اليها أن يحزر ان في حساء كرنبها الكثيف الساخن الذ واشهى ما في الدنيا – عظمة النخاع .

ازدرد نيكانور ايفانوفتش ريقه وأخذ يهر كالكلب :

– غوروا من وجهي ! لا يدعون المرء يتناول طعامه . لا تدخلي احداً ، فانا غير موجود ، أنا غير موجود . وبخصوص الشقة قولي لهم ان يكفوا عن اللغط . بعد اسبوع عندنا اجتماع . . .

هرعت زوجته الى المدخل بينما اخرجها نيكانور ايفانوفتش بمغرفته من هذه البحيرة المتلظية – اخرج العظمة المتشققة بالطول . وفي هذه اللحظة دخل غرفة الطعام مواطنان ومعهما بيلاغييا انطونفنا وهي شاحبة الوجه لسبب لم يدركه . لدى رؤية نيكانور ايفانوفتش المواطنين امتقع وجهه هو أيضاً وهب واقفاً .



– اين المرحاض ؟ – سأل المواطن الأول الذي كان يرتدي قميصاً ابيض ذا ازرار جانبية بانشغال بال .

سُمعت خبطة على مائدة الطعام (كانت الملعقة قد سقطت من يد نيكانور ايفانوفتش على مشمع الطاولة) .

– هنا ، هنا ، – ردت بيلاغييا انطونفنا بسرعة .

واندفع الزائران من فورهما الى الممر .

– ما الموضوع ؟ – سأل نيكانور ايفانوفتش بصوت خافت وهو يتبع الزائرين ، – ليس عندنا في الشقة ما يمكن ان يثير شبهة . . . هل عندكما وثائقكما . . . العفو ان . . .

ارى أولهما نيكانور ايفانوفتش الوثيقة على الماشي ، بينما كان الثاني في اللحظة نفسها يقف على مقعد صغير دون مساند في المرحاض ويدس يده في كوة التهوية . اظلمت الدنيا في عيني نيكانور ايفانوفتش . و'نزعت الورقة فاذا بالرزمة لا تحتوي على روبلات ، بل على نقود غريبة لا تعرف ان كانت زرقاء اللون أم خضراء ، عليها صور شيخ عجوز . وعلى أي حال فان نيكانور ايفانوفتش لم يتبين هذا كله بوضوح ، اذ كانت تسبح أمام عينيه بقع اثر بقع .

– دولارات في كوة التهوية ، – قال الأول في استغراق ثم سأل نيكانور ايفانوفتش بلين وأدب : – هل الرزمة رزمتك ؟

– لا ، اجابه نيكانور ايفانوفتش بصوت رهيب ، – لقد دسها اعداء !

– يحدث هذا ، – قال الأول موافقاً ، وأردف يقول بنفس اللطف : – وما العمل ، عليك أن تسلم الباقي .

– لا شيء عندي ! لا شيء ، اقسم بالله ، لم امسك بيدي شيئاً من هذا طول حياتي ! – صرخ رئيس الجمعية السكنية بصوت يائس .

واندفع الى الدولاب الصغير وسحب درجه بجلبة ، واخرج منه حقيبته وهو يصرخ اثناء ذلك بعبارات غير مترابطة :

– هاهو ذا العقد . . . المترجم النذل دس . . . كوروفييف . . . في النظارة الأنفية !

فتح الحقيبة والقى نظرة الى داخلها ومد يده فازرق وجهه ووقعت الحقيبة من يده في حساء الكرنب . لم يكن في الحقيبة

شيء : لا رسالة ستيبان ولا العقد ولا جواز سفر الأجنبي ولا النقود ولا بطاقة الدخول المجانية . وباختصار لا شيء سوى المتر المطوي .

وصرخ رئيس الجمعية فيما يشبه الجنون :

– أيها الرفاق ، اقبضوا عليهم ! في بنايتنا قوى شريرة !

لا احد يدري ما الذي تراءى لبيلاغييا انطونفنا ، الا أنها ضربت كفاً بكف وصاحت :

– اعترف يانيكانور ! سيخففون عنك الحكم !

وبعينين محتقنتين بالدم رفع نيكانور ايفانوفتش قبضتيه فوق رأس زوجته وقال فيما يشبه النشيج :

– أوه ، أيتها الحمقاء اللعينة !

وهنا خارت قواه فتهاوى على الكرسي مستسلماً فيما يبدو لما ليس منه بد .

في هذا الوقت كان تيموفي كوندراتيفتش كفاستسوف على بسطة الدرج يلتصق بثقب باب شقة رئيس الجمعية تارة بأذنه وتارة بعينه وهو يتحرق فضولاً .

وبعد خمس دقائق رأى سكان العمارة المتواجدون في الفناء رئيس الجمعية يتوجه برفقة شخصين آخرين الى بوابة العمارة الخارجية راساً . ولقد روى هؤلاء ان وجه نيكانور ايفانوفتش كان ممتقع اللون ، وانه كان يترنح كالسكران وهو يغمغم باشياء غير مفهومة .

وبعد ساعة حضر الى الشقة رقم ١١ مواطن مجهول . حضر بالضبط فيما كان تيموفي كوندراتيفتش يروى لسكان العمارة الآخرين وهو في نشوة السعادة والرضى كيف القوا القبض على رئيس الجمعية ، واستدعى بايماءة من اصبعه تيموفي كوندراتيفتش من المطبخ الى المدخل واسر له شيئاً ثم اختفيا معاً .

## الفصل العاشر
## أنباء من يالطا

في الوقت الذي حلت بنيكانور ايفانوفتش المصيبة كان يتواجد في مكتب المدير المالي لمسرح «فاريبتيه» الواقع في نفس



شارع سادوفايا غير بعيد عن العمارة رقم ٣٠٢-مكرر شخصان : المدير المالي نفسه ريمسكي والمدير الاداري «لفاريبتيه» فارينوخا .

كان المكتب الواسع الذي يقع في الطابق الثاني من المسرح يطل باثنتين من نوافذه على شارع سادوفايا ، وبنافذته الثالثة القائمة راساً وراء ظهر المدير المالي ، الجالس الى مكتبه ، على الحديقة الصيفية «لفاريبتيه» حيث البوفيهات المبردة والمرمى والمسرح المكشوف . وكان أثاث الغرفة يتكون ، بالاضافة الى المكتب ، من حزمة من الاعلانات القديمة المتدلية على الجدار ، ومن طاولة صغيرة عليها دورق ماء ، ومن أربعة مقاعد وثيرة وحامل في الزاوية عليه نموذج قديم مغبر لأحد الاستعراضات . وبطبيعة الحال كانت توجد في غرفة المكتب ، الى جانب هذا كله ، وعلى يسار ريمسكي وقرب مكتبه تماماً ، خزانة عتيقة متقشرة مضادة للحريق ذات مقاييس صغيرة .

كان ريمسكي الجالس الآن وراء مكتبه منحرف المزاج منذ الصباح ، أما فارينوخا فكان على العكس متدفق الحيوية موفور الهمة وان كان يشوب همته الآن شيء من القلق اذ لم يكن يتوفر لها الآن المجال المناسب .

فقد كان يختبئ الآن في مكتب المدير المالي بسبب طالبي البطاقات المجانية الذين كانوا يفسدون عليه حياته ، لا سيما في ايام تغيير البرامج . وهذا اليوم كان ، بالضبط ، واحداً من تلك الأيام .

ما ان كان جرس الهاتف يبدأ بالرنين حتى كان فارينوخا يمسك السماعة ويأخذ بالكذب :

– من ؟ تريد فارينوخا ؟ غير موجود . غادر المسرح .

– اتصل بليخودييف مرة أخرى من فضلك ، – قال ريمسكي بحدة .

– لكنه غير موجود في بيته . لقد سبق وارسلت كاربوف . لا احد في البيت .

– الشيطان أدرى بما يجري ، – فح ريمسكي وهو ينقر على الآلة الحاسبة .

فتح الباب ودخل احد المستخدمين يحمل حزمة غليظة من

الاعلانات الاضافية التي انتهى طبعها للتو . وكان مكتوبـاً على اوراقها الخضر بحروف حمر ضخمة ما يلي :

**اليوم وكل يوم في مسرح «الفاريبتيه» .**
**برنامج اضافي :**

## البروفيسور فولند

### حفلات سحر شيطاني مع فضحها الكامل

تراجع فارينوخا قليلاً عن الاعلان الذي بسطه على النموذج وتأمله باعجاب ثم امر المستخدم بالصاق كافة النسخ على الفور .

– شيء جيـد ، جذاب ، – قال فارينوخـا بعد خروج المستخدم .

– اما انـا فلا يعجبني هذا المشروع اطلاقاً ، – غمغـم ريمسكي وهو يلقي على الاعلان نظرة حانقة من خلال نظارتـه القرنية ، – واني لأعجب كيف سمحوا له بمثل هذا العرض !

– لا ، لا تقـل هذا ياغريغورى دانيلوفتش . فهذه خطوة ذكية جداً ، ونكهتها ، كل نكهتها في عملية الفضح .

– لا اعرف ، لا اعرف ، ليس هناك اي نكهة ، وبالمناسبة انه دائماً يفجؤنا بمثل هذه البدع ! ولو انه ارانا هذا الساحر ! هل رايته انت ؟ الشيطان وحده يعلم من اين «نكشه» !

وتبين ان فارينوخا كريمسكي لم يشاهد الساحر . لقد هرع ستيوبا (الذي كان «كالمجنون» حسب تعبير ريمسكي) الى المدير المالي يوم امس ومعه مسودة اتفاق مكتوبة وطلب اليه ان يعيد كتابتها ويسلمه المال . اما الساحر فقد اختفى ولم يره احد سوى ستيوبا نفسه .

اخرج ريمسكي ساعته ورأى انها تشير الى الدقيقة الخامسة بعد الثانية فجن جنونه . ما هذا ! اتصل ليخودييف في الحادية عشرة تقريباً وقال انه سيصل في نصف ساعة ، لكنه لـم يأت وحسب ، بل اختفى من شقته أيضاً !



– ولكن عندنا اعمالنـا ! – زمجر ريمسكي وهو يصوب اصبعه الى كومة اوراق غير موقعة .

– الا يمكن ان يكون سقط كبرليوز تحت عجلات ترام ؟ – قال فارينوخا وهو ملصق باذنه سماعة الهاتف التي كانت تسمع فيها اشارات غليظة ، طويلة وعديمة الجدوى بتاتاً .

– حبذا . . . – قال ريمسكي بين اسنانه بصوت يكاد لا يسمع .

في هذه اللحظة دخلت المكتب امراة تلبس جاكيتة رسمية وسدارة وتنورة سوداء وتنتعل خفاً ، واخرجت من حقيبة صغيرة على خصرها شيئاً مربعاً ابيض صغيراً ودفتراً وسألت :

– اين فاريبيتيه هنا ؟ برقية عاجلة جداً لكم . وقعوا .

خط فارينوخا بسرعة بضعـة خطوط عوج في الدفتر الذي تحمله المراة ، وما ان انغلق الباب وراءها حتى فض الشيء المربع .

قرا البرقية فرفت عيناه وسلم البرقية الى ريمسكي .

وقد جاء في البرقية مـا يلي : «يالطـا موسكو «فاريبيتيه» منتصف الثانية عشرة اليوم حضر الى المباحث الجنائية اصهب في قميص نوم وبنطال دون جزمة مريض نفسي يدعي انه ليخودييف مدير «فاريبيتيه» ابرقوا الى مباحث يالطا اين المدير ليخودييف» .

– حلوة هذه ! – هتف ريمسكي واردف : مفاجاة اخرى !

– الدعي ، – قال فارينوخا ثم امسك السماعة : – البرق ؟ على حساب «فاريبيتيه» . برقية عاجلة جداً . . . هل تسمعني ؟ . . «يالطا . المباحث الجنائية . المدير ليخودييف في موسكو . المدير المالي ريمسكي» . . .

بالرغم من البرقية عن هذا الدعي اليالطوي ، شرع فارينوخا يبحث من جديد بالهاتف عن ستيوبا ليخودييف حيثما اتفق ، وبطبيعة الحال لم يجده في اي مكان . وفيما كان فارينوخا ممسكاً بالسماعة يفكر انى يهتف ايضاً ، في هذه اللحظة بالذات دخلت نفس المراة التي حملت البرقية الأولى وسلمت فارينوخا ظرفاً جديداً . فض فارينوخا الظرف على عجل وقـرأ ما طُبعَ فيه وصفر .

– ماذا ايضاً ؟ – ساله ريمسكي وقد ارتعش بعصبية .

ناوله فارينوخا البرقيـــة في صمت ، فراى المدير المالي الكلمات التالية : «اتوسل ان تصدقوا ا'لقيت في يالطا بتنويم فولند . ابرقوا للمباحث بتاكيد شخصيتي ليخودييف» .

اعاد ريمسكي وفارينوخا قراءة البرقية وراساهما متلامسان ، وبعد ان اعادا قراءتها حملق احدهما في الآخر بصمت .

– ايها المواطنان ! – قالت المراة في سخط فجـــاة ، – وقعا اولاً ثم اصمتا ما طاب لكما الصمت ! فلدي برقيات عاجلة اخرى احملها !

رسم فارينوخا بعض الخطوط العـوج على الدفتر دون ان يرفع عينيه عن البرقية واختفت المراة .

– الم تتحدث اليه بالهاتف بعد الحادية عشرة ؟ – ساله المدير الاداري في ذهول .

– شيء مضحك ! – صرخ ريمسكي بصوت حاد ، – سواء تحدثت اليه ام لم اتحدث ، الا انه يستحيل ان يكون الآن في يالطا ! شيء مضحك !

– انه سكران . . . – قال فارينوخا .

– من السكران ؟ – سال ريمسكي وعادا يحملقان احدهما في الآخر .

ان يكون احد الادعياء او المجانين ابرق من يالطا – هذا امر لا شك فيه . لكن الشيء الغريب هو : من اين لهذا الدعي اليالطوي ان يعرف فولند الذي لم يصل موسكو الا البارحة ؟ ومن اين له ان يعرف بالعلاقة بين ليخودييف وفولند ؟

– «بتنويـــم . . .» – اخذ فارينوخا يردد الكلمة الواردة في البرقية ، – من اين له ان يعرف فولند ؟ – ثم رف بعينيه وصرخ فجاة بصوت جازم : – لا ، لا ، هراء ، هراء ، هراء !

– واين نزل فولند هذا عليه اللعنة ؟ – سال ريمسكي .

اتصل فارينوخا بمكتب السياحة الاجنبية على الفور ، واعلن ، لدهشة ريمسكي الكاملة ، ان فولند نزل في شقة ليخودييف . ولم يتباطا فارينوخا ، بل ادار رقم شقة ليخودييف ، واصغى طويلاً الى طنين غليظ متتالٍ يتردد في السماعة ، ووسط هذا الطنين صوت كئيب مزعـــج آت من مكان مـــا بعيد يغني :



«. . . ايتهـــا الصخور ، ياملجئي . . .» وقرر فارينوخـــا ان الخطوط تداخلت وان هذا الصوت من الاذاعة . . .

– الشقة لا تجيب ، – قال فارينوخا وهو يعلق السماعة ، – ربما نحاول الاتصال مرة . . .

ولم يكمل ، فقد ظهرت في الباب تلك المراة نفسها فهب كلاهما ، ريمسكي وفارينوخا ، لملاقاتها ، اما هي فلم تخرج من حقيبتها ورقة بيضاء هذه المرة ، بل ورقة قاتمة اللون .

– بات الأمر مثيراً ، – قال فارينوخا من بين اسنانه وهو يشيع المراة الخارجة على عجل بنظراته . كان ريمسكي اول من استولى على الورقة .

وقد برزت على خلفية قاتمة للورقـــة الفوتوغرافية بوضوح الأسطر السود مكتوبة بخط اليد :

«الدليل خطي وتوقيعي . ابرقوا باثبات شخصيتي . نظموا المراقبة السرية على فولند ليخودييف» .

راى فارينوخا في العشرين سنة التي امضاها يعمل في المسارح المختلفة العجب العجاب ، لكنه شعر هنا ان حجاباً صفيقاً يغشى عقله ، فلم يستطع ان ينطق الا بتلك الجملة المالوفة والخالية من المعنى اصلاً :

– هذا مستحيل !

لكن ريمسكي لم يتصرف على هذا النحو ، بل نهض وفتح الباب وصاح بالساعية الجالسة على مقعد دون مسند :

– لا تدخلي احداً سوى سعاة البريد ! – وقفـــل الباب بالمفتاح .

ثم اخرج من درج مكتبه رزمة اوراق واخذ يقارن بعناية الأحرف الغليظة المائلة الى اليسار على البرقية الفوتوغرافيـــة بأحرف ستيوبا في قراراته وتواقيعه ذات الاعوجاجات اللولبية ، بينما كان فارينوخا الذي انحنى فوق الطاولة ينفث في خد ريمسكي انفاسه الحارة .

– انه خطه ، – قال اخيراً المدير المالي بلهجة حاسمة ، فرد عليه فارينوخا كالصدى :

– خطه .

وتطلع الى وجه ريمسكي فدهش للتغير الذي طرا عليه :

كانما ازداد المدير المالي ، النحيل اصلاً ، نحولاً . بل انه شاخ ، وفقدت عيناه في اطارهما القرني نفاذهما السابق المعهود ، ولاح فيهما ليس القلق وحسب بل ما يشبه الحزن .

وفعل فارينوخا ما يفعله اي انسان في لحظات الدهشة والحيرة العظمى . فقد اخذ يعدو في المكتب جيئة وذهاباً ، وبسط يديه مرتين كالمصلوب ، وجرع كاساً كاملة من ماء مائل الى الصفرة من دورق وهو يصيح :

– لا افهم ! لا أ – ف – هم !

أما ريمسكي فكان يتطلع من النافذة مُعْمِلاً فكره في تركيز شديد . كان موقفه حرجاً للغاية ، وكان عليه ان يجد للحال ، دون ان يتحرك من مكانه ، تفسيراً عادياً لظواهر غير عادية .

زر المدير المالي عينيه فتمثل ستيوبا في قميص النوم ودون جزمة ينسل في منتصف الثانية عشرة من هذا اليوم الى طائرة فائقة السرعة بشكل غير معهود ، ثم يقف ، هو نفسه ستيوبا ، في منتصف الثانية عشرة ايضاً على ارض المطار في يالطا وليس عليه الا جواربه . . . الشيطان وحده يعلم ما هذا !

أيمكن الا يكون ستيوبا هو الذي كلمه اليوم من شقته ؟ لا ، الذي كلمه كان ستيوبا ! وهل له هو الا يعرف صوت ستيوبا ! واذا لم يكن ستيوبا هو الذي تكلم معه اليوم ، فان ستيوبا نفسه هو الذي حضر اليه امس ، عند المساء ، حضر اليه في مكتبه هذا ومعه هذا العقد السخيف مما اثار عليه سخط المدير المالي لطيشه . وكيف واتته نفسه ان يسافر براً او جواً دون ان يتفوه بكلمة عن هذا الموضوع في المسرح ؟ وحتى لو ركب طائرة مساء الأمس لما استطاع ان يصل الى يالطا اليوم ظهراً . او لعله كان وصل ؟

– كم كيلومتراً الى يالطا ؟ – سال ريمسكي .

توقف فارينوخا عن عدوه وجأر :

– هذا الذي انتهيت اليه ! حوالي الف وخمسمائة كيلومتر حتى سيفاستوبول بالسكة الحديدية . اضف اليها ثمانين كيلومتراً حتى يالطا . والمسافة جواً اقل طبعاً .

– هِمْ . . . نعم . . . لا مجال للحديث هنا عن اي قطارات . كيف اذن ؟ هل بطائرة مطاردة ؟ لكن من يدع ستيوبا



يصعد الى مطاردة وهو حافٍ ؟ ولاي هدف ؟ قد يكون خلع جزمته بعد وصوله الى يالطا ؟ ومرة اخرى : ولاي هدف ؟ حتى ولو كان ستيوبا يلبس جزمته فان احداً لن يدعه يصعد الى مطاردة ! المطاردات لا شان لها في هذا الموضوع ! لقد جاء في البرقية ان ستيوبا حضر الى قلم المباحث الجنائية في الحادية عشرة والنصف ظهراً ، في حين انه كلمني في موسكو . . . لحظة . . . وهنا برز امام عيني ريمسكي ميناء ساعته ، وتذكر اين كان عقرباه . فظاعة ! كانت الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة . فما معنى هذا ؟ لو افترضنا ان ستيوبا انطلق الى المطار فور انتهاء حديثه معي وبلغه لنقل في خمس دقائق ، وهذا ، بالمناسبة ، امر غير معقول ايضاً ، فمعنى ذلك ان الطائرة ، على فرض انها اقلعت فوراً ، قطعت اكثر من الف كيلومتر في خمس دقائق . اذن فهي تقطع في الساعة اكثر من اثني عشر الف كيلومتر ! ! هذا مستحيل ، وبالتالي ستيوبا ليس في يالطا .

ما الذي يبقى اذن ؟ التنويم المغناطيسي ؟ لا يستطيع اي تنويم مغناطيسي على الأرض ان يقذف بشخص ما الى ما يزيد عن الف كيلومتر ! اذن هل تهيا له انه في يالطا ؟ ! ربما تهيا له هو ، ولكن هل يتهيا للمباحث الجنائية في يالطا مثل ما تهيا له ؟ ! لا ، ارجوكم ، هذا لا يمكن ان يحدث ! . . ولكن اليست المباحث هي التي تبرق من هناك ؟

كان وجه المدير المالي مرعباً بالمعنى الحرفي للكلمة . في هذه الأثناء ، كان احدهم يدير مقبض الباب من الخارج ويشده ، وكان يسمع صوت الساعية وراء الباب يصرخ صراخ المستميت :

– ممنوع ! لن ادع احداً يدخل ، ولو قطعتموني !اجتماع !

تمالك ريمسكي نفسه قدر ما استطاع واخذ سماعة الهاتف وقال :

– اريد مكالمة عاجلة مع يالطا .

«تصرّف ذكي !» – هتف فارينوخا في سره .

لكن المكالمة مع يالطا لم تتم . فوضع ريمسكي السماعة وقال :

– الخط تعطل كانما نكاية .

كان واضحاً ان تعطل الخط سبب له لأمرٍ ما كدراً بالغاً ، بل

جعله يغرق في تفكير لم يستمر طويلاً . فقد امسك السماعة من جديد بيد ، واخذ يسجل بالأخرى ما كان يقوله في السماعة :

– تسلموا برقية عاجلة جداً . فاريبيتيه . نعم . يالطا . المباحث الجنائية . نعم . «حوالي الحادية عشرة والنصف ظهر اليوم تكلم معي ليخودييف بالهاتف في موسكو ، نقطة . ثم لم يحضر الى مكتبه ولم نستطع الاتصال به ، نقطة . اؤكد صحة الخط ، نقطة . اتخذت الاجراءات لمراقبة الفنان المذكور . المدير المالي ريمسكي» .

«تصرف ذكي جداً !» – قال فارينوخا في سره ، ولكنه لم يكد يتم ، حتى برقت في رأسه عبارة : «هذا غباء ! لا يمكن ان يكون في يالطا !» .

في هذه الأثناء فعل ريمسكي ما يلي : رتب كل البرقيات التي استلمها ونسخة من برقيته بعناية على شكل رزمة ووضع الرزمة في ظرف وصمّغ الظرف وكتب عليه بضع كلمات وسلمه الى فارينوخا قائلاً :

– احمل هذا الظرف على الفور بنفسك يا ايفان سافيليفتش . ولينظروا هناك في الأمر .

«الآن هذا تصرف ذكي فعلاً !» – قال فارينوخا في نفسه واخفى الظرف في محفظته . ثم ادار مرة اخرى رقم الهاتف في شقة ستيوبا لعل وعسى يلقاه وانصت ، ثم غمز بعينه غمزة فيها فرح وفيها الغاز وعجّى وجهه . مطّ ريمسكي رقبته .

– هل بامكانكم استدعاء الفنان فولند ؟ – سأل فارينوخا بصوت يفيض عذوبة ورقة .

– انه مشغول ، – اجابته السماعة بصوت متهدج ، – من الذي يطلبه ؟

– المدير الاداري لفاريبيتيه فارينوخا .

– ايفان سافيليفتش ؟ – هتفت السماعة فرحة ، – اني في غاية السرور لسماع صوتك ! كيف صحتك ؟

– ميرسي ، – اجابه فارينوخا مبهوتاً ، – لكني مع من اتكلم ؟

– المساعد ، مساعده ومترجمه كوروفييف ، – ثرثرت



السماعة ، – انا في خدمتك ايها الغالي ايفان سافيليفتش ! وما عليك الا ان تأمر . هلا امرت ؟

– العفو ، هل ستيبان بوغدانوفتش ليخودييف غائب الآن ياترى ؟

– نعم للأسف ، نعم ! – صرخت السماعة ، – لقد غادر البيت .

– والى اين ؟

– الى الضواحي يتفسح بالسيارة .

– . . كيف ؟ يد . . يتفسح ؟ . . ومتى يعود ؟

– قال انا ذاهب اتنشق الهواء العليل قليلاً واعود !

– حسن . . . – قال فارينوخا في ذهول ، – ميرسي . تلطف وبلغ مسيو فولند ان عرضه اليوم سيكون في القسم الثالث .

– سمعاً . طبعاً . من كل بد . فوراً . ضروري سأبلغه ، – نقرت السماعة نقرات متقطعة .

– تمنياتي لك بكل الخير ، – قال فارينوخا وهو في دهشة مما يسمع .

وقالت السماعة :

– ارجو ان تتقبل افضل تحياتي وتمنياتي واحرها ! بالنجاح ! والتوفيق ! والصحة الكاملة وكل شيء !

– طبعاً ، طبعاً ! لقد قلت لك ! – اخذ المدير الاداري يصيح بانفعال شديد ، – ليس هناك اي يالطا ، كل ما في الأمر انه ذهب الى الضواحي !

– ما دام الأمر كذلك ، – قال المدير المالي ووجهه يمتقع حقداً وغضباً ، – ففعلته هذه حقارة لا وصف لها !

وهنا قفز المدير الاداري وصاح بصوت جعل ريمسكي يرتعد :

– تذكرت ! تذكرت ! في بوشكين افتتح محل لبيع فطائر اللحم على الطريقة القفقاسية باسم «يالطا» ! كل شيء مفهوم ! لقد ذهب الى هناك وشرب حتى سكر واخذ يبرق من هناك !

– لا ، هذا زاد عن الحد ، – اجاب ريمسكي ووجنته ترتجف وعيناه تتوقدان بحقد بالغ حقيقي ، – لا باس ، سنتكلفه

نزهته هذه غالياً ، – وهنا استدرك فجاة واضاف بلهجة المتردد :
– لكن كيف ذلك ، فالمباحث الجنائية . . .
– هراء ! هذه ايضاً من ملاعيبه ، – قاطعه المدير الاداري الذي لم يكن يعرف كيف يداري عواطفه ، واضاف يسأله : – وهل اوصل الرزمة ؟
– حتماً ، – اجابه ريمسكي .
وفتح الباب من جديد واطلت نفس . . . «هي !» – لسبب ما قال ريمسكي في سره بشيء من السويداء . وهبا كلاهما لملاقاة ساعية البريد .
في هذه المرة جاء في البرقية مـــا يلي : «شكراً للاثبات خمسمائة فوراً المباحث الجنائية لي غداً اصل موسكو ليخودييف» .
– لقد فقد صوابه . . . – قال فارينوخا بصوت واهن .
اما ريمسكي فخشخش بمفتاح ، واخرج من درج الخزنة غير القابلة للاختراق نقوداً وعد خمسمائة روبل ، وقرع جرساً وسلم ساعي المسرح المال ، وبعث به الى دائرة البرق .
– العفو ياغريغوري دانيلوفتش ، – قال فارينوخا وهو لا يصدق عينيه ، – في رايي انك عبثاً تبعث بهذه النقود .
– النقود ستعود الينا ، – رد عليه ريمسكي بصوت خافت ، – اما هو فسيدفع غالياً ثمن نزهته اللطيفة هذه ، – ثم اردف وهو يشير الى حقيبة فارينوخا : – هيا ، يا ايفان سافيليفتش ، لا تتاخر .
وخرج فارينوخا من المكتب عدواً وهو يتابط حقيبته .
هبط الى الطابق السفلي فراى طابـــوراً طويلاً جداً قرب كشك التذاكر ، وعرف من بائعة التذاكر انها تتوقع اعلان نفاد البطاقات في ساعة ، لان الجمهور ما ان راى الاعلان الاضافي حتى اخذ يتدفق كالموج . امر فارينوخا البائعة الا تبيع افضل ثلاثين مقعداً في اللوجات والصالة ثم وثب خارجاً من الكشك ، واخذ يتملص من طالبي التذاكر المجانيـــة اللجوجين الذين كانـــوا يعترضون سبيله ، ثم غاص في مكتبه الصغير ليأخذ قبعته . في هذا الوقت قعقع جرس الهاتف .
– نعم ! – صاح فارينوخا .



– ايفان سافيليفتش ؟ – قالت السماعة بصوت أخن كريه مستفسرة .
– انه غير موجود في المسرح ! – كاد فارينوخا يصرخ ، لكن السماعة قاطعته على الفور :
– لا تتبالـــه ، يا ايفان سافيليفتش ، بل اسمـــع . هذه البرقيات لا تحملها الى اي مكان ولا تُرِها أحداً .
– من الذي يتكلم ؟ – دوى صوت فارينوخا ، – كف عن ملاعيبك ايها المواطن . لا بد انهم كاشفون أمرك على الفور ! رقمك ؟
– فارينوخا ، – رد عليه الصوت المقيت اياه ، – الا تفهم اللغة الروسية ؟ قلت لك لا تحمل هذه البرقيات الى أي مكان .
– الن تكف عن هذا الهـراء ؟ – صاح المدير الاداري في غيظ شديد ، – اياك ثم اياك ! ستدفـــع ثمن هذا كله ، – واردف هذا التهديد بتهديد آخر وصمت لأنه شعر أن لا أحد يستمع اليه في السماعة .
بدا ان العتمـــة اخذت تلف المكتب الصغير بسرعة ، فعدا فارينوخا خارجاً وصفق الباب وراءه واندفع من ممر جانبي الى الحديقة الصيفية .
كان المدير الاداري مثاراً مليئاً بالهمة والنشاط ، اذ لم يعد يساوره أي شك بعد هذه المكالمـــة الوقحة في ان عصابة من الأشقياء تقترف هذه الأفعال الشنيعة ، وان هذه الأفعال مرتبطة باختفاء ليخودييف . كانت رغبة المدير الاداري في كشف هؤلاء الأشرار تكاد تخنقه ، ومهما بدا الأمر غريبـاً فقد أحس سلفاً بطعم شيء لذيذ مقبل . هذا ما يحدث عادة حين يسعى الانسان الى ان يصبح في مركز الاهتمام ويحمل معه خبراً مثيراً .
في الحديقة هبت في وجهه ريح وملأت عينيه بذرات الرمل ، كأنما تسد عليه طريقه ، كأنما تحذره . وفي الطابق الثاني صُفق اطار نافذة بحيث كاد زجاجه يتطاير ، واهتزت رؤوس أشجار القيقب والزيزفون في هلع . اعتمت الدنيا وترطب جوها . وفرك المدير الاداري عينيه فراى غمامة صفراء محملة بالعاصفة تسبح فوق موسكو ، وفي البعيد دوى صوت الرعد العميق .
ومهما يكن من لهفة فارينوخا وعجلته ، الا ان رغبة لا تقاوم

شدته الى التعريج ثانية واحدة على المرحاض الصيفي ليتأكد على الماشي مما اذا كان عامل الكهرباء وضع المصباح في الشبكة .

وجد فارينوخا نفسه ، بعد ان عدا قرب المرمى ، في خميلة كثيفة من اشجار الليلاك حيث مبنى المرحاض الأزرق . وتبين له ان عامل الكهرباء انسان دقيق ، فقد كان المصباح المعلق بسقف القسم الرجالي من المرحاض ملفوفاً بشبكة معدنية ، لكن الذي كدر على المدير الاداري صفاء مزاجه انه كان بامكان المرء ، حتى في هذه العتمة التي تسبق العاصفة المطرية ، ان يتبين ان الجدران صارت مغطاة بكتابات بقطع الفحم وأقلام الرصاص .

– يالهم من ! . . – ومـــا كاد المدير المالي ينطق هذه الكلمات حتى سمع فجأة صوتاً يموء خلفه :

– هذا انت ، يا ايفان سافيليفتش ؟

ارتعد فارينوخا والتفت فرأى وراءه شخصاً بديناً صغيراً له وجه قط فيما بدا له .

– اي ، انا ، – اجابه فارينوخا بجفاء .

– تشرفنا جداً ، جداً ، – رد عليه البدين الشبيه بالقط بصوت كالصاصاة ، ثم انتفض ولكم فارينوخا على اذنه فجأة بحيث طارت قبعته عن راسه واختفت دون اثر في فوهة المقعد .

وبفعل اللكمة ضاء المرحاض كله لحظة بضوء راعش وترددت في السماء قصفة رعد . ثم برقت الدنيا مرة اخرى فانشقت الأرض فجأة امـــام المدير الاداري عن شخص ثان – قصير لكنه ذو كتفين كاكتاف الرياضيين ، واحمر كالنار ، ذي عين عليها بياض وفم له ناب . وناوله الثاني ، الذي كان أعسر على مـا يظهر ، لكمة ثانية على اذنه الأخرى . وكانما تجاوبت مع اللكمة قصفة رعد اخرى في السمـــاء . وانهمر المطر على سطـــح المرحاض الخشبي .

– ما هذا يارفـا . . . – همس المدير الاداري وقد طار نصف صوابه ، لكنه ادرك للحال ان كلمة «رفاق» لا تناسب على الاطلاق اشقياء يهاجمون شخصاً في دورة مياه عمومية فقال بصوت اجش : – ايها المواط . . . – ولم يكمل اذ انتبه الى ان هذه التسمية ايضاً لا يستحقانها ، فاذا به يتلقى لكمة ثالثة فظيعة لم يدر من ايهما ، بحيث نفر الدم من انفه على قميصه .



– ما هذا الذي في حقيبتك ايهـا الطفيلي ؟ – صرخ الذي يشبه القط بصوت حاد ، – البرقيات ، آ ؟ الم يحذروك بالهاتف الا تحملها الى اي مكان ؟ الم يحذروك ، اني اسالك ؟

– حذر . . . حذر . . . حذروني ، – اجابه المدير الاداري بأنفاس متقطعة .

– ومع هذا فانت تحملها ؟ هات الحقيبة ايهـــا الوغد ! – صرخ الثاني بنفس الصوت الأخن الذي سمعه في الهاتف ، وانتزع الحقيبة من يدي فارينوخا المرتجفتين .

وامسك كلاهمـــا المدير الاداري من ابطه وجراه خارج الحديقة وانطلقا به في سادوفايا . كانت العاصفة المطرية تعربد بملء قواها ، والماء يهوي في فوهات المجاري بصخب وهدير ، والفقاعات تغلي وتفور في كل مكان والموجات تنتفخ ، والمـــاء يتدفق بغزارة من الأسطح قرب القساطل ، ومن تحت الابواب تندفع تيارات مزبدة . اختفى كل ما هو حي في سادوفايا ولم يكن فيه من يستطيع انقاذ ايفان سافيليفتش . جر الشقيان ، وهما يقفزان في الأنهر العكرة ويستضيئان بالبروق ، المدير الاداري في ثانية حتى البناية رقم ٣٠٢-مكرر وهو بين الحياة والموت ، وطارا به الى تحت الرتاج حيث كانت تلتصق بالجدار امراتان حافيتان تمسكان جواربهما وخفيهما بأيديهما . ثم اندفعـــا الى المدخل السادس للبناية ووجد فارينوخا الذي اشرف على الجنون نفسه محمولاً الى الطابق الخامس وملقياً به على ارض المدخل المالوف نصف العاتم لشقة ستيوبا ليخودييف .

وهنا اختفى الشقيان وظهرت مكانهما في المدخل فتاة عارية تماماً ، صهباء اللون ذات عينين فسفوريتين متقدتين .

ادرك فارينوخا ان هذا انما هو افظع ما حدث له . فصعد انة وتراجع الى الجدار . لكن الفتاة اقتربت من المدير الاداري ووضعت راحتيهـــا على كتفيه ، فوقف شعر راس فارينوخا اذ احس ، حتى من فوق قميصه البارد المبلل بالمـاء ، ان هاتين اليدين ابرد ، وانهما باردتان كالجليد .

– دعني اقبلك ، – قالت له الفتاة برقة وصارت عيناها المتلالئتان امام عينيه تماماً . اذاك غاب فارينوخا عن الوعي ولم يشعر بالقبلة .

## الفصل الحادي عشر

## ايفان ينصاب بالازدواجية

عتم حرش الصنوبر المنتصب على ضفة النهر المقابلة الذي كانت شمس أيار تنوره الى ساعة من الزمن ، وذاب وغاب .

كان المطر ينهمر شآبيب متصلة وراء النافذة ، وبين الحين والحين تومض خيوط وتنشق السماء ويغمر غرفة المريض نور راعش مخيف .

كان ايفان يبكي بصوت خافت وهو جالس على سريره ينظر الى النهر العكر الذي يفور بالفقاعات . كان يطلق لدى كل قصفة رعد صرخة حزينة شاكية ويغطي وجهه بيديه . وكانت الأوراق التي كتبها ايفان تتناثر على ارض الغرفة بعد ان بعثرتها الريح التي هبت على الغرفة قبل بدء العاصفة .

لقد باءت محاولات الشاعر كتابة تصريح بخصوص المستشار الرهيب بالاخفاق . فما ان استلم من الممرضة البدينة التي كانوا ينادونها براسكوفيا فيودوروفنا بقية قلم وورقة حتى فرك يديه فعلَ المقدم على عمل جدي ، وجلس الى طاولته على عجل . وسرعان ما كتب المطلع :

«الى دائرة الشرطة . تصريح من عضو **الماسوليت** ايفان نيقولايفتش بيزدومني . البارحة مساء ذهبت مع المرحوم م . ا . برليوز الى بتريرشيي برودي . . .» .

وعلى الفور ارتبك الشاعر . ارتبك بصورة رئيسية بسبب كلمة «المرحوم» . هذا كلام غير معقول . كيف يمكنه ان يقول : ذهبت مع المرحوم ؟ الأموات لا يسيرون ! وما أدراك قد يعتبرونك مجنوناً بالفعل !

بعد أن طافت برأس ايفان نيقولايفتش الأفكار على هذا النحو اخذ يصحح ما كتبه فكان التالي : «. . . مع م . ا . برليوز الذي توفي فيما بعد . . .» . لكن هذه الصيغة لم ترض كاتبها ، فما كان عليه الا ان يستخدم صيغة ثالثة ، فكانت هذه أسوأ من سابقتيها : «. . . مع برليوز الذي سقط تحت عجلات الترام . . .» ، وهنا جاء اسم الموسيقار النكرة الذي يحمل نفس



الكنية ليلتصق في ذهنه باسم صاحبه مما اضطره الى اضافة : «. . . ليس الموسيقار . . .»

ولما اضناه أمر هذين البرليوزين شطب كل ما كتبه ، وقرر ان يبدأ من جديد بشيء جد قوي يثير اهتمام القاريء على الفور فكتب عن القط الذي استقل الترام ، ثم عاد الى حادثة الراس المقطوع . وادى به الراس المقطوع ونبوءة المستشار الى موضوع بيلاطس البنطي ، فقرر ايفان بغية الاقناع الكامل سرد قصة الوالي كاملة من اللحظة التي خرج فيها ببردته البيضاء ذات البطانة الحمراء الى الرواق ذي الأعمدة في قصر هيرودس .

وانكب ايفان على عمله فكان يشطب ما يكتب ويضيف كلمات جديدة ، بل انه حاول رسم بيلاطس البنطي اول الأمر ثم القط الواقف على قائمتيه الخلفيتين . لكن حتى الرسم لم يسعفه في شيء ، فما كان تصريحه يزداد الا تشوشاً وغموضاً .

واحس ايفان ، حين ظهرت الغمامة المرعبة ذات الحواشي الداخنة من بعيد ولفت الحرش وهبت الريح ، بالوهن يتسرب الى أوصاله وبافلات زمام التصريح من يده ، فكف عن لم الأوراق المتطايرة واخذ يبكي بكاء مراً خافتاً .

عادت الممرضة الطيبة براسكوفيا فيردوروفنا الشاعر اثناء العاصفة فانتابها القلق لرؤيته يبكي فاسدلت الستار كي لا تخيف البروق المريض ولمت الأوراق وهرعت بها تستدعي الطبيب .

وحضر الطبيب . زرق ايفان بابرة في يده واكد له انه لن يعود الى البكاء ، وان هذا كله عابر سيزول ، وان كل شيء سيتغير وسينسى كل شيء .

وكان الطبيب محقاً . فما لبث الحرش الذي وراء النهر ان عاد الى سابق عهده ، وبانت أشجاره شجرة شجرة تحت سماء صفت وعادت اليها كل زرقتها ، وسكن النهر ، واخذت الكآبة تنجلي عن ايفان بعد الابرة مباشرة فتمدد في هدوء واخذ يرنو الى قوس قزح المشلوح في السماء .

واستمرت به الحال حتى المساء ، حتى انه لم يلاحظ كيف ذاب قوس قزح وحال لون السماء واكتست غلالة رقيقة من الكآبة واسود الحرش .

شرب ايفان حليباً ساخناً ثم عاد يتمدد على سريره ، فأخذته

الدهشة من التغير الذي طرأ على أفكاره . غام القط الجهنمي اللعين في ذاكرته ، ولم يعد الراس المقطوع يخيفه . وأخذ ايفان يقول في نفسه ، وقد طرح فكرة الراس المقطوع بعيداً عنه ، ان وجوده في العيادة ليس على هذه الدرجة من السوء في الواقع ، وان سترافنسكي انسان ذكي جداً وله شهرته ، وان التعامل معه أمر جد سار . هذا الى ان نسيم المساء رقيق وبليل بعد العاصفة .

وأخلد مستشفى المجانين الى النـــوم . فأطفئت المصابيح البيض الربد في الممرات الساكنة واضيئت بدلاً منها ، حسب النظام المتبـــع ، نواصات زرق شحيحة النور ، وتضاءل اكثر فاكثر خلف الأبواب وقع خطوات الممرضات الحذرة على سجادة الممر المطاطية .

كان ايفان يتمدد الآن في استرخاء لذيذ . يتطلع تارة الى المصباح الصغير ذي الغطاء يسكب من السقف نوراً لطيفاً ، وتارة الى القمر الطالع من وراء الحرش الأسود وهو يحدث نفسه :

– حقـــاً ، لماذا جزعت واضطربت على هذا النحو لوقوع برليوز تحت عجلات الترام ؟ ليسقط اذا شاء في المستنقع أيضاً ، فما دخلي ! ومن أنا بالنسبة له في واقع الأمر ، أخوه ، قريبه ، نسيبه ؟ ولو حللنا هذه المسالة جيداً ، فمن الجلي انني لم أكن اعرف المرحوم تمام المعرفة . وبالفعل ما الذي اعرفه عنه ؟ لا شيء سوى انه كان اصلع وفصيح اللسان بشكل فظيع . ثم تعالوا ايها المواطنون ، – هنـــا اخذ ايفان يوجه كلامه الى اشخاص ما ، – تعالوا نفكر معاً وقولوا لي : لماذا استعرت أنا بالذات غيظاً على هذا المستشار الغامض ، الساحر ، البروفيسور ذي العين الفارغة السوداء ؟ لماذا كل مطاردتي السخيفة له هذه وأنا في سروالي الداخلي والشمعـــة في يدي ، ولمـــاذا كل هذا الزياط الوحشي في المطعم ؟

وسمع فجأة ، وفي مكان ما لا تدري أهو في الداخل أو فوق الأذن ايفان القديم يقول لايفان الجديد بصوت صارم : – لا ، لا ، لا . الم يكن يعرف مسبقاً ، مع هذا ، بم سيُقطع راس برليوز ، فكيف لا يقلق المرء ؟

– الأمر واضح جداً ! – قال ايفـــان الجديد يعترض على ايفان السابق ، القديم ، – كونُ الأمر مريباً شيء يدركه حتى



الطفل ! انه شخصية خارقة وغامضة مائة بالمائة . وهنا أطرف ما في الموضوع ! كان يعرف بيلاطس البنطي شخصياً فماذا تريد أطرف من ذلك ؟ الم يكن من الأذكى سؤاله بأدب عما حدث لبيلاطس البنطي لاحقاً وهذا الغانوصري المعتقل بدلاً من اثارة هذه الفضيحة الحمقاء في بتريرشيي ؟

اما أنا فشُغلت الشيطان يعلم بماذا ! وبالفعل ياله من حدث هـــام – ان يُدعس رئيس تحرير مجلة ! هل سيغلقون ابواب المجلة جراء ذلك ؟ ماذا باليد ، الانسان فان ، وكما قيل بحق فانٍ على حين غرة . اي ، رحمة الله عليه ! سيأتي رئيس تحرير آخر وربما كان افصح لساناً من سابقه !

غفا ايفان الجديد قليلاً ثم سأل ايفان القديم بلوم :

– من أكون في هذه الحالة اذن ؟

– غبي ! – أجابه صوت جهير واضح النبرات لـــم يكن صوت أحد الايفانين ، بل صوت بالغ الشبه بصوت المستشار .

ولأمر ما لم تغظ ايفان كلمة «غبي» هذه بل أثارت في نفسه شيئاً من دهشة الرضى ، فطافت على محياه ابتسامة وسكن في نصف اغفاءة . وما كاد الكرى يتسلل الى جفنيه حتى تراءت له شجرة نخيل بجذعها الأشبه بقائمة الفيل ثم لمح قطاً يمر قربها ولم يكن مخيفاً بل لطيف المنظر . وباختصار كاد ايفان ان يغط في النوم حين انزاحت شبكة الشرفـــة فجأة بلاصوت وظهر على الشرفة خيال غامض يختبئ من ضوء القمر ، واومأ لايفان باصبعه مهدداً .

نهض ايفان قليلاً من سريره دون أي ذعر ورأى في الشرفة رجلاً . ووضع هذا الرجل سبابته على شفتيه وهمس :

– هس !

## الفصل الثاني عشر

## السحر الشيطاني وفضحه

خرج رجل صغير ذو أنف قرمزي على شكل أجاصة وراس تعلوه قبعة عالية صفراء مخرمة ويلبس بنطالاً ذا مربعات وحذاء

مصبوغاً الى خشبة «فاريبيتيه» على دراجة عادية ذات دولابين . دار الرجل الصغير دورة على أنغام الفوكستروت ثم أطلق صرخة ظفر شبت لها الدراجة على دولابها الخلفي . وبعد أن دار دورة اخرى على دولاب واحد انكفأ واقفاً على يديه ، ثـم تحايل على الدولاب الأمامي في سيره ففك براغيه ودفع به الى الكواليس وتابع دورانه على دولاب واحد يدير دواسته بيديه .

ثم خرجت الى الخشبة شقراء ممتلئة القوام في تريكو وتنورة قصيرة تنتثر عليها نجوم فضية وقد امتطت مقعداً في اعلى سارية معدنية تسير بدولاب واحد ، واخذت تدور بها على خشبـة المسرح . وكان الرجل يطلق صرخات تحية حين يلتقي بها ويرفع برجله قبعته عن رأسه .

وأخيراً خرج الى الخشبة طفل في نحو الثامنة من عمره ذو وجه عليه علامات الشيخوخة واخذ يسعى بين زميليه الكبيرين على دراجة صغيرة ذات دولابين ركب عليها بوق سيارة ضخم .

بعد أن دارت المجموعة الثلاثية بضع دورات ، اندفعت كلها على ضربات طبل الاوركسترا المثيرة حتى طرف الخشبة تماماً . شهق النظارة في الصفوف الأولى وارتدوا الى الوراء ظناً منهم ان الثلاثي سيهوى مع دراجاته على الأوركسترا .

لكن الدراجات توقفت بالضبط لحظة كانت الدواليب الأمامية توشك ان تنزلق وتهوي على رؤوس الموسيقيين ، وقفز راكبوها عن دراجاتهم وهم يطلقون صرخة عظيمة «آب» ، واخذوا ينحنون محيين فيما كانت الفتـاة الشقراء ترسل الى الجمهور قبلات في الهواء ، أما الطفل فقد أطلق من زموره اشارة مضحكة .

وهز التصفيق بناء المسرح ، وتحركت الستارة الزرقاء من الجانبين لتحجب راكبي الدراجات ، واطفئت الأنوار الخضر التي تحمل كلمة «مدخل» عند الأبواب ، بينما اضيئت بين الأراجيح التي تشبه بيت العنكبوت تحت القبة بالوانات بيض كأنها الشمس . وحانت فترة الاستراحة قبل الفصل الأخير .

الشخص الوحيد الذي لم تثر اهتمامه اسرة «جولي» بغرائب بهلوانياتها على الدراجات كان غريغوري دانيلوفتش ريمسكي . كان ريمسكي غارقاً في عزلـة تامة في مكتبه وهو يعض شفتيه الرقيقتين ، وعلى وجهه ترتسم بين الحين والآخر علامات التشنج .



فالى اختفاء ليخودييف الغريب جاء اختفاء المدير الاداري فارينوخا الذي لم يكن يتوقعه بأي شكل من الأشكال .

كان ريمسكي يعرف أين ذهب فارينوخا ، لكنه ذهب و . . . لم يعد ! هز ريمسكي كتفيه وهمس يقول لنفسه :

– ولكن لماذا ؟!

والأمر الغريب أنه من ابسط الأمور لانسان عملي كالمدير المالي هو ، بطبيعة الحال ، الاتصال هاتفياً حيث ذهب فارينوخا ، والاستفسار عما دهاه ، لكنه لم يستطع مع هذا اكراه نفسه على هذا الاتصال حتى الساعة العاشرة مساء .

وفي العاشرة رفع السماعة على كره شديد عن الجهاز ، وللحال اتضح له ان هاتفه ميت ، لا حيـاة فيه . واخطره الساعي ان الهواتف الأخرى في المبنى معطلة ايضاً ولأمر ما هز هذا الحدث غير السار بطبيعة الحال لكنه غير الخارق للطبيعة المدير المالي نهائياً ، لكنه في الوقت نفسه افرحه : فقد انزاحت عن كاهلـه ضرورة الاتصال .

وفيما ومض المصباح الأحمـر الصغير فوق راس المدير المالي واخذ يطرق معلناً بدء الاستراحة ، دخل عليـه الساعي وابلغه بوصول الفنان الأجنبي . ولأمر ما احس المدير المالي بتشنج ، لكنه اتجه الى خلف الكواليس كالح الوجه لاستقبـال الفنان الزائر اذ لم يكن في المسرح سواه لاستقباله .

ومن الممر ، حيث كانت الاشارات الصوتية تطقطق ، كان الفضوليون يسترقون النظر الى غرفة الزينة الكبرى بذرائـع مختلفة . في الغرفة مشعوذون في اردية زاهية وعمائم ومتزحلق على الجليد في سترة بيضاء محبوكة وعريف حفلات شاحب من أثر المساحيق وماكيير .

صعق الزائـر الشهير الجميع بفراكـه ذي الطول الخارق والتفصيل البديع وبظهوره وهو يضع نصف قناع أسود . لكن الأغرب من هذا كله كان رفيقا الساحر : شخص طويل يلبس لباساً ذا مربعات ويضع نظارة انفية متشققة وقط سمين أسود دخل غرفة الزينة على قائمتيه الخلفيتين وجلس دون كلفة على الأريكة وهو يتطلع الى المصابيح الصغيرة المكشوفة في غرفة الزينة مضيقاً عينيه .

جهد ريمسكي ان يرسم على وجهه ابتسامة مما جعل وجهه يكتسي مسحة من الكآبة والشر . ثم حيا الساحر الصامت الذي كان يجلس على الديوان الى جوار القط . ولم يتصافح الرجلان ، لكن ذا المربعات القليل الحيـــاء تبرع بتقديم نفسه على أنـــه «مساعدهـــم» . وادهش هذا التفصيل المدير المالي . وكانت دهشته مشوبة بالانزعاج هذه المرة ايضاً : اذ لم يرد في العقد اي ذكر لأي مساعد اطلاقاً .

وبصوت يفيض بالجفاء والقهر استفسر غريغوري دانيلوفتش من ذي المربعات ، الذي هبط عليه فجأة ، عن مكان وجود عدة الفنان .

– يادرتنا السماويـة ، ياسيدنا المدير الغالي ، – اجابه مساعد الساحر بصوت رفيع حاد ، – عدتنا معنا دائماً . هاهي ذي ! اين تسفي دري ! – وادار امام عيني ريمسكي اصابعه المتداخلة على شكل عنقد وسحب بغتة من خلف اذن القط ساعة ريمسكي الذهبية مع سلسلتها التي كانت حتى الآن في جيب المدير المالي تحت الجاكيتة المزررة معقودة بسلسلتها الى عروة .

امسك ريمسكي بطنه بحركة لاارادية ، وندّت من افواه الحاضرين المفغورة آهات الدهشة ، امـــا الماكيير الذي كان يسترق النظر من الباب فتنحنح مستحسناً .

– ساعتك ؟ ارجو ان تستلمها ، – قال ذو المربعات وهو يبتسم دون كلفـــة ، ومدّ لريمسكي المذهول راحتـــه القذرة بالساعة .

– لا تركب الترام مـــع شخص كهـذا ، – همس عريف الحفلات للماكيير بصوت خافت مرح .

لكن القط قدم فقرة ادهى من فقرة الساعة . فقد نهض عن الديوان بغتة ، ودنا من المنضدة التي امام المرآة على قائمتيه الخلفيتين ، ونزع سدادة الدورق بقائمته الأمامية ، وسكب منه ماء في كاس ، وشرب ثم اعاد السدادة الى موضعها ومسح شاربيه بخرقة ماكياج .

لم تند عن افواه المشاهدين آهات الدهشة هذه المرة ، بل فغروا جميعاً أفواههم وحسب . وهمس الماكيير بانبهار :

– اى ، رائع !



وهنا رنت الأجراس للمرة الثالثة رنيناً مقلقاً ، فأخذ الجميع يخرجون متدافعين من غرفة الزينة وهم في غاية الاثارة والتشوق المسبق للفقرات الطريفة .

وبعد دقيقة انطفأت البالونات في الصالة ، واشتعلت أضواء الخشبة الأمامية ملقية على اسفل الستارة بصيصاً ضاربـــاً الى الحمرة ، وانتصب في شق الستارة المُنار امام الجمهور شخص بدين مرح كالطفل ، ذو وجه حليق وفراك مكرمش وقميص غير نظيف . كان هذا جورج بينغالسكي عريف الحفلات المعروف في موسكو كلها .

وقال بينغالسكي وهو يبتسم ابتسامة الطفل الصغير :

– وهكذا ايها المواطنون ، سيقدم لكم الآن . . . – وهنا قاطع بينغالسكي نفسه واردف بنبرة اخرى قائلاً : – ارى ان عدد الجمهور زاد ايضاً مع بداية القســـم الثالث من حفلتنا . عندنا الآن نصف المدينة ! من ايام معدودة التقيت صديقاً فقلت له : «لماذا لا تاتي الينا ؟ البارحة كان عندنا نصف المدينة» . فاجابني «انا اسكن في النصف الثاني !» – وتوقـف بينغالسكي بانتظار ان تنفجر الضحكات . ولما لم يضحك احد تابع يقول :

– . . . وهكذا سيقدم لنا الفنان الأجنبي المعروف مسيو فولند حفلة سحر شيطانـــي ! ونحن جميعاً ندرك ، – هنا ابتســم بينغالسكي ابتسامة تفيض بالحكمة ، – ان السحر الشيطاني لا وجود له على الأرض اطلاقا ، وانه ليس سوى خرافة ، وَهْم . وكل ما في الأمر ان المايسترو فولند يتقـــن تقنية الخدعة ، الشعوذة الى درجة عالية الأمر الذي سينجلي لكم في اكثر فقرات الحفلة اثارة الا وهي كشف هذه التقنية وفضحها . وبما اننـــا جميعاً كالرجل الواحد من انصار التقنية ومن انصار كشفهـــا وفضحها فاننا نرجو السيد فولند ان يتفضل !

بعد أن فرغ بينغالسكـــي من هذا اللغو شبك كفاً بكف ولوح بهما محيياً من شق الستارة التي اخذت تحف حفيفاً خافتـاً وتنفرج شيئاً فشيئاً .

اثار ظهور الساحر مع مساعده الطويل والقط الماشي عـــلى قائمتيه الخلفيتين اعجاب الجمهور الشديد .

– الي باريكة ، – امر فولند بصوت خفيض ، وفي اللحظة

نفسها ظهرت على المسرح لا تدري من اين وكيف اريكة وثيرة جلس فيها الساحر ، – قل لي ياعزيزي فاغوت ، – توجه فولند بالسؤال الى المهرج ذي المربعات الذي كان يحمل ، على ما يظهر ، اسماً آخر غير اسم كوروفييف ، – الاترى معي ان سكان موسكو تغيروا تغيراً كبيراً ؟

وتطلع الساحر الى الجمهور الساكن ، المبهوت بظهور الاريكة من الهواء .

– كما تقول بالضبط ياسيدي ، – اجابه فاغوت كوروفييف بصوت خافت .

– انت على حق . اهل المدينة تغيروا تغيراً كبيراً ، اقصد ظاهرياً كما المدينة نفسها بالمناسبة . اللباس – هذا شيء مفروغ منه ، انما ظهرت هذه . . . كيف يسمونها ؟ . . هذه الترامات والسيارات . . .

– الباصات ، – قال فاغوت يسعفه باحترام .

كان الجمهور يصغي الى هذا الحديث بكل جوارحه حاسباً انه مقدمة لشعوذات الساحر . وكانت الكواليس غاصة بالفنانين وبالعاملين في المسرح ، وبين هذه الوجوه كان وجه ريمسكي الشاحب ، المتوتر .

بدات هيئة بينغالسكي الذي انزوى جانب خشبة المسرح تشي بالحيرة . فرفع حاجبيه قليلاً وقال مستغلاً توقف الساحر :

– يريد الفنان الاجنبي الاعراب عن اعجابه بموسكو التي تطورت من الناحية التقنية وبالمسكوفيين ايضاً ، – وهنا ابتسم بينغالسكي ابتسامتين : للصالة اولاً ثم للشرفات .

استدار فولند وفاغوت والقط برؤوسهم نحو مقدم البرنامج .

– هل اعربت عن اعجابي حقاً ؟ – سال الساحر فاغوت .

– ابداً ، ياسيدي ، انك لم تعرب عن اي اعجاب ، – اجابه فاغوت .

– فما الذي يقوله هذا الانسان اذن ؟

– بكل بساطة – كذب ! – قال المساعد ذو المربعات



بصوت عال دوى في القاعة كلها ، ثم التفت الى بينغالسكي واضاف : – اهنئك ايها المواطن بمناسبة الكذب .

اهتزت الشرفات بالضحكات ، اما بينغالسكي فقد ارتعدت فرائصه وجحظت عيناه .

– اما انا فلا تهمني ، بطبيعة الحال ، الباصات والهواتف وغيرها من . . .

– الاجهزة والمعدات ! – قال ذو المربعات مسعفاً .

– بالضبط ، شكراً ، – قال الساحر بصوت عميق ، ثقيل وبطيء ، – بقدر ما تهمني مسالة اخرى اهم : هل تغير اهل المدينة هؤلاء داخلياً ؟

– نعم ، هذا هو السؤال الاهم ياسيدي .

اخذ الناس في الكواليس يتبادلون النظرات ويهزون اكتافهم ، بينما اكتسى وجه بينغالسكي بالحمرة وريمسكي بالصفرة . وكانما شعر الساحر بالقلق والاضطراب اللذين بدءا يتسربان الى نفوس المشاهدين فقال :

– لقد استرسلنا في الحديث ياقاغوت العزيز ، وبدا الجمهور يمل . ارنا بداية شيئاً ما بسيطاً .

وسرت في الحاضرين حركة ارتياح . تفرق فاغوت والقط وتوجه كل منهما الى احد جانبي الانوار الامامية ثم فرقع فاغوت اصابعه وصاح بصوت مرنان مرح :

– ثلاثة ، اربعة ، – والتقط من الهواء دستة ورق وخلطها ، ودفعها الى القط على شكل شريط . التقط القط الشريط واعاده . نخرت الافعى الملساء وفتح فاغوت فمه كفرخ عصفور وابتلعه كله ورقة ورقة .

بعد هذا خفق القط قائمته الخلفية اليمنى ، وانحنى محيياً مما اثار عاصفة هائلة من التصفيق .

وتعالت صيحات الاعجاب من خلف الكواليس :

– رائع ، رائع !

اما فاغوت فصوب اصبعه باتجاه الصالة واعلن :

– الدستة الآن ، ايها المواطنون المحترمون ، في الصف السابع مع المواطن بارتشيفسكي ، وبالضبط بين ورقة نقدية

من فئة الثلاثة روبلات ورقعة دعوته الى المحكمة في قضية دفع نفقة للمواطنة زيلكوفا .

تململ النظارة في الصالة وبـــدأ بعضهم ينهض ، واخيراً اخرج مواطـــن محمر الوجه مـــن الدهشة اسمه بالضبط بارتشيفسكي الدستة من محفظته ورفعها في الهواء وهو لا يدري ما يفعل بها .

– دعها معك للذكرى ! – صاح فاغوت . – ليس عبثاً ما قلته البارحة وانت على العشاء من انه لولا البوكر لكانت حياتك في موسكو لا تطاق .

وسمع صوت في الشرفة يقول :

– لعبة قديمة ، ذاك الذي في الصالة من نفس الفريق .

– أتعتقد ذلك ؟ – هدر فاغوت وهو يـــزر عينيه باتجاه الشرفة ، – اذن انت واحد من عصابتنا لأن الدستة في جيبك !

حدث في الشرفة لغط واضطراب ثم سمع صوت فرح يقول :

– صحيح ! معـــــه ! هنا ، هنا . . . قف ! لكنهـــا تشيرفونتسات * .

التفت الجالسون في الصالة ، فقد وجد رجل في الشرفة تبدو عليه امارات الارتباك الشديد رزمة في جيبه . وكانت الرزمـــة مربوطة على نحو ما تربط في المصارف ، وقد كتب على غلافهـــا «الف روبل فقط» .

وتكدس جيرانه حوله بينما كان ينقب الغلاف بظفره مشدوهاً لعله يتبين ما اذا كانت الأوراق المالية حقيقية او سحرية .

– اي والله حقيقيـــة ! التشيرفونتسات ! – صاح بعضهم من الشرفة بأصوات جذلى .

– العبوا لعبة الورق هذه معي انا ايضاً ، – طلب بديـــن جالس في منتصف الصالة بصوت مرح .

– افيك بليزير ** ! – رد عليه فاغوت ، – ولكن لماذا معك وحدك ؟ الجميع سيشاركون في اللعبة بحماسة ! – وامـــر قائـــلاً : – ارجـــو أن تنظـــروا الى أعلى ! . . واحـــد !

---

* تشيرفونتس : عملة من فئة العشرة روبلات . **المترجم** .

** بكل سرور (بالفرنسية) . **المترجم** .



– وظهر في يـــــده مسدس . وصاح : – اثنان ! – فصوب المسدس الى اعلى . ثم صاح : – ثلاثة ! – فلمع بريق خاطف ثم دوى صوت . وعلى الفور اخذت تتساقط من تحت القبة عـــلى الصالة اوراق بيض صغيرة وهي تغوص بين الأراجيح .

كانت الأوراق تدور وتتقلب متناثـــرة بعضها محمولاً الى الشرفات وبعضها مرتداً على الأوركسترا وخشبـــة المسرح . وفي ثوان بلغ هذا المطر النقدي الذي كان يزداد شدة المقاعد واخذ المشاهدون يلتقطون الأوراق .

ارتفعت مئات الأيدي واخـــذ النظارة يتطلعون من خلال الأوراق المتساقطة الى خشبـــة المسرح المضاءة ليروا علامات اكيدة وصحيحة والرائحة ايضاً لم تترك في نفوسهم موضعـــاً لأي شك : كانت تلك رائحة الأوراق الماليـــة المطبوعة حديثاً ، تلك الرائحة التي لا تضاهيها في طيبها اي رائحة . وتملكـــت البهجة فالدهشة المسرح كلـــه . كانت تدوي في ارجاء المسرح كلها كلمة «تشيرفونتسات ، تشيرفونتسات» ، وتنطلق صيحات «آه ، آه !» وضحكات مرحة . بـــل اخذ بعضهم يزحف بين الصفوف باحثاً عن الأوراق تحت المقاعد وبعضهم انتصب عـــلى المقاعد يلتقط الأوراق الشديدة الحركة والتقلب .

وشيئاً فشيئاً اخذت الحيرة ترتسم على وجوه رجال الشرطة بينما اخذ الفنانون يبرزون من وراء الكواليس دون اي كلفة .

وسمع في الشرفة صوت يقول : «لماذا تلتقطهـــا ! انها لي ! كانت تطير اليّ !» ، ويرد عليه آخـــر : «لا تدفع هكذا ! والا اريتك ! . .» وسمع فجأة صوت صفعـــة . وللحال ظهرت في الشرفة خوذة شرطي وسيق احدهم خارج الشرفة .

وعلى العموم كان الهيجان يتعاظم ، والله اعلم الى ما كـــان سينتهي اليه لو لم يوقف فاغوت هذا المطر النقدي بنفخة مباغتة في الهواء .

تبادل شابان نظرة مرحة ذات معنى ، ونهضا من مقعديهمـــا واتجها الى البوفيه مباشرة . كان الضجيج يملأ المسرح وكانت عيون النظارة كلهم تلمع من فرط الاثارة . نعم ، نعـــم ، الله اعلم الى ما كان سينتهي اليه هذا كله لو لم يجد بينغالسكي في نفسه القوة ليتحرك . فقد فرك يديه على عادته ، وهو يحاول ان

يتمالك نفسه اشد ما يمكنه تمالكها وقال باقصى ما في صوته من قوة :

– ها نحن اولاء ايها المواطنون ، قد راينا معاً حالة من حالات ما يسمى التنويم المغناطيسي الجماعي . وهي تجربة علمية خالصة تقدم افضل برهان على انه ليس هناك اي اعجوبة او سحر . فتعالوا نسال المايسترو فولند كشف سر هذه التجربة . وسترون الآن ، ايها المواطنون ، كيف ستختفي هذه الاوراق النقدية كما يُخيل لنا بغتة كما ظهرت .

ورفع يديه مصفقاً ، لكنه لم يصفق الا وحده تماماً وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة واثقة ، لكن عينيه لم تكونا تعكسان هذه الثقة اطلاقاً ، بل رجاء وتوسلاً .

ولم تعجب كلمة بينغالسكي الجمهور فران صمت عميق قطعه بعد حين فاغوت ذو المربعات معلناً بصوت عال حاد كصوت الجدي :

– وهذه ، مرة اخرى ، حالة من حالات ما يسمى الكذب . الاوراق حقيقية ايها المواطنون !

– برافو ! – جار صوت عميق متقطع من مكان ما في الاعلى .

– وبالمناسبة هذا الشخص ، – قال فاغوت مشيراً الى بينغالسكي ، – يزعجني . انه يتململ ويحشر نفسه فيما لا يعنيه ، ويفسد حفلتنا بملاحظاته الكاذبة ! فماذا نفعل به ؟

– نقطع راسه ! – قال احدهم من الشرفة بصوت صارم .

– ماذا قلت ؟ آ ؟ – قال فاغوت يرد على هذا الاقتراح البشع ، – نقطع راسه ؟ فكرة ! بيغيموت ! – صاح فاغوت بالقط ، – افعل ! اين ، تسفي ، دري ! !

وهنا حدث شيء لم يسمع بمثله . فقد انتصب الشعر على جلد القط الاسود الذي ماء بصوت يمزق الآذان ، وتجمع على نفسه ، وانقض كالفهد على صدر بينغالسكي مباشرة ، ثم وثب الى راسه فتشبث بشعر راسه الخفيف بقوائمه المنتفخة وهو يهر ، ثم مال به مرتين مطلقاً عواء وحشياً ونزع راسه عن رقبته الممتلئة .

صاح الالفان والخمسمائة شخص الموجودون في المسرح



صيحة رجل واحد . فقد تدفق الدم من الشرايين المقطعة الى الاعلى كانه نافورة وغطى الصدرة والفراك . وفحص الجسد الفاقد الراس الارض بحركات خرقاء من قدميه وجلس على الارض . واطلقت النساء في القاعة صيحات هستيرية . وناول القط فاغوت الراس ، فامسكه هذا من شعره ورفعه وعرضه على الجمهور . وصاح الراس بصوت يائس دوى في ارجاء المسرح كله :

– الطبيب !

– هل ستستمر في هرائك ؟ – سال فاغوت الراس الباكي بصوت متوعد .

– لا ، لن افعل ! – اجابه الراس بصوت اجش .

– لا تعذبه بحق الله ! – دوى فجاة من الشرفة صوت نسائي غطى اللغط في الصالة . والتفت الساحر الى مصدر الصوت .

– ماذا ، ايها المواطنون ؟ هل نعفو عنه ؟ – قال فاغوت موجهاً سؤاله الى الصالة .

– نعفو ! نعفو ! – ترددت في اول الامر اصوات متفرقة معظمها نسائي ثم ذابت كلها في جوقة واحدة مع الاصوات الرجالية .

– ماذا تامر ياسيدي ؟ – سال فاغوت الرجل المقنع .

– ما العمل ، – رد هذا بلهجة الخارج من تفكير عميق ، – بشر كغيرهم . يحبون المال ، وحب المال كان دائماً في الناس . . . الناس يحبون المال من اي مادة صنع سواء كانت جلداً او ورقاً او برونزا او ذهباً . يالهم من خفاف العقول . . . لكن ما العمل . . . حتى الرحمة تطرق احياناً ابواب قلوبهم . . . اناس عاديون . . . وعلى العموم يذكرون بسابقيهم . . . الا ان مسالة الشقق افسدتهم . . . – ثم امر بصوت عال : – ركبوا الراس .

تناول القط الراس وسدد الى الرقبة نظرة متانية متفحصة ووضع الراس عليها ، فاستوى هذا في مكانه تماماً وكانه لم يغادره اطلاقاً . والاهم انه لم يبق اي اثر لندبة على الرقبة . ثم نفض القط بقائمتيه فراك بينغالسكي وصدرته فاختفت منهما آثار الدم . اما فاغوت فانهض بينغالسكي الذي كان جالساً

ودس له في جيبه رزمة تشيرفونتسات وشيعه الى خارج الخشبة قائلاً :

– اغرب من هنا ! الحفلة بدونك امتع .

مشى بينغالسكي بخطوات ثقيلة وهو يترنح ويتلفت حوله بنظرات بلهاء حتى مركز الاطفاء فقط . وهناك ساءت حاله فصاح يشكو :

– راسي ، ياراسي !

وكان ريمسكي من بين الذين هرعوا الى عريف الحفلة الذي كان يبكي ويحاول امساك شيء ما في الهواء بيديه ويغمغم :

– أعيدوا راسي ! اعيدوا راسي ! خذوا الشقة ، خذوا اللوحات ، لكن اعيدوا لي راسي فقط .

وفيما اسرع الساعي يستدعي الطبيب ، حاول الآخرون تمديد بينغالسكي على الديوان الذي في غرفة الزينة ، لكنه اخذ يمانع ويشاكس وهو في حالة من الهيجان الشديد مما اضطرهم لاستدعاء عربة اسعاف . وعاد ريمسكي مسرعاً الى الخشبة ، بعد أن حملت العربة عريف الحفلة المسكين ، فرأى عجائب جديدة تجري عليها . وبالمناسبة ، في هذا الوقت بالذات أو قبله بقليل كان الساحر قد اختفى مع مقعده الباهت اللون من خشبة المسرح تماماً . ويجدر بنا القول ان الجمهور الماخوذ بالخوارق ، التي كان يعرضها عليه فاغوت ، لم يلاحظ اختفاء الساحر اطلاقاً .

واعلن فاغوت بعد ان اخلى الخشبة من عريف الحفل المصاب :

– الآن وبعد ان رحّلنا هذا المزعج الكئيب تعالوا نفتح مخزناً نسائياً !

وللحال غطيت خشبة المسرح بسجادات عجمية وانتصبت مرايا ضخمة منارة من جوانبها بقصائب مائلة الى الخضرة ، وبين المرايا واجهات رأى فيها المشاهدون وقد تملكهم انبهار بهيج فساتين نسائية باريسية من مختلف الالوان والطرازات ، وواجهات اخرى ظهرت فيها مئات القبعات النسائية بريش وبدون ريش ، بُبكل وبدون بكل ، ومئات من الأحذية – سود وبيض وصفر ، جلدية ومن الأطلس ومن الشموة ، بسيور وبحجارة صغيرة . وبين الأحذية بانت علب تلالات فيها حوافي



قوارير من الكريستال ، واكوام من الجزادين النسائية من جلد الظباء والغزلان ومن الحرير وبينها أكداس علب صغيرة مستطيلة مذهبة جميلة الصنع من تلك التي يوضع فيها أحمر الشفاه .

والشيطان أدرى من أين ظهرت على خشبة المسرح فتاة صهباء الشعر في ثوب سهرة أسود ، فتاة كل ما فيها جميل لو لا تلك الندبة الغريبة الشكل على عنقها ، ووقفت قرب الواجهات وهي تبتسم ابتسامة صاحبة محل .

واعلن فاغوت بابتسامة عذبة ان الشركة تجري بالمجان تماماً استبدال الأثواب والأحذية النسائية القديمة بموديلات باريسية للأثواب والأحذية ، وكذلك الأمر بالنسبة للجزادين والعطور وما الى ذلك .

اخذ القط يخفق بقائمته الخلفية وبالأمامية ويؤدي حركات كتلك التي يقوم بها البوابون لدى فتحهم الأبواب .

وصدحت الفتاة تلثغ بصوت عذب وان يكن مشوباً ببعض بحة بشيء ما عسير الفهم الى حد ما ، لكنه مغرٍ كما تجلى على الوجوه النسائية في الصالة :

– غرلين ، شانيل خمسة ، ميتسوكو ، نرسيس نوار ، اثواب سهرة ، اثواب كوكتيل . . .

كان فاغوت يميل على جنبيه والقط ينحني والفتاة تفتح الواجهات الزجاجية .

– تفضلوا ، – صاح القط ، – تفضلوا دون اي كلفة أو حرج !

كان الجمهور في حالة من الاضطراب والاثارة ، لكن أحداً لما يحزم أمره على الصعود الى الخشبة . واخيراً نهضت امرأة سمراء من الصف العاشر في الصالة وجازت وهي تبتسم ابتسامة من يريد أن يقول للحاضرين ان الأمر بالنسبة اليها سيان وانها لا تبالي بما يدور حولها ، وصعدت على مرقاة جانبية الى الخشبة .

– برافو ! – هتف فاغوت ، – احيي أولى زائراتنا ! اريكة يابيغيموت ! لنبدأ بالحذاء يامدام .

جلست السمراء على الأريكة ، وللحال افرغ فاغوت على السجادة امامها كومة كاملة من الأحذية .

نزعت السمراء حذاء رجلها اليمنى ، وقاست حذاء ليلكي اللون ودبت به على السجادة وتأملت كعبه .

– الن يضايقني ؟ – تساءلت في انشغال بال .

ورد فاغوت على تساؤلها بصيحة استياء :

– ماذا تقولين ، ماذا تقولين ! – بينما ماء القط من الاهانة .

– سآخذ هذا الزوج يامسيو ، – قالت السمراء بوقار وهي تلبس الحذاء الثاني .

القى حذاء السمراء القديم وراء الستارة حيث مضت برفقة الفتاة الصهباء وفاغوت الذي كان يحمل بعض الموديلات على عجلات . وكان القط يسعى بينهم وقد علق متراً على عنقه لاصطناع المزيد من الأهمية .

وبعد دقيقة ظهرت السمراء من خلف الستارة في ثوب ندت له التنهدات في كل الصالة ، ووقفت المرأة الشجاعة التي بلغت في جمالها حد الروعة أمام المرآة ، وهزت كتفيها المكشوفتين ، ومسحت بأصابعها شعرها على قذالها ، وانحنت محاولة القاء نظرة خلف ظهرها .

– ترجو الشركة قبول هذه للذكرى ، – قال فاغوت وناول السمراء علبة مفتوحة فيها قارورة .

– ميرسي ، – اجابت السمراء بغطرسة ومضت تهبط المرقاة الى الصالة . وعلى طول طريقها الى مقعدها كان المشاهدون يهبون ويمدون ايديهم للمس العلبة .

وهنا افلت الزمام ، فاندفعت النساء من كل حدب وصوب الى الخشبة . وسمع في زحمة الأصوات المثارة والضحكات والتنهدات صوت رجل يقول : «لا اسمح لك !» وصوت امرأة يرد : «مستبد ، برجوازي محدود ، لا تلو يدي !» . كانت النساء يغبن خلف الستارة ويتركن هناك اثوابهن ثم يعدن في اثواب جديدة . وعلى المقاعد ذات القوائم المذهبة جلس صف من السيدات يضربن السجادة باقدامهن المنتعلة الجديدة بحماسة . كان فاغوت واقفاً على ركبتيه يساعد النساء في ادخال اقدامهن في الأحذية الجديدة بشدادته القرنية ، والقط يروح ويجيء بتثاقل بين الواجهات والمقاعد وهو ينوء تحت أكوام الجزادين



والاحذية ، اما الفتاة ذات العنق المشوه فكانت تظهر تارة وتختفي تارة اخرى وانتهى بها الأمر الى ان صارت ترطن بالفرنسية وحدها . والغريب ان النساء كلهن حتى اللواتي لا يعرفن كلمة واحدة بالفرنسية كن يفهمنها «على الطاير» .

واثار دهشة الجميع رجل حشر نفسه بين جمهور النساء على خشبة المسرح . فقد اعلن ان زوجته مصابة بالانفلونزا ، ولهذا فهو يرجو ان يعطوه شيئاً ما لها ، وانه على استعداد لابراز بطاقته العائلية برهاناً على انه متزوج . وقوبل اعلان الزوج العطوف المهتم بالقهقهة ، لكن فاغوت صاح بصوت عالٍ انه يصدقه كما يصدق نفسه دونما حاجة الى بطاقة وسلمه زوجين من الجوارب الحريرية وتبرع له القط بقلم من احمر الشفاه .

كانت النساء المتخلفات يندفعن الى خشبة المسرح ، ومن خشبة المسرح كان يتدفق سيل المحظوظات وهن في ثياب السهرات الراقصة وفي جاكيتات موشاة برسم تنين ، وفي ملابس زيارة صارمة اللون وفي قبعات مائلة على الحاجب .

اذاك اعلن فاغوت انه نظراً لتاخر الوقت فان المخزن سيغلق بعد دقيقة بالضبط حتى مساء اليوم التالي فاستعرت على الخشبة جلبة لا تصدق . اخذت النساء يتخاطفن الأحذية دون قياس . واحداهن اندفعت كالعاصفة الى وراء الستارة وخلعت رداءها على عجل واخذت اول ما وقعت يدها عليه وكان روب دي شمبر حريرياً عليه طاقات كبيرة من الورد ، وتمكنت ، بالاضافة الى ذلك ، من التقاط زجاجتي عطر .

وبعد دقيقة تماماً دوت طلقة مسدس فاختفت المرايا وغارت الواجهات والمقاعد ، وذابت السجادة كما الستارة في الهواء ، وكان الجبل الشاهق من الالبسة والاحذية القديمة آخر ما اختفى ، عادت بعده خشبة المسرح صارمة فارغة وعارية .

وهنا تدخل شخص جديد في الأمر .

فقد سُمع من اللوج رقم ٢ صوت جهوري لطيف ورخيم يقول بالحاح :

– ومع هذا حبذا لو كشفت للمشاهدين على الفور تقنية خزعبلاتك ، أيها المواطن الفنان ، وعلى الأخص لعبة الأوراق

النقدية هذه . وحبذا ايضاً لو اعدت عريف الحفلة الى خشبة المسرح فمصيره يقلق المشاهدين .

ولم يكن الصوت الجهوري سوى صوت ضيف الشرف في امسية اليوم ، رئيس لجنة السمعيات في مسارح موسكو اركادي ابولونوفتش سمبلياروف .

كان اركادي ابولونوفتش يجلس في اللوج مع سيدتين : اولاهما متقدمة في السن ترتدي ملابس غالية موضة وثانيتهما صبية غضة بملابس اكثر تواضعاً . كانت الأولى ، كما تبين بعد ذلك لدى تسجيل المحضر ، زوجة اركادي ابولونوفتش ، والثانية قريبة بعيدة له وفنانة مبتدئة وواعدة قدمت من ساراتوف وتعيش في شقة اركادي ابولونوفتش وزوجته .

– بردون ! – اجابه فاغوت ، – العفو ، ليس هنا ما يحتاج الى كشف او فضح ، فكل شيء واضح .

– لا ، آسف . الفضح هنا ضروري للغاية ، والا تركت الفقرات الممتازة التي قدمتموها انطباعاً مضنياً في النفوس . ان جمهور المشاهدين يطالب بالتوضيح .

وقاطع المهرج الوقح سمبلياروف قائلاً :

– جمهور المشاهدين لم يعرب ، فيما يبدو ، عن رغبة من هذا القبيل ، اليس كذلك ؟ ومع هذا ونزولاً عند رغبتك الكريمة جداً يا اركادي ابولو نو فتش ساقوم بالكشف عن سرها وفضحه . انما هل تسمح لي قبل هذا بفقرة قصيرة جداً ؟

– ولم لا ، – اجابه اركادي ابولونوفتش بنبرة رعاية ، – لكن مع فضحها حتماً !

– سمعاً وطاعة ، سمعاً وطاعة . وهكذا اسمح لي ان اسالك : اين كنت البارحة مساء ياركادي ابولونوفيتش ؟

لدى سماع اركادي ابولونوفتش هذا السؤال غير اللائق او ، اذا شئت ، هذا السؤال الفظ تغيرت ملامح وجهه ، بل تغيرت تغيراً شديداً .

– البارحة مساء كان اركادي ابولونوفتش في اجتماع لجنة السمعيات ، – اعلنت زوجة اركادي ابولونوفتش بكثير من الغطرسة ، – لكني لا افهم ما علاقة هذا بالسحر .

– اي ، مدام ، – قال فاغوت مثنياً على قولها ، – طبعاً



لا تفهمين . بخصوص الاجتماع انت على ضلال ، وضلال مبين . بعد ان ذهب اركادي ابولونوفتش الى الاجتماع المذكور ، الذي لم يُعين البارحة اصلاً اذا اردت الحقيقة ، صرف سائقه عند مبنى لجنة السمعيات في تشيستيي برودي (وهنا ران على المسرح الصمت والسكون) وذهب بمفرده الى شارع ايلوخافسكايا لزيارة ميليتسا اندرييفنا بوكوباتكو ، الفنانة التي تعمل في المسرح الجوال التابع للمنطقة وامضى عندها نحو اربع ساعات .

– اويْ ، – صاح شخص ما بصوت موجوع في الصمت المخيم .

وفجاة انفجرت قريبة اركادي ابولونوفتش الشابة في ضحكة خافتة ومخيفة ، وصاحت :

– كل شيء مفهوم ! انا ايضاً كنت اشك في الأمر من فترة طويلة . الآن ادركت لماذا حصلت هذه المراة العديمة الموهبة على دور لويزا !

وبغتة لوحت بشمسيتها الليلكية القصيرة والغليظة وهوت بها على راس اركادي ابولونوفتش .

وصاح السافل فاغوت الذي هو كوروفييف :

– اليكم ، ايها المواطنون المبجلون ، واحدة من حالات الفضح التي طالما الح اركادي ابولونوفتش علينا بها !

– كيف تجرات ، ايتها اللئيمة ، على مد يدك الى اركادي ابولونوفتش ؟ – سالتها زوجة اركادي ابولونوفتش غاضبة متوعدة وهي تنتصب في اللوج بملء قامتها العملاقة .

وهزت موجة ثانية قصيرة من الضحك الجهنمي القريبة الشابة .

– قد لا يجرؤ غيري ، – اجابت مقهقهة ، – اما انا فاجرؤ ! – وللمرة الثانية ندت عن الشمسية المرتدة عن راس اركادي ابولونوفتش فرقعة جافة .

– الشرطة ! لياخذوها ! – صرخت زوجة سمبلياروف بصوت مخيف تجمدت له اوصال الكثيرين .

وزاد القط على ذلك فقفز الى مقدمة الخشبة وجار فجاة بصوت انساني ملء المسرح :

– انتهت الحفلة ! أيها المايسترو ! قطّع مارشاً ! !

لوح قائد الأوركسترا الذي فقد عقله بعصاه وهو لا يعي ما يفعل . ولم تصدح الاوركسترا ، بل لم تدو ، بل حتى لم تضج ، انما قطعت بالضبط ، على حد تعبير القط الكريه ، مارشاً غير معقول ، لا يضاهيه شيء في جلافته .

وخيل للحظة انه ترددت في وقت ما تحت نجوم الجنوب وفي مقهى رخيص كلمات هذا المارش الغامضة نصف العمياء انما الجريئة :

كان سيادته
يحب الطيور المغرّدة
ويبسط رعايته
على الكواعب المتغنّجة

ولعل هذه الكلمات لم تتردد أبداً ، بل ترددت أخرى بنفس اللحن لكنها غير لائقة بتاتاً . المهم ليس هذا ، بل ان ما حدث في فاريتيه بعد ذلك كان اشبه ببلبلة بابل . فقد هرع رجال الشرطة الى لوج سمبلياروف ، وقفز الفضوليون فوق الحاجز وانفجرت ضحكات جهنمية وصيحات مسعورة خفتَ من حدتها رنين صنوج الاوركسترا الذهبي .

ورأى الناس بأم العين ان خشبة المسرح خلت بغتة وان الغشاش فاغوت والقط الوقح بيغمبوت ذابا في الهواء واختفيا كما اختفى من قبلهما الساحر مع أريكته ذات الغلاف الباهت اللون .

## الفصل الثالث عشر

## ظهور البطل

وهكذا أوما المجهول باصبعه الى ايفان محذراً وهمس : «تس !»

أنزل ايفان قدميه من السرير وحدق فيما حوله ، فرأى



شخصاً في نحو الثامنة والثلاثين من العمر ، حليقا ، اسود الشعر ، ذا انف حاد وعينين قلقتين وخصلة شعر متدلية على جبينه يتطلع من الشرفة الى النافذة .

وبعد أن أصاخ الزائر الغامض السمع وتأكد من وجود ايفان وحده تجرأ ودخل الغرفة . وهنا رأى ايفان ان القادم يرتدي ثياب المستشفى : ملابس داخلية وخفاً دس فيه قدميه الحافيتين وجبة داكنة مشلوحة على الكتفين .

غمز القادم ايفان وأخفى رزمة مفاتيح في جيبه وسأل همساً ان كان بامكانه الجلوس ، وبعد ان تلقى ايماءة بالايجاب جلس على الأريكة .

– كيف اتيت الى هنا ؟ – همس ايفان منصاعاً للسبابة اليابسة المحذرة ، – أليست شبكات الشرفات مغلقة بالأقفال ؟

– الشرفات مغلقة بالأقفال طبعاً ، – قال الضيف مثنياً ، – ان برسكوفيا فيودوروفنا انسانة لطيفة جداً لكنها كثيرة السهو . من شهر خطفت منها رزمة مفاتيح ، وعلى هذا صار بامكاني الخروج الى الشرفة العامة الملتفة حول الطابق كله وبالتالي زيارة جيراني أحياناً .

– بما أنك تستطيع الخروج الى الشرفة فبامكانك ان تهرب ، أم ان الشرفة مرتفعة ؟ – قال ايفان مستفسراً .

– لا ، – اجابه الضيف بحزم ، – لا استطيع الهرب ، لا لأن الشرفة مرتفعة ، بل لأنه ليس لي مكان اهرب اليه . – واردف بعد وقفة قصيرة : – اذن نحن راقدون هنا ؟

– نعم ، راقدون ، – اجابه ايفان وهو يتفرس في عيني القادم البندقيتي اللون المليئتين بالقلق والجزع .

– لكن . . . – وهنا ازداد قلق الضيف فجأة ، – لكنك لست من الهائجين كما آمل ؟ فأنا ، اذا شئت ، ممن لا يحبون الضوضاء والجلبة والعنف وما الى ذلك . واكره خاصة الصراخ الانساني سواء صراخ الألم أو الغضب أي صراخ آخر . طمئني ، هل انت من اولئك ؟

– البارحة في المطعم ضربت أحدهم على سحنته ، – اجابه الشاعر المتغير الشخصية برجولة .

– والسبب ؟ – سأل الضيف بصوت صارم .

– اذا شئت الحقيقة ، دون اي سبب ، – اجاب ايفان مرتبكاً .

– هذا شيء شائن ، – قال الضيف يدين ايفان واردف : – ثم ما هذه الطريقة في التعبير : ضربته على سحنته ؟ فنحن لا نعرف بالضبط ما الذي للانسان : أهو وجه أم سحنة . ومع هذا فالارجح انه وجه . ثم القبضات هذه . . . لا دعك من هذا مرة والى الأبد .

وبعد ان انب الضيف الشاعر على هذا النحو سأله مستفسراً :

– مهنتك ؟

ولأمر ما أجابه ايفان معترفاً بفتور :

– شاعر .

تكدر وجه القادم وصاح :

– اوه ، ما اتعس حظي ! – لكنه استدرك على الفور معتذراً وسأله : – كنيتك ؟

– بيزدومني .

– ايه ، ايه . . . – قال الضيف وهو يقطب حاجبيه .

– الا تعجبك اشعاري ؟ – سأله ايفان بفضول .

– بشكل .

– وايها قرأت ؟

– لم اقرأ بيتاً منها ! – صاح الزائر بعصبية .

– وكيف حكمت اذن ؟

– وما الغريب في الأمر ؟ – اجابه الضيف ، – كاني لم اقرأ غيرها ؟ . . لربما . . . معجزة ؟ حسناً ، انا على استعداد لأن اصدق ما تقوله لي : هل اشعارك جيدة ؟

– مريعة ! – قال ايفان فجأة بشجاعة وصراحة .

– كف عن الكتابة ! – توسل القادم اليه ضارعاً .

– اعدك واقسم على هذا ، – نطق ايفان هذه الكلمات بصوت مهيب .

ووثقا القسم بمصافحة . وهنا تناهت اليهما من الممر اصوات وخطوات خفيفة .



– تس ، – همس الضيف وقفز الى الشرفة واغلق الشبك وراءه .

مدت برسكوفيا فيودوروفنا راسها من الباب ، وسألت ايفان عن حاله ، وعما اذا كان يرغب في النوم في الظلمة أم في الضوء . طلب ايفان اليها أن تترك النور مضاء ، فمضت بعد ان تمنت له ليلة هادئة . ولما هدأ كل شيء عاد الضيف الى ايفان .

واخبر الضيف ايفان همساً انهم أتوا الى الغرفة رقم ١١٩ برجل بدين ذي وجه أحمر يغمغم طول الوقت بكلام عن عملة اجنبية في كوة التهوية ويقسم انه نزلت شارعهم سادوفايا قوى شريرة .

وتابع الضيف وهو يرتعش في قلق :

– . . . وهو يشتم بوشكين باقذع الشتائم ويصرخ طول الوقت : «كوراليسوف ، بيس ، بيس !» .

وبعد أن هدأ روع الضيف ، جلس وقال :

– على كل حال ، الله معه ، – ثم توجه الى ايفان مستانفاً حديثه : – ما الذي اوصلك الى هنا اذن ؟

– بيلاطس البنطي ، – اجابه ايفان وهو يطرق الى الأرض عابساً .

– كيف ؟ – صرخ الضيف وقد نسي الحيطة والحذر وللحال سد فمه بيده ، – توافق مذهل ! أتوسل اليك ، اتضرع اليك ان تخبرني !

ولم يدر ايفان ما الذي يدفعه الى الاطمئنان الى هذا الرجل المجهول والثقة فيه فأخذ يروي له متلعثما ووجلاً أول الأمر ثم بمزيد من الجرأة قصته بالأمس في بتريرشيي برودي . نعم ، لقد وجد ايفان نيقولايفتش في شخص سارق المفاتيح الغامض هذا مستمعاً شكوراً ! لم يضعه الضيف في مصاف المجانين ، بل كان يبدي اعظم الاهتمام بما يرويه له ، وبقدر ما كان ايفان يسترسل في روايته كان انفعال الضيف يشتد حتى بلغ اخيراً حد الحماسة ، فأخذ يقاطع ايفان بين الفترة والأخرى بهتافات الدهشة والعجب :

– اي ، اي ! تابع ، تابع أتوسل اليك . لا تغفل شيئاً بحق كل ما هو مقدس !

لكن ايفان لم يكن يغفل شيئاً ، فقد كان هو نفسه يشعر بارتياح متزايد كلما أمعن في الحديث ، وأخيراً وصل شيئاً فشيئاً الى لحظة خروج بيلاطس البنطي الى الشرفة ببردته البيضاء ذات البطانة الحمراء القانية .

اذاك ضم الضيف يديه ضارعاً وهمس :

– اوه ، كما خمنت ! اوه ، كل شيء كما خمنت !

علق المستمع الشكور على وصف موت برليوز المريع بملاحظة ملغزة وعيناه تقدحان شرراً :

– اسف لشيء واحد – ان لم يكن الناقد لاتونسكي أو الأديب مستيسلاف لافروفتش مكانَ برليوز هذا ، – وصاح وهو في ذروة الحماسة انما بصوت يكاد لا يسمع : – تابع !

طرب الضيف للقط يدفع ثمن التذكرة للجابية وانغرق في ضحك خافت وهو ينظر الى ايفان الذي أثاره نجاح قصته فأخذ يقرفص ويقفز قفزات خفيفة مقلداً القط وهو يمسح شاربيه بالفكة .

وبعد أن روى له حادثة غريبويبدوف ، أنهى ايفان كلامه قائلاً وقد لاح على وجهه التجهم والحزن :

– وهكذا وجدت نفسي هنا !

وضع الضيف يده على كتف الشاعر المسكين مشفقاً وقال له :

– يالشاعر العاثر الحظ ! لكني اقول لك مع هذا انك المسؤول عن كل ما حصل ياعزيزي . ما كان عليك ان تعامله بهذا القدر من الجراة او حتى الوقاحة . وها انت ذا دفعت الثمن . وعليك ان «تشكره» لأن الثمن كان بخساً الى حد ما .

– ولكن من يكون هذا الشخص اخيراً ؟ – سأل ايفان مثاراً وهو يهز قبضتيه .

تأمل الضيف ايفان ملياً ورد عليه بسؤال :

– الن تهتاج ؟ نحن كلنا هنا اناس غير مأمونين . . . استدعاء الطبيب والحقن وغيرها . . . الن يكون شيء من ذلك ؟



– لن يكون ، لن يكون ! – هتف ايفان ، – قل لي : من يكون ؟

– حسناً ، – اجابه الضيف واردف يقول له بصوت رزين مقطعا الكلمات :

– البارحة التقيت في بتريرشيي برودي بابليس .

وكما وعد ايفان ، لم يتهيج لكنه صعق لهذا الجواب بشدة .

– هذا مستحيل ! انه غير موجود .

– العفو ! قد يحق لغيرك ان يقول هذا ، اما انت فلا . فانت واحد من أوائل الذين كابدوا بسببه على ما يظهر . انك ترقد الآن في مستشفى الأمراض النفسية كما ترى ، ومع هذا لا زلت تردد انه غير موجود . شيء غريب حقاً !

صمت ايفان حائراً .

واردف الضيف يقول :

– ما ان بدأت تصفه حتى أخذت احزر الشخص الذي كانت لك سعادة التحدث اليه البارحة . والحقيقة اني ادهش لأمر برليوز ! انت انسان غر طبعاً ، – وهنا اعتذر الضيف من جديد ، – لكن ذاك ، بقدر ما سمعت عنه ، لا بد ان يكون قرأ شيئاً ! لقد بددت الكلمات الأولى لهذا البروفيسور كل شكوكي . فمن المحال ألا يستطيع انسان التعرف عليه ! وعلى اي حال . . . اعذرني . . . اعذرني ثانية . . . انت بالتاكيد انسان جاهل أليس كذلك ؟

– دون شك ، – اجابه ايفان الذي تغيرت اخلاقه حتى لم يعد يعرف .

– انظر . . . حتى الوجه الذي رسمته . . . والعينان المختلفتان والحاجبان ! العفو ، وبالمناسبة لعلك لم تسمع حتى أوبرا «فاوست» ؟

ولأمر ما بلغ الارتباك بايفان حداً مرعباً فأخذ يغمغم بوجه محمر كلاماً عن سفرة الى مصحة في يالطا . . .

– هذا ما توقعته ، هذا ما توقعته . . . وهو ليس بالشيء الغريب ! أما برليوز فاعود فاقول ان امره يدهشني ! فهو ليس بالانسان الواسع الاطلاع وحسب ، بل انه ماكر أشد المكر ،

وان كان علي ان اعترف دفاعاً عنه ان فولند يستطيع ذر الرماد في عيون من هو امكر من برليوز .

– كيف ؟ ! – صاح ايفان بدوره .

– اخفض صوتك .

لطم ايفان جبينه براحته وقال بصوت أجشر :

– الآن فهمت ، الآن فهمت . كان حرف «ف» مكتوباً على بطاقة الزيارة . اي-يا-يا ، هكذا الأمر اذن ! – وصمت قليلاً في ذهول وهو يحدق في القمر السابح وراء القضبان ثم قال : – وعلى هذا كان بامكانه ان يكون عند بيلاطس البنطي فعلاً ؟ او لم يكن مولوداً اذاك ؟ ومع هذا يقولون اني مجنون ! – اضاف ايفان وهو يومىء ساخطاً الى الباب .

ارتسم عند شفتي الضيف تغضن يشي بالمرارة .

– تعال ننظر الى الحقيقة عارية ، – وحول الضيف وجهه الى الكوكب الليلي الراكض بين الغيوم . – انا وانت مجنونان ، ولا حاجة الى الانكار ! لقد هزك لقاؤه هزاً عنيفاً فاضطرب عقلك لانه كانت عندك التربة الصالحة كما هو واضح . لكن كل ما تقوله حدث فعلاً دون اي شك ، لكنه غير مألوف حتى ان سترافنسكي نفسه ، وهو عالم نفساني عبقري ، لم يصدقك بطبيعة الحال . هل عاينك ؟ (هز ايفان راسه بالايجاب) . لقد كان محدثك عند بيلاطس البنطي وعلى الفطور عند كنط وهاهو ذا الآن يزور موسكو .

– لكن الشيطان اعلم بما سيقترفه هنا من اعمال شنيعة ! الا يجب القبض عليه بطريقة او باخرى ؟ – رفع مع هذا ايفان القديم ، الذي لم يهزم في ايفان الجديد نهائياً ، راسه وان لم يكن بثقة تامة .

– لقد حاولت ونالك منه ما نالك ، – رد عليه الضيف بسخرية ، – ولا انصح الآخرين بتكرار المحاولة . انه سيقترف اشياء كثيرة ، فلا شك في ذلك ! آه ، آه ، كما ساءني انك انت الذي التقيت به لا أنا ! ومع ان كل شيء انتهى بالنسبة لي ، فاني اقسم لك اني على استعداد لأن اعيد رزمة مفاتيح برسكوفيا فيودوروفنا لقاء هذا اللقاء ، اذ لا شيء لدي اعطيه سواها ، فانا فقير !



–ولماذا انت بحاجة اليه ؟

غرق الضيف في حزن طويل وهو يرتعش ، لكنه قال اخيراً :

– انها قصة غريبة ، فانا هنا لنفس السبب الذي اتى بك هنا ، وبالذات بسبب بيلاطس البنطي ، – وهنا التفت الضيف حوله بذعر وقال : – ملخص الموضوع اني كتبت من عام رواية عن بيلاطس .

– انت كاتب ؟ – سأله الشاعر باهتمام .

اكفهر وجه الضيف ولوح لايفان بقبضته متوعداً ثم قال :

– انا المعلم ، – وهنا قست تعابير وجهه فأخرج من جيب ثوبه طاقية سوداء صغيرة في غاية القذارة طرز عليها حرف «م» بحرير اصفر ، ووضعها على راسه وانتصب امام ايفان يريه نفسه في وضع جانبي ثم مباشر ليبرهن له على انه المعلم ، ثم اردف كمن يفشي سراً : – لقد خاطتها لي بيديها .

– وما كنيتك ؟

– لم تعد لي كنية ، – اجاب الضيف الغريب باحتقار مشوب بالحزن ، – لقد تخليت عنها ، كما تخليت ايضاً عن كل ما في الحياة . فلننسها .

– لكن هلا حدثتني عن الرواية على الأقل ، – طلب اليه ايفان بلطف .

– كما تشاء . قصتي بالفعل غير عادية الى حد ما . . .

. . . كان اختصاصياً في التاريخ عمل الى سنتين خلتا في احد متاحف موسكو كما عمل في الترجمة .

– من اي لغة ؟ – سأله ايفان باهتمام .

– اعرف خمس لغات عدا لغتي الأم : الانكليزية والفرنسية والالمانية واللاتينية واليونانية . واقرا ايضاً قليلاً بالايطالية .

– عظيم ! – همس ايفان في حسد .

كان المؤرخ يعيش وحيداً في موسكو ، لا اهل له ، بل دون معارف تقريباً . وتصوروا . . . اذا به يربح ذات مرة مائة الف روبل .

وهمس الضيف ذو الطاقية السوداء الصغيرة :

– تصور دهشتي حين دسست يدي في سلة الملابس

المتسخة فاذا بي ارى نفس الرقم الذي في الجريدة ! – واردف موضحاً : هذا السند اعطانيه المتحف .

بعد ان ربح ضيف ايفان الغامض المائة الف روبل اشترى كتباً وهجر غرفته في شارع مياسنيتسكايا . . .

– يا للجحر اللعين ! – زمجر الضيف .

. . . واستاجر عند احد اصحاب حق البناء في زقاق قرب اربات . . .

– هل تعرف ما معنى اصحاب حق البناء ؟ – سأل الضيف ايفان ، واردف يشرح له على الفور : – انهم جماعة قليلة من النصابين لا ادري كيف ظلت سليمة ترتع في موسكو وتمرح . . .

استاجر اذاً عند احد اصحاب حق البناء غرفتين في قبو منزل صغير يقع وسط حديقة . واعتزل العمل في المتحف ، وشرع يكتب رواية عن بيلاطس البنطي .

– آه ، كانت فترة ذهبية من عمري ، – همس الضيف وقد برقت عيناه ، – شقة مستقلة تماماً ، لها مدخل ومغسلة يجري فيها الماء (ولامر ما شدد باعتزاز على هذه النقطة) ونوافذ صغيرة ترتفع مباشرة فوق الممشى الممتد من باب الحديقة . وعلى بعد اربع خطوات قبالتي اشجار الليلاك والزيزفون والقيقب عند السور . آه ، آه ، آه . في الشتاء لم اكن ارى من النافذة ، الا فيما ندر ، ارجلاً سوداء واسمع خشخشة الثلج تحتها . كانت النار متاججة في موقدي على الدوام ! وبغتة اتى الربيع . ورايت من خلال الزجاج الداكن شجيرات الليلاك العارية اول الأمر ، ثم الآخذة بالاكتساء بالخضرة . انما في ذلك الوقت بالذات ، اي في الربيع الفائت حدث لي ما هو اروع من استلام المائة الف روبل ، وهذا مبلغ هائل من المال كما لا بد ان توافقني !

– هذا صحيح ، – اعترف له ايفان الذي كان يصغي اليه باهتمام .

– فتحت النوافذ وكنت جالساً في الغرفة الثانية ، الصغيرة جداً ، – وهنا اخذ الضيف يقيس بيديه ، – هكذا . . . هنا ديوان ، وهنا قبالته ديوان آخر وبينهما طاولة صغيرة فوقها



مصباح ليلي رائع ، وبالقرب من النافذة كتب ، وهنا طاولة صغيرة للكتابة ، اما في الغرفة الأولى ، الكبيرة ، بمساحة اربعة عشر متراً فكتب ، كتب ، ومدفأة . آه باللجو الذي كان يخيم على بيتي !

كان الليلاك ينشر طيباً غير عادي ! واخذ راسي يخف من الارهاق وكان بيلاطس يشرف على النهاية . . .

– البردة البيضاء والبطانة الحمراء بلون الدم ! فاهم ! – هتف ايفان .

– بالضبط . كان بيلاطس يشرف على النهاية ، النهاية تماماً ، وكنت اعرف ان آخر كلمات الرواية ستكون : «. . . حاكم اليهودية الخامس الفارس بيلاطس البنطي» . كنت اخرج للنزهة بطبيعة الحال . فمائة الف كمية هائلة ، وكانت عندي بذلة رمادية رائعة . او كنت امضي لتناول الغداء في احد المطاعم الرخيصة . كان في اربات مطعم رائع لا ادري ان كان قائماً حتى الآن .

وهنا انفتحت عينا الضيف على اتساعهما ، وتابع همساً وهو يرنو الى القمر :

– كانت تحمل بيدها زهوراً صفراً بشعة تبعث على القلق . الشيطان يعلم ما اسم هذه الزهور ، لكنها هي اول ما يظهر من الزهور في موسكو لسبب ما . وكانت هذه الزهور تبرز بجلاء فوق معطفها الربيعي الأسود . كانت تحمل زهوراً صفراً ! انه لون رديء . وانعطفت من شارع تفيرسكايا الى زقاق والتفتت . الا تعرف تفيرسكايا ؟ في تفيرسكايا يسير آلاف الأشخاص ، انما اؤكد لك انها راتني انا وحدي ، ونظرت الي نظرة لا استطيع القول انها نظرة قلق فهذا غير دقيق ، بل نظرة كانما تشي بوجع دفين . ولم يهزني جمالها بقدر ما هزتني الوحشة القاتلة ، غير الطبيعية التي لم يتسن لاحد ان يراها في عينين !

وانعطفت انا ايضاً في اعقابها الى الزقاق منقاداً الى هذه العلامة الصفراء . وسرنا في زقاق متعرج كئيب صامتين ، انا في جانب وهي في الجانب الآخر . وتصور ، لم يكن في الزقاق احد سوانا ، كنت اتعذب لانه تهيا لي انه من الضروري ان اكلمها ،

وكنت مضطرباً خشية الا استطيع فتح فمي بكلمة فتمضي فلا اعود الى رؤيتها ابداً . . .

وتصور ، كانت هي التي تكلمت على حين غرة اولاً :

– هل تعجبك زهوري ؟

لا زلت اذكر جيداً كيف تردد صوتها الخافت الى حد ما انما المتقطع بحيث تهيأ لي ، مهما بدا ذلك على قدر من الغباء ، ان صداه هو الذي دوى في الزقاق وارتد عن الحائط الأصفر القذر . عبرت الى جانبها بسرعة واجبتها وانا ادنو منها :

– لا .

نظرت الي مندهشة ، فادركت فجاة ، ودون اي توقع بتاتاً ، اني طول حياتي انما احببت هذه المراة بالذات ! امر غريب اليس كذلك ؟ ستقول طبعاً اني مجنون .

– اني لا اقول شيئاً ، – هتف ايفان واضاف : – تابع ، ارجوك !

وتابع الضيف :

– نعم ، نظرت الي مندهشة وسالتني بعد ان تاملتني :

– الا تحب الزهور عموماً ؟

كان في صوتها عداء كما بدا لي . كنت اسير الى جنبها وانا احاول الا اتخلف عنها ، ولدهشتي لم اكن اشعر بأي حرج .

– بلى ، احبها ، ولكن ليس هذه .

– وايها ؟

– احب الورود .

واسفت على ما قلت ، لأنها ابتسمت ابتسامة مذنب ورمت زهورها في اخدود . ارتبكت قليلاً لكني التقطت الزهور مع دنا ومددت لها يدي بها لكنها ابتسمت ابتسامة خفيفة ودفعتها عنها فابقيتها في يدي .

وعلى هذا النحو سرنا صامتين بعض الوقت الى ان انتزعت الزهور من يدي ورمتها على الرصيف . ثم شبكت يدها بقفازها الأسود المتسع الطرف بيدي وسرنا جنباً الى جنب .

– تابع ، – قال ايفان ، – ولا تغفل اي شيء من فضلك .

– اتابع ؟ – كرر الضيف السؤال ، – بوسعك ان تحزر



ما حدث بعد ذلك بنفسك . – وهنا مسح دمعة فجاته بكمه الأيمن وتابع : – وطلع علينا الحب كما يطلع عليك من تحت الأرض في زقاق قاتل ، وأردانا كلينا على الفور !

هكذا تردي الصاعقة ، هكذا يردي الخنجر !

غير انها كانت تؤكد فيما بعد ان الأمر لم يكن على هذا النحو ، واننا كنا نحب احدنا الآخر منذ زمن بعيد جداً بطبيعة الحال ، دون ان يعرف احدنا الآخر ودون ان يراه ابداً ، وانها كانت تعيش مع انسان آخر واني كنت اذاك مع هذه . . . التي اسمها . . .

– مع من ؟ – سأل بيزدومني .

– مع هذه . . . اي . . . مع هذه . . . اي . . . – اجاب الضيف وفرقع باصابعه .

– كنت متزوجاً ؟

– طبعاً ، ولهذا افرقع . . . مع هذه . . . مع فارنكا ، مانتشكا . . . لا فارنكا . . . صاحبة الثوب المخطط . . . المتحف . . . على اي حال لم اعد اذكر .

وقالت ايضاً انها خرجت في ذلك اليوم تحمل زهوراً صفراً كيما اجدها اخيراً ، وانه لو لم يحصل هذا ، لتناولت السم لأن حياتها فارغة .

نعم ، لقد اردانا الحب على الفور . ولقد ايقنت هذا بعد ساعة من ذلك اليوم نفسه حين وجدنا نفسينا ، دون ان نشعر بالمدينة حولنا ، على الكورنيش قرب جدار الكرملين .

تحدثنا وكاننا لم نفترق الا بالأمس ، وكانما يعرف الواحد منا الآخر من سنين طويلة . وتواعدنا على اللقاء في اليوم التالي هناك ايضاً ، على ضفة نهر الموسكوفا والتقينا . كانت شمس ايار تشرق لنا . وفي فترة وجيزة ، وجيزة جداً صارت هذه الامراة زوجتي سراً .

كانت تاتي الي كل يوم ، وكنت آخذ في انتظارها منذ الصباح . وكان هذا الانتظار يتجلى في اني كنت اعيد ترتيب اشيائي على الطاولة . وقبل عشر دقائق من مجيئها اكون جالساً الى النافذة ارهف السمع لعل باب الحديقة المهترئ يدق . والشيء الغريب انه حتى لقائي بها ، نادراً ما كان احد يقصد

فناءنا الصغير ، او لنقل ببساطة ، لم يكن احد يقصده ، امـا الآن فقد بدا لي ان المدينة كلها تندفع اليه . يدق باب الجنينة فيدق قلبي ، وتصور ، كنت ارى دائماً على مستوى وجهي وراء النافذة جزمة قذرة لداخل او خارج . جـلاخ . من الذي يحتاج جلاخاً في بيتنا ؟ ما الذي يريد جلخه ؟ واي سكاكين !

كانت تدخل من باب الحديقة مرة واحدة ، بينما يكون قلبي يخفق قبل دخولها عشر مرات . اني لا اكذب عليك . وحين كان وقتها يحين ، وكان العقرب يشير الى انتصاف النهار ، لم يكن قلبي يخفق عن الدق الى ان كان حذاؤها ذو العقدتين السوداوين من جلد الشموا ، المشدودتين بابزيمين فولاذيين يلوح عـلى مستوى النافذة دونما صوت حتى لتحسـب انها تسير بخطوات خرساء .

وكانت تعاتبني احياناً ، فتتوقف عند النافذة الثانية ، وتدق الزجاج بمقدمة حذائها . فكنت اجـد نفسي في لحظة عند هذه النافذة ، لكن الحذاء كان يختفي ، ويختفي الحرير الأسود الذي كان يحجب الضوء وكنت اسرع الى الباب افتحه لها .

لم يدر احد بعلاقتنا ، اؤكد لك ، مع ان هذا امر لا يحدث ابداً . لم يدر زوجها ولم يدر معارفها . وفي البيت العتيـق المنفرد ، حيث كان لي هذا القبو ، عرف بعضهم ورأى ان امرأة تاتي الي ، لكنهم لم يعرفوا اسمها .

– ومن تكون هذه المرأة ؟ – سأله ايفان الذي اثارته هذه القصة الغرامية اشد الاثارة .

اتى الضيف بحركة تدل على انه لن يقول اسمها ابداً ولأي كان وتابع حديثه .

وعرف ايفان ان المعلم والمجهولة احبا احدهما الآخر حبـاً قوياً جعلهما لا يفترقان ابداً . وتصور ايفان بوضوح الغرفتين اللتين في قبو الدارة واللتين تغشاهما العتمة دائماً بسبـب اشجار الليلاك وسياج الحديقة وكذلـك الأثاث الأحمر الرث والمكتب وفوقه الساعة التي ترن كـل نصف ساعة والكتب ، الكتب التي ترتفع من ارض القبو المصبوغ حتى السقف المسود من الدخان ، والمدفأة .

وعرف ايفان ايضاً ان ضيفه وزوجته السرية ادركا مـن



الأيام الأولى لعلاقتهما ان القدر نفسه هو الـذي دفعهما دفعاً الى الناصية عند شارع تفيرسكايا والزقـاق ، وانهما خلقا ليكون احدهما للآخر مدى الدهر .

وعرف ايفان من حديث ضيفه كيف كان العاشقان يمضيان يومهما . كانت تاتي . ثم تضـع منزراً وفي المدخل الضيق ، حيث المغسلة اياها التي كان المريض المسكين يعتز بها لسبب ما ، تشعل وابور الغاز على طاولة خشبية وتعد الفطور وتضعه على طاولة بيضوية في الغرفة الأولى . وعندما كانت عواصـف ايار المطرية تهب ، وكـان الماء يهدر قرب النوافذ العمش متدفقاً الى الرتاج ومهدداً بغمر آخر ملجأ للعاشقين ، كانـا يوقدان المدفأة ويشويان فيها البطاطا . كان البخار يتصاعد من البطاطا وكانت قشارة البطاطا السوداء تلوث اصابعهما . كانت الضحكات تتردد في القبو الصغير ، وكانت اشجار الحديقة تلقي عنها بعد المطر غصيناتها المكسرة وعذوقها البيض . وحين مضت ايام العواصف المطرية واتى الصيـف الخانق ، ظهرت في الأصيص الورود التي شد ما احباها وانتظراها .

كان من يسمي نفسه المعلم يعمـل ، بينما كانت ، هي ، تعيد قراءة ما يكتبه وهي تدس اصابعها النحيلة ذات الأظافـر الحادة الاطراف المصقولة بعناية في شعرها ، وتعود ، بعد ان تنهي القراءة ، الى خياطة الطاقية المذكور اياها . وكانت تجلس القرفصاء قرب رفوف الكتب الدنيا احياناً ، او تقف على كرسي قرب العليا تمسح الغبار عن مئات كعوب الكتب . كانت تمنيه بالمجد والشهرة ، وكانت تستحثه وتدفعه ، وفي هذا الوقـت بالذات سمتـه المعلم . كانت تنتظر هـذه الكلمات الأخيرة الموعودة عن حاكم اليهودية الخامس ، وكانت تردد بصوت عال مترنمة جملاً متفرقة راقتها ، وتقول ان حياتها في هذه الرواية .

وانجزت الرواية في شهر آب ، ودفع بها الى ضاربة آلـة كاتبة طبعتها في خمس نسخ . واخيراً جاءت الساعة التي كان عليّ فيها هجر ملجئي السري والخروج الى الحياة .

– وخرجت الى الحياة احمل كتابي بيميني ، وهنا انتهـت حياتي ، – همس المعلم ونكس راسه بينما راحت طاقيتـه الصغيرة السوداء ذات الحرف «م» تهتز طويلاً ، طويلاً . وتابع

المعلم حديثه ، لكن حديثه أضحى على شيء من التفكك ، لم يفقه منه ايفان الا انه نزلت بضيفه آنذاك كارثة .

– دخلت عالم الأدب لأول مرة ، لكني الآن ، وقد انتهى كل شيء بالنسبة الي وصرت على يقين من هلاكي ، اذكره برعب ! – همس المعلم بمهابة ورفع يده . – نعم ، لقد صعقني ، آه لو تعرف كم صعقني !

– من ؟ – همس ايفان بصوت يكاد لا يسمع خشية مقاطعة محدثه الذي تولاه الاضطراب .

– رئيس التحرير ، رئيس التحرير قلت لك . نعم ، هو الذي قراه . رماني بنظرة كأنما خدي متورم من خراج ثم نظر شزراً نحو الزاوية ، بل ضحك ضحكة محبوسة مرتبكة . ودونما سبب او ضرورة دعك المخطوطة وتنحنح . وبدت لي الأسئلة التي وجهها الي اسئلة مجنون . فقد أخذ يسألني ، دون أن يقول اي شيء في صلب الرواية ، من أكون ، ومن أين أتيت ، وهل اكتب من مدة طويلة ، ولماذا لم يسمع أحد بي من قبل ، بل انه طرح علي سؤالاً في غاية البلاهة في رايي : من هذا الذي أوحى لي بكتابة رواية في موضوع غريب كهذا ؟

وضقت اخيراً به ذرعاً فسألته ان يقول لي بصراحة ان كان سيطبع روايتي أم لا .

وهنا أخذ يحوص ويلوص ويغمغم ، وأعلن اخيراً أنه لا يستطيع شخصياً اتخاذ قرار في هذه المسالة ، وانه من المفروض أن يطلع الاعضاء الآخرون في هيئة التحرير وبالذات الناقدان لاتونسكي وارمان والأديب مستيسلاف لافروفتش على كتابي ، وطلب الي الحضور بعد اسبوعين .

وحضرت بعد اسبوعين فاستقبلتني فتاة ذات عينين مائلتين الى انفها من شدة كذبها المتواصل .

– انها لبشونيكوفا سكرتيرة هيئة التحرير ، – قال ايفان ، الذي كان يعرف عن كثب العالم الذي يصفه له ضيفه بمثل هذا السخط ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة ساخرة .

– يمكن ، – قال الضيف بحدة ، – وهكذا اعادت لي الرواية وقد أصابها قدر كبير من التلوث ببقع الدهن والتهرؤ .



وابلغتني ، وهي تحاول الا تقع عيناها في عيني ان لدى هيئة التحرير من المواد ما يكفي لعامين مقدماً ، وعلى هذا فمسالة طبع روايتي غير واردة على حد تعبيرها .

– وما الذي اذكره بعد هذا ؟ – غمغم المعلم وهو يحك صدغه ، – نعم ، البتلات الحمر المنرورة على ورقة العنوان وعيني صديقتي . نعم ، هاتان العينان اذكرهما جيداً .

كان حديث الضيف يزداد تشوشاً وتكتماً . تكلم على خيوط مطر مائلة وعلى اليأس في ملجأه في القبو ، وعلى انه سعى الى مكان ما . وهتف في همس انه لا يلومها ، لا ، لا يلومها أبداً تلك التي دفعته الى الكفاح .

– اذكر ، لا زلت اذكر هذا الملحق اللعين في الجريدة ، – غمغم الضيف وهو يرسم باصبعيه ورقة جريدة في الهواء ، وحزر ايفان من جمله المشوشة اللاحقة ان رئيس تحرير آخر طبع مقطعاً طويلاً من رواية مَنْ يسمي نفسه المعلم .

ولم يمر يومان ، كما فُهِم من كلامه ، حتى ظهرت في جريدة أخرى مقالة للناقد اريمان تحت عنوان «عدو في كنف رئيس تحرير» جاء فيها ان ضيف ايفان حاول عن طريق المكر والخديعة دس تبجيل يسوع المسيح في الصحافة مستغلاً غفلة رئيس التحرير وجهله .

– آ ، اذكر ، اذكر هذا ! – صاح ايفان . – لكني نسيت ما كنيتك !

– اقول لك مرة اخرى : دعك من كنيتي ، فلم يعد لها وجود ، – اجابه الضيف ، – المسالة ليست مسالة كنيتي . وبعد يوم ظهرت في جريدة اخرى مقالة جديدة بتوقيع مسيسلاف لافروفتش يقترح صاحبها الضرب ، والضرب بقوة على يد البيلاطسية وعلى يد مبجل الرب الذي خطر له دسها في الصحافة عن طريق المكر والخديعة (ومرة اخرى هذه العبارات اللعينة !) .

تجمدت من كلمة «البيلاطسية» هذه وفتحت جريدة أخرى فاذا فيها مقالتان أولاهما بتوقيع لاتونسكي وثانيتهما موقعة بحرفي ن . ا . واؤكد لك انه كان بالامكان اعتبار مقالتي اريمان ولافروفتش مزحة بالمقارنة مع ما كتبه لاتونسكي . يكفي ان أقول لك ان المقالة بعنوان «المؤمن القديم المجاهد» . ولقد

أخذت بقراءة المقالة التي تتحدث عني حتى لم الاحظ (وقد نسيت اغلاق الباب) كيف انتصبت أمامي تحمل بيديها شمسيتها المبللة وجرائد مبللة . كانت عيناها تقدحان شرراً ، ويداها ترتجفان وقد دب فيهما البرد . واندفعت تقبلني ثم قالت لي بصوت أبح وهي تضرب بيدها على الطاولة انها ستدس السم للاتونسكي .

تأوه ايفان في ارتباك ، لكنه لم يقل شيئاً .

– وحلت ايام كئيبة . كانت الرواية قد أنجزت ، ولم يكن لدينا ما نفعله فكنا نمضي وقتنا في الجلوس على السجادة الصغيرة قرب المدفأة والنظر الى النار . ولا بد لي من القول اننا صرنا نفترق اكثر من السابق . اخذت تخرج للنزهة ، اما انا فحدث لي شيء طريف من تلك الأشياء التي حدثت لي مراراً في حياتي . . . اصبح لي على حين غرة صديق . نعم ، تصور . . . اني لا أميل عادة الى مخالطة الناس ، انسان ذو طبع غريب : لا آلفهم الا بصعوبة ، ولا اثق بهم ، وارتاب فيهم . ومع هذا تصور ، لا بد ان يدخل قلبي شخص ما لا اتوقعه ولا انتظره ! والشيطان وحده يعلم ما يشبه مظهره الخارجي . وهذا الشخص هو الذي سيعجبني اكثر من الآخرين كلهم .

وفي هذا الوقت اللعين فتح باب حديقتنا . وكما اتذكر كان النهار جد لطيف ، خريفياً ، ولم تكن ، هي ، في البيت . دخل رجل وجاز الى صاحب البيت في امر ما ، ثم خرج الى الحديقة ، ولست ادري كيف تم التعارف بيننا بسرعة . قدم لي الرجل نفسه على انه صحفي . ولقد اعجبني حتى انني ، تصوّر ، لا زلت اذكره احياناً واشتاق اليه الى الآن . وتواترت زياراته لي مع الأيام . ولقد عرفت منه انه اعزب ، وانه يسكن قريباً مني في شقة تشبه شقتي الى حد كبير ، وانه يشعر بالضيق هناك وما الى ذلك . لكنه لأمر ما لم يدعني مرة الى بيته . ولم يعجب الرجل زوجتي اطلاقاً . دافعت عنه فقالت لي :

– افعل ما تشاء ، لكني اقول لك ان هذا الانسان يثير في شعوراً بالاشمئزاز .

وانفجرت ضاحكاً . لكن ما الذي شدني اليه بالضبط ؟ المسألة ان الانسان عامة ، اذا لم يكن ينطوي على قدرة



الادهاش ، اذا لم تكن فيه مفاجأة لك ، ليس بالانسان المثير للاهتمام . ولقد كانت عند الويزي (آه ، نسيت أن اسم صاحبي الجديد الويزي موغارتش) هذه المفاجأة ! واقول لك تحديداً اني لم التق ، وواثق بأني لن التقي ابداً ، بانسان بذكاء الويزي . فاذا لم افهم معنى مقالة في جريدة ، كان الويزي يفسرها في دقيقة بالمعنى الحرفي للكلمة ، وكان واضحاً ان تفسيره هذا لم يكن يكلفه اي جهد . وقل الشيء نفسه في ظواهر الحياة وقضاياها . زد على ذلك انه اسرني بحبه للأدب . فلم يهدأ له بال حتى نزلت عند رغبته وقرأت له الرواية كلها من الفها حتى يائها . ولقد اطرى الرواية اطراء جماً ، لكنه ردد على مسامعي بدقة صعقتني كل ملاحظات رئيس التحرير المتعلقة بالرواية وكانه كان حاضراً وقتها وقد اصاب مائة بالمائة . زد على ذلك انه شرح لي بدقة متناهية سبب استحالة طبع روايتي وادركت انه لا يخطىء في رأيه . وقال لي بصراحة : هذا الفصل مثلاً لا يمكن ان ينشر . . .

ولم يتوقف سيل المقالات . سخرت من اولاها بادىء الأمر . ولكن بقدر ما كانت تظهر اعداد جديدة منها ، كان موقفي منها يزداد تغيراً . كانت المرحلة الثانية مرحلة الدهشة . وكنت اشعر بشيء زائف وغير واثق الى حد خارق في كل سطر من هذه المقالات على الرغم من لهجتها الغاضبة الواثقة . كان يتهيأ لي دائماً ، – ولم يكن بوسعي التخلي عن هذا الاحساس ، – ان اصحاب هذه المقالات يقولون ما لا يريدون قوله ، وان هذا بالذات هو سبب حنقهم . ثم تصور ، اعقبتها المرحلة الثالثة – مرحلة الخوف . لا ، هذا ليس خوفاً من هذه المقالات ، افهمني جيداً ، بل الخوف من اشياء اخرى ليس لها اي علاقة بالمقالات أو الرواية . صرت اخاف الظلمة مثلاً . وباختصار دخلت مرحلة المرض النفسي . كان يكفي ان اطفئ المصباح في الغرفة الصغيرة قبل النوم ، حتى يتهيأ لي ان اخطبوطاً ذا ملامس جد باردة وطويلة يزحف علي من النافذة رغم انها كانت مغلقة . فاضطررت ان اشعل المصباح وانام على نوره .

وتغيرت محبوبتي تغيراً شديداً (لم احدثها بأمر الأخطبوط بطبيعة الحال ، لكنها رأت ان شيئاً ما سيئاً ينتابني) فهزلت

وشحبت واختفت ضحكتها ، وصارت تتوسل الي ان اغفر لهـــا نصيحتها لي بطبع ذلك المقطع من الرواية . وألحت علي أن اترك كل شيء واذهب الى شاطئ البحر الأسود في الجنوب وانفق على هذه الرحلة ما بقي لدي من المائة الف روبل .

واشتدت في الالحاح حتى وعدتها تحاشياً للدخول في مشاحنة معها ان افعل ذلك في غضون أيام (كان شيء ما في داخلي يقول لي اني لن اذهب الى البحر الأسود) . لكنها قالت انها ستقطع لي تذكرة بنفسها . اذاك اخرجت ما تبقى لدي من نقود ، اى نحـو عشرة آلاف روبل ، وناولتها اياها .

– ولماذا هذه الكمية الكبيرة ؟ – تساءلت مستغربة .

قلت لها ما معناه اني اخشى اللصوص ، وأرجوها ان تحتفظ بالنقود حتى موعد سفري . اخذت النقود ووضعتها في حقيبتهـا واخذت تقبلني وتقول لي ان الموت أسهل عليها من تركي وحدي في مثل هذه الحالة ، انما هناك من ينتظرها وانها تذعن لحكـم الضرورة وانها ستوافيني غداً . وتوسلت الي الا اخشى شيئاً .

كان هذا عند المغيب ، في منتصف تشرين الأول . وخرجت . تمددت على الديوان وغفوت دون ان أشعل المصباح . وافقت من احساس راودني بأن الأخطبوط هنا . تلمست في الظلمة طريقي الى المصباح وأشعلته بجهد بالغ . كانت ساعة الجيب تشير الى الثانية بعد منتصف الليـــل . غفوت متوعك الصحة وافقـــت مريضاً . بدا لي فجأة ان ظلام الخريف سيحطم الزجاج ، ويتدفق الى الغرفة وأني غرقت فيها كما في حبر . بت انساناً لا يملـك نفسه . صرخت وراودتني فكرة اللجـوء الى اي شخص ولو كان صاحب البيت القاطن في الطابـــق العلوي . كنت كالمجنون في صراع داخلي مع نفسي . وواتتني القوة لأن ابلغ الموقد واشعل فيه حطباً . وعندما زغرد الحطب وطقطق باب الموقد احسست ببعض الارتياح . . . فاندفعت الى المدخل واشعلت نوره فوجدت هناك قنينة نبيذ ابيض ففتحتهـــا واخذت اشرب النبيذ مـــن عنقها . وهدأ خوفي قليلاً ، على الأقل بحيث لم أهرع الى صاحب البيت بل عدت الى الموقد . وفتحت باب الموقد فاخذت الحرارة تلفح وجهي ويدي ، وهمست :

– أتحزرين ان مصيبة حلت بي . تعالي ، تعالي ، تعالي !



لكن أحداً لم يأت . كانت النار تزمجر في الموقد ، والمطـر ينقر على النوافذ . وهنا كانت ثالثة الأثافي . اخرجـت من درج الطاولة نسخ الرواية الثقيلة ومسوداتها واخذت احرقها . كـان هذا العمل شاقاً بشكل ، لأن الورقة المكتوبة لا تحترق في النار جيداً . كنت امزق الدفاتر وامزق معها اظافري واضعها عمودياً بين قرمات الحطـــب واحرك الأوراق بالمحراك . كان الرماد يغلبني على امري احياناً ويخنق اللهب ، لكني كنت اقاومـــه وكانت الرواية تقاوم بعناد ، لكنها كانت تهلك . كانت الكلمات الأليفة تبرق بسرعة امام عيني وكانت الصفرة تتسلق الصفحات من اسفلها الى اعلاها بقوة لا تقاوم ، لكن الكلمات كانـت تبرز حتى فوق الصفرة نفسها . ولم تكـــن الكلمات تتلاشى تماماً الا حين كانت الورقة تسود تماماً وكنت ، مـــن جهتي ، امعن في تفتيتها بمحراكي بعنف .

في هذا الوقت أخذ شخص ما ينقر على النافذة نقراً خفيفاً . وثب قلبي في صدري واندفعت افتح للطارق بعد ان القمـــت النار بسرعة آخر دفاتري . كانت درجات الآجر تفضي من القبو الى باب الفناء . هرعت الى البـــاب وانا اتعثر وسألت بصوت خفيض :

– من هناك ؟

واجابني صوت ، صوتها :

– انا .

لا ادري كيف تمكنت من السلسلة والمفتـــاح . وما ان عَدَتْ عتبة الباب حتى ارتمت على صدري مبللة كلها ، بوجنتيها الرطبتين وشعرها المحلول ، وهي ترتعش . ولم اقو الا عـــلى نطق كلمة واحدة :

– انتِ . . . انتِ ؟ – وانقطع صوتي ودلفنا الى أسفل . خلعت معطفها في المدخل ودخلنا الغرفـــة الأولى بسرعة . ندّت عنها صرخة خافتة ، وبيديها العاريتين انتشلت من الموقد آخـــر ما تبقى هناك ، وكانت حزمة دبت النار في اسفلها ، والقت بها على الأرض . وغمر الدخان الغرفة عـــلى الفور ، فاخذت ادوس النار بقدمي ، اما هي فقد تهاوت على الديوان واخذت تنتحـــب بتشنج .

وقلت لها بعد أن هدأ روعها :

– لقد ابغضت هذه الرواية ، وانا خائف . انـي مريض . أنا مرعوب .

نهضت وقالت :

– يالهي ما اشد مرضك . لماذا هذا كله ، لماذا ؟ لكني سانقذك ، سانقذك . ما هذا الذي يجري ؟

رايت عينيها المنتفختين من الدخان والبكاء ، واحسست بيديها الباردتين تمسحان جبيني .

– ساشفيك ، ساشفيـــك ، – غمغمت وهي تتشبث بكتفي ، – وستعيدها كما كانـــت . لماذا ، لماذا لم احتفظ بنسخة منها عندي !

كشرت غضباً وقالت شيئاً لم اتبينه . ثم اخذت تلملم الاوراق المحترقة وتسويها وقد زمـــت شفتيها . وكانت تلك الاوراق فصلاً من وسط الرواية لا ادرى ايه . ثم رتبـــت الصفحات المحروقة بعناية ولفتها بورقة وربطتها بشريط . كانت طريقة عملها تدل على انها ممتلئة عزماً وتصميماً وعلى انها ملكت نفسها تماماً . ثم طلبت نبيذاً ، وبعـد ان رشفته قالت بصوت اكثر هدوءاً :

– وهكذا على الانسان ان يدفع ثمن كذبه ، وانا لا اريـد ان استمر في هذا الكـــذب . كان بودي ان ابقى معك الليلة ، لكني لا اريد ان افعل هذا على هذا النحو . لا اريد ان يستقر في ذاكرته اني هربت منه ليلاً . انه لم يسئ الي في حياته قط . لقد استُدعى فجاة لان حريقاً شـــب في المصنع . لكنه سيعود بعد حين . ساكاشفه في الموضوع صباح الغد واقول له انـــي احب انساناً آخر ، واعود اليك الى الأبد . ام لعلك لا تريـــد هذا ؟

– يامسكينتي ، يامسكينتي ، – قلت لها ، – لن ادعـك تفعلين هذا . اشعر ان ايامي الآتية ايام ســـود ولا اريد ان تهلكي معي .

– هذا هو السبب الوحيد ؟ – سالتني وقربت عينيها من عيني .

– نعم الوحيد .



دبت فيها حيوية مرعبة فارتمت على صدري وطوقت عنقـــي وقالت :

– اني مستعدة لكي اهلك معـــك . غداً صباحاً ساكون عندك .

وآخر ما اذكره في حياتي شريط من الضوء في مدخل غرفتي وفي هذا الشريط خصلة شعر منسدلة وقبعتها وعيناها المفعمتان حزماً . واذكر ايضا طيفها الأسود على عتبة الباب الخارجيـــة والحزمة البيضاء .

– كان بودي ان اوصلك ، لكن ليس عندي القوة للعودة بمفردي ، فانا خائف .

– لا تخف . اصبر هذه الساعات القليلة وغداً صباحاً اكون عندك . – كانت هذه آخر كلمات سمعتها منها في حياتي .

وفجاة قطع المريض كلامه ورفع اصبعه :

– تس ! انها للـ[illegible]ـلة قمراء قلقة هذا اليوم .

وتوارى في الشرفة . وسمع ايفان صوت عجلات صغيرة في الممر وشخصاً ينشج او يصرخ بصوت خافت .

وعندما خيم الهدوء من جديد عاد الضيف واخبره ان الغرفة رقم ١٢٠ استقبلت ضيفاً جديداً وان الوافد الجديد يرجوهـــم ان يعيدوا اليه راسه . وصمت المتسامران في قلق ، لكنهمـــا عادا ، بعد ان اطمانـــت نفساهما ، الى وصل ما انقطع مـــن حديثهما . وكاد الضيف يفتح فمه ، لكن الليل كان قلقاً بالفعل ، فقد كانت اصوات لا تزال تسمع في الممر ، فقرب الضيـــف فمه من اذن ايفان ، واخذ يكلمه بصوت خافت بحيث لم يعرف الا الشاعر ما قاله له باستثناء الجملة الأولى :

– وبعد ان غادرتني بربـــع ساعة سمعت طرقاً عـــلى النافذة . . .

ولا بد ان ما كان الضيف يهمس بـــه في اذن ايفان كان يثير في الضيف اشد الاضطراب ، فقد كانـت التشنجات تقلص قسمات وجهه بين الحين والحين . وكان الخوف والحنق يسبحان في عينيه ويتحركان سراعاً . وكان يشير بيده الى مكان ما باتجاه القمر الذي توارى عن الشرفة من وقت بعيد . وحين لم تعـــد

تتناهى الى الغرفة من الخارج ، اي اصوات ابتعد الضيف عن ايفان قليلاً وتكلم بصوت أعلى .

– وهكذا اذن كنت اقف في منتصف كانون الثاني ليلاً في فناء البيت منكمشاً على نفسي من البرد في معطفي نفسه ، انما كان مقطع الأزرار ، ووراني كثبان ثلجية تحجب شجيرات الليلاك ، وامامي في الأسفل نافذتاي المضاءتان بنور خافت والمسدلتا الستائر . انكببت بأذني على اولى النافذتين واصخت السمع : كان حاكٍ يعزف في بيتي ، هذا كل ما سمعته ، ولم استطع تبين اي شيء . وقفت قليلاً ثم خرجت من باب الحديقة الى الزقاق الذي كانت تعصف به زوبعة ثلجية . اندس كلب بين قدمي فركبني الذعر وعدوت هارباً الى الرصيف المقابل . كان البرد والخوف الذي اصبح رفيقي الدائم يوصلانني الى حافة الجنون . لم يكن لي مكان اذهب اليه ، وابسط ما كان بوسعي فعله بطبيعة الحال هو القاء نفسي تحت عجلات الترام الذي يمر في الشارع الذي يفضي اليه زقاقنا . رايت من بعيد هذه العلب المغطاة بالجليد والمتلألئ داخلها بالأضواء وسمعت صريرها الكريه في الصقيع . لكن كل ما في الأمر ، ياجاري العزيز ، ان الخوف كان مستحوذاً على كل خلية من خلايا جسدي . وكنت اخاف الترام ايضاً كما خفت الكلب . نعم ، ليس في هذا المبنى مرض اشد من مرضي ، اؤكد لك .

– ولكن كان بامكانك ان تخطرها ، – قال ايفان مشفقاً على المريض المسكين ، – وبالاضافة الى هذا ، اليست تقودك معها ؟ لا بد انها احتفظت لك بها ؟

– لا مجال لأن تشك في هذا ، لقد حفظتها لي بالطبع . لكنك لا تفهمني على ما يبدو ؟ أو الأصح انا الذي فقدت قدرتي السابقة على وصف شيء ما . وعلى اي حال لست بآسف جداً عليها ، لأنها لن تجديني نفعاً بعد الآن . – واردف يقول بنبرة احترام عميق وهو يحدق في ظلمة الليل : – تصور امامها رسالة من مستشفى المجانين . هل يمكن حقاً ارسال رسائل تحمل هذا العنوان ؟ مريض نفساني ؟ انت تمزح ياصديقي ! لا ، اأشقيها معي ؟ لا ، لا اقوى على ذلك .

لم يستطع ايفان الاعتراض على هذا القول ، لكن ايفان



الصامت رق له واشفق عليه بينما اخذ الضيف يهز رأسه الغارقة في طاقيته السوداء من العذاب الذي بعثته فيه ذكرياته واردف يقول :

– امراة مسكينة . وعلى اي حال آمل ان تكون نسيتني .

– لكنك قد تشفى . . . – رد ايفان بوجل .

– حالتي غير قابلة للشفاء ، – اجابه الضيف بهدوء ، – حين يقول لي سترافنسكي انه سيعيدني الى الحياة ، لا أصدقه . انه انساني ، ولا يبغي بكلامه هذا الا مواساتي . ولا انكر مع هذا ان حالتي تحسنت كثيراً الآن . اي ، اين وصلنا اذن ؟ الصقيع وهذه الحافلات المندفعة . كنت اعلم انه تم افتتاح هذا المستشفى ، فاجتزت المدينة كلها على قدمي اليه . جنون ! وفي ظاهر المدينة كنت سأتجمد على الأرجح من البرد ، لولا ان انقذتني المصادفة . فقد تعطل شيء ما في شاحنة فدنوت من السائق (حدث هذا على بعد نحو اربعة كيلومترات من مدخل المدينة) ولدهشتي اشفق علي . كانت الشاحنة تقصد نفس المكان فنقلني معه واقتصر الامر فقط على ان اصابع قدمي اليسرى تجمدت فعولجت منها . وها انا ذا للشهر الرابع هنا . وهل تدري ، لقد وجدت المكان هنا غير سيء على الاطلاق ، على الاطلاق . لا داعي لأن تشغل نفسك بخطط كبيرة ياجاري العزيز ، صدقني ! انا مثلاً كنت اريد ان ادور الكرة الأرضية كلها . ولكن لا بأس ، هذا غير مقدر لي كما يظهر . فانا الآن لا ارى سوى جزء يسير من هذه الكرة ، واعتقد انه ليس افضل جزء فيها ، لكني اعود فاقول انه ليس بهذا السوء . هاهو ذا الصيف قادم الينا ، وسيعرش اللبلاب على الشرفة كما تعدنا براسكوفيا فيودوروفنا . وزادت المفاتيح من امكاناتي . القمر سيسطع في ليالي الصيف ! آه ، لقد غاب ! والجو اخذ يبرد . لقد تجاوزت الساعة منتصف الليل . آن لي ان اذهب .

– قل لي ، ما الذي حدث بعد ذلك ليشوع وبيلاطس ، – رجاه ايفان ، – قل لي ، اتوسل اليك ، اريد ان اعرف .

– آه ، لا ، لا ، – اجابه الضيف وقد اخذته هزة مرضية ، – لا استطيع تذكر روايتي دون ان احس

بالقشعريرة . بامكان صاحبك ذاك الذي من بتريرشيي برودي ان يفعل هذا افضل مني . شكراً على هذا الحديث ، والى اللقاء .

وقبل أن يفيق ايفان من غفلته ، كان شبك النافذة ينغلق برنين خفيف والضيف يختفي .

## الفصل الرابع عشر

## المجد للديك

ولم تتحمل أعصاب ريمسكي كما يقال ، فهرع الى مكتبه دون انتظار الانتهاء من تحرير المحضر ، وجلس الى طاولته وأخذ يحدق في التشيرفونتسات السحرية أمامه بعينين حمراوين ، وهو عاجز عن التفكير المنطقي . وفي الخارج كان يرتفع هدير متصل رتيب ، وسيل من البشر يتدفق من مبنى «فاريبيتيه» الى الشارع . وفجأة تناهت الى سمع المدير المالي الذي رهف رهافة خارقة زقزقة رجال الشرطة بالغة الوضوح . هذه الزقزقة لم تبشر يوماً بشيء لطيف . لكن حين تكررت هذه الزقزقة وهبت الى نجدتها زقزقة اخرى اطول واحزم ثم تبعتها قهقهات وزعيق عال ، بل حتى أصوات سخرية ، ادرك المدير المالي على الفور انه حدث شيء ما فاضح وشنيع في الشارع ، وان هذا الذي حدث يتصل ، مهما حاول المرء التنصل منه ، اتصالاً وثيقاً جداً بالحفلة الفظيعة التي اقامها الساحر الشيطاني ومساعدوه . ولم يخطىء المدير المالي المرهف الحس .

وما ان تطلع من النافذة المطلة على سادوفايا حتى اعوج وجهه ، ولم يهمس بل از :

– هذا ما كنت أتوقعه !

أبصر على ضوء النور الساطع الذي تبعثه مصابيح الشارع القوية جداً على الرصيف الذي تحته تماماً سيدة في قميص داخلي وسروال بنفسجي . انما كانت السيدة تضع ، والحق يقال ، قبعة وتحمل في يدها شمسية .

وحول هذه السيدة التي كانت في حالة ارتباك كامل والتي



كانت تقرفص تارة وتندفع راكضة الى مكان ما تارة أخرى ، اضطربت جمهرة من الناس وهي تطلق تلك القهقهات التي بعثت الصقيع في ظهر المدير المالي . وكان يندفع الى جانب السيدة شخص يحاول نزع معطفه الصيفي ، لكنه لاضطرابه لم يستطع التخلص من الكم الذي علقت به يده .

وكانت الصيحات والقهقهات المدوية تتناهى اليه من مكان آخر ايضاً ، وبالتحديد من المدخل الشمالي . والتفت غريغوري دانيلوفتش باتجاه الأصوات فراى سيدة اخرى في ملابس داخلية وردية . قفزت هذه من قارعة الشارع الى رصيفه محاولة الاختباء في المدخل ، لكن الجمهور المتدافع سد عليها الطريق . كانت غاية منى السيدة ، هذه المسكينة التي راحت ضحية طيشها وولعها بالملابس الجميلة والتي خدعتها شركة فاغوت النجس ، ان تنشق الأرض وتبتلعها . وكان احد رجال الشرطة ينطلق اثر المسكينة ممزقاً الهواء بصفيره وقد تراكض خلفه شبان يعتمرون كبيات في هرج ومرج . هؤلاء الشبان بالذات هم الذين كانوا يطلقون تلك القهقهات والصيحات الساخرة .

وطار حوذي نحيل ، عريض الشاربين الى السيدة الأولى بعربته ، واوقف حصانه الهزيل المنهك بكل قوته . كان وجه الحوذي يبتسم من غبطة .

ضرب ريمسكي على رأسه بقبضته وبصق وتوارى من النافذة .

وجلس الى طاولته بعض الوقت مصيخاً السمع الى ما يجري في الشارع . بلغ الزعيق والصفير اوجهما في نقاط متعددة ، ثم اخذا في الخفوت . ولدهشة ريمسكي قضي على الفضيحة بسرعة فائقة لم يتوقعها .

دقت ساعة العمل ، وكان عليه أن يشرب كاس المسؤولية المرّ . كان قد تم اصلاح اجهزة الهاتف اثناء الفصل الثالث ، وكان عليه ان يتصل بالهاتف ويعلم بما جرى ، ويطلب المساعدة ويكذب ويتملص من المسؤولية ويضعها كلها على كاهل ليخودييف ويبرئ نفسه منها وما الى ذلك . تبا للشيطان ! وضع المدير المالي المشوش الفكر يده على السماعة مرتين ، ومرتين رفعها عنها . وفجأة انفلت الهاتف يرن رنيناً

متواصلاً في المكتب الذي خيم عليه صمت القبور ، كأنما يصفع وجه المدير المالي صفعاً ، فارتعد وسرت البرودة في أعصابه . «لقد تهافتت اعصابي الى حد مريـــع» – قال ريمسكي في سره ورفع السماعة ، وللحال تراجع مذعوراً وامتقع لونه ، اذ بلغه صوت نسائي خافت لكنه مخادع ومتهتك في الوقت نفسه يهمس في السماعة :

– لا تهتف الى اي مكان ياريمسكي ، والا الويل لك !

وخوت السماعة فوراً . وضع المدير المالي السماعة وهـو يحس بالقشعريرة تسري في بدنه ، ولأمـر ما التفت الى النافذة التي خلف ظهره . فرأى من خلال اغصان القيقب القليلة التي لم تغطها الخضرة الا قليلاً القمر سابحاً في غيمة شفافة . ولأمر ما تسمر بصره على الأغصان واخـذ يرنو اليها ، وبقدر ما كان يتأملها كان الخوف يتملكه اكثر فاكثر .

تحامل المدير المالي على نفسه وحول عينيه اخيراً عن النافذة المقمرة وهب واقفاً . لم يعد هناك مجـال لأي اتصال هاتفي ، والشيء الوحيد الذي بات يشغل بـال المدير المالي الآن هو : كيف يغادر المسرح بأسرع ما يمكن .

اصاخ السمع : كان الصمت يطبق عـلى مبنى المسرح . اذاك ادرك انه لم يبق في الطابق الثاني كله من فترة طويلة الاه فتملكه لحظة برقت هذه الفكرة في رأسه خوف جـارف كالخوف الذي يتملك الأطفال . لم يكن بوسعه ان يتصور دون ان تأخذه الرعشة ان عليه الآن ان يسير وحده في الممرات الخالية ويهبط الدرج . وبحركة سريعة محمومة خطـف تشيرفونتسات المنوم المغناطيسي من على الطاولة وخبأها في حقيبته وسعل كيما يشجع نفسه ولو قليلاً ، فخرج سعاله مبحوحاً ضعيفاً .

وهنا بدا للمدير المالي ان رطوبة عفنة تسربت فجأة مـن تحت باب المكتب فاقشعر بدنه . ثم مالبـث ان سمع الساعة تدق فجأة معلنة منتصف الليـل . وحتى دقات الساعة بعثت القشعريرة في أوصال المدير المالي . لكن قلبه انخلع نهائيـاً حين سمع صوت مفتاح انكليزي يدور في مغلاق الباب . أحس ، وقد تشبث بالحقيبة بكلتا يديه الباردتيـن الناضحتين عرقاً ،



ان اعصابه لم تعد تتحمل ، وانه سيطلق صراخاً حاداً فيما لو استمر الصرير في المغلاق اكثر من ذلك قليلاً .

واخيراً تراجع الباب أمام الجهد المبذول وانفتح ودخـل فارينوخا المكتب بخطوات مكتومة . ووجد ريمسكي نفسه يتداعى على الأريكة وقد خذلته رجلاه . لكنه عب الهواء بصدره وابتسم ابتسامة اقرب الى ان تكون ابتسامة مداهنة وتمتم :

– يالهي ، كم اخفتني !

نعم ، كان هذا الظهور المباغت قميناً بالقاء الذعـر في قلب اي كان . لكنه كان ، مع هذا ، مبعث سرور عظيم في الوقـت نفسه . فقد ظهر على الاقـل طرف خيط في هـذه القضيـة المشرنقة .

– هيا ، تكلم بسرعة ! هيا ! هيا ! – قال ريمسكي بصوت ابح متشبثاً بطرف هذا الخيط ، – ما الذي يعنيه هذا كله ؟ !

– المعذرة من فضلك ، – رد عليه الداخل بصوت مكبوت وهو يغلق الباب وراءه ، – حسبت انك خرجت !

ومضى فارينوخا الى الأريكة دون ان ينزع قبعته ، وجلس الى الجانب الآخر من الطاولة .

وينبغي القول ان جواب فارينوخا انطوى على بعض الغرابـة التي وخزت على الفور المدير المالي ، القادر بحساسيته عـلى مضاهاة جهاز تسجيل الاهتزازات في أفضـل محطات العالم ، في جنبه على الفور . ما معنى هذا ؟ لماذا مضى فارينوخا الى مكتب المدير المالي ما دام يفترض انه ليس هناك ؟ أليس له مكتبه ؟! هذا واحد . والثاني : أياً كان المدخل الذي سلكه فارينوخا الى المبنى ، كان لا بد له من مصادفة احـد المناوبين الليليين ، وهؤلاء جميعاً أبلغوا ان غريغوري دانيلوفتش سيتأخر في مكتبه بعض الوقت .

لكن المدير المالي لم يتوقف كثيراً عند هذه النقطة الغريبة ، فقد كان هناك ما هو أخطر منها .

– لماذا لم تتصل هاتفياً ؟ وما معنى هذه المسخرة مـع يالطا ؟

– كما سبق وقلت ، – اجابه المدير الاداري وهو يتمطق

بلسانه كمن تزعجه سن موجعة ، – عثـــر عليه في حانة في بوشكينو .

– كيف في بوشكينو ؟ ! هذه التـــي في ضاحية موسكو ؟ والبرقيات من يالطا ؟ !

– اية يالطا تلك التى تتكلم عليها ! لقد اسكر عامل البرق في بوشكينو واخذا يتشاقيان ويعربدان ، ومـــن بعض ما فعلاه انهما اخذا يرسلان برقيات مع اشارة الى ان مصدرها «يالطا» .

– ها . . ها . . اي . . . طيب ، طيـــب . . . – خرج صوت ريمسكي اقرب الى الغناء منه الى الكلام واشرقت عيناه بنور ضارب الى الصفرة ، وارتسمت في راسه لوحة بهيجة عن عزل ستيوبا عزلاً مشيناً من عمله . الخلاص ! الخلاص الذي طالما انتظره المدير المالي مـــن هذه المصيبة المتمثلـــة في شخص ليخودييف ! ولعل ستيبان بوغدانوفتش ينال ما هو اسوا مـــن العزل . . . – اخبرني بالتفصيل ! – قـــال ريمسكي وهو يدق الطاولة بنشافة الحبر .

واخذ فارينوخا يروي له التفاصيل . ما ان حضر الى حيـــث ارسله المدير المالي حتى قابلوه على الفور واستمعوا اليـــه باهتمام بالغ . لم يخطر ببال احد منهم بطبيعة الحال ان ستيوبا قد يكون في يالطا ، ولهذا وافقوا جميعاً عـــلى الفور على رأي فارينوخا أن ليخودييف دون شك في «يالطا» التي في بوشكينو .

– واين هو الآن ؟ – قاطعه المدير المالي المنفعل .

– واين يمكن ان يكون – اجابه المدير الاداري بابتسامة ساخرة – في قسم الافاقة من السكر .

– اي ، اي ! . . شكراً .

واستانف فارينوخـــا روايته . وبقدر ما كـــان يمضي في روايته ، كانت تمر امام عيني المديـــر المالي وتتكشف بصورة اوضح سلسلة طويلـــة من نذالات ليخودييف وعربداتـــه ، وكل حلقة منها اسوا من سابقتها . ما ذا يمكن للمرء ان يقوله في هذه الرقصة الثملة معانقاً عامل البرق على فسحة امام مركـز البرق في بوشكينو على انغام هرمونيكا متجولة ! او مطاردة بعض السيدات اللواتي اخذن يزعقن من الرعب ! او محاولة الدخول في عراك مع عامل البوفيه في «يالطا» نفسها ! ورمي البصـــل



الأخضر على الأرض في «يالطا» اياها ! وتحطيم ثماني زجاجات مـن نبيذ «اي دانيل» الأبيض ! وكسر العداد لسائق التاكسي الذي لم يشأ تسليم سيارتـــه لستيوبا . والتهديد بالقبض عـــلى المواطنين الذين حاولوا وضع حـــد لأعمال ستيوبا الشنيعة . وباختصار شيء مرعب وغامض !

كان ستيوبا شخصاً معروفاً على نطـــاق واسع في أوساط موسكو المسرحية ، وكان الجميع يدركون ان هذا الانسان ليس نعمة هبطت عليهم من السماء . ومع هذا بدا ما يرويه المديـــر الاداري مبالغ فيه حتى بالنسبة لستيوبا . نعم ، مبالغ فيـــه جداً . . .

انغرزت عينا ريمسكي الثاقبتان عبر الطاولة في وجه المدير الاداري ، وبقدر ما كان هذا يسترسل في حديثه ، كانت هاتان العينان تزدادان حزناً . وبقدر ما كانت تلك التفاصيل الشنيعة التي كان المديـــر الاداري يزين بها روايتـــه تزداد حياة وتلاوين . . . كان تصديق المدير المالي لما يرويه صاحبـــه يتضاءل . ولما أخبره فارينوخا ان الاستهتار بلغ بستيوبا حـد محاولته مقاومة من أتى لاعادته الى موسكو ، كـان المدير المالي قد صار على يقين راسخ بأن كل ما يرويه له المدير الاداري في منتصف الليل كذب ! كذب في كذب ، من ألفه الى يائه .

فلا فارينوخا ذهب الى بوشكينو ، ولا ستيوبـــا نفسه كان ايضاً في بوشكينو . ولم يكن هناك أي عامل برق سكران ، ولا أي زجاج محطم في الحانة ، ولم يقيد أحد ستيوبا بالحبال . . . لم يكن شيء من هذا كله .

ما ان رسخت في ذهن المدير المالي فكرة أن المدير الادارى يكذب عليه حتى زحف الخوف في كل بدنه ، بدءاً من قدميه . وتهيأ له من جديد مرتين ان رطوبة الملاريا العفنة امتدت فـوق أرض المكتب . ودون أن يحول عينيه لحظة عن المديـر الاداري الذي انكمش في اريكته على نحو غريب جاهداً طول الوقت ألا يخرج من الظل الأزرق الذي يلقيه مصباح الطاولـــة ، والذي كان يحاول طول الوقت حجب وجهه على نحو عجيـــب بجريدة يدفع بها ضوء المصباح المزعج كما يدعي ، لم يكن المدير المالي يفكـر الا في أمر واحد : ما معنى هذا كلـــه ؟ ولماذا يكذب المدير الاداري

العائد اليه في مثل هذه الساعة المتاخرة عليه بمثل هذه الصفاقة وفي هذا المبنى الخالي والصامت ؟ واخـــذ ادراك المدير المالي للخطر ، الخطر المجهول انما الجسيم يؤرق روحه . تظاهر المدير المالي بانه لا يلاحظ مراوغة فارينوخا ولا شعوذاتـه بالجريدة ، واخذ يتامل وجه محدثه وهو يكاد لا يستمع الى حرف مما يهرف به . كان هناك شيء ما بدا للمدير المالي انه اكثر الغازاً مـن هذه القصة المختلقة لأمر ما عن مغامرات ستيوبا في بوشكينو ، وكان هذا الشيء التغير في مظهر المدير الاداري وحركاته .

فقد تمكن المدير المالي ، على الرغم مما بذله المدير الاداري من جهد في انزال حافة كبيته الضيقة على عينيه كيما يظلل بهـــا وجهه ، وعلى الرغم من تقليبه الجريدة ، من تبين كدمة ضخمة على جانب وجهه الايمن قرب الأنف بجلاء . زد على ذلك ان شحوبـــاً اشبه بشحوب المرض قد علا الآن وجه المدير الاداري المورد الخدين عادة ، ولامر ما كانت رقبته ملفوفة في هذا الليل الخانق بشال قديم مخطط . واذا اضفنا الى هذا وذاك طريقة المديـــر الاداري القبيحة ، التي ظهرت اثناء غيابه ، في التمطق بشفتيـه ومصمصتهما ، والتغير الحاد في صوته الذي اضحى اصم وفظاً ، والجبن والتلصص في عينيه ، بات بامكاننا القول بجراة ان ايفان سافيليفتش فارينوخا استحال انساناً آخر .

وكان شيء ما آخر يؤرق بـــال المدير المالي بقوة أشد ، لكنه لم يكن قادراً على تحديد هذا الشيء بالضبط على الرغم من شحذه دماغه المحموم ، وعلى الرغم من امعانه النظر في فارينوخا . شيء واحد فقط كان بامكانه تاكيده ، وهو ان شيئاً ما غريبـاً وغير طبيعي كان في التصاق المدير الاداري بآريكة الفها جيداً .

– واخيراً تمكنا منه وشحناه بالسيارة ، – نفخ فارينوخا وهو يختلس النظر من وراء الجريدة ويغطي الكدمة براحته .

مد ريمسكي يـــده فجاة وضغط كانمـــا آلياً زر الجرس الكهربائي براحته وهـــو يلعّب في الوقت نفسه أصابعه عـــلى الطاولة ، وجمد .

كان من المفروض ان تسمع في المبنى الخالي اشارة حادة ، لكن هذه الاشارة لم تصدر ، وغاص الزر في لوحة الطاولة دون حياة . كان الزر ميتاً ، والجرس معطلاً .



ولم ينطل مكر المدير المالي عـــلى فارينوخا الذي سأله في تشنج وقد برق في عينيه غضب واضح :

– لماذا ترن الجرس ؟

– آلياً فعلت ، – اجابه المدير المالي بصوت أصم ورفـع يده عن الزر ، وسأله بدوره بصوت متـردد : – ما هذا الذي على وجهك ؟

– انحرفت سيارة عن طريقها فاصطدمت بمقبض الباب ، – اجابه فارينوخا وهو يحول عنه عينيه .

«كذاب !» – هتف المديـر المالي في سره . وهنا استدارت عيناه فجاة واختبلتا تماماً ، وحملق في مسند الأريكة .

كان ينبسط عـــلى أرض المكتب خلـــف الأريكة ظلان متقاطعان : احدهما رقيق ورمادي وثانيهما اكثر كثافة وسواداً . وكان يرى على الأرض بوضوح ظل مسند الأريكة وقوائمهـــا الدقيقة ، لكنه لم يكن هناك أي اثر من فوق المسند لظل راس فارينوخا على الأرض ، كما لم يكن تحت القوائم اي اثر لرجلي المدير الاداري .

«انه لا يلقي ظلاً !» – صرخ ريمسكي في سره في رعـب ، وهزته قشعريرة .

التفت فارينوخا كالمتلصص الى وراء مسند الأريكة متتبعـاً نظرة ريمسكي المجنونة وادرك انه انكشف .

هب من مقعده واقفاً (كما هب في الوقت نفسه المدير المالي واقفاً) وتراجع عن الطاولة خطوة وهو يحتضن حقيبته بين يديه ويشد عليها .

– حزرت ايها اللعين ! طول عمرك وانت ذكي فطـن ، – قال فارينوخا وهو يبتسم ابتسامة تنضح بالشر في وجه المدير المالي مباشرة ، ووثب على حين غرة الى الباب وضغط بسرعة زر المغلاق الانكليزي الى الأسفل . تلفت المدير المالي حوله تلفت اليائس وهو يتراجع الى النافذة المطلة على الحديقـة ، وفي هذه النافذة المغمورة بضوء القمر راى المدير المالي وجه فتاة عارية ملتصقاً بالزجاج ، ويدها العارية تمتد من كوة النافذة العليـــا وتحاول فتح المزلاج الأسفل . كان المزلاج الأعلى مفتوحاً .

بدا لريمسكي ان الضـــوء في مصباح الطاولة ينطفىء ، وان

الطاولة تميل . احس ريمسكي كان احدهم صب عليه سطل ماء بارد ، لكنه ، لحسن الحظ ، تمالك نفسه ولم يسقط على الأرض . واسعفه ما بقي فيه من قوة لأن يهمس ، لا لأن يصرخ :

– النجدة . . .

كان فارينوخا يقف متربصاً عند الباب وهو يقفز قربه قفزات صغيرة يعوم خلالها طويلاً في الهواء ويتأرجح فيه ، ويلوح باصابعه الملتوية باتجاه ريمسكي وهو يئز ويتمطق ويغمز الفتاة التي في النافذة .

اخذت الفتاة تعمل بسرعة اكبر : ادخلت راسها الاصهب من الكوة ومدت يدها قدر ما استطاعت واخذت تخدش المزلاج السفلي باظافرها وتهز اطار النافذة . واخذت يدها تطول كانها من مطاط ، وتغطت بخضرة كخضرة الجثث . واخيراً امسكت اصابع الميتة الخضر براس المزلاج وادارته واخذ الاطار ينفتح . ندت عن ريمسكي صرخة خافتة ، واستند الى الحائط ورفع حقيبته امامه كانها ترس . لقد ادرك ان اجله قد حان .

وانفتح الاطار على مصراعيه ، لكنه ، بدلاً من طراوة الليل واريج الزيزفون ، انسلت الى الغرفة رائحة القبو . ولاحت الميتة على حافة النافذة ، ورأى ريمسكي بوضوح بقع العفن على صدرها .

في هذا الوقت بالذات علا صياح الديك المفاجىء الفرح من الحديقة ، من ذلك المبنى الواطئ الواقع خلف المرمى حيث كانت تربى الطيور التي تشارك في البرامج . كان الديك المروض ذو الصوت الصداح يدوي معلناً ان الفجر قادم الى موسكو من الشرق .

شوه غضب فظيع وجه الفتاة فاطلقت شتيمة مبحوحة ، بينما زعق فارينوخا العائم في الهواء قرب الباب وهوى على الأرض .

وتكرر صياح الديك ، فصرفت الفتاة اسنانها وانتصب شعرها الأشهب . ومع صياح الديك للمرة الثالثة استدارت وولت طائرة الى الخارج ، وتبعها فارينوخا سابحاً على مهل في الهواء فوق الطاولة وقد قفز وبسط جسمه افقياً كانه الكيوبيد الطائر .



واندفع نحو الباب شيخ عجوز ابيض الشعر كالثلج ليس فيه شعرة سوداء واحدة (ولم يكن هذا الشيخ قبل لحظات قليلة الا ريمسكي نفسه) وفك الزر وفتح الباب واندفع يعدو في الممر المظلم . وعند عطفة الدرج تلمس زر الكهرباء وهو يئن من الخوف ، فغمر النور الدرج . وسقط الشيخ العجوز المرتجف المرتعد على الدرج اذ بدا له أن فارينوخا حط عليه برفق من عل .

ورأى ريمسكي ، بعد ان هبط الدرج عدواً الى الأسفل ، المناوب غافياً قرب شباك التذاكر الذي في الردهة . انسل ريمسكي على اطراف اصابعه خارجاً من الباب الرئيسي . واحس ببعض الراحة حين وجد نفسه خارج المبنى ، وعاد اليه وعيه بحيث ضرب على راسه اذ فطن الى ان قبعته بقيت في المكتب .

من نافل القول ان ريمسكي لم يعد ادراجه لأخذ قبعته ، بل عبر الشارع العريض ركضاً وهو يلهث الى الناصية المقابلة التي قرب دار السينما حيث يلوح ضوء احمر خافت . وفي دقيقة كان قرب الضوء . لم يتمكن احد من ان يسبقه الى السيارة الواقفة هناك .

– قطار لينينغراد السريع ، ولك بقشيش – قال الشيخ العجوز وهو يتنفس بصعوبة ويضع يده على قلبه .

– اني ذاهب الى المرآب ، – اجابه السائق بحقد وتحول عنه .

اذاك فتح ريمسكي حقيبته واخرج منها خمسين روبلاً ومد بها يده الى السائق من النافذة الأمامية المفتوحة .

وفي لحظات كانت العربة المطقطقة تنطلق بسرعة الريح في شارع سادوفايا ، وراكبنا يعلو ويهبط داخلها ، وهو يتطلع في قطعة المرآة المعلقة امام السائق فيرى تارة عيني السائق المبتهجتين وعينيه المجنونتين تارة اخرى .

قفز ريمسكي من السيارة امام مبنى المحطة وصاح في اول شخص صادفه يلبس مئزراً ابيض ويضع الشارة الخاصة :

– درجة أولى ، شخص واحد ، اعطيك ثلاثين ، – كان يخرج التشيرفونتسات ويكومها بيده ، – اذا لم يبق مقعد في الدرجة الأولى ففي الثانية ، والا ففي الثالثة .

واختطف الرجل ذو الشارة التشيرفونتسات من يد ريمسكي وهو يتطلع الى الساعة المضاءة .

وبعد خمس دقائق اختفى القطار السريع من تحت قبة المحطة الزجاجية وابتلعته الظلمة تماماً ، واختفى معه ريمسكي .

## الفصل الخامس عشر

## حلم نيكانور ايفانوفتش

ليس من الصعب على القارئ ان يحزر ان البدين ذا الوجه الأحمر الذي أدخل الغرفة ١١٩ في المستشفى كان نيكانور ايفانوفتش بوسوي .

الا ان بوسوي لم يجد نفسه في عيادة البروفيسور سترافنسكي مباشرة ، بل أدخل قبلها مكاناً آخر مكث فيه بعض الوقت .

ولم يبق في ذاكرة نيكانور ايفانوفتش من هذا المكان الآخر الا الشيء القليل : الطاولة والخزانة والأريكة فقط .

هناك تحدث بعضهم الى نيكانور ايفانوفتش الذي غامت الأشياء امام عينيه من احتقان الدم والهيجان النفسي ، لكن الحديث الذي عُقد كان غريباً مضطرباً ، والأصح القول انه لم يعقد أي حديث .

كان السؤال الأول الذي طرح على نيكانور ايفانوفتش هو التالي :

– انت نيكانور ايفانوفتش بوسوي رئيس الجمعية السكنية في البناية رقم ٣٠٢– مكرر التي في سادوفايا ؟

انفجر نيكانور ايفانوفتش في ضحكة مريعة واجاب بالحرف الواحد :

– انا نيكانور ، طبعاً نيكانور ! ولكن رئيس ؟ أي رئيس انا بحق الشيطان !

– ماذا تقصد ؟ – سألوا نيكانور ايفانوفتش وهم يزرون عيونهم .



– اقصد . . . اني لو كنت رئيساً لكان علي أن احدد على الفور انه قوة شريرة ! والا ما معنى هذا ؟ نظارة انفية مصدعة . . . وثيابه كلها مهلهلة . . . كيف يمكن ان يكون شخص كهذا مترجماً لدى أجنبي !

– على من تتكلم ؟ – سألوا نيكانور ايفانوفتش .

– كوروفييف ! – زعق نيكانور ايفانوفتش ، – استقر في الشقة رقم ٥٠ عندنا ! سجلوا : كوروفييف . يجب القبض عليه فوراً . سجلوا : المدخل الرئيسي السادس . انه هناك .

– ومن اين لك العملة الأجنبية ؟ – سألوه بلطف ورقة .

– الله الحق ، الله الكلي القدرة يرى كل شيء ، وأمامه سأمثل في يوم ما . لم أمسك في حياتي قط عملة اجنبية ولا اعرف ما هي ! الله يعاقبني على اثمي ، – اردف نيكانور ايفانوفتش بانفعال وهو يزرر قميصه تارة ويفكه تارة أخرى ، ويرسم اشارة الصليب ثالثة ، – لقد اخذت نقوداً ! لقد اخذت نقوداً ، لكني اخذتها بعملتنا السوفيتية ! سجلت بعضهم لقاء مال أحياناً ، انا لا انكر ذلك . وسكرتيرنا بروليجنيف لم يقصر ، هو ايضاً لم يقصر ! وبصراحة جميعهم في الادارة السكنية لصوص . لكني لم آخذ عملة اجنبية .

وعندما طلب اليه الا يتباله ، بل ان يروي لهم كيف وجدت الدولارات في كوة التهوية ، خر نيكانور ايفانوفيتش على قدميه واهتز فاغراً فمه كانما يريد ابتلاع قطعة من الباركيه وقال بصوت كالخوار :

– مستعد ، اذا شئتم ، ان آكل التراب برهاناً على اني لم آخذ دولارات ! اما كوروفييف فشيطان .

لأي صبر حدود ، وقد ارتفع صوت بعضهم الجالس الى المكتب ولمح لنيكانور ايفانوفتش ان آن له ان يتكلم بلغة بني البشر .

وهنا دوى في الغرفة ذات الأريكة اياها زئير وحشي أطلقه نيكانور ايفانوفتش الذي هب واقفاً :

– هاهو ذا ! هاهو ذا خلف الخزانة ! هاهو ذا يبتسم ساخراً ! ونظارته الأنفية ايضاً . . . امسكوه ! رشوا البيت بالماء المقدس !

غار الدم من وجه نيكانور ايفانوفتش واخذ يرسم اشارة الصليب في الهواء ، ويندفع نحو الباب جيئة وذهاباً وهو يرتجف كالورقة ، ثم رتل صلاة ، واخيراً اخذ يهلوس .

بات واضحاً تماماً ان نيكانور ايفانوفتش لم يعد صالحاً لأي حديث معه فاقتيد الى غرفة منفردة حيث هدأ بعض الشيء ولم يعد يصدر عنه الا الصلاة والنشيج .

ذهبوا الى سادوفايا بطبيعة الحال ، ودخلوا الشقة رقم ٥٠ ، لكنهم لم يجدوا أي شخص باسم كوروفييف هناك ، ولا وجدوا في البناية احداً عرف او رأى شخصاً باسم كوروفييف . كانت الشقة التي يشغلها المرحوم برليوز وليخودييف الذي غادر الى يالطا خالية تماماً ، واختام الشمع التي لم يمسها أحد تتدلى بسلام من على ابواب خزانات المكتب . هذا ما خرجوا به من سادوفايا ، الا انه خرج مع الخارجين سكرتير ادارة الجمعية السكنية برولیجنیف الذاهل والمسحوق .

ومساء ذلك اليوم احضر نيكانور ايفانوفتش الى مستشفى سترافنسكي ، لكنه كان في سلوكه من الهياج والصخب ما اضطرهم الى اعطائه حقنة بوصفة من سترافنسكي ، ولم يغف نيكانور ايفانوفتش في الغرفة رقم ١١٩ الا بعد منتصف الليل وهو يصدر بين الحين والآخر خواراً ثقيلاً موجعاً .

ومع مرور الوقت صار نومه أيسر وأهنأ . ولما كف عن الدمدمة والأنين واخذ يتنفس بهدوء وانتظام ، غادروا الغرفة وتركوه وحده .

اذاك ألم بنيكانور ايفانوفتش حلم يقوم في أساسه دون شك على ما عاناه في يومه هذا . بدأ الحلم بأن رأى نيكانور ايفانوفتش اشخاصاً يحملون أبواقاً ذهبية في أيديهم يشيعونه وبكل مهابة حتى ابواب كبيرة صقيلة . وعند هذه الأبواب كأنما عزف مرافقوه له سلاماً موسيقياً ، ثم سمع صوتاً عميقاً مدوياً يهبط عليه من السماء ويقول له :

– اهلاً وسهلاً بك يانيكانور ايفانوفتش ! سلم العملة الأجنبية !

تملكت نيكانور ايفانوفتش دهشة عظيمة ورفع عينيه فرأى فوقه مكبر صوت أسود .



ثم لم يدر كيف وجد نفسه في صالة مسرح تتلألأ تحت سقفها المذهب ثريات الكريستال وتتدلى على جدرانها القناديل . كان كل شيء كما يجب ان يكون في مسرح صغير لكنه بالغ الغنى : خشبة مسرح وستارة مخملية مسدلة تناثرت على خلفيتها ذات اللون الكرزي القاتم كالنجوم الصغيرة صور مكبرة لأوراق نقدية ذهبية من فئة العشرة روبلات ، ومكان الملقن ، بل حتى الجمهور .

وادهش نيكانور ايفانوفتش ان الجمهور كله كان من جنس واحد – الذكور ، وكله لأمر ما ملتحياً . وادهشه أكثر من ذلك انه لم تكن في الصالة كراس وان الجمهور كله كان يجلس على الأرض الممسوحة بشكل رائع والملساء .

شعر نيكانور ايفانوفتش ببعض الحرج وسط هذا الجمهور الجديد والواسع وتردد قليلاً ، الا انه حذا حذوه وتربع على الأرض بين ملتح بدين اصهب وآخر شاحب اللون لم يحلق ذقنه منذ فترة طويلة لكن أحداً من الجالسين لم ينتبه الى المشاهد الجديد القادم .

وهنا سمع رنين جرس ناعم ، وانطفأ النور وانفتحت الستارة ، فبانت خشبة المسرح المضاءة ذات الخلفية المخملية السوداء تنتصب فوقها اريكة وطاولة صغيرة عليها جرس ذهبي صغير .

وهنا بان من وراء الكواليس فنان شاب في السموكينغ ، حليق الذقن ، مفروق الشعر بعناية ، ذو تقاطيع وجه في غاية اللطف . دبت الحيوية في الجمهور ، واستدار كله ببصره الى خشبة المسرح . توجه الفنان الى مكان الملقن وفرك يديه .

– جالسون ؟ – سألهم بصوت جهوري رقيق وابتسم للصالة .

– جالسون ، جالسون ، – اجابوه كجوقة واحدة من الصالة بين أصوات غليظة وحادة .

– احم . . . – قال الفنان متفكراً ، – لا أفهم ، كيف لا يدرككم الملل ؟ الناس كلهم يتمشون الآن في الشوارع ويتمتعون بشمس الربيع ودفئه ، بينما انتم تستلقون على الأرض هنا ، في هذه الصالة بجوها الخانق ! أيكون البرنامج شيقاً الى هذا

الحد ؟ وعلى اي حال لكل ذوقه ، – قال الفنان منهياً كلامه بلهجة فلسفية .

ثم غير جرس صوته ونبرته واعلن بصوت مرح مرنان :

– وهكذا فالفقرة التالية من برنامجنا هي نيكانور ايفانوفتش بوسوي رئيس اللجنة السكنية ومدير مطعم الحمية . فليتفضل نيكانور ايفانوفتش !

ردت القاعة كلها على الفنان بالتصفيق ، بينما اتسعت عينا نيكانور ايفانوفتش من الدهشة ، اما مقدم البرنامج فقد اخذ يبحث عنه بنظره وسط الجالسين وهو يغطي وجهه بيديه من انوار مقدمة المسرح ، ولما وجده أومأ اليه ايماءة ودودة باصبعه . ولم يدر نيكانور ايفانوفتش نفسه الا وهو على خشبة المسرح .

ولطم نور المصابيح الملونة عينيه من تحت ومن قدام مما جعل الصالة تغور في الظلام مع جمهورها على الفور .

وقال له الفنان الشاب برقة :

– هيا يانيكانور ايفانوفتش ، ارنا نموذجاً ، وناولنا عملة اجنبية .

ران على الصالة الصمت . لكن نيكانور ايفانوفتش التقط انفاسه وقال بصوت خافت :

– اقسم بالله اني . . .

وما كاد ينطق هذه الكلمات حتى ضجت القاعة بصيحات السخط فارتبك نيكانور ايفانوفتش وصمت .

– بقدر ما فهمتك ، اردت ان تقسم بالله ان ليس لديك عملة اجنبية ؟ – قال مقدم البرنامج والقى على نيكانور ايفانوفتش نظرة تعاطف .

– تماماً ، ليس عندي شيء من هذا ، – اجابه نيكانور ايفانوفتش .

– حسن ، – رد الفنان ، – لكن اغفر لي قلة تواضعي : من اين جاءت الأربعمائة دولار التي وجدت في مرحاض تلك الشقة التي لا يقطنها الا انت وزوجتك ؟

– مسحورة ! – قال احدهم في الصالة المعتمة بسخرية ظاهرة .



– بالضبط ، مسحورة ، – اجاب نيكانور ايفانوفتش بوجل موجهاً كلامه لا تدري لمن : للفنان ام للصالة المعتمة ، واردف موضحا : – قوة شريرة . المترجم ذو المربعات هو الذي تركها عمداً .

ومن جديد هدرت الصالة ساخطة . وعاد الفنان يقول بعد ان ساد الهدوء من جديد :

– اي حكايات خرافية من حكايات لافونتين تلك التي علي ان اسمعها هنا ! تركوا عن قصد اربعمائة دولار ! هاأنتم اولاء هنا كلكم تتعاملون بالعملة الأجنبية ! واني لأتوجه اليكم بوصفكم اختصاصيين : هل هذا معقول ؟

– نحن لا نتعامل بالعملة الأجنبية ، – علت في الصالة بعض اصوات مستاءة ، – لكن هذا الأمر غير معقول .

– اشاطركم الراي تماماً ، – قال الفنان بصوت جازم ، – واني لأسالكم : ما الذي يمكن ان يترك عمداً ؟

– طفل ! – صاح احدهم من وسط القاعة .

– صحيح كل الصحة ، – قال مقدم البرنامج مثنياً ، – طفل ، رسالة مغفلة ، منشور ، آلة جهنمية واشياء اخرى كثيرة ، اما اربعمائة دولار فلا احد يتركها عن قصد اذ لا يوجد مثل هذا الأبله في الطبيعة ، – وهنا التفت الى نيكانور ايفانوفتش واردف يقول له بنبرة عتاب وحزن : – آه منك يانيكانور ايفانوفتش ! وانا الذي عقدت عليك الأمل ! لقد اخفقت فقرتك .

تعالى في الصالة الصفير موجهاً الى نيكانور ايفانوفتش .

كما تعالى الزعيق :

– انه يتعامل بالعملة الأجنبية ! بسببه هو وامثاله نعاني ما نعاني دون ذنب !

– لا تشتموه ، – قال مقدم البرنامج بصوت وديع ، – انه نادم . – واردف وهو يحول الى نيكانور ايفانوفتش عينين زرقاوين تجول فيهما العبرات : – هيا ، يانيكانور ايفانوفتش ، عد الى مكانك !

ثم قرع الجرس الصغير واعلن بصوت عال :

– استراحة ايها الأوغاد !

ومرة أخرى وجد نيكانور ايفانوفتش المبهوت ، الذي أسهم على غير توقع منه في برنامج مسرحي ، نفسه في مكانه على الأرض . وهنا بدا له ان الصالة غرقت في ظلمة ظلماء وان كلمتين حمراوين ومتوقدتين : «سلم العملة !» تتواثبان على الجدران . ثم فتحت الستارة من جديد وسمع صوت مقدم البرنامج يعلن :

– أرجو سيرغي غيراردوفتش دونتشل الصعود الى خشبة المسرح .

كان دونتشل كهلاً في الخمسين من عمره لطيف المظهر محترمه لكنه مُهْمَلُه جداً .

وتوجه اليه مقدم البرنامج بالقول :

– من شهر ونصف وانت تجلس هنا ، ياسيرغي غيراردوفتش ، وتمتنع بعناد عن تسليم ما بقي لديك من عملة اجنبية ، في حين ان البلد في حاجة اليها ، وانها لا تنفعك في شيء على الاطلاق ، ومع هذا فانت تعاند وتمعن في العناد . انك انسان مثقف وتدرك هذا كله تماماً ، ومع هذا لا تريد التجاوب معي .

– ليس بوسعي فعل شيء مع الأسف ، اذ لم يعد لدي شيء منها ، – اجاب دونتشل بصوت هادئ .

– أليس لديك بعض الأحجار الماسية على الأقل ؟ – سأله الفنان .

– وهذه ليس لدي منها شيء .

نكس الفنان راسه وفكر قليلاً ثم صفق بكفيه ، فخرجت من وراء الكواليس الى خشبة المسرح سيدة في منتصف العمر ترتدي ملابس على الموضة ، أي معطفاً بلا ياقة وقبعة صغيرة . كان مظهر السيدة يشي بقلقها . ونظر دونتشل الى السيدة دون ان يهتز له جفن .

– من هذه السيدة ؟ – سأل مقدم البرنامج دونتشل .

– انها زوجتي ، – اجاب دونتشل بوقار وتطلع ببعض الاشمئزاز الى عنق زوجته الطويل .

– لقد ازعجناك يامدام دونتشل ، – قال الفنان موجهاً



كلامه الى السيدة ، – والسبب هو أننا نريد سؤالك ان كانت لا تزال لدى زوجك عملة اجنبية .

– لقد سلمها كلها اذاك ، – اجابت مدام دونتشل في اضطراب .

– حسناً ، وهو كذلك ، – قال الفنان . – مادام قد سلمها كلها فلا بد لنا ان نفترق على الفور . بامكانك مغادرة المسرح ياسيرغي غيراردوفتش اذا شئت ، – ورفع الفنان يده في حركة ملكية .

استدار دونتشل برزانة ووقار واتجه الى الكواليس .

– دقيقة ! – قال مقدم البرنامج يوقفه ، – اسمح لي قبل الوداع ان اريك فقرة أخرى من برنامجنا ، – وصفق براحتيه من جديد .

انفرجت الستارة الخلفية السوداء وخرجت الى خشبة المسرح كاعب حسناء في لباس السهرة تحمل بين يديها صينية ذهبية فيها رزمة سميكة مربوطة بشريط ، وعقد من الماس يقدح شرره الأزرق والأصفر والأحمر في كل اتجاه .

تراجع دونتشل خطوة وغشي وجهه الشحوب وجمدت الصالة .

واعلن الفنان بصوت مهيب :

– ثمانية عشر الف دولار وعقد باربعين الف روبل ذهبي كان يحتفظ بها سيرغي غيراردوفتش في مدينة خاركوف في شقة عشيقته ايدا غيركولانوفنا فورس التي يسرنا ان نراها أمامنا ، والتي تلطفت وساعدتنا في العثور على هذه الكنوز التي لا تقدر بثمن انما العديمة الجدوى في حوزة فرد واحد . شكراً جزيلاً لك ياايدا غيركولانوفنا .

ابتسمت الحسناء فلمعت أسنانها واهتزت رموشها الكثيفة .

واستطرد الفنان موجهاً كلامه الى دونتشل :

– اما انت فتحت مظهرك المليء بالوقار يختفي عنكبوت نهم وخداع وقح وكذاب . لقد اعييتنا جميعاً طوال شهر ونصف بعنادك البليد . أما الآن فهيا الى بيتك ولتكن جهنم التي ستقيمها زوجتك على رأسك وتقعدها جزاءك عما فعلت .

ترنح دونتشل ، وبدا انه على وشك ان يسقط على الأرض ،

لكن ايادي عطوفة لست تدري ايادي من تلقفته . وهنا سقطت الستارة الأمامية دفعة واحدة وأخفت كل من كان على الخشبة .

هزّ الصالة تصفيق مسعور حتى بدا لنيكانور ايفانوفتش ان اضواء الثريات اخذت تقفز . وعندما انسحبت الستارة الأمامية السوداء الى الأعلى ، لم يكن على الخشبة الا الفنان بمفرده الذي كانت من نصيبه العاصفة الثانية من التصفيق وانحنى محييـــاً وقال :

– لقد رايتم في برنامجنا حماراً نموذجياً في شخص دونتشل هذا . لقد كان من دواعي سروري ان اقـــول لكم البارحة ان اخفاء العملة الأجنبية عمل غير مجد ، وكونوا على يقين ان لا احد يستطيع ان يستخدمها في اي حالة من الحالات . خذوا دونتشل هذا على سبيل المثال . انه يقبـــض راتباً ممتازاً ولا يفتقر الى شيء . عنده شقة رائعة وله زوجة وعشيقة حسناء . لكنـه بدلاً من ان يسلم العملة والأحجار الكريمة ، التي لديـه ، ويعيش في هدوء وسلام دون اي منغصات ، تسبـــب هذا الأبله الطماع لنفسه بفضيحة علنية وطعمها بفضيحة عائلية كبيرة . وهكذا من يسلم ؟ الا من راغب ؟ في هذه الحالة الفقرة التالية في برنامجنا للفنان الدرامـــي الموهوب والمعروف كورالیســـوف سافا بوتابوفتش الذي دعونـــاه خصيصاً ليؤدي مقاطع من «الفارس البخيل» للشاعر بوشكين .

ولم يتأخر كورالیسوف الموعود في الظهور على خشبـــة المسرح ، وكان رجلاً حليقاً فارع الطول لحيماً يضع فراكـــاً وربطة عنق بيضاء .

ودون اي مقدمات اصطنع وجهاً متجهماً وقطب حاجبيه واخذ يقول بصوت مفتعل وهو ينظر شزراً الى الجرس الذهبي :

– كفتى طائش ينتظر لقاء مع بغي ماكرة . . .

وروى كورالیسوف كثيراً مـــن الأشياء السيئة عن نفسه . وسمع نيكانور ايفانوفتش كورالیسوف يعترف لهـــم كيف ان ارملة تعسة ركعت امامه تحت المطر وهي تنوح وتعول لكنها لم تمس شغاف قلبه القاسي . لم يكن نيكانور ايفانوفتش حتـــى حلمه هذا يعرف على الاطلاق مؤلفات الشاعر بوشكين ، لكنه كان يعرف بوشكين نفسه معرفة رائعة ، وكانت تخرج من فمـه عدة



مرات كل يوم جمل مـــــن نوع : «هل سيدفع بوشكين اجرة الشقة ؟» او «بوشكين اذن هو الذي فك المصباح على الدرج ؟» او «بوشكين اذن هو الذي سيشتري المازوت ؟»

واغتم نيكانور ايفانوفتش الآن بعد ان تعرف على احـــد مؤلفات بوشكين ، وتمثلت امامه المرأة مع اولادها اليتامى جاثية على ركبتيها تحت المطر ، وفكر على الرغم منه قائلاً : «ياله من سافل كورالیسوف هذا !»

اما هذا فتابع يبدي ندمه رافعاً صوته باستمرار ، واخيراً اربك نيكانور ايفانوفتش نهائياً لانه اخذ فجأة يخاطب شخصاً ما لم يكن موجوداً على خشبة المسرح ، ثم يجيب نفسه نيابة عن هذا الشخص الغائب ، هذا الى انه كـــان يدعو نفسه «سيد» تارة ، و«بارون» تارة اخرى ، و«والد» ثالثة و«ابناً» رابعة ، واحياناً يخاطبه بصيغة الجمع واحياناً بصيغة المفرد .

ولم يفهم نيكانور ايفانوفتش من هـــذا كله الا امراً واحداً هو ان الفنان مات ميتة شريرة بعـــد ان صرخ : «المفاتيح ! مفاتيحي !» وسقط على الأرض وهو يحشرج ويفك ربطة عنقـه بحذر .

وهب كورالیسوف واقفاً بعد ان مات ، ونفض الغبار عـــن بنطال فراكه وانحنى مبتسماً ابتسامة زائفة ، وتوارى مشيعـاً بتصفيق متفرق . اما مقدم البرنامج فقال :

– استمعنا معـــاً الى «الفارس البخيـــل» في اداء سافا بوتابوفتش الرائع . كان هذا الفارس يأمل ان تتهافت الحوريات اللعوبات عليه ، وان تحدث امور كثيـــرة لطيفة بهذه الروح . لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، كما رايتم ، فلا الحوريات تهافتن عليه ، ولا ربات الشعر ادين له ما عليهن ، ولم يبن اي قصور او مخادع بل مات غير مأسوف عليه ميتة جد شنيعة من ضربـة على صندوقه الذي خبأ فيه العملـــة والأحجار الكريمة . واني لأحذركم انه سينالكم شيء من هذا القبيل ان لم يكن اسوأ ما لم تسلموا ما لديكم من عملة !

لا احد يدري ما السبب ، أهو شعر بوشكين الذي احدث هذا التأثير ام خطاب مقدم البرنامج النثري ، الا ان صوتـــاً خجولاً سمع يقول من الصالة :

– اريد ان اسلم ما لدي من عملة .

– ارجو التفضل والصعود الى خشبة المسرح ! – قال مقدم البرنامج يدعوه بأدب وهو يحدق في الصالة المظلمة .

وظهر على خشبة المسرح مواطن اشقر ، قصير القامة ، لم يحلق ذقنه من نحو ثلاثة اسابيع اذا ما حكمنا عليه من وجهه .

– عفواً ! ما كنيتك ؟ – قال مقدم البرنامج مستفسراً .

– كانافكين نيكولاي ، – اجابه بوجل .

– آ ! تشرفنا ، ايها المواطن كانافكين . ماذا تريد ؟

– تسليم العملة الاجنبية ، – قال كانافكين بصوت خافت .

– ما مقدارها ؟

– الف دولار وعشرون قطعة من فئة العشرة روبلات ذهبية .

– برافو ! كل ما لديك ؟

وثبت عريف الحفل عينيه في عيني كانافكين حتى بدا لنيكانور ايفانوفتش انه انبعثت من تينك العينين اشعة اخترقت كانافكين كما تخترق اشعة رونتجن جسم الانسان . وحبس من في الصالة انفاسهم .

– اصدقك ! – هتف الفنان اخيراً واطفأ نظرته ، – اصدقك ! هاتان العينان لا تكذبان . وانا كم قلت لكم ان خطأكم الأساسي في انكم لا تقدرون قيمة العينين الانسانيتين حق قدرها . افهموا اخيراً ان اللسان قد يستطيع كتم الحقيقة أما العينان فأبداً ! قد تفجأ بسؤال فلا تأخذك حتى مجرد رعشة ، بل تضبط نفسك في ثانية وتعرف ما ينبغي عليك قوله حتى تخفي الحقيقة ، وتقول ما تقوله بشكل مقنع تماماً ودون ان تتحرك ثنية من ثنايا وجهك . لكن الحقيقة التي اقض مضجعها السؤال تثب في لحظة ، مع الأسف ، من أعماق النفس الى العينين وينتهي كل شيء . لقد بانت الحقيقة وامسكت متلبساً بالكذب !

وبعد ان ألقى الفنان هذا الخطاب الشديد الاقناع بحرارة بالغة سأل كانافكين برقة :

– واين خباتها ؟

– عند عمتي ، بوروخوفنيكوفا ، في بريتشيستنكا . . .



– آ ! عند . . . مهلاً . . . عند كلافديا ايلينشنا ، اليس كذلك ؟

– نعم .

– آه ، اي ، اي ، اي ! الدار الصغيرة المنعزلة ؟ وقبالتها ايضاً جنينة صغيرة ؟ كيف لا ، اعرفها ، اعرفها ! واين دسستها هناك ؟

– في القبو ، في علبة فارغة من علب بسكويت «اينيم» . . .

ضرب الفنان كفاً بكف وصاح بصوت مغموم :

– هل رأيتم شيئاً كهذا ؟ لكنها هناك ستصدأ وتهترئ من الرطوبة ! هل من المعقول ، بالله عليكم ، أن يؤتمن ناس كهؤلاء على عملة اجنبية ؟ آ ؟ اطفال والله اطفال !

ونكس كانافكين الذي ادرك انه اخطأ وفضح امره راسه الشبيه بالقنبرة .

وتابع الفنان يقول :

– النقود يجب ان تحفظ في مصرف الدولة ، في اماكن خاصة جافة ومحروسة جيداً ، وليس في قبو عند عمة حيث تستطيع الجرذان خاصة اتلافها ! أمر مخجل حقاً ياكانافكين ! فانت انسان راشد !

لم يعد كانافكين يدري اين يخفي وجهه فلم يفعل سوى أن اخذ يفرك باصابعه طرف جاكيتته .

– حسناً ، – قال الفنان بلهجة ارق ، – لننس الماضي . . . – واضاف فجأة بشكل مباغت : – آ ، بالمناسبة وكي لا تضطر السيارة الى الذهاب الى هناك مرتين . . . عمتك هذه لديها عملة اليس كذلك ؟ آ ؟

ارتعد كانافكين الذي لم يكن يتوقع اطلاقاً هذا التحول في مجرى الموضوع ، وران الصمت على الصالة .

– اي كانافكين ، – قال له عريف الحفلة بلهجة عتاب رقيق ، –و انا الذي اثنيت عليه ! لقد انقطع لسانه فجأة ! هذا غير معقول ياكانافكين ! فانا لم اكد انتهي من كلامي على العينين . الظاهر ان لدى عمتك عملة . هيا ، لماذا تعذبنا عبثاً ؟

– نعم لديها ! – صاح كانافكين باندفاع .
– برافو ! – صاح عريف الحفلة .
– برافو ! – هدرت الصالة .
وعندما عاد الهدوء هنا عريف الحفلة كانافكين وشد على يده وعرض عليه ان يعيده الى بيته بالسيارة ، وامر احد الموجودين في الكواليس ان يعرج معه على عمته بالسيارة نفسها ويطلب اليها ان تتفضل لحضور البرنامج في المسرح النسائي .
– على فكرة . اردت أن اسالك : الم تقل لك عمتك اين تخبئ مالها ؟ – ساله عريف الحفلة وهو يقدم له بلطف وكياسة سيجارة وعود ثقاب مشتعلاً . . . ابتسم كانافكين ابتسامة حزينة وهو يسحب نفساً من سيجارته .
– اصدقك ، اصدقك ، – قال عريف الحفل متنهداً ، – هذه الحيزبون البخيلة لن تسر بهذا ليس لابن اخيها فقط ، وانما حتى للشيطان نفسه . ولكن لا بأس ، سنحاول ايقاظ المشاعر الانسانية فيها . قد لا تكون كل الأوتار قد تقيحت وتلفت في نفس هذه المرابية . اتمنى لك كل خير ياكانافكين .
وغادر كانافكين خشبة المسرح سعيداً . ثم سال الفنان ان كان هناك من يرغب في تسليم ما لديه من عملة اجنبية ، لكن الصمت كان هو الجواب .
– غريبو الأطوار والله ! – قال الفنان وهو يهز كتفيه ، وحجبته الستارة .
انطفأت المصابيح فساد الظلام بعض الوقت ، ومن بعيد في وسط الظلام سمع صوت عصبي حاد يغني :
«اكوام الذهب هناك وانا لها الملاك !»
ثم سمع من مكان ما بعيد تصفيق تردد مرتين .
– في المسرح النسائي احدى السيدات تسلم ما لديها ، – قال فجاة جار نيكانور ايفانوفتش الأصهب الملتحي ، واردف متنهداً : – ايه ، على الا تكون اوزاتي ! عندي ياعزيزي ، اوزات مصارعة في ليانوزوفو . اخشى أن تنفق بدوني . انها طيور حركة ، لطيفة ، تتطلب عناية . . . على الا تكون اوزاتي ! لن تدمشني ببوشكين هذا ، – وتنهد ثانية .
وهنا ضاءت الصالة بنور ساطع ، واخذ نيكانور ايفانوفتش



يرى في حلمه طباخين في قبعات بيض يحملون مغارف في ايديهم يدخلون من ابواب الصالة زرافات ، ومساعدي الطباخين يجرون خابية حساء وكشة خبز اسود مقطع . ودب النشاط في النظارة واخذ الطباخون المرحون يسعون بخفة وهمة بين عشاق المسرح ، ويوزعون عليهم الخبز ، ويسكبون لهم الحساء في صحاف ، وهم ينادون عليهم :
– تغدوا ياشباب ، وسلموا ما لديكم من عملة اجنبية ! !
ما لكم تجلسون هنا سدى ؟ هل راقكم هذا الحساء الكريه ؟ حبذا لو ذهبتم الى بيوتكم وشربتم كما يجب ومززتم .
– وانت ياابت مثلاً ، علام تجلس في هذا المكان لا تبارحه ؟ – قال لنيكانور ايفانوفتش مباشرة طباخ بدين احمر الرقبة وهو يناوله صحيفة حساء تطفو في مائه ورقة كرنب وحيدة .
– لا ! لا ! ليس عندي شيء ! – صرخ نيكانور ايفانوفتش بصوت مريع ، – هل تفهم ، ليس عندي شيء !
– ليس عندك شيء ؟ – هدر الطباخ بصوت جهوري غاضب ، ثم سال بصوت نسائي رقيق : – ليس عندك شيء ؟
– ثم اردف بلهجة تطمين : – ليس عندك شيء ، – وقد تحول فصار الممرضة براسكوفيا فيودوروفنا .
وهزت هذه بلطف نيكانور ايفانوفتش الذي كان يئن في نومه من كتفه . اذاك ذاب الطباخون وانهار المسرح وستارته . وتبين نيكانور ايفانوفتش من خلال دموعه غرفته في المصحة واثنين في رداء ابيض ، لكنهما لم يكونا من اولئك الطباخين الوقحين الذين يتطفلون على الناس بنصائحهم ، بل طبيباً وبرسكوفيا فيودوروفنا اياها التي لم تكن تمسك بيدها صحيفة ، بل صحناً صغيراً مغطى بشاش وفيه محقنة .
واخذ نيكانور ايفانوفتش يردد بمرارة وهم يغرزون الابرة في جنبه :
– ما معنى هذا كله ، قلت لكم : ليس عندي شيء ، يعني ليس عندي ! فليسلمهم بوشكين ما عنده من عملة ! لا شيء عندي !
– لا شيء عندك ، لا شيء ، – قالت برسكوفيا فيودوروفنا

الطيبة القلب تهدئ روحه ، — ما دام ليس عندك شيء فلا مجال للكلام .

احس نيكانور ايفانوفتش ببعض الراحة بعد الحقنة فغفا دون ان تراوده اي احلام .

لكن الهيجان والقلق انتقلا بفضل صيحاتـه الى الغرفة ١٢٠ حيث صحا مريضها واخذ يفتش عن رأسه ، والى الغرفة ١١٨ حيث اهتاج المعلم المجهول واخذ يعصر يديـه في سورة من الحزن والكآبة وهو يرنو الى القمر ويتذكر تلك الليلة الخريفية المرة التي كانت آخر لياليه وشريط الضوء المتسلل من تحت الباب في القبو والشعر المشعث .

وانتقل القلق من الغرفة ١١٨ عبر الشرفة الى ايفان فصحا من نومه واخذ يبكي .

لكن الطبيب هدأ بسرعة كل هؤلاء المهتاجين المصابين في عقولهم ، فعادوا الى النوم شيئاً فشيئاً ، وكان ايفان آخر من غفا . غفا بعد ان أخذ ضوء النهار ينتشر فوق النهر . عاد اليه هدوءه وغمره ، كما الموجة ، بعد الدواء الذي روى كل خلاياه . استرخى جسمه وعوّم النعاس في رأسه نسيماً دافئاً فغفا ، وكانت زقزقة العصافير في الغابة قبل الفجر آخر ما سمعه في صحوه . لكن العصافير سرعان ما صمتت ، والأحلام سرعان ما خفت اليه . ورأى في حلمه ان الشمس أخذت تهبط فوق الجبل الاقرع وكان الجبل مطوقا بطوقين من الجنود . . .

## الفصل السادس عشر

## الصلب

أخذت الشمس تهبط فوق الجبل الاقرع ، وكان الجبل مطوقاً بطوقين من الجنود .

انطلق فوج الخيالة الذي قطع على الحاكم طريقه عند الظهر الى أبواب حيفروف خبباً بعد أن أخلى جنود الكتيبة القبدوقية لها الطريق من حشود الناس والبغال والجمـال . وبلغ الفوج



خبباً وفي اعمدة عالية بيض من الغبار مفترقاً يتقاطع فيه الطريق الجنوبي المؤدي الى بيت لحم والطريق الشمالي الغربي المؤدي الى يافا . واندفع الفوج في الطريق الشمالي الغربي الذى انتشر القبدوقيون اياهم على جانبيـه بعد ان طردوا منه كل القوافل القادمة الى العيد في أورشليم . ووقفت وراءهم جموع الحجاج التي خرجت من خيامها المؤقتة المخططة التي نصبتهـا فوق العشب مباشرة . ولم يقطع الفوج نحو كيلومتر واحد حتى لحق بالكتيبة الثانية من فرقة الصاعقة ، ولم يقطع الكيلومتر الثاني حتى كان أول من بلغ سفح الجبل الاقرع ، حيث ترجلوا . ونشر قائد الفوج جنوده فصائل طوقت سفح الربوة الصغيرة ولم تترك الا منفذاً واحداً يؤدي اليها من طريق يافا .

وبعد قليل من وصول الفـوج السورى الى الربوة تبعته الكتيبة الثانية التي ضربت حول الجبل طوقاً اعلى طبقة من طوق الفوج السوري .

واخيراً وصلت مائة مارك قاتل الجرذان . كان جنود المائة يسيرون مشكلين سلسلتين تمتدان على جانبي الطريق ، وبين هاتين السلسلتين وبمرافقة حرس سري ، كانت تمضي عربة بثلاثة من المحكوم عليهم علقت في اعناقهم ألواح بيض كتب على كل منها باللغتين الآرامية واليونانية «لص وعاص» . وكانت تسير وراء عربة المحكوم عليهم عربات اخرى محملـة باعمدة خشبية قطعت حديثاً وثبتت عليها عوارض وحبال ومعاول وقرب وفؤوس . كما كانت هذه العربات تنقل ستة جلادين ، يتبعها مباشرة قائد المائة مارك ورئيس حرس هيكل أورشليم ، وذلك الشخص اياه ذو القلنسوة الذي أختلى به بيلاطس لحظة في غرفة القصر المعتمة ، على جيادهم ، يليهم في مؤخرة الركب جنود انتظموا سلسلة متراصة ووراءهم نحو ألفين من الفضوليين الذين لم يخفهم الحر الجهنمي ورغبوا في حضور هذا المنظر الطريف .

وانضم الى فضوليي المدينة هؤلاء الفضوليون من الحجاج الذين سمح لهم ، دونما اي عائق ، بالسير في مؤخرة الموكب . وزحف الموكب على صيحات الدعاة الحادة ، الذين كانوا يرافقون الرتل ويصيحون ما صاح به بيلاطس عند الظهر ، الى الجبل الاقرع .

سمح فوج الخيالة للجميع بالصعود الى الطبقة العليا من الربوة أما المائة الثانية فلم تسمح الا لمن له علاقة بتنفيذ الحكم بالصعود الى القمة . ثم وبمناورة سريعة نثرت الجمهور الزاحف حول الربوة كلها بحيث صار محصوراً بين طوق المشاة في الأعلى وطوق الخيالة في الأسفل . الا انه كان بامكانه أن يرى من خلال السلسلة المتفرقة من جنود المشاة عملية الصلب .

وهكذا ، مضى على صعود الموكب الى الجبل أكثر من ثلاث ساعات ، وأخذت الشمس تهبط فوق الجبل الاقرع لكن الحر كان لما يزل شديداً لا يطاق ، وكان الجنود في كلا الطوقين يكابدون منه ومن الملل ، ويلعنون في قلوبهم اللصوص الثلاثة ويتمنون لهم بصدق موتاً سريعاً .

كان قائد الفوج قصير القامة بجبينه المبلل وقميصه الأبيض ، الذي كمد لونه على ظهره من العرق ، يقف في أسفل الربوة عند المنفذ الوحيد الى القمة . وكان يمضي بين الحين والحين الى القربة الجلدية التي في الفصيلة الأولى ويغرف منها براحتيه ماء ويشرب ويرش على عمامته . فاذا ما شعر ببعض الارتياح أخذ يزرع الطريق الأغبر المؤدي الى القمة جيئة وذهاباً ، وسيفه الطويل يصل على جزمته الجلدية المشدودة . كان يريد أن يبدي لفرسانه مثالاً على قوة الاحتمال والصبر ، لكنه اذن لهم مع هذا ، اشفاقاً عليهم ، ان يصنعوا من رماحهم المركوزة في الأرض أهرامات وينشروا فوقها بردهم البيض . والى تحت هذه الخيم هرب السوريون من حرّ الشمس الذي لا يرحم . كانت القرب تفرغ بسرعة ، وكان الفرسان من مختلف الفصائل يتوجهون كل بدوره لجلب الماء من وادٍ ضيق في سفح الجبل حيث كانت ساقية عكرة تعيش في هذا القيظ الجهنمي آخر ايامها تحت بضع من شجيرات التوت العجف الشحيحة الظل . وهنا ايضاً كان يقف السائسون الذين يمسكون باعنة الخيول الهادئة وهم يحاولون ان يحتموا بالظل الشحيح ويعانون من السأم .

ولا بد من القول ان ملل الجنود وشتائمهم للمحكومين شيء مفهوم . زد على ذلك ان تخوف الحاكم من اضطرابات قد تحدث اثناء تنفيذ الحكم في مدينة أورشليم التي يكرهها لم يتحقق لحسن الحظ . فما ان جاءت الساعة الرابعة على بداية العملية



حتى لم يبق بين طوقي الجنود ، المشاة في وسط الجبل والخيالة في أسفله ، انسان واحد رغم كل التوقعات . فقد أحرقت الشمس الجمهور المحتشد بلهيبها ، وأعادته صاغراً الى أورشليم . ولم يبق خلف الكتيبتين الرومانيتين على الربوة سوى كلبين لا يعرف صاحبهما ولا لماذا اتيا الى هنا . كانا يتمددان على الأرض وقد اردتهما الشمس القائظة وهما يمدان لسانيهما ويلهثان ولا يعيران اهتماماً حتى للحراذين ذات الظهور الخضر ، المخلوقات الوحيدة التي لا تخشى الشمس والتي كانت تتقلب بين الحجارة المتلظية وبعض النباتات ذات الأشواك الطويلة الزاحفة على الأرض .

لم يحاول أحد اختطاف المحكومين لا في أورشليم التي كانت تعج بالقوات ، ولا هنا على الربوة المطوقة . وعاد الناس الى المدينة اذ لا شيء شائق ، بالفعل ، في هذه العملية ، في حين بدأت في اورشليم الاستعدادات لعيد الفصح العظيم الذى يحل مساء اليوم .

وكان جنود المشاة الرومانيون في الأعلى يعانون أكثر مما يعاني رفاقهم الخيالة . اذ ان قائد المائة قاتل الجرذان أبقى جنوده وقوفاً مشرعي الرماح ولم يسمح لهم الا بنزع خوذاتهم وتغطية رؤوسهم بعصابات بيض مبللة بالماء . أما هو فكان يروح ويجيء على مقربة من الجلادين عاصب الرأس بعصابة مماثلة لكنها غير مبللة بل جافة ، وحتى دون أن ينزع عن قميصه وجوه الاسود الفضية المعقودة عليه ، ودون ان ينزع غطائي الساقين والسيف والخنجر . كانت الشمس تريش قائد المائة بسهامها الحارقة دون أن تصيبه بأي ضرر ، أما وجوه الأسود فكان يستحيل النظر اليها اذ كان بريقها الباهر يتاكل العيون وكأنه بريق فضة تغلي في الشمس .

لم يكن يلوح على وجه قاتل الجرذان المشوه اثر لتعب أو انزعاج ، بل بدا قائد المائة العملاق هذا قادراً على أن يروح ويجيء على هذا النحو النهار كله والليل كله ثم نهاراً آخر بكامله ، وباختصار بقدر ما يطلب منه ، وأن يظل يروح ويجيء هكذا واضعاً يديه على نطاقه المثقل بالأنواط النحاسية ، وان يلقي بنفس الصرامة نظرة الى الأعمدة الخشبية وقربها المحكومون

تارة ، والى جنوده الضاربين طوقاً حول الربوة تارة أخرى ، وان يحذف بنفس اللامبالاة بطرف جزمته الوبرة ما يقع تحت قدميه من عظام انسانيـــة ابيضت مع مرور الوقت أو صوّانا صغير .

أما الشخص ذو القلنسوة فاقتعد كرسيـــاً صغيراً بثلاث قوائم على مقربة من الأعمدة منشرح الصدر لا يأتي بحركة سوى أن ينقب الرمل بين الحين والحين بطرف عود من مللـه .

ما قلناه من أنه لم يبق وراء طوق الجنود أحد ليس دقيقاً تماماً . فقد بقي هناك شخص واحد لكنه لم يكن ظاهراً للجميع . فهو لم يتخذ له مكاناً في الجانب الذي فيه المنفذ الى الجبل والذي كان انسب مكان لمشاهدة تنفيذ الحكم ، بل في الجانب الشمالي حيث لم يكن الجبل منبسطاً ومكشوفاً ، بل شديد النتوءات ، فيه وهدات وشقوق وحيث كانت تحاول ان تعيش في شق من هذه الأرض التي لعنتها السماء فحرمتها من الماء شجرة توت سقيمة .

وتحت هذه الشجيرة التي لم تكن تلقي على الارض أي ظل بالضبط تمركز هذا المشاهد الوحيد للصلب والوحيد الذي لم يشارك فيه ، وجلس على حجر من بداية العملية أي من ثلاث ساعات ونيف . أجل ، لم يختر لمشاهدة عملية الصلب أفضل المواقع بل أسواها . لكنه كان يرى من موقعه ، على الرغم من هذا ، الأعمدة ، كمـــا كان يرى وراء طوق الجنـــود البقعتين البراقتين على صدر قائد المائة . وكان هذا ، فيما يبدو ، يرضي تماماً انساناً يرغب رغبة واضحة في البقاء بعيداً عن الأنظار وعن ازعاج الآخرين له .

لكن تصرف هذا الانسان من أربع ساعات ، أي قبيل بداية العملية ، كان مغايراً تماماً لتصرفه الآن وكان قمينـــاً بلفت الأنظار اليه ، ولعل هذا ما دفعه الآن الى تغيير مسلكه والانزواء وحيداً وبعيداً .

اذاك ، أي حين اجتاز الموكب الطوق الى القمة ، شوهد هذا الشخص أول مرة ، كانت تبدو عليه امارات انسان تأخر كثيراً عن موعده . كان يتنفس بصعوبة ، ولم يكن يمشي ، بل يعدو الى الرابية وهو يدفع الناس . وحين رأى ان السلسلة انغلقت أمامه كما أمام الآخرين ، قام بمحاولة ساذجة للتسلل عبر الجنود



متظاهراً بانه لا يفهم صيحاتهم المغيظة الى مكان تنفيذ الحكم تماماً ، حيث كان المحكوم عليهم ينزلون من العربة . وكان جزاؤه طعنة قوية برأس كليل من رمح في صدره جعلته يثب مبتعداً عن الجنود ويصرخ ، لكن ليس من ألمه بل من يأسه . رمى الجندي الذي طعنه بنظرة غائمة ولامبالية بأي شيء كانسان لا يشعر اطلاقاً بالألم الجسدي .

دار يركض حول الرابيـــة وهو يسعل ويلهث ويضع يده على صدره لعله يجد في الجانب الشمالي ثغرة في الطوق يستطيع التسلل منها . لكن الوقت كان قد فات والحلقة انغلقت تماماً ، مما اضطر الرجل الذي شوه الألـم قسمات وجهه الى الكف عن محاولاته الوصول الى العربات التي كانت الأعمدة قـــد أنزلت منها . ولم يكن من شأن هذه المحاولات الا ان تؤدي الى اعتقاله ، الأمر الذي لم يكن وارداً على الاطلاق في خطته اليوم بالذات .

وهاهو ذا ينتبذ مكاناً قصياً في شق أكثر أمناً حيث لا شأن لأحد به .

كان هذا الانسان الأسود اللحية المتقيح العينين من الشمس والأرق يجلس الآن على حجر وقد تولاه حزن وكآبة . كان يتنهد تارة كاشفاً عن عباءة بليت من كثرة التجوال واستحال لونهـــا الأزرق الى رمادي قذر وعن صدر كدمـــه الرمح يتصبب عليه عرق وسخ ، ويرفع عينيه الى السماء تارة أخرى في عذاب لا يطاق ملاحقاً بهما ثلاثة نسور جيف تحوم منذ فترة طويلة في السماء في دوائر كبيرة متوقعة مأدبة قريبة حافلة ، ويحملق تارة ثالثة في الأرض الصفراء فيرى فيها جمجمة كلب نصف محطمة تتواثب الحراذين حولها .

كانت عذابات الرجل المبرحـة من القوة بحيث كان يتحدث الى نفسه بين الحين والحين .

— يالي من غبي ! — كان يغمغـــم وهو يهتز متمايلاً على الحجر في وجع نفسي يهتصره ويخمش صدره الأسمر ، — غبي ، امرأة معتوهة ، جبان . جيفة أنا ولست انساناً .

ثم كان يصمت وينكس رأسه ثم يعود الى نشاطه بعد أن يشرب بعض الماء الفاتر من زمزميته الخشبية فيقبض على خنجره المخبوء على صدره تحت عباءته تارة أو يمسك قطعة ورق الرق

الملقاة امامه على الحجر قرب عصاه الصغيرة وزجاجة الحبر الصيني .

وعلى هذه الورقة دونتْ العبارات التالية على عجل .

«الدقائق تمضي سراعاً ، وانا ، متى اللاوي ، على الجبل الاقرع ، والموت لمّا يأت !» .

ثم :

«الشمس تميل الى المغيب ، والموت لمّا يأت» .

والآن اخذ متى اللاوي يسجل بطرف عصاه الحاد ما يلي وقد بلغ به اليأس أشده :

«لماذا تصب عليه غضبك يارب ؟ لو تبعث له بالموت» .

ثم نشج نشيجاً جافاً وخمش صدره بأظافره ثانية حتى ادماه .

كان سبب قنوط اللاوي هو الاخفاق المريع الذي لحق به وبيشوع ، زد على ذلك الخطأ الفادح الذي اعتقد اللاوي أنه اقترفه . فاول البارحة كان يشوع واللاوي في بيفانيا التي قرب اورشليم ، حيث ضافا بستانياً مشغوفاً بتعاليم يشوع . عمل الضيفان طيلة الصباح في البستان يساعدان مضيفهما وكانا يعتزمان المضي الى اورشليم مساء ذلك اليوم مع انتعاش الجو . الا أن يشوع تعجل ، لأمر ما ، سفره قائلاً ان لديه في المدينة اموراً عاجلة لا يمكن تأجيلها وغادرهما قبيل الظهر وحده . وهنا بالضبط مكمن الخطأ الأول الذي اقترفه متى اللاوي . لماذا ، لماذا ترك يشوع يذهب وحده !

ولم يتمكن متى من المضي الى اورشليم في المساء ، فقد اقعده مرض مباغت ومريع . كانت القشعريرة تهز اوصاله هزاً ، وجسمه ينفث ناراً ، وأخذ يصرف أسنانه ويطلب الماء كل دقيقة . كان عاجزاً عن الاتيان بأي حركة . تهاوى على جلّ في عنبر البستاني وظل متمدداً عليه حتى فجر يوم الجمعة حين زاوله المرض فجأة كما ألم به . وعلى الرغم من الوهن الذي ادركه ومن الرعشة في قدميه قام وقد تقبض صدره احساس مسبق غريب بالكارثة الآتية ، فودع صاحب البيت وتوجه الى اورشليم . وادرك هناك أن احساسه لم يخدعه . كانت المصيبة قد نزلت ،



وكان اللاوي واحداً من الجمهور الذي استمع الى الحاكم يعلن الحكم .

عندما اقتيد المحكومون الى الجبل ، خف متى اللاوي يتبع الموكب مع جمهور الفضوليين . كان يحث الخطا على مسافة يسيرة من الطوق الذي ضربه الجنود ، لعله يتمكن على الأقل من افهام يشوع بشكل او بآخر خلسة انه ، هو اللاوي ، هنا معه وانه لم يتخل عنه في طريقه الأخير ، وانه يدعو اللّه ان يوافي الموتُ يشوع بأسرع ما يمكن . لكن يشوع الذي كان ينظر الىٰ البعيد ، الى حيث كانوا يسوقونه ، لم ير اللاوي بطبيعة الحال .

وما ان قطع الموكب نحو نصف فرسخ على الطريق حتى لمعت في راس متى الذي كان وسط الجمهور يزحمه ويدفعه قرب الطوق المضروب فكرة بسيطة وعبقرية . وراح في الحال يصب اللعنات على نفسه لأن الفكرة لم تخطر له من قبل . لم يكن الجنود يسيرون في حلقة متراصة وكانت بينهم فجوات ، وكان بامكان المرء فيما لو اوتي خفة كبيرة وحَسَبَ واحكم التقدير ان ينحني وينسل بين جنديين ويبلغ العربة وينقض عليها . واذاك سينقذ يشوع من عذاباته .

تكفيه لحظة واحدة كي يهتف وهو يطعن يشوع بالسكين في ظهره : «يايشوع ، اني أنقذك وامضي معك ! أنا متى تلميذك الأمين الوحيد !» .

ثم اذا ما أنعم اللّه عليه بلحظة اخرى ، سيكون بامكانه طعن نفسه وتفادي الموت على خشبة ! وعلى أي حال فهذه النقطة الأخيرة لم تكن تعني اللاوي جامع العشر السابق الا قليلاً . لا فرق لديه على أي وجه يكون موته . كان يريد شيئاً واحداً — ان يتفادى يشوع الذي لم يسىء للناس في حياته اقل اساءة التعذيب .

كانت الخطة في غاية البراعة والاحكام ، لكن المشكلة ان اللاوي لم يكن يحمل خنجراً ، كما لم تكن معه حتى قطعة واحدة من النقود .

وفي سورة من الحنق على نفسه خرج اللاوي من وسط الصفوف واندفع عائداً ادراجه الى اورشليم . كانت فكرة واحدة

محمومة تقفز في رأسه الملهب – ان يحصل على الفور ، وبأي طريقة كانت ، على سكين في المدينة ليعود ويلحق بالموكب .

بلغ أبواب المدينة وما ان انسل في زحمة القوافل المتدافعة عندها الى داخل السور حتى رأى على يساره دكان خبز مفتوحة . كان يردد أنفاسه بصعوبة بعد ان قطع الطريق المتوهجة بلظى الشمس عدواً ، لكنه تمالك نفسه ودخل الدكان برزانة بالغة وحيا صاحبتها التي كانت تقف خلف المبسط وطلب منها ان تنزل له من الرف الرغيف العلوي الذي لا يدري لماذا اعجبه اكثر من الارغفة الأخرى ، وما ان استدارت حتى اخذ من فوق المبسط بصمت وسرعة شيئاً لا يمكن ان يكون في الدنيا ما هو افضل منه – سكين خبز طويلة ومشحوذة كالشفرة ، واندفع يعدو خارجاً . وما هي الا عدة دقائق حتى كان على طريق يافا ، لكن الموكب كان قد غاب عن الأنظار ، فانطلق يعدو ثانية . وكان يجـــد نفسه بين الحين والحين يهوي متمرغاً في التراب ويظل على هذه الحال بعض الوقت ريثما يسترد أنفاسه . وكانت حاله هذه تذهل القادمين الى اورشليم على بغالهم أو على اقدامهم . كان يتمرغ في التراب وهو يستمع الى قلبه يدق ليس في صدره وحسب ، وانما في رأسه وفي اذنيـــه ايضاً . وبعد ان يسترد انفاسه كان يهب واقفاً ويستأنف العدو انما بسرعة تزداد بطئاً . وعندما رأى أخيراً في البعيد الموكب الطويل المجلل بالغبار ، كان هذا قد وصل السفح .

– اوه ، يالهي . . . – قال اللاوي يئن وقد أدرك انه تأخر . وبالفعل كان قد تأخر .

عندما مضت الساعة الرابعة على بدء تنفيذ الحكم كان عذاب اللاوي قد بلغ ذروته . واستبد به حنق عظيم ، فقذف السكين ، التي سرقها عبثاً كما اعتقد الآن ، على الأرض ، وداس الزمزمية بقدميه حارماً بذلك نفسه من الماء ، ونزع عمته عن رأسه وشبث يديه بشعر رأسه القليل وأخذ يلعن نفسه .

لعن نفسه مجمجماً بكلمات لا معنى لها ، وخار وبصق وشتم أباه وأمه اللذين ولدا أحمق مثله .

واذ رأى ان أيمانه وشتائمه لا تفعل فعلها ، وان شيئاً في هذا القيظ لم يتغير بسببها ، اغمض عينيه وكوّر قبضتيه



اليابستين ورفعهما الى السماء ، الى الشمس الممعنة في زحفها الى الأسفل مطاولة الظلال ومغادرة كي تهبط في البحر المتوسط ، وطلب من ربه معجزة على الفور . طلب اليه ان يبعث الى يشوع بالموت دون ابطاء .

وفتح عينيه فتأكد ان شيئاً على الرابية لم يتغير سوى ان البقعتين المتوهجتين على صدر قائد المائة قد خبا وهجهما . كانت الشمس تريش بأشعتهـــا ظهور المحكومين المتجهي الوجوه الى اورشليم . اذاك هتف اللاوي صارخاً :

– اللعنة عليك أيها الرب !

واردف يصرخ بصوت مبحوح انه اقتنع بظلم الله وانه لا ينوي الايمان به بعد الآن .

– انت أصم ! – جار اللاوي – لو لم تكن أصم لسمعت ندائي وقتلته للحال .

واغمض اللاوي عينيه في انتظار نار تنقض عليه وتصعقه . لكن شيئاً من هذا لـم يحدث ، فاستأنف دون ان يفتح عينيه يصرخ بكلام لاذع ومهين بحق السماء : عن خيبة أمله الكاملة ، وعن ان هناك آلهة اخرى وديانات اخرى . نعم ، ما كان إله آخر ليسمح بأن يموت انسان كيشوع حرقاً بلهيب الشمس على خشبة ، ما كان ليسمح بهذا أبداً .

واستمر اللاوي الذي بح صوته تماماً يصرخ :

– لقـــد خُدعت فيك ! انت إله الشر ! أم ان الدخـــان المتصاعد من مباخر الهيكل أعمى عينيك تماماً ، ولم تعد اذناك تسمعان سوى أصوات الكهنة الجهورية ! انك لست الهـــاً كلي القدرة ، بل إله أسود . اني العنك يا إله اللصوص والقتلـــة وحاميهم وملهمهم !

وهنا لفح شيء ما وجه العشّار السابق ، وهسهس شيء ما تحت قدميه ، ثم لفحه ثانيـــا . فتح عينيه فرأى ان كل شيء حوله تغير . ولم يدر لم هذا التغير : أبسبب لعناته أم لأسباب اخرى لا يدركها . كانت الشمس قد اختفت ولما تبلغ البحر الذي كانت تغرق فيه كل مساء ، والغيمة الرعدية التي التهمتها ترتفع في السماء من الغرب في اصرار ووعيد ، وقد اخذت حواشيها تمور بزبد أبيض وكرشها المدخن الأسود يلمع احياناً ببريق أصفر .

كانت الغيمة تدمدم وخيوط من النار تتساقط منها بين الحين والحين ، واعمدة الغبار ترتفع على طريق يافا وفي وادي هيون الشحيح وفوق خيم الحجاج اثارتهـــا الريح التي عصفت فجاة . وسكت اللاوي محاولاً أن يرى ما اذا كانت العاصفة الرعديـــة الزاحفة على أورشليم ستغير شيئاً في مصير يشوع المسكين . واخذ يدعو من فوره ، وهو يتأمل خيوط النار تشق الغيمـــة السوداء ، أن تنقض صاعقة على خشبة يشوع . تطلّع اللاوي الى السماء الصافية التي لمّا تلتهمها الغيمة السوداء والتي كانت فيها نسور الجيف تتأهب للهرب من وجه العاصفة ، وقال في نفسه انه استعجل بشكل جنوني في اطلاق لعناته وان اللّه لن يسمع دعاءه .

حوّل اللاوي نظره الى سفح الجبل حيث كان فوج الخيالـة منتشراً وتسمر اذ رأى التغيرات الهامـــة التي طرأت . فقد رأى من مكانه العالي بوضوح الجنود يسعون في نشاط وهـــم ينزعون الـرماح من الأرض ويطرحون البُرَد على اكتافهـــم ، وماسكي الخيول الدهم يقودونها من اعنتها خبباً الى الطريق . كان واضحاً ان الفوج يتأهب للرحيل . وحاول اللاوي ، وهو يحمي بيده وجهه من الغبار الذي يسفعه ويبصق ، أن يفهم ما معنى رحيل الخيّالة الآن . ورفع ناظريه الى أعلى قليلاً فتبين شخصاً في بردة عسكرية حمراء يصعد في الجبل الى مكان تنفيذ الحكم . وغمر قلب العشّار السابق برد وسلام لاحساسه بدنو النهاية البهيجة .

كان المصعد في الجبل في الساعة الخامسة من بدء عذابات اللصوص قائد كتيبة وصل من أورشليم بصحبة مرافقـــه . وباشارة من قاتل الجرذان انفتحت الحلقة وقدم قائد المائة التحية للآمر . أخذ هذا قاتل الجرذان جانباً وهمس في أذنه . قدم قائد المائة التحية ثانية ومضى الى فريق الجلادين الجالسين على الحجارة عند الاعمدة الخشبية . أما القائد فتوجه الى الذي كان يجلس على الكرسي ذي الثلاث قوائم ، فهب هذا يلقاه باحترام . اسر له القائد ببضع كلمات ومضيا معاً الى الأعمدة ثم انضم اليهما قائد حرس الهيكل .

حانت من قاتل الجرذان التفاتـــة ازدراء الى الخرق القذرة الملقاة على الأرض عنـــد الأعمدة ، هذه الخرق التي كانت الى



فترة لباس المجرمين والتي رفضها الجلادون ، فنادي اثنين منهم وامرهما قائلاً :

– ورائي !

كانت تتناهى من اقرب خشبة اغنية بلهاء مبحوحة . كان هيستاس المعلق على هذه الخشبة قد فقد عقله مع مرور الساعة الثالثة على بدايـــة الصلب من الذباب والشمس ، وكان الآن يغني بصوت خفيض كلاماً غير مفهوم عن العنب ، لكنه كان يهز راسه المغطى بعمامة احياناً فكان الذباب يتطاير من على وجهه بفتور ويعود ليحط عليه .

وكان عذاب ديسماس المعلق على الخشبة الثانية أمرّ من عذاب الاثنين الآخرين ، لأنـــه لم يغب عن وعيه ، فكان يهز راسه هزات متتالية ومنتظمة ، الى اليمين تارة والى اليسار تارة كيما يحك كتفه باذنه .

وكان يشوع أسعد الثلاثة حظاً . فمنذ الساعة الأولى من بدء تنفيذ الحكم صار يُغشى عليه ثم راح في غيبوبة كاملة وقد تدلى راسه الذي حلت عمامته ، فتجمع الذباب والقراد عليـــه بحيث اختفى وجهه تحت كتلـــة سوداء متحركة . وحط القراد المكتنز على حالبه وبطنه وتحت ابطيه وراح يمص جسده الأصفر العاري .

وبناء على اشارة من الرجل ذي القلنسوة اخذ أحد الجلادين رمحاً وجلب آخر الى الخشبة سطلاً واسفنجة . رفع الجلاد الأول الرمح ودق به يدي يشوع ، الأولى ثم الثانية ، المبسوطتين والمشدودتين بالحبـــال الى عارضة الخشبـــة ، فاختلج جسده باضلاعه النافرة . ومرّ الجلاد براس رمحه على بطن يشوع . واذاك رفع يشوع راسه فتطاير الذباب في طنين ، وبان وجه المعلق على الخشبـــة ، وجه تورّم من لذعات الذباب وانتفخت فيه العينان ففقد كل ملمح من ملامحه السابقة .

فتح الغانوصري جفونه المطبقة ونظر الى أسفل . كانت عيناه الصافيتان عادة زائغتين الآن .

– أيها الغانوصري ! – قال له الجلاد .

حرّك الغا نوصري شفتيه المنتفختين واجاب بصوت أجش كصوت اللصوص :

– ماذا تريد ؟ ولماذا جئتني ؟

– اشرب ! – قال الجلاد ، وارتفعت الى شفتي يشوع على راس رمح اسفنجة مبللة بالماء . لمعت عينا يشوع بالغبطة والتصق بالاسفنجة بشفتيه يمص ماءها بنهم . وسُمع من الخشبة المجاورة صوت ديسماس يقول :

– هذا ليس عدلاً ! فانا لص مثله .

وحفز ديسماس كل قواه الا انـــه لم يتمكن من الاتيان بحركة ، لأن يديه كانتا موثقتين الى ثلاثـة مواضع في العارضة بحلقات من الحبال . فقبض بطنه وغرز اظافره في طرفي العارضة ورأسه باتجاه خشبة يشوع . كانت عيناه تتأججان مَوْجدة .

وغطت سحابة من الغبار ساحة العملية فاحلولكت الدنيا . وحين انقشعت السحابة صاح قائد المائة :

– اخرس انت الذي على الخشبة الثانية !

وخرس ديسماس . ورفـــع يشوع شفتيه عن الاسفنجـة وسالهم بصوت حاول ان يكون رقيقاً ومقنعاً ، لكنه لم يفلح فخرج أجش :

– اعطه يشرب .

كانت الظلمـــة تشتد سواداً وقد غطت الغيمة الرعديـــة المنطلقة الى اورشليـم نصف السماء . وكانت سحابات بيض متأججة تندفع في مقدمة الغيمة المحملة بالماء الأسود والنار . ابرقت السمـاء وارعدت فوق الرابية تمامـاً . ونزع الجلاد الاسفنجة من الرمح .

– مجّد الوالي الشهم ! – همس الجلاد بجلال وطعن يشوع طعنة خفيفة في قلبه ، فاختلج هذا وهمس :

– الوالي . . .

وانساح الدم على بطنـــه وارتعش فكه الأسفل في حركـة تشنجية ، وتدلى رأسه .

وحين قصف الرعد ثانية كان الجلاد يقدم الماء لديسماس ويقول له نفس الكلمتين السابقتين : مجد الوالي ! – ويقتله .

ما ان صار الجلاد قرب هيستاس الذي فقد عقله ، حتى اطلق هذا صرخة مذعورة ، لكنه ما ان لامست الاسفنجة شفتيه حتى غمغم بشيء ما بصوت كالخوار وغرز فيها أسنانه . وما



هي ثوان حتى كان جسمه يتدلى على الخشبة قدر ما تسمح به الحبال .

كان الرجل ذو القلنسوة يتبع الجلاد وقائد المائة وخلفه رئيس حرس الهيكل . توقف الرجل ذو القلنسوة عند الخشبة الأولى ، وتأمل جسد يشوع المدمى ولمس بيده البيضاء قدمه وقال لمرافقيه :

– لقد فارق الحياة .

وتكرر هذا القول عند الخشبتين الثانية والثالثة .

بعد هذا أوما قائد الكتيبة لقائد المائة ، ثم استدار يهبط التلة مع رئيس حرس الهيكل والرجل ذي القلنسوة . حل مـا يكاد يكون نصف ظلام . كانت البروق تشق السمـاء السوداء وانبثقت من جوف السماء نار وغرقت صرخة قائد المائة «فكوا الطوق» في قصفة رعد . وهرع الجنود يهربون سعداء من التلة وهم يعتمرون خوذهم . وغطت الظلمة اورشليم .

وفجأة انهمر مطر غزير وادرك المئات في منتصف الطريق على الرابية . كان المطر يهطل بشكل مريـــع بحيث ادركت السيول الهادرة الجنود وهم يفرون راكضين الى الأسفل . كان الجنود ينزلقون ويسقطون في الطين الرطب مسرعين الى الطريق المستوي الذي تنطلق فيه الخيالة المبللة حتى العظم وهي لا تكاد تبين في غشاوة الماء متجهة الى اورشليم . وفي دقائق لم يبق على الرابية في هذا المزيج المدخن من العاصفة الرعدية والماء والنار الا شخص واحد . كان هذا الشخص يصعد في الجبل الى الأعمدة الخشبية ، وهو يهز سكينه التي لم يسرقهـا سدى ، متشبثاً تارة بما تقع عليه يداه ، زاحفاً تارة أخرى على ركبتيه منزلقاً من الحوافي الناتئة . كانت العتمة القاتمـــة تغمره تارة وتارة اخرى يغمره النور المهتز .

ما ان بلغ الخشبات حتى كان في الماء حتى رسغيه . نزع سترته المشبعة بالماء التي اضحت ثقيلة فلم يعد يستره الا قميص ، وهوى على قدمي يشوع فقطع الحبال عن ساقيه وصعد على العارضة السفلية فعانق يشوع وحرر يديه من قيودهمـــا العلوية . هوى جسد يشوع العاري البليل على اللاوي وطرحه ارضاً . اراد اللاوي من فوره أن يحمل يشوع على كتفيه ، لكن

فكرة ما أوقفته ، فترك على الأرض في الماء الجسد برأسه الملقى الى الخلف ويديه المتباعدتين وهرع يخوض في الطمي الى الخشبتين الأخريين ، فقطع حبالهما ، وهوى الجسدان الآخران على الأرض .

ولم تمض بضع دقائق حتى لم يبق على قمة الربوة الا هذان الجسدان وثلاثة اعمدة فارغة . وكان الماء يتدفق ويدحرج هذين الجسدين .

أما اللاوي وجسد يشوع فقد اختفيا من قمة الجبل .

## الفصل السابع عشر

## نهار مضطرب

في صباح يوم الجمعة ، أي في اليوم الذي تلا تلك الحفلة اللعينة كنت ترى العاملين في «فاريبيتيه» – رئيس المحاسبين فاسيلي ستيبانوفتش لاستوتشكين ، والمحاسبين الآخرين والضاربات الثلاث على الآلة الكاتبة ، وقاطعتي التذاكر والسعاة والمراقبين وعاملات التنظيف – وباختصار كنت ترى كل مَنْ على ملاك مسرح «فاريبيتيه» يجلسون على حوافي النوافذ المطلة على سادوفايا وليس في اماكنهم يزاولون اعمالهم المعتادة ، وهم يتطلعون الى ما يجري عند جدار المسرح . كان طابور غفير من الناس تمتد مؤخرته حتى ميدان كودرينسكايا قد تجمهر في صفين . وكان يقف على رأس هذا الطابور نحو عشرين من المتاجرين بالبطاقات المعروفين جيداً في اوساط موسكو المسرحية .

كان الاضطراب الشديد يعتري الواقفين في الطابور المنهمكين في مناقشة قصص مثيرة عن حفلة السحر الشيطاني امس التي لم يسمع بمثلها من قبل الأمر الذي لفت انتباه المواطنين الآخرين المتدفقين زرافات ووحدانا قربهم . واوقعت هذه الروايات في قلب المحاسب فاسيلي ستيبانوفش الذي لم يحضر



حفلة الأمس بلبلة عظيمة . وروى المراقبون قصصاً ما انزل الله بها من سلطان ، منها ان بعض المواطنات خرجن الى الشارع بعد انتهاء الحفلة الشهيرة يركضن فيه في مظهر غير لائق واشياء اخرى من هذا القبيل . كان فاسيلي ستيبانوفتش المتواضع والهادئ يغمز عينيه فقط وهو يستمع الى اقاويلهم حول كل هذه الغرائب دون ان تتكوّن لديه اى فكرة عما يجب ان يفعل . ومع هذا كان من الضروري اتخاذ اجراء ما ، وعليه هو بالذات ان يتخذ هذا الاجراء لأنه كان الآن الأقدم في فريق «فاريبيتيه» .

ما ان قاربت الساعة العاشرة صباحاً حتى كان طابور المتعطشين الى البطاقات قد انتفخ بحيث وصلت عنه اشاعات الى الشرطة . وخفت هذه بفصائل من المشاة والخيالة الى مسرح فاريبيتيه بسرعة مدهشة واعادت الى الطابور بعض النظام . الا ان الحية بطول كيلومتر اضحت ، حتى وهي تقف في نظام ، تمثل بذاتها مصدر اغراء كبير ، واوقعت في نفوس المواطنين في سادوفايا دهشة كاملة .

هذا ما كان خارج «فاريبيتيه» ، أما داخله فكان الأمر في غاية السوء أيضاً . فمنذ الصباح الباكر اخذت الهواتف ترن وظلت ترن دون انقطاع في مكتب ليخودييف وفي مكتب ريمسكي وفي المحاسبة وفي شباك التذاكر وفي مكتب فارينوخا . في أول الأمر رد فاسيلي ستيبانوفتش بكلام ما ، كما ردت بائعة التذاكر ، وجمجم المراقبون شيئاً ما في الهاتف ، ثم كفوا نهائياً عن الرد لأنه لم يكن لدى اي كان على الاطلاق ما يرد به على اسئلة كهذه : اين ليخودييف ؟ اين فارينوخا ؟ اين ريمسكي ؟ في أول الأمر حاولوا التخلص بالقول «ليخودييف في شقته» ، لكن الجواب كان ياتيهم من المدينة بانهم هتفوا الى شقته فردت الشقة بأن ليخودييف في «فاريبيتيه» .

وهتفت سيدة مثارة واخذت تطالب بريمسكي ، فنصحوها بالاتصال بزوجته ، لكن السماعة أجابت ، وهي تنتحب ، أنها هي زوجته وان ريمسكي لا وجود له في اي مكان . بدا الأمر يأخذ مجرى غير معقول . وكانت عاملة النظافة قد اخبرت الجميع أنها حين حضرت الى مكتب المدير المالي لتنظيفه رأت الباب

مفتوحاً والمصابيح مشتعلة والنافذة المطلة على الحديقة محطمة والمقعد ملقى على الأرض ، كما لم تجد أحداً في المكتب .

وفي بداية الحادية عشرة اندفعت الى داخل فاريبيتيه مدام ريمسكايا وهي تنتحب وتلوي يديها . ارتبك فاسيلي ستيبانوفتش ارتباكاً شديداً ولم يدر ما ينصحها به . وفي منتصف الحادية عشرة حضرت الشرطة . وكان اول سؤال طرحته ، وهو سؤال معقول تماماً ، التالي :

– ما الذي يجري عندكم ، أيها المواطنون ؟ ما الأمر ؟

تراجع فريق الموظفين تاركاً فاسيلي ستيبانوفتش الشاحب والمضطرب في المقدمة . ولم يكن بد من تسمية الأشياء باسمائها ، والاعتراف بان ادارة «فاريبيتيه» ، ممثلة بمديرها العام ومديرها المالي ومديرها الاداري ، قد اختفت ولا يعرف مكانها ، وان عريف الحفلات نقل بعد حفلة امس الى مصحة نفسية ، وان حفلة الأمس كانت ، باختصار ، حفلة فضائح .

طلبوا من مدام ريمسكايا المنتحبة العودة الى البيت بعد ان هدؤوا من روعها قدر ما استطاعوا ، وابدوا اكثر ما ابدوا من الاهتمام بحديث عاملة النظافة عن الحالة التي وجدت فيها مكتب المدير المالي . وطلبوا من الموظفين التوجه الى اماكنهم والانصراف الى عملهم . وبعد قليل ظهر رجال التحقيق في مبنى فاريبيتيه يصحبهم كلب مرهف الاذنين قوي العضلات ذو عينين حادتي الذكاء ولون بلون رماد السيجارة . وسرت في موظفي «فاريبيتيه» همسات بان الكلب ليس سوى توزبوبين الشهير . وبالضبط كان توزبوبين . وبهت الجميع لتصرفاته . فما ان عدا الى مكتب المدير المالي حتى هر مكشرا عن انياب صفر مخيفة ، ثم تمدد على بطنه واخذ يزحف الى النافذة المحطمة وقد ارتسمت في عينيه امارات الغم والغضب في آن . وفجأة ، وبعد ان كبح خوفه ، وثب الى حافة النافذة ، واخذ يهر هريراً وحشياً وحانقاً وقد رفع سحنته الحادة الى الأعلى . لم يكن يريد ان يغادر النافذة ، كان يهر وينتفض ويتحفز للقفز الى اسفل .

اقتيد الكلب خارج المكتب وانطلق في الردهة ، حيث خرج منها عبر الباب الرئيسي الى الشارع قائداً المحققين وراءه الى



موقف سيارات الاجرة . وهناك اضاع الأثر الذي كان يقتفيه . بعد هذا اتخذ توزبوبين .

اقام المحققون في مكتب فارينوخا ، واخذوا يستدعون موظفي «فاريبيتيه» الذين شهدوا الأحداث التي جرت اثناء حفلة الأمس واحداً بعد الآخر . وينبغي القول انه كان على هيئة التحقيق ان تذلل في كل خطوة من خطواتها صعوبات غير متوقعة . وكان خيط الأحداث ينقطع من حين لآخر بين أيديها .

الاعلانات الصقت ؟ نعم ، الصقت . انما اثناء الليل الصقت اعلانات جديدة ، والآن لا اثر حتى لواحد منها . من اين ظهر الساحر نفسه ؟ لا يدري احد . لا بد ان اتفاقاً عقد معه اذن ؟

– لا بد من افتراض ذلك ، – اجاب فاسيلي ستيبانوفتش المضطرب .

– اذا كان هناك عقد ، فلا بد أن يمر على المحاسبة ، اليس كذلك ؟

– بكل تاكيد ، – اجاب فاسيلي ستيبانوفتش وهو مضطرب .

– اين العقد اذن ؟

– لا يوجد عقد ، – اجاب كبير المحاسبين وهو يبسط ما بين يديه وقد ازداد شحوباً وارتباكاً . وبالفعل لم يعثر في اضابير المحاسبة ولا لدى المدير المالي ولا لدى ليخودييف ولا لدى فارينوخا على اي اثر للعقد .

وما كنية هذا الساحر ؟ فاسيلي ستيبانوفتش لا يعرف كنيته ، فهو لم يحضر الحفلة يوم امس . والمراقبون لا يعرفون ، اما قاطعة التذاكر فقد قطبت حاجبيها ، قطبت حاجبيها ، وفكرت وفكرت ، ثم قالت اخيراً :

– فو . . . يبدو ان اسمه فولند .

ولعله ليس فولند ؟ ممكن الا يكون فولند . ربما كان فالند .

وتبين في مكتب الأجانب انهم لم يسمعوا هناك بأي ساحر اسمه فولند أو فالند .

واعلمهم الساعي كاربوف انه يبدو ان الساحر اياه نزل في

شقة ليخودييف . واسرعوا للتو بطبيعة الحال الى شقة ليخودييف فلم يعثروا على اي ساحر ، كما ان ليخودييف نفسه لم يكن موجوداً . والخادمة غرونيا لم تكن هي الاخرى موجودة ولا احد يعرف اين اختفت . ورئيس الجمعية نيكانور ايفانوفتش لم يكن موجوداً ، وبرولجنيف ايضاً غير موجود !

يقيناً ان ما يجري امر يتنافى واي منطق : اختفت ادارة المسرح ، وامس اقيمت حفلة غريبة فاضحة ، اما الذي اقامها والذي اوحى بها فلا يعرف عنهما شيء .

خلال ذلك كان النهـــار يقترب من منتصفه ، اي الوقت المفروض ان يفتح فيه شباك التذاكر . لكن هذا الموضوع لم يعد ، بطبيعة الحال وارداً على الاطلاق ! فقد عُلقت على ابواب «فاريبيتيه» قطعة ضخمة من الورق المقوى كتب عليها : «تلغى حفلة اليوم» . واخذ الاضطراب يسري في الطابـور ، بدءاً من راسه . لكنه رغم ذلك اخذ ينفرط ، ولما تمض ساعة تقريباً حتى لم يبق منه اثر في سادوفايـــا . وغادرت هيئة التحقيق لتواصل عملها في مكان آخر ، وصُرِف الموظفون الا المناوبين ، واُقفلت ابواب «فاريبيتيه» .

كان ينبغي على المحاسب فاسيلـي ستيبانوفتش ان يقوم بعملين عاجلين : اولاً ان يذهب الى لجنة العروض التمثيلية والترفيهية الخفيفة ليرفع اليها تقريراً عما حدث البارحة ، وثانياً ان يمضي الى الادارة المالية للجنة المذكورة ليسلمها حصيلة يوم امس اي (٢١٧١١) روبلاً .

صرّ فاسيلي ستيبانوفتش المجد والدقيق النقود في ورقة جرائد ولف الرزمة بخيط مصيص ودسهـا عميقاً في حقيبته ، وبوصفه موظفاً يحفظ التعليمات بشكل رائع لم يتوجه الى الباص او الترام ، بل الى موقف سيارات الأجرة .

ما ان رأى ثلاثة من السائقين هذا الراكب الذي يحث الخطا الى الموقف وهو يحمل حقيبة منتفخة ، حتى انطلقوا من امامه بسياراتهم فارغة وهم يتلفتون حولهم بعيون لا يدري لماذا كانت تقدح بالشر .

صعق المحاسب لهذا التصرف ، فوقف بعض الوقت مشدوهاً يفكر فيما يمكن ان يعنيه هذا .



وبعد نحو ثلاث دقائق وصلت سيارة خالية . وما ان رأى سائقها الراكب حتى لوى وجهه .

– السيارة خالية ؟ – سأل فاسيلي ستيبانوفتش بعد ان احّ باستغراب .

– ارني النقود ، – اجابه السائق بغيظ دون ان يرفـــع بصره اليه .

وتعاظمت دهشة فاسيلي ستيبانوفتش . ومع هذا فقد شد على حقيبته الثمينـــة تحت ابطه ، واخرج من حافظـــة نقوده تشيرفونتساً واراه السائق .

– لن اذهب ، – قال له السائق باختصار .

– العفو . . .

ولم يمهله السائق يكمل ، بل قاطعه قائلاً :

– هل لديك من فئة الثلاثة روبلات ؟

اخرج المحاسب الذي استبد به ذهول كامل قطعتين من فئة الثلاثة روبلات واراهما السائق .

– اصعد ، – صرخ هذا وخبط على مفتاح العداد بحيث كاد يحطمه . – هيا .

– هل افهـــم ان ليس لديك «فراطة» ؟ – سأل المحاسب بوجل .

– جيبي ملآن بالفراطة ! – جار السائق بينما انعكست في المرآة عيناه المحتقنتان بالدم . – انهـــا الحادثة الثالثة معي اليوم . وحدث مثلهـــا لآخرين . يصعد معي واحد ابن كلب ويعطيني تشيرفونتســـاً ، فاعيد له الباقي – اربعة روبلات وخمسين كوبيكاً . . . وينزل ، الوغـد ! وبعد خمس دقائق انظر فاذا التشيرفونتس عبارة عن ورقة من تلك التي تلصق على قناني نارزان ! – وهنا تفوه السائق بكلمات بذيئة لا يصح ايرادهـــا . – وآخر عند ساحة زوبوفسكايـــا . اعطاني تشيرفونتساً ، فارجعت له ثلاثة روبلات ونزل . بعدها مددت يدي الى صرة النقود فاذا بنحلة تخرج منها وتلسع اصبعي ! ياله . . . – (وهنا قذف السائق مرة اخرى بضع كلمات لا يصح ايرادها) ، – ولا وجود للتشيرفونتس ! البارحة في مسرح «فاريبيتيه» هذا (وهنا ايضا كلمات بذيئة لا يصح ايرادها) اقام

احد المشعوذين الأوباش حفلة بهذه التشيرفونتسات (وهنا ايضا كلمات من المستوى السابق) .

صعق المحاسب وانكمش على نفسه واتخذ وجهَ مَنْ يسمع بكلمة «فاريبيتيه» لأول مرة ، فيما كان يقول في نفسه : «يالها من امور . . .»

بعد أن وصل المحاسب الى حيث كان يجب أن يصل ، ودفع الحساب للسائق بسلام دخل المبنى واندفع في الممر الى مكتب رئيس القسم ، لكنه ادرك ، وهو لما يزل يمضي اليه ، انه اتى في وقت غير مناسب . فقد كانت جلبة لا يدري كنهها تسود دائرة العروض التمثيليـــة . ومرقت بجانب المحاسب ساعية بمنديلها المائل على قذالها وعينيها المحملقتين . هي تصيح ولا تدري لمن توجه صياحها :

– غير موجود ، غيـــر موجود ، غير موجود يا اعزائي ! الجاكيتة والبنطال هنا ، لكن لا شيء داخل الجاكيتة !

واختفت في احد الأبواب ، وسمعت اثرهـا اصوات اوانٍ تتحطم . وهرع من غرفة السكرتيرة المسؤول عن القطاع الاول في اللجنة ، وكان من معارف المحاسب ، لكنه كان في حالة لـم تمكنه من التعرف على المحاسب واختفى دون اثر .

بلغ المحاسب الذي هزه مـا راى وسمع غرفة السكرتيرة التي كانت بمثابة مدخل الى مكتب رئيس اللجنة ، وهنا صعق نهائياً .

فقد تناهى اليه من وراء باب المكتب المغلق صوت غاضب ، هو صوت بروخور بيتروفتش ، رئيس اللجنة ، دون شك . «اتراه يوبخ احداً مـا ؟» – فكر المحاسب المضطرب في سره والتفت فراى شيئاً آخر : كانت تستلقي على مقعد جلدي وثير مادةٌ ساقيها حتى وسط الغرفة تقريباً السكرتيرة الشخصية لبروخور بيتروفتش – الغادة الحسناء آنا ريتشاردوفنا وهي منخرطة في نحيب لا يتوقف وفي يدها منديل مبتل وراسها يميل على ظهر المقعد .

كانت ذقن آنا ريتشاردوفنا ملوثة كلها باحمر الشفاه ، وعلى خديها الدراقيين تنســـاح شآبيب سود من الطلاء الحائل اللون .



واذ رات آنا ريتشاردوفنا أن شخصاً ما دخل ، وثبت من مقعدها واندفعت الى المحاسب وتشبثت باطراف جاكيتته وراحت تهزه وتصرخ :

– الحمد للّه ! وُجِدَ على الأقـــل انسان شجاع واحد ! جميعهم هربوا ، جميعهم خانوا ! هيا بنا اليه فلست ادري ما افعل ! – وجرت المحاسب الى المكتب وهي لا تزال تنتحب .

فور ان ولـج المكتب ، سقطت المحفظة من يده وانقلبت الأفكار في راسه راساً على عقب . وينبغي القول : كان هناك ما يستحق ذلك .

كانت بذلة خالية تجلس الى مكتب ضخم عليه دواة ضخمة وتمر بريشة جافة غير مغموسة في الحبر على ورقة . كانت البذلة معقودة بربطة عنق ، ومن جيبها الأعلى يتدلى قلم حبر ، لكنه لـم يكن فوق ياقتها رقبة ولا راس ، كما لم تظهر من فتحتي الكمين ارساغ اليدين . كانت البذلة منهمكة في عملها دون ان تلاحظ نهائياً البلبلة والاضطراب السائدين حولها . واذ سمعت البذلة احدهم يدخل ، استلقت في مقعدها الى الوراء قليلاً ، وعلا فوق الياقة صوت بروخور بيتروفتش الأليف جـــداً الى اذن المحاسب :

– ما الأمر ؟ الم تقرؤوا على الباب اني لا أستقبل .

زعقت السكرتيرة الحسناء وهي تلوي يديها :

– رايتم ؟ رايتم ؟ غير موجود ! غير موجود ! اعيدوه ، اعيدوه !

وهنا مد احدهـــم راسه من الباب وتاوه وتراجع فوراً . احس المحاسب برعشـة تسري في رجليـــه فجلس على طرف الكرسي ، لكنه لم ينس ان يتناول حقيبته من الأرض . كانت آنا ريتشاردوفنـــا تقفز حول المحاسب وتشده من جاكيتتـه وتصرخ :

– كنت دائماً ، دائماً اوقفه حين ياخذ بالشتم مستعينـاً بالشياطين . وهاهم اولاء اعانوه تماماً ! – وهنا دنت الحسناء من المكتب عدواً ونادت بصوت رقيق شابته خنة بعد البكاء :

– بروشا * ! اين انت ؟

* اسم تصغير وتدليل من «بروخور» . **المترجم** .

– من يكون «بروشا» هذا بالنسبة لك ؟ – استفسرت الجاكيتة بتعالٍ وهي تغوص في مقعدها اعمق فاعمق .

– لـــم يعد يعرفني ! لـــم يعد يعرفني ! أتفهمون ؟ – وانخرطت السكرتيرة في النحيب ثانية .

– ارجو عدم الانتحاب في المكتب ، – قالت الجاكيتـــة المخططة السريعة الانفعال وقد أخذ الغضب يدب في صوتها ، وسحبت بكمها رزمة جديدة من الأوراق اليها بقصد وضع قرارات عليها كما كان واضحاً تماماً .

– لا ، لا استطيع ان ارى هذا ، لا ، لا استطيـع ! – صاحت آنا ريتشاردوفنا وعادت الى غرفة السكرتيرة وانطلـــق المحاسب في اثرها كالرصاصة .

– تصور ، كنت جالسة ، – قالت آنا ريتشاردوفنا تروي ما جرى وهي تنتفض من الاضطراب وتتشبث بكم المحاسب من جديد ، – فاذا بقط يدخل . قط اسود مكتنز كجاموس النهر . صحت فيه طبعاً «بس !» خرج القط ، ودخل بدلاً منه شخص بدين بسحنة تشبه سحنة القط أيضاً وقال : «ما هذا ايتهـــا المواطنة ، كيف تصرخين «بس» في وجه المراجعين ؟» ومضى الى بروخور بيتروفتش مباشرة ، وأنا في اثره بطبيعة الحال اصرخ : «هل جننت ؟» . لكنه ، الوقح ، لم يبال بل دخل عليه وجلس على المقعد قبالته ! هكذا . . . بروخور بيتروفتش انسان في غاية الطيبة لكنه عصبي . ثار ! لا اعترض . انسان عصبي ، يعمل كالبغل . ثارت ثائرتـــه : «لماذا تتسلل الى هنـــا دون استئذان ؟» ، وذاك الوقـــح ، تصوروا ، ارتمى على الكرسي وقال له وهو يبتســـم : «جئت اتحدث اليك في أمر صغير» . وثارت ثائرة بروخور بيتروفتش من جديد : «أنا مشغول» . امـــا ذاك ، تصوروا فقط ، فقد اجابـــه : «لست مشغولاً بشيء . . .» آ ؟ وهنا بالطبع نفد صبر بروخور بيتروفتش فصرخ : «ما هذا ! اخرجوه ، لتأخذني الشياطين !» تصوروا : ابتسم ذاك وقال : «لتأخذك الشياطين ؟ لا بأس ، هذا ممكن !» وهوب ، قبل أن تنطلق صرختي ، نظرت فاذا بصاحب السحنة التي كسحنة القط قد اختفى ، والجاكيتة . . . تج . . تج . .



تجلس . . هيبي ! – عوت آنا ريتشاردوفنا وقد مطت فمهـا الذي فقد كل ملامحه .

وبعد ان شبعت نحيباً استردت انفاسها لكنها اخذت تتفوه باشياء غير مترابطة :

– تكتب وتكتب وتكتب ! شيء يجنن ! بالهاتف تتكلم ! البذلة ! جميعهم هربوا كالأرانب !

ولم يفعل المحاسب شيئاً سوى انه كان يقف ويرتجف . لكن القدر انقذه ، اذ دخل غرفة السكرتيرة بمشية هادئة لأناس يؤدون عملاً اثنان من رجال الشرطة . وما ان رأتهما الحسناء حتى انخرطت في نحيب أشد واعلى وراحت تلوّح بيدها باتجاه باب المكتب .

– هيا بنـــا نكف عن النحيب ، ايتها المواطنة ، – قال الشرطي الأول بهدوء . اما المحاسب فوثب من غرفة السكرتيرة ، بعد أن شعر انه اصبح انساناً زائداً هنا ، وفي دقيقة كان في الهواء الطلق . احس بما يشبه مجرى هواء في رأسه ، وبطنين كما في قسطل . وفي هذا الطنين كان يتردد بعض من روايات المراقبين في المسرح عن قط البارحة الذي اشترك في الحفلة . «اي . ي . ي ! ترى أليس هذا قطنا ؟»

ولمّا لم يخرج فاسيلي ستيبانوفتش النزيـــه بنتيجة من حضوره الى اللجنة ، قرر الذهـــاب الى فرعها الكائن في زقاق فاغانكوفسكي . ولكي يهدئ من روعه قليلاً قطع الطريق اليه على قدميه .

كان فرع المدينة للعروض التمثيلية في دار منعزلة تقشر طلاؤها بفعل الزمن منزوية في عمق فناء ، وكان مشهوراً باعمدة بهوه المنحوتة من الصخر الأرجواني .

لكن لم تكن الاعمدة هي التي اذهلت اليوم زوار الفرع ، بل ما كان يجري تحتها .

كان بعض الزوار يقفون مبهوتين وهم يتأملون شابة تجلس الى طاولة عليها كتب خاصـــة بالتمثيليات وهي تبكي . كانت الشابة هي التي تقوم ببيع هذه الكتب ، لكنهـــا ، في اللحظة الراهنة ، لم تكن تعرض على احد شيئاً منها ، بل كانت تعرض عن الاجابة على الاسئلة المفعمة بالتعاطف الموجهة اليها ، في حين

كان يدوي من فوق ومن تحت ومن الجوانب ومن كل أقسام الفرع رنين هاتف ينطلق على الأقل من عشرين جهازاً تكاد «حناجرها» تتمزق .

ذرفت الفتاة قليلاً من الدمع ثم ارتعدت فجأة وصرخت بصوت هستيري :

– مرة ثانية ! – وانطلقت تغني فجأة بصوت سوبرانو راعش :

بحر مجيد ، بايكال المقدس *

لوح الساعي الذي لاح على الدرج لأحدهم بقبضته متوعداً ، وانشد مع الفتاة بصوت جهوري كاب غير رخيم :

المجد للقارب برميل الاسماك ! . .

وانضمت الى صوت الساعي أصوات أخرى بعيدة ، وتضخمت الجوقة واخيراً هدرت الأغنية في كل زوايا الفرع . ومن اقرب غرفة ، الغرفة رقم ٦ حيث قسم الحسابات والتدقيق ، ظهر على غيره من الأصوات صوت من الطبقة الثمانية قوي ذو بحة . وكان يرافق الجوقة طقطقة متعاظمة من أجهزة الهاتف . كان الساعي يزعق على الدرج :

ايه ريح الشمال . . . حركي الامواج . . .

كانت الدموع تنهمر من عيني الفتاة وكانت تحاول العض على نواجذها ، لكن فمها كان ينفتح من تلقاء نفسه ، وكانت تغني بصوت ثماني الطبقات أعلى من الساعي :

ما زالت المسافة قليلة !

---

* اغنية روسية قديمة عن السجين الشاب الذي هرب من سجنه . **المترجم** .



وما اذهل زوار الفرع الصامتين أن اعضاء الجوقة المنتشرين في اماكن مختلفة كانوا ينشدون بانسجام كبير وكان الجوقة كلها لا ترفع طرفها عن قائد غير مرئي .

وكان المارة في زقاق فاغانكوفسكي يتوقفون قرب سياج الفناء دهشين من المرح السائد في الفرع .

ما ان بلغ المقطع الأول نهايته ، حتى سكت الغناء فجأة وكأنما ، مرة أخرى ، باشارة من عصا قائد الجوقة . أطلق الساعي شتيمة خافتة واختفى . وهنا انفتح الباب الرئيسي وبان فيه مواطن في معطف صيفي تتدلى تحته أذيال رداء أبيض ومعه شرطي .

– تصرف ، يادكتور ، أتوسل اليك ، – صاحت الفتاة بصوت هستيري .

ظهر سكرتير الفرع على الدرج وقال بصوت متلعثم وهو يتحرق حياء وارتباكاً على ما يبدو :

– يظهر ، يادكتور ، ان عندنا حالة تنويم مغناطيسي جماعي . . . وعلى هذا فمن الضروري . . . – ولم يكمل جملته اذ اخذ يغص بكلماته ، وفجأة اخذ يغني بصوت تينور :

في المنافي البعيدة . . .

– احمق ! – صرخت الفتاة لكنها لم توضح الشخص المقصود من شتيمتها ، واخذت بدلاً من ذلك تدندن لحناً كأنما كان شخص ما يخرجه من فمها عنوة ، وارتفع صوتها باغنية السجين الشاب .

– تمالك نفسك ! كف عن الغناء ! – قال الدكتور موجهاً كلامه الى السكرتير .

كان كل شيء يدل على ان السكرتير نفسه مستعد لبذل أي شيء على أن يتوقف عن الغناء ، لكنه لم يستطع مع هذا التوقف وحمل مع الجوقة الى اسماع المارة في الزقاق بشرى ان الوحش المفترس لم يمسه ، ورصاص القناصة لم يدركه في الادغال .

ما ان انتهى المقطع حتى كانت الفتاة أول من تناولها الدكتور

جرعة من الوليريان ثم هرع اثر السكرتير يسقي الآخرين .

– العفو ، ايتها المواطنة ، – توجه فاسيلي ستيبانوفتش الى الفتاة يسالها فجاة ، – الم يمر عليكم قط اسود ؟

– اى قط هذا ؟ – قالت الفتاة في حنق ، – عندنا في الفرع حمار ، حمار ! – واستطردت : – ليسمعني ! ساروي لك كل شيء .

وبالفعل روت كل ما حدث وعرف من كلامها ان رئيس فرع المدينة «الذى «خرب» العروض الترفيهية الخفيفة» (على حد قول الفتاة) كان يعاني من هوس تنظيم مختلف انواع الحلقات .

– كان يضلل المسؤولين ! – جارت الفتاة .

وقد تمكن خلال عام من تنظيم حلقة دراسة عن ليرمنتوف وحلقة شطرنج وداما ، وكرة طاولة وحلقة فروسية . ومع اقتراب الصيف اخذ يهدد بتنظيم حلقة تجديف في المياه الحلوة ، وحلقة تسلق جبال .

واليوم بالذات ، في استراحة الغداء ، دخل علينا . . .

– كان يتابط ذراع واحد ابن كلب لا ندري من اين جاء به ، – قالت الفتاة ، – شخص في سروال ذي مربعات ونظارة انفية متصدعة و . . . سحنة فظيعة جداً !

وعلى الفور (والحديث لا زال للفتاة) قدمه لكل الذين كانوا يتناولون غداءهم في مطعم الفرع على انه اختصاصي مرموق في تنظيم حلقات الغناء الجماعي .

تجهمت وجوه متسلقي الجبال العتيدين ، لكن رئيس الفرع اسرع على الفور يناشد الجميع عدم الاستسلام لليأس والقنوط ، اما الاختصاصي فاخذ يمزح وينكت ويؤكد شافعاً تاكيداته باغلظ الايمان انه لن ياخذ من وقتهم للغناء الا اقل القليل ، وان الفائدة التي سيجنونها منه ، بالمناسبة ، لا تقدر بثمن .

وبطبيعة الحال (والرواية لا زالت للفتاة) كان فانوف وكوسارتشوك ، وهما اشهر متزلقين في الفرع ، اول من هب من مكانه واعلنا انهما يسجلان اسميهما في الحلقة . وهنا ايقن الموظفون الآخرون ان لا مفر من الغناء ، وبالتالي اضطروا الى تسجيل اسمائهم . وتقرر الغناء في استراحة الغداء ، لان الجميع كانوا مشغولين في الأوقات الاخرى بليرمنتوف والداما . ورغبة



من رئيس الفرع في ان يكون القدوة اعلن انه يملك صوت تينور . ومن هنا بدا كل شيء وكانه حلم فظيع . فقد صرخ اختصاصي الغناء الجماعي ذو المربعات :

– دو – مي – صول – دو ! – وسحب اكثر الموجودين حياءً من وراء الخزن التي حاولوا التملص من الغناء بالاختفاء وراءها ، وقال لكوسارتشوك ان لديه (اي لدى كوسارتشوك) حاسة سمعية لاتخطىء ، وانّ واشتكى ورجاهم احترام قائد كورس قديم ، ونقر بالرنانة على اصابعهم وهو يتوسل اليهم ان ينشدوا «البحر المجيد» بصوت قوي .

ودوت اصواتهم . دوت بشكل رائع . وبالفعل كان ذو المربعات يعرف عمله حق المعرفة . وانتهينا من المقطع الأول . وهنا قال قائد الكورس يعتذر : «خارج لدقيقة !» و. . . اختفى . اعتقدنا انه ، بالفعل ، عائد بعد دقيقة . لكن مرّت عشر دقائق ولم يعد . وغمرت الفرحة قلوب الموظفين – لقد هرب .

وفجاة ، لست ادري كيف ، انشدنا المقطع الثاني من تلقاء انفسنا . وكان يقودنا كوسارتشوك . قد لا يكون لكوسارتشوك حاسة سمعية لا تخطىء ، لكنه ذو صوت تينور عال لطيف نوعاً ما . انتهينا من المقطع الثاني ، وقائد الكورس لمّا يعد ! واخذنا نتحرك عائدين الى اماكننا ، لكن ما ان جلسنا حتى اخذنا ننشد على كره منا . لم يعد هناك ما يوقفنا . نصمت نحو ثلاث دقائق ثم نعود الى الانشاد ، ثم نصمت لنعود اليه ! هنا ظننا ان مصيبة حلت بنا . اما رئيس الفرع فمن خزيه اغلق على نفسه باب مكتبه .

وهنا انقطع حديث الفتاة ، اذ فقدت جرعة الوليريان مفعولها .

وبعد ربع ساعة كانت ثلاث شاحنات تقترب من السياج الذي في زقاق فاغانكوفسكي وتحمل كل موظفي الفرع وفي مقدمتهم رئيسه .

وما ان اجتازت الشاحنة الاولى البوابة الى الزقاق وهي تتمايل حتى فتح الموظفون الذين كانوا يقفون في صندوقها ممسكين بعضهم باكتاف بعض افواههم ودوى الزقاق باغنية شائعة . وتلقفت الأغنية الشاحنة الثانية ثم الثالثة . وهكذا

انطلقت الشاحنات . وكان المارة المسرعون الى شؤونهم يلقون على الشاحنات مجرد نظرة عابرة لا تشي بأي دهشة ظناً منهم انها رحلة الى ضواحي المدينة . وبالفعل كانت الشاحنات تتجه الى ضاحية المدينة ، ولكن ليس في رحلة ، بل الى مستشفى البروفيسور سترافنسكي .

وبعد نصف ساعة وصل المحاسب الذي فقد صوابه تماماً الى القسم المالي التابع لهيئة العروض التمثيلية على أمل أن يتخلص نهائياً من الأموال العامة التي يحملها . وبدأ القى المحاسب ، الذي علمته التجربة وحنكته ، نظرة حذرة الى القاعة المتطاولة حيث جلس الموظفون وراء الواح زجاجية رُبد عليها كتابات ذهبية ، فلم يكتشف فيها اي علامة من علامات القلق او الفوضى . كان الهدوء يشملها كما يفترض أن يشمل أي دائرة محترمة .

ادخل فاسيلي ستيبانوفتش رأسه في كوة كتب عليها : «الاستلام» وحيّا موظفاً يراه لأول مرة وطلب منه باحترام دفتر الايرادات .

– وما شأنك به ؟ – سأله الموظف الذي في الكوة .

بهت المحاسب .

– اريد ان أسلم . انا من «فاريبيتيه» .

– دقيقة ، – اجابه الموظف وسد على الفور الثقب الذي في اللوح الزجاجي بشبكة .

«غريبة !» – قال المحاسب في نفسه . وكان عجبه جد طبيعي . فلأول مرة في حياته تصادفه حالة كهذه . فمن المعروف لنا جميعاً مدى صعوبة تسلم النقود ، اذ يمكن دائماً ان تُخلق لذلك عراقيل ومعوقات . لكنه لم تقع للمحاسب فاسيلي ستيبانوفتش على مدى ثلاثين سنة من حياته العملية حادثة واحدة امتنع فيها فرد أو شخص اعتباري عن قبض نقود منه .

وانزاحت الشبكة اخيراً والتصق المحاسب بالكوة من جديد .

– هل تحمل مبلغاً كبيراً ؟ – سأل الموظف .

– واحد وعشرون الفاً وسبعمائة واحد عشر روبلاً .

– أوه ! – اجابه الموظف بنبرة لأمرٍ ما ساخرة ، وناوله صحيفة خضراء .



ولمّا كان المحاسب يعرف جيداً الاصول المتبعة فقد عبأ الصحيفة الخضراء في طرفة عين ، واخذ يفك الخيط عن الرزمة . وما ان فضها حتى زاغ بصره وخار خوار الموجوع .

واخذت تبرق أمام عينيه قطع النقود الأجنبية سراعاً وكان فيها رزم من الدولارات الكندية والجنيهات الانكليزية والغولدينات الهولندية واللاتات اللاتفية والكرونات الاستونية . . .

– هاهو ذا واحد من نصابي فاريبيتيه ، – سمع صوت غاضب فوق راس المحاسب الذي انعقد لسانه . وللحال ألقى القبض على فاسيلي ستيبانوفتش .

## الفصل الثامن عشر

## الزوار المناحيس

في الوقت الذي كان فيه المحاسب المجد ينطلق في سيارة الأجرة للعثور على البذلة التي تكتب بنفسها ، كان بين النازلين من العربة الوثيرة ذات المقاعد المحجوزة رقم ٩ في قطار كييف الواصل الى موسكو راكب ذو مظهر لائق يحمل حقيبة ليفية صغيرة في يده . ولم يكن هذا الراكب سوى عم المرحوم برليوز مكسيميليان اندرييفتش بوبلافسكي ، وهو اختصاصي في التخطيط الاقتصادي يعيش في كييف في شارع اينستيتوتسكايا سابقاً . وسبب قدوم مكسيميليان اندرييفتش الى موسكو برقية تلقاها في ساعة متأخرة من مساء أول البارحة وهذا نصها :

«دهست' للتو بالترام في بتريرشيي . الدفن الجمعة الثالثة ظهراً . احضر . برليوز» .

كان مكسيميليان اندرييفتش يعد وبحق واحداً من اذكى اذكياء كييف . لكن من شأن برقية كهذه أن تضع حتى أذكى الأذكياء في مأزق . فحين يبرق شخص انه دهس ، فمعنى ذلك انه لم يقتل . ولكن ما شأن الدفن هنا ؟ ام تراه في حالة خطيرة

ويتوقع الموت ؟ هذا ممكن ، لكن هذه الدقة في غاية الغرابة – فمن أين له ، مع هذا ، أن يعرف انه سيدفن يوم الجمعة وفي الساعة الثالثة ظهراً ؟ برقية عجيبة !

لكن الأذكياء ليسوا اذكياء الا ليحلوا الأمور المعقدة . الأمر بسيط . وقع خطأ ونقلت البرقية مشوهة . كلمة «أنا» * جاءت هنا خطأ ، دون شك ، من برقية اخرى . وكلمة برليوز التي جاءت في آخر البرقية كان يجب أن تكون في مطلعها . ومع هذا التصحيح يصبح معنى البرقية واضحاً وان كان لا يزال مأساوياً .

ما ان هدأت سورة الحزن التي انتابت زوجة مكسيميليان اندرييفتش ، حتى أخذ هذا يجهز نفسه للسفر الى موسكو .

وينبغي علينا هنا ان نكشف سراً من أسرار مكسيميليان اندرييفتش . لا شك في انه حزن على ابن أخ زوجته الذي مات في شرخ شبابه . لكنه كانسان عملي كان يدرك بطبيعة الحال أن ليس هناك ما يدعوه بشكل خاص لحضور الجنازة . ومع هذا كان مكسيميليان اندرييفتش يتعجل السفر الى موسكو . ففيم الأمر اذن ؟ أمر واحد – الشقة . شقة في موسكو ؟ هذا أمر خطير . لسنا ندري السبب ، لكن كييف لم تكن تعجب مكسيميليان اندرييفتش . وراحت فكرة الانتقال الى موسكو تؤرقه في الفترة الأخيرة حتى صار النوم يجفو عينيه الا لماماً . لم تعد تبهج نفسه فيوض نهر الدنيبر في الربيع والماء يغمر الجزر عند الضفة الواطئة ويمتزج بالأفق . ولم يعد يبهجه ذلك المنظر الخلاب الذي ينكشف أمام العين من قاعدة تمثال الأمير فلاديمير . ولم تعد تبهجه بقع نور الشمس المتراقصة في الربيع على دروب رابية فلاديمير المرصوفة بالطوب . لم يعد يريد شيئاً من هذا كله ، بل بات يريد شيئاً واحداً – الانتقال الى موسكو .

ولم تسفر الاعلانات في الصحف عن الرغبة في استبدال شقة في شارع انستيوتسكايا في كييف بشقة أصغر مساحة في موسكو

---

* والمقصود بها تاء نائب الفاعل في «دهست» وموقعها في اول البرقية في نصها الروسي فيصبح النص بعد هذا التعديل : برليوز دهس . . الخ . **المترجم** .



عن اى نتيجة . لم يكن هناك راغبون ، واذا وُجد بعضهم أحياناً كانت شروطه على قدر مريع من انعدام الذمة .

هزت البرقية مكسيميليان اندرييفتش هزاً . كانت فرصة من الاثم ان يفوّتها . والناس العمليون يعرفون ان مثل هذه الفرص لا تتكرر .

وباختصار كان عليه أن يعرف كيف يرث شقة ابن أخ زوجته في سادوفايا مهما كان حجم الصعوبات . نعم ، كان هذا أمراً معقداً ، في غاية التعقيد ، انما عليه ان يتجاوز كل هذه التعقيدات . وكان مكسيميليان اندرييفتش المجرب المحنك يعرف ان أول خطوة يتحتم عليه ان يخطوها هي التالية : أن يسجل مهما كلفه الأمر ، ولو مؤقتاً ، ثلاثا من غرف شقة المرحوم باسمه .

وظهر يوم الجمعة دخل مكسيميليان اندرييفتش باب الغرفة التي تستخدم مقراً لادارة الجمعية السكنية في البناية رقم ٣٠٢=مكرر الكائنة في شارع سادوفايا في موسكو .

في الغرفة الضيقة التي تتدلى على حائطها لافتة اعلانية قديمة تمثل في بضع لوحات صغيرة طرق انعاش الغرقى ، كان يجلس وراء طاولة خشبية وحده تماماً شخص متوسط العمر غير حليق ذو عينين يشيع فيهما القلق .

– هل بوسعي مقابلة رئيس الادارة ؟– استفسر المخطط الاقتصادي باحترام وهو يرفع قبعته ويضع حقيبته على كرسي فاض .

هذا السؤال البريء ، فيما بدا ، ازعج لأمر ما الجالس ، حتى ان تعابير وجهه تغيرت . فغمغم ، وهو ينظر بعينيه القلقتين شزراً ، بما معناه أن الرئيس غير موجود .

– هل هو في شقته ؟ – سأل بوبلافسكي ، – لدي أمر عاجل جداً .

واجابه الجالس ثانية بكلام غير مترابط . لكن كان بامكان المرء ان يحزر أن الرئيس غير موجود في شقته .

– ومتى سيحضر ؟

لم يحر الجالس جواباً بل نظر من النافذة بشيء من الكآبة .

– «آ» – قال بوبلافسكي الذكي لنفسه واستفسر عن السكرتير .

احمر وجه الرجل الغريب الجالس وراء الطاولة من التوتر وقال بكلام غير مفهوم هذه المرة ايضاً ما معناه ان السكرتير غير موجود ايضاً . . . وانه لا يعرف متى سيحضر . . . وان السكرتير مريض . . .

«آ ! . .» – قال بوبلافسكي لنفسه ، – ولكن لا بد ان يكون احد في الادارة !

– انا ، – رد عليه الرجل بصوت خفيض .

وهنا قال بوبلافسكي بصوت مفعم بالمهابة :

– الموضوع هو التالي : اني الوارث الوحيد لابن اخ زوجتي المرحوم برليوز الذي قتل ، كما تعرفون ، في بتريرشيي ، ومن واجبي حسب القانون ان استلم تركته التي هي عبارة عن شقتنا رقم ٥٠ . . .

– لا علم لي بالموضوع ، ايها الرفيق ، – قاطعه الجالس بصوت يفيض بالملل .

– العفو ، – قال له بوبلافسكي بصوت رنان ، – انت عضو في الادارة ومن واجبك . . .

وهنا دخل الغرفة مواطن شحب وجه الجالس وراء الطاولة لرؤيته .

– عضو الادارة بياتناجكو ؟ – سأل الداخل الجالس .

– انا هو ، أجاب الجالس بصوت يكاد لا يسمع .

اسر الداخل للجالس بشيء ما في اذنه ، فنهض هذا عن كرسيه وقد بلغ به الاضطراب اشده . وفي ثوان لم يبق في غرفة الادارة الخالية الا بوبلافسكي وحده .

«ايه ، اي تعقيدات هذه ! أكان من الواجب حقاً ان يخرجوا كلهم . . .» – قال بوبلافسكي لنفسه في حسرة وهو يجتاز الفناء المفروش بالأسفلت حاثاً الخطا الى الشقة رقم ٥٠ .

ما ان رن المخطط الاقتصادي جرس الباب حتى فتح ، وولج مكسيميليان اندرييفتش الى مدخل نصف معتم . ادهشه بعض الشيء انه لم يعرف من فتح له الباب ، اذ لم يكن في المدخل الا قط اسود هائل الحجم يجلس على كرسي .



تنحنح مكسيميليان اندرييفتش وضرب الأرض بقدميه ضرباً خفيفاً . اذاك فتح باب المكتب وخرج منه كوروفييف الى المدخل . حياه مكسيميليان اندرييفتش بادب لكن بوقار وقال له :

– كنيتي بوبلافسكي . وانا عم . . .

ولم يتسع له الوقت ليكمل ، فقد سحب كوروفييف من جيبه بسرعة منديلاً وسخاً ودس فيه انفه واخذ يبكي .

– . . . المرحوم برليوز . . .

– واضح ، واضح ، – قاطعه كوروفييف وهو ينزع المنديل عن وجهه . – ما ان لمحتك حتى حزرت انك هو ! – وهنا اخذ يختلج من شدة بكائه ويولول : – مصيبة ! مصيبة ! آ ! ما هذا الذي يحدث ؟ آ ؟

– الترام دهسه ؟ – سأل بوبلافسكي همساً .

– واي دهس ، – صرخ كوروفييف وانهمرت الدموع من تحت نظارته الأنفية ، – واي دهس ! لقد شهدت الحادثة . هل تصدق ؟ ! في لحظة كان راسه يتدحرج جانباً ! ورجله اليمنى قطعتين ! ورجله اليسرى قطعتين ! هذا الذي اوصلتنا اليه هذه الترامات ! – واذ لم يعد بوسعه تمالك نفسه على ما يظهر ، اسند جبينه الى الخائط قرب المرآة وراح جسمه ينتفض من شدة نحيبه .

ذهل عم برليوز ذهولاً صادقاً من تصرف هذا الشخص الغريب . «ويقال ايضاً انه لا يوجد في زمننا اناس رقيقو القلب !» – قال عم برليوز في سره وقد احس ان عينيه اخذتا تحكانه . الا ان سحابة قاتمة اناخت في الوقت نفسه على قلبه ، وتلوت في راسه على الفور كالحية فكرة : ترى الم يسبقه هذا الانسان الرقيق القلب ، المخلص الى تسجيل شقة المرحوم باسمه ، او لم يحدث مثل هذا كثيراً من قبل !

– العفو ، هل كنت صديق فقيدنا ميشا ؟ – سأل بوبلافسكي وهو يمسح بطرف كمه عينه اليسرى الجافة ، بينما كان يدرس باليمنى كوروفييف الذي هده الحزن . لكن هذا انفجر في نحيب تعذر معه على بوبلافسكي ان يفهم منه سوى كلمتين اثنتين تتكرران «دهس . . . وقطعتين !» . ولما شبع كوروفييف نحيباً رفع راسه اخيراً عن الخائط وتمتم :

– لا ، لم اعد احتمل ! ساذهب وآخذ ثلاثمائة نقطة من الوليريان ! – واردف بعد ان ادار الى بوبلافسكي وجهاً مبللاً كله بالدموع : – هذه هي الترامات !

– العفو ، لكن الست من ابرق لي – سأل مكسيميليان اندرييفتش وهو يكد ذهنه في جهد مضن لمعرفة من عساه يكون هذا البكاءة العجيب .

– هو ! – اجاب كوروفييف واشار باصبعه الى القط .

حملق بوبلافسكي وفي ظنه انه اخطأ السمع .

وتابع كوروفييف وهو ينخر :

– لا ، لم اعد احتمل . . . ما ان اتذكر ما حدث : عجلة الترام التي تمشي على قدمه ، العجلة الواحدة بعشر بودات تقريباً . . . وصوت العظم يتكسر ! لا ، لم تعد فيّ قوة على التحمل . انا ذاهب استلقي في سريري لعل النوم ينسيني نفسي قليلاً ، – واختفى من المدخل .

واما القط فتململ وقفز من الكرسي وانتصب على قائمتيه الخلفيتين ووضع يده على خاصرته وفغر شدقه وقال :

– نعم ، انا الذي ارسلت البرقية . ماذا تريد ؟

شعر مكسيميليان اندرييفتش على الفور براسه يدور ، ويديه ورجليه تشل ، فسقطت الحقيبة من يده وجلس على الكرسي قبالة القط .

– يبدو اني اسالك بلغة روسية ، – قال القط بصوت جاف :

– ماذا تريد ؟

لكن بوبلافسكي لم يجر جواباً .

– هويتك ! – وتوعّد القط ومد قائمته المنتفخة .

استل بوبلافسكي هويته من جيبه وكانها خنجر وهو لا يعي ولا يرى شيئاً سوى الشرارتين المشتعلتين في عيني القط . تناول القط نظارة ذات اطار اسود غليظ من الطاولة تحت المرآة ووضعها على سحنته مما جعله أكثر مهابة ، وانتزع الهوية من يد بوبلافسكي التي كانت تنط نطاً .

«ترى هل سيغمى على ام لا ؟» – فكر بوبلافسكي في نفسه . ومن بعيد كان يتناهى اليه نشيج كوروفييف ، وكان



المدخل يعبق برائحة الأثير والوليريان وبرائحة كريهة غريبة تبعث على الغثيان .

– ما القسم الذي اصدر هذه الوثيقة ؟ – سأل القط وهو يحدق في الورقة . ولم يأته جواب .

– القسم ٤١٢ ، – قال القط لنفسه وهو يمسح بقائمته على الهوية التي كان يحملها مقلوبة ، – اي طبعاً ! أعرف هذا القسم ! هناك يعطون هويات لكل من هب ودب ! أنا ، على سبيل المثال ، ما كنت لأعطي شخصاً مثلك هوية ! ما كنت لاعطيه مهما كان الأمر ! يكفي أن ألقي على وجهك نظرة حتى ارفض على الفور اعطاءك هوية ! – وهنا بلغ الاستياء بالقط حداً جعله يقذف الهوية على الأرض . ثم اردف بصوت رسمي يقول :

– حضورك الجنازة ملغى . كلف نفسك العودة الى مقر اقامتك .

– وزار باتجاه الباب : – ازازيلو !

هرع الى المدخل على صوت ندائه شخص اصهب ضئيل الحجم يعرج ، ويشد جسمه تريكو اسود ، ويلوح وراء سيره الجلدي خنجر ، له ناب اصفر وغشاوة على عينه اليسرى .

احس بوبلافسكي انه يكاد يختنق من قلة الهواء ، فنهض عن كرسيه وتراجع وهو يضع يده على قلبه .

– ودعه ياازازيلو ! – قال القط بأمره وخرج من المدخل .

وقال الداخل بصوت أخن خافت :

– بوبلافسكي ، آمل ان يكون كل شيء بات مفهوماً الآن !

هز بوبلافسكي راسه .

وتابع ازازيلو كلامه :

– عد فوراً الى كييف وابق هناك بلا حس ولا حركة ، وانزع من مخك اي فكرة عن شقة في موسكو . واضح ؟

هذا الرجل الصغير الذي بعث الرعب القاتل في قلب بوبلافسكي بنابه وخنجره وعينه العوراء لم يكن يتجاوز بطوله كتف الاقتصادي ، لكنه كان يتصرف بقوة ومهارة ونظام .

كان اول ما فعله انه رفع الهوية عن الأرض ، وناولها مكسيميليان اندرييفتش ، فاخذها هذا بيد ميتة . ثم رفع المسمى ازازيلو الحقيبة بيد ، وفتح الباب باخرى ، وتابط

ذراع عم برليوز ومضى به الى بسطة الدرج . استند بوبلافسكي الى الجدار . وبدون اي مفتاح فتح ازازيلو الحقيبة واخرج منها دجاجة مقلية هائلة برجل واحدة ملفوفة بجريدة تفشى فيها الزيت ووضعها على البسطة . ثم سحب زوجين من الملابس الداخلية وسير حلاقة وكتيباً وحافظة وقذف هذا كله ما عدا الدجاجة بقدمه في دورة السلم وطارت وراءه الحقيبة المفرغة التي سمع دويها وهي ترتطم بالارض وينخلع ، فيما بدا من الصوت الذي دوى ، غطاؤها .

ثم امسك اللص الاصهب الدجاجة من رجلها وهوى بها من جانبها المفلطح بقوة مريعة على رقبة بوبلافسكي بحيث انفصل جسمها وبقيت رجلها في يد ازازيلو . كل شيء اختلط وتبلبل في بيت اوبلونسكي ، كما قال بحق الكاتب المشهور ليف تولستوي . * وهذا بالضبط ما كان سيقوله في هذه الحالة . نعم ! كل شيء اختلط وتبلبل في عيني بوبلافسكي . لمعت شرارة طويلة امام عينيه ثم استحالت افعى بلون الحداد اطفأت للحظة نور هذا اليوم الايارى – وطار بوبلافسكي يتدحرج على الدرج وهو يمسك هويته بيده . وبلغ الدورة فحطم برجله زجاج النافذة في البسطة التالية واستوى جالساً على الدرجة . وقفزت الدجاجة التي فقدت رجليها حذاءه وسقطت في بئر السلم . وفي طرفة عين اقتفر ازازيلو الذي ظل واقفاً في اعلى الدرج رجل الدجاجة ، ودس عظمتها في جيب سترته التريكو الجانبي وعاد الى الشقة واغلق الباب وراءه بجلبة . في هذا الوقت اخذت تسمع في الأسفل خطوات تصعد الدرج بحذر .

عدا بوبلافسكي دورة اخرى وجلس على ديوان خشبي في البسطة والتقط انفاسه .

توقف قرب بوبلافسكي رجل مسن ذو جسم مفرط في ضآلته ووجه خارق في حزنه ، يرتدي بذلة حريرية قديمة ويضع قبعة قاسية من القش لها شريطة خضراء ، وسأله بصوت حزين :

---

* السطر الاول من رواية «آنا كارينينا» لليف تولستوي . **المترجم** .



– هل تسمح لي ان اسالك ايها المواطن اين الشقة رقم ٥٠ ؟

– في الاعلى ، – اجابه بوبلافسكي بصوت متقطع .

– اشكرك عميق الشكر ، – اجاب الرجل بنفس الصوت الحزين ، ومضى يصعد الى الاعلى . اما بوبلافسكي فهب من مكانه وعدا يهبط الدرج .

وهنا يثور سؤال : الى الشرطة اسرع مكسيميليان اندرييفتش يشكو هؤلاء الاشقياء الذين اعتدوا عليه هذا الاعتداء الوحشي في وضح النهار ؟ لا ، ابداً ، على الاطلاق – هذا امر بوسعنا تاكيده بكل ثقة . ان تدخل قسم شرطة وتقول لهم ان قطا يضع نظارة تصفح الآن بطاقتي الشخصية ، وان شخصاً يلبس تريكو ويحمل خنجراً . . . لا ، ايها المواطنون ، مكسيميليان اندرييفتش كان بالفعل انساناً ذكياً !

راى مكسيميليان ، وقد بات الآن في اسفل الدرج ، باباً بمحاذاة المخرج يؤدي الى غرفة صغيرة وكان زجاج الباب مكسوراً . خبا بوبلافسكي الهوية في جيبه وتلفت حوله علّه يرى اشياءه المقذوفة ، لكن لم يعثر لها على اثر . ودهش بوبلافسكي نفسه لضآلة ما اصابه من الغم لفقدانها . فقد كانت تشغل باله الآن فكرة اخرى شائقة ومغرية وهي ان يتاكد بواسطة هذا الرجل مرة اخرى مما يدور في هذه الشقة الملعونة . وبالفعل : بما ان الرجل سال عن الشقة فمعناه انه ذاهب اليها للمرة الاولى . وبالتالي فهو واقع مباشرة في ايدي تلك العصابة التي اتخذت من الشقة رقم ٥٠ وكراً لها . وتملكه شعور داخلي خفي بان هذا الرجل الصغير لا بد خارج من الشقة على الفور . وبطبيعة الحال تلاشت في ذهن مكسيميليان اندرييفتش الآن اية نية في حضور اية جنازة لاي قريب ، كما انه لا زال امامه متسع من الوقت حتى اقلاع القطار الى كييف . التفت الاقتصادي حوله وغاص في الغرفة الصغيرة . في هذا الوقت سمع بعيداً في الأعلى صوت باب يصفق . «هاهو ذا دخل !» – قال بوبلافسكي في سره وقلبه يكاد يتوقف عن الخفقان . كانت الغرفة باردة تخيم فيها رائحة الفئران والجزم . جلس مكسيميليان اندرييفتش على جذمة خشبية وقرر الانتظار .

كان الموقع الذي اتخذه مناسباً اذ كان يرى امامه مباشرة باب المخرج الرئيسي السادس .

الا انه تعين عـــلى مكسيميليان اندرييفتش ان ينتظر أطول مما افترض . ولأمر ما ظل الدرج خالياً طول هذا الوقـت . كان الكيبفي يسمع من مكانه كل شيء بوضوح ، واخيراً اصطفق باب في الطابق الخامس ، فحبس بوبلافسكي انفاسه . نعم ، خطواته . «انه يهبط الدرج» . وفتـــح باب في الطابق الأدنى . الخطوات القصيرة خفتت . صوت امرأة . صوت رجل حزين . . . نعم انه صوته . . . نطق بكلمات مـــن قبيل «اتركيني من اجـــل المسيح . . .» . كانـــت اذن بوبلافسكي تبرز مـن الزجاج المكسور . والتقطت هذه الأذن ضحكة نسائية . خطوات سريعة وخفيفة على الدرج ؛ ولاح ظهر امرأة . خرجت هذه المرأة تحمـل حقيبة مشمعة من مدخل البناية الى الفناء . اما خطوات ذلـــك الشخص فقد استؤنفت . «غريب ، انه يعود أدراجه الى الشقة . هاهو ذا الباب فوق يفتح ! ما العمل ، لننتظر قليلاً !» .

ولم يطل الانتظار هـــذه المرة . صوت بـــاب . خطوات قصيرة . الخطوات القصيرة خفتت . صرخة يائسة . مواء هرة . خطوات سريعة متقطعة تهبط ، تهبط ، تهبط !

وكوفيء بوبلافسكي على انتظاره . فقد هبط الرجل الحزين الدرج كالسهم وهو يرسم اشارة الصليب ويغمغم بكلام غيـر مفهوم ، وقد طارت قبعته وتبلّه وجهه وتخدشت صلعته وتبلل سرواله تماماً . واخذ يشد مقبض الباب وهو لا يدري من خوفه كيف يفتح : أيدفعه الى الداخل أم الى الخارج ، واخيراً تمكـــن من الباب وانطلق الى نور الشمس في الفناء .

وتم لمكسيميليان اندرييفتش ما أراد : لقد تحقق من الشقة ومما يدور فيها ، فعدا من الغرفة الصغيرة الى الفناء ، وقـــد طارت من راسه اية افكار عن المرحوم نسيبه وعن الشقة . كان يرتعد من فكرة الخطر الذي يتهدده ويهمس ثلاث كلمات فقط : «كل شيء مفهوم ! كل شيء مفهوم !» وبعـــد دقائق كان الباص الكهربائي يحمل المخطط الاقتصادي الى محطة كييف .

اما ما جرى للرجل الصغير أثناء وجود الاقتصادي في الغرفة الصغيرة فقصة من أسوأ ما يمكن تصوره . كان هذا الرجـــل



صاحب البوفيه في «فاريبتيه» وكـــان اسمه أندري فوكيتش سوكوف . اثناء التحقيق الذي جرى في «فاريبتيه» ظل اندري فوكيتش بعيداً عن كل ما يجرى ويحدث ، ولم يلاحظ فيه سوى انه اصبح اشد حزناً مما كان عامة ، وانه سأل الساعي كاربوف عن مكان نزول الساحر الزائر .

وهكذا صعد صاحب البوفيه بعد ان افترق والاقتصادي على بسطة الدرج الى الطابق الخامس ورن جرس الشقة رقم ٥٠ .

وفتح الباب فوراً ، لكن صاحب البوفيه ارتعش وتراجـــع قليلاً ولم يجسر على الدخول فوراً . وهذا مفهوم ، فقد فتحت له الباب فتاة لا يسترها شيء سوى مئزر من الدانتيلا يشي بالغنج والدلال وقوس بيضاء على راسها ، هـــذا الى خفين ذهبيين في قدميها . لم يكن يشوب جمال الفتاة شائبة اللهم الا تلك الندبة الحمراء على عنقها التي قد يرى فيها البعض عيب الفتاة الوحيد .

– تفضل ادخل ما دمت قرعت الجرس ! – قالت الفتـــاة وحدجته بعينين خضراوين داعرتين .

تاوه اندريه فوكيتش وغمز عينيه وخطا الى المدخل وهـو يخلع قبعته . في هـــذا الوقت بالـــذات رن جرس الهاتف في المدخل . وضعت الخادمة القليلة الحياء رجلاً على الكرسي ورفعت السماعة وقالت فيها :

– الو !

لم يعرف صاحب البوفيه أين يواري عينيه ، فاخذ يميل على جنبيه رافعاً رجلاً ومنزلاً اخرى وهو يقول في نفسه : «يالها من خادمة هذا الأجنبي ! تفو ! يالها من فظاعة !» ولكي يتخلص من هذه الفظاعة اخذ ينظر شزراً الى جانبيه .

كان المدخل الكبير نصف المظلم يحوي اشياء واثواباً غير عادية . وهكذا كانت بردة سوداء ذات بطانة حمراء كالنار ملقية على مسند الكرسي ، وشيش طويل ذو مقبض ذهبي لامع عـــلى الطاولة الصغيرة التي تحت المرآة . كمـــا كانت ثلاثة سيوف اخرى ذات مقابض فضية تنتصب في الركن ببساطة وكانهـــا مظلات او عكاكيز . وكانت قبعات ذات ريش من ريش النسور تتدلى من قرون الأيل .

– نعم ، – قالت الخادمة في الهاتـــف ، – نعم ؟ البارون

مَيْغل ؟ اسمعك . نعم ! السيد الفنان في البيت اليوم . نعم ، سيسر برؤيتك . نعم ، ضيوف ... فراك أو جاكيتة سوداء . ماذا ؟ حوالي الثانية عشرة ليلاً . – وبعد أن أنهت الخادمة حديثها ، وضعت السماعة والتفتت الى صاحب البوفيه : – ماذا تريد ؟

– انا بحاجة ماسة الى مقابلة المواطن الفنان .

– كيف ؟ مقابلته شخصياً ؟

– نعم ، – أجاب الساقي بصوت حزين .

– سأبلغه ، – قالت الخادمة في تردد على ما بدا ، وشقت الباب المفضي الى مكتب المرحوم برليوز وقالت : – أيها الفارس ، هناك شخص صغير يقول انه بحاجة الى سيدي .

– ليدخل ، – تناهى من المكتب صوت كوروفييف المحطم .

– اعبر الى غرفة الاستقبال ، – قالت الفتاة ببساطة وكأنها ترتدي ما يرتديه البشر وشقت طرف باب غرفة الاستقبال ، وغادرت المدخل .

ما ان دخل صاحب البوفيه الى حيث دعي حتى نسي الأمر الذي اتى من أجله لشدة ما صعقه أثاث الغرفة . كان ضوء غير مألوف يشبه ضوء الكنائس يتدفق من نوافذ كبيرة ذات زجاج ملون (وهذه نزوة من نزوات زوجة الصائغ التي اختفت دون اثر) ، وفي الموقد القديم الضخم يشتعل الحطب على الرغم من هذا اليوم الربيعي الحار . ومع هذا لم يكن الداخل يشعر بأي حرارة ، بل ، على العكس ، كانت تنفحه رطوبة كرطوبة الأقبية . وأمام الموقد كان يجلس على جلد نمر قط أسود هائل الحجم وهو يزر عينيه بوداعة أمام النار . كما كانت هناك طاولة اخذت صاحب البوفيه الورع رعدة لدى رؤيتها : كانت الطاولة مغطاة بديباج كنائسي وعلى الديباج العديد من الزجاجات البطينة التي يعلوها العفن والغبار ، وبين هذه الزجاجات كان يلمع طبق بدا واضحاً للمرء للحال انه من الذهب الخالص . وقرب الموقد كان رجل صغير أصهب يضع خنجراً خلف سيره يشوي قطع لحم على شيش فولاذي طويل . كان العصير يقطر على النار والدخان يخرج من المدخنة . ولم تكن غرفة الاستقبال تعبق برائحة الشواء وحسب ، بل بروائح أخرى قوية نفاذة ومنها رائحة بخور ، مما



جعل صاحب البوفيه الذي عرف بمصرع برليوز ومكان اقامته من الصحف يتساءل في سره للوهلة الأولى عما اذا كان هؤلاء يقيمون صلاة على نفس المرحوم ، لكنه طرد هذه الفكرة من رأسه على الفور لسخافتها الجلية .

وعلى حين غرة سمع صاحب البوفيه المصعوق صوتاً غليظاً ثقيلاً يقول له :

– اي ، فيم استطيع أن أخدمك ؟

وهنا اكتشف الساقي في الظل من كان يطلبه .

كان الساحر الشيطاني متمدداً على ديوان واسع واطئ تناثرت عليه المخدات . ولم يكن يستر الفنان ، كما بدا للساقي ، الا ملابس تحتانية سود بالاضافة الى خف اسود دقيق المقدمة في قدمه .

– أنا ، – قال الزائر بمرارة ، – انا مدير البوفيه في مسرح «فاريتيه» . . .

مد الفنان يده التي كانت الأحجار الكريمة تلمع على أصابعها الى الأمام كأنما ليسد فم الساقي وقال بحماسة كبيرة :

– لا ، لا ، لا ! ولا كلمة أخرى ! لا ، لن أضع شيئاً في فمي من مطعمكم ، أبداً وبأي حال من الأحوال ! لقد مررت البارحة ، أيها المحترم ، قرب مبسط البوفيه ، ولا استطيع حتى الآن أن انسى لحم الزجر ولا جبن البرينزا . ياعزيزي ! جبن البرينزا لا يكون بلون أخضر ، لا بد أن احدهم غشك ! المفترض في جبن البرينزا أن يكون ابيض . ثم الشاي ! هذا ليس شاياً بل غسالة ! لقد رأيت بأم عيني كيف كانت احدى عاملاتكم المهملة القذرة تسكب في سماوركم الضخم ماء غير مغلي من السطل ، ومع هذا تابعتم سكب الشاي منه للزبائن . لا ، أيها العزيز ، هذا غير معقول !

– اعتذر عن ذلك ، – قال اندري فوكيتش الذي أذهله هذا الهجوم المباغت ، – لكني لم آت في هذا الأمر ، ولحم الزجر لا شأن له هنا .

– كيف تقول لا شأن له هنا ، اذا كان هذا اللحم فاسداً !

– لقد أرسلوا لنا لحماً بطزاجة من الدرجة الثانية .

– هذا هراء أيها العزيز !

– واين الهراء هنا ؟

– في الطزاجة الثانية – هنا الهراء ! الطزاجة لا تكون الا واحدة – هي الأولى وهي الأخيرة . اما اذا كان لحم الزجر طازجاً من الدرجة الثانية فمعناه انه لحم فاسد !

– اعتذر . . . – اخذ مدير البوفيه يعتذر ثانية وهو لا يدري كيف يتملص من هذا الفنان المشاكس .

– لا استطيع ان اعذرك ، – اجابه هذا بلهجة حازمة .

– لم آت اليك في هذا الأمر ! – قال صاحب البوفيه وقد بلغ به الارتباك أشده .

– لم تأت الي في هذا الأمر ! – قال الساحر الأجنبي مستغرباً ، – واي امر آخر اذن يمكن ان يسوقك الى هنا ؟ اذا لم تخني الذاكرة ، فقد عرفت فيمن عرفت من الأشخاص الذين تشبه مهنتك مورّدة طعام ومشروب للجيش . كان هذا من زمن بعيد ، قبل أن تولد . وعلى اي حال أنا مسرور بقدومك . ازازيلو ! كرسياً صغيراً للسيد مدير البوفيه .

استدار الذي كان يشوي اللحم فروّع صاحب البوفيه بانيابه ، وقدم له بخفة احد الكراسي الداكنة المصنوعة من خشب البلوط ، اذ لم يكن في الغرفة غير هذا النوع من المقاعد .

– لك عميق شكري ، – نطق صاحب البوفيه وتهالك على الكرسي المقدم له فاذا بقائمته الخلفية تفرقع منقصفة على الفور ، واذا بمدير البوفيه يشهق ويسقط فيشعر بألم حاد جراء ارتطام مؤخرته بالأرض ، كما يصدم في سقوطه كرسياً آخر امامه فيريق كاساً ملأى بالنبيذ الأحمر على بنطاله .

وصاح الفنان :

– اي ، هل رُضضت ؟

ساعد ازازيلو مدير البوفيه في النهوض وقدم له كرسياً آخر . لكن الساقي امتنع بصوت مفعم بالحزن عن قبول اقتراح رب البيت خلع سرواله وتجفيفه أمام النار . ولشعوره بحراجة موقفه ، وهو في قميصه الداخلي ورداته المبللين ، جلس على مقعد آخر بتخوف وحذر .

– احب الجلوس في المكان الواطئ ، – قال الفنان ، –



فالسقوط من مكان واطئ ليس بهذا القدر من الخطورة . اي ، توقفنا عند لحم الزجر اذن ، ياعزيزي ! الطزاجة ، الطزاجة ثم الطزاجة هي التي يجب ان تكون شعار كل من يدير بوفيه . اي ، الا ترغب في تذوق . . .

وهنا لمع في الضوء الأحمر المنبعث من الموقد شيش أمام عيني صاحب البوفيه . وضع ازازيلو قطعة لحم تنش في صحن ذهبي ورشها بعصير الليمون وقدم شوكة ذهبية بسنين لصاحب البوفيه .

– شكراً جزيلاً . . . انا . . .

– لا ، لا ، جرب !

وضع صاحب البوفيه قطعة صغيرة في فمه من باب الأدب ، وادرك على الفور انه يمضغ شيئاً طازجاً جداً بالفعل ، والأهم – شيئاً لذيذاً بشكل غير عادي . لكنه كاد يختنق بقطعة اللحم المعطرة والغضة التي يمضغها ويسقط على الأرض ثانية . فقد اقتحم الغرفة طائر كبير داكن ومس بجناحيه صلعة مدير البوفيه ، وحط على رف الموقد قرب الساعة . ولم يكن الطائر سوى بومة . «يارب !» – قال اندري فوكيتش الذي كان عصبي المزاج كسائر اقرانه من اصحاب البوفيهات في سره ، – «يالها من شقة !»

– هل ترغب في كأس من النبيذ ؟ ابيض ، احمر ؟ نبيذ اي بلد تفضل في مثل هذه الساعة من النهار ؟

– شكراً جزيلاً . . . لا اشرب . . .

–عبثاً لا تشرب ! هل ترغب في لعبة كعب ؟ أم تفضل انواعاً اخرى من اللعب ؟ دومينو ، ورق ؟

– لا العب ، – اجاب صاحب البوفيه الذي ادركه الارهاق .

– امر في غاية السوء ، – قال الفنان معلقاً ، – شيء ما لا يوحي بالخير يكمن في نفوس الرجال الذين يتحاشون الخمرة واللعب وعشرة النساء الفاتنات وتبادل الحديث حول طاولة . ناس كهؤلاء اما مصابون بمرض عضال ، او انهم يبغضون في سرهم من حولهم . وهناك شواذ في الحقيقة . فقد صادفت بين

الذين جلسوا معي وراء الموائد العامرة سفلة عجيبين ! وهكذا ، فانا كلي آذان صاغية لسماع ما اتيت فيه .

– تفضلت البارحة واقمت حفلة الاعيب خفة وشعوذة . . .

– انا ؟ – صاح الساحر في دهشة ، – عفـــوك . هذا لا يليق بي !

– العفو ، – قال صاحب البوفيه المبهوت ، – ولكن حفلة السحر الشيطاني . . .

– آ ، نعم ، نعم ! ساكشف لك سراً ياعزيزي : انا لست فناناً على الاطلاق ، بل رغبت في رؤيـــة الموسكوفيين جماعياً ، واسهل الامور ان تفعل ذلك في المسرح . وهاهي ذي حاشيتي ، – واوما براسه نحو القط ، – انها هي التـــي اقامت هذه الحفلة ، اما انا فجلست اتامل الموسكوفيين وحسب . لا تتغيرن ملامح وجهك ، بل قل لي ما الذي دفعك في هذه الحفلة الى المجيء الي ؟

– تعرفون ، ياسيدي ، من بين ما حدث في الحفلة انـــه تطايرت اوراق من السقف ، – وهنا خفض صاحب البوفيه صوته وتلفت حوله في ارتباك ، – وقد تخاطفها الجميع . ومن ثم جاءني شاب في البوفيه واعطاني تشيرفونتساً فاعدت له ثمانية روبلات ونصفاً . . . ثم جاءني آخر .

– شاب هو الآخر ؟

– لا ، كهل . ثم ثالث ورابع . وانـــا اعيد لهم الباقي . واليوم اخذت ادقق حساب الخزنة ، فاذا بي ارى اوراقاً عادية مقطعة بدلاً من الأوراق النقدية . وغرمت البوفيه بمائة وتسعة روبلات .

– اي يايا ! – صاح الفنان ، – هل اعتقدوا فعلاً انها اوراق نقدية حقيقية ؟ من جهتي لا اظن مجرد ظن انهم فعلوا ذلك عن وعي .

تلفت صاحب البوفيه حوله بجانب عينه في كآبة ، لكنه لم ينطق بكلمة .

– انصابون هم اذن ؟ – سال الساحر ضيفه في قلـق ، – امن المعقول ان يكون بين الموسكوفيين نصابون ؟



كان جواب صاحب البوفيه ابتسامة مرة بحيث ازالت كـــل شك : نعم ، يوجد بين الموسكوفيين نصابون .

– هذا شيء سافل ! – قال فولند بلهجة سخط ، – انك انسان فقير . . . انت بالتاكيد انسان فقير اليس كذلك ؟

دس صاحب البوفيه راسه بين كتفيه بحيث بدا واضحاً انه انسان فقير .

– كم لك من الودائع في صندوق التوفير ؟

طرح السؤال بنبرة تعاطف ، ومـــع هذا لا يمكن القول ان مثل هذا السؤال كان لبقاً . وحار الساقي لا يدري ما يقول .

– مئتان وتسعة واربعون الف روبل في خمسة صناديـــق توفير ، – رد من الغرفة المجاورة صوت مصرصر ، – ومائتـــا قطعة ذهبية من فئة العشرة تحت البلاطة في ارض الغرفة .

بدا وكان صاحب البوفيه لصق بكرسيه .

– لا ، هذا ليس مبلغاً بطبيعة الحال ، – قال فولند لضيفه بتنازل ، – مع انك ، بالمناسبة ، لست بحاجة اليها . متـــى ستموت ؟

هنا لاح السخط على وجه صاحب البوفيه واجاب :

– هذا امر لا يعرفه احد ، ولا يخص احداً .

– كيف لا يعرفه احد ، – تناهى اليـــه مرة اخرى نفس الصوت الكريه من المكتب ، – او يظنها نظرية نيوتن في المخرج ذي الحدين ! سيموت خلال تسعة اشهر ، في شهر شباط مـــن العام القادم من سرطان في الكبد في مشفى جامعة موسكو الاولى ، وفي الغرفة الرابعة منه .

اصفر وجه صاحب البوفيه .

– تسعة اشهر ، – اخذ فولند يحســـب وهو مستغرق في التفكير ، – ومائتان وتسعة واربعون الفاً . . . يعني ، تقريباً سبعة وعشرون الفـــاً في الشهر ؟ قليل ، لكنه كاف لعيشـــة متواضعة . ثم هناك هذه العشرات الذهبية .

– لن يستطيع احد فعل شيء بهذه العشرات ، – تدخـــل الصوت اياه باعثاً القشعريرة في اوصال صاحب البوفيه ، – فما ان يموت اندري فوكيتش حتى يهدم البيت وتسلم العشرات الى بنك الدولة .

– وانا الى ذلك لا انصحك بدخول المشفى ، – قال الفنان يتابع كلامه ، – فما جدوى الموت في غرفة مشفى على صوت انين مرضى ميئوس منهم وحشرجاتهم ؟ اليس من الافضل لك ان تقيم وليمة عامرة بهذه السبعة والعشرين الفاً ثم تتناول السم وتنتقل [الى العالم الآخر] على الحان الأوتار تحف بك حسناوات نشوانات واصدقاء صاخبون ؟

كان صاحب البوفيه يجلس دون حراك وقد بدت على وجهه علائم الشيخوخة : احاطت عينيه حلقات قاتمة اللون ، وتهدلت وجنتاه ، وارتخى حنكه .

– لكن الخيال راح بنا بعيداً ، – صاح فولند ، – لنعد الى ما كنا بصدده . ارني ورقتك المقطوعة .

سحب صاحب البوفيه من جيبه الرزمة بيد مرتعشة وفكها وتجمد . كانت التشيرفونتسات في قصاصة الجريدة .

– فعلاً ، ياعزيزي ، انت لست في كامل صحتك ، – قال فولند وهو يهز كتفيه .

نهض صاحب البوفيه عن كرسيه الصغير وهو يبتسم ابتسامة وحشية ، وقال وهو يتلعثم :

– و. . . و. . . واذا تحولت ثانية . . .

– هيم . . . – قال الفنان مفكراً ، – اذاك عد انت الينا ، اهلاً وسهلاً ! لقد سرّنا التعرف اليك .

وهنا وثب كوروفييف من المكتب وتشبث بيد صاحب البوفيه واخذ يهزها ويرجوه ان يبلغ الجميع ، الجميع تحياته . وتحرك اندري فوكيتش نحو المدخل وهو لا يعي من أمره شيئاً .

– غيلا ، ودعيه ! – نادى كوروفييف .

ومن جديد ظهرت هذه العارية الصهباء في المدخل ! التصق صاحب البوفيه بالباب وصاح : «الى اللقاء !» ومضى كالسكران . ولما هبط الدرج قليلاً جلس على احدى الدرجات واخرج الرزمة يتيقن منها – كانت التشيرفونتسات في مكانها .

وهنا خرجت من الشقة المطلة على هذه البسطة امرأة تحمل حقيبة يد خضراء . ابتسمت المرأة حين رات هذا الشخص الجالس على الدرجة الذي يرنو الى التشيرفونتسات بنظرات بليدة وقالت في شرود :



– اي بناية هذه ! وهذا السكران من الصباح . والزجاج الذي كسر من جديد ، – ثم اردفت بعد أن امعنت النظر في الساقي تقول : – اي ايها المواطن ، ما اكثر عدد التشيرفونتسات عندك لو نتقاسمها ! آ ؟

– دعيني بحق المسيح ، – قال صاحب البوفيه مذعوراً وخبأ النقود بسرعة . وانفجرت المرأة ضاحكة .

– اذهب الى الشيطان ، يالك من بخيل ! كنت امازحك ، – ومضت تهبط الدرج .

نهض صاحب البوفيه ببطء ، ورفع يده يحكم وضع قبعته ، لكنه سرعان ما ايقن انها ليست على رأسه . كان ابعد ما يكون رغبة في العودة ، لكنه شعر في الوقت نفسه بالأسف على قبعته . تردد قليلاً لكنه عاد مع هذا ورن جرس الشقة :

– ماذا تريد ايضاً ؟ – سالته غيلا اللعينة .

– نسيت قبعتي ، – همس صاحب البوفيه وهو يغرز اصبعه في صلعته . واستدارت غيلا ، فبصق صاحب البوفيه في سره واغمض عينيه . ولما فتحهما كانت غيلا تناوله القبعة وشيشاً ذا مقبض قاتم اللون .

– ليس لي ، – همس صاحب البوفيه وهو يدفع عنه الشيش ويرتدي قبعته على عجل .

– اأتيت الينا دون شيش حقاً ؟ – قالت غيلا مندهشة .

غمغم صاحب البوفيه بشيء ما ، وانطلق يهبط الدرج ، لكنه شعر برأسه يضايقه وبدف، زائد ينبعث من القبعة ، فخلعها واطلق صيحة خافتة وهو يقفز من خوفه . كان يمسك بيده طاقية بيريه مخملية عليها ريشة ديك باليه . ورسم اشارة الصليب ، وفي نفس اللحظة مات الطاقية واستحالت قطاً صغيراً اسود وثب عائداً الى راس اندري فوكيتش وغرز مخالبه كلها في صلعته . اطلق صاحب البوفيه صرخة يائسة واندفع يهبط ، بينما قفز القط عن راسه وراح يصعد الدرج وثباً .

واذ وجد صاحب البوفيه نفسه في الهواء الطلق ، مضى يركض الى الباب الخارجي وغادر البناية رقم ٣٠٢ مكرر المسكونة بالشياطين الى الأبد .

أما ما حدث له بعد ذلك فنعرفه معرفة اليقين : فبعد أن

خرج صاحب البوفيه من الطنف ألقى حوله نظرة وحشية كمن يبحث عن شيء ما ، وفي دقيقة كان على الجانب الآخر من الشارع يدخل صيدلية . وما ان نطق بهذه الكلمات : «قولي لي من فضلك . . .» حتى هتفت المرأة التي كانت تقف وراء المبسط :

– ايها المواطن ، الا ترى ان راسك كله مجرّح ! . .

بعد خمس دقائق كان صاحب البوفيه قد ضمد راسه وعرف ان البروفيسورين بيرنادسكي وكوزمين يعدّان افضل اختصاصيين في امراض الكبد ، وكان يطير من الفرح حين سأل وعرف ان اقربهما ، البروفيسور كوزمين ، يسكن داراً بيضاء صغيرة لا يفصله عنها سوى بناية واحدة ، وبعد نحو دقيقتين كان يدخل هذه الدار ذات البناء القديم انما المريح جداً . ويذكر اندري فوكيتش ان اول ما لقيه في هذه الدار كان امرأة عجوزاً ارادت ان تأخذ منه قبعته . ولكن بما انه تبين ان لا قبعة لديه ، فقد انصرفت العجوز عنه وهي تمضغ فمها الخالي من الأسنان .

وظهرت مكانها قرب مرآة وتحت قوس ، كما تهيأ له ، امرأة متوسطة العمر وقالت له على الفور ان بامكانه ان يسجل اسمه للتاسع عشر من الشهر ، وليس قبل هذا التاريخ . وأدرك صاحب البوفيه فوراً فيما خلاصه من هذا المأزق . فقد ألقى الى ما وراء القوس حيث كان يجلس في غرفة الانتظار ثلاثة اشخاص نظرة انطفا النور فيها وهمس :

– مصاب اصابة مميتة . . .

رمقت المرأة الراس المضمد في حيرة ، وترددت قليلاً ثم قالت :

– ما العمل . . . – وسمحت لصاحب البوفيه بالعبور الى ما وراء القوس .

وفي اللحظة نفسها فتح باب في الجهة المقابلة ولمعت فيه نظارة انفية مذهبة ، وقالت امرأة في رداء ابيض :

– ايها المواطنون ، هذا المريض سيدخل دون دور .

وفي غمضة عين وجد نفسه في مكتب البروفيسور كوزمين . ولم يكن في هذه الغرفة المتطاولة شيء مخيف ، مهيب وطبي .



– ماذا اصابك ؟ – سأله البروفيسور كوزمين بصوت لطيف ، ونظر الى راسه المضمد في شيء من القلق .

– عرفت لتوي من مصدر موثوق ، – اجاب صاحب البوفيه وهو يسترق نظرة مستوحشة الى صورة فوتوغرافية جماعية خلف الزجاج ، – اني سأموت في شباط القادم من سرطان في الكبد . اضرع اليك ان توقف المرض .

ارتد البروفيسور كوزمين الذي كان جالساً الى الوراء بغتة ملقياً ظهره على مسند الأريكة القوطي الجلدي العالي .

– عفواً ، لا افهم ما تقول . . . هل كنت عند طبيب ؟ لماذا ضمد راسك ؟

– اي طبيب ذاك ؟ . . لو رايت هذا الطبيب ! . . – وهنا اخذت اسنانه تطقطق فجاة . – اما راسي فلا تهتم به ، ليس له علاقة بالموضوع . دعه وشانه فهو ليس موضوعنا . سرطان الكبد . . . ارجوك ايقافه .

– لكن عفواً ، من قال لك هذا ؟

– صدقه ، – قال صاحب البوفيه يرجوه بحرارة ، – فهو يعرف .

– لا افهم شيئاً ، – قال البروفيسور وهو يهز كتفيه ويتراجع باريكته عن الطاولة . – اني له ان يعرف متى ستموت ؟ خصوصاً انه ليس طبيباً !

– في الغرفة الرابعة ، – قال صاحب البوفيه .

وهنا تطلع البروفيسور الى مريضه ، الى راسه والى بنطاله الرطب وقال في نفسه : «هذا ما كان ينقصنا ! مجنون !» وساله :

– هل تشرب فودكا ؟

– لم امسها ابداً ، – اجاب صاحب البوفيه .

وبعد دقيقة كان يتمدد مجرداً من ثيابه على مضجع بارد مغطى بالمشمع والبروفيسور يدلك له بطنه . وينبغي القول هنا ان صاحب البوفيه استرد مرحه الى حد كبير . فقد أكد له البروفيسور بشكل قاطع انه في اللحظة الراهنة على الأقل لا تلاحظ في المريض اي علامة من علامات السرطان . ولكن بما ان الأمر كذلك . . . اي بما ان المريض خائف ، وبما ان احد

المشعوذين روعه فمن الضروري اجراء كل التحليلات . . . كان البروفيسور يخط بسرعة على اوراق امامه وهو يشرح لصاحب البوفيه الى اين عليه ان يذهب ، وماذا عليه ان يحضر . واشفع هذا كله بتقرير قصير الى البروفيسور بوريه الاختصاصي في الأمراض العصبية موضحاً للمريض ان اعصابه في غاية الاضطراب .

– كم تأمر يابروفيسور ؟ – سأله صاحب البوفيه بصوت رقيق راعش وهو يخرج حافظة نقوده السميكة .

– ما تشاء ، – أجابه البروفيسور بصوت مقتضب وجاف .

اخرج صاحب البوفيه ثلاثين روبلاً ووضعها على الطاولة ، ثم وضع بخفة فجاة ، وكأنه يعمل بخلف قط ، عموداً صغيراً رناناً ملفوفاً في ورقة جريدة فوق التشيرفونتسات .

– ما هذا ؟ – سأل البروفيسور كوزمين وفتل شاربه .

– لاتأنف منها ، ايها المواطن البروفيسور ، – همس صاحب البوفيه – ارجوك اوقف السرطان .

– اليك عني بذهبك هذا ، – قال البروفيسور بشعور من الاعتزاز بالنفس ، – الأفضل لك ان تهتم باعصابك . غداً خذ البول للتحليل . لا تكثر من شرب الشاي وكل دون ملح على الاطلاق .

– حتى الحساء دون ملح ؟ – سأل صاحب البوفيه .

– لا تملح شيئاً ، – امره كوزمين .

– ايه ، – هتف صاحب البوفيه في حزن وهو يرنو الى البروفيسور في تاثر ويلم عشراته الذهبية ويتراجع الى الباب .

كان عدد المرضى قليلاً في عيادة البروفيسور هذا المساء . ومع حلول الظلام خرج آخرهم . والقى البروفيسور وهو يخلع رداءه ، نظرة الى حيث ترك صاحب البوفيه التشيرفونتسات فلم ير اثراً لها ، بل راى مكانها ثلاث بطاقات من تلك التي تلصق على زجاجات خمر «ابراو-دورسو» .

– الشيطان وحده يعلم ما هذا ! – جمجم البروفيسور وهو يجر على الارض طرف رداءه ويتحسس البطاقات ، – انه كما يبدو ليس مصاباً بالفصام وحسب ، بل نصاب ايضاً . لكني لا استطيع ان افهم ما الذي كان يبغيه مني ؟ اطلباً لتحليل



البول ؟ أو ! لقد سرق المعاطف ! – واندفع الى المدخل وهو لا يزال مدخلاً يده في احد كمي ردائه فقط ، وصرخ بصوت ثاقب من باب المدخل : – كسينيا نيكيتشنا ، انظري ، هل المعاطف كلها موجودة ؟

وتبين ان المعاطف كلها موجودة . لكن لما عاد البروفيسور الى طاولته وقد خلع اخيراً رداءه ، بدا وكانما انغرزت قدماه في ارض المكتب قرب طاولته وقد تسمرت عيناه على الطاولة . فحيث كانت البطاقات كان يجلس الآن قط صغير ذو سحنة بائسة يموء فوق صحن حليب .

– ما معنى هذا كله ؟ ؟ هذا . . . – وشعر بالبرودة تسري في قذاله .

هرعت كسينيا نيكيتشنا على صرخة البروفيسور الخافتة والشاكية وهدات روعه تماماً بقولها ان احد المرضى لا بد هو الذي تخلص من هذا القط ، وان هذا يحدث كثيراً في عيادات البروفيسورات .

واردفت كسينيا نيكيتشنا تفسر الأمر :

– فقراء على الأرجح ، أما عندنا ، فطبعاً . . .

واخذا يفكران ويخمنان من الذي ترك القط . واخيراً وقعت الشبهة على العجوز المصابة بقرحة في المعدة .

– هي طبعاً ، – قالت كسينيا نيكيتشنا ، – قالت في نفسها : لا بد اني سأموت بين يوم وآخر ، أما القط فماذا سيحل به ؟

– والحليب ؟ هل جلبته معها ايضاً ؟ والصحن ؟

– جلبت الحليب في قارورة ، وهنا سكبته في الصحن .

– على اي حال خذي القط والصحن معاً ، – قال البروفيسور وقام بنفسه بتشييع كسينيا نيكيتشنا حتى الباب . ولما عاد كان الوضع قد تغير .

سمع البروفيسور ، وهو يعلق رداءه على المسمار ، قهقهة في الفناء . تطلع البروفيسور وانذهل ، اذ راى سيدة لا يستر جسمها الا قميص تجتاز الفناء ركضاً الى الجناح المقابل . كان البروفيسور يعرف حتى اسم هذه السيدة – ماريا الكسندروفنا ، وكان الشخص الذي يقهقه طفلاً .

– ما هذا ؟ – قال كوزمين في ازدراء .

وهنا اخذ الحاكي يصدح وراء جدار مكتبه اي في غرفة ابنته بالحان فوكستروت «هليلويا» ، كما سمعت في اللحظة عينها زقزقة عصفور دوري خلف ظهر البروفيسور . التفت البروفيسور فراى عصفوراً ضخماً يقفز على طاولته .

«هِمْ . . . هدوء . . . – قال البروفيسور يفكر في سره ، – لقد دخل حين ابتعدت عن النافذة . كل شيء على ما يرام» – امر البروفيسور نفسه وقد شعر أن كل شيء ليس على ما يرام اطلاقاً ، وطبعاً بسبب هذا العصفور الدوري أساساً . وايقن البروفيسور بعد أن تامل الدوري انه ليس عصفوراً دورياً عادياً تماماً . كان عصفور الدوري اللعين يعرج على قائمته اليسرى ويتصنع بشكل ظاهر وهو يجرها مختزلاً الخطو ، وبايجاز كان يرقص الفوكستروت على انغام الحاكي وكانه سكران يقف عند مشرب . تجالف الدوري قدر ما وسعه وهو يتطلع الى البروفيسور بوقاحة . كانت يد كوزمين على الهاتف ، وكان على وشك ان يدير قرصه ويسال خريج دفعته بوريه ويساله عما يعنيه مثل هذا النوع من عصافير الدوري في سن الستين ، خصوصاً اذا اقترنت بدوار في الراس فجاة .

حط عصفور الدوري اثناء ذلك على الدواة التي اتته هدية ذرق عليها (لا امزح) ، ثم ارتفع في الهواء واسترخي فيه ثم انقض ينقر كانما بمنقار من فولاذ زجاج الصورة الفوتوغرافية التي تمثل الدفعة الكاملة لخريجي الجامعة عام ٩٤ ويحطمه شظايا ويندفع خارجاً من النافذة . غير البروفيسور الرقم الذي كان ينوي أن يديره ، وبدلاً من الاتصال ببوريه اتصل بمكتب العلق وقال لهم ان المتكلم هو البروفيسور كوزمين وانه يطلب اليهم ارسال علق اليه في البيت فوراً .

علق البروفيسور السماعة واستدار مرة اخرى ، وعلى الفور اطلق صرخة . كانت تجلس الى الطاولة امراة تضع على راسها خماراً من تلك الخمر التي تضعها ملائكة الرحمة ، وتحمل بيدها حقيبة كتب عليها «علق» . واطلق البروفيسور صرخة اخرى بعد ان حدق في فمها : كان رجالياً ، مائلاً حتى اذنيها ، فيه ناب ، وكانت عيناها ميتتين .



– سآخذ النقود ، – قالت الممرضة بصوت رجالي عميق ، – فلا جدوى من بقائها هنا مرمية . – وجرفت البطاقات بقائمتها التي تشبه قائمة الطائر واخذت تذوب في الهواء .

ومرت ساعتان . كان البروفيسور بعدهما يجلس على سريره في غرفة نومه والعلق يتدلى على صدغيه ووراء اذنيه وعلى عنقه . وعند قدمي كوزمين كان يجلس على لحاف حريري مضرّب البروفيسور بوريه الأشيب الشاربين وهو ينظر في اشفاق وتعاطف محاولاً تعزيته بالقول ان هذا كله ترهات . كان الليل قد غمر النافذة .

اما ما حدث بعد ذلك من اشياء غريبة في موسكو تلك الليلة فامر لا نعرفه ولن نسعى بالطبع الى معرفته ، لا سيما انه آن لنا ان ننتقل الى الجزء الثاني من هذه القصة الصادقة : فهيا بنا ايها القارئ !

# الجـــزء الثـــاني

## الفصل التاسع عشر

## مرغريتا

هيا بنا ايها القارئ ! من قال لك ان لا وجـود للحب الحقيقي ، الصادق ، الخالد على هذه الأرض ؟ فليقطع لسان الكاذب الفاجر !

اتبعني أنا ، وانا دون سواي ، ياقارئي ، أرك مثل هذا الحب !

لا ! اخطا المعلم اذاك في المستشفى والليل يحبو الى منتصفه ، اذ قال لايفان والمرارة تملأ قلبه انها نسيته . هذا مستحيل . انها لم تنسه طبعاً .

ولنكشف بادىء الأمر السر الذي لم يرغب المعلم في كشفه لايفان . كان اسم محبوبته مرغريتا نيقولايفنا . وكان كل ما قاله المعلّم فيها للشاعر المسكين حقيقة خالصة .

كانت محبوبته جميلة وذكية كما وصفها . زد على ذلك شيئاً آخر وهو اننا نستطيع التاكيد بثقة ان كثيراً من النساء كنّ على استعداد للتضحية بأي شيء على ان يستبدلن حياة مرغريتا نيقولايفنا بحياتهن . كانت مرغريتا ، التي لم ترزق ولداً .. في الثلاثين من عمرها وزوجة اختصاصي عظيم نجح ، الى هذا ، في التوصل الى اكتشاف بالغ الخطورة بالنسبة للدولة . كان زوجها في عزّ شبابه ، جميلاً . طيباً ، شريفاً وكان يعبد زوجته . وكانت مرغريتا نيقولايفنا وزوجها يشغلان بمفردهما كل الطابق العلوي من دار رائعة وسط حديقة في احد الأزقة القريبة من اربات . مكان ساحر حقاً ! وبوسع اي كان التيقن مما اقول فيما لو رغب في التوجه الى هذه الحديقة . وما



عليه الا ان يراجعني ، فساعطيه العنوان وادلّه على الطريق فالدار لا زالت قائمة الى الآن .

مرغريتا نيقولايفنا لم تكن في حاجة الى مال . مرغريتا نيقولايفنا كان في مقدورها ان تشتري كل ما يروق لها . مرغريتا نيقولايفنا كانت تصادف بين معارف زوجها اناساً مثيرين للاهتمام فعلاً . مرغريتا نيقولايفنا لم تلمس في حياتها وابور الكاز . مرغريتا نيقولايفنا لم تعرف ويلات العيش في شقة مشتركة . وباختصار . . . هل كانت سعيدة ؟ لا ، ولا دقيقة واحدة ! فهي لم تعرف السعادة مذ تزوجت وهي في التاسعة عشرة من عمرها ووجدت نفسها في هذه الدار . ياالهي ! ياالهي ! ما الذي كانت تحتاج اليه هذه المرأة ؟ ما الذي كانت تحتاج اليه هذه المرأة التي كان يضطرم في عينيها دائماً بريق غامض ، ما الذي كانت تحتاج اليه هذه الساحرة المائلة العين قليلاً التي كانت تتجمّل في الربيع آنذاك بالسنط ؟ لا اعرف ، لا اعرف . الظاهر انها كانت تقول الحقيقة . فقد كانت في حاجة اليه هو ، المعلم ، لا الى دار على الطراز القوطي ، ولا الى حديقة خاصة ، ولا الى المال . كانت تحبه . وكانت تقول الحقيقة . حتى انا الراوي الصادق انما المحايد ينقبض قلبي حين افكر فيما كابدته مرغريتا حين عادت في اليوم التالي الى شقة المعلم ولمّا تتمكن لحسن الحظ من التحدث الى زوجها الذي لم يعد في الوقت المحدّد . وعرفت باختفاء المعلم .

وفعلت مرغريتا كل شيء لتعرف عنه شيئاً ، لكنها لم تتوصل بطبيعة الحال الى اي نتيجة . اذاك عادت الى دارها واستانفت حياتها السابقة هناك .

— نعم ، نعم . نعم . انه الخطأ نفسه يتكرر ! — كانت مرغريتا تقول لنفسها في ايّام الشتاء وهي تجلس الى الموقد وتحدّق في النار ، — لماذا تركته في تلك الليلة ؟ لماذا ؟ هذا جنون ! لقد عدت في اليوم التالي كما وعدته ، بشرف لكن الوقت كان قد فات ! نعم ، عدت متاخرة جداً كذلك التعس متى اللاوي !

لم يكن لكلماتها هذه اي معنى بطبيعة الحال . وبالفعل ما الذي كان سيتغيّر لو بقيت الى جانب المعلم في تلك الليلة ؟

هل كانت ستنقذه فعلاً ؟ بودنا ان نهتف قائلين : «هذا امر مضحك !» ، لكننا لن نفعل هذا امام امراة وصلت حافة اليأس .

امضت مرغريتا نيقولايفنا الشتاء كله في عذابها هذا حتى جاء الربيع . واستيقظت مرغريتا نيقولايفنا في مخدعها الذي يطل منوره على برج دارها ظهيرة ذات يوم ، بل ظهيرة ذلك اليوم نفسه الذي ساده كل هذه الهرج والمرج جراء ظهور الساحر الشيطاني في موسكو ، اي ظهيرة يوم الجمعة الذي اعيد فيه عمّ برليوز الى كييف مطروداً ، واعتقل فيه المحاسب وجرت فيه اشياء كثيرة اخرى غير معقولة وغامضة .

لم تذرف مرغريتا نيقولايفنا الدمع كما كانت تفعل كثيراً بعد استيقاظها لأنها استيقظت يراودها احساس مسبق بأن شيئاً ما لا بد سيحدث اليوم . ولخشيتها من أن يزاولها هذا الاحساس اخذت تقوّيه في نفسها وتنميه .

– اني واثقة ، بل مؤمنة بأن شيئاً ما سيحدث ! – همست مرغريتا تقول لنفسها في مهابة – لا يمكن الا ان يحدث شيء . فهل كُتب علي الشقاء مدى الحياة ؟ ولماذا ؟ اعترف اني كذبت وخدعت وعشت حياة خاصة اخفيتها عن اعين الناس . ولكن لا يجوز مع هذا ان اعاقب بهذه القسوة . لا بد أن يحدث شيء ما حتماً ، لأنه ليس من طبيعة الأمور ان يدوم شيء ما الى الأبد . ثم ان حلمي ينبيء بشيء لا بدّ حاصل . انا متأكدة من ذلك .

هكذا كانت مرغريتا نيقولايفنا تهمس لنفسها وهي ترنو الى الستائر الحمر المغمورة بالشمس وترتدي ملابسها في اضطراب ، وتمشط شعرها القصير المجعّد امام المرآة الثلاثية .

كان الحلم الذي راته مرغريتا هذه الليلة غير عادي فعلاً . ذلك انها لم تر المعلم في الحلم طوال عذاباتها الشتوية . اذ كان يدعها في الليل . ولم تكن تتعذب الا في ساعات النهار . وها هي ذي تراه هذه الليلة في الحلم .

رات مرغريتا في حلمها مكاناً غريباً – مكاناً مهجوراً ، كئيباً تظلله سماء ربيعية مبكرة غائمة . رات هذه السماء الرمادية التي تتراكض فيها قطع الغيوم وفيها سرب صامت من الغربان ، وجسراً ملتوياً تحته ساقية يجري فيها ماء ربيعي عكر ، واشجاراً كئيبة بائسة نصف عارية وحورة وحيدة ، وعلى مسافة ابعد –



بين الأشجار ووراء جنينة – بناء صغيراً من جذوع الأشجار اللّه اعلم اهو مطبخ منعزل او حمّام او غير ذلك . كل شيء حولك ميت وكئيب بحيث يغريك بشنق نفسك على الحورة التي قرب الجسر . لا نسمة ، لا حركة سحابة ، لا حي . مكان لا يطاق بالنسبة لكائن حي !

وهنا ، تصوروا ، ينفتح باب هذا البناء الخشبي على مصراعيه ، ويظهر هو منه . انه بعيد الى حدّ ما . لكنه مرئي بجلاء . ممزق الثياب لا تدري ما يلبس بالضبط ، شعره مشعث . ذقنه غير محلوقة ، عيناه مريضتان قلقتان . يومىء لها بيده . يناديها . وانطلقت اليه مرغريتا فوق النتوءات الصغيرة وهي تكاد تختنق في الهواء الميت . وفي هذه اللحظة افاقت من نومها .

«هذا الحلم لا يعني الا احد امرين ، – قالت مرغريتا تحاكم الأمور مع نفسها ، – فان كان ميتاً واوما الي فهذا معناه انه جاء ياخذني واني سأموت قريباً . وهذا ممتاز لأنه سيوضع حدّ لعذابي . وان كان حياً فهذا لا يمكن ان يعني الا شيئاً واحداً وهو انه يذكرني بنفسه ! انه يريد ان يقول لي اننا سنلتقي من جديد . نعم ، اننا سنلتقي قريباً جداً» .

ارتدت مرغريتا ملابسها وهي ما زالت على انفعالها ، واخذت توحي لنفسها ان كل شيء ، في الواقع ، يسير على نحو موفق ، وان على الانسان ان يعرف كيف ينتهز هذه اللحظات الموفقة ويفيد منها . كان زوجها قد سافر في مهمة لمدة ثلاثة ايام كاملة . وهكذا تركتْ وحيدة الى نفسها طول هذه الايام : لن يعيقها احد عن ان تفكر فيما يحلو لها ، وعن أن تحلم فيما يروق لها . وكل هذه الغرف الخمس في الطابق العلوي من الدار ، كل هذه الشقة القمينة بأن تثير الحسد في نفوس عشرات الألوف من القلوب في موسكو تحت تصرفها .

الا انها ، وقد نالت حريتها لمدّة ثلاثة أيام كاملة ، لم تختر افضل مكان من شقتها الفاخرة . بل مضت ، بعد أن تناولت الشاي الى غرفة مظلمة دون نوافذ كانت تحتفظ فيها بحقائب واشياء اخرى عتيقة في خزانتين كبيرتين . جلست مرغريتا القرفصاء وفتحت الدرج السفلي لأولاهما ، واخرجت من

تحت كومة من القطع الحريرية الشيء الوحيد الثمين في حياتها – البوماً قديماً من الجلد البني فيه صورة المعلم الفوتوغرافية ودفتر صندوق التوفير برصيد من عشرة آلاف باسمه وبتلات وردة يابسة بين صفائح من ورق السجائر وجزءاً من دفتر يحتوي ملزمة كاملة مطبوعة على الآلة الكاتبة ومحترقة في طرفها السفلي .

عادت مرغريتا نيقولايفنا بهذا الكنز الى مخدعها فثبتت الصورة على المرآة الثلاثية ومكثت نحو ساعة واضعة الدفتر الذي افسدته النار على ركبتيها تقلّبه وتعيد قراءة ما امسى بعد شبوب النار فيه بلا بداية ولا نهاية : «. . . الظلمة الزاحفة من البحر الابيض المتوسط غطت المدينة البغيضة الى قلب الحاكم . اختفت الجسور المعلقة التي تصل الهيكل ببرج انطونيو الرهيب ، وانهمرت من السماء لجة ، وغمرت الآلهة المجنحة فوق ميدان الخيل وقصر الجسمانية ذا الكوى ، والأسواق والخانات والأزقة وبرك الماء . . . غارت اورشليم المدينة العظيمة وكان لم يكن لها وجود . . .» .

كان بود مرغريتا متابعة القراءة ، لكنه لم يكن امامها الا هدّاب فحمي غير مستو .

طوت مرغريتا نيقولايفنا الدفتر وهي تمسح دموعها ، وارتفقت حاملة المرآة التي كانت تعكس صورتها ، وجلست هكذا طويلاً لا ترفع عينيها عن صورة المعلم . ثم جفت دموعها فنهضت ورتبت كنزها بعناية وما هي دقائق حتى كان مدفوناً تحت خرق الحرير وكان المزلاج يقفل برنين في الغرفة المظلمة .

وفيما كانت مرغريتا نيقولايفنا ترتدي معطفها في المدخل استعداداً للخروج في نزهة قصيرة ، تقدّمت منها خادمتها الحسناء ناتاشا تسألها عن الطبق الثاني الذي عليها أن تعدّه . ولما اتاها الجواب ان الأمر سيان ، ارادت ان تسرّى عن نفسها بعض الشيء . فانخرطت في حديث مع معلمتها وراحت تروي لها اشياء الله اعلم بها . مثال ذلك ان احد المشعوذين عرض البارحة في احد المسارح ملاعيب بهت لها الجميع ، وانه وزّع مجاناً على كل واحد من الحاضرين زجاجتين من العطر



الأجنبي وجوارب ، وبعد ان انتهت الحفلة خرج الجمهور الى الشارع – وهنْ ، كانوا جميعهم عراة ! ارتمت مرغريتا نيقولايفنا على الكرسي الذي تحت المرآة في المدخل وراحت تقهقه . وهي تقول لها :

– ناتاشا ! كيف لا تخجلين ! انت فتاة ذكية ، متعلمة ! يتقولون في الطوابير اشياء ما انزل الله بها من سلطان . وانت ترددين تقولاتهم !

تضرجت وجنتا ناتاشا بالحمرة واندفعت تعترض قائلة انهم لم يكذبوا فيما يروونه ، وانها شخصيا رأت اليوم في محلّ للمواد الغذائية في اربات مواطنة دخلت المحلّ وهي تنتعل خفاً ، وما ان وقفت عند الصندوق تدفع حتى اختفى الخفّ من قدميها ، وبقيت حافية ليس في قدميها الا الجورب . تصوري : عيون محملقة وعلى كعبها خرق . كان الخف مسحوراً ، من تلك الحفلة .

– ومضت الى بيتها هكذا ؟

– نعم ، هكذا مضت ! – صاحت ناتاشا ووجهها يزداد احمراراً من عدم تصديقها ، – وبالاضافة الى ذلك ، ياسيدتي ، لمّت الشرطة ليلاً حوالي مائة شخص . لقد خرجت النساء من هذه الحفلة الى شارع تفيرسكايا لا تسترهن الاّ سراويل قصيرة .

– داريا هي التي اخبرتك بهذا كله طبعاً . – قالت مرغريتا نيقولايفنا ، – لقد لاحظت من فترة طويلة انها كذّابة فظيعة .

وانتهى هذا الحديث المضحك بمفاجأة لطيفة بالنسبة الى ناتاشا . فقد مضت مرغريتا نيقولايفنا الى مخدعها وعادت تحمل زوجاً من الجوارب وزجاجة كولونيا . وبعد ان قالت لها انها تريد هي الأخرى ان تريها ملعوباً اهدتها الجوارب وزجاجة الكولونيا شافعة هديتها برجاء واحد – الا تركض ناتاشا في شارع تفيرسكايا في الجوارب فقط والا تستمع بعد اليوم الى اقوال داريا . وتبادلت سيدة البيت وخادمتها القبلات وافترقتا .

كان الباص الكهربائي يمضي بها في اربات وهي ملقية ظهرها على مسند مقعده الطري المريح تفكّر تارة في شؤونها

وتصيخ السمع تارة اخرى الى ما يتهامس به مواطنان يجلسان امامها .

وكان هذان يتهامسان بأمر في غاية السخف وهما يتلفتان بين الفينة والفينة حولهما خشية ان يسمعهما احد . كان الشخص البدين اللحيم ذو العينين الخنزيريتين الجريئتين الجالس قرب النافذة يقول لجاره الصغير انهم اضطروا الى تغطية التابوت بغطاء أسود . . .

– هذا غير ممكن ، – همس الرجل الصغير مبهوتاً ، – هذا امر لا سابقة له . . . وماذا فعل جيلديبين ؟

وفي هدير الباص الكهربائي المتصل سمعت الكلمات التالية آتية من النافذة :

– تحقيق جنائي . . . فضيحة . . . بصراحة . شيء غامض !

والتقت مرغريتا نيقولايفنا من هذه المقاطع المتناثرة شيئاً ما مترابطاً . كان الهمس بين الرجلين يدور حول سرقة راس شخص متوفّى من التابوت صباح هذا اليوم ! اما من المتوفى فلم يذكر الرجلان اسمه . وهذا هو سرّ اضطراب جيلديبين وقلقه الآن . وهذان الشخصان اللذان يتهامسان في الباص الكهربائي على علاقة بالمتوفى المسروق .

– هل يتسع الوقت لشراء زهور ؟ – قال الصغير في قلق .

– قلت ان حرق الجثة في الثانية ؟

واخيراً ضاقت مرغريتا نيقولايفنا ذرعاً بالاستماع الى هذه الثرثرة الغامضة حول الراس المسروق من التابوت . وفرحت لانه آن لها ان تنزل .

وبعد عدّة دقائق كانت مرغريتا نيقولايفنا تجلس على احد المقاعد عند سور الكرملين بحيث يظهر المانيج امامها .

كانت مرغريتا نيقولايفنا تزرّ عينيها من الشمس الساطعة وتتذكر حلمها ، وتتذكر كيف ظلّت من عام على وجه الضبط ، يوما بيوم وساعة بساعة ، تجلس الى قربه على هذا المقعد عينه ، وكيف ان الحقيبة السوداء الى جانبها الآن كما كانت اذّاك . لكنه ، هو ، ليس الى جانبها في هذا اليوم ، ومع هذا كانت مرغريتا نيقولايفنا تتحدث اليه بفكرها : «اذا كنت



منفياً فلماذا لا تخبرني ؟ الناس يخبرون عن حالهم ، فلماذا لا تفعل ؟ الم تعد تحبني ؟ لا . لا ادري لماذا لا اصدق هذا . اذن نفيتَ ومتَّ . . . ارجوك اذن اطلقني ، اعد الي اخيراً حريتي كي اعيش واتنفس» . واجابت مرغريتا نفسها بالنيابة عنه : «انت طليقة . . . !!انا الذي يقيّدك ؟» ثم كانت تردّ عليه : «لا ، ما هذا الجواب ! لا ، غب عن ذاكرتي وسأصبح حرّة» .

كان الناس يمرون بمرغريتا نيقولايفنا . وحانت من احدهم التفاتة الى هذه المراة الأنيقة الملبس مفتوناً بجمالها ووحدتها واطلق سعالاً خفيفاً وجلس على طرف المقعد الذي كانت مرغريتا نيقولايفنا تجلس عليه . استجمع الرجل شجاعته وقال :

– طقس جميل اليوم بالتاكيد . . .

القت عليه مرغريتا نظرة هبّ واقفاً من تجهمها وغادر المكان .

«هاك المثال . لماذا طردت هذا الرجل ؟ – قالت مرغريتا تحدّث في نفسها ذاك الذي امتلكها – الملل يتملكني . وليس في زير النساء هذا شيء قبيح سوى عبارته الغبية تلك «بالتاكيد» . لماذا اجلس هنا وحدي كبومة عند حائط ؟ لماذا نبذتني الحياة ؟» .

واستبد بها الحزن ونكست راسها . وهنا دفعتها في صدرها نجاة تلك الموجة الصباحية من الترقّب والهيجان ايّاها . «نعم . لا بد أن يحدث شيء !» . ودفعتها الموجة ثانية . وهنا ادركت انها موجة صوتية . فمن خلال ضوضاء المدينة كانت تسمع بوضوح متزايد قرعات طبل تقترب واصوات أبواق ناشزة قليلاً .

وكان اول من ظهر لها شرطي يمضي بخطا وئيدة على جواده امام سياج الحديقة وخلفه ثلاثة من المشاة ، ثم شاحنة تحمل موسيقيين تسير ببطء ، ثم سيّارة دفن جديدة مكشوفة تتحرك ببطء وعليها نعش غارق كله في اكاليل الزهور ، وعند زوايا الصندوق اربعة اشخاص واقفين : ثلاثة رجال وامراة واحدة . واستطاعت مرغريتا ، حتى وهي على هذه المسافة ، ان تتبين في وجوه الواقفين في عربة الدفن الذين كانوا يشيعون الفقيد

الى مثواه الأخير ذهولاً غريباً . وكان هذا بادياً بشكل خاص على وجه المرأة التي كانت تقف في الزاوية الخلفية اليسرى . كانت وجنتا هذه المواطنة الغليظتان اصلاً تزدادان غلاظة كانما بضغط سرّ مثير في داخلها ، وكانت انوار غامضة تتراقص في عينيها الصغيرتين المحمومتين المتورمتين . كان يبدو ان ما هو الاّ قليل حتى ينفد صبر هذه المواطنة فتغمز باتجاه المرحوم وتقول : «هل رأيتم شيئاً مماثلاً ؟ لغز مريب حقاً !» وكانت وجوه المشيعين السائرين ببطء خلف عربة الدفن ، وهم نحو ثلاثمائة شخص ، لا تقل ذهولاً عن وجوه اولئك الاربعة .

كانت مرغريتا تتابع الموكب بعينيها وهي تصغي الى الطبل التركي الكئيب الذي لم يكن يخرج الا صوتاً واحداً «بومْس . بومْس ، بومْس ، بومْس» تخبو ضرباته في البعيد ، وتفكر في نفسها قائلة : «اي جنازة غريبة هذه . . . واي ملل يبعثه هذا الصوت ! آه حقاً ، انني على استعداد لأن ارتهن للشيطان على ان اعرف فقط اهو حي أم ميت ! لو اعرف من هذا الذي يدفنون بمثل هذه الوجوه العجيبة ؟»

– برليوز ميخائيل الكسندروفتش . – تردّد قربها صوت رجالي أخن قليلاً . – رئيس **ماسوليت** .

استدارت مرغريتا نيقولايفنا مدهوشة ، فرأت على مقعدها مواطناً لا بد انه جلس عليه حين كانت مستغرقة في تأمل الموكب ، وارجح الظنّ انها في ذهولها طرحت سؤالها الأخير بصوت مسموع .

في هذه الأثناء اخذ الموكب يتوقف قليلاً بين الحين والحين ، اذ لا بدّ ان اشارات المرور كانت تعيق تحرّكه .

– نعم ، – قال المواطن الغريب متابعاً ، – يا لمزاجهم العجيب . يحملون الفقيد الى قبره ، ولا يفكرون الاّ في امر واحد – اين اختفى راسه !

– اي راس ؟ – سالت مرغريتا وهي تحدّق في هذا الجار غير المنتظر . كان هذا الجار قصير القامة اصهب بل يكاد يكون احمر ، ذا ناب وقميص منشى وبذلة مخططة جيدة ، وخفين لامعين وقبعة عالية ، وربطة عنق فاقعة اللون . العجيب فقط



انه كانت تتدلى من الجيب العلوي لهذا المواطن حيث يضع الرجال عادة منديلاً او قلم حبر ، عظمة دجاج معرّقة .

– نعم ، – تابع الأصهب موضحاً . – اليوم صباحاً سُرق راس الفقيد من تابوته في صالة غريبويبدوف .

– كيف يمكن لمثل هذا ان يحصل ؟ – سالت مرغريتا عفو الخاطر . وهي تتذكر في نفس اللحظة الهمس الذي سمعته في الباص الكهربائي .

– الشيطان يعرف كيف ! – أجاب الأصهب بما يشبه الوقاحة ، – واعتقد ، بالمناسبة . انه من الأفضل سؤال بيغيموت عن الأمر . لقد تمت السرقة ببراعة فائقة . يالفضيحة ! والأهم ان لا احد يفهم فيما نفع هذا الراس ومن يحتاج اليه .

وعلى الرغم من انشغال مرغريتا نيقولايفنا بشؤونها وشجونها اصابتها اقاويل هذا المواطن المجهول الغريبة بالدهشة .

– العفو ، – صاحت فجأة . – اي برليوز هذا ؟ هذا الذي في جرائد اليوم . . .

– نعم . بالضبط . . .

– هم الأدباء اولئك الذين يسيرون خلف النعش اذن ؟ – سالت مرغريتا وكشرّت فجأة .

– اي ، طبعاً ، الأدباء !

– وتعرفهم بالوجه ؟

– كلهم ، حتى آخر واحد فيهم ، – اجاب الأصهب .

– قل لي ، – كان صوتها الآن خافتاً ، – الا يوجد بينهم الناقد لاتونسكي ؟

– وكيف له الاّ يكون بينهم ؟ هاهو ذا في طرف الصف الرابع .

– هذا الأشقر ، آ ؟ – سالت مرغريتا وهي تزرّ عينيها .

– ذو اللون الرمادي . . . أترين ، لقد رفع عينيه الى السماء .

– الذي يشبه قسّاً كاثوليكياً ؟

– تماماً !

كفّت مرغريتا ، وقد اخذت تتفرّس في وجه لاتونسكي ، عن طرح المزيد من الأسئلة .

– انك ، كما ارى ، تبغضين لاتونسكي هذا . – قال الأصهب وهو يبتسم .

– وابغض غيره ، – اجابت مرغريتا من بين اسنانها .

– لكن ليس في الحديث عن هذا اي متعة .

كان الموكب في هذه الأثناء يوالي سيره ، وكان يتبع المشاة رتل من السيّارات معظمها خالٍ .

– طبعاً ، يامرغريتا نيقولايفنا ، اي متعة يمكن ان تكون في هذا !

– اتعرفني ؟ – قالت مرغريتا مندهشة .

وبدلاً من ان يجيب خلع الأصهب قبعته وامسكها بيده الممدودة . «سحنة كسحنة قطّاع الطرق تماماً !» – قالت مرغريتا في سرها وهي تحدّق في محدّثها ابن الشارع هذا .

– اما انا فلا اعرفك ، – قالت له مرغريتا في جفاء .

– من اين لك ان تعرفيني ! ومع هذا انا مبعوث اليك في امر .

شحب وجه مرغريتا وتراجعت .

– كان عليك ان تبدا من هذا مباشرة ، لا ان تاخذ بالثرثرة باشياء الشيطان يعلم ما هي عن الراس المقطوع ! هل تريد اعتقالي ؟

– لا شيء من هذا ، – هتف الأصهب ، – غريبة : ان فتحتُ فمي معناه اني آت لاعتقل ! انه ، ببساطة . مجرّد امر اتيت اليك في شانه .

– لا افهم شيئاً ، ما هذا الأمر ؟

التفت الأصهب حوله وقال بسرّية :

– ارسلت كي ادعوك لزيارة احدهم مساء هذا اليوم

– ماذا تهذي ، ومن هذا ؟

– اجنبي رفيع الشان ، – اجاب الأصهب بلهجة تشي بخطورة ما يقول وهو يزر عينيه .

واستبد بمرغريتا غضب شديد .



– نوع جديد من القوّادين ظهر – قوّادين على عارضة الطريق ، – قالت وهي تهبّ واقفة لتنصرف .

– هذا هو جزائي على هذه المهمّات ! – هتف الأصهب في استياء . وغمغم في اثر مرغريتا التي كانت اولته ظهرها :

– غبية !

– نذل ! – ردّت عليه دون ان تلتفت نحوه . وهنا سمعت صوت الأصهب وراء ظهرها :

– . . . الظلمة الزاحفة من البحر الأبيض المتوسط غطت المدينة البغيضة الى قلب الحاكم . اختفت الجسور المعلقة التي تصل الهيكل ببرج انطونيو الرهيب . . . وغارت اورشليم المدينة العظيمة وكان لم يكن لها وجود . . . وهكذا غوري انت ايضاً بدفترك المحترق ووردتك اليابسة ! اجلسي هنا على المقعد وحيدة واضرعي اليه فكّ اسارك وازاحة الكابوس عن صدرك والاختفاء من ذاكرتك تماماً !

عادت مرغريتا الى مقعدها وقد ابيض وجهها والأصهب يرنو اليها زارّاً عينيه .

– لا افقه مما يجري شيئاً ، – قالت مرغريتا بصوت خافت ، – الأوراق يمكن الوصول اليها . . . واستراق النظر ومعرفة ما فيها . . . ام ان ناتاشا رشيت ؟ ! لكن كيف تمكنت من معرفة افكاري ؟ – كانت تقطيبة عذاب ترتسم على محيّاها ، واردفت : – قل لي . من تكون ؟ ومن اي مؤسسة انت ؟

– يالسمآمة ، – غمغم الأصهب واردف يقول بصوت اعلى : – العفو ، سبق ان قلت لك اني لا اتبع اي مؤسسة . اجلسي من فضلك .

صدعت مرغريتا للامر ، لكنها سالته مرّة اخرى وهي تجلس :

– من انت ؟

– حسناً . اسمي ازازيلو ، مع ان اسمي لا يوحي لك شيئاً .

– قل لي : من اين عرفت بالأوراق وبافكاري ؟

– لن اجيب . – قال ازازيلو بلهجة جافة .

– لكن الا تعرف عنه شيئاً ؟ – همست مرغريتا ضارعة .

– لنقل فرضاً اني اعرف .

– قل لي شيئاً واحداً ، ارجوك : احيّ هو ؟ لا تعذبني .

– اي ، حيّ ، حيّ ، – اجابهـــا ازازيلو في غيـــر اقبال .

– يااالهي !

– ارجوك . دعيك من اي اضطراب او صراخ ، – قال ازازيلو عابساً .

– العفو ، العفو ، – غمغمت مرغريتا مستسلمة . – لقد غضبت منك بطبيعة الحال . لكن لا بد ان توافقني على انـه حين تدعى امراة وهي في الشارع الى زيارة . . . اؤكد لك اني امراة دون اوهام قديمة . . . – وهنا ظهرت على وجه مرغريتا ابتسامة حزينة ، – لكني لم التق باجانب اطلاقاً ، كما ليس لدي اي رغبة في الاتصال بهم . . . زد على ذلك زوجي . . . ماساتي اني اعيش مع انسان لا احبه ، لكني اعتبر افســـاد حياته امراً غير لائق . فانا لم الق منه الا كل خير . . .

استمع ازازيلو الى هذا الكلام المفكك بملل ظاهر وقال لها بصرامة :

– ارجوك الصمت دقيقة .

ولزمت مرغريتا الصمت مستسلمة .

– اني ادعوك لزيارة اجنبي مامون تماماً . ولن يدري احد بشان هذه الزيارة . هذا امر استطيع ان اضمنه تماماً .

– ولماذا احتاج اليّ ؟ – سالته مرغريتا في استعطاف .

– ستعرفين فيما بعد .

– مفهوم . . . ينبغي ان استسلم له ، – قالت مرغريتا في شرود .

ردّ ازازيلو على قولها بهمهمة مترفعة واجاب :

– استطيع ان اؤكد لك ان هذا حلم اي امراة في العالم ، – وهنا لوّت سحنة ازازيلو ضحكة . – لكني ساخيب املك اذ اقول لك ان هذا لن يحدث .

– من يكون هذا الأجنبي ؟ ! – هتفت مرغريتا في حيرتها بصوت عال جعل العابرين قرب المقعد يلتفتون اليها ، – وما نفع ذهابي اليه ؟



انحنى ازازيلو وهمس في اذنها بلهجة ذات معنى :

– النفع كبير جداً . . . ستستغلين الفرصة . . .

– ماذا ؟ – هتفت مرغريتا وقد تكوّرت عيناها ، – اذا فهمتك جيداً فانت تلمّح الى اني استطيع معرفة شيء عنـــه هناك ؟

اومأ ازازيلو براسه في صمت .

– انا مستعدة ! – هتفت مرغريتا بصوت قوي وامسكت بيد ازازيلو ، – مستعدة للذهاب الى حيث تشاء !

تنفس ازازيلو الصعداء والقى ظهره على مسند المقعـــد مغطياً بظهره كلمة «نورا» المحفورة على المسند باحرف كبيرة وقال في سخرية :

– ما اصعب النساء ! – هنا دس يديه في جيبيه ومـدّ رجليه بعيداً امامه . – لماذا ارسلت انا في هذه المهمة مثلاً ؟ لو اتى بيغيموت . . . فهو فاتن . . .

– كفّ عن تضليلي وتعذيبي بالغازك هذه ، – قالت له وهي تبتسم ابتسامة مصطنعة متذللة . . . – اني انسانة تعسة وانت تستغل هذا . اني اغوص في قصة غريبة . لكني اقسم اني لا اقدم على ما اقدم عليه الا لانك اغريتني بكلماتك القليلة عنه ! واني لاشعر بالدوار من كل هذه الأمور الغامضة . . .

– لا حاجة الى اصطناع المآسي . – قال ازازيلو وهـــو يلوي بوزه ، – عليك ان تفهمي موقفي انا ايضاً . صفع مدير على سحنته او طرد رجل من بيته ، او اطلاق النار على شخص ما او اي شيء آخر تافه من هذا القبيل هو اختصاصي المباشر . اما التحدث الى نساء عاشقات فهذا فوق طاقتي . الم تري اني اجهد في اقناعك من نصف ساعة كاملة . اتذهبين اذن ؟

– نعم ، – اجابته مرغريتا نيقولايفنا ببساطة .

– تفضلي اذن ، – قال ازازيلو واخرج من جيبه علبة ذهبية مدورة مدّ بها يده الى مرغريتا نيقولايفنا وهو يقول :

– اخفيها بسرعة والا رآك المارة . ستكون لك ذات نفـــع ، يامرغريتا نيقولايفنا . لقد شخت كثيراً من الحـــزن في نصف العام المنصرم هذا (غلى دم مرغريتا لكنها لم تقل شيئاً ، فيمـــا ازازيلو يتابع .) حاولي مساء اليوم في منتصف العاشرة تماماً

ان تدلكي وجهك وجسمك كله بهذا المرهم بعد أن تخلعي كل ملابسك . ثم افعلي ما تشائين ، انما لا تبتعدي عن الهاتف . في العاشرة سأتصل بك وأقول لك كل ما يلزم . ليس لك ان تهتمي بشيء . فهم سيوصلونك الى حيث يجب ، ولن يسببوا لك أي ازعاج . مفهوم ؟

لزمت مرغريتا الصمت قليلاً ثم أجابت :

– مفهوم . هذه العلبة من الذهب الخالص ، هذا واضح من ثقلها . لكن لا بأس ، اني ادرك جيداً انهم يرشوننـــي ويجرّونني الى قصة غامضة مريبة سأدفع ثمنها غالياً .

– ما هذا ، – قال ازازيلو بصوت كالفحيح ، – هل عدت ثانية ؟

– لا ، مهلاً !

– اعيدي المرهم .

تشبثت مرغريتا بالعلبة بقوة اكبر وتابعت :

– لا ، مهلاً . . . اني مدركة لما اقدم عليه . واني اقدم على اي شيء بسببه ، لأنه لم يعد لي في هذا العالم اي أمل . لكني اقول لك انك ستشعر بالخجل ان اهلكتني ! نعـــم ، بالخجل ! فانا اهلك بسبب الحب ! – ودقت على صدرهـــا ورنت الى الشمس .

– اعيديه ، – فحّ ازازيلو في حنق ، – اعيديه ، وليذهب هذا كله الى الشيطان ! فليرسلوا بيغيموت !

– لا ، لا ، – صاحت مرغريتا صيحة بهت المارة لها – انا موافقة على كل شيء ، موافقة على مهزلة الدلك هذه ، موافقة على الذهاب الى حيث يرسلني الشيطان . لكني لن اعيده !

– با ! – هدر ازازيلو فجاة ، وجحظت عيناه وهو يحدّق في سور الحديقة واخذ يشير باصبعه الى مكان ما .

التفتت مرغريتا الى حيث كان ازازيلو يشير باصبعه ، فلم تقع على شيء غير مالوف . فاستدارت اذاك الى ازازيلو علّها تحظى بتفسير لهذه «البا !» السخيفة التي اطلقها ، لكنه لم يكن هناك من مفسّر : فقد اختفى محدث مرغريتا نيقولايفنـــا الغامض . اذاك دسّت مرغريتا نيقولايفنا يدها بسرعـــة في حقيبتها ، حيث خبّأت العلبة الصغيرة قبل صرخة ازازيلو ،



وتيقنت من وجودها في مكانها . اذاك هرعت خارجة من حديقة الكسندروفسكي لا تفكر في شيء .

## الفصل العشرون

## دهان ازازيلو

كان القمر المعلق في كبد السماء المسائية الصافية يلوح في ليلة اكتماله من خلال أغصان القيقب . وكانت أشجار القيقب والسنط توشي أرض الحديقة بوشي معقد من البقع ، ونافذة المنور الثلاثية الدرفات المفتوحة انما المسدلة الستائر تشتعل بنور الكهرباء المسعور . كانت كل المصابيح مضاءة في مخدع مرغريتا نيقولايفنا تنير الفوضى الكاملة الضاربة أطنابهـــا في الغرفة : على السرير فوق اللحاف قمصان وجوارب وبياضات ، أما الملابس الداخلية المكرمشة فكانت ملقاة على الأرض قرب علبة سجائر مسحوقة من اضطراب . وكانت الأحذية على طاولة قرب فنجان قهوة لم يُشرب كله ومنفضة يتصاعد دخانها من عقب سيجارة ، وعلى مسند الكرسي يتدلى ثوب سهرة أسود ، وروائح عطور تفوح في الغرفة ممتزجة برائحة مكـــواة محمّاة آتية من مكان ما . . .

كانت مرغريتا جالسة امام المرآة وعلى جسدها العاري برنس استحمام وفي قدميها حذاء اسود من الشمواه ، وامامها الى جانب العلبة التي اخذتهـــا من ازازيلو سوار من الذهب فيه ساعة صغيرة . لم تكن مرغريتا نيقولايفنا ترفع عينيها عن ميناء الساعة ، وكان يكاد يخيّل اليها أحياناً ان الساعة تعطلت وان عقربيها لا يتحركان . لكن عقربي الساعة كانا يتحركان وان ببطء شديد كانما التصقا بشيء ما . واخيراً [سقط العقرب الطويل على الدقيقة التاسعة والعشرين بعد التاسعة] . دق قلب مرغريتا بعنف بحيث لم تستطع تناول العلبة على الفور . لكنها تمالكت نفسها ، وفتحت العلبة فرات فيهـا دهاناً دسماً ضاربـــاً الى الصفرة ، تفوح منه رائحة نباتات مستنقعية كما بدا لها . اخذت

مرغريتا شيئاً من الدهان بطرف اصبعها ووضعته على راحتها فبلغت انفها بقوة اكبر رائحة من اعشاب المستنقعات والغابات ، ثم اخذت تدلك به جبينها ووجنتيها . كان الدهان يطلي بيسر ثم يتبخر على الفور كما تراءى لمرغريتا . وبعد عدّة دلكات تطلعت مرغريتا الى المرآة ، فسقطت العلبة من يدها على زجاج الساعة فتشقق . اغمضت مرغريتا عينيها ثم تطلعت في المرآة ثانية وانفجرت تقهقه .

كان حاجباها المنتوفان عند الطرفين بالملقط حتى صارا كخيط رفيع قد ازدادا كثافة وارتسما قوسين اسودين متساويين فوق عينيها اللتين تألقت خضرتهما ، والتغضّن العمودي الخفيف الذي يقطع أرنبة الأنف والذي ظهر اذّاك ، في تشرين الأول حين اختفى المعلم ، اختفى دون أثر ، كما اختفت الظلال المائلة الى الصفرة عند الصدغين والشبكتان الصغيرتان الظاهرتان قليلاً عند زاويتي العينين الخارجتين ، وبشرة الوجنتين تشربت بلون وردي منسق ، والجبين بات أبيض صافياً ، وتصفيفة الشعر عند الحلاّقة انحلّت .

كانت تتطلع الى مرغريتا ذات الثلاثين عاماً من المرآة امراة في العشرين من عمرها ذات شعر اسود اجعد بطبيعته مكشرة عن اسنانها من قهقهة جنونية تهزّها .

وما ان شبعت قهقهة حتى انسلّت بقفزة واحدة من برنسها وغرفت من الدهان الدسم الطري ودلكت بقوة جسمها الذي سرعان ما تورّد واشرق . ثم وفي لحظة هدا صدغها الذي ظلّ يؤلمها طول المساء بعد اللقاء في حديقة الكسندروفسكي كانما أُخرجت من المخّ ابرة ، واشتدت غضلات يديها ورجليها وفقد جسم مرغريتا وزنه .

ونطّت مرغريتا نطّة صغيرة فاذا بها تتدلّى على ارتفاع يسير فوق السجادة ، ثم اذا بشيء ما يجذبها ببطء الى الأسفل فتهبط عليها .

– يا للدهان ! يا للدهان ! – هتفت مرغريتا وهي ترتمي في اريكتها .

ولم يغيرها التدليك ظاهرياً وحسب . فقد كانت تشعر الآن بالفرح يمور فيها كلها ، في كل خلية من خلايا جسدها ، كان



فقاعات تخز جسدها كلـــه . احست مرغريتا انها تحرّرت ، تحرّرت من كل شيء . وادركت بوضوح تام ، الى ذلك ، انه انما حدث لها ما انباها به احساسها المسبق في الصباح ، وانهـــا تغادر الدار وحياتها السابقة الى الأبد . انما بقيت من حياتهـــا السابقة تلك فكرة واحدة – ان عليها ان تؤدي واجباً واحداً اخيراً قبل بداية شيء مـا جديد ، خارق يجذبها الى الأعلى ، الى الفضاء الرحب . فهرعت ، هي العارية التي كانت تقفز من حين الى آخر في الهواء ، من مخدعها الى مكتب زوجها واشعلت ضوءه واندفعت الى طاولتـــه ، وكتبت له بقلم رصاص بخطّ سريع وكبير ودون أي مراجعة الرسالة التالية على ورقة انتزعتها من مفكرته :

**«سامحني وانسني باسرع ما يمكن . انى اغادرك الى الأبد . فلا تبحث عني لأن هذا دون جدوى . لقـــد اصبحت ساحرة من حزني ومن المصائب التي نزلت بي . آن اواني ، فالـــوداع . مرغريتا» .**

وطارت مرغريتا بنفس اطمأنت تماماً عائدة الى مخدعها ، وهرعت ناتاشا في اثرها تحمل كومة من الأشياء . وللحال تساقطت هذه الأشياء كلها ، العلاقة الخشبيـــة والثوب الذي عليهـــا ، والمناديل الموشاة بالدانتيلا ، والأحذية الحريرية الزرق المرتبة فوق مشجب الاحذية وحزام الفستان ، تساقطت كلها على الأرض وبسطت ناتاشا يديها الطليقتين الآن مشدوهة .

– جميلة ، أليس كذلك ؟ – هتفت مرغريتا نيقولايفنـــا بصوت عال مبحوح .

– كيف حدث هذا ؟ – همست ناتاشـــا وهي تنكص على عقبيها ، – كيف تفعلين هذا أنت يامرغريتا نيقولايفنا ؟

– انه الدهان ! الدهان ! – أجابت مرغريتا وهي تشير الى العلبة الذهبية المتلألئة وتتثنى أمام المرآة .

نسيت ناتاشا الثوب المدعوك الملقى على الأرض ، وهرعت الى المرآة وحملقت في بقايا الدهان بعينين نهمتين محمومتين ،

وتمتمت شفتاها شيئاً . ثم انثنت الى مرغريتا وقالت لها بما يشبه الاجلال :

– الجلد ! جلدك يا مرغريتا نيقولايفنا ! جلدك يشرق . – وهنا افاقت من ذهولها فركضت الى الثوب ترفعه وتنفضه .

– دعيه ! دعيـــه ! – صاحت مرغريتـــا ، – ليذهب الى الشيطان ، دعي كل شيء ! او بالاحرى لا ، خذيه ذكرى لك . خذيه ذكرى ، قلت لك . بل خذي كل ما في الغرفة .

وكانما فقدت ناتاشا بعض عقلها ، فرنت بعض الوقت الى مرغريتا دون حراك ثم تعلقت برقبتها واخذت تقبلها وتصيح :

– كانها من الاطلس ! انها تشرق ! كانها من الاطلس ! والحاجبان !

– خذي كل الملابس ، خذي كـــل العطور ، جريهـــا الى صندوقك وخبئيها هناك ، – صرخت مرغريتا ، – انمـــا اياك والمجوهرات والا اتهمت بالسرقة .

حزمت ناتاشا ما وقع تحت يدها من اثواب واحذية وجوارب وملابس داخلية وغادرت المخدع ركضاً .

وفي هذا الوقت انطلقت من نافذة مفتوحة في الجانب الآخر من الزقاق ودوّت موسيقى فالس رائع ، وسُمع لهاث سيّارة تقترب من الباب الخارجي .

– لا بدّ ان يتصل ازازيلو الآن ! – هتفت مرغريتا وهي تصغي الى الفالس المتدفق الى الزقاق ، – لا بدّ ان يتصل ! والاجنبي مأمون ، لا خطر منه . نعم ، الآن ادركت انه مأمون .

علا هدير السيارة مبتعدة عن الباب . واصطفق باب الحديقة وسمع على بلاط الممشى وقع خطوات .

«انه نيقولاي ايفانوفتش ، اعرفـــه من خطواته ، – قالت مرغريتا في سرّها ، – ينبغي ان اودعه وداعـــاً جدّ مضحك وممتع» .

ازاحت مرغريتا الستر جانباً ، وجلست على حافة النافذة جنباً ، وطوّقت ركبتها بيديها ، فلمسها ضوء القمر في جنبهـــا الايمن . ثم رفعت راسهـــا الى القمر واصطنعت وجهاً حالمـــاً وشاعرياً . دقّت الخطوات مرتين اخريين ثم خفتت بغتة . تريثت مرغريتا قليلاً تستمتع بمرأى القمر ثم تنهّدت من قبيل اللياقة



وحوّلت راسها باتجاه الحديقة . وبالفعل رأت نيقولاي ايفانوفتش الذي كان يقطن الطابق السفلي من الدار نفسها . كان يجلس على مقعد ، وقد غمره القمر بنوره الساطع . كان كل شيء يدلّ على انه رمى نفسه على المقعد بغتة . فقد كانت نظارته الانفية مائلة على وجهه ، وحقيبته مضغوطة بين يديه .

– اي ، مرحباً ، يا نيقولاي ايفانوفتش ، – قالت مرغريتا بصوت حزين ، – مساء الخير ! أعائد من الاجتماع ؟

لم يجبها نيقولاي ايفانوفتش بشيء .

واردفت مرغريتا وهي تمعن في البروز من الشبّاك المطلّ على الحديقة :

– أما انا فاجلس وحيدة ، ضجرة كما ترى ، اتطلع الى القمر واستمع الى الفالس .

ومرت مرغريتا بيدها اليسرى على صدغهـــا تسوّي خصلة شعرها ثم قالت في استياء :

– هذا ليس من الأدب في شيء يا نيقولاي ايفانوفتش ! فانا امراة اولاً واخيراً ! وانها لجلافة حين يكلمونك ولا تجيب !

فجـاة اطلق نيقولاي ايفانوفتش الذي كان يُرى في ضوء القمر حتى آخر زرّ في صدريته الرماديـة وحتى آخر شعرة في لحيته الصغيرة البيضاء الاسفينية الشكل ضحكة وحشية وهبّ واقفاً من مقعده ، وبدلاً من ان يخلع قبعته ، لوّح بحقيبته جانباً بسبب الارتباك الذي تولاه فيما يظهر وثنى رجليه كانما يستعدّ للرقص .

– آه ، يالك من شخص ممل ، يا نيقولاي ايفانوفتش ، – تابعت مرغريتا تقول ، – وبشكل عام قرفتكم جميعاً بحيث لا استطيع التعبير عن قرفي هذا ، فانا سعيدة بفراقكم ! الاذهبتم الى الشيطان !

في هذا الوقت دوّى الهاتف خلف ظهرها في مخدعها ، فقفزت من على النافذة ناسية نيقولاي ايفانوفتش وشأنها معه وخطفت السماعة .

– ازازيلو ، – اتاها صوت من السماعة .

– ايها العزيز ، ايها العزيز ازازيلو ! – هتفت مرغريتا .

– آن الاوان . طيري ، – قال ازازيلو في السماعة ، وكان

واضحاً من صوته انه استعذب حماسة مرغريتا الصادقة الفرحة ،
– وعندما تصبحين فوق الباب الخارجي ، صيحي «خفية !» ، ثم طيري فوق المدينة قليلاً كي تعتادي ومن ثم اتجهي الى الجنوب خارج المدينة ، ومباشرة الى النهر حيث ينتظرونك !

علّقت مرغريتا السماعة ، وهنا تحرّك في الغرفة المجاورة شيء ما خشبي كأنما يحجل واخذ يخبط الباب . فتحت مرغريتا الباب فاذا بالمكنسة تطير الى داخل مخدعها تتراقص وشعراتها الى الأعلى . كانت المكنسة تنقر على الأرض بطرفها وترفس وتندفع الى النافذة . زعقت مرغريتا من شدّة حماستها ، ووثبت تمتطي المكنسة . وهنا فقط فطنت الى انها نسيت في هذا الهرج والمرج ارتداء ملابسها . فاندفعت الى السرير وخطفت اوّل ما وقعت عليه يدها وكان قميصاً ازرق ، فلوّحت به كأنه ببرق وطارت عبر النافذة . وازدادت موسيقى الفالس فوق الحديقة عنفاً .

هبطت مرغريتا من النافذة ورأت نيقولاي ايفانوفتش على المقعد . كان يجلس ، وكأنه تجمّد في مكانه ، يسترق السمع ، وقد استبد به الذهول ، الى الصراخ والجلبة الآتيين من المخدع المنار في الطابق العلوي .

– الوداع ، يا نيقولاي ايفانوفتش ! – صاحت مرغريتا وهي تتراقص أمام نيقولاي ايفانوفتش .

تاوه نيقولاي ايفانوفتش وزحف على المقعد مستنداً على يديه ورامياً حقيبته على الأرض .

– الوداع الى الأبد ! انا طائرة – صاحت مرغريتا بصوت غطّى على صوت الفالس . وهنا فطنت الى انها لم تعد بحاجة الى قميصها فاطلقت قهقهة شريرة وغطّت رأس نيقولاي ايفانوفتش به ، فهوى هذا من المقعد على بلاط الممشى مبهوراً .

التفتت مرغريتا لتلقي نظرة اخيرة على الدار التي عانت فيها طويلاً العذاب ، فرأت في النور المتوهج وجه ناتاشا الذي شوّهت الدهشة ملامحه .

– الوداع يا ناتاشا ! – صاحت مرغريتا وجذبت المكنسة الى أعلى ، – خفية ، خفية ، – صاحت بصوت أعلى من السابق ، وراحت تطير بين أغصان القيقب التي كانت تصفع وجهها



مجتازةً الباب الخارجي الى الزقاق . ودوّت اثرها انغام الفالس وقد جنّ جنونها تماماً .

## الفصل الحادي والعشرون

## الطيران

خفية وطليقة ! خفية وطليقة ! قطعت مرغريتا زقاقها طيراناً وبلغت زقاقاً آخر يقطع الأول بزاوية قائمة . وفي لحظة قطعت ايضاً هذا الزقاق المرقّع المتعرج الطويل الذي تقوم فيه دكان لمشتقات النفط ذات باب مائل يباع فيها الكيروسين بالاكواز والمبيدات الحشرية بالزجاجات ، وهنا أدركت انها وان كانت غير مرئية وطليقة تماماً ، الا ان عليها ان تظلّ عاقلة ولو قليلاً حتى وهي في ذروة نشوتها ، اذ كادت تتحطم على مصباح قديم مائل في ناصية الزقاق ، لو لم تتمكن باعجوبة من كبح جماحها واتقانه . وهنا تمسكت مرغريتا بالمكنسة بقوة اكبر واستمرت تحلّق انما ببطء اكبر وهي تحدّق في الأسلاك الكهربائية واليافطات المعلقة على عرض الرصيف .

كان الزقاق الثالث يفضي الى اربات مباشرة . وهنا تعرّفت على اسرار قيادة المكنسة تماماً ، وادركت ان هذه تنصاع لأدنى لمسة يد أو رجل ، وان عليها ، وهي تطير فوق المدينة ، ان تكون في غاية اليقظة وضبط النفس . هذا الى انه اتضح لها تماماً ، حتى وهي لمّا تزل في الزقاق ، ان المارة لا يرونها ، اذ لم يرفع أي منهم راسه ولم يصرخ : «انظر ! انظر !» ، ولم يجفل ، ولم يزعق ولم يغم عليه ولم يطلق قهقهات وحشية .

كانت مرغريتا تطير ببطء شديد دون أي صوت وعلى ارتفاع قليل ، على مستوى الطابق الثاني تقريباً . لكنها ، على الرغم من تحليقها البطيء ، هفت هفوة بسيطة عند اتصال الزقاق باربات المضاءة بالأنوار الباهرة فارتطمت كتفها بقرص مضاء رُسم عليه سهم ، مما اغضب مرغريتا . فاوقفت المكنسة المطيعة وتنحّت قليلاً ثم انقضت على القرص بغتة وحطمته

بطرف المكنسة شظايا . وتناثرت الشظايا على الأرض في دوّي فجفل المارة وسمع في مكان ما صفير ، اما مرغريتا فانطلقت تقهقه بعد تصرفها العابث هذا . «عليّ أن اكون اكثر حذراً في اربات ، – قالت مرغريتا في نفسها ، – فهنا الحابل يختلط بالنابل بحيث لا تدري اول الأمر من آخره» . واخذت تغطس بين الأسلاك . وتحتها تسبح اسطح الباصات الكهربائية والباصات والسيّارات الصغيرة ، وعلى الأرصفة ، كما بدا لمرغريتا من فوق ، تجري انهار من القبعات . وكانت تتفرّع من هذه الأنهر سواق تغور في الأشداق المضاءة للمخازن الليلية . «اي ، ما هذا الخليط العجيب ! – فكّرت مرغريتا في استياء ، – لا يستطيع الانسان ان يتحرك هنا» . وقطعت اربات وحلقت حتى مستوى الطابق الرابع وسبحت بقرب أنابيب ذات لمعان خاطف على مبنى المسرح الذي على الناصية الى زقاق ضيق ذي بيوت شاهقة . كانت كل النوافذ في هذه البيوت مشرعة ، وكانت تسمع من نوافذها موسيقى تنبعث من الراديوات . القت مرغريتا نظرة على احدها من قبيل الفضول فرات مطبخاً ، فيه وابورا كاز يهدران على الفرن وقربهما تقف امراتان تحملان ملعقتين في ايديهما ، تتشاتمان .

– ينبغي ان تطفئي الضوء وراءك في المرحاض ، هذا ما يجب ان تعرفيه يا بيلاجيا بيتروفنا ، – قالت المراة التي كانت امامها طنجرة يتصاعد منها البخار ، – والا قدّمنا شكوى باخلائك !

– لا ، انت وحدك الفهيمة . – اجابت المراة الثانية .

– كلاكما فهيم ، – قالت مرغريتا بصوت مرنان وهي تتهادى الى المطبخ من خلال النافذة . التفتت المراتان المتشاحنتان على صوتها ، وتجمدتا في مكانهما وملعقتاهما الوسختان في ايديهما . بسطت مرغريتا يدها بحذر بينهما وادارت عيّار الوابورين واطفاتهما . تاوهت المراتان وغرتا فاهيهما . لكن الملل كان قد ادرك مرغريتا في المطبخ فحلّقت مغادرة الى الزقاق .

ولفتت انتباهها في آخره كتلة ضخمة كانت عبارة عن بيت من ثمانية طوابق انتهى بناؤه للتو على ما بدا . اتجهت



مرغريتا الى الأسفل ورات ، بعد ان حطّت على الأرض ، ان واجهة البيت مزخرفة بالمرمر الأسود ، وان ابوابه واسعة ، وانه يبدو خلف زجاجها سدارة ذات شريط ذهبي مقصّب وازرار بوّاب وانه نقش فوق الأبواب بماء الذهب : «بيت الدراملية» * .

زرّت مرغريتا عينها على الكتابة جاهدة معرفة ما تعنيه كلمة «دراملية» هذه . تابطت مرغريتا مكنستها ودخلت صادمة البوّاب المدهوش بالباب ، فرات على الجدار قرب المصعد الكهربائي لوحاً اسود ضخماً نقشت عليه باحرف بيض ارقام الشقق واسماء قاطنيها . ندّت عن مرغريتا زعقة ضارية مخنوقة لدى قراءتها الكتابة التي تتوّج قائمة الأسماء «بيت الكاتب المسرحيّ والأديب» . فارتفعت قليلاً عن الأرض واخذت تقرأ بنهم الكنى : خوستوف ، دفوبراتسكي ، كفانت ، بيسكودنيكوف ، لاتونسكي . . .

– لاتونسكي ! – زعقت مرغريتا . – لاتونسكي ! نعم انه هو ! هو الذي قضى على المعلم .

تطلّع البوّاب الى اللوح الأسود وقد جحظت عيناه ، بل حتّى وهو ينطّ من الدهشة ، محاولاً فهم هذا السرّ العجيب : لم زعقت لائحة الأسماء فجاة ، بينما كانت مرغريتا تندفع صاعدة الدرج وهي تردّد فيما يشبه النشوة :

– لاتونسكي – ٨٤ ! لاتونسكي – ٨٤ !

هاهو ذا الى اليسار رقم ٨٢ ، والى اليمين ٨٣ . في الأعلى اذن ، الى اليسار ٨٤ . هنا . وهاهي ذي البطاقة . «أو . لاتونسكي» .

قفزت مرغريتا مترجلة من مكنستها فاحست ببرودة لطيفة تسري في نعليها الحارتين من حجارة البسطة . ضغطت مرغريتا زرّ الجرس مرّة وثانية ، لكن احداً لم يفتح . واخذت مرغريتا تضغط الزرّ بقوة اكبر وهي تنصت الى الرنين المتواصل المتصاعد في شقة لاتونسكي . نعم ، ينبغي على قاطن الشقة رقم ٨٤ في الطابق الثامن ان يظلّ شاكراً للمرحوم برليوز حتى آخر

---

* كلمة روسية تتالف من الاحرف الاولى لكلمات روسية تعني بيت الكاتب المسرحي والاديب . **المترجم** .

رمق من حياته أن رئيس **الماسوليت** وقع تحت عجلات الترام وان ميعاد الجنازة حدّد في هذا المساء بالذات . نعم ، كان الناقد لاتونسكي محظوظاً . ولقد انقذه حسن حظه من لقاء مرغريتا التي انقلبت جنية في يوم الجمعة هذا !

لم يفتح احد . اذّاك اندفعت مرغريتا بكل قوتها تهبط وهي تعدّ الطوابق ، ولمّا وصلت الى الأسفل مرقت الى الخارج واخذت تتطلع الى الأعلى وتعدّ الطوابق وتتيقّن من الأسفل ايّها بالضبط نوافذ شقة لاتونسكي . انها ، ولا شك ، تلك النوافذ الخمس المعتمة عند زاوية البناية في الطابق الثامن . وبعد أن تيقنت من الأمر ارتفعت في الجوّ ، وما هي ثوان حتى كانت تدخل من نافذة مفتوحة الى غرفة مظلمة يشقّها درب ضيق مفضّض من ضوء القمر . ودارت مرغريتا بها تتلمس زرّ الكهرباء . وما هي دقيقة حتى كانت الشقة كلها تشعّ بالنور . كانت المكنسة تنتصب في الزاوية . فتحت مرغريتا الباب المؤدي الى الدرج ، بعد أن تيقنت من خلوّ الشقة ، لتتأكد من البطاقة التي على الباب . كانت البطاقة في مكانها . نعم ، كانت مرغريتا حيث ينبغي ان تكون .

يقال ان وجه الناقد لاتونسكي لا يزال يشحب حتى الآن حين يذكر ذلك المساء الرهيب ، ولا زال هو نفسه يذكر باجلال اسم برليوز حتى الآن . فمن ذا الذي بوسعه أن يدري باي جريمة غامضة وفظيعة كان سينتهي هذا المساء : فعادت مرغريتا من المطبخ وفي يديها مطرقة ثقيلة .

كانت يداها ترتعشان من نفاد صبرها . لكن الطائرة العارية غير المرئية حاولت ضبط نفسها وتبيّن ما تنويه . سدّدت بعناية وهوت بالمطرقة على ملامس البيانو فدوّت الشقة كلها باول عواء شاكٍ . كانت الآلة الموسيقية البيتية البريئة من طراز بيكر تصرخ في عنف وملامسها تتكسر ووصلاتها العظمية تتطاير في كل الاتجاهات . زعق البيانو وعوى وجشر ورنّ ، وبصوت كانه طلقة مسدّس تفجّر مشدّ التناغم العلوي المصقول تحت ضربة المطرقة . وكانت مرغريتا تنزع الأوتار وتهرسها بالمطرقة ، وهي تكاد لا تستطيع سحب نفسها . واخيراً ادركها التعب فانكفأت ترتمي على الأريكة علّها تلتقط انفاسها .



وفي الحمام ، كما في المطبخ ، كان الماء يهدر بصوت مرعب .

«يبدو انه اخذ يسيل على الأرض» – قالت مرغريتا في سرّها ، واردفت بصوت مسموع :

– لا وقت للجلوس .

كان تيار الماء قد اخذ يتدفق من المطبخ الى الممرّ . نهضت مرغريتا تخبط في الماء بقدميها الحافيتين وهي تحمل الماء بالسطل من المطبخ الى مكتب الناقد وتصبه في ادراج مكتبه . ثم اندفعت الى مخدع الناقد ، بعد ان حطّمت ابواب الخزانة في مكتبه بمطرقتها . فحطّمت خزانة ذات مرآة واخرجت منها بدلة الناقد ونقعتها في الحمّام . ثم اراقت على السرير المزدوج المنجد تنجيداً فاخراً في مخدعه دواة مليئة بالحبر خطفتها وهي خارجة من المكتب . كان التخريب الذي تقوم به يبعث فيها لذة خارقة ، على انه كان يبدو لها طول الوقت ان النتائج متواضعة ، ولهذا اخذت تفعل ما يعنّ لها دون اي تبصّر . فشرعت تحطم زهريّات الفيكوس في الغرفة التي كان فيها البيانو ، ثم عادت ، دون ان تكمل ما بدأته ، الى المخدع واخذت تمزّق ملاءات السرير بسكين المطبخ وتحطم الصور المزججة . ولم تكن تشعر بتعب ، بل كان العرق يتصبب من جسدها كله .

في هذا الوقت كانت خادمة الكاتب المسرحي كفانت تشرب الشاي في مطبخ الشقة رقم ٨٢ الكائنة تحت شقة لاتونسكي مباشرة وهي في حيرة من امر الضجة والجلبة فوقها . واخيراً رفعت راسها الى السقف فرات فجاة السقف يستبدل بلونه الأبيض لوناً ازرق ميتاً . كانت البقعة تتسع على مرأى منها ، وفجاة انتفخت حولها قطرات . مكثت الخادمة نحو دقيقتين في دهشة من هذه الظاهرة الى ان انهمر من السقف اخيراً مطر حقيقي واخذ ينقر ارض الشقة . وهنا هبت من مكانها ووضعت تحت خيوط الماء طستاً ، لكن هنا لم يجدها نفعاً ، ذلك ان المطر امتد واخذ يغمر موقد الغاز ، والطاولة التي عليها اواني المطبخ . اذّاك اطلقت خادمة كفانت صرخة وهرعت من شقتها تقفز الدرج ، وللحال راحت رنّات الجرس تتوالى بعنف في شقة لاتونسكي .

– اخذوا يقرعون ، آن لي ان اغادر ، – قالت مرغريتا ،

وركبت المكنسة وهي تنصت الى صوت نسائي يصرخ في ثقب الباب :

– افتحوا ، افتحوا ! افتحي يا دوسيا ! الماء ينزل من عندكم اليس كذلك ! لقد غرقنا !

ارتفعت مرغريتـــا متراً وهوت بضربة على الثريا فتحطـــم مصباحان منها وتطايرت انواطها في كل جانب . توقف الصراخ في ثقب الباب وسمع دبيب على الدرج . سبحت مرغريتـــا من النافذة ، ولمّا صارت خارجها لوّحت بالمطرقة تلويحة خفيفة وضربت بها الزجاج . نشج الزجاج وهوت شظاياه على الجدار الملبّس بالمرمر كالشلال الى أسفل . وتحوّلت مرغريتـــا الى النافذة التالية . كان المارة يتراكضون متفرقين تحتهـــا على الرصيف ، وهدرت احدى السيارتين الواقفتين عند مدخل البناية واقلعت . واجهزت مرغريتا على نوافذ لاتونسكي فسبحت في الهواء الى الشقة المجاورة . وتوالت الضربات وامتلأ الزقاق رنيناً وقعقعة . وهرع من المدخل الأول بواب . تطلّع الى الأعلى وتردّد قليلاً اذ لم يدر على الفور كما يبدو ماذا عليه أن يفعل ، ثم حشا فمه بصافرة واطلق صفرة مسعورة ، خلّعت مرغريتا على صوتها آخر نافذة في الطابق الثامن بحماسة خاصة ، وهبطت الى الطابق السابع وراحت تحطم زجاجه .

كان البوّاب ، الذي اضنته البطالة الطويلة خلف ابواب المدخل الزجاجية ، يودع الصافرة كل روحه محتذياً ، الى ذلك ، حذو مرغريتا كانما يرافقها . كان في فترات توقّف مرغريتا ، حين كانت تطير من نافذة الى أخرى ، يسحب نفساً ، ثم ينفخ وجنتيه مع كل ضربة من ضربات مرغريتا ويروح في صفير يشق هواء الليل حتى عنان السماء .

وتوّجت جهوده مقرونة بجهود مرغريتا المستشيطة غيظاً بنتائج واسعة . ركب الذعر البيت كله . كانت النوافذ التي لما تزل سليمة تشرّع وتظهر فيها رؤوس سرعان ما تختفي ، اما النوافذ المفتوحـة فكانت ، على العكس ، تنغلق . وفي البيوت المقابلة كانت تبرز في النوافذ على خلفية مضاءة اطياف اناس قاتمة تحاول أن تفهم لماذا يتكسر الزجاج دونما سبب في بيت «دراملیت» الجديد .



كان الناس في الزقاق يهرعون الى بيت «دراملیت» ، أمـا الناس في داخله فكانوا يدبّون على الأدراج هاربين دونما وعي . كانت خادمة كفانت تصرخ في المهرولين على الدرج أن المـــاء يغرق شقتهم . وانضمت اليها بعد حين خادمة خوستوف من الشقة رقم ٨٠ الواقعة تحت شقة كفانت . كان الماء في شقة خوستوف ينهمر من السقف ويتفجر في المطبخ والمرحاض . واخيراً سقطت من سقف المطبخ في شقة كفانت قطعة كبيرة من الملاط فحطمت كل الأواني الوسخة في مطبخه . وانهالت اذّاك شآبيب حقيقية من المطر من خلال الشرائح الخشبية المبلّلة التي تغطي السقف . اذّاك تصاعد الصراخ والصياح على درج المدخل الأول . والقت مرغريتا نظرة على النافذة قبل الأخيرة في الطابق الرابع وهي تعبر قربها فرات شخصاً وضع على وجهه من ذعره قناعاً فضربت بالمطرقة على زجاج نافذته فاجفلته واختفى من الغرفة .

وانقطع التحطيم الوحشي فجأة . هبطت مرغريتا الى الطابق الثالث والقت نظرة من النافذة الجانبية المسدول ستارها الرقيق القاتم . كانت الغرفة مضاءة بمصباح ضعيف ذي اباجور ، وطفل في نحو الرابعة من عمره يجلس في سرير صغير مشبك الجانبين وهو يرهف السمع في ذعر . ولم يكن في الغرفة احد من البالغين ، اذ انهم جميعاً هربوا من الشقة كما يبدو .

– يكسّرون الزجاج ، –قال الطفل ونادى : – ماما !

ولم يجب احد فقال :

– ماما ، انا خائف .

ازاحت مرغريتا الستر ودخلت من النافذة .

– انا خائف ، – كرّر الطفل وارتعش .

– لا تخف ، لا تخف ياصغير ، – قالت مرغريتـــا وهي تحاول تلطيف صوتها المجرم المبحوح من الريح ، – الاطفال هم الذين كانوا يكسرون الزجاج .

– بالنقّافة ؟ – سأل الطفل وهو يتوقف عن الارتعاد .

– بالنقافة ، بالنقافة ، – ثنّت مرغريتـــا على قوله ، – وانت اغفُ !

– انه سيتنك ، – قال الطفل ، – عنده نقّافة .

– هو طبعاً !

رنا الطفل جانباً في خبث وسأل :

– واين انتِ يا خالة ؟

– انا غير موجودة ، – اجابته مرغريتا ، – فانت تراني في الحلم .

– هذا ما خمنته ، – قال الطفل .

– تمدّد ، – امرته مرغريتـــا ، – وضع خدّك على يدك وسوف اظهر لك في الحلم .

– اظهري لي ، اظهري لي ، –قال الطفل موافقاً وتمدّد من فوره ووضع يده تحت خدّه .

– سأحكي لك حكاية ، – قالت مرغريتا ووضعت يدها الحارة على راسه المقصوص الشعر ، – كانت تعيش في قديم الزمان خالة . لم يكن لها اولاد كما لم تشعر يوماً بالسعادة . بكت الخالة اول الأمر ثـــم تحوّلت الى انسانة شريرة . . . – وصمتت مرغريتا ثم رفعت يدها عن راس الطفل – كان قد غفا .

وضعت مرغريتا المطرقة على حافة النافذة برفق وانسلت محلقة من النافذة . كان الهرج والمرج حول البيت على اشدهما . كان الناس يتراكضون على الرصيف المغطى بالزجـاج المحطم ويتصايحون وقد لاح بينهم بعض رجـال الشرطة . وبغتة قرع جرس واندفعت من اربات سيارة اطفاء عليها سلّم . . .

انما لم يعد يعني مرغريتا ما يمكن ان يحدث بعد هذا ، فاحكمت خط سيرها كي لا ترتطم بالأسلاك ، وتشبثت بالمكنسة بقوة اكبر ، وفي لحظة كانت تحلق فوق البيت المنكوب . مال الزقاق الذي تحتها على جانب وغار في الأرض ، وبرز بدلاً منه تحت قدميها حشد من الأسطح تقطعها في زواياها طرقات صغيرة مشعشعة . وعلى حين غرّة انسحبت الأسطح من تحتها جانباً وانطمست حلقات الأنوار وامتزجت .

واندفعت مرغريتا اندفاعة اخرى فاذا بالأسطح كلها تغور في الأرض وتبدو بدلاً منها بحيرة من الأنوار الكهربائية الراعشة . وفجاة ارتفعت هذه البحيرة شاقوليـــاً ثم ظهرت فوق راس مرغريتا ، بينما تلألأ القمر تحت قدميها . ادركت مرغريتا انها انقلبت راساً على عقب فاستعادت وضعها الطبيعي والتفتت فاذا بالبحيرة لا وجود لها ، وليس خلفها الا هالة وردية في الأفق .



واختفت الهالة ايضاً في ثانية فرات مرغريتا نفسها وحدها مع القمر الذي يطير الى اليسار من فوقها . كان شعر مرغريتا قد تكوّم كومة واحدة ، وكان ضوء القمر يغسل جسدها محدثاً صوتاً كالصفير . وادركت مرغريتـــا ، وهي ترى صفين من الأنوار المتفرقة يندمجان في خطّين ناريين متصلين ويختفيان وراءها بسرعة انهـــا تطير بسرعة جنونية ، ودهشت كيف لا تتقطع انفاسها .

وما هي الاّ ثوان حتى توهجت في مكان ما بعيد تحتها في سواد الأرض بحيرة جديدة من الأنوار الكهربائية وتكوّمت تحت قدمي الطائرة ، لكنهـا سرعان مـــا دارت كاللولب وغارت في الأرض . ومرّت ثوان اخرى فاذا بالظاهرة نفسها تتكرر .

– مدن ! مدن ! – صاحت مرغريتا .

وبعد هذا رات تحتها مرتين او ثلاثاً سيوفاً في غمد سود مكشوفة ينعكس منهـا بريق خافت وادركت ان هذه السيوف ليست سوى انهار .

كانت مرغريتا الطائرة تدير راسها الى الأعلى واليسار تمتع ناظريها برؤية القمر يمرق فوقها كالمجنون متراجعاً الى موسكو ، ويقف مكانه في الوقت نفسه على نحوٍ ادهشها بحيث كانت ترى عليه بجلاء تنيناً او حصان بحر داكناً غامضاً موجهاً بوزه المدبّب الى المدينة المهجورة .

وهنا تملكت مرغريتا فكرة انها ، في الواقع ، عبثاً تسوق مكنستها بهذه السرعة المفرطة ، فهي تحرم بهذا نفسها من تأمل اي شيء على مهل ومن التمتع بطيرانها . وهتف هاتف في داخلها انهم سينتظرونهـــا هناك الى حيث هي طائرة ، وانه لا داعي لشعور الملل الذي تعانيه جراء طيرانها على هذا الارتفاع وبهذه السرعة الجنونية .

خفضت مرغريتا راس المكنسة المنفوش الى الأمام بحيث ارتفع ذيلها الى الأعلى ، وخفضت سرعتهـــا الى حدّ كبير ، وانحدرت بها باتجاه الأرض . بعث هذا الانزلاق الشبيه بالانزلاق على زلاجة هوائية نشوة فائقة في نفس مرغريتا . ونهدت الأرض الى مرغريتا فتبينت في هاتيك الكتلة السوداء ، العديمة الشكل حتى الآن ، كل ما فيها من اسرار ومواطن جمال في هذه الليلة

المقمرة . كانت الأرض تمضي للقياها ، ورائحة الغابات التي بدأت الخضرة تكسوها تهفّ عليها . وطارت مرغريتا فوق ضباب يكتنف مرجاً نديّاً ثم فوق بركة كبيرة . كانت الضفادع تغني جوقة واحدة تحتها ، وفي مكان ما في البعيد يهدر قطار لا تدري لم اشجاها هديره . وما هي برهة الا حتى رأت مرغريتا قطاراً يزحف متباطئاً كأنه اسروع وهو ينثر شرراً في الهواء . تجاوزت مرغريتا القطار ومرّت فوق مرآة مائية اخرى يسبح فيها تحت قدميها قمر ثان . ثم هبطت قليلاً واستأنفت طيرانها حتى كادت قدماها تلامسان رؤوس اشجار الصنوبر الضخمة .

وانشق الهواء وراء مرغريتا عن صوت عنيف ، سرعان ما اخذ يلحق بها . وشيئاً فشيئاً انضمت الى هدير هذا الشيء المنطلق كقذيفة قهقهة نسائية مسموعة على بعد فراسخ . التفتت مرغريتا فأبصرت شيئاً أسود مركباً يلحق بها . كان هذا الشيء يزداد وضوحا مع اقترابه من مرغريتا وأخيراً لاح لها أن شخصاً ما يطير راكباً ، ثم تبينته تماماً بعد ان ادركها وخفّف سرعته . ولم يكن هذا الشخص سوى ناتاشا .

كانت ناتاشا تمتطي ظهر خنزير مخصيّ مكتنز يحضن بحافريه الأماميين حقيبة ، ويدق بالخلفيين الهواء بعنف ، وهي عارية تماماً وشعرها المنكوش يتطاير في الهواء . كانت نظارة الخنزير التي سقطت عن انفه تطير الى جانبه على سلك وهي تلمع في ضوء القمر حيناً ثم ينطفىء بريقها ، وقبعته تسقط بين الحين والحين على عينيه . تفرست مرغريتا في الخنزير ملياً وما ان عرفت فيه نيقولاي ايفانوفتش حتى دوت قهقهتها فوق الغابة تختلط بقهقهة ناتاشا .

– ناتاشا ! – صرخت مرغريتا بصوت ثاقب ، – هل طليت نفسك بالدهان ؟

– عزيزتي ! – اجابت ناتاشا وهي توقظ بزعيقها غابة الصنوبر الغافية ، – ياملكتي الفرنسية ، دلكت صلعته أيضاً .

– اميرتي ! – صرخ الخنزير بصوت باك وهو ينطلق بفارسته خبباً .

– عزيزتي ! مرغريتا نيقولايفنا ! – صاحت ناتاشا وهي تخب الى جانبها ، – اعترف لك اني اخذت الدهان . فنحن أيضاً



نريد ان نعيش ونطير ! اعذريني ياسيدتي ، لكني لن أعود ، لن أعود مهما يكن ! آه ما اجمل هذا يامرغريتا نيقولايفنا ! لقد تقدّم لي بعرض ، – واخذت ناتاشا تغرز اصبعها في رقبة الخنزير اللاهث في حياء – تقدّم لي بعرض ! كيف دعوتني ، آ ؟ – صاحت ناتاشا وهي تميل على أذن الخنزير .

– معبودتي ، – انّ الخنزير ، – لا استطيع مواصلة الطيران بهذه السرعة ! قد اضيع أوراقاً هامة . ناتاليا بروكوفييفنا ، اني احتج .

– اذهب الى الشيطان انت واوراقك ، – صاحت ناتاشا وهي تقهقه بوقاحة .

– ماذا تقولين يا ناتاليا بروكوفييفنا ! قد يسمعنا أحد ! – صرخ الخنزير ضارعاً .

وحدّثت ناتاشا مرغريتا وهي تطير الى جانبها خبباً بما حدث في الدار بعد أن غادرتها مرغريتا نيقولايفنا من الباب .

اعترفت ناتاشا انها لم تمدّ يدها الى اي من الأشياء التي اهدتها لها مرغريتا ، بل خلعت ملابسها واندفعت الى الدهان فدلكت به جسمها على الفور ، فحدث لها ما حدث لسيدتها . وفيما كانت ناتاشا تقف امام المرآة تتملّى جمالها السحري وهي تقهقه من الفرح ، فتح الباب وظهر نيقولاي ايفانوفتش امامها . كان مضطرباً يمسك بيديه قميص مرغريتا نيقولايفنا وقبعته وحقيبته . بهت نيقولاي ايفانوفتش لمنظر ناتاشا . لكنه تمالك نفسه بعض الشيء وقال لها ، وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً ، انه رأى من واجبه لمّ القميص وحمله شخصياً الى . . .

– وما الذي قاله ايضاً ، الوغد ! – زعقت ناتاشا وهي تقهقه ، – ما الذي قاله ، وبما اغراني ! وبأي نقود منّاني ! قال ان كلافديا بيتروفنا لن تدري بشيء . قل لي هل اكذب ؟ – صرخت ناتاشا بالخنزير فما كان منه الا ان أخذ يشيح بوزه في حياء وارتباك .

وبين الضحك والمعابثة في المخدع طلت ناتاشا نيقولاي ايفانوفتش بالدهان وفغرت فاها من الدهشة . تقلّص وجه ساكن الطابق السفلي المحترم حتى صار فنطيسة ونمت على رجليه ويديه حوافر . نظر نيقولاي ايفانوفتش الى نفسه في المرآة وخار

خواراً وحشياً يائساً ، لكن الوقت كان قد فات ، وفي ثوان كان يطير الى الشيطان خارج موسكو وهو ينتحب لشقائه وقد امتطت ناتاشا ظهره .

– اطالب باعادة هيئتي الطبيعية ! – قبع الخنزير فجاة بصوت مبحوح لا تدري اهو صوت حانق او ضارع ، – انا لست مستعداً للذهاب الى اجتماع غير قانوني ! ومن واجبك يا مرغريتا نيقولايفنا ايقاف خادمتك عند حدّها .

– آه ، الآن صرت خادمة بالنسبة لك ؟ خادمة ؟ – صرخت ناتاشا وهي تفرك له اذنه ، – قبل قليل كنت معبودتك . الم تدعني هكذا ؟

– فينوس ! – اجاب الخنزير بصوت باكٍ وهو يطير فوق ساقية تسقسق بين الحصى ، وشجرة جوز اهتزت اغصانها لملامسة حوافره .

– فينوس ! فينوس ! – هتفت ناتاشا بلهجة ظفر وهي تضع يداً على خاصرتها وتبسط الاخرى نحو القمر ، – مرغريتا ، يا ملكتي ! توسّلي اليهم ان يبقوني جنية . سينفذون ما تشائين فقد اعطيت سلطاناً !

وجاءها جواب مرغريتا :

– حسناً ، اعدك بذلك !

– شكراً ، – هتفت ناتاشا ثم صرخت فجاة بحدّة وبشيء من الغم : – هيْ ، هيْ ! هيّا هيا ! اسرع ! – ولكزت بكعبيها خاصرتي الخنزير المهزولتين من هذا العدو الجنوني ، فوثب هذا بحيث انشق الهواء من جديد ، وفي لحظة بدت ناتاشا في المقدمة نقطة سوداء سرعان ما تلاشت وذاب هدير طيرانها .

وعادت مرغريتا تطير ببطء ، كما في السابق ، في مكان قفر ومجهول فوق ربى تناثرت فيها صخور ملس متفرقة بين اشجار صنوبر ضخمة متباعدة . كانت مرغريتا تطير وتقول لنفسها انها الآن في مكان بعيد جداً عن موسكو على الأرجح . لم تكن المكنسة تطير الآن فوق رؤوس اشجار الصنوبر بل بين جذوعها التي فضّض شعاع القمر احد جوانبها . وانزلق ظلّ الطائرة الرقيق على الأرض أمامها – كان القمر الآن يضيء ظهر مرغريتا .

شعرت مرغريتا بقرب المـاء وادركت ان الهدف قريب .



انفرجت اشجار الصنوبر ودنت مرغريتا بهدوء في الجو من جرف جيري ، يجري خلفه في الأسفل نهر في الظل . كان الضباب معلقاً يتشبث بالشجيرات في اسفل الجرف الشاقولي ، على حين كانت الضفة المقابلة مستوية واطئة ، وكانت تنطلق من تحت مجموعة يتيمة من الأشجار المترامية الأطراف عليها السنة صغيرة من نار متقدة ، وتتراءى اطياف متحركة . وبدا لمرغريتا انها تسمع موسيقى متلهفة مرحة تاتيها من هناك . وفيما يلي الضفة وعلى مدّ النظر لم يكن يبدو في السهل المفضض اثر لسكن او احياء .

قفزت مرغريتا من اعلى الجرف وهبطت بسرعة الى الماء . كان الماء يغريها بعد هذا العدو الجوي . رمت مكنستها بعيداً وعدت بكل قوتها تقفز الى الماء . اخترق جسمها الخفيف الماء كانه السهم وارتفع عمود من الماء حتى كاد يبلغ القمر . كان الماء دافئاً كما في حمام . طفت مرغريتا خارجة من اللجة وسبحت في النهر وحيدة في الليل حتى الارتواء .

لم يكن يرى احد على مقربة من مرغريتا ، انما كان يسمع على بعد يسير وراء الشجيرات رشاش ماء ونخير . لا بدّ ان احدهم كان يسبح هناك .

خرجت مرغريتا الى ضفة النهر . كان جسمها متورّداً بعد العوم ولم تكن تشعر باي تعب ، فاخذت ترقص على العشب البليل . وفجاة كفت عن الرقص وارهفت السمع توجساً . صار النخير يدنو ، وبرز من وراء شخيرات الصفصاف شخص سمين عارٍ يعتمر قبعة حريرية عالية سوداء مائلة على قذاله ، وقدماه في طين الطمي حتى الكعبين بحيث بدا المستحم وكانه ينتعل حذاء اسود . وكان بامكان المرء ان يحزر من لهاثه وحزقه أنه على درجة كبيرة من السكر ، الأمر الذي اكدته ، بالمناسبة ، رائحة الكونياك التي اخذت تنبعث من النهر فجاة .

راى السمين مرغريتا فتفرّس فيها وصرخ في فرح :

– ما هذا ؟ اهي التي ارى ؟ كلوديا ، احقاً هذه انت ايتها الأرملة التي لا تعرف الغم والكآبة ؟ وانت هنا ؟ – واندفع يحيي ويسلم .

تراجعت مرغريتا وقالت بوقار :

– اذهب الى الشيطان . أي كلوديا أنا ؟ انظر مع من تتكلم ، – ثم فكّرت لحظة واتبعت كلامها بشتيمة طويلة بذيئة ممّا جعل السمين الطائش يفيق من سكره :

– أويْ ! – هتف بصوت خافت وارتجف ،– سامحينـــي ايتها الملكة الكريمة مارغو ! لقد أخطأت والذنب ذنب الكونياك ، عليه اللعنة ! – هنا خرّ السمين على ركبته وازاح القبعة وانحنى وتمتم كلاماً سخيفاً بالروسية مخلوطة بالفرنسية على عرس دموي لصديقه جيسار في باريس وعلى الكونياك وعلى انسحاق قلبـــه جراء خطأ مؤسف .

– لو ترتدي سروالك يابن الكلب ، – قالت مرغريتا وقد رقّت لهجتها .

ابتسم السمين ، وقد رأى ان مرغريتا غير غاضبة ، ابتسامة فرح عريضة ، وانباها انه انما بدون سروال في اللحظة الراهنة لأنه تركه من شرود ذهنه على ضفة نهر الاينيسي حيث كان يسبح قبل قليل ، وانه سيطير من فوره الى هناك ، وان المسافة من هنا قريبة جدّاً ، وأخذ يتراجع القهقرى ، بعد ان سألها عطفها ورعايتها ، وظل يتراجع حتى زلّت قدمه وسقط على ظهره في الماء . لكنه احتفظ بابتسامة الانبهار والوفاء على وجهه المطوّق بفودين صغيرين حتى وهو يسقط في الماء .

اما مرغريتا فقد أطلقت صفيراً حاداً وامتطت صهوة المكنسة التي هرعت اليها وانطلقت تقطـــع النهر الى الضفة المقابلـــة المغمورة كلها بنور القمر اذ كان ظل الجبل الجيري يقصر عنها .

مـــا ان لامست قدم مرغريتـــا العشب البليل حتى دوّت الموسيقى تحت اشجار الصفصاف بقوة اكبـر ، وتطايرت من الشعلة حزمة الشرر مزغردة بحبور اكبر . كانت الضفادع الغليظة الوجوه تجلس في صفين تحت اغصان الصفصاف التي تناثـرت عليها اقراط موبرة لطيفة ، ظاهرة في ضوء القمر ، وتعزف مارشاً حماسياً على مزامير خشبية وهي تنتفخ كأنها من مطّاط . وكانت هناك حباحب متدلّية على اغصان الصفصاف امـام الموسيقيين تضيء النوتات الموسيقية ، وضوء الشعلة يتأرجح على سحـن الضفادع .

كان المارش يعزف على شرف مرغريتا وكان الاستقبال الذي



استقبلت به من أحفل الاستقبالات . أوقفت الحوريات الشفافات رقصتهن فوق النهر ، ولوحّن لمرغريتا بالأعشاب المائيـة ، وتردّدت كالأنين فوق الضفة الخالية المائلة الى الخضرة تحياتهن المسموعة بعيداً . ووثبت الجنيـــات العاريات من وراء جذوع الصفصاف واصطففن صفاً واحداً ، وأخذن يثنين ركبهن منحنيات تحيّة كسيدات البلاط . ووصل الشخص ذو القدمين العنزيتين طائراً ، وانكب على يد مرغريتا ثم بسط على العشب حريراً وسأل مرغريتا ان كانت الملكة استحمت جيداً بالماء وسألها ان كانت تتفضل بالاستلقاء قليلاً وأخذ قسط من الراحة .

وفعلت مرغريتا كما أشار عليهـــا ، وحمل الشخص ذو القدمين العنزيتين كأساً من الشمبانيا الى مرغريتا فشربته وأحست بالدفء يسري في قلبها على الفور . واستفسرت مرغريتا عن مكان وجود ناتاشا فقيل لها ان ناتاشا فرغت من استحمامها وواصلت طيرانها على خنزيرها الى موسكو كي تنبّههم الى وصول مرغريتا قريباً ، وتساعدهم في اعداد الملابس لها .

ولم يعكر صفو مرغريتا أثناء اقامتها القصيرة تحت شجر الصفصاف ، الا حادثة صغيرة اذ دوى في الجوّ صفير وهوى في الماء جسم اسود يبدو أنه قد أخطأ هدفـــه على نحو فاضح . وخلال لحظات كان ذلك السمين ذو الفودين الصغيرين الذي مثل ذلك المثول غير الموفق امام مرغريتا على تلك الضفة يقف بين يدي مرغريتا . لقد تمكن ، فيما يبدو ، من الوصول الى نهر الاينيسي لأنه كان الآن يرتدي الفراك ، لكنه كان مبلّلاً من رأسه حتى اخمص قدميه . لقد خذله الكونياك ثانيةً : أراد أن يحطّ على الأرض فاذا به يسقط في المـــاء . لكنه لم يضيّع ابتسامتـــه حتى في هذا الموقف المحزن ، وافسحت مرغريتـــا الضاحكة المجال له كي يقبل يدها .

ثم أخذ الجميـــع يستعدون للانطلاق . أكملت الحوريات رقصهن على ضوء القمر وذبن فيه ، وسأل ذو القدمين العنزيتين مرغريتا باحترام عن كيفية وصولها الى النهر ، فقال بعد أن عرف بقدومها على ظهر مكنسة :

– أوه ، لماذا فعلت هذا ، هذا غير مريح ، – وفي لحظة صنع من عودين هاتفاً مريبـــاً وطلب من شخص ما ان يبعث

بسيّارة ، الأمر الذي تحقق بالفعل في دقيقة واحدة . فقد سقطت على الجزيرة سيارة كميت مكشوفة ، انما لم يكن في مقعد القيادة سائق ذو مظهر عادي ، بل غراب قيظ طويل الأنف يضع سدارة مشمّعة وقفازين بطرفين متسعين . اخذت الجزيرة الصغيرة تقفز . غادرت الجنيات وذبن في وهج القمر ، والشعلة ارسلت آخر ذبالاتها ، وابتلع الرماد الجمرات الأخيرة .

اركب ذو الفوديـــن وذو القدمين العنزيتين مرغريتـــا ، فاستلقت على المقعد الخلفي الواسع . هدرت السيـارة ووثبت وحلّقت حتى القمر نفسه تقريباً . اختفت الجزيرة واختفى النهر واندفعت مرغريتا الى موسكو .

## الفصل الثاني والعشرون

## على ضوء الشموع

كان الهدير الرتيب للسيّارة المنطلقة عالياً فوق الأرض يهدهد مرغريتا ، وضوء القمر يبعث في جسدها دفئاً مخدراً . اغمضت عينيها واسلمت وجهها للريح ، وهي تفكر في غير قليل من الحزن في تلك الضفة المجهولة من النهر التي غادرتها ، والتي لن تراها بعد اليوم ابداً كما شعرت . فقد أدركت بعد كل هذه الخوارق والمعجزات التي راتها في هذا المساء مـــن هو الشخص الذي ستحلّ في ضيافته ، لكن هذا لم يفزعها . فقد انتزع املها في التمكن من استعادة سعادتها كل خوف من قلبها . على اي حال لم يتسنّ لمرغريتا ان تحلم طويلاً بهذه السعادة . ولسنا ندري هل ذلك لأن غـــراب القيظ كان يعرف عملـــه جيداً ام لأن السيّارة كانت جيدة ، الاّ ان مرغريتا فتحت عينيها بعد قليل فاذا بها لا ترى تحتها ظلام الغابة بل بحيرة مرتعشة مـن اضواء موسكو . فك الطائر-السائق الأسود العجلة اليمنى الأمامية وهو محلّق ثـــم هبط بالسيّارة في مقبـــرة مقفرة ، في منطقـــة دورغوميلوفو . انزل الغراب مرغريتا ، التي لم تكن تسأله عـن شيء ، مع مكنستها قرب احدى الشواهد واطلق السيّارة باتجاه منحدر وراء المقبرة . وفي هذا المنحدر هوت السيّارة في جلجلة



عظيمة وفي اسفله قضـــت . ادى غراب القيظ التحية باحترام وركب العجلة وحلّق بها مغادراً .

وعلى الفور لاحت من خلـــف احدى الشواهد بردة سوداء ، ولمع ناب في ضوء القمر ، وتبينت مرغريتا ازازيلو ، ودعاهـا هذا بحركة الى ركوب المكنسة على حين وثب هو على شيش طويل وشبا بسرعة في الجو وما هي الا ثوان حتى كانا يحطّان عـــلى مقربة من العمارة رقم ٣٠٢-مكـــرر في شارع سادوفايا دون ان يلحظهما احد .

عندما عبر الرفيقان الطنف المظلم وهما يتابطان المكنســـة والشيش لاحظت مرغريتا شخصاً يعتمر كبية وينتعل جزمة عالية يقبع فيه وقد اضناه التربص على ما يبدو . وعلى الرغم من كل خفّة خطوات ازازيلو ومرغريتا سمع الرجل الوحيد وقعها فانتفض في اضطراب دون ان يعرف من صاحب هذه الخطوات .

والتقيا بشخص ثان يشبه الأول حتى الاعجاز في المدخـــل السادس . وتكررت القصة من جديد . خطوات . . . التفـــت الرجل وقطّب . وعندما فتح الباب واغلق اندفع خلف الداخلين الخفيين ، والقى نظرة الى الممر لكنه لم ير بطبيعة الحال شيئاً .

وكان الثالث ، وهو نسخة دقيقة من الثاني وبالتالي مـــن الأول ، يناوب في بسطة الطابق الثالث وهـو يدخّن سجائـر ثقيلة . سعلـــت مرغريتا وهي تعبر قربه فوثب مـن مقعده كالملسوع واخذ يتلفت حوله في اضطراب ، ثم دنا من الدرابزين وتطلّع الى الأسفل . كانـــت مرغريتا ومرافقها قد بلغا في هذه الأثناء باب الشقة رقم ٥٠ لكنهما لم يقرعا جرساً بل فتـــح ازازيلو الباب بمفتاحه الخاص دون أي صوت .

اول ما صعقت له مرغريتا كان الظلام الذي وجدت نفسهـــا فيه . لم يكن يرى في الشقة شيء وكأنها في غرفة تحت الأرض ، فتشبثت مرغريتا دون ان تعي ببردة ازازيلو خشية ان تعثر . انما غمز في مكان بعيد في الأعلى نور قنديل ضئيل واخذ يقترب . ونزع ازازيلو على الماشي المكنسة من تحت ابط مرغريتـــا فاختفت في الظلام دون اي صوت . وهنا اخـذا يرقيان درجات واسعة صار يبدو لمرغريتا ان لا نهاية لها . والذي بهتت لـــه مرغريتا هو كيف يمكن لمدخل شقة موسكوفية عادية ان يتسع

لهذا الدرج غير العادي وغير المرئي الذي تحس به مع ذلك احساساً واضحاً . وهنا انتهى الدرج ، وادركت مرغريتا انها تقف على بسطته . واقترب منهما الضوء فرأت مرغريتا وجه رجل طويل اسود يحمل بيده القنديل ايّاه وكان بامكان اي شخص ساقه سوء طالعه للالتقاء بهذا الرجل مصادفة ان يتعرف اليه على الفور حتى على لسان الضوء الضئيل المبعث من القنديل . كان هذا كوروفييف الذي هو نفسه فاغوت .

والحقيقة ان تغيراً كبيراً طرأ على مظهر كوروفييف . فلم يكن النور المتغامز ينعكس في نظّارة أنفية متصدعة آن الأوان لأن يرميها في الزبالة من زمن طويل ، بل في نظّارة منفردة ، متصدعة هي ايضاً في الحقيقة . وكان شارباه الصغيران على وجهه الوقح مبرومين مدهونين ، اما سواده فيمكن تفسيره ببساطة : ذلك انه كان في الفراك ولم يكن يبدو فيه من بياض الاّ صدره .

انحنى المشعوذ او قائد الكورس او الساحر او المترجم او الشيطان لا اعلم من يكون بالفعل ، وبالاختصار انحنى كوروفييف محيّياً ودعا مرغريتا ، وهو يبسط يده التي تحمل القنديل في حركة واسعة ، ان تتبعه واختفى ازازيلو .

وقالت مرغريتا تفكر في سرّها : «ياله من مساء غريب ، كنت اتوقع كل شيء الا هذا ! اتكون الكهرباء انطفأت عندهم ؟ لكن الأغرب هو مقاييس هذه الشقة ! كيف يمكن لشقة موسكوفية ان تسع هذا كله ؟ بكل بساطة ، هذا غير ممكن» .

وعلى الرغم من ضآلة الضوء المنبعث من قنديل كوروفييف ، ادركت مرغريتا انها في قاعة ضخمة فسيحة والى هذا ذات أعمدة ومظلمة تبدو للوهلة الأولى وكان لا نهاية لها . توقف كوروفييف قرب ديوان صغير ووضع القنديل على منضدة ، ودعا مرغريتا باشارة منه الى الجلوس على حين جلس الى جانبها جلسة بهية – مرتفقاً المنضدة .

– اسمحي لي ان اقدّم نفسي ، – قال كوروفييف بصوت كالصرير ، – كوروفييف . يدهشك عدم وجود النور ، اليس كذلك ؟ من باب الاقتصاد كما فكرت طبعاً ؟ لا ، لا ، لا . ليقطعْ اول جلاّد نصادفه اليوم راسي على المنضدة ، وليكن واحداً من هؤلاء الذين سيكون لهم شرف لثم ركبتيك بعد قليل ، ان كان



الأمر كذلك . القضية ببساطة ان السيد لا يحب نور الكهرباء . ولن نشعله الا في آخر لحظة . اذّاك ، صدقيني ، لن يشكو احد من شحه ، بل اقول لك : ربما كان من الأفضل ان يكون النور اقلّ غزارة .

وقع كوروفييف من قلب مرغريتا موقعاً طيباً ، وفعلت ثرثرته المفرقعة فعل المهدىء في نفسها .

– لا ، – اجابت مرغريتا ، – ما يدهشني اكثر من اي شيء آخر هو المكان الذي يتسع لهذا كله ، – وبسطت يدها مؤكدة بحركتها هذه رحابة القاعة .

ابتسم كوروفييف ابتسامة طفيفة عذبة اهتزت لها ظلال في التجاعيد التي عند أنفه فاجاب :

– هذا من ابسط الأمور ! فمن اليسير كل اليسر على من له معرفة جيدة بالبعد الخامس ان يوسّع مكاناً ما الى الحد الذي يرغبه . واقول لك اكثر من ذلك ايتها السيدة المحترمة : يستطيع ان يوسّعه الى حدود الشيطان وحده أعلم بها . وبالمناسبة ، – قال كوروفييف يواصل ثرثرته ، – عرفت اناساً ليس عندهم اي فكرة عن البعد الخامس فقط ، بل ليس عندهم اي فكرة عن اي شيء ، ومع هذا اجترحوا المعجزات من حيث توسيع مسكنهم . وعلى سبيل المثال قيل لي ان احد سكان المدينة استلم شقة من ثلاث غرف في «زيملينوي فال» ، وفي لحظة حوّلها الى شقة من اربع غرف بلا اي بعد خامس او غيره من الاشياء التي تجعل المرء يفقد صوابه وذلك بأن قطع احدى الغرف نصفين بحاجز .

ثم بادل شقته هذه بشقتين مستقلتين في حين مختلفين من موسكو : الأولى بثلاث غرف والثانية باثنتين . وهكذا اصبح عدد الغرف خمساً كما ترين . ثم بادل شقته ذات الثلاث غرف بشقتين مستقلتين كل منهما بغرفتين وهكذا صار يملك ست غرف ، كما ترين . صحيح انها موزعة في فوضى كاملة على كل انحاء موسكو لكنها ست غرف على اي حال . وكان يستعد للقيام بآخر واروع ضرباته بأن اعلن في الجرائد عن استعداده لاستبدال شقة واحدة بخمس غرف في «زيملينوي فال» بست غرف موزعة في انحاء مختلفة من موسكو حين توقّف نشاطه فجأة

لاسباب لا دخل له فيها . قد تكون له غرفة الآن ، لكنـي اجرؤ على التاكيد لك انها ليست في موسكو . اليك مثالاً على الدهاء ، وانت تكلمينني على البعد الخامس .

ومع ان مرغريتا لـم تفتح فمها بكلمة واحدة عـن البعد الخامس ، بل كوروفييف هو الذي كان يشرحه لها ، الا انهـا اطلقت ضحكات الغبطة وهي تستمع الى مغامرات داهية الشقـق هذا . لكن كوروفييف اردف يقول :

– والآن الى المسألة التي تهمنـا ، يامرغريتا نيقولايفنا . انت امراة ذكية جداً ، وحزرت بالطبع من هو سيّدنا .

دقّ قلب مرغريتا واومات براسها .

– تمام ، تمام ، – قال كوروفييف ، – نحـن اعداء اي جمجمة او غموض . ان سيدنا يقيم حفلة راقصة كل عام . هذه الحفلة تدعى حفلة اكتمال البدر الربيعية او حفلة المائة ملك . وما اكثر عدد الضيوف ! – هنا وضع كوروفييف يده على خدّه كانما سنّه تؤلمه ، – على اي حـال آمل ان تتاكدي من ذلك بنفسك . وهكذا فسيدنا ، كما ادركتِ بالطبـع ، عازب ، وفي حاجة الى سيدة ، – هنا بسط كوروفييف يديه ، – ولا بد ان توافقي على انه بدون سيدة . . .

كانت مرغريتا تصغي الى كوروفييف محاولة الا تفوتهـا كلمة ، على حين كانت تشعر بالبرد يدبّ تحت قلبها وبامـل السعادة يدير راسها .

– والتقليد المتبع يقضي اولاً بان تحمل السيدة اسـم مرغريتا حتماً ، وثانياً ان تكون من اهل البلد . ونحن ، كمـا ترين ، نطوف البلدان ، وفي الوقـت الراهن نحن موجودون في موسكو . ولقد وجدنا في موسكو مائة وواحدة وعشرين مرغريتا ، لكن هل تصدقين ، – وهنا خبط كوروفييف على فخذه بياس ، – ان ايّاً منهن لم تناسبنا . واخيراً لولا حظّنا السعيد . . .

ابتسم كوروفييف ابتسامة خفيفة معبّرة ومال بقامته فدب البرد من جديد في قلب مرغريتا .

– باختصار ! – هتف كوروفييـف ، – باختصار شديد : هل تمانعين في اخذ هذه المهمة على عاتقك ؟

– لا امانع ، – اجابت مرغريتا بحزم .



– انتهى ! – قال كوروفييف واردف وهو يرفع القنديل :

– ارجو ان تتبعيني .

ومضيا بين الأعمدة ، واخيراً وجدا نفسيهما في قاعة اخرى كانت تفوح منها ، لأمر ما ، رائحة ليمون قوية ، وتسمع فيهـا همسات . واحست مرغريتا بشيء يمسّ راسها فارتعدت .

– لا تخافي ، – قال كوروفييف يهدىء روعها بلهجة عذبـة وهو يتابط ذراعها ، – انها من الاعيب بيغيموت التي يعدّهـا للحفلة الراقصة لا اكثر . وبشكل عام اسمح لنفسي بأن اتجرا وانصحك ، يامرغريتا نيقولايفنـا ، الا تخافي ابداً واي شيء . هذا غير معقول . ستكون الحفلـة في غاية الابهة والروعة ، لا اخفي هذا عنك . وسنرى اشخاصاً كان حجم سلطانهم عظيماً ، وعظيماً جداً في وقته . لكن يقيناً ما ان تفكري في مدى ضآلـة امكاناتهم بالمقارنة مع امكانات من لي الشرف ان اكون احد افراد حاشيته حتى يبدو لك امرهم مضحكاً بل اكاد اقول محزناً . ثم انك انت نفسك تحملين دماً ملكياً في عروقك .

– ولماذا احمل دماً ملكياً ؟ – همست مرغريتا في ذعر وهي تلتصق بكوروفييف .

– آه ، ياماليكتي ، – بقبق كوروفييف مداعباً ، – مسائل الدم اصعب المسائل في عالمنا ! واذا مـا اتيح لنا ان نسأل بعض جدّات جداتنا ، خصوصاً اللواتـي اشتهرن بوداعتهن ، لتكشفت لنا اسرار مذهلة يامرغريتا نيقولايفنا المحترمة ! ولن اجانب الصواب وانـا اتكلم في هذا ان اذكـر دستة الورق المخلوطة خلطاً غريباً . هناك اشياء تبطل فيها تماماً الحواجز بين الفئات والطبقات وحتى الحدود بين الدول . وآية ذلك ان احدى ملكات فرنسا التي عاشت في القرن السادس عشر كانت ستذهل اشد الذهول فيما اعتقد ، لو قيـل لها انى ، بعد مرور هذه السنوات الطويلة ، سأمسـك بذراع حفيدة حفيدة حفيدة حفيدتها الفاتنة وادور بها في قاعات الحفلة الراقصة في موسكو . ولكن قد وصلنا !

وهنا نفخ قنديله فاختفى من يده ، ورأت على الأرض امامها شريط ضوء تحت باب مظلم . وطرق كوروفييف هذا الباب برفق فاضطربت مرغريتا بحيث اصطكت اسنانها وسرت القشعريرة في

ظهرها . وفتح الباب فاذا هي بغرفة غير كبيرة ، فيها سرير واسع من خشب البلّوط عليه شراشف ومخدة قذرة مكرمشة مكوّمة بعضها فوق بعض ، وامام السرير طاولة من خشب البلوط ذات قوائم محفورة وعليها شمعدان ذو تعشيقات على شكل قوائم طيور ذات مخالب . وفي هذه القوائم الذهبية السبع كانت تحترق شموع غليظة . وكانت على طاولة صغيرة ، بالاضافة الى ذلك ، رقعة شطرنج عليها قطع رائعة الصنع ، وعلى سجادة صغيرة رثة مقعد واطئ . كما كانت هناك طاولة ثانية عليها كاس ذهبية وشمعدان صنعت عروقه على شكل أفاع . كانت رائحة الكبريت والقطران تفوح في الغرفة ، والظلال المنبعثة من الشمعدانين تتصالب على أرضها .

وعلى الفور تبينت مرغريتا بين الحاضرين ازازيلو الذي كان الآن يلبس الفراك ويقف عند مسند السرير . ولم يعد ازازيلو في زيّه هذا يشبه قاطع الطريق الذي ظهر لمرغريتا في حديقة الكسندروفسكي ، بل انحنى يحيي مرغريتا في كياسة بالغة .

وكانت تجلس على السجّادة الصغيرة عند السرير ساحرة عارية – غيلا ايّاها ، تلك التي اربكت صاحب البوفيه المحترم في فاريتيه ذلك الارباك العظيم ، والتي اجفلها الديك لحسن الحظ في ليلة حفلة السحر المعروفة ، وهي تحرّك في المقلاة شيئاً يتصاعد منه بخار كبريتي .

وبالاضافة الى هؤلاء كان في الغرفة قطّ اسود هائل الحجم يجلس على كرسي عال امام طاولة الشطرنج وهو يقبض بقائمته اليمنى على حصان الشطرنج .

نهضت غيلا وانحنت محيية مرغريتا ، ووثب القط من كرسيه الى الأرض وفعل مثلها وهو يخفق بقائمته الخلفية اليمنى فسقط الحصان على الأرض وزحف القطّ يبحث عنه تحت السرير .

تبينت مرغريتا المتجمدة من الخوف هذا كله بصعوبة بالغة من خلال الظلال الماكرة التي كانت الشموع ترسلها . فقد كان نظرها منشداً الى السرير الذي كان يجلس عليه ذاك الذي كان ايفان المسكين يقنعه قبل حين في بتريرشيي برودي ان الشيطان غير موجود . غير الموجود هذا بالذات كان يجلس على السرير .

وتعلقت بوجه مرغريتا عينان . اليمنى تنطلق من قاعها



شرارة ذهبية تنفذ الى أعمق أعماق النفس ، واليسرى فارغة وسوداء تشبه ثقب ابرة ، او تشبه فوّهة بئر لا قرار لها تضجّ بشتى انواع الظلام والأشباح . كان وجه فولند مائلاً وزاوية فمه اليمنى مشدودة الى أسفل ، وعلى جبينه الأصلع العالي انحفرت غضون عميقة بموازاة حاجبيه المدببين ، وبشرة وجهه ذات سمرة كانما لفحته الشمس واحرقته الى الابد .

كان فولند متمدّداً على السرير لا يستر لحمه الا قميص نوم طويل قذر ومرقّع في كتفه اليسرى ، وقد طوى رجلاً عارية تحته ومدّ الأخرى امامه على المقعد . وكانت غيلا تدهن ركبة رجله السمراء هذه بدهان مدخّن .

وتبينت مرغريتا ايضاً على صدر فولند الأجرد المكشوف جعلاً من حجر داكن رائع الصنع مربوطاً بسلسلة ذهبية نقشت على ظهره كتابة . وكان ينتصب الى جانب فولند على السرير مجسم غريب للكرة الأرضية على قاعدة ثقيلة . كان المجسّم مضاء من أحد جانبيه وكان يبدو كانه حيّ .

استمر الصمت بضع ثوان . «انه يدرسني» – قالت مرغريتا في نفسها وهي تحاول بجهد ارادي ايقاف الرعشة في قدميها .

واخيراً تكلم فولند وهو يبتسم مما جعل عينه التي تقدح الشرر وكان تبدو وكانها اشتعلت قال :

– احييك ايتها الملكة ، وارجو ان تعذريني على لباسي البيتي .

كان صوت فولند من الانخفاض بحيث بدا في بعض كلامه وكانه يحشرج .

تناول فولند من على السرير شيشاً طويلاً وانحنى وحرّك الشيش تحت السرير وقال :

– اخرج ! الجولة الغيت . قدمت الينا ضيفة .

– ولا باي شكل ، – صفر كوروفييف بقلق فوق اذن مرغريتا وكانه ملقّن :

– ولا باي شكل . . . – قالت مرغريتا .

– سيّدي . . . – نفخ كوروفييف في اذنها .

– ولا باي شكل ، سيدي ، – اجابت مرغريتا بصوت خافت لكنه واضح بعد ان تمالكت نفسها ، ثم ابتسمت

واردفت : – ارجوك الا توقف اللعبة . واعتقد ان المجلات المتخصصة في الشطرنج ستدفع اموالاً لا بأس بها فيما لو تمكنت من نشرها .

تنحنح ازازيلو بصوت خافت محبذاً ، بينما رنا فولند الى مرغريتا بتمعن وقال كانما يوجّه ملاحظة لنفسه :

– نعم ، كوروفييف على حقّ ! ما اغرب خلط الأوراق ! الدم !

بسط يده واوما الى مرغريتا . دنت منه وهي لا تحس بالأرض تحت قدميها الحافيتين . فوضع يده الثقيلة كالحجر والساخنة في الوقت نفسه كالنار على كتف مرغريتا وشدّها اليه واجلسها قربه على السرير وقال :

– بما انك على هذا القدر من اللطف الساحر ، ومن ناحيتي لم اكن اتوقع منك شيئاً آخر ، اسمحي لي برفع الكلفة بيننا ،

– ثم انحنى ثانية على طرف السرير وصاح : – هل ستستمر هذه المهزلة تحت السرير طويلاً ؟ اخرج ايها البهلول اللعين !

– لا استطيع ان اعثر على الحصان ، –ردّ القط من تحت السرير بصوت مخنوق ومصطنع ، – لقد نطّ الى مكان ما ولا القى امامي الاّ ضفدعة .

– الا تظن نفسك في ساحة معرض ؟ – ساله فولند متظاهراً بالاستياء ، – لم يكن هناك اي ضفدعة تحت السرير ! دع هذه الخزعبلات الرخيصة لفاريتيه . اذا لم تظهر امامي في الحال ، سنعتبرك مستسلماً ايها الهارب اللعين !

– لن استسلم مهما يكن من امر ، ياسيدي ! – زعق القطّ وهو يخرج في اللحظة ذاتها من تحت السرير قابضاً بقائمته على الحصان .

– اقدّم لك . . . – همّ فولند يقول ، لكنه قاطع نفسه وقال : – لا ، لا استطيع ان ارى هذا البهلول ! انظروا الى ما حوّل اليه نفسه تحت السرير .

كان القطّ الملوّث بالغبار يقف في هذه الأثناء على قائمتيه الخلفيتين وهو ينحني محيياً مرغريتا . كان يضع الآن على عنقه ربطة عنق بيضاء للفراك على شكل عقدة ، وعلى صدره نظّارة



منفردة نسائية لؤلؤية مربوطة بسير صغير ، كما طلى شاربيه بالذهب .

– ماذا ارى ! – صاح فولند ، – لماذا ذهّبت شاربيك؟ واي شيطان دعاك الى وضع ربطة العنق وانت لا ترتدي حتى سروالاً ؟

– لا يفترض في القط ان يرتدي سروالاً ، يا سيدي ، – اجاب القط بوقار عظيم ، – واخشى ان تأمرني ، بعد هذا ، بانتعال جزمة . القطّ الذي ينتعل جزمة لا يوجد الا في الحكايات ، ياسيدي . لكن هل رايت يوماً شخصاً في حفلة راقصة دون ربطة عنق ؟ ومن جهتي ليست لدي اية نية في ان اظهر في موقف مضحك واعرّض نفسي لشرّ طردة ! كلّ منا يزيّن نفسه بما يستطيع . واعتبر ان ما قلتُه ينطبق على النظّارة ايضاً ياسيدي !

– وشارباك ؟ . .

– لا ادري ، – اجاب القطّ يعترض بصوت جاف ، – لماذا كان بامكان ازازيلو وكوروفييف وهما يحلقان ذقنيهما اليوم ان يرشّاهما بمسحوق ابيض ، وفيم هذا المسحوق افضل من الذهبي ؟ لقد رششت مسحوقاً على شاربي ، هذا كل ما في الأمر ! لو اني حلقت ذقني ، لكانت هذه مسالة اخرى ! القطّ الحليق – بشاعة ما بعدها بشاعة بالفعل ، هذا امر انا مستعد للاعتراف به الف مرة . لكني ، بشكل عام ، – وهنا ارتعش صوت القطّ من الاستياء ، – ارى انه توضع امامي عراقيل لا معنى لها ، وبالتالي ارى نفسي امام مسالة خطيرة : هل احضر الحفلة ام لا ؟ ماذا تقول في هذا ياسيدي ؟

وانتفخ القطّ من الحيف اللاحق به بحيث بدا ان ما هي الا ثانية حتى ينفجر .

– آه ، ياللماكر ، ياللماكر ، – قال فولند وهو يهزّ راسه ، – كلما كان موقفه ميئوساً منه في جولة شطرنج ، ياخذ يضللنا بكلامه وكانه احطّ دجّال على الجسر . اجلس فوراً وكفّ عن هذا الهذر .

واجاب القط وهو يجلس :

– ساجلس ، لكني اعترض على قولك الأخير . فكلامي ليس

هذراً على الاطلاق كما تفضلت وقلت في حضرة السيدة ، بل سلسلة محكمة الحلقات من القياسات المنطقية ، جديرة بان يعرف قدرها ائمة مثل سيكست امبيركوس ومرسيان كابيلا وحتى ارسطو نفسه .

– كش ملك بالشاه ، – قال فولند .

– حاضر ، حاضر ، – ردّ القط واخذ يحدّق في رقعة الشطرنج من خلال نظارته .

واردف فولند موجهاً كلامه الى مرغريتا :

– وهكذا ياسيدتي اقدم لك حاشيتي . صاحب الحماقات هذا هو القط بيغيموت . ازازيلو وكوروفييف سبق لك ان تعرفت اليهما . وهذه خادمتي غيلا اقدّمها لك . انها فارعة ونبيهة وما من خدمة يعسر عليها تقديمها اليك .

ابتسمت غيلا الحسناء وهي تحوّل الى مرغريتا عينيها الخضراوين دون ان تتوقف عن غرف الدهان براحتها ووضعه على ركبة فولند .

– هذه هي حاشيتي كلها ، – قال فولند منهياً تقديمه وقطّب حاجبيه اذ ضغطت غيلا بقوة خاصة على ركبته ، – المجموعة كما ترين قليلة ، مختلطة وبسيطة . – ثم صمت واخذ يقلّب امامه المجسّم المصنوع بمهارة بحيث كانت المحيطات الزرق تتحرك عليه والقبّة على القطب تبدو حقيقية ، متجمدة ومثلجة .

في هذه الاثناء كانت البلبلة تنتشر فوق رقعة الشطرنج . كان الملك الذي بلغ به الارتباك اشده يراوح بردائه الأبيض في المربع رافعاً يديه في يأس ، وثلاثة من البيادق البيض المرتزقة حاملي الفؤوس المستطيلة ينظرون في حيرة الى ضابط يلوّح بسيفه الطويل ويشير الى امام حيث كان يرى في المربعين المتجاورين ، الأبيض والأسود ، فارسان اسودان من فرسان فولند على حصانين جامحين يحفران المربعين بحوافرهما .

واثار اهتمام مرغريتا ودهشتها البالغين ان قطع الشطرنج كانت حيّة .

رفع القط النظارة عن عينه ودفع ملكه برفق من ظهره ، فاخفى هذا وجهه بين يديه في يأس .



– الأمر سيء ، ايها العزيز بيغيموت ، – قال كوروفييف بصوت خافت ساخر .

– الوضع خطير ، لكنه غير ميئوس منه اطلاقاً ، – ردّ بيغيموت . – زد على ذلك اني واثق تماماً من النصر النهائي : يكفي ان نحلّل الموقف بروية .

وراح يجري تحليله هذا على نحو غريب الى حدّ ما ، وعلى وجه الضبط اخذ يفصّل سجّناً ما ويغمز ملكه .

– لن ينفعك اي شيء ، – قال كوروفييف ملاحظاً .

– ايْ ، – صاح بيغيموت ، – تطايرت الببغاوات كما تنبأت !

وبالفعل سمع في مكان ما في البعيد تصفيق اجنحة عديدة . واندفع كوروفييف وازازيلو الى الخارج .

– لياخذكم الشيطان انتم وخزعبلات حفلاتكم الراقصة ! – دمدم فولند دون ان يرفع عينيه عن المجسّم امامه .

ما ان اختفى كوروفييف وازازيلو حتى اشتد غمز بيغيموت واتصل . واخيراً حزر الملك الابيض ما يراد منه ، فنزع رداءه فجاة ، والقاه على المربع ، وعدا هارباً من رقعة الشطرنج . القى الضابط الرداء الملكي المرمّى عليه ، واتخذ مكان الملك ، وعاد كوروفييف وازازيلو .

– اكاذيب كالعادة ، – دمدم ازازيلو وهو ينظر الى بيغيموت شزراً .

– تهيا لي اني سمعت اصواتاً ، – اجاب القط .

– اي ، الام سيستمر هذا ؟ – سال فولند ، – كش ملك بالشاه !

– الارجح اني اخطات السمع ياسيدي ، – قال القط ، – ليس هناك شيء اسمه كش ملك بالشاه ، ولا يمكن ان يكون شيء كهذا .

– اكرر : كش ملك بالشاه .

– سيدي ، – ردّ القط بصوت مصطنع يشي بالقلق ، – لقد بلغ منك الاعياء اشده : ليس هناك شيء اسمه كش ملك بالشاه .

– الملك في المربع ح – ٢ – قال فولاند دون ان ينظر الى رقعة الشطرنج .

– سيدي ، الذعر يتملكني ، – انّ القط وهو يرسم علامات الذعر على سحنته ، – لا وجود للملك على هذا المربع .

– ما هذا ؟ – سأل فولند في ذهول واخذ يحدّق في الرقعة حيث كان الضابط الواقف في مربّع الملك يشيح بوجهه ويغطيه بيده .

– آه ايها النذل ، – قال فولند في شرود .

– سيدي ! اني احتكم مجدّداً الى المنطق ، – قال القط وهو يضم قائمتيه الى صدره ، – اذا كان اللاعب يكش الملك بالشاه بينما الملك غير موجود على رقعة الشطرنج اطلاقاً اعتبر الشاه باطلاً .

– هل تستسلم أم لا ؟ – صرخ فولند بصوت رهيب .

– اسمح لي بقليل من التفكير ، – اجاب القط في استكانة ، واسند مرفقيه الى الطاولة ودسّ اذنيه بين قائمتيه واخذ يفكر . فكر القطّ طويلاً وقال اخيراً : – أستسلم .

– القتل للسافل العنيد ، – همس ازازيلو .

– لكني استسلم ، استسلم ، – قال القط ، – وما كنت لأستسلم الا لأني لا استطيع اللعب في هذا الجوّ من الاضطهاد الذي يخلقه الحاسدون ! – ونهض فتسللت قطع الشطرنج الى علبتها .

– حان الوقت ياغيلا ، – قال فولند ، وللحال اختفت غيلا من الغرفة . – لقد اشتد علي السم رجلي ، وهناك فجاة هذه الحفلة الراقصة .

– هلاّ تسمح لي ؟ – سألته مرغريتا بصوت خافت .

رنا فولند الى مرغريتا متفحصاً وقرّب اليها ركبته .

كان السائل الساخن كسائل بركاني يلسع يدي مرغريتا ، لكن مرغريتا كانت تحاول ، دون ان يتغضن لها وجه ، الا تسبب له الماً وهي تدلك ركبته .

وقال فولند دون ان يرفع عينيه عن مرغريتا :

– يؤكد المقرّبون انه الروماتيزم ، لكن يراودني شك كبير في ان ساحرة فاتنة تعرفت اليها عن كثب عام الف



وخمسمائة وواحد وسبعين في جبال بروكين في قسم الدراسات الشيطانية هي التي تركت لي هذا الالم في ركبتي للذكرى .

– آه ، هل هذا معقول ؟ – قالت مرغريتا .

– بسيطة . بعد ثلاثمائة عام او نحو ذلك سيزول الالم . لقد نصحت بتناول العديد من الأدوية ، لكني لا زلت كما في القديم اتبع وسائل جدتي . لقد خلّفت لي العجوز النجسة جدتي اعشاباً مدهشة ! وبالمناسبة قولي لي هل تتالمين من شيء ؟ ترى هل تعانين من حزن يسمّم لك حياتك او من كآبة ؟

– لا ياسيدي ، لا اعاني شيئاً من هذا ، – اجابت مرغريتا النبيهة ، – والآن ، وانا في ضيافتك ، اشعر اني في حالة جيدة تماماً .

– الدم مسالة عظيمة ، – قال فولند بصوت مرح دونما سبب ظاهر واردف : – ارى ان مجسّمي يثير اهتمامك .

– طبعاً ، طبعاً ، فانا لم ار في حياتي شيئاً كهذا .

– انه شيء جيد . فانا ، اذا شئت الصراحة ، لا احب اخبار الراديو ، اذ تذيعها دائماً فتيات يلفظن اسماء الأمكنة بطريقة غير مفهومة . بالاضافة الى ان ثلثهن معقودات اللسان قليلاً ، كانما يتم اختيارهن هكذا عن قصد . وعلى هذا فمجسّمي اريح وانسب ، لاسيّما انه تلزمني معرفة الأحداث بدقة . هل ترين مثلاً قطعة الأرض هذه التي يغسل المحيط جنبها ؟ انها الآن تطفح بالنار . لقد بدات الحرب هناك . واذا قربّت نظرك ، بامكانك ان تري حتى التفاصيل الصغيرة .

انحنت مرغريتا فوق المجسم فرات ان مربّع الأرض اتسع وتلوّن بالوان متعددة وتحوّل الى ما يشبه خريطة ناتئة . ثم رات عليه شريط نهر وقربه بلدة اما البيت الذي كان بحجم الحصّة فقد كبر حتى صار بحجم علبة الكبريت . وفجاة ودون اي صوت تطاير سطح هذا البيت في عمود من الدخان الأسود وهوت جدرانه بحيث لم يبق من العلبة ذات الطابقين الا كومة جدّ صغيرة يتصاعد منها دخان اسود . وقرّبت مرغريتا عينها اكثر فتبينت شكلاً نسائياً صغيراً مطروحاً على الأرض والى جانبه طفل صغير مبسوط اليدين في بركة من الدم .

– انتهى كل شيء . – قال فولند وهو يبتسم ، – لم يتسنّ له الوقت حتى يخطىء . عمل ابادونا * لا غبار عليه .

– ليس بودّي ان اكون الى الجانب الذي يقف ابادونا ضده ، – قالت مرغريتا . – لكنه الى جانب مَنْ ؟

– بقدر ما أسترسل في الحديث معك ، – ردّ فولند بلطف ، – ازداد اقتناعاً بذكائك البالغ . وساطمئنك على الفور . انه نادر المثال من حيث عدم تحيّزه ، ولهذا فهو يتعاطف مع الجانبين المتحاربين بشكل متساوٍ . وعلى هذا تكون النتائج بالنسبة للجانبين مساوية دائماً . ابادونا ! – نادى فولند بصوت غير عال ، فظهرت من الجدار على الفور هيئة شخص نحيل يضع نظارتين سوداوين . ولسبب ما احدثت هاتان النظارتان في قلب مرغريتا تأثيراً قوياً بحيث اطلقت صرخة خافتة ودسّت وجهها في رجل فولند . – الا هدات ، – صاح فولند ، – ما اشد توتر اعصاب الناس في هذه الأيام ! – وربت بقوة على ظهر مرغريتا بحيث ند عن جسدها كله رنين .

– الا ترين انه يضع نظارات ! ثم انه لم يحدث ابداً ان ظهر ابادونا امام اي كان قبل الأوان ولن يحدث . ثم اني ، اخيراً . هنا ، وانت في ضيافتي ! اردت فقط ان اريك !

كان ابادونا يقف دون حراك .

– هل من الممكن ان يخلع نظارتيه لثانية ؟ – سالت مرغريتا وهي تلتصق بفولند وترتعش انما من الفضول هذه المرة .

– هذا بالذات امر غير ممكن ، – اجاب فولند برزانة ولوّح بيده لابادونا الذي اختفى على الفور . – ماذا تريد ان تقول يا أزازيلو ؟

– اسمح لي ياسيدي ان اقول لك ان عندنا غريبين : غادة حسناء تنشج وتتوسل ان ندعها مع سيدتها ، ومعها ، وارجو المعذرة ، خنزيرها .

– الحسناوات يتصرفن تصرفات غريبة ، – لاحظ فولند .

– انها ناتاشا ، ناتاشا ، – صاحت مرغريتا .

---

* ملك الموت . المترجم .



– حسناً ، دعها مع سيدتها . اما الخنزير فالى الطباخين !

– للذبح ؟ – صاحت مرغريتا مذعورة ، – حنانك ياسيدي . انه نيقولاي ايفانوفتش ، جارنا في الطابق السفلي . لقد حدث خطأ ، فقد طلته بالدهان . . .

– عفوك ، – قال فولند . – من فكّر في ذبحه ولماذا نذبحه ؟ ليجلس مع الطباخين ، هذا كل ما في الأمر ! فانا لا استطيع ، كما لا بد تدركين ، السماح له بدخول قاعة الاحتفال !

– طبعاً . . . – اردف ازازيلو ثم اعلن : – منتصف الليل يقترب ياسيدي .

– آ ، حسناً ، – قال فولند ثم توجه بالكلام الى مرغريتا يقول : – تفضلي اذن ! واشكرك سلفاً . لا تنذهلي ولا تخافي شيئاً . لا تشربي الاّ الماء والاّ اصابك الاسترخاء والوهن وساءت حالك . آن الأوان !

نهضت مرغريتا عن السجادة ، وهنا برز كوروفييف في الباب فجأة .

## الفصل الثالث والعشرون

## حفلة رقص كبرى عند الشيطان

كان منتصف الليل يقترب ، وكان عليهم ان يستعجلوا . ولم تكن مرغريتا ترى الأشياء ، ان رأتها ، الا بشكل غائم . وتذكر مرغريتا فيما تذكر شموعاً وحوضاً من حجر كريم . ولما صارت مرغريتا في قاع هذا الحوض صبت عليها غيلا وناتاشا التي كانت تساعدها سائلاً ساخناً كثيفاً واحمر . احست مرغريتا بطعم مالح على شفتيها وادركت انهما تغسلانها بالدم . وأبدل بالرداء الدموي رداء آخر كثيفاً شفافاً ورودياً فشعرت مرغريتا من عطر الورد بدوار في رأسها . ثم ألقيت مرغريتا على مخدع بلوري واخذت تدلك حتى درجة اللمعان بأوراق خضر كبيرة . وهنا انسل القط واخذ يساعدهما . جلس القرفصاء

عند قدمي مرغريتا واخذ يدلك كعبيها وكأنه يدهن جزمة على قارعة الطريق . ولم تعد مرغريتا تذكر من الذي صنع لها من بتلات الوردة الشاحبة حذاء ، ولا كيف شدّ هذا الحذاء تلقائياً بابزيم ذهبي . وجذبت قوة خفية مرغريتا ووضعتها أمام المرآة ، فلمع في شعرها تاج ملكي من الماس وظهر كوروفييف من مكان ما ، وعلق على صدر مرغريتا صورة كلب صغير أسود في اطار بيضوي الشكل ، مربوط بسلسلة ثقيلة . اثقلتْ هذه الزينة على مرغريتا ، اذ اخذت السلسلة تعقر رقبتها وعنقها . والصورة تحني قامتها . لكن شيئاً آخر عوّض مرغريتا عن كل هذه المنغصات التي سببتها السلسلة والكلب الأسود هو الاحترام الكبير الذي اخذ كوروفييف وبيغيموت يعاملانها به .

– بسيطة ، بسيطة ، بسيطة ! – غمغم كوروفييف عند باب الغرفة ذات الحوض . – لا مفرّ من ذلك ، لازم ، لازم ، لازم . واسمحي لي ايتها الملكة ان اسدي لك نصيحة اخيرة . ضيوفنا متنوعون . آه ما اشد تنوعهم ، لكن ايّاك ، ايتها الملكة مارغو ، وتفضيل احدهم على الآخر ! واذا لم يعجبك احد . . . ادركْ جيداً انك لن تبدي بطبيعة الحال هذا على وجهك . . . لا ، لا ، حتى التفكير في هذا غير جائز ! سيلاحظ في اللحظة عينها . عليك ان تحبيه . ان تحبيه ايتها الملكة . وسيعود هذا على سيدة الحفلة بأعظم النفع ! وشيء آخر : لا تغفلي احداً حتى بابتسامة صغيرة ، واذا لم يكن لديك وقت لتبادل كلمة فاقلّه التفاتة طفيفة ! ايّ شيء يحلو لك الاّ عدم الاكتراث .فهذا يسقمهم ويضنيهم . . .

وهنا خطت مرغريتا برفقة كوروفييف وبيغيموت من غرفة الحوض الى ظلمة دامسة .

– أنا ، أنا ، – همس القط . – انا ساعطي الاشارة !

– هيّا ، – اجاب كوروفييف في العتمة .

– الحفلة الراقصة ! – ازّ القط ازيزاً حاداً فاطلقت مرغريتا على الفور صرخة ، واغمضت عينيها عدّة ثوان . سقطت الحفلة عليها فوراً في شكل نور ، ومع النور صوت ورائحة . ورأت مرغريتا ، التي كان كوروفييف يتابط ذراعها ، نَفْسَها في غابة استوائية . كانت الببغاوات ذات الصدور الحمر والذيول الخضر



تتشبث بالنباتات المتسلقة وتنطّ عليها وتصرخ بصوت داوٍ : «كم انا معجبة !» . لكن الغابة انتهت بسرعة . وللحال اختفى جوّها الخانق الأشبه بجوّ الحمام وحلّت محلّه برودة قاعة الحفلة ذات الأعمدة المصنوعة من حجر لمّاع ضارب الى الصفرة . وكانت هذه القاعة كالغابة خالية تماماً الا من زنوج عراة يقفون عند الأعمدة دون حراك ، معصوبي الرؤوس بعصابات فضية . وغشيت وجوههم المنفعلة سمرة داكنة رمادية حين دخلت القاعة طائرة مرغريتا وحاشيتها التي انضم اليها في مكان ما ازازيلو . وهنا ترك كوروفييف ذراع مرغريتا وهمس :

– على السوسن مباشرة !

وانتصب امام مرغريتا جدار غير عال من السوسن الأبيض ، ورأت مرغريتا خلف الجدار انواراً لا عدّ لها في اباجورات صغيرة وامامها اناس يرتدون الفراك بصدورهم البيض واكتافهم السود . اذّاك ادركت مرغريتا مصدر اصوات الحفلة . انهال عليها هدير الأبواق كما انصب عليها صوت الكمانات المنطلق من تحت هذا الهدير كانه الدم . كانت الاوركسترا المكونة من نحو مائة وخمسين شخصاً تعزف البولونيز .

لما رأى الشخص ذو الفراك المنتصب عالياً امام الاوركسترا مرغريتا شحب لونه وابتسم . وبتلويحة مفاجئة من يده انهض الاوركسترا كلها وظلّت الاوركسترا ، وهي واقفة ، تغمر مرغريتا بالألحان دون ان تنقطع الموسيقا لحظة واحدة . وأدار الرجل المنتصب فوق الاوركسترا ظهره للعازفين ورسم انحناءة عميقة باسطاً يديه على اتساعهما فلوّحت له مرغريتا بيدها مبتسمة .

– لا ، هذا لا يكفي ، لا يكفي ، – همس كوروفييف : – لن ينام طول الليل . اهتفي له : «احييك ياملك الفالس !» .

وهتفت له مرغريتا ما قاله لها كوروفييف ودهشت لصوتها الملآن كصوت الجرس يعلو على عواء الاوركسترا . ارتعش الرجل من سعادته . ووضع يده اليسرى على صدره ، بينما استمر يلوّح بعصاه البيضاء للاوركسترا بيمناه .

– لا يكفي ، لا يكفي ، – همس كوروفييف ، – انظري الى اليسار ، الى عازفي الكمان الأوائل واومئي بحيث يحس كل

واحد منهم انك عرفته شخصياً . فليس هنا الاّ اشهر عـــازفي العالم . اومئي الى هذا الذي خلف المنصة الأولى – انه فييتان . هكذا ، ممتاز . تابعي الآن .

– مَنْ قائد الاوركسترا ؟ – سألت مرغريتا وهي تبتعد في الهواء .

– يوهان شتراوس . – صاح القط ، – ولاّ علّق مـــن رقبتي في الحديقة الاستوائية على نباتات متسلقة ان عزفتْ في اي حفلة وفي اي وقت اوركسترا مثل هذه الأوركسترا ! انا الذي دعوته ! ولاحظوا ان أحداً منهم لم يمرض ولم يرفض .

ولم تكن في القاعة التالية اعمدة ، بل ارتفعت مكانها جدران من الورود الحمر والوردية والبيض بياض الحليب مـن جهة ، وجدار من الكاميليا اليابانية من جهة اخرى . وبين الجـدران كانت الفسقيّات تتدفق بالماء المسقسق ، والشامبانيا تفـور فقاعات في ثلاثة احواض اولها بنفسجي شفاف ، وثانيها مـن الياقوت الأحمر وثالثها بلّوري . وكان زنوج في عصابات حمر قانية يغدون الى جانبها ويملؤون بمغارفهم الفضية كؤوسـاً مسطحة من الأحواض . وتبين لها في جدار من الورود شـقّ ، وعلى المسرح الذي في الشق شخص بفراك احمر له ذيل كذيل السنونو يرغي ويزبد ، وامامه يدوي جاز دويّاً لا يطاق . وما ان راى قائد الجاز مرغريتا حتى تقوّس ظهره ومست يـداه الأرض ، ثم انتصب وصاح بصوت ثاقب :

– هليلويا !

وضرب على ركبته مرّة ، وعلى ركبته الأخرى مرّة اخرى بحيث تصالبت يداه . وخطف من يدي العازف الذي على طرف صنجاً وضرب به العمود .

وجلّ ما راته مرغريتا وهي تبتعد في الهواء ان قائد الجاز البارع الذي كان ينازل البولونيز التي كانت تنفخ في ظهـــر مرغريتا ، كان يهوي بالصنج على رؤوس عازفي الجـاز ، وان هؤلاء يثنون ارجلهم في ذعر مصطنع يبعث على الضحك .

واخيراً خرجوا طائرين الى البسطة حيث كان كوروفييف قد استقبلها في الظلام وهو حامل قنديله كما حدستْ . كان النور المتدفق من عناقيد العنب البلورية يعمي الآن الأبصار على هذه



البسطة . ووُضعت مرغريتا في مكان ما سرعان ما تبين لها أن تحت يدها اليسرى عموداً واطئاً من الجمشت .

– بوسعك وضع يدك على العمود اذا ساءت حالتك كثيراً ، – همس كوروفييف .

والقى شخص ما اسود البشرة وسادةً مطرزّة بكلب ذهبي تحت قدمي مرغريتا ، فثنت ركبتها ووضعت قدمها اليمنى على الوسادة منصاعة لأيدٍ لم تتبينها . حاولت مرغريتا تفحّص ما حولها ، فرات كوروفييف وأزازيلو منتصبين الى جانبها في وضع استعراضي ، والى جانب أزازيلو ثلاثة شبّان ذكرها شيء ما فيهم تذكيراً غامضاً بأبادونا . وشعرت مرغريتا ببرودة تلسع ظهرها . التفتت فرات خمرة تتدفق من الجدار المرمري الـذي خلفها في نشيش ، وتصب في حوض متجمد ؛ واحست مرغريتا بشيء دافيء وكث الشعر عند قدمها اليسرى – كان هـــذا بيغيموت .

كانت مرغريتا على علوة ، وكان يمتد من تحت قدميها الى الأسفل درج ضخم فخم مفروش بالسجّاد . وفي الأسفل ، الذي بدا لمرغريتا بعيداً جداً كأنما كانت تنظـر على نحو مقلـــوب بالمنظار ، رات غرفة البوابين الهائلة بموقدها الهائل الحجم الذي تستطيع شاحنة بحمولة خمسة اطنان ولوج شدقه الأسود البارد بكل يسر . كان الدرج وغرفة البوابين المغمورات بضوء يؤلم العينين خاليين . وكانت الأبواق تتناهى الى سمع مرغريتا من بعيد الآن . وهكذا ظلّوا دون حراك حوالي الدقيقة .

– لكن اين الضيوف ؟ – سألت مرغريتا كوروفييف .

– سيحضرون ايتها الملكة ، سيحضرون للحال . ولـن يكونوا بالقليلين . والحق افضّل قطع الخشب على استقبالهم على البسطة هنا .

– قطع الخشب امر يسير ، – تلطّف القطّ المهـــذار الكلام ، – اما انا فعلى استعداد لأن اعمل جابياً في ترام ، فليس في العالم كله اسوأ من هذا العمل .

– يجب ان يكون كل شيء جاهزاً قبل الوقت ، ايتهـــا الملكة . – قال كوروفييف وعينه تلمع من خلال نظارتـــه المشققة ، – فليس ما هو اسوأ من وضع الضيف الذي يصل

قبل غيره ، ويأخذ يسعى هنا وهناك وهو لا يدري ماذا يفعل ، بينما تأخذ زوجته الشرعية الشريـــرة في تقريعه همســـاً على وصولهما قبل الآخرين . ان حفلات كهذه يجب رميها في بلاّعة القاذورات ايتها الملكة .

– في بلاعة القاذورات بالتحديد ، – قال القطّ مثنياً .

– لم يبق حتى منتصف الليل الا اكثر من عشر ثوان .

– اردف كوروفييف . – حان الافتتاح .

بدت هذه الثواني العشر طويلة جداً لمرغريتا ، ولعلّهـــا انقضت ولم يحدث شيء . وفجأة دوّى شيء ما في الموقد الضخم في الأسفل وانسلّت منه مشنقة يتأرجح عليها جثمـــان نصف متفتت . وافلت هذا الجثمان من المشنقة وهوى على الأرض ، فوثب منه للحال شخص طلعة اسود الشعر يرتدي فراكاً وينتعل حذاء لمّاعاً . وعدا من الموقد تابوت صغير نصف متعفّـــن . فطار غطاؤه وخرج منه جثمان آخر . وهرول الرجل الطلعة الى الجثمان في تادّب وكياسة ومدّ اليه يده ليتأبطها ، فاستحال الجثمان الثاني امراة عارية حَرِكة تنتعل حذاء اسود وتضـــع ريشاً اسود على راسها ، واسرع الاثنان ، الرجل والمراة ، يصعدان الدرج .

– انهما اول القادمين ، – هتف كوروفييف ، – السيـــد جاك وزوجته . اقدم اليك ايتها الملكة واحداً من اكثر الرجال اثارة ! مزيّف نقود عنيد . وخائن ، لكنه خيماوي * لا بأس به ،

– واردف كوروفييف يهمس في اذن مرغريتا : – اشتهر بانه دسّ السم لعشيقة الملك . وهذا لا يحدث لأي كان ! انظري ما اوسمه !

كانت مرغريتا التي شحب لونها تتطلع الى الأسفل فاغـرة الفم وقد رات المشنقة والتابوت يختفيان في باب جانبي مـــن غرفة البوابين .

– اني احد المعجبين بك كل الاعجاب ، – صرخ القط في وجه السيّد جاك الذي كان يصعد الدرج .

في هذا الوقت بدا خارجاً من الموقد في الأسفل هيكل انساني

---

* مشتغل بالكيمياء القديمة . **المترجم** .



مبتور الراس واليد وسقط على الأرض واستحال الى رجل في فراك .

كانت زوجة السيد جاك تجثو الآن على ركبتها امام مرغريتا وتقبل ركبتها وهي شاحبة الوجه من الأضطراب .

– ايتها الملكة ، – غمغمت زوجة السيد جاك .

– الملكة معجبة بك كل الاعجاب . – هتف كوروفييف .

– ايتها الملكة . . . – قال الرجل الوسيم السيد جاك بصوت منخفض .

– نحن معجبون بك كل الاعجاب ، – عوى القط .

كان الشبّان مرافقو ازازيلو يدفعون الآن جانباً السيـــد جاك وزوجته وهم يبتسمون ابتسامات لا حياة فيها انما ودودة الى حيث كؤوس الشامبانيا التي يمسكها الزنوج في ايديهم . وكان يصعد الدرج عدواً رجل وحيد يلبس الفراك .

– الكونت روبرت ، – همس كوروفييف لمرغريتا . – لا زال مثيراً للاهتمام كما في السابق . ارجـــو ان الفت نظرك ايتها الملكة الى امر مضحك : نحن هنا امام حالة عكسية : هذا الكونت كان عشيق الملكة ودسّ السم لزوجته .

– يسرنا حضورك ، ياكونت ، – صاح بيغيموت .

وخرجت من الموقد الواحد اثر الآخر ثلاثـــة توابيت وهي تتمزّق وتنفتح ، ثم خرج في اثرها شخص ما في رداء اسود طعنه شخص تلاه خارجاً من الشدق الأسود بسكين في ظهره . وسمعت في الأسفل صرخة مكتومة ، وهرول من الموقد جثمان متفســـخ تماماً . اغمضت مرغريتا عينيها ، فاذا بيد تمتد الى انفهـــا بزجاجة ملح ابيض . بدا لمرغريتا ان هذه يد ناتاشا . واخذ الدرج يغص بالوافدين وعلى كل درجة من درجاته رجال بالفراك يبدون من بُعد متشابهين كل الشبه ومعهم نساء عاريـــات لا تتميز الواحدة من الأخرى الا بلون الريش على راسها ولـــون حذائها .

واقتربت من مرغريتا متعثرةً في مشيتها سيدة تلبس جزمة خشبية غريبة في رجلهـــا اليسرى ، ذات عينين مسبلتين على طريقة الراهبات ، نحيلة ، متواضعة تربط لأمر ما عنقها بعصابة خضراء عريضة .

– من هذه الخضراء ؟ – سألت مرغريتا آلياً .

– انها واحدة من اعظم السيدات سحراً وشأناً . – همس كوروفييف ، – اسمحي لي ان اقدمها لك : السيدة توفانا . كانت لها شهرة خارقة في أوساط صبايا نابولي الفاتنات . وكذلك بين نساء باليرمو ولا سيما اللواتي ضقن بازواجهن : فقد يحدث ، ايتها الملكة ، ان تضيق المرأة بزوجها .

– نعم . – اجابت مرغريتا بصوت مهموس وهي تبتسم في آن لاثنين من اصحاب الفراكات كانا ينحنيان الواحد اثر الآخر امامها ويقبلان ركبتها ويدها .

– نعم هكذا اذن . . . – تمكّن كوروفييف من الهمس لمرغريتا والصياح في الوقت نفسه لاحدهم : – ياحضرة الدوق ، كاس شمبانيا ! لك اعجابي ! هكذا اذن كانت السيدة توفانا تتعاطف مع النساء التعسات وتبيعهن الماء في زجاجات . وكانت الزوجة تسكب من هذا الماء في حساء زوجها ، فكان هذا يتناول حساءه ويشكر زوجته على لطفها وهو على خير ما يرام . والحقيقة انه ما كانت تمرّ عدّة ساعات حتى يشعر الزوج بعطش شديد ، فيستلقي في سريره وما هو الا يوم حتى تكون النابولانية الحسناء التي اطعمت زوجها الحساء حرة طليقة كنسمة الربيع .

– وما الذي في قدمها ؟ – سألت مرغريتا وهي لا تنفك تقدم يدها للضيوف اللاحقين بالسيدة توفانا التي تعرج ، – ولماذا هذا الاخضرار في عنقها ؟ أليس عنقها كامداً ؟

– لك اعجابي ، ايها الأمير ! – هتف كوروفييف وهمس في الوقت نفسه لمرغريتا : – عنق رائع لكنها اصيبت بمكروه في السجن . في قدمها ، ايتها الملكة ، جزمة اسبانية * . اما الشريط فاليك السبب : عندما عرف السجانون ان حوالي خمسمائة رجل من الأزواج الذين اسيء اختيارهم غادروا نابولي وباليرمو الى الأبد ، خنقوا في سورة غضبهم السيدة توفانا في السجن .

– ما اسعدني ايتها الملكة السوداء ان يتاح لي هذا الشرف الرفيع . – همست توفانا كالراهبات وهي تحاول الركوع

* احدى ادوات التعذيب . **المترجم** .



على ركبتها لكن الجزمة الاسبانية كانت تضايقها ، فساعدها كوروفييف وبيغيموت على النهوض .

– وانا في غاية السرور . – اجابتها مرغريتا وهي تمدّ يدها لآخرين .

كان تيار من الناس يصعّد الآن في الدرج . ولم تعد مرغريتا ترى ما يجري في غرفة البوابين . كانت ترفع يدها وتخفضها بصورة آلية وتبتسم للضيوف كاشفة بصورة رتيبة عن أسنانها . كان يخيم على جو البسطة هدير ، ومن قاعات الرقص التي غادرتها مرغريتا كانت تسمع موسيقا وكانها من صوت البحر .

– اما هذه فامراة مملّة . – لم يكن كوروفييف يهمس الآن ، بل يتكلم بصوت عال ليقينه ان احداً لن يسمعه في هذا الهدير . – انها تعبد حفلات الرقص ولا زالت تحلم بان تشكو منديلها .

والتقطت مرغريتا بعينها بين الصاعدين تلك التي اشار اليها كوروفييف . كانت امراة شابة في نحو العشرين من عمرها ذات قوام خارق الجمال ، انما كانت عيناها قلقتين لجوجتين .

–اي منديل هذا ؟ – سألت مرغريتا .

– عُيّنت لها خادمة ، – قال كوروفييف موضحاً ، – وهاهي ذي منذ ثلاثين سنة تضع لها المنديل على المنضدة اثناء الليل . وما ان تصحو ، حتى يكون المنديل جاهزاً . ولقد احرقته في الموقد ورمته في النهر ، لكن هذا لم ينفعها .

– اي منديل ؟ – همست مرغريتا وهي ترفع يدها وتخفضها .

– ذو الكنار الأزرق . القصة انها ، حين كانت تعمل في المقهى ، ناداها صاحب المقهى الى المستودع ، وبعد تسعة أشهر ولدت غلاماً فمضت به الى الغابة وحشت فمه بمنديل ودفنته في التراب . وقالت في المحكمة انه لم يكن لديها ما تطعم به وليدها .

– واين صاحب هذا المقهى ؟ – سألت مرغريتا .

– ايتها الملكة ، – صرّ القط من تحت . – اسمحي لي أن اسالك ما شأن صاحب المقهى هنا ؟ فهو لم يخنق الطفل في الغابة !

غرزت مرغريتا اظافر يسراها الحادة في اذن بيغيموت ، دون ان تتوقف عن الابتسام وهزّ يمناها ، وهمست تقول له :

– اذا سمحت لنفسك بالتدخل مرّة اخرى في الحديث ايها الوغد . . .

صاى بيغيموت بطريقة لا تتناسب وجوّ الحفلة الراقصة وقال بصوت أجش :

– ايتها الملكة . . . ستتورّم اذني . . . لماذا نفسد الحفلة باذن متورمة ؟ . . كنت اتكلم قانونياً . . . ومن وجهة نظر القانون . . . ساخرس ساخرس . . . احسبي أني لست قطاً بل سمكة . انما دعي اذني . . .

افلتت مرغريتا اذنه ، فاذا بالعينين اللجوجتين المغمومتين أمامها .

– اني لسعيدة ، ايتها الملكة سيدة الحفل ، ان اكون من المدعوّين الى الحفلة الكبرى المقامة بمناسبة اكتمال البدر .

– وانا مسرورة برؤيتك ، – اجابتها مرغريتا ، – مسرورة جداً . هل تحبين الشمبانيا ؟

– ما الذي تتفضلين بفعله ايتها الملكة ، – صاح كوروفييف بصوت يائس انما غير مسموع في اذن مرغريتا ، – سيحصل توقّف بسبب الازدحام .

– احبّها ، – قالت المراة بضراعة . وفجاة راحت تردّد بشكل آلي : – فريدا . فريدا ، فريدا ! اسمي فريدا ايتها الملكة .

– اشربي اليوم حتى تسكري يا فريدا ولا تفكري في شيء .

– قالت مرغريتا .

مدّت فريدا كلتا يديها الى مرغريتا ، لكن كوروفييف وبيغيموت امسكاها برشاقة خارقة من ذراعيها وامحت بين الجمهور .

كان المدعوون يتدفقون من الأسفل صفوفاً وكانهم يهاجمون البسطة التي تقف فيها مرغريتا . كانت الأجساد النسائية العارية تصعد بين رجال بفراكات . وكانت تغمر مرغريتا اجساد سمر وبيض وسود وبلون حب البن . وفي الشعور الصهب والسود والكستنائية والشقر كالكتان وفي انهمار الضوء كانت



الاحجار الكريمة تتلالأ ويتراقص شررها ، وكانت الأزرار الماسية تلمع نوراً على الصدور لكأن احدهم رش صفوف الرجال المهاجمة بقطرات من الضوء . كانت مرغريتا تحس في كل ثانية الآن بلمسة الشفاه على ركبتها ، وتمدّ في كل ثانية يدها الى الأمام للتقبيل ، وقد شدّ وجهها بقناع تحية جامد .

– لك اعجابي ، – كان كوروفييف يشدو ، – لك اعجابنا ، لك اعجاب الملكة .

– لك اعجاب الملكة ، – كان ازازيلو يردد بصوت اخن وراء ظهرها .

– لك اعجابي . – كان القط يهتف وراءهما .

– المركيزة قتلت اباها واخويها واختيها بالسمّ بسبب الارث ! – غمغم كوروفييف . – لك اعجاب الملكة ! السيدة ميتكينا ، آه ، ما اجملها ! لكنها عصبية قليلاً . ماذا دهاها حتى احرقت وجه خادمتها بمكواة الشعر ! طبعاً . في ظروف كهذه قد يحدث ذبح ! لك اعجاب الملكة ! ايتها الملكة ثانية انتباه : الامبراطور رودولف ساحر وخيميائي . خيميائي آخر شنق . . آه . هاهي ذي ! يا للماخور الرائع الذي اقامته في ستراسبورغ ! لك اعجابنا . الخياطة الموسكوفية ، نحن جميعاً نحبها لخيالها الذي لا ينفد . كانت تدير دار ازياء وفكرت في امر مضحك بشكل غريب : ثقبت ثقبين صغيرين مدورين في الجدار . . .

– وكانت السيدات يعلمن بهذا الأمر ؟ – سألت مرغريتا .

– كلهن دون استثناء كن يعرفن . – اجاب كوروفييف .

– لك اعجابي . وهذا الشاب ابن العشرين تميز بنزواته الغريبة منذ صباه ، كان حالماً وغريب الأطوار . ولقد احبته احدى الفتيات فباعها لبيت دعارة .

كان النهر يتدفق من الأسفل ، ولم تكن ترى لهذا النهر نهاية ، اذ كان نبعه الذي هو الموقد الضخم لا ينفك يغذيه . مرّت ساعة على هذا المنوال واعقبتها الثانية . وهنا اخذت مرغريتا تلاحظ ان سلسلتها اضحت اثقل مما كانت ، وان شيئاً ما غريباً حدث ليدها ايضا . فقبل ان ترفعها ارتسمت على وجه مرغريتا سمات الالم . لم تعد ملاحظات كوروفييف الطريفة

تسلّي مرغريتا ، وغابت الفروق بين الوجوه المنغولية الحول العيون والوجوه السود والبيض اذ كانت تذوب في بعضها البعض احياناً ، وصار الهواء بينها لسبب ما يهتزّ ويتدفق . وخز الم حاد يد مرغريتا اليمنى فجاة كانه وخز ابرة ، فاطبقت اسنانها ووضعت مرفقها على منضدة . وتناهى اليها من القاعة التي خلفها حفيف كما لو انه صادر عن ارتطام أجنحة بجدران . فادركت ان جحافل المدعوين التي لم يسمع بمثلها من قبل ترقص ، وبدا لمرغريتا انه حتى الأرض المرمرية والفسيفسائية والبلورية في هذه القاعة الغريبة تنبض نبضات منتظمة .

لم يعد يعني مرغريتا شيء من أمر غاي قيصر كاليغولا ولا ميسالينا ، كما لم يعد يعنيها شيء من امر الملوك والدوقات والفرسان والمنتحرين وداسّات السموم والمشنوقين والقوّادات والسجّانين والمحتالين في القمار والجلاّدين والمخبرين والخونة والمجانين والوشاة ومفسدي الأخلاق العامة . اختلطت اسماؤهم كلها في راسها . وذابت الوجوه كلها في جبلة واحدة ضخمة . ولم يستقر في ذاكرتها على نحو موجع الاّ وجه مالوتا سكوراتوف المطوّق فعلاً بلحية نارية . كانت رجلا مرغريتا تتقصفان ، وكانت تخشى أن تنهمر دموعها في اي دقيقة . وكانت افدح الآلام تلك التي كانت تعانيها من ركبتها اليمنى التي كانوا يلثمونها . فقد انتفخت وازرق جلدها على الرغم من ان يد ناتاشا ظهرت عدة مرات قرب هذه الركبة وهي تمسك اسفنجة وتمسحها بشيء ما زكي الرائحة . ومع انقضاء الساعة الثالثة تطلعت مرغريتا الى الأسفل بعينين غاض فيهما الأمل نهائياً واهتزت جذلى : كان سيل الضيوف يغيض .

– قوانين حفلات الرقص واحدة . ايتها الملكة ، – همس كوروفييف ، – الآن ستبدأ الموجة بالهبوط . اقسم اننا نصبر الدقائق الأخيرة . هاهي ذي جماعة من عربيدي بروكن . انهم يصلون دائماً آخر الجميع . نعم ، انهم هم بالذات . غولان سكيران . . . فقط ؟ آه ، لا ، هناك شخص آخر . لا اثنان فقط .

كان آخر مدعوين يصعدان الدرج .

– ومن هذا الجديد ؟ – قال كوروفييف وهو يزر عينه من



وراء بلّور نظارته ، – آه ، نعم . نعم . لقد زاره ازازيلو مرّة ، وعلى كأس من الكونياك نصحه بطريقة يتخلّص بها من شخص كان يخشى كثيراً أن يفضحه . وكان ان نصح احد معارفه التابعين له أن يرش جدران المكتب بالسم .

– وما اسمه ؟ – سألت مرغريتا .

– آه ، الحقيقة اني انا نفسي لا اعرف حتى الآن . – اجاب كوروفييف . – ينبغي ان نسأل ازازيلو .

– ومن الذي معه ؟

– انه اكثر تابعيه اخلاصاً واستعداداً لتنفيذ اوامره . لكما اعجابي ! – صرخ كوروفييف لآخر الصاعدين .

خلا الدرج . فانتظروا قليلاً من قبيل الحيطة . لكن احداً لم يخرج من الموقد .

وفي ثانية ، ودون أن تدري كيف حدث هذا ، وجدت مرغريتا نفسها في تلك الغرفة ايّاها ذات الحوض . وهناك انخرطت فوراً في البكاء من الم يدها ورجلها وتهالكت على الأرض . لكن غيلا وناتاشا سحبتاها من جديد الى تحت دوش الدم وهما تواسيانها ، ودلكتا جسمها من جديد فدبّت فيها الحياة ثانية .

– علينا ايضاً ، ايتها الملكة مارغو ، – همس كوروفييف الذي ظهر فجاة الى جانبها ، – علينا ان نطوف القاعات كلها كي لا يشعر الضيوف انهم اهملوا .

وحلّقت مرغريتا خارجة من الغرفة ذات الحوض . كانت فرقة جاز من القرود قد جنّ جنونها تعزف الآن في المكان الذي كانت اوركسترا ملك الفالس تعزف فيه . اي على المسرح الذي وراء السوسن ، وكانت غوريلا ضخمة ذات فودين اشعثين تحمل بوقاً في يدها تقود الفرقة وهي تتراقص في تثاقل . وفي صف واحد جلس اناس غابات ينفخون في ابواق لامعة ، وقد اعتلت اكتافهم قرود شامبانزيه مرحة تعزف بالهارمونيكا ، وكان اثنان من قردة الهامادريلا بلبدتيهما اللتين تشبهان لبدة الأسد يعزفان على البيانو . لكن صوت البيانوهات كان يضيع في قصف وأزيز ودوي السكسوفونات والكمانات والطبول التي في قوائم

الغبونات والمندريلات والقشش * . وعلى أرض القاعة البلورية كانت اعداد لا تحصى من الأزواج ، بدت وكانها اندغمت بعضها في بعض ، تدور في خفة ودقة تبعثان على الدهشة في اتجاه واحد كانها جدار مرصوص مهدّدة بسحق كل ما يعترض سبيلها . وكانت فراشات لامعة حية تغوص وتطفو فوق رؤوس الجحافل الراقصة ، والزهور تتساقط متناثرة من السقف . وحين كانت الكهرباء تنطفىء كانت تيجان الأعمدة تشتعل بآلاف مؤلفة من الحباحب ويموج الهواء بأضواء مستنقعية .

ثم وجدت مرغريتا نفسها في حوض هائل الأبعاد محاط باعمدة . كان نبتون اسود عملاق يقذف من شدقه تياراً ورديا عريضاً ، ومن الحوض تنبعث رائحة شمبانيا مخدّرة . هنا كان يسود لهو لا كلفة فيه . كانت السيدات ينزعن احذيتهن ويناولن حقائبهن اليدوية لمرافقيهن او الزنوج الساعين حولهن والمناشف في ايديهم وهن يتضاحكن ويقذفن بانفسهن في الحوض وايديهن ممدودة الى الامام متصايحات فتتصاعد من الحوض اعمدة من الزبد . وكان قاع الحوض البلّوري يضيء بنور سفلي يخترق سماكة الخمر فتبدو فيه الأجسام الفضية العائمة . وكنّ يثبن من الحوض وهنّ ثملات تماماً . وكانت قهقهاتهن ترنّ وتدوي تحت الأعمدة كما في حمّام .

ووسط هذا الهرج والمرج لم يعلق في ذاكرة مرغريتا الا وجه نسائي ثمل تماماً ذو عينين فارغتين من أي معنى ، لكنهما في فراغهما ضارعتان . وتذكرت كلمة واحدة : — فريدا ! اخذ رأس مرغريتا يدور من رائحة الخمر ، وارادت ان تغادر حين بدا القط في الحوض فقرة استوقفت مرغريتا . كان بيغيموت يباشر حركات سحر عند شدق نبتون ، وللحال انسحبت كتلة الشمبانيا في نشيش وجلبة من الحوض ، بينما اخذ نبتون يقيء موجة ذات لون اصفر قاتم . ولم تكن تلك الموجة بالمتلالئة ولا بالراغية . واطلقت السيدات زعيقاً وولولة :

— كونياك ! — واندفعن عن حوافي الحوض يختبئن خلف الأعمدة .

---

* وكلها انواع من القردة . **المترجم** .



وفي توان امتلأ الحوض ، فقلب القط في الهواء ثلاث قلبات وهوى في الكونياك المتماوج . ثم خرج منه وهو يزفر وينخر وقد ابتلت ربطة عنقه وضيّع الطلاء الذهبي عن شاربيه ونظارته الأنفية . ولم يجسر على الاحتذاء بيغيموت الا امرأة واحدة هي الخياطة المكارة اياها ومرافقها وهو شاب خلاسي نكرة . فقد قذف كلاهما بنفسه في الكونياك ، وهنا تابط كوروفييف ذراع مرغريتا وغادرا المستحمين .

وبدا لمرغريتا انها تطير فوق مكان رأت فيه جبالا من المحار في برك حجرية هائلة ، ثم طارت فوق ارض قاعة زجاجية تتقد تحتها آتن جهنمية يسعى بينها طهاة بيض جهنميون . ثم رأت في مكان ، وهي لمّا تعد تفقه شيئاً ، اقبية معتمة تضيء فيها قناديل وتقدم فيها فتيات لحماً ينش على جمر حام ، والناس يشربون من اكواز كبيرة نخبها . ثم رأت دببة بيضاً تعزف على الهارمونيكا وترقص رقصة كمارينسكايا على المسرح . وسمندرا مشعوذاً لا يحترق في نار الموقد . . . وللمرّة الثانية اخذت قواها تتلاشى .

— الجولة الأخيرة ، — همس لها كوروفييف مهموماً ، — وبعدها نحن طلقاء .

ووجدت مرغريتا نفسها مع كوروفييف في قاعة الرقص من جديد . انما لم يكن أحد يرقص فيها الآن ، بل كان الضيوف يتجمهرون جماعات لا عدّ لها بين الأعمدة مخلين وسط القاعة . ولم تدر مرغريتا من الذي ساعدها في ارتقاء منصة ظهرت في وسط هذا الخلاء . ولما ارتقت المنصة سمعت ، لدهشتها ، الساعة تدق في مكان ما منتصف الليل الذي كانت تحسب انه فات من فترة طويلة . ومع آخر دقة من دقّات ساعة لا تدري مصدرها هبط الصمت على جماهير الضيوف . اذّاك رأت مرغريتا فولند من جديد . كان يسير في رفقة ابادونا وازازيلو وبضعة آخرين اشباه ابادونا ، سود وفي عزّ الشباب . وتبينت مرغريتا الآن مقابل منصتها منصة اخرى أعدّت لفولند . لكن هذا لم يستخدمها . وادهش مرغريتا ان فولند كان في ظهوره العظيم الأخير في حفلة الرقص بالمظهر نفسه الذي كان فيه في مخدعه : نفس القميص المرقّع القذر كان يتدلّى على كتفيه ونفس

الخفّ الليلي المهترىء في قدميه . كان فولند يمسك شيشاً بيده ، لكنه كان يستخدم هذا الشيش المسلول عصا يتكىء عليها . توقف فولند ، وهو يعرج ، قرب منصته . وللحال مثل ازازيلو امامه يحمل طبقاً ، ورأت مرغريتا على هذا الطبق راساً انسانياً مقطوعاً ذا اسنان امامية مهشمة . كان الصمت الكامل لا زال مطبقاً لم يقطعه الا مرّة واحدة رنين بعيد ، غير مفهوم في مثل هذه الظروف . كما يحدث احياناً مثله في المداخل الرئيسية للبيوت .

– ميخائيل الكسندروفتش ، – توجّه فولند الى الراس بصوت خافت ، فانفتحت جفون القتيل ، ورأت مرغريتا على الوجه الميت ، وقد سرت فيهـــا القشعريرة ، عينين حيتين ممتلئتين بالفهم والألم . – لقد تحقق كل شيء اليس كذلك ؟ – تابع فولند وهو يرنو الى عيني الراس ، – الراس قطعته امراة ، والاجتماع لم يعقد . وانا اعيش الآن في شقتك . هذا واقع . والواقع اعند شيء في الحياة . انما ما يهمنا الآن شيء آخـــر وليس هذا الواقع الذي تحقق . لقد كنتَ دائماً داعية متحمساً لتلك النظرية التي تقول ان الحياة في الانسان تتوقف بعد قطع الراس ، وانه (اي الانسان) يتحول الى رماد ويعود الى العدم . ويسرّني الآن ان اقول لك في حضرة ضيوفي ، وان كانوا هـــم انفسهم برهاناً ماثلاً على نظرية اخرى تماماً ، ان نظريتـــك جديرة بالاعتبار وذكية . وبالمناسبة ، كل النظريّات متعادلة . وبينها نظرية تقول ان الانسان يعطى على قدر ايمانـــه . الا فليتحقق ذلك ! انك تعود الى العدم ، وسيسرّني ان اشرب من الكاس التي تتحول اليها نخب الوجود . – ورفع فولنـــد شيشه . وهنا اسودت فروة الراس وتقلصت وسقطت قطعاً قطعاً واختفت العينان وما عتمت مرغريتا ان رأت على الطبـــق جمجمة ضاربة الى الصفرة ذات عينين زمرديتين واسنـــان لؤلؤية تقف على قائمة من الذهب . وارتفع غطاء الجمجمة على مفصّلة .

– حالاً ، ياسيدي . – قال كوروفييف وقد لاحظ نظرة فولند المتسائلة ، – سيمثل امامك حالاً . واني لأسمـــع في صمت القبور هذا صرير حذائه المصبوغ ورنين الكاس التـــي



وضعها على الطاولة بعد أن شرب منها الشامبانيا لآخر مرة في حياته . هاهو ذا !

ودخل القاعة ضيف جديد وحيد متوجهاً الى فولند . لم يكن الضيف الجديد يتميز عن الضيوف العديدين الآخرين من الرجال الا بشيء واحد : كان الضيف الجديد يترنّح ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، من الاضطراب ، الأمر ، الذي بدا واضحاً عليه حتى عن بعد . كانت نقط حمر تتوقد في خديه ، وعيناه تتراكضان في محجريهما في قلق كامل . كان الضيف مدهوشاً ، بل في غاية الدهشة وهذا امر طبيعي تماماً : فقد ادهشه كـل شيء وفي المقام الأول بطبيعة الحال لباس فولند .

الا ان الضيف استقبل بلطف فائق .

– آ ، ايها البارون ميغل العزيز ، – توجّه فولند بابتسامة ودّ الى الضيف الذي انعقدت عيناه فوق جبينه . ثـــم اردف متوجهاً الى ضيوفه : – اني لسعيد بأن اقدّم لكم البارون ميغل المبجّل الذي يعمل في لجنة التمثيليّات دليلاً للأجانب ومعرّفاً لهم بمعالم العاصمة .

وهنا جمدت مرغريتا لأنها عرفت فجاة ميغل هذا ، اذ سبق لها أن صادفته عدة مـــرات في مسارح موسكو ومطاعمهـــا . «ماذا . . . – قالت مرغريتا في نفسها ، – اهو ايضاً توفي ؟» لكن الأمر توضح للحال ، اذ تابع فولند ولما تفارقه ابتسامة الحبور :

– كان البارون العزيز من اللطف بحيث أنه ما ان عرف بوصولي الى موسكو حتى اتصل بي هاتفياً يعرض خدماته في مجال اختصاصه اي في التعريف بمعالم العاصمة . وبطبيعـــة الحال اسعدني ان ادعوه اليّ .

وفي هذا الوقت رأت مرغريتا ازازيلو يناول كـــوروفييف الطبق الذي عليه الجمجمة .

– آه ، بالمناسبة يابارون ، – قال فولند خافضاً صوته فجاة بشكـــل حميمي ، – سرت اقاويل عن حبّك المفـــرط للمعرفة . وقيل ان حبك للمعرفة المقرون بميلك للكلام ، الذي لا يقلّ عن حبك للمعرفة شأناً اخذ يلفت الانتباه . والى ذلك افلتت من الألسنة الشريرة كلمة : واشٍ وجاسوس . وفوق

هذا وذاك هناك من يرى أن هذا سيؤدي بك الى نهاية محزنة فيما لا يزيد عن شهر . ولهذا ، فلكي نوفّر عليك هذا الانتظار المضني ، قررنا مساعدتك مستفيدين من كونك طلبت بنفسك استضافتك ، وليس لك من غاية سوى التلصص والتنصت على كل ما يمكنك أن تتلصص وتتنصت عليه .

صار البارون أشدّ شحوباً من ابادونا الذي كان بطبيعته مفرطاً في شحوبه . ثم حدث شيء جدّ غريب . ظهر ابادونا أمام البارون وخلع نظارته لثانيـــة . وفي اللحظـــة عينهـــا برق شيء ما في يدي ازازيلو . وصفّق شيء ما كانه تصفيق كف ، واخذ البارون يسقط على ظهره ، وانبجس الدم القاني من صدره وغمر قميصه المنشّى وجاكيتته . وضع كوروفييف كأساً تحت التيار الدافق وملأها وقدّمها الى فولند . كان جسد البـــارون الذي فارقته الحياة الآن ملقى جثة هامدة على الأرض .

– في صحتكم ، ايها السادة ، – قال فولند بصوت خافت ، ورفع كأسه وقرّب منها شفتيه .

اذاك حدث تحوّل : فقد اختفى القميص المرقـــع والحذاء المهترىء ، وبدا فولند في رداء أسود وشيش من الفولاذ على فخذه . دنا فولند من مرغريتا بسرعة وقدّم اليها الكأس وقال بنبرة آمرة :

– اشربي !

دار رأس مرغريتا وترنحت ، لكن الكأس باتت عند شفتيها . وهمست أصوات لم تدر أصوات من في كلتا اذنيها :

– لا تخافي ايتها الملكة . . . لا تخافي ايتها الملكة ، الدم غار في الأرض من وقت بعيد . وهناك ، حيث سنفح . تنمـــو الآن عناقيد عنب .

جرعت مرغريتا جرعـــة دون ان تفتح عينيها ، فسرى في عروقها تيار عذب واحست بطنين في اذنيها . بدا لها انها تسمع صياح ديكة يصم الآذان ومارشاً يُعزف في مكان ما . اخذت حشود الضيوف تفقد هيئتها . وتحلّل أصحاب الفـــراكات والنساء جميعاً حتى صاروا رماداً . وشمل التحلّل امام عيني مرغريتا القاعة التي خيّمت عليها رائحة القبور . انهارت الأعمدة وانطفأت الأنوار وانكمش كل شيء وتلاشت الفسقيّات والسوسن



والكاميليا . ولم يبق من هذا كله الاّ ما كان سابقاً – غرفة الاستقبال المتواضعة التي كانت لزوجة الصائغ ، وشريط من الضوء ينسل من باب مفتوح قليلاً عليها . وفي هذا البـــاب المفتوح قليلاً دخلت مرغريتا .

## الفصل الرابع والعشرون

## انتشال المعلم

بدا كل شيء في مخدع فولند كما كان قبل الحفلة الراقصة . كان فولند يجلس بقميصه الداخلي على السرير ، الا ان غيلا لم تكن تدلك رجله . بل كانت تضع العشاء على الطاولة حيث كانوا يلعبون الشطرنج . وكان كوروفييف وازازيلو جالسين الى الطاولة بعد ان خلعا فراكيهما ، وقد اتخذ القطّ الذي لم يرغب في التخلي عن ربطة عنقه ، مع أن هذه استحالت خرقة في منتهى القذارة ، مكانه الى جانبهما بالطبع . اقتربت مرغريتا من الطاولة وهي تترنّح ، واستندت اليها . اذاك أومأ فولند اليها كما في المرّة الأولى وأشار اليها بالجلوس الى جانبه .

– ماذا هل اتعبوك كثيراً ؟ – سألها فولند .

– أو ، لا ياسيدي ، – أجابت مرغريتا انما بصوت يكاد لا يسمع .

– نوبليس أوبليج * . – لاحظ القط وسكب لمرغريتا سائلاً شفّافاً في كأس .

– أفودكا هذه ؟ – سألت مرغريتا بصوت ضعيف .

نطّ القط على الكرسي استياء .

– العفو ايتها الملكة ، – قال بصوت مبحوح . – أتسمح لنفسي بأن اسكب فودكا لسيدة ؟ انها كحول خالصة !

ابتسمت مرغريتا وحاولت أن تبعد الكأس عنها .

– اشربي دون خوف ، – قال فولند . وللحـال امسكت

---

* يقضي الشرف (وهي بالفرنسية في الأصل) . **المترجم** .

مرغريتا الكاس بيديها . – اجلسي ياغيلا ، – أمر فولند هذه وتوجه الى مرغريتا يوضح الأمر : – ليلة اكتمال البدر ليلة عيد ، وانا اتعشى فيها مع نخبة قليلة من المقربين والخدم . وهكذا قولي لي ، كيف احوالك ؟ كيف سارت هذه الحفلة الراقصة المرهقة ؟

– بشكل مذهل ! – وَرَوَر كوروفييف ، – الجميع مسحورون ، عاشقون ، مسحوقون ، ولشد ما كان فيها من الكياسة والبراعة ومن الفتنة والسحر !

رفع فولند كاسه في صمت وقرع بها كاس مرغريتا . فشربت هذه كاسها في استسلام وفي روعها ان اجلها آت مع الكحول . انما لم يحدث لها ما يزعج . فقد سرى دفء حيّ في بطنها ، ونقرها شيء ما بلطف في قذالها ، وعادت اليها قواها كما لو انها استيقظت بعد نوم طويل منشط ، واحست الى ذلك بجوع شديد . واشتد اوار جوعها حين تذكرت انها لم تتناول شيئاً منذ صباح الأمس واخذت تلتهم الكافيار بنهم .

قطع بيغيموت قطعة اناناس ورش عليها ملحاً وفلفلاً واكلها ثم كرع كاساً اخرى من الكحول بفتوّة صفق لها الجميع .

وبعد الكاس الثانية التي شربتها مرغريتا ازدادت شموع الشمعدانات اشتعالاً والنار في الموقد لهباً . لم تشعر مرغريتا باي ثمل . كانت ، وهي تقطع اللحم باسنانها البيض ، تتلذذ بالعصارة المنسابة منه ، وتنظر في الوقت نفسه الى بيغيموت وهو يطلي المحار بالخردل .

– ضع فوقه قليلا من العنب ، – قالت غيلا بصوت خفيض وهي تلكز القط في جنبه .

– ارجو الا تعلميني ، – اجاب القط ، – لقد جلست الى موائد كثيرة . لا تقلقي ، جلست كثيراً !

– آه ، ما الطف العشاء هكذا ، قرب موقد ، ببساطة .

– صرّ كوروفييف . – على نطاق ضيق . . .

– لا ، يافاغوت ، – قال القط معترضاً ، – لحفلات الرقص سحرها وشانها .

– لا سحر فيها ولا شان ، وهذه الدببة الحمقاء ، وهذه النمور في البار كادت تسبب لي بزئيرها صداعاً ، – قال فولند .



– سمعاً وطاعة ياسيدي . – قال القط ، – اذا كنت ترى ان ليس لهذه الحفلات شان فانا على استعداد للاخذ بهذا الراي فوراً !

– انتبه ! – كان جواب فولند .

– كنت امزح ، – قال القط في خضوع ، – أما النمور فسآمر بشوائها .

– النمور لا تؤكل . – قالت غيلا .

– اتظنين ذلك ؟ اسمعوا اذن . – ردّ القط وراح يروي لهم ، وقد زرّ عينيه من فرط النشوة ، كيف ظل تسعة عشر يوماً يجوب الصحراء والشيء الوحيد الذي كان يقتات به هو لحم نمر قتله . اصغى الجميع باهتمام الى هذه القصة المسلية . وما انتهى من روايته حتى هتف الجميع بصوت واحد :

– كذب !

– واطرف ما في هذه الكذبة انها كذب من أول حرف فيها حتى آخره ، – قال فولند .

– هكذا اذن ؟ كذب ؟ – صاح القط فظن الجميع انه سياخذ في الاحتجاج ، لكنه لم يقل الا شيئاً واحداً ، وقاله بصوت خافت : – التاريخ سيحكم بيننا .

– وانت قل لي ، – قالت مارغو التي دبتّ فيها الحيوية بعد الفودكا ، – هل قتلته رمياً بالرصاص ، هذا البارون سابقاً ؟

– طبعاً ، – اجاب ازازيلو ، – وكيف لا اقتله ؟ يجب قتله حتماً .

– كم كنت مضطربة ! – هتفت مرغريتا . – لقد حدث هذا بشكل غير متوقع .

– ليس في هذا شيء غير متوقع ، – قال ازازيلو معترضاً بينما اخذ كوروفييف يعول ويئن :

– وكيف لا يضطرب الواحد منا ؟ انا نفسي ارتعدت فرائصي ! بوم ، واذا بالبارون يسقط على جنبه !

– وانا كدت اصاب بالهستيريا – اضاف القط وهو يلحس ملعقة الكافيار .

– الشيء الذي لا افهمه هو التالي : – قالت مرغريتا

والشرارات الذهبية المتطايرة من البلّور تتواثب في عينيها . – الم يكن يسمع من الخارج صوت الموسيقى ، وبشكل عام ضوضاء هذه الحفلة وجلبتها ؟

– بالطبع لم يكن يسمع اي شيء ، ايتها الملكة ، – قال كوروفييف يشرح ، – يجب ان ينظم الأمر بحيث لا يسمع شيء . نعم يجب اعداده بدقة .

– طبعاً ، طبعاً . . . ولكن ذلك الشخص الذي كان على الدرج . . . عندما كنّا نمرّ مع ازازيلو . . . والشخص الآخر الذي كان عند المدخل الخارجي . . . اظن انه كان يراقب شقتكم . . . .

– صحيح ، صحيح ! – صرخ كوروفييف . – صحيح ، ايتها العزيزة مرغريتا نيقولايفنا ! انك تؤكدين شكوكي . نعم ، كان يراقب الشقة . انا نفسي كدت اعتقد انه بروفيسور ذاهل او عاشق قابع على الدرج ، لكن لا ، لا ! كان شيء ما يخزني في قلبي ! آه ! كان يراقب الشقة ! والشخص الآخر الذي عند المدخل ايضا ! وذاك الذي كان واقفاً عند باب الفناء ايضا!

– وماذا لو اتوا لاعتقالكم ؟ – سألت مرغريتا .

– سياتون بالتاكيد ، ايتها الملكة الفاتنة ، بالتاكيد ! – اجاب كوروفييف – قلبي ينبئني انهم سياتون . لكن ليس الآن . انما في الوقت المناسب سياتون . لكني اظن انه لن يحدث شيء مثير .

– آه ، لشد ما اضطربت حين سقط هذا البارون ، – قالت مرغريتا التي كانت لا تزال تعاني على ما يبدو من منظر القتل الذي تشاهده لأول مرّة في حياتها . – لا بدّ انك تسدّد بشكل جيد ؟

– بشكل مناسب ، – اجاب ازازيلو .

– من بُعدكم خطوة ؟ – طرحت مرغريتا على ازازيلو هذا السؤال غير الواضح تماماً .

– هذا يتوقف على الهدف وعلى الأداة ، – اجاب ازازيلو بلهجة من يحاكم الأمور ، – ان تصيبي زجاج الناقد لاتونسكي بمطرقة غير ان تصيبيه في قلبه .



– في القلب ! – صاحت مرغريتا ولسبب ما وضعت يدها على قلبها . – في القلب ! – كرّرت بصوت اصم .

– من يكون الناقد لاتونسكي هذا ؟ – سأل فولند وهو يطرف بعينيه باتجاه مرغريتا .

اطرق ازازيلو وكوروفييف وبيغيموت رؤوسهم فيما يشي بالخجل بينما اجابته مرغريتا وقد احمرّ خداها :

– هناك ناقد بهذا الاسم . واليوم مساء خرّبت شقتـه كلها .

– عجباً ! ولماذا ؟

– دمرّ معلّماً ، ياسيدي .

– ولماذا كلفت نفسك هذا العمل ؟

– باذنك ياسيدي ، – صاح القط مغتبطاً وهو يثب من مكانه .

– اجلس انت ، – غمغم ازازيلو وهو ينهض ، – انا بنفسي ساذهب الآن . . .

– لا ! – صاحت مرغريتا ، – لا . اتوسل اليك ياسيدي . لا داعي لهذا .

– كما تشائين . كما تشائين ، – اجاب فولند فعاد ازازيلو الى مكانه .

– اين توقفنا اذن ايتها الملكة الغالية مارغو ؟ – قال كوروفييف ، – آ . نعم ، القلب . انه يستطيع اصابة القلب ، – واردف وهو يمدّ اصبعه الطويلة نحو ازازيلو ، – يستطيع ، حسب الرغبة ، اصابة اي من اذيني القلب او اي من البطينين .

ولم تفهم مرغريتا ما قاله فوراً ، ولما فهمت هتفت في دهشة :

– لكنها محجوبة !

– ايتها الغالية ، – صرّ كوروفييف ، – هنا بيت التصيد ! وهنا كل النكهة ! فاي شخص يستطيع ان يصيب هدفاً مكشوفاً !

واخرج كوروفييف سبعة بستوني من درج الطاولة وناولها الى مرغريتا وطلب اليها ان تؤشر بظفرها على احدى النقط .

فاشرت مرغريتا على النقطة العليا التي في الزاوية اليمنى . ثم اخفت غيلا الورقة تحت الوسادة وصاحت :

– جاهز !

اخرج ازازيلو ، الذي كان يجلس مولياً الوسادة ظهره مسدساً اسود من جيب سروال فراكه ، ووضع فوهته على كتفه واطلق النار دون ان يلتفت نحو السرير مما اثار ذعراً جذلاً في نفس مرغريتا . واخرجت سبعة البستوني من تحت الوسادة التي ثقبتها الرصاصة فاذا بالنقطة التي اشرّت عليها مرغريتا مثقوبة .

– ما كنت لأرغب في ان التقي بك وفي يدك مسدس ، – قالت مرغريتا وهي ترنو الى ازازيلو في دلال . فقد كانت تكن عاطفة خاصة لمن يؤدون عملاً ممتازاً .

– ايتها الملكة الغالية . – ازّ كوروفييف ، – انا لا انصح احداً بالالتقاء به حتى وان لم يكن معه اي مسدس . وكلمة شرف من قائد كورس سابق ان لا احد سيهنّئ من يلتقي به .

كان القط يجلس مقطباً حاجبيه اثناء تجربة التسديد ، لكنه اعلن فجأة :

– اتعهدّ بأن احطم هذا الرقم القياسي !

وردّ ازازيلو بأن زمجر . لكن القط كان عنيداً وطلب مسدسين لا مسدساً واحداً . اخرج ازازيلو مسدساً ثانياً من الجيب الخلفي الثاني لسرواله وقدمه مع المسدس الأول الى هذا الدعي المغرور وهو يلوي فمه في احتقار . واشرّ على نقطتين . ادار القط ظهره الى الوسادة واخذ يستعد . وطال استعداده في حين جلست مرغريتا سادة اذنيها باصابعها وهي تنظر الى البومة الغافية على رفّ الموقد . واطلق القطّ الرصاص من كلا المسدسين فتعالى على الفور زعيق غيلا ، بينما سقطت البومة قتيلة من على الموقد وتوقفت الساعة المحطمة . انشبت غيلا التي كان الدم يسيل من احد ذراعيها اظافرها في شعر القط ، وردّ القط بأن تشبث بشعرها فاذا بهما يلتحمان حتى صارا كالكرة واخذا يتدحرجان على الأرض ، فسقطت احدى الكؤوس عن الطولة وتحطّمت .



– ابعدوا عني هذه الشيطانة المسعورة ! – انّ القطّ وهو يحاول التملّص من غيلا التي كانت تجلس فوقه . وفرّقوا بين المتعاركين . ثم نفخ كوروفييف على اصبع غيلا المصوّبة فالتأمت .

– لا استطيع ان اسدّد حين يتكلمون قربي ! – صرخ بيغيموت وهو يجهد في اعادة خصلة ضخمة من شعره الى مكانها على ظهره .

– اراهن ، – قال فولند وهو يبتسم لمرغريتا ، – انه فعل ما فعل عمداً ، فهو يسدّد بشكل جيد .

تصالح غيلا والقط وتبادلا القبلات عربون تصالحهما . ثم اخرجت الورقة من تحت المخدّة وجرى التأكد منها فلم توجد فيها نقطة مصوّبة الا نقطة ازازيلو . . – هذا غير ممكن . – قال القط مؤكداً وهو يحدّق في الورقة من خلال ضوء الشمعدان .

كان العشاء البهيج مستمراً . كانت الشموع تذوب في الشمعدانات ودفء جاف عطر ينبعث من الموقد وينتشر مويجات في الغرفة . وتملك مرغريتا التي شبعت شعور بالغبطة . كانت ترنو الى الحلقات الزرق المنبعثة من سيجار ازازيلو تسبح باتجاه الموقد . والقط يلتقطها بطرف الشيش . ولم تكن تشعر باي رغبة في مغادرة المكان ، مع ان الوقت صار في حسابها متاخراً . فهو يقترب من السادسة صباحاً كما تشير كل الدلائل . واستغلت مرغريتا فترة صمت فتوجهت الى فولند وقالت في وجل : – لعلّه آن الآوان . . . الوقت صار متاخراً .

– الى اين انت مسرعة ؟ – سالها فولند بأدب ، انما بشيء من الجفاء بينما لزم الآخرون الصمت متظاهرين بالانشغال بحلقات دخان السيجار .

– نعم ، آن لي ان اذهب . – كرّرت مرغريتا وهي مرتبكة اشد الارتباك مما رات حولها ، والتفتت كانما تبحث عن طرحة او بردة ، اذ اخذ عريها يضايقها فجأة ، ونهضت من وراء الطاولة ، فتناول فولند رداءه الرث الملوّث من على السرير والقاه كوروفييف على كتفيها .

– اشكرك ياسيدي . – قالت مرغريتا بصوت يكاد لا يسمع وتطلعت الى فولند في تساؤل ، فردّ هذا عليها بابتسامة

مهذبة وغير مكترثة . وللحال احست مرغريتا بكآبة سوداء تنعقد عند قلبها . شعرت انها خدعت . فلم يكن احد ، على ما يبدو ، يتهيأ لمكافأتها على كل خدماتها في الحفلة . كما لم يطلب منها احد البقاء . والى هذا خالجها شعور واضح كل الوضوح انه لم يعد لها مكان تذهب اليه . احست بسورة داخلية من اليأس حين المّت في خاطرها فكرة عابرة ان لا مفرّ من العودة الى دارها . فهل عليها اذن ان تطلب بنفسها كما زيّن لها ذلك ازازيلو في حديقة الكسندروفسكي ؟ «لا . لن افعل مهما يكن من امر» . – قالت لنفسها .

– اتمنى لك كل خير ياسيدي ، – قالت بصوت مسموع بينما كانت تقول في نفسها : «الخروج من هنا بأي ثمن ، ثم اذهب الى النهر واغرق نفسي فيه» .

– هلاّ جلست . – قال لها فولند بلهجة آمرة فجاة . تغيّر وجه مرغريتا وجلست . – لعلّك تودين قول شيء عند الوداع ؟

– لا ، لا شيء ياسيدي ، – اجابت مرغريتا في كبرياء ، – وفوق ذلك فانا على استعداد للقيام عن طيب خاطر بما يحلولكم اذا كنتم لا زلتم في حاجة الي . فانا لم اتعب على الاطلاق ، بل تسليت كثيراً في الحفلة ، ولو امتدت الحفلة اكثر من ذلك ، لما توانيت عن تقديم ركبتي برضى ليقبلها آلاف المشنوقين والقتلة ، – كانت مرغريتا تنظر الى فولند كما من خلال غشاوة وقد امتلأت عيناها بالدموع .

– صحيح ! انت محقة تماماً ، – صرخ فولند بصوت مدوٍ ومرعب . – هذا ما يجب فعله !

– هذا ما يجب فعله . – ردّدت حاشية فولند كرجع الصدى . وتابع فولند يقول :

– كنّا نختبرك . لا تطلبي ابداً اي شيء . ابداً اي شيء لاسيما ممن هم اقوى منك . فهم انفسهم سيعرضون ، وهم انفسهم سيعطون كل شيء ! اجلسي ايتها المراة العزيزة النفس ! – ونزع فولند الرداء الثقيل عن مرغريتا فاذا بها جالسة الى جانبه على السرير ثانية . – وهكذا يا مارغو . – تابع فولند مرقّقا لهجته ، – ماذا تريدين لقاء قبولك ان تكوني سيدة



الحفلة اليوم عندي ؟ ماذا ترغبين لقاء بقائك طول هذه الحفلة عارية ؟ بماذا تثمنين ركبتك ؟ ما هو الضرر الذي لحق بك من ضيوفي الذين دعوتهم الآن بالمشنوقين ؟ قولي ! قولي على الفور دون خجل الآن : فانا الذي اعرض عليك .

دق قلب مرغريتا وتنهدت تنهيدة عميقة واخذت تفكر .

– هيا ، بجراة اكبر ! – قال فولند مشجّعاً ، – حرّكي خيالك ، احفزيه ! فان رؤية قتل هذا البارون السافل وحدها جديرة بأن يكافأ عليها الانسان لا سيما اذا كان هذا الانسان امراة . هيا !

انحبست انفاس مرغريتا ، وارادت الافضاء له بتلك الكلمات العزيزة المكنونة في صدرها . حين شحبت فجاة وفغرت فاها وحملقت : «فريدا ! فريدا ! فريدا ! – صرخ صوت ملحاح وضارع في اذنيها . – اسمي فريدا !» – فقالت مرغريتا وهي تتعثّر في كلامها :

– بمقدوري اذن ان اطلب شيئاً واحداً ؟

– بل ان تامري ، تامري ، ياسيدتي . – اجاب فولند وهو يبتسم بتفهّم ، – ان تامري بشيء واحد !

آه ، ما كان اشد براعة فولند ووضوحه في تاكيده كلمتي مرغريتا نفسها «شيء واحد» وهو يكررهما اثرها !

تنهدت مرغريتا مرة اخرى وقالت :

–اريد ان يكفوا عن مناولة فريدا المنديل الذي خنقت به طفلها .

رفع القط عينيه الى السماء ، وارسل تنهيدة صاخبة ، لكنه لم يقل شيئاً ، اذ ذكر ، على الارجح ، اذنه التي فركت في الحفلة الراقصة .

وهنا قال فولند وهو يبتسم :

– بما ان امكانية اخذك رشوة من هذه الحمقاء فريدا غير واردة اطلاقاً بطبيعة الحال ، والا تنافى هذا وكرامتك الملكية ، فاني حائر فيما علي فعله . وقد لا يكون امامي الا امر واحد : ان اجمع خرقاً ، واسد بها كل شقوق مخدعي !

– عمّ تتحدث ياسيدي ؟ – قالت مرغريتا مبهوتة بعد ان سمعت هذه الكلمات غير المفهومة فعلاً .

– اوافقك تماماً على ما قلت ياسيدي ، – تدخل القط في الحديث . – الخرق بالضبط . – وضرب بقائمته على الطاولة في انفعال .

– انى اتكلم على الرحمة ، – قال فولند يوضح كلامه دون ان يرفع عينه النارية عن مرغريتا . – فهي تتسلل احياناً بشكل غير متوقع وبغدر من اضيق الشقوق . ولهذا انا اتكلم على الخرق .

– وانا ايضاً اتكلم على الشيء نفسه ! – هتف القط وتنحّى عن مرغريتا تحسّباً لأي طارىء وقد غطّى اذنيه الحادتين بقائمتيه المطليتين بدهان وردي اللون .

– اخرج من هنا ، – قال له فولند .

– انا لم اشرب القهوة بعد ، – اجابه القط ، – فكيف اخرج ؟ امن المعقول ياسيدي ان ينفرز ندماؤك في هذه الليلة البهيجة الى صنفين ؟ بعضهم من الصنف الأول وبعضهم الآخر من طزاجة من درجة ثانية كما عبّر صاحب البوفيه البخيل الكئيب ؟

– اخرس ، – قال له فولند آمراً . ثم استدار الى مرغريتا وسالها :

– انت ، كما تدل كل الدلائل ، انسانة ذات طيبة نادرة ، انسانة ذات اخلاق رفيعة اليس كذلك ؟

–لا – اجابته مرغريتا بقوة ، – اعرف انه يمكن التكلم معك بصراحة وبصراحة فقط ، ولهذا ساكلمك بصراحة : انى انسانة طائشة وما رجوتك في امر فريدا الا لأني علّلتها في ساعة طيش بأمل قوي . انها تنتظر ياسيدي . وهي تؤمن بقدرتي . فاذا ظلّت على انخداعها بي وخيبة املها في ساجد نفسي في موقف فظيع . ولن تعرف نفسي الراحة طول حياتي . ليس في اليد حيلة ، ما كان كان !

– آ ، – قال فولند . – هذا مفهوم .

– هل ستفعل هذا اذن ؟ – سألته مرغريتا بصوت خافت .

– ولا بأي حال من الأحوال ، – اجابها فولند ، – المسالة . ايتها الملكة العزيزة ، انه وقع هنا التباس طفيف . كل هيئة يجب ان تهتم بأمورها . وانا لا انكر ان امكاناتنا عظيمة الى حد



ما ، بل انها اعظم بكثير مما يفترضه بعض ذوي النظر غير البعيد جداً . . .

ولم يتمالك القط المعتز ، على ما يبدو ، بهذه الامكانات ، نفسه فقال يتدخل في الحديث : – نعم ، اعظم بكثير .

– اخرس . تباً لك ! – قال له فولند ، واستانف موجهاً كلامه الى مرغريتا : – اقول لك ببساطة : ما معنى ان افعل شيئاً يفترض في هيئة اخرى ، كما قلت لك . ان تفعله ؟ وبناء عليه لن افعل هذا بل افعليه انت بنفسك .

– وهل يكون لي ما اريد ؟

رمى ازازيلو مرغريتا بنظرة ساخرة من عينه الحولاء وفتل راسه الأصهب خفية ونخر .

– الا فعلت ! اف ! – غمغم فولند ودورّ المجسم واخذ يتامل نقطة صغيرة عليه كان مشغولاً بها ايضاً اثناء حديثه مع مرغريتا على ما يبدو .

– هيا : يافريدا ! – اوما كوروفييف .

– فريدا ! – صرخت مرغريتا بصوت حاد .

انفتح الباب وخفّت الى الغرفة امراة مشعثة الشعر ، عارية ، ذات عينين مجنونتين انما دون اي اثر من آثار الثمل ، وبسطت ذراعيها لمرغريتا فقالت لها هذه بجلال :

– لقد غُفر لك . لن يعطوك المنديل بعد اليوم .

اطلقت فريدا صرخة وخرّت على الأرض على وجهها وانبطحت على شكل صليب امام مرغريتا . واوما فولند بيده فاختفت فريدا عن الأنظار .

– اشكرك ، ووداعاً ، – قالت مرغريتا ونهضت .

– ما رايك يابيغيموت ، – قال فولند – لن نأخذ بتصرف انسان غير عملي في ليلة عيد ، – والتفت الى مرغريتا وقال :

– وعليه فهذا ليس في الحساب ، فانا لم افعل شيئاً . ماذا تريدين لنفسك ؟

ران الصمت . ولم يقطعه الا كوروفييف الذي همس في اذن مرغريتا :

– ايتها الدونا الماسية ، انصحك ان تكوني اعقل هذه المرّة ، والا قد تضيع الفرصة !

– اريد ان يعاد اليّ الآن ، وفي هذه الثانية ، عشيقي ، المعلّم . – قالت مرغريتا ومسخ التشنج وجهها .

وهنا هبّت على الغرفة ريح بحيث تراقص لهب الشموع في الشمعدانات بعنف ، وانفرجت الستارة الثقيلة على النافذة ، وانفتح الشباك على مصراعيه فكشف في العلاء البعيد عن بدر كامل ، لكنه لم يكن بدر الصباح ، بل بدر منتصف الليل . وامتد من حافة الشباك الى الأرض منديل ضارب الى الخضرة من ضوء الليل . وفي هذا الضوء ظهر ضيف ايفان الليلي . ذاك الذي دعا نفسه المعلم . كان في ثياب المستشفى من رداء وخف وطاقية سوداء لم تكن تفارقه أبداً . كان وجهه غير المحلوق يرتعش مكشراً ، وعيناه تنظران في ذعر المجنون الى انوار الشموع بيما كان التيّار القمري يغلي ويفور حوله .

وعرفته مرغريتا على الفور ، فندّت عنها انة وضربت كفاً بكفّ وهرعت اليه . قبلته في جبينه وفي شفتيه والصقت خدها بخده الشائك وانهمرت دموعها التي حبستها طويلاً على وجهها . ولم تنبس الا بكلمة واحدة مكررة اياها بلا معنى :

– انت . . . انت ، انت . . .

دفعها عنه قليلاً وقال بصوت عميق :

– لا تبكي يامارغو ، لا تعذبيني . انا مصاب بمرض خطير .

– قال المعلّم وامسك بحافة النافذة كانما يتحفز للوثوب عليها والهرب ، وكشّر عن اسنانه وهو يحدق في الجالسين وصرخ قائلاً : – انا في حالة مخيفة يامارغو ! لقد بدات اهلوس من جديد .

كانت العبرات تخنقها ، وكانت تهمس له وهي تغصّ بكلماتها :

– لا ، لا ، لا تخف ! انا معك . انا معك !

ودفع كوروفييف الى المعلم خلسة وبخفة كرسياً ، فتهالك هذا عليه ، في حين ارتمت مرغريتا على ركبتها واسندت راسها الى جنب المريض وسكتت . ولم تلاحظ مرغريتا في اضطرابها ان عريها انتهى فجاة . وانها ترتدي الآن بردة حريرية سوداء .



وتكس المريض راسه واخذ يحدّق في الأرض بعينين عابستين مريضتين .

– نعم ، – قال فولند بعد فترة صمت . – لقد دمّروه تماماً . – ثم امر كوروفييف قائلا : – ايها الفارس ، اعط هذا الانسان شيئاً يشربه .

وتوسلت مرغريتا الى المعلّم بصوت راعش :

– اشرب ، اشرب . هل انت خائف ؟ لا . لا ، صدقني : انهم سيساعدونك .

اخذ المريض الكاس وشرب ما فيها . لكن يده ارتعشت فسقطت الكاس الفارغة وتحطمت عند قدميه .

– هذه بشرى خير ! هذه بشرى خير ! – همس كوروفييف يقول لمرغريتا . – انظري ، بدا يعود الى وعيه .

وبالفعل لم تعد نظرة المريض تنضح بالوحشية والقلق كما كانت من قبل .

– اهذه انت حقاً ، يامارغو ؟ – سال الضيف القمري .

– لا يكن لديك اي شك ، انا هي ، – اجابته مرغريتا .

– اعطه ايضاً ! – امر فولند .

بعد ان اتى المريض على الكاس الثانية شعّت عيناه بالحياة والفطنة .

– تمام ، الآن وضع آخر . – قال فولند وهو يزر عينيه .

– فلنتحدث اذن . من انت ؟

– انا الآن لا احد ، – اجاب المعلم ولوى فمه في ابتسامة .

– من اين انت قادم الآن ؟

– من مستشفى المجانين . انا مصاب بمرض نفسي ، – اجاب القادم .

ولم تتحمل مرغريتا وقع هذه الكلمات فاجهشت في البكاء ثانية . ثم مسحت دموعها وصاحت :

– كلمات فظيعة ! كلمات فظيعة ! انه معلم ياسيدي ، واود ان الفت نظرك الى ذلك . اَبرئه ، فهو جدير بهذا .

– هل تعرف مع مَنْ تتكلم الآن ؟ – سال فولند القادم ، – وفي حضرة مَنْ تكون ؟

– اعرف ، – اجابه المعلم ، – ذاك الفتى الذي اسمه

ايفان بيزدومني كان جاري في مستشفى المجانين . وقد حدثني عنك .

– وكيف لا ، وكيف لا ، – ردّ فولند ، – كان من دواعي سروري ان التقيت بهذا الشاب في بتريرشيي برودي . كاد يودي بعقلي انا وهو يبرهن لي اني غير موجود ! لكن انت هل تصدق اني انا هو ؟

– لا بدّ من التصديق . – اجاب القادم . – لكنه سيكون ادعى للراحة كثيراً بطبيعة الحال اعتبارك وليد الهلوسة . – واردف على الفور يقول مستدركاً : – العفو .

–لا بأس . ان كان هذا ادعى للراحة فاعتبرني كذلك ، – اجاب فولند بأدب .

– لا ، لا ، – قالت مرغريتا في ذعر وهي تهز المعلم من كتفيه ، – فق الى نفسك ! انه هو بالفعل الذي امامك !

وتدخل القطّ هنا ايضاً :

– وانا اشبه هلوسة فعلاً . لاحظوا منظري الجانبي في ضوء القمر ، – وهنا انسلّ الى وسط العمود القمري واراد أن يقول شيئاً ، انما طُلب اليه ان يصمت فاجاب : – حسناً ، حسناً ، ساصمت . احسبوني هلوسة صامتة ، – وصمت .

– قل لي لماذا تسميك مرغريتا المعلّم ؟ – ساله فولند .

ابتسم المعلم ابتسامة ساخرة وقال :

– ضعف انساني يُغتفر . فهي تقدّر اكثر مما ينبغي تلك الرواية التي كتبتها .

– عم تتحدث الرواية ؟

– عن بيلاطس البنطي .

وهنا اهتزّت السنة الشموع من جديد وتراقصت ، وارتجت الأواني على الطاولة . واطلق فولند ضحكة مرعدة . لكنها لم تُخِفْ احداً كما لم يدهش لها احد . واخذ بيغيموت لأمر ما يصفّق .

– عمّ ، عمّ ؟ عمّن ؟ – قال فولند وقد كفّ عن الضحك . – الآن ؟ هذا مذهل ! ألم تجد موضوعاً آخر ؟ هات القصي نظرة ، – ومدّ فولند يده باسطاً راحتها الى الأعلى .



– ليس بوسعي ان اعطيكها مع الأسف . – قال المعلم ، – لاني احرقتها في الموقد .

– العفو ، لا استطيع ان اصدقك ، – اجابه فولند ، – هذا مستحيل ، المخطوطات لا تحترق . – ثم التفت الى بيغيموت وقال له : – هيّا يا بيغيموت ، هات الرواية .

وثب القط للحال عن الكرسي فرأى الجميع انه كان يجلس على رزمة سميكة من المخطوطات . وقدّم القط الى فولند النسخة العليا منها وهو ينحني له ، فيما اخذت مرغريتا رعشة ، فصرخت وهي تكاد تبكي من اضطرابها :

– هاهو ذا المخطوط ! هاهو ذا !

واندفعت الى فولند واردفت في انبهار :

– يالك من كلي القدرة ، يالك من كلي القدرة !

تناول فولند النسخة المقدّمة له فقلبها ووضعها جانباً وشخص ببصره الى المعلم في صمت ودون ابتسامة . غشيت هذا كآبة وقلق لا يعرف كنههما . فنهض عن الكرسي واخذ يعتصر يديه ويغمغم وهو ينتفض متوجهاً الى البدر البعيد :

– حتى في ضوء القمر ليلاً لا اجد الراحة . علام اقلاقي ؟ ايتها الالهة ، ايتها الآلهة . . .

تشبثت مرغريتا برداء المستشفى وانكبت عليه واخذت هي ايضاً تغمغم وقد خنقتها الدموع والكآبة :

– يالهي ، لمَ لم يسعفك الدواء ؟

– بسيطة ، بسيطة ، بسيطة ، – همس كوروفييف وهو يتلوى حول المعلم ، – بسيطة بسيطة . . . كأس صغيرة اخرى ، وانا ايضاً كأس من باب المشاركة .

غمزت الكأس وتلألأت في ضوء القمر ، واسعفته هذه الكأس . اجلس المعلم في مكانه ، وشاعت في وجه المريض امارات الهدوء .

– الآن صار كل شيء واضحاً ، – قال فولند ونقر المخطوط باصبعه الطويلة .

– واضحاً تماماً ، – ثنىّ القط ناسياً وعده بأن يكون هلوسة صامتة ، – الآن بات الخط الرئيسي لهذا الكتاب واضحاً

لي كل الوضوح . ماذا تقول يا ازازيلو – اردف متوجهاً الى ازازيلو المعتصم بالصمت .

واجابه هذا بصوت اخن :

– اقول : الأفضل لو اماتوك غرقاً .

– كن رحيماً ، يا ازازيلو . – اجابه القطّ – ولا توح لسيدي بهذه الفكرة . والا ، صدقني ، ظهرت لك في مثل هذا الثوب القمري كالمعلّم المسكين ، واومات اليك ودعوتك ان تتبعني . فالام ستصير يا ازازيلو ؟

– اي مرغريتا . – تدخّل فولند في الحديث من جديد ، – تكلمي اخيراً ، قولي ماذا تريدين ؟

برقت عينا مرغريتا وتوجهت الى فولند تناشده متوسلة :

– هل تسمح لي ان اتهامس معه ؟

اوما فولند براسه ، وانكبت مرغريتا تهمس في اذن المعلم شيئاً وسمع المعلّم يقول لها :

– لا ، فات الوقت . لم اعد اريد اي شيء في الحياة الا ان اراك . لكني انصحك مرّة اخرى : دعيني ، والا هلكت معي .

– لا ، لن ادعك . – اجابته مرغريتا وتوجهت الى فولند تقول : – ارجو ان تعيدنا من جديد الى القبو الذي في الزقاق في اربات ، وان يضيء المصباح وان يعود كل شيء الى ما كان عليه .

وهنا ضحك المعلم وضمّ اليه راس مرغريتا بشعره الأجعد المحلول من فترة طويلة وقال :

–آه ، لا تسمع الى ما تقوله هذه المراة المسكينة ، يا سيدي . في هذا القبو يعيش شخص آخر من فترة طويلة ، وبشكل عام لا يحدث ان يعود كل شيء الى ما كان عليه ، – ووضع خده على راس صديقته وعانقها واخذ يغمغم : – مسكينة ، مسكينة . . .

– تقول : لا يحدث ؟ – قال فولند ، – هذا صحيح . لكننا سنحاول . – ونادى : – ازازيلو !

وللحال هوى من السقف على الأرض مواطن مذهول وفي حالة تقرب من الجنون لا يستر جسمه الاّ ملابسه الداخلية .



لكنه ، لأمر ما ، كان يحمل في يده حقيبة ويضع على راسه كبية . ارتعد هذا الشخص من خوفه واقعى على الأرض .

– موغارتش ؟ – سال ازازيلو الساقط من السماء .

– الوبيزي موغارتش ، – اجاب هذا وهو يرتجف .

– االنت الذي قدمت شكوى على هذا الانسان بانه يحتفظ في بيته بكتابات ممنوعة بعد ان قرات مقالة لاتونسكي في روايته ؟ – ساله ازازيلو .

ازرق وجه المواطن الهابط فجاة وترقرقت عيناه بدموع الندم .

– كنت تريد الانتقال الى شقته ؟ – ساله ازازيلو بصوت اخنّ حاول قدر الامكان ان يكون وديّاً .

سمع في الغرفة فحيح قطة مغيظة ، وانقضت مرغريتا على الوبيزي موغارتش وانشبت اظافرها في وجهه وهي تزعق :

– خذ ، خذ من الحورية !

وكان ارتباك .

– ماذا تفعلين يامارغو ؟ – صرخ المعلم بصوت موجّع ، – لا تلطّخي نفسك بالعار .

– احتج ، هذا ليس مشيناً ! – زمجر القط .

وجذب كوروفييف مرغريتا جانباً .

– الحقت بالشقة حماماً ، – صرخ موغارتش المدمّى واسنانه تصطك ، واخذ يهذي في رعب : – تكليس وحده . . . زاج . . .

– حسن انك بنيت للشقة حماماً ، – قال ازازيلو محبّذاً ، – فهو بحاجة الى حمام ! – وصاح : – خارجاً !

واذا بقوة خفية تقلب موغارتش راساً على عقب وتمضي به من النافذة المفتوحة في مخدع فولند .

حملق المعلّم وهمس :

– بل هذا عمل اعجب مما رواه ايفان عنه من أعمال ! – وتلفّت حوله وهو في غاية الذهول ، ثم قال اخيراً للقط :

– عفواً انت . . . حضرتك . . . – وتردّد كيف يخاطب القط ، ابصيغة الألفة او الاحترام ، – حضرتك الذي ركب الترام ؟

– نعم ، انا هو ، – اكد القط الذي اطربه هذا الاطراء

واضاف : – لطيف منك أن تخاطب قطاً بمثل هذا الاحترام . فالقطط لا تخاطب عادة الاّ بصيغة الألفة مع انه لم يحدث ابداً ان شرب قطّ كاساً مع أحد .

–لا ادري لماذا يبدو لي انك لست قطاً تماماً ، – اجاب المعلم في تردد ، ثم اردف مخاطباً فولند بوجل : – وعلى اية حال سيتعرّضون لي في المستشفى .

– لماذا يتعرضون لك ! – قال كوروفييف مطمئناً فاذا باوراق وكتيّبات بين يديه ، – هل هذه بطاقتك المرضية ؟

– نعم .

قذف كوروفييف البطاقة المرضية في الموقد . وقال في رضى : – لا انسان حيث لا وثيقة . أو ليس هذا سجلّ مؤجركم ؟ – نعم ، هو .

– من المسجّل فيه ! الويبزي موغارتش ؟ – ونفخ كوروفييف على صفحة قائمة القاطنين نفخة : – وهكذا لم يعد له وجود ، وارجو ان تلاحظ انه لم يوجد من قبل قط . واذا ما استغرب المؤجّر قل له انه راى الويبزي هذا في حلمه . موغارتش ؟ من يكون موغارتش هذا ؟ لم يوجد ابداً شخص بهذا الاسم ، – وهنا تبخّر السجل المربوط بخيط بين يدي كوروفييف الذي اردف : – هذا السجل اصبح الآن في درج المؤجّر .

– صحيح تماماً ما قلته من انه لا وجود للانسان حين لا تكون هناك وثيقة ، قال المعلم مشدوهاً بدقّة عمل كوروفييف ، انا الآن بالذات غير موجود لأنه ليست لدي وثيقة .

– العفو – صرخ كوروفييف . – ما هذه الاّ هلوسة ، فها هي ذي وثيقتك ، – وناول المعلّم الوثيقة ، ثم ادار عينيه وهمس في اذن مرغريتا بعذوبة : – وهاهو ذا ما تملكين ، يامرغريتا نيقولايفنا ، – وناول مرغريتا الدفتر المحروق الأطراف والوردة اليابسة والصورة الفوتوغرافية ثم دفتر التوفير بحرص شديد وهو يقول لها : – عشرة آلاف كما اودعتها ، يا مرغريتا نيقولايفنا . نحن لا يلزمنا مال الغير .

– لتيبس قوائمي قبل ان امدّها الى مال الغير . – هتف القطّ منتفخاً في غرور وهو يرقص على الحقيبة حتى يستطيع حشر كل نسخ الرواية المشؤومة فيها .



– وهذه وثيقتك ايضاً ، – تابع كوروفييف وهو يناول مرغريتا الوثيقة ، ثم التفت الى فولند يبلغه باحترام قائلاً : – هذا كل شيء ياسيدي !

– لا ، ليس كل شيء ، – اجابه فولند وهو يرفع عينيه عن المجسّم . – اين تامرين ان ابدّد حاشيتك ياسيدتي العزيزة؟ انا شخصياً لست بحاجة اليها .

وهنا هرعت ناتاشا داخلة من الباب المفتوح وهي عارية كما كانت ، وبسطت يديها وصاحت تقول لمرغريتا :

– رافقتك السعادة . يامرغريتا نيقولايفنا ! – واومأت براسها الى المعلم ثم التفتت الى مرغريتا ثانية تقول لها : – كنت اعرف كل شيء عن زياراتك له .

– الخادمات يعرفن كل شيء ، – لاحظ القط ورفع قائمته بحركة ذات معنى . – وانه لمن الخطا ان نظن انهن عمياوات .

– ما شانك ياناتاشا ؟ – سالتها مرغريتا ، – عودي الى الدار .

– ياروحي يامرغريتا نيقولايفنا ، – قالت ناتاشا بضراعة وخرّت على ركبتيها ، واشارت بطرف عينها الى فولند . – توسّلي اليهم كي يبقوني ساحرة . لا اريد العودة الى الدار بعد الآن ! ولا اريد ان اتزوج مهندساً ولا فنياً ! السيد جاك تقدّم مني البارحة بعرض زواج ، – وهنا بسطت كفّها المقبوضة وارتها قطعاً نقدية ذهبية .

التفتت مرغريتا الى فولند في نظرة متسائلة فهزّ هذا راسه بالايجاب . اذاك ارتمت ناتاشا على عنق مرغريتا وقبّلتها قبلات مدوية واطلقت صيحة انتصار وانطلقت في الجوّ من النافذة .

وظهر نيقولاي ايفانوفتش حيث كانت ناتاشا . كان قد استعاد مظهره الانساني السابق ، لكنه في غاية التجهّم بل لعله كان على شيء من الغيظ .

– هاكم من اطلقَ سراحه بسرور بالغ ، – قال فولند وهو ينظر الى نيقولاي ايفانوفتش باشمئزاز ، – بل بسرور مفرط لشدّ ما هو زائد هنا .

وقال نيقولاي ايفانوفتش وهو يلقي حوله نظرات وحشية انما بعناد شديد :

– ارجوكم رجاء حاراً اعطائي شهادة تبين مكان تمضيتي الليلة السابقة .

– لماذا ؟ – ساله القط بصرامة .

– كي اقدّمها الى الشرطة والى زوجتي ، – قال نيقولاي ايفانوفتش بلهجة حازمة .

– نحن عادة لا نعطي شهادات ، – اجاب القطّ مقطّباً جبينه . – لكن لأجلك لاباس ، نعطيك استثناء .

ولم يكد نيقولاي ايفانوفتش يفيق من ذهوله حتى كانت غيلا العارية تجلس وراء الآلة الكاتبة والقط يملي عليها :

– اشهد ان حامل هذه الوثيقة نيقولاي ايفانوفتش امضى الليلة المذكورة في الحفلة الراقصة التي اقيمت عند الشيطان ، وقد استُقدم الى هناك كواسطة نقل . . . افتحي قوساً ياغيلا ! واكتبي بين القوسين «خنزير» . التوقيع بيغيموت .

– والتاريخ ؟ – صاى نيقولاي ايفانوفتش .

– نحن لا نضع تواريخ . الوثيقة ذات التاريخ ستصبح لاغية ، – اجاب القطّ ووقع بسرعة ، ثم استخرج من مكان ما خاتماً ، وحسب الأصول نفخ عليه وطبع على الوثيقة «مدفوعة الأجر» وسلّمها الى نيقولاي ايفانوفتش . وللحال اختفى هذا دون ان يترك اثراً ، وظهر مكانه شخص آخر غير متوقع .

– ومن هذا ايضاً ؟ – سال فولند بتأفف وهو يحجب بيده ضوء الشموع عن عينيه .

نكس فارينوخا راسه وتنهد وقال بصوت خفيض :

– اعيدوني الى بيتي . فانا لا يمكنني ان اكون مصاص دماء . في تلك المرّة كدت اودي وغيلا بحياة ريمسكي ! انا لست سفاحاً متعطشاً للدم . اطلقوا سراحي !

– بماذا يهذي ؟ – سأل فولند عابس الوجه ، – من ريمسكي هذا ؟ وما هذا الهذر ؟

– لا تكلف نفسك عناء ياسيدي . – قال ازازيلو وخاطب فارينوخا قائلا : – لا داعي للوقاحة على الهاتف . لا داعي للكذب على الهاتف . مفهوم ؟ الن تعود الى ذلك ؟

اختلطت الأشياء في راس فارينوخا من الفرح واشرق وجهه ، وتمتم وهو لا يعي ما يقول :



– والله . . . يعني . . . اريد ان اقول فخامـ . . . بعد الغداء حالاً . – وضمّ فارينوخا يديه الى صدره وتطلّع الى ازازيلو في ضراعة .

– حسن ، هيّا الى بيتك ، – اجابه هذا . وذاب فارينوخا .

– والآن دعوني جميعكم وحدي معهما ، – امر فولند وهو يشير الى المعلّم ومرغريتا .

ونفّذ امر فولند في التوّ واللحظة . وبعد فترة صمت توجه فولند بالكلام الى المعلّم .

– هكذا اذن ، تريد العودة الى القبو في اربات ؟ ومن ذا الذي سيتابع الكتابة ؟ والأحلام والالهام ؟

– احلامي ضاعت والالهام ايضاً ضاع ، – اجاب المعلم .

– لا شيء حولي يعنيني الاّها ، – ووضع من جديد يديه على راس مرغريتا . – لقد حطموني . ولقد مللت واريد العودة الى القبو .

– وروايتك ؟ وبيلاطس ؟

– امقتها روايتي هذه . – اجاب المعلّم ، – فقد عانيت منها اكثر مما ينبغي .

– اتوسل اليك ، لا تتكلم هكذا ، – قالت مرغريتا بصوت حزين ، – لماذا تعذبني هكذا ؟ انت تعرف اني اودعت عملك هذا حياتي كلها . – واضافت مرغريتا متوجهة الى فولند : – لا تصغ الى ما يقوله ياسيدي . فهو في غاية الاعياء .

– لكن الا يجب ان تصوّر شيئاً ما ؟ – قال فولند ، – اذا كنت انتهيت من الحاكم ، فابدأ بتصوير الويبزي هذا على الأقل .

ابتسم المعلّم :

– لابشيونيكوفا لن تطبع هذا . ثم ان هذا غير شائق .

– وهم ستعيش اذن ؟ في هذه الحالة ستضطر الى التسوّل .

– عن طيب خاطر . عن طيب خاطر . – اجاب المعلم وجذب مرغريتا اليه وطوّق كتفيها واضاف : – ستعود الى رشدها وتتخلّى عني . . .

– لا اظنّ ، – قال فولند من بين اسنانه واردف : –

هكذا اذن ، الشخص الذي كتب قصة بيلاطس البنطي يعود الى القبو بقصد الأنزواء هناك قرب المصباح والعيش في فقر مدقع .

تنحت مرغريتا عن المعلم قليلاً وقالت بحرارة بالغة :

– فعلت كل ما في وسعي ، وهمست في اذنه بأشد الوعود اغراء . لكنه رفضها .

– اعرف تماماً ما همست له ، – ردّ فولند ، – لكنه ليس اشدّها اغراء . – ثم ابتسم وخاطب المعلم قائلاً : – دعني اقل لك ان روايتك ستحمل لك مفاجآت اخرى .

– هذا محزن جداً ، – اجاب المعلم .

– لا . لا ، هذا غير محزن ، – قال فولند . – لن يحدث اي شيء مخيف . والآن يامرغريتا نيقولايفنا كل شيء جاهز . هل لك طلب آخر ؟

– ماذا تقول ياسيدي ، ماذا تقول !

– خذي اذن مني للذكرى ، – قال فولند واخرج من تحت الوسادة حدوة فرس ذهبية صغيرة مرصعة بالألماس .

– لا ، لا ، لا . ما الداعي !

– أتريدين مناقشتي ؟ – تساءل فولند مبتسماً .

وضعت مرغريتا الحدوة في فوطة اذ لم يكن لبردتها جيب ولفتها . وهنا راع مرغريتا أمر . فقد التفتت الى النافذة التي كان القمر يلمع فيها وقالت :

– الشيء الذي لا افهمه . . . اننا ما زلنا في منتصف الليل مع انه حان للصبح أن ينجلي من فترة طويلة !

– يحلو ايطالة ليلة العيد قليلاً ، – أجاب فولند ، – حسناً ، اتمنى لكما السعادة .

مدّت مرغريتا الى فولند كلتا يديها فيما يشبه الدعاء . لكنها لم تجرؤ على الاقتراب منه وهتفت بصوت خافت :

– الوداع ! الوداع !

– الى اللقاء ، – قال فولند .

وخرجا ، مرغريتا في بردتها السوداء والمعلّم في ثياب المستشفى ، الى الممرّ الذي في شقة زوجة الصانع حيث كانت تضيء شمعة وتنتظرهما حاشية فولند . وعندما مضيا خارجين من الممرّ كانت غيلا تحمل الحقيبة وفيها الرواية وثروة مرغريتا



نيقولايفنا الصغيرة بينما كان القطّ يساعدها . وعند باب الشقة انحنى كوروفييف محيياً واختفى . بينما مضى الآخرون يشيعون مرغريتا والمعلم . كان الدرج خالياً . وحين اجتازوا بسطة الطابق الثالث سمع صوت ارتطام خفيف ، لكن أحداً لم يعره اهتماماً . وعند باب المدخل الخارجي السادس نفخ ازازيلو نفخة قوية في الهواء . وما ان خرجوا الى الفناء الذي لم ينفذ اليه ضوء القمر حتى راوا في المدخل المسقوف شخصاً يعتمر كبية وينتعل جزمة وهو نائم نوم الأموات على ما يبدو ، كما راوا سيارة سوداء كبيرة مطفأة الأنوار تقف في مدخل البناية ومن خلال زجاجها الأمامي يلوح طيف غراب .

كانوا يتأهبون لصعود السيّارة حين اطلقت مرغريتا في يأس صيحة خافتة :

– يالهي ! اضعت الحدوة .

اصعدا ، – قال ازازيلو ، – وانتظراني . سأعود فور تبين الأمر . – وعاد أدراجه .

وهاكم هذا الأمر : قبل فترة وجيزة من خروج مرغريتا والمعلم وتشييعهما ، خرجت الى الدرج من الشقة رقم ٤٨ الكائنة تحت شقة زوجة الصانع امراة يابسة العود تحمل صفيحة وحقيبة يدوية . ولم تكن تلك المراة سوى انوشكا ، تلك التي اراقت الزيت ، لسوء حظ برليوز ، عند باب الحديقة يوم الأربعاء .

لم يكن احد يعرف ، ولعلّه لن يعرف احد قط ، ماذا كانت تشتغل هذه المراة في موسكو ، ولا مما كانت تتعيش . كل ما كان يعرف عنها انه كان بالامكان مشاهدتها يومياً ، وهي تحمل امّا صفيحة او حقيبة يدوية ، واما صفيحة وحقيبة يدوية معاً ، في دكان بيع مشتقات النفط او في السوق او عند البوابة او على درج ، انما كانت تشاهد اغلب الأحيان في مطبخ الشقة رقم ٤٨ حيث كانت تسكن انوشكا هذه . والى هذا كله وفوق هذا كله كان من المعروف انه ما ان توجد انوشكا في مكان او تظهر فيه حتى تجلجل فيه فضيحة ، زد على ذلك انها عرفت بين الناس باسم «الطاعون» .

ولسبب ما كانت انوشكا-الطاعون تنهض باكراً جداً في العادة ، أما اليوم فقد ايقظها شيء ما ابكر من عادتها ، في بداية

الساعة الاولى ليلاً . دار في الباب المفتاح وبرز انف انوشكا اولاً ثم برزت فيه انوشكا كلها ، وما ان صفقت وراءها الباب واخذت تتهيأ للتحرك الى مكان ما ، حتى انفتح الباب في البسطة العليا في دويّ وتدحرج شخص ما على الدرج دافعاً انوشكا وقاذفاً بها جانباً بحيث اصطدم قفاها بالجدار .

– الى اين دفع بك الشيطان في سروالك الداخلي وحده ؟ – ولولت انوشكا وقد امسكت بقفاها . لكن اجابها الرجل ذو العينين المغمضتين الذي لم يكن عليه الاّ ثيابه الداخلية وكبية وفي يده حقيبة بصوت وحشي ناعس :

– مسخّن الماء ! الزاج ! التكليس وحده كم كلف ! – وجار بعد ان استعبر : – هيّا خارجاً ! – وهنا انطلق ولكن لا ليكمل طريقه الى الأسفل بل صاعداً الدرج الى حيث النافذة التي حطّم الاقتصادي زجاجها برجله ، ومن هذه النافذة طار الى الفناء وساقاه الى الأعلى . ونسيت انوشكا حتى قفاهـا ، فتاوهت واندفعت الى النافذة . انبطحت على بطنها على البسطة واطلت براسها تتطلع الى الفناء وهي تتوقع ان ترى على الأسفلت المضاء بمصباح الفناء الرجل ذا الحقيبة محطّماً ومشرفاً على الموت . لكنه لم يكن على الأسفلت في الفناء شيء من هذا اطلاقاً .

بقي افتراض وهو ان هذه الشخصيـة الغريبة والناعسة انطلقت من البيت محلقة كالطائر دون ان تترك اثراً . رسمت انوشكا اشارة الصليب وقالت في نفسها : «نعم ، بالفعل الشقة رقم ٥٠ ! ليس عبثاً ما يقول الناس ! نعم يالها من شقة !»

وما كادت تقول في نفسها ما قالته حتى اصطفق الباب ثانية في الأعلى واندفع شخص آخر هابطاً . التصقت انوشكا بالجدار ورات مواطناً محترماً الى حدّ ما ، ذا لحية صغيرة لكنه ذو وجه يشبه سحنة الخنزير قليلاً فيما بدا لأنوشكا ، يمرق بمحاذاتها ، ويغادر البناية كالأول تماماً من النافذة دون ان ينوي هو الآخر ان يتحطم على الاسفلت . كانت انوشكا قد نسيت الآن الهدف من خروجها ، فجمدت في مكانها على الدرج ترسم اشارة الصليب وتتأوه وتحدث نفسها .

وبعد فترة قصيرة اندفـع يهبط الدرج شخص ثالث دون



لحية ، ذو وجـه مدوّر حليق يرتدي قميصاً واسعاً وانسلّ كسابقيه طائراً من النافذة .

يجب الاعتراف لأنوشكا بأنها كانت محبة للمعرفة ولهذا قرّرت التريث قليلاً لعلّه تحدث خوارق جديدة . وبالفعل فتح الباب في الطابق الأعلى من جديد ، واخذت تهبط الدرج شلّة كاملة ، انما ليس ركضاً ، بل في مشية عادية كما يسير باقي الناس . اسرعت انوشكا تبتعد عن النافذة وتهبط الدرج الى بابها . فتحت الباب بسرعة واختبأت خلفه ، ولمعت في الشقّ الذي تركتـه انوشكا عين تتحرق فضولاً .

كان يهبط الدرج بخطوات مترنحة شخص لم تتبين بالضبط ان كان مريضاً ام لا ، لكنه كان شخصاً غريباً ، شاحب اللون ذا لحية نامية يضع طاقية صغيرة سوداء ورداء غريب الشكل ، تمسكه من يده بعناية سيدة في رداء اسود كما بدا لأنوشكا في نصف العتمة المخيمة . كانت السيدة حافية القدمين أو لعلّهـا كانت تنتعل حذاء شفّافاً ، ربّما كان اجنبياً ، وممزّقاً تماماً . تفو ! ما اتفه الحذاء وما فيه بالمقارنة مع مـا ترى ! السيدة عارية ! نعم ، الرداء ملقى مباشرة على جسم عار ! «يالهـا من شقة» ! كانت نفس انوشكا تتهلل منتشية مسبقاً بما ستخبر به غداً الجيران .

وكانت تتبع السيدة المرتدية هذه الاردية الغريبة سيدة اخرى عارية تماماً تحمل بيدها شنطة صغيرة ، والى جانب الشنطة يسعى قط اسود هائل الحجم . فركت انوشكا عينيها وهي تكاد تصيء بصوت مسموع .

وكان يسير في مؤخرة الركب شخص اجنبي ضئيل الحجم يعرج قليلاً ذو عين عوراء لا يلبس جاكيتة بل صدرية فراك بيضاء مع ربطة عنق . وجازت الجماعة كلهـا انوشكا هابطة الدرج . وهنا سمع صوت شيء يسقط على البسطة . تريّثت انوشكا حتى خفتت الأقدام وانسلّت كالحية من خلف الباب ، ووضعت الصفيحة عند الجدار وانبطحت على بطنهـا على البسطة واخذت تبحث بيديها ، فاذا بهما تقعان على فوطة فيها شيء ثقيل . وانعقدت عيناها فوق جبينهـا من الدهشة حين فكّت الصرة . قربت انوشكا الكنز الثمين حتى عينيها تماماً ، وتوقّدت هاتان

العينان بنار ذئبية تماماً . وعصفت الافكار برأسها كالاعصار : «لا رأيت ولا عرفت ! . . . الى ابن اختي ؟ أم انشرهـــا الى اجزاء ! . . الأحجار يمكن انتزاعها . . . وبيعها حجراً حجراً طوراً في سوق بيتروفكا وطوراً في سوق سمولنسكي . . . ولا عين رأت ولا اذن سمعت !» .

خبأت انوشكا اللقية في عبها وخطفت الصفيحة وعزمت على التسلل ثانية الى شقتها مؤجلة جولتها في المدينة ، حين انتصب امامهـــا دون أن تدري كيف ومن اين ذلك الشخص ايّاه ذو الصدر الأبيض الذي لا يرتدي جاكيتة وهمس قائلاً :

– هاتي الحدوة والفوطة .

– اي حدوة وفوطة ؟ – سألت انوشكا التي كانت تجيد التصنع ، – ألست سكراناً ايها المواطن ؟

وبيدين صلبتين كصلابة دربزين الباص ، وبأصابع باردة كبرودته ضغط الرجل ذو الصدر الأبيض على حلق انوشكا دون ان ينبس بكلمة ، بحيث حبس الهواء عن صدرهـــا .وسقطت الصفيحة من يد انوشكـا على الأرض . وبعد أن أبقى الأجنبي الذي دون جاكيتة انوشكا دون هواء بعض الوقت ، فك اصابعه عن عنقها . عبّت انوشكا بعض الهواء وابتسمت تقول :

– آه ، الحدوة ، لحظـة ! هذه هي حدوتك اذن ؟ نظرت فاذا هي في فوطة . . . التقطتها عمداً كي لا ياخذها احد واذاك عليها السلام !

بعد أن تناول الأجنبي الحدوة والفوطة ، اخذ ينحني محيّياً وهو يخفق بقدميه ، ويشد على يدها بقوة ويشكرهـــا بحرارة بتعابير ذات لكنة اجنبية صارخة :

– اشكر لك معروفك عميق الشكر يامدام . هذه الحدوة عزيزة على نفسي كذكرى . واسمحي لي ان اقدم لك مائتي روبل لقاء احتفاظك بها . – واخرج من جيب صدريته مائتي روبل على الفور وناولها انوشكا .

ولم يكن من انوشكا الاّ انها اخذت تصرخ وابتسامتها تعرض وتعرض :

– آه ، شكراً جزيلاً ! ميرسي ، ميرسي !



هبط الأجنبي الكريم قلبة الدرج بخطوة واحدة ، لكنه صرخ من الأسفل قبل أن يختفي نهائياً ، انما دون لكنة هذه المرة :

– وانت ايها العجوز الشمطاء ، اذا وجدت مرّة اخرى شيئاً ليس لك ، سلميه الى الشرطة ولا تخبئيه في عبك !

اما انوشكا التي احست بطنين وضوضاء في راسها من كل هذه الأحداث التي تجري على الدرج فاستمرّت تصرخ طويلاً بفعل العطالة : – ميرسي ! ميرسي ! ميرسي ! – بينما لم يعد للأجنبي من اثر من فترة طويلة .

ولم يعد من اثر للسيّارة في الفناء . فبعد أن اعاد ازازيلو هدية فولند الى مرغريتا سالها ان كانت مرتاحة في مقعدهـــا وودعها وتبادلت غيلا ومرغريتا قبلات ريّانة وانحنى القط على يدها مقبلاً ، ولوّح المشيعون بايديهم للمعلّم المتهالك في مؤخرة السيارة دون حياة وحراك ، كما لوّحوا للغراب ، وسبحوا للحال في الهواء معتبرين أن لا ضرورة لأن يكلفوا انفسهم عناء صعود الدرج . اشعل الغراب مصابيح السيّارة ومضى خارجاً بها من البوابة مجتازاً الرجل النائم نوم الأموات في الطنف . وضاعت انوار السيّارة الكبيرة السوداء وسط الأضواء الاخرى في شارع سادوفايا الساهر والصاخب .

وبعد ساعة وفي قبو بيت صغير في احد ازقة اربات ، وفي الغرفة الأولى حيث كان كل شيء كما في السابق قبل تلك الليلة الخريفية المريعة من ليالي العام الماضي ، كانت مرغريتا تجلس الى طاولة مغطاة بسماط مخملي قرب مصباح ذي واقية وقربه آنية صغيرة من سوسن الوادي منخرطة في بكاء خافت من الصدمة والسعادة اللتين عاشتهما . كان الدفتر الذي شوّهته النار ملقى امامها ، في حين ارتفعت الى جانبها رزمة الدفاتر السالمة . كان البيت صامتاً ، وفي الحجرة الصغيرة المجاورة كان المعلّم يغط في نوم عميق متمدّداً على الديوان ومغطّى بثوب المستشفى وكان تنفسه منتظماً هادئاً .

وبعد أن ارتوت مرغريتا بكاء ، امسكت الدفاتر السالمـة وراحت تبحث فيها حتى وجدت المكان الذي كانت تعيد قراءته قبل لقائها بازازيلو عند جدار الكرملين . لم تكن مرغريتا تشعر برغبة في النوم . فاخذت تمسح على المخطوط بلطف كما يمسح

على قطة محبوبة وتقلبه بين يديها وتتفحّصه من كل جوانبه متوقفة عند صفحة العنوان تارة فاتحة المخطوط من آخره تارة اخرى . وفجأة دهمتها فكرة مريعة أن هذا كله سحر في سحر ، وان الدفاتر ستختفي الآن من أمام عينيها ، وانها ستجد نفسها في مخدعها في دارها وانه لا مناص لها بعد أن تستيقظ من ان تمضي وترمي بنفسها في الماء . لكن هذا لم يكن الاّ آخر فكرة مريعة تراودها ، لم يكن الا صدى الآلام الطويلة التي كابدتها . لم يختف شيء ، وفولند الكلي القدرة كان بالفعل كلي القدرة ، وكان بامكان مرغريتا أن تجلس قدر ما يحلو لها حتى ولو الى طلوع الفجر تقلّب صفحات الدفاتر وتتاملها وتلثمها وتعيد قراءة هذه الكلمات :

– الظلمة الزاحفة من البحر الابيض المتوسط غطت المدينة البغيضة الى قلب الحاكم . . . نعم الظلمة . . .

## الفصل الخامس والعشرون

## كيف حاول الحاكم انقاذ يهوذا الذي من قيريافا

الظلمة الزاحفة من البحر الابيض المتوسط غطت المدينة البغيضة الى قلب الحاكم . اختفت الجسور المعلقة التي تصل الهيكل ببرج انطونيو الرهيب ، وانهمرت من السماء لجّة وغمرت الآلهة المجنحة وميدان الخيل وقصر الجسمانية ذا الكوى والأسواق والخانات والأزقة وبرك الماء . . . غارت اورشليم المدينة العظيمة وكان لم يكن لها وجود . التهمت الظلمة التي روّعت كل حيّ في اورشليم وتخومها كل شيء . كانت سحابة سوداء غريبة تلك التي اندفعت من البحر في نهاية هذا اليوم ، الرابع عشر من شهر نيسان الربيعي .

جثمت الغيمة بكرشها على الجبل الاقرع حيث كان الجلاّدون يطعنون المحكومين على عجل ، وجثمت على الهيكل في اورشليم ، وزحفت في تيّارات دخانية من الربوة التي ينتصب عليها وغمرت الجزء السفلي من المدينة . كانت تتسلل من النوافذ وتسوق



الناس من الشوارع الملتوية الى بيوتها . لم تكن الغيمة تتعجّل صب مائها ، بل كانت تسخو بضونها فقط . فما ان كانت هذه الكتلة الدخانية السوداء تنفث نارها ، حتى كانت كتلة الهيكل العظيمة بقبتها المحرشفة اللامعة تشمخ في السماء خارجة من الظلمة الحالكة ، لكن بريقها كان يخبو في لحظة ويغرق الهيكل في لجّة الظلام من جديد . وثب الهيكل من الظلام وسقط فيه عدّة مرات ، وكان سقوطه يقترن في كل مرّة بدوي الكارثة .

وكان بصيص أنوار أخرى راعشة يستنهض من اللجة قصر هيرودس العظيم القائم على الرابية الغربية مقابل الهيكل ، فكانت التماثيل الذهبية العور الرهيبة ترتفع في الجو باسطة ايديها الى السماء . لكن النار السماوية كانت تختفي من جديد ، وكانت قصفات الرعد تعيد الأصنام الذهبية الى الظلام .

وانهمرت شآبيب المطر فجأة ، واستحالت العاصفة الرعدية اعصاراً . وفي نفس المكان الذي تحدث فيه الحاكم والكاهن الاعظم عند الظهر قرب المقعد المرمري في الحديقة تقصفت شجرة سرو كالعصا بصوت كقصف المدفع ، وتطايرت الورود المقطّعة واوراق المغنوليا والاغصان الصغيرة والحصى مختلطة برذاذ المطر والبرد الى الشرفة ذات الأعمدة . كان الاعصار يسوم الحديقة العذاب .

في هذا الوقت لم يكن تحت الأعمدة الاّ شخص واحد . وكان الحاكم هذا الشخص .

لم يكن يجلس الآن على الأريكة ، بل كان يضطجع على متكأ أمام طاولة واطئة صفت عليها الماكولات ودوارق الخمر ، وفي الطرف الآخر المقابل من الطاولة متكأ آخر خال . وكانت تنبسط عند قدميه بركة حمراء كانها من دم ، لم تمسح آثارها وتُزَلْ ، وتتناثر شظايا دورق محطم . كان الخادم الذي يعدّ المائدة للحاكم قبل العاصفة قد ارتبك لسبب ما من نظرته المصوبة اليه واضطرب خوفاً من ان يكون اساء الى الحاكم في امر ، فاستبد بالحاكم غضب شديد وحطّم الدورق على الأرض المغطاة بالفسيفساء وهو يقول :

– لماذا لا تنظر الى وجهي حين تناولني شيئاً ؟ اتكون سرقت شيئاً ؟

استحال وجه الافريقي الاسود بلون الرماد ، ولاح في عينيه رعب قاتل ، فارتعد وكاد يحطم دورقاً ثانياً ، لكن غضب الحاكم زايله لسبب ما بسرعة كما ركبه ، واندفع الافريقي يجمع الشظايا ويمسح البركة ، لكن الحاكم لوّح بيده فهرع العبد خارجاً وبقيت البركة .

والآن اثناء الاعصار كان الافريقي يختبئ قرب المحراب ، حيث تمثال امرأة بيضاء عارية حانية الراس ، خائفاً في آن من الظهور امام الحاكم في وقت غير مناسب ومن التخلّف عن الظهور امامه لحظة يستدعيه .

كان الحاكم المستلقى على متكئه في نصف العتمة التي اشاعتها العاصفة الرعدية يسكب الخمر لنفسه في كاس ، ويشربها في جرعات طويلة ، وهو يمدّ يده الى الخبز من وقت لآخر فيكسره ويبلعه قطعاً صغيرة ، ويمصّ المحار ويلوك الليمون ثم يعود الى الشرب .

ولولا هدير الماء ، ولولا زمزمات الرعد التي كانت تهدّد ، فيما بدا ، باقتلاع سطح القصر ، ولولا نقر البرد الذي كان يطرق بشدة على درجات الشرفة ، كان بالامكان سماع الحاكم يغمغم محدّثاً نفسه . ولو ان الارتعاش المتقطع من نار السماء استحال ضوءاً متصلاً ، لاستطاع الملاحظ أن يرى ان وجه الحاكم بعينيه المحمرتين من ارق الليالي الاخيرة ومن الخمر ينم عن نفاد الصبر ، وان الحاكم لا ينظر فقط الى الوردتين البيضاوين الغارقتين في البركة الحمراء ، بل يتحوّل بوجهه باستمرار الى الحديقة في مواجهة رذاذ المطر والرمل ، وانه ينتظر شخصاً ما ، ينتظره بفارغ صبر .

ولم يمض الا وقت يسير ، حتى اخذت كثافة الغشاوة المائية تخفّ امام عيني الحاكم ، اذ دبّ الوهن في الاعصار رغم عنفه . فلم تعد الاغصان تطقطق وتتساقط ، وتباعدت زمزمة الرعد والتماعات البرق . لم يعد يسبح فوق اورشليم الآن نقاب بنفسجي ذو حاشية بيضاء ، بل غيمة رمادية عادية متخلّفة . كانت العاصفة الرعدية تندفع الآن باتجاه البحر الميت .

وغدا بالامكان الآن تمييز صوت المطر وصوت الماء المندفع في الميازيب ثم على تلك الدرجات التي مضى عليها الحاكم ظهراً



لاعلان الحكم في الساحة . واخيراً سمعت سقسقة الفسقية المخنوقة حتى الآن ، واشرقت الدنيا من جديد ، وظهرت في الغشاوة الرمادية الهاربة الى الشرق نوافذ زرق .

وهنا تناهت الى سمع الحاكم من بعيد اصوات أبواق واهنة ووقع بضع مئات من الحوافر تشق اليه طريقها من خلال صوت المطر القليل . تحرّك الحاكم لدى سماعه هذه الأصوات ودبت الحياة في وجهه . كانت الكتيبة السورية تعود ادراجها من الجبل الاقرع ، وكانت تجتاز الآن ، فيما يظهر من اصواتها ، الساحة ذاتها التي أعلن فيها الحكم .

واخيراً سمع الحاكم الخطوات التي طال انتظارها ، وصعوداً متثاقلاً على الدرج المؤدي الى الحديقة العلوية امام الشرفة مباشرة . اشراب الحاكم بعنقه ولمعت عيناه بالفرح .

وبدا بين الاسدين المرمريين راس داخل قلنسوة أولاً ثم شخص مبلّل تماماً في بردة ملتصقة بجسمه . ولم يكن هذا الشخص الا ذاك الذي تهامس والحاكم في غرفة القصر العاتمة قبل اعلان الحكم ، والذي جلس على الكرسي الثلاثي القوائم اثناء تنفيذه وهو يلعّب عصاه .

اجتاز الرجل ذو القلنسوة ارض الحديقة دون أن يتبين البرك التي فيها وداس الشرفة الفسيفسائية ، وقال بصوت عالٍ لطيف وهو يرفع يده :

– امنياتي للحاكم بطول العمر والسعادة . – كان القادم يتكلم باللاتينية .

– ايتها الآلهة ! – صاح بيلاطس ، – ليس هناك من خيط واحد جاف على جسمك ! اي اعصار كان ؟ آ ؟ ارجوك ان تدخل على الفور جناحي ، وتتكرّم بتغيير ملابسك .

نزع القادم قلنسوته عن راس مبلّل بالماء تماماً وشعر ملتصق بجبينه ، وبعد ان رسم على وجهه الحليق ابتسامة متادبة اخذ يعتذر عن تغيير ملابسه مؤكداً ان المطر لا يمكن ان يؤذيه .

– لا اريد ان اسمع الى شيء مما تقوله ، – اجاب بيلاطس وصفق بيديه . وبهذا استدعى خدمه المتوارين عنه ، ثم امرهم بالاعتناء بالقادم ومن ثم تقديم طعام ساخن على الفور . ولم

يلزم القادم الى الحاكم كي يجفف شعره ويغيّر ملابسه وحذاءه ، وباختصار كي يرتّب نفسه ، الاّ القليل من الوقت . وسرعان ما بدا على الشرفة في خفّ جاف وفي بردة عسكرية جافة قرمزية وشعر مسوّى .

في هذا الوقت عادت الشمس الى أورشليم ، واخذت ، قبل ان تغادر وتغرق في البحر الأبيض المتوسط ، ترسل اشعة الوداع الى المدينة البغيضة الى قلب الحاكم ، وتذهّب درجات الشرفة . دبّت الحياة كاملة في الفسقية واخذت تسقسق بملء قوتها ، وحطّت الحمائم على الحصى وراحت تهدل وتتواثب فوق الأغصان المكسرة وتنقر شيئاً ما في الرمل الرطب . كانت البركة الحمراء قد مسحت والشظايا رُفعت والبخار يتصاعد من اللحم على المائدة .

– كلي آذان صاغية لما يأمر به الحاكم ، – قال القادم وهو يدنو من الطاولة .

– لن تسمع مني شيئاً قبل أن تجلس وتتناول بعض الخمر ، – أجاب بيلاطس بلطف واشار الى المتكأ الآخر .

استلقى القادم فسكب له احد الخدم خمراً حمراء كثيفة ، وملأ خادم آخر كأس الحاكم وهو ينحني فوق كتفه في حذر . وصرف هذا خادميه باشارة منه . وفيما كان القادم يشرب ويأكل ، كان بيلاطس يرشف الخمر ويلقي بين الحين والحين نظرة الى ضيفه بعينين نصف مغمضتين . كان الرجل الذي مثل بين يدي بيلاطس شخصاً في متوسط العمر ذا وجه مدوّر جدّ لطيف وأنيق وأنف لحيم وشعر يتعذّر تحديد لونه ، لكنه الآن وقد جف وبدا أشقر . وكان من الصعب على المرء تحديد جنسيته . ولعل الشيء الأساسي الذي كان يميّز وجهه هو تعبير الطيبة الذي كانت عيناه تشوّهانه بالمناسبة ، والأصح القول ليس عينيه ، بل طريقة القادم في النظر الى محدثه . كان في العادة يثبّت عينيه الصغيرتين تحت جفنين مغمضين وغريبين قليلاً كأنهما منتفخان . اذاك كان ينوّر من أشعتي هاتين العينين مكر لا ينمّ عن شر . ويجب الافتراض أن ضيف الحاكم كان ميّالاً للفكاهة . لكنه كان أحياناً يطرد هذه الفكاهة المشعّة من شقي عينيه فيفتح جفونه على اتساعها ، ويحدّق في محدثه بغتة وبعناد



كأنه يريد أن يتبين بسرعة لطخة خفية على أنف محدثه . لكن هذا لم يكن يستمر الا لحظة ، تعود جفونه بعدها لتنطبق وتضيق عن شقين ، وتعود الطيبة والفطنة الماكرة تشرقان منهما .

لم يرفض القادم كأساً ثانية من الخمر ، والتهم بضع محارات وذاق بعض الخضار المسلوقة وأكل قطعة لحم بلذة ظاهرة . وراح ، بعد أن شبع ، يطري الخمرة :

– كرمة ممتازة ، أيها الحاكم ، الا تكون «فاليرنو» ؟

– لا ، انها «تسيكوبا» ، عمرها ثلاثون سنة ، – أجابه الحاكم بلطف .

وضع الضيف يده على قلبه ، ورفض تناول شيء آخر وأعلن انه شبع ، اذاك ملأ بيلاطس كأسه فتبعه ضيفه . وسكب الجليسان بعض الخمر من كأسيهما على قصعة اللحم وقال الحاكم بصوت عال وهو يرفع كأسه :

– نخبنا ، ونخبك أيها القيصر ، ياأب الرومان ياخير الناس واعزهم .

واتيا على ما في كأسيهما من الخمر ، ثم رفع الأفريقيان الماكولات عن المائدة ولم يبقيا الا على الفواكه والدوارق . ومرّة اخرى صرف الحاكم خادميه باشارة منه وبات وحده مع ضيفه تحت الأعمدة .

– اي ، – قال بيلاطس بصوت خفيض ، – ما الذي يمكنك أن تقوله لي عن الحالة النفسية السائدة في هذه المدينة ؟

وحوّل بصره الى أسفل ، وراء مدرجات الحديقة ، حيث كانت الأعمدة والأسطح المستوية المذهّبة باشعة الشمس الأخيرة في الرمق الأخير من توهّجها .

– اعتقد أيها الحاكم ان الحالة في أورشليم باتت مرضية .

– بحيث يمكن التأكيد ان الاضطرابات لم تعد تتهددنا ؟

– لا يمكن الاعتماد على شيء في هذه الدنيا اللهم الا على جبروت قيصر العظيم ، – أجاب الضيف وهو يرنو الى الحاكم برقة .

– الا فلتمتعه الآلهة بالعمر المديد والسلام العام ، – تابع الحاكم مزيداً على الفور وصمت قليلاً ثم أردف : – تعتقد اذن بامكان سحب القوات من المدينة ؟

– اعتقد بامكان سحب كتيبة الصاعقة ، – أجاب الضيف واضاف : – لا بأس في أن تقوم باستعراض في المدينة لدى مغادرتها .

– فكرة ممتازة ، – قال الحاكم مجبذاً ، – بعد غد آمر بسحبها ثم اغادر انا ايضاً ، واقسم لك بمادبة الاثني عشر الهاً وبأرواح أجدادنا اني على استعداد للتخلّي عن الكثير كي افعل هذا اليوم قبل الغد .

– او لا يحب الحاكم اورشليم ؟ – سأله الضيف بلطف .

– حنانيك ، – هتف الحاكم وهو يبتسم ، – لا يوجد على الأرض مكان اشد كآبة من هذا المكان ! ناهيك عن الطبيعة ! اني امرض في كل مرّة يترتب علي القدوم الى هنا . لكن هذا ليس الا نصف المصيبة . وهذه الأعياد – مِنْ سحرة ومشعوذين وقطعان حجّاج . . . متعصبون متعصبون ! وهذا المسيح الذي اخذوا يتوقعون مجيئه فجأة هذا العام كم كلّفنا وحده ! في كل دقيقة وانت تتوقع ان تصبح شاهداً على سفك شنيع للدماء . وطول الوقت اعادة ترتيب القوّات وقراءة الاخباريات والوشايات ، ونصفها على الأقل ضدك ! لا بدّ ان توافقني على ان هذا مملّ ! آه ، لولا خدمة الامبراطور ! . .

– نعم ، الأعياد هنا ثقيلة الوطأة ، – قال الضيف موافقاً .

– ارغب من صميم قلبي في انتهاء هذه الأعياد سريعاً ، – اردف بيلاطس بقوة ، – فاتمكن اخيراً من العودة الى قيصرية . هل تصدق ان بناء هيرودس الهذيانيّ هذا ، – ولوّح الحاكم بيده على طول رواق الأعمدة بحيث اتضح انه يتكلم عن القصر ، – هل تصدق ان هذا البناء يذهب بعقلي فعلاً . اني لا أستطيع النوم فيه . العالم لم يعرف هندسة بناء اغرب من هذه الهندسة . لكن لنعد الى شؤوننا . اولاً فرافان الملعون هذا لا يقلقك امره ؟

وهنا صوّب الضيف نظرته الخاصة الى خدّ الحاكم ، لكن هذا كان يرنو بعينين تفيضان بالملل الى البعيد مقطباً ومتأملاً ذلك الجزء من المدينة المنبسط امامه والمنطفىء في ساعة المغيب . وانطفأت نظرة الضيف ايضاً وانسدلت جفونه .

– لا بد ان فرّافان اصبح الآن مأموناً كالحمل ، – قال



الضيف وظهرت الغضون على وجهه المدوّر . – اذ يصعب عليه التمرّد الآن .

– الانه اصبح جدّ مشهور ؟ – لاحظ بيلاطس مبتسماً في سخرية .

– الحاكم كعادته يدرك المسائل بدقة !

– وعلى أي حال ، – لاحظ الحاكم مهموماً ، وارتفعت الى الأعلى اصبعه الطويلة الرقيقة بخاتمها ذي الحجر الأسود ، – يترتب . . .

– او ، بوسع الحاكم ان يكون على يقين من ان فرّافان لن يخطو خطوة واحدة دون مراقبة ما دمت في اليهودية .

– الآن انا مطمئن النفس ، كما أكون ، بالمناسبة ، مطمئنها دائماً حين تكون هنا .

– الحاكم في غاية الطيبة !

– والآن ارجوك ان تحدثني عن تنفيذ الحكم ، – قال الحاكم .

– وما الذي يثير اهتمام الحاكم بالضبط ؟

– الم تجر من قبل الجمهور محاولات للتعبير عن الاستياء ؟ هذا هو الشيء الرئيسي بطبيعة الحال .

– لا ، اطلاقاً ، – اجاب الضيف .

– ممتاز . وانت بنفسك تأكدت من حدوث الوفاة ؟

– بوسع الحاكم ان يكون واثقاً من هذا .

– قل لي ايضاً . . . هل عرضتم عليهم شراباً قبل صلبهم ؟

– نعم ، لكنه ، – وهنا اغمض الضيف عينيه ، – لكنه رفض ان يشرب .

– من الذي رفض ؟ – سأل بيلاطس .

– عفوك ايها الوالي ! – هتف الضيف ، – اتراني لم اذكر اسمه ؟ الغا نوصري .

– ياللمجنون ! – قال بيلاطس مكشراً لسبب ما ، واختلج تحت عينه اليسرى عرق ، – يموت من حروق الشمس . لماذا يرفض ما هو من حقّه قانوناً ، وبأي عبارات رفض ؟

– قال – اجاب الضيف وهو يغمض عينيه من جديد ، – انه شاكر ولا يتهم احداً في قتله .

– يتهم من ؟ –سأل بيلاطس بصوت خافت .
– هذا ما لم يقله أيها الوالي .
– ألم يحاول التبشير بشيء ما في حضرة الجنود ؟
– لا ، أيها الوالي ، كان مقلاً في كلامه هذه المرة . الشيء الوحيد الذي قاله انـــه يعتبر الجبن واحدة من أخطر النقائص الانسانية .
– ومـــا المقصود بهذا القول ؟ – سمع الضيف صوتـــاً متهدّجاً بغتة .
– هذا ما تعذّر فهمـــه . كان يتصرف على نحو غريب ، كعهده دائماً على أي حال .
– وما وجه الغرابة ؟
– كان يحاول طول الوقت ان يسترق نظرة الى عيني هذا أو ذاك من المحيطين به ، وكان يبتسم طول الوقت ابتسامة ذاهلة .
– وماذا هناك أيضاً ؟ – سأل الصوت المبحوح .
– لا شيء .
نقر الحاكم الكأس وهو يملؤهـــا لنفسه خمراً ، وبعد ان أفرغها قال :
– الموضوع هو التالي : على الرغم من أننا لا نستطيع ان نجد – في الوقت الراهن على الأقل – أي متعاطف معه أو أي تابع له ، الاّ انه لا يجوز لنا الاطمئنان مع هذا الى عدم وجودهم اطلاقاً .
كان الضيف يصغي باهتمام حاني الراس . واردف الحاكم يقول :
– وهكذا ، وتحسّباً من أي مفاجآت ممكنة ارجوك ان تمحو من وجه الأرض فوراً ودون أي ضجة أجساد المحكومين الثلاثة كلهم وتدفنها سراً وفي صمت كي يختفي اي اثر لهم .
– سمعاً وطاعة ، أيها الوالي ، – قال الضيف ونهض : – اسمح لي بالانطلاق فوراً نظراً لصعوبة الأمر وخطورته .
– لا ، بل امكث قليلاً ، – قال بيلاطس مستوقفاً ضيفه باشارة منـــه ، – هناك موضوعان آخران . الثاني ان خدماتك



الجليلة في عملك الشاق هذا بوصفك رئيس الجهاز السري لدى حاكم اليهودية تتيح لي فرصة لطيفة لابلاغ روما بالأمر .
هنا تورّد وجه الضيف فنهض وانحنى للحاكم وهو يقول :
– جلّ ما افعله أني أؤدي واجبي في خدمة الامبراطور !
وتابع الوالي :
– بودي ، فيما لو عُرض عليك النقل من هنا مع ترفيع ، رفض النقل والبقاء هنا . فأنا لا أود الافتراق عنك مهما يكن . وليكافئوك بأي طريقة أخرى يرونها .
– تسعدني الخدمة تحت امرتك أيها الوالي .
– وهذا من دواعي سروري البالـغ . والآن الى الموضوع الثالث وهـــو يتعلق بهذا الذي اسمـــه . . . يهوذا الذي من قيريافا .
وهنا صوّب الضيف نظرته الخاصة الى الحاكم ، وسرعان ما اطفأها كما هو مفروض .
وتابع الحاكم كلامه ، وهو يخفض صوته :
– يقال انه قبض مالاً فيمـــا يبدو لقـاء استقباله هذا الفيلسوف المجنون في بيته هذا الاستقبال الحافل .
– سيقبض ، – قال رئيس الجهـــاز السري بصوت خافت مصحّحاً .
– وهل المبلغ كبير ؟
– هذا ما لا يستطيع أحد أن يعرفه ، أيها الوالي .
– حتى أنت ؟ – قال الوالي معبّراً باستغرابه عن اطرائه الضيف .
– حتى أنا للاسف ، – أجابـه الضيف بهدوء ، – لكني اعلم علم اليقين انه سيستلـــم هذه النقود اليوم مساء . فقد استدعي اليوم للحضور الى قصر قيافا .
– آه ، يالهذا العجوز القيريافي الجشع ، – لاحظ الحاكم وهو يبتسم ، – انه عجوز أليس كذلك ؟
– الحاكـــم لا يخطئ ابداً ، لكنه اخطأ هذه المرّة ، – أجاب الضيف بأدب ولطف ، – القيريافي ليس الاّ شاباً .
– عجيب ! هل تستطيع اعطائي اوصافه هل هو متعصب !
– لا ، لا ، أيها الحاكم .

– حسن . وهل هناك شيء آخر ؟
– وسيم جداً .
– وماذا ايضاً ؟ هل لديه شهوة ما ؟
– من الصعب أن نعرف الجميع بدقة في هذه المدينة الضخمة ، ايها الوالي . . .
– لا ، لا ، يا افراني ! لا تقلّل من شأن افضالك !
– لديه شهوة واحدة ، ايها الحاكم . – وتوقف الضيف هنيهة ثم اردف : – شهوة المال .
– وماذا يعمل ؟
رفع افراني عينيه الى الاعلى وفكّر قليلاً واجاب :
– يعمل في محلّ صرافة لدى احد اقاربه .
– حسن ، حسن . – وهنا صمت الحاكم وتلفّت حوله لعلّ احداً على الشرفة ، ثم قال بصوت خافت : – الموضوع اني تلقيت اليوم معلومات تفيد انه سيُذبح هذه الليلة .
وهنا لم يسدّد الضيف نظرته الى الحاكم وحسب ، بل ثبتها عليه قليلاً ثم اجاب :
– لقد بالغت في اطرائي ايها الحاكم . وفي رايي اني لا استحق معرفة هذه المعلومات . فهذه المعلومات ليست متوفرة لدي .
– انت جدير باسمى المكافآت ، – اجابه الحاكم ، – لكن لدي معلومات من هذا القبيل .
– هل لي ان اتجرأ واسأل عن مصدر هذه المعلومات ؟
– اسمح لي الا اقول لك شيئاً الآن ، لا سيما ان هذه المعلومات عارضة وغامضة وغير موثوقة . لكن من واجبي ان احسب لكل شيء حسابه . هذا ما تفرضه عليّ وظيفتي ، واكثر من ذلك عليّ ان اصدق احساسي الداخلي ، فهو لم يخدعني ابداً . اما معلوماتي فتفيد بأن احد اصدقاء الغا نوصري السريين الذي اسخطته خيانة هذا الصرّاف البشعة يسعى للاتفاق مع شركائه الآخرين على قتله الليلة ، اما النقود التي تسلمها هذا لقاء خيانته فسيأخذونها ويدسّونها خفية عند باب الكاهن الأعظم مع وريقة تحمل هذه الكلمات : «اعيد لك النقود الملعونة !» .
لم يعد رئيس الجهاز السري يرمي الوالي بنظراته المباغتة ،



بل واصل الاستماع زارّاً عينيه الى ما يقوله بيلاطس . وكان بيلاطس يتابع كلامه :
– تصوّر ، هل سيسر الكاهن الأعظم بتلقي هدية كهذه في ليلة العيد ؟
– لا ، لن يسرّ وحسب ، – اجاب الضيف وهو يبتسم ، – بل ارى ، ايها الحاكم ، ان هذا سيثير فضيحة ضخمة .
– وانا من رايك . ولهذا السبب ارجوك الاهتمام بهذا الموضوع ، اي اتخاذ كل الاجراءات الكفيلة بالحفاظ على حياة يهوذا الذي من قيريافا .
– سينفّذ امر الوالي ، – قال افراني ، – لكن بودي ان اطمئن بال مولاي ، ففكرة هؤلاء الأشرار صعبة التنفيذ جداً . تصوّر فقط ، – هنا استدار وهو يتكلم واردف : –ملاحقته وطعنه ثم معرفة كمية النقود التي قبضها ثم التحايل لاعادة المال الى قيافا ، وهذا كله في ليلة واحدة ؟ واليوم بالذات ؟
– ومع هذا سيذبحونه اليوم ، – كرّر بيلاطس في اصرار ، – اقول لك : هذا شعوري الباطني ! لم يحدث أن خدعني ، – وهنا سرت في وجهه موجة تشنج ، وفرك يديه قليلاً .
– سمعاً وطاعة ، – اجابه الضيف بلهجة انصياع ونهض وانتصب ، وسأله بصوت صارم : – سيذبحونه اذن ايها الوالي ؟
– نعم ، – اجابه بيلاطس ، – والأمر كله معقود على ادائك الذي هو مثار اعجاب الجميع .
سوّى الضيف سيره الثقيل تحت البردة وقال :
– متشرف ، اتمنى لك طول العمر والسعادة .
– آه ، – صاح بيلاطس بصوت خافت ، – كدت انسى تماماً ! فانا مدين لك ! . .
تولت الدهشة الضيف .
– لا ، لست مديناً لي بشيء ايها الحاكم .
– كيف ؟ الا تذكر جمهور الشحاذين لدى دخولي اورشليم . . . كنت اريد القاء بعض النقود اليهم ، ولم اكن احمل شيئاً ، فاخذت منك . . .
– ايها الحاكم ، هذا امر تافه !

– ومن الواجب تذكر التوافه .

وهنا استدار بيلاطس وتناول البردة الملقاة على الأريكة خلفه واخرج من تحتها كيساً جلدياً ومدّ به يده الى ضيفه ، فانحنى هذا وهو يتناوله وخبأه تحت بردته .

– انا في انتظار تقريرك عن الدفن ، – قال بيلاطس ، – وكذلك تقريرك عن قضية يهوذا الذي من قيريافا اليوم ليلاً ، اتسمعني يا افراني ، اليوم . ساصدر الأمر للحرس بايقاظي فور حضورك . اني في الانتظار !

– متشرف ، – قال رئيس الجهاز السري ، واستدار ومضى من الشرفة . سمعت خشخشتـــه وهو يعبر فوق رمل الحديقـة المبلّل ، ثم سمع وقع جزمته على المرمر بين الأسود . ثـــم اختفت ساقاه فجسمه واخيراً اختفت قلنسوته . هنا فقط راى الحاكم ان الشمس اختفت وان الغسق قد حلّ .

## الفصل السادس والعشرون

## الدفن

لعل الغسق هو الذي كان السبب في تغير مظهر الحاكم هذا التغيّر الحاد ، بدا وكانـــه شاخ في لحظات واحدودب ظهره ، ناهيك عن الاضطراب الذي اخذ يشيـع في كيانه . فقد التفت مرّة حوله ، ولامر ما ارتعد بعد ان القى نظرة على الأريكة الخالية التي كانت البردة ملقاة على مسندها . كانت ليلة العيد تقترب ، وكانت اطياف المساء تلعب لعبتها . والأرجح انه تهيأ للحاكم المتعب أن شخصاً ما يجلس في الأريكة الخاليـة . وبدرت عن الحاكم علامة تخاذل وخور : فقد نفض البردة ثم القاها مكانهـا واخذ يعدو في الشرفة جيئة وذهاباً ، وهو يفرك يديه تارة ويهرع الى الطاولة ويتشبث بالكاس تارة اخرى ، أو يتوقف وياخذ في التحديق في فسيفساء الأرض ببلاهة تارة ثالثة وكانه يجهد في قراءة كتابات ما عليها .

كانت المرة الثانية التي تتولاه فيها الكآبة هذا اليوم . كان



الحاكم يفرك صدغه ، الذي لم يبق فيه من الألم الصباحي الجهنمي الاّ ذكرى كليلة موجعـــة قليلاً ، محاولاً ادراك سبب آلامه النفسية . وسرعان ما ادرك السرّ ، لكنه حاول خداع نفسه . كان واضحاً له كل الوضوح انه قصّر اليوم تقصيراً لا سبيل الى تداركه ، وانـــه يريد الآن التعويض عن تقصيره بأفعال تافهة ، صغيرة ، والأهم من هذا وذاك انها افعال متأخرة . وكان خداعه لنفسه يتلخص في محاولته الايحاء لنفسه واقناعها بأن افعاله هذه ، الحالية المسائية ، لا تقل اهمية عن الحكم الذي نطق به صباح اليوم . لكن الحاكم لم يلق في محاولته الاّ القليل القليل من النجاح .

توقف عند احد المنعطفات بغتـة وصفر . واستجاب لهذا الصفير المنطلق في الغسق نباح منخفض ، ووثب من الحديقة الى الشرفة ، كلب ضخم مرهف الأذنين ذو شعر رمادي وطوق ذي حلقات مذهبة .

– بنغا ! بنغا ! – نادى الحاكم بصوت واهن .

شبّ الكلب على قائمتيه الخلفيتين ، بينما القى الأماميتين على كتفي صاحبه بحيث كاد يوقعه ارضاً ولحسه في خدّه . وجلس الحاكم على الأريكة . اذّاك اقعى الكلب عند قدمي صاحبه وهو يمدّ لسانه ويلهث لهاثاً متواصلاً . كانت الفرحة التي في عينيه تعني ان العاصفة الرعدية ، وهي الشيء الوحيد في الدنيا الذي كان الكلب الشجاع يخافـــه ، قد انتهت ، وانه هنا الآن من جديد ، مع الشخص الذي كان هو ، اي الكلب ، يحبه ويحترمه ويعتبره اقوى من على وجه الأرض وسيد كل البشر ، والذي بفضله كان الكلب يعتبر نفسه كائناً متميزاً ، رفيعـــاً . لكن الكلب ادرك على الفور بعد ان اقعى عند قدمي صاحبه ، وحتى دون أن ينظر اليه ، بل وهو يتطلع الى الحديقـــة التي يهبط المساء عليها ، أن مكروهاً حلّ بصاحبه . ولهذا غيّر وضعه ، فنهض ودار حول صاحبه ووضع قائمتيه الأماميتين ورأسه على ركبتي الحاكم ملوّناً بذلك اطراف بردته بالرمل المبلّل . كانت تصرفات بنغا تعني ، على الأرجح ، انه يواسي صاحبه ، وانه على استعداد لمواجهة المصيبة معه . وقد حاول الاعراب عن هذا المعنى بنظرته التي كان يسدّدها من طرف خفي اليه وباذنيه

المرهفتين المنتصبتين . هكذا استقبل كلاهما ، الكلب والرجل المتحابان ، ليلة العيد على الشرفة .

في هذا الوقت كان ضيف الحاكم منهمكاً في سعي دائب . فبعد أن غادر المدرج العلوي للحديقة التي أمام الشرفة ، هبط الى المدرج التالي وانعطف يميناً واتجه الى الثكنات القائمة على ارض القصر . في هذه الثكنات بالذات كانت المائتان اللتان قدمتا مع الحاكم الى اورشليم في العيد تنزلان ، وكذلك الحرس السري للحاكم الذي كان تحت امرة هذا الضيف . مكث الضيف في الثكنات بعض الوقت – لا اكثر من عشر دقائق . وبمضيّ هذه الدقائق العشر خرجت من فناء الثكنات ثلاث عربات محملة بادوات حفر وبرميل ماء ، يرافقها خمسة عشر فارساً في برد رمادية . خرجت العربات برفقة هؤلاء الرجال من القصر عبر البوابة الخلفية ، واتجهت الى الغرب وعبرت باباً في سور المدينة وانطلقت في طريق فرعي الى طريق بيت لحم اولاً ، ثم مضت فيه شمالاً حتى بلغت مفترق الطرق الذي عند باب حفرون ، وعنده تحرّكت في طريق يافا ، تلك التي مرّ فيها موكب المحكومين ظهراً . في هذا الوقت كان الظلام قد اطبق ، وظهر القمر في الأفق .

ما ان غادرت العربات مع مرافقيها القصر ، حتى غادره ضيف الحاكم على ظهر جواد وقد ارتدى ثوباً يونانياً داكناً مهترئاً . ولم يتوجه الضيف الى خارج المدينة ، بل الى داخلها . وبعد قليل كان من الممكن رؤيته يدنو من قلعة انطونيو القائمة في الشمال بجوار الهيكل الكبير مباشرة . ولم يمكث الضيف في القلعة سوى وقت يسير ايضاً ، بات بعده في القسم السفلي من المدينة – في شوارعها الملتوية والمتشابكة ، ولم يصل الضيف الى هنا على جواد ، بل على بغل .

عثر الضيف الذي كان يعرف المدينة جيداً على الشارع الذي يحتاجه بيسر ، وكان اسمه الشارع اليوناني ، اذ كانت تقوم فيه بعض الدكاكين اليونانية ، ومنها واحد يتاجر بالسجّاد . عند هذه الدكان بالذات اوقف الضيف بغله وترجل عنه وربطه الى حلقة عند الباب . كان الدكان مغلقاً ، فولج الضيف من باب صغير الى جانب مدخل الدكان فاذا به في فناء مربّع صغير محاط



بعنابر . وفي الفناء انعطف الضيف عند زاوية فوجد نفسه عند شرفة حجرية لمنزل يعرّش فيها اللبلاب . تلفت الضيف حوله : كان الظلام يخيم على المنزل كما على العنابر اذ لم يكن احد اشعل فيها النور بعد . ونادى الضيف بصوت خفيض :

– نيزا !

صرّ الباب على ندائه هذا ، وظهرت على الشرفة في نصف العتمة المسائية امراة شابة دون نقاب . انحنت المراة فوق درابزين الشرفة وهي تحدّق في قلق متحرّقة لمعرفة القادم . ولمّا عرفته ابتسمت له بودّ ، وهزّت راسها ولوّحت بيدها .

– هل انت وحدك ؟ – سال افراني باليونانية بصوت خافت .

– وحدي ، – همست المراة في الشرفة . – لقد غادر زوجي صباح اليوم الى قيصرية ، – وهنا حانت من المراة التفاتة الى الباب واضافت هامسة : – لكن الخادمة في البيت . – واشارت اليه بما معناه «ادخل» . تلفّت افراني حوله ووضع قدمه على الدرجات الحجرية . وبعدها اختفى هو والمراة داخل المنزل .

ولم يمض افراني عند هذه المراة سوى وقت جدّ قصير – لا اكثر من خمس دقائق على ابعد تقدير ، غادر بعده المنزل والشرفة واسدل قلنسوته على عينيه وخرج الى الشارع . كان الناس قد اخذوا في هذا الوقت يشعلون المصابيح في البيوت ، وكان زحام ما قبل العيد لا يزال عظيماً جداً ، وضاع افراني على بغله في تيّار الراكبين والراجلين . اما خط سيره التالي فلا يعرفه احد .

اخذت المراة التي ناداها افراني باسم نيزا تغيّر ملابسها بعد ان بقيت وحدها . وكانت الى هذا على عجلة عظيمة من امرها . لكنها لم تشعل مصباحها ولم تنادِ خادمتها على الرغم من الصعوبة الكبيرة التي كانت تعانيها في البحث عمّا تحتاجه في الغرفة المظلمة . ولم يُسمع صوتها في البيت الاّ بعد ان اخذت اهبتها ووضعت على راسها نقاباً داكناً .

– اذا سال عني احد ، قولي له اني خرجت لزيارة ابنانتا .

وسمعت دمدمة العجوز تقول في الظلمة متبرّمة :

– لزيارة ابنانتا ؟ آه من ابنانتا هذه ! الم يمنعك زوجك

من الذهاب اليها ؟ قوّادة صاحبتك هذه اينانتا ! لا بدّ ان اخبر زوجك . . .

– كفى ، كفى ، كفى ، اخرسي ، – ردّت نيزا وانسلت من البيت كالطيف . سمع وقع خفّ نيزا على بلاط الفناء الحجري واغلقت الخادمة باب الشرفة برمة وغادرت نيزا منزلها .

في هذا الوقت بالذات خرج شاب من باب بيت حقير تطلّ مؤخرته على الزقاق ونوافذه على الفنـاء ومضى في زقاق متعرّج من ازقة المدينة السفلى يهوي بدرجاته الى احد برك المدينة . كان الشاب ذا لحية صغيرة محلوقة بعناية ، وشملة بيضاء نظيفة تتدلى على كتفيـه ، وقميص ازرق جديد ارتداه خصيصاً للعيد تتدلى شرّاباته الى اسفـل وصندل جديد يرسل صريراً . كان الشاب الوسيـم الاقنى الأنف الذي اخذ زينته استعداداً للعيد الكبير يمضي بهمة متجاوزاً السابلة المسرعين الى مائدة العيد في بيوتهم ، وينظر الى النوافذ تضيء الواحدة اثر اخرى . كان الشاب يحث الخطا في الطريق المحاذي للسوق والمؤدي الى قصر رئيس الكهنة قيافا القائم عند اسفل التلة التي عليها الهيكل .

وكان يمكن رؤيته بعد قليل يلج بوابة قصر قيافا ، ثم ما يلبث ان يغادره بعد فترة اخرى .

بعد زيارة القصر الذي تأججت فيـه المصابيح والمشاعل ودّبت فيه حركـة العيد وجلبته ، مضى الشاب بنشاط اوفر وبهجة اكبر ، عائداً ادراجه الى المدينة السفلى . وفي تلك الناحية ايّاها ، حيث كان الشارع يندمج في ساحة السوق ، ادركته في الزحام والغليان امراة خفيفة رشيقة تسير بخطوات متراقصة وتضع نقاباً اسود يغطي عينيها . ولما حاذت هذه المراة الشاب رفعت النقاب قليلاً فوق عينيهـا لحظة ، وصوّبت الى الشاب نظرة ، لكنها لم تبطىء الخطو ، بل حثته كأنها تحاول التواري عمن كانت تتجاوزه .

لم يلاحظ الشاب هذه المراة وحسب ، لا ، بل عرفها ، واذ عرفها ارتعد وتوقّف متبعاً ايّاها نظره في حيرة ، واندفع من فوره يلحق بها . ادرك الشاب المراة بعد أن كاد يرمي ارضاً عابر سبيل يحمل جرّة في يده وناداها وهو يلهث من الانفعال :

– نيزا !



التفتت المراة وزرت عينيها ، في حين ارتسمت على وجهها علامات ضيق بارد ، واجابت باليونانية :

– آه ، هذا انت يايهوذا ؟ لم اعرفك على الفور . وعلى اي حال ، لا باس ، هذا فال حسن ، فعندنا ان الذي لا تتعرّف عليه يصبح غنياً . . .

وسال يهوذا بهمس متقطع خشية ان يسمعه المارة ، وقد اخذ قلبه ينطّ من الاضطراب كعصفور تحت نقاب أسود :

– الى اين تمضين يانيزا ؟

– ومـا يعنيك هذا ؟ – اجابت نيزا وهي تبطئ الخطو وترمق يهوذا بنظرة كبر .

اذّاك رنّت في صوت يهوذا نبرة طفولية وهمس في ارتباك :

– كيف لا يعنيني ؟ لقد اتفقنـا . . . اردت ان اعرّج عليك . لقد قلت انك ستمكثين في البيت طول المساء .

– آه ، لا ، لا ، – اجابت نيزا ومطّت شفتها السفلى بنزوة بحيث بدا ليهوذا ان وجهها ، وهو اجمل وجه رآه في حياته ، ازداد جمالاً ، – لقد تولاني الضجر . عندكم عيد ، فماذا تريدني ان افعل ؟ الجلوس على الشرفة والاستماع الى تنهداتك ؟ والخوف الى هذا من ان تخبر الخادمة زوجي ؟ لا ، لا ، لهذا قررت المضي الى الضاحية لأستمع الى صوت العنادل .

– الى الضاحية ؟ – سالها يهوذا في حيرة ، – ووحدك ؟

– وحدي طبعاً ، – اجابت نيزا .

– اسمحي لي بمرافقتك ، – رجاها يهوذا مبهور الأنفاس . كان مضطرب الفكر وقد نسي كل شيء في هذا الوجود واخذ ينظر بعينين ضارعتين في عيني نيزا الزرقاوين اللتين بدتـا الآن سوداوين .

لم تجب نيزا بكلمة وحثت الخطا .

– لماذا تصمتين يانيزا ؟ – سال يهوذا بصوت شاك وهو يوقّع خطوه على خطوها .

– ألن اشعر بالملل معك ؟ – سالت نيزا فجاة وتوقفت . وهنا بلغت البلبلة في افكار يهوذا اشدّها .

– لا باس ، – قالت نيزا اخيراً بصوت ارقّ ، – هيّا بنـا .

– اين ، اين ؟

– مهلاً . . . لنمض الى هذا الفناء ونتفق ، فانا اخاف ان يراني احد من المعارف فيقال عني بعدئذ اني كنت مع عشيق على قارعة الطريق .

وهنا اختفى اثر نيزا ويهوذا من السوق ، اذ باتا يتهامسان في زاوية احد الأفنية المظلمة .

– اذهب الى بستان الزيتون ، – همست نيزا تقول له وهي تسدل النقاب على عينيها وتولي ظهرها لرجل يدخل الفناء المظلم وهو يحمل سطلاً ، – الى الجسمانية ، وراء نهر قدرون ، افهمت ؟

– نعم ، نعم ، نعم .

– سأمضي امامك ، – اردفت نيزا ، – لكن ايّاك ان تسير خلفي ، بل ابتعد عني . ساسبقك . . . وعندما تعبر مجرى السيل . . . هل تعرف اين المغارة ؟

– اعرف ، اعرف . . .

– اصعد بمحاذاة معصرة الزيتون ثم انعطف الى المغارة . ساكون هناك . انما ايّاك ان تمضي ورائي فوراً ، اصبر وانتظر قليلاً هنا . – وخرجت نيزا من الفناء وكانها لم تتبادل ويهوذا كلمة .

تريث يهوذا بعض الوقت واقفاً في مكانه وحده وهو يحاول استجماع افكاره المشتتة . وكان من بين هذه الأفكار كيف سيفسر غيابه عن مائدة العيد عند اهله . وقف يهوذا واخذ يفكر في كذبة ، لكنه في اضطرابه لم يجد ولم يعدّ شيئاً كما يجب ، وحملته قدماه خارج الفناء دون ارادته .

وغير الآن طريقه ، فلم يعد يندفع الى المدينة السفلى ، بل عاد ادراجه باتجاه قصر قيافا . كان يهوذا يرى الآن ما حوله بشكل غائم . كان العيد قد دخل المدينة . لم تعد الأنوار وحدها تلمع في نوافذ البيوت حول يهوذا ، بل كانت التسابيح تسمع فيها ايضا . وكان آخر المتخلفين يستحثون حميرهم ويسوطونها ويصرخون فيها . كانت قدما يهوذا تحملانه عفوياً ، فلم يلاحظ كيف مرقت الى جانبه ابراج قلعة انطونيو الرهيبة المغشاة بالطحلب ، ولم يسمع هدير الأبواق في القلعة ، ولم يعر الدورية



الرومانية الراكبة التي ترفع مشعلاً يغمر طريقه بضوء مقلق أي انتباه . وما ان اجتاز يهوذا القلعة حتى التفت ورأى شمعدانين هائلين يحمل كلّ منهما خمس شعلات يضيئان على علوّ شاهق فوق الهيكل . لكن حتى هذان الشمعدانان لم يتبينهما يهوذا الاّ بابهام ، فقد بدا له انه اشتعلت فوق اورشليم عشرة قناديل ذات مقاييس خارقة تضاهي ضوء القنديل الوحيد الذي يعلو شيئاً فشيئاً فوق اورشليم – القنديل القمري . لكن يهوذا كان الآن في شغل شاغل عن كل ما حوله ، اذ كان يندفع الى باب الجسمانية ليغادر المدينة باسرع ما يمكن . وكان يبدو أنه تلوح امامه بين ظهور المارة ووجوههم قامة متراقصة ، وانها تقوده وراءها . لكن هذا لم يكن الاّ خداعاً ، اذ كان يهوذا يدرك ان نيزا سبقته مسافة كبيرة . ومرّ يهوذا بدكاكين الصرافة وانتهى اخيراً الى باب الجسمانية . لكنه اضطر مع هذا الى التوقف هنا ، وهو يحترق من جزعه ولهفته ، اذ كانت تعبر البوابة الى المدينة جِمال وفي اثرها الدورية السورية العسكرية التي لعنها يهوذا في سرّه . . .

لكن لكل شيء نهاية . كان يهوذا المتلهّف خارج سور المدينة الآن . رأى يهوذا عن شماله مقبرة صغيرة نصبت قربها بضع خيام مخططة للحجاج . قطع يهوذا الطريق الأغبر المغمور بضوء القمر واندفع الى نهر قدرون كي يقطعه . كان الماء يقرقر بهدوء تحت قدمي يهوذا . قطع يهوذا النهر قافزاً من حجر الى حجر ووصل اخيراً الى الضفة حيث الجسمانية . رأى بفرح عظيم ان الطريق هنا فوق البساتين خالية . وعلى مسافة غير بعيدة تراءت له بوابة بستان الزيتون نصف المحطمة .

ادهشت يهوذا بعد جوّ المدينة الخانق الرائحة المخدّرة المنبعثة من هذا الليل الربيعي ، اذ كانت موجات من روائح الآس والاكاسيا تتدفق من مروج الجسمانية خلال اسيجة البستان .

لم يكن احد يحرس البوابة ، ولم يكن احد يقف فيها . وبعد دقائق كان يهوذا يحث الخطا تحت الظلال الغامضة لأشجار الزيتون الضخمة الكثيفة الأغصان . كان الطريق يؤدي الى الجبل ، وكان يهوذا يصعّد فيه وهو يلهث ، وكان يخرج من الظلمة بين

الحين والحين الى سجاجيد قمرية موشّاة ذكرته بالسجاجيد التي كان يراهـا في دكان زوج نيزا الغيور . وبعد قليل لاحت عن يسار يهوذا فوق المرج معصرة الزيت برحاهـا الثقيلة واكوام براميل . لم يكن في البستان أحد . لقد انتهى العمل عند المغيب ولم تكن في البستان نامة الاّ أجواق العنادل تغرّد وتصخب فوق رأس يهوذا .

كان هدف يهوذا قريباً . وكان يعرف أنه لن يلبث أن يسمع عن يمينه في الظلام همس الماء المتساقط بخفوت في المغارة . وهذا ما حدث : سمعه ، وسرت في الجوّ بعض البرودة .

اذّاك أبطأ الخطو ونادى بصوت خفيض :

– نيزا !

وانسلخ عن جذع الزيتونة الضخم بدلاً من نيزا طيف رجل قصير القامة عريض المنكبين وقفز الى وسط الطريق ، ولمع شيء ما في يده وسرعان ما خبا .

ارتد يهوذا الى الخلف بعنف وصاح بصوت واهن :

– آه !

وسدّ رجل آخر عليه الطريق .

وسأل الرجل الذي كان أمامه :

– كم قبضت الآن ؟ قل اذا كنت تريد الابقاء على حياتك !

انبعث بصيص أمل في قلب يهوذا فصاح في يأس :

– ثلاثون تيترادراخما ! ثلاثون تيترادراخما ! كل مـا استلمته معي هنـا . هاهي ذي النقود ، خذوهـا لكن هبوني الحياة .

وفي لحظة خطف الرجل الذي في الأمام كيس النقود من يدي يهوذا وفي اللحظة عينهـا لمعت وراء ظهر يهوذا سكين كالبرق وهوت تحت لوح عظم العاشق . انقذف يهوذا الى الأمام مطوّحا يديه بأصابعهمـا المتقلّصة في الهواء . وتلقى الرجل الأمامي يهوذا بسكينه وغرزها حتى مقبضها في قلب يهوذا .

– نيـ . . . زا . . . – تمتم يهوذا بصوت ليس صوتـه العالي الصافي المألوف ، بل بصوت خفيض لائم ، ولم يصدر عنه بعد هذا أي صوت ، فقد هوى جسده بعنف ارتجت له الأرض .



اذّاك ظهـر على الطريق شخص ثالث . وكان هذا الشخص يرتدي بردة ذات قلنسوة .

– لا تتلكأ ، – امرهما الشخص الثالث . وضع القاتلان حافظة النقود مع القصاصة التي أعطاهما اياّها الشخص الثالث ضمن قطعة جلد ولفّاها بخيط ، ثم دسّ الشخص الثاني الصرّة في عبّه وانطلق القاتلان يغادران الطريق باتجاهيـن مختلفين . وسرعان ما ابتلعتهما الظلمة بين أشجار الزيتون . أمّا الشخص الثالث فقد جلس القرفصاء قرب القتيل وألقى نظرة على وجهه . وفي الظل بدا الوجه أبيض كالحوار وذا جمال ملهم . وخلال ثوان خلا الطريق من أي حيّ . كان الجسم الهامد الأنفاس ينطرح على الأرض مبسوط اليدين وبطن قدمه اليسرى يقع في رقعة مقمرة بحيث كان كل سير من سيور صندله يرى بوضوح .

في هذا الوقت كان بستان الزيتون يصدح كلـه بتغريد العنادل . ولا يعرف أحد المكان الذي اتجه اليه قاتلا يهوذا ، أما طريق الشخص الثالث ذي القلنسوة فمعروف . فقد انعطف عن الطريق الى دغل من أشجار الزيتون متوجهاً الى الجنوب . تسلّق سور البستان البعيد عن الباب الرئيسي وعند زاويته الجنوبية بالضبط حيث كانت حجارته العلوية تتساقط ، وما لبث أن صار على ضفة قدرون ، فغاص في الماء وخاض فيه قليلاً ، الى أن رأى على بعد منه طيفي حصانين وهيئة بشرية الى جانبهمـا . كان الحصانان يقفان هما أيضاً في مجرى النهر ، وكان الماء يتدفق ويغسل حوافرهما . امتطى ماسك الخيل أحد الحصانين ، ووثب الرجل ذو القلنسوة الى ظهر الثاني ، ومضيا الهوينا في مجرى الماء ، وكانت خشخشة الحصى تسمع تحت حوافر الحصانين . ثم خرج الفارسان من الماء الى الضفة الأورشليمية وسارا بخطوات وئيدة بمحاذاة سور المدينة . وهنا افترق الرجلان . عدا ماسك الخيل الى الأمام وتوارى عن الأنظار ، في حين أوقف الرجل ذو القلنسوة حصانه ، وترجل عنه في الطريق الخالية ، ونزع بردته وقلبها على قفاها وأخرج من تحتها خوذة مفلطحة دون ريش ولبسها . وثب الآن الى ظهر الحصان شخص في لباس عسكري يتدلى سيف قصير على وركه . شد الفارس زمام الجواد الجموح فانطلق هذا خبباً يخضّ فارسه فوق ظهره خضاً . ولـم يعد

الطريق الآن طويلاً ، فقد اقترب الفارس من بوابة اورشليم الجنوبية .

كان نور المشاعل القلق يتـــراقص ويتواثب تحت قوس البوابة . وكان جنود الحراسة التابعون للمائة الثانية من فوج الصاعقة يجلسون على مقاعد حجرية يلعبون بالكعب . وما ان راوا العسكري القادم حتى هبوا واقفين فلوّح لهم العسكري بيده ودخل المدينة .

كانت المدينة مغمورة بانوار العيد ، وكانت شعلات المصابيح تتارجح في كل النوافذ ، وكانت التسابيح تتردّد من كل مكان ذائبة في جوقة واحدة غير متناسقة . وكان بامكان الفارس وهو يتطلع احياناً الى النوافذ المطلّة على الطريق أن يرى الناس جالسين الى مائدة العيد وقد وضع عليها لحم الماعز وكؤوس الخمرة بين أطباقٍ باعشاب مرّة . كان الفارس يجتاز في خبب غير عجل شوارع المدينة السفلى الخالية الى قلعة انطونيو وهو يصغر اغنية هادئة ويرنو من آن لآخر الى الشمعدانين ذواتي الانوار الخمس التي ليس لها مثيل في العالم والتي استعر لهيبها فوق الهيكل ، او الى القمر المعلّق أعلى من الشمعدانين .

لم يكن قصر هيرودس العظيـــم يشارك أقلّ مشاركة في احتفالات ليلـــة الفصح . كانت الأنوار مضاءة في غرف القصر الاضافية المطلّة على الجنوب حيث استقر ضباط الكتيبة الرومانية وقائد الفوج . هنا كنت تشعر ببعض الحركة والحياة ، اما القسم الأمامي من القصر حيث كـــان ساكن القصر الأسيرُ والوحيدُ الحاكمُ ، فبدا كله ، بأعمدته وتماثيله الذهبية ، كانما عمي تحت ضوء القمر الذي كان في أوج سطوعه . هنا داخل القصر كان الظلام والصمت يسودان ، ولم يكن الحاكم ، كمـــا قال لافراني ، يراغب في الدخول الى هناك ، الى الداخل . أمر باعداد سرير له على الشرفة ، في نفس المكـان الذي تناول فيه غداءه واجرى فيه التحقيق صباحاً . استلقى الحاكم على المتكا الذي أعدّ له ، لكن النوم لم يرغب في القدوم اليه . كان القمـــر المكشوف يتدلّى عالياً في السماء الصافية . ومكث الحاكم ساعات لا يرفع طرفه عنه .

في منتصف الليل تقريباً اشفق النوم على الوالي اخيراً .



تثاءب في تشنّج ، ثم فك ازرار بردته وخلعها ونزع السير ذا السكين الفولاذية العريضة المغمدة المشدود الى قميصه ووضعه على الأريكة قرب المتكا وخلع صندله وتمدّد . وعلى الفور ارتقى بنغا سريره وتمدّد الى جانبه واضعاً راسه الى جانب راسه . واغمض الحاكم عينيه اخيراً بعد ان وضع يده على رقبة الكلب . اذّاك فقط غفا الكلب ايضاً .

كان المتكا غارقاً في نصف عتمة ، وقد حجبه احد الأعمدة عن القمر ، انما كان يمتد من درجات الشرفة الى السرير شريط قمري . وما ان فقد الحاكم صلته بما يوجد حوله في الواقع ، حتى تحرّك في الطريق المنير ومضى فيه صاعداً الى القمر مباشرة ، بل انه انفجر ضاحكاً في نومه من السعادة لشدة ما كان كل شيء رائعاً وفريداً في الطريق الأزرق الشفاف . كان يمضي برفقة بنغا والى جانبهما الفيلسوف المتشرد وكانا يتناقشان في امر ما بالغ التعقيد والأهمية ، على ان احداً منهما لم يكن في وسعه التغلب على الآخر في هذا النقاش . لم يكونا يتفقان على شيء ولهذا كان حديثهما شيّقاً بوجه خاص لا ينضب معينه . وبطبيعة الحال بدا حكم الموت الذي نفّذ اليوم سوء فهم خالصاً ، فهاهو ذا الفيلسوف الذي اختلق شيئاً على هذا القدر من الخرق كقوله ان كل الناس طيبون يسير الى جانبه وهذا يعني انه حيّ . وبالطبع سيكون امراً فظيعاً جداً حتى مجرّد التفكير انه بالامكان قتل رجل كهذا . لم ينفّذ اي حكم بالموت ! لا ، لم ينفّذ ! هاكم سرّ روعة هذه الرحلة صعوداً على سلّم القمر .

كان لديه من وقت الفراغ قدر ما يحتاج ، والعاصفة لن تهبّ الاّ عند المساء والجبن واحدة من افظع النقائص دون شك . هكذا قال يشوع الغا نوصري . لا ايها الفيلسوف ، اني اعترض : الجبن افظع نقيصة .

هاك على سبيل المثال حاكم اليهودية حالياً ، وقائد الفرقة سابقاً ، فهو لم يجبن اذّاك في وادي العذارى حين كاد الجرمانيون المسعورون يمزقون قاتل الجرذان الجبار . لكن عفوك ايهـــا الفيلسوف ! احقاً بامكانك الافتراض ، وانت ما عليه من ذكاء ، ان حاكم اليهودية مستعدّ ان يقضي على مركزه ومستقبله بسبب شخص أجرم في حق القيصر ؟

– نعم ، نعم ، – كان بيلاطس يئن وينشج في نومه .

مستعد ، لا شك في ذلك . في صباح هذا اليوم لما يكن مستعداً . امّا الآن ليلاً ، بعد أن زان كل شيء ورازه ، فمستعد ان يقضي عليهما . سيقدم على أي شيء كي ينقذ من الموت طبيباً وحالماً مجنوناً لم يأت أي ذنب !

– من الآن سنكون معاً على الدوام ، – قال له في نومه الفيلسوف المشرّد الممزق الثياب الذي لا يدري أحد كيف اعترض سبيل الفارس ذي الرمح الذهبي . – حيث الواحد لا بدّ ان يكون الآخر ! ما ان يذكروني حتى يذكروك ، أنا اللقيط المجهول النسب وانت ابن الملك المنجّم وابنة الطحّان الحسناء بيلا .

واخذ بيلاطس يرجوه في الحلم :

– وانت لا تنسني ، بل اذكرني انا ابن المنجّم .

واذ ضمن بيلاطس لنفسه ايماءةً موافقة من البائس السائر معه الذي من انصارية ، اخذ حاكم اليهودية الظالم يبكي ويضحك في نومه من فرحه .

كان هذا كله شيئاً جميلاً ، الأمر الذي جعل استيقاظ الوالي اكثر سوءاً . زمجر بنغا على القمر ، فغار الطريق الأزرق المنزلق كانه مدحول بزبدة امام الوالي . فتح هذا عينيه وكان اول ما ذكره ان تنفيذ حكم الموت قد تم . وكان اول ما فعله الوالي انه تشبث بحركة مألوفة منه بطوق بنغا ، ثم اخذ يبحث بعينين مريضتين عن القمر فراى انه مال قليلاً واكتسى غلالة من الفضة ، ونوره يساقط ضوءاً مزعجاً قلقاً متراقصاً امام عينيه على الشرفة . كان في يد قائد المائة قاتل الجرذان مشعل متأجج ومسخّم ، وكان حامله يرمق بخوف وحنق الوحش الخطر المتحفّز للانقضاض .

– لا تمسّه يابنغا – قال الحاكم بصوت مريض وسعل ثم اردف وهو يحمي وجهه من اللهب بيده : – وحتى في المساء وفي ضوء القمر لا اجد الراحة . ايتها الآلهة ! ووظيفتك انت ايضاً كريهة يامارك فانت تشوّه الجنود . . .

كان مارك يحدقّ في الحاكم في دهشة عظيمة ، فثاب هذا الى



رشده ، وقال كي يمحو اثر الكلمات الفارغة التي صدرت عنه بتاثير الحلم :

– لا تزعل ياقائد المائة ، أعود فاقول ان موقفي اسوأ . ماذا تريد ؟

– قدم اليكم قائد الحرس السري ، – قال مارك بهدوء .

– ادعه ، ادعه ، – أمر الحاكم وهو ينظّف حلقه بسعلة ، واخذ يتلمس صندله بقدميه الحافيتين . تراقص اللهب على الأعمدة وصلّ كعب قائد المائة على الفسيفساء وخرج الى الحديقة .

– حتى في ضوء القمر لا أجد الراحة ، – قال الحاكم لنفسه وهو يصر اسنانه .

وظهر على الشرفة مكان قائد المائة رجل يرتدي قلنسوة .

– لا تمسّه يابنغا – قال الحاكم بصوت خافت وشد على قفا الكلب .

وقبل ان يبدأ افراني كلامه التفت حوله كعادته وانسحب الى الظل ثم قال بصوت خافت بعد ان تاكد ان لا غريب على الشرفة سوى بنغا :

– ارجو تقديمي الى المحاكمة ايها الحاكم . لقد كنتَ على حقّ ، فانا لم استطع حماية يهوذا الذي من قيريافا ، فقد قتل طعناً بالسكاكين . ارجو تقديمي الى المحاكمة وقبول استقالتي .

بدا لافراني ان اربع عيون تتطلع اليه : عينا كلب وعينا ذئب .

واخرج افراني كيس نقود متحرشفاً من الدم المتخثر وممهوراً بختمين من تحت قميصه .

– هذا هو الكيس الذي رماه القتلة بما فيه من نقود في بيت رئيس الكهنة خلسة . والدم الذي على هذا الكيس هو دم يهوذا من قيريافا .

– طريف ، كم فيه ياترى ؟ – سأل بيلاطس وهو ينحني فوق الكيس .

– ثلاثون تيترادراخما .

لاحت على وجه الحاكم ابتسامة ساخرة وقال :

– قليل .

لزم افراني الصمت .

– اين القتيل ؟

– هذا ما لا اعرفه ، – اجاب الرجل الذي لا يفارق قلنسوته ابداً بوقار هادئ ، – اليوم صباحاً نبدأ البحث .

ارتعد الحاكم وترك شريط صندله الذي تابى على الربط باي شكل من الاشكال .

– لكنك تعرف بالتاكيد انه قُتل ؟

وتلقى الحاكم الجواب القاسي التالي على سؤاله هذا :

– اني اعمل في اليهودية من خمس عشرة سنة ايها الحاكم . بدأت عملي في عهد فاليريوس غراتوس . وليس من الضروري ان ارى الجثة حتى اقول ان صاحبها قتل . وها انا ذا اقول لك ان من كان يدعى يهوذا الذي من مدينة قيريافا قتل طعناً بالسكين من ساعات .

– اعذرني يا افراني ، – قال بيلاطس ، – فانا لم استيقظ من نومي كما يجب ولهذا قلت ما قلت . نومي سيء ، – وهنا ابتسم الحاكم ابتسامة ساخرة ، – وارى دائماً في نومي شعاع القمر . تصوّر كم هذا مضحك . كاني اتنزه في هذا الشعاع . وهكذا بودي ان اعرف تخميناتك في هذه القضية . اين تستعد للبحث عنه ؟ اجلس ، يا رئيس الجهاز السري .

انحنى افراني ودفع الأريكة الى مقربة من السرير وجلس مصلصلاً بسيفه .

– استعد للبحث عنه على مقربة من معصرة الزيتون التي في بستان الجسمانية .

– حسن ، حسن . ولماذا هناك بالذات ؟

– في تصوّري ايها الوالي ان يهوذا لم يُقتل في اورشليم نفسها ، ولا في مكان بعيد عنها ، بل قتل في ضاحيتها .

– اني اعتبرك واحداً من ابرز خبراء مهنتك . لا اعرف على اي حال كيف الحال في روما ، اما في مستعمراتها فلا ندّ لك . افصحْ ، ما سبب تصورك هذا ؟

وقال افراني بصوت خافت :

– لا استطيع ان افترض في اي حال من الأحوال ان يكون يهوذا قد وقع في ايدي اشخاص مشبوهين داخل تخوم المدينة ؛



ففي الشارع لا يمكن القتل خفية . اذا كان يجب استدراجه الى قبو ما . لكن رجالي بحثوا عنه في المدينة السفلى كلها ، وكان من المفروض ان يجدوه لـــو كان موجوداً هناك . لكنه ليس موجوداً في المدينـــة وهذا امـــر استطيـــع ان اؤكـد لك صحته . ولو قتل بعيداً عن المدينة ، لما كان لهذه الرزمة من النقود ان تلقى في قصر رئيس الكهنة بمثل هذه السرعة . لقد قتل على مقربة من المدينة ، وقد استطاع الذين قتلوه استدراجه الى هناك .

– لست ادرك كيف تمكنوا من ذلك .

– نعم ، ايها الحاكم ، انها اصعب مسالة في القضية كلها ، حتى اني لا اعرف ان كنت ساوفق في حلّها .

– شيء ملغز فعلاً ! انسان مؤمن يغادر في ليلة العيد الى خارج المدينة لسبب مجهول متخليـــاً عن مائدة الفصح ويقتل هناك . من الذي استطاع ان يغريه وكيف اغراه ؟ الم تفعل هذا امراة ؟ – سال الحاكم فجاة كمن اشرق عليه الهام .

واجاب افراني بهدوء واتزان :

– ابداً ايها الحاكم . هذه الامكانية غير واردة اطلاقاً . علينا ان نفكر تفكيراً منطقياً . من له مصلحة في قتل يهوذا ؟ حالمون متشردون ، حلقة مـــا لم يكن فيهم او فيها اي نساء اصلاً . كي يتزوج الانسان ، ايها الحاكم ، تلزمه نقود ، وكي ينجب تلزمه ايضاً نقود ، ولكن كي يذبح شخص ما شخصاً آخر بمساعدة امراة تلزمه كمية ضخمة من النقود ، ومثل هذه النقود لا يملكها اي متشردين . ليس للمراة ضلع في هذه القضيـــة ايها الحاكم . بل اقول اكثر من هذا : ان تفسيراً كهذا للجريمة لا يمكن ان يساعد الاّ في طمس آثارها واعاقة التحقيق وارباكي .

– ارى انك على حق تماماً يا افراني ، – قال بيلاطس ، – وانا لم اسمح لنفسي الاّ بابداء رايي .

– وهو راي خاطئ للاسف ، ايها الحاكم .

– ما العمل ، ما العمل اذن ؟ – هتف الحاكم وهو يحدّق في وجه افراني بفضول شديد .

– اعتقد ان المسالة مسالة النقود ايّاها .

– فكرة رائعة ! لكن من الذي كان يمكنه ان يعرض عليه النقود مساء خارج المدينة ، ومقابل اي شيء ؟

– آه ، لا ايها الحاكم ، الأمر ليس على هذا النحو . لدي فرضية واحدة ، واذا ثبت بطلانها ، فقد أعجز عن ايجاد اي تفسير آخر ، – وانحنى افراني مقترباً من الحاكم اكثر ، وهمس يقول له : – اراد يهوذا ان يخبيء نقوده في مكان منعزل لا يعرفه احد سواه .

– تفسير ذكي جداً . هكذا جرى الأمر على ما يبدو . الآن فهمتك : لم يغره اشخاص ، بل افكاره هي التي اغرته . نعم ، نعم ، هكذا كان .

– نعم ، هكذا . كان يهوذا شكوكاً ، وكان يريد اخفاء نقوده عن أعين الناس .

– نعم ، قلت اذن في الجسمانية . امّا لماذا تنوي البحث عنه هناك بالذات فامر اعترف اني لا افهمه .

– آه ، ايها الحاكم ، هذا ابسط مـــا في الأمر . لا احد يخبيء نقوده على قارعة الطريق في مكان مكشوف وخاو . ويهوذا لم يكن على طريق حفروف ولا على طريق فيغانيا . من المفروض اذاً انـــه كان في مكان محمي معزول ومشجّر . هذا في منتهى البساطة . وبما انه لا يوجد في ضواحي اورشليم مكان كهذا الا الجسمانية ، فهو لم يبتعد عن اورشليم كثيراً .

– اقنعتني تماماً . وما العمل الآن ؟

– سابدأ في البحث فوراً عن القتلة الذين تعقبوا يهوذا الى خارج المدينة ، ثم اسلّم نفسي بعد ذلك الى المحكمة ، كمـــا ابلغتك .

– لماذا ؟

– لقد غاب عن اعين حرسي في السوق مساء بعد خروجه من قصر قيافا . لست ادري كيف حصل هذا ، ففي حياتي كلها لم يمرّ بي شيء كهذا . لقد وضع تحت المراقبة فور انتهاء حديثنا . لكنه في منطقة السوق انتقل الى مكان ما وقام بحركة تحلئق غريبة بحيث اختفى اثره .

– حسن . لكني اعلن لك اني لا ارى ما يدعو الى تقديمك الى المحاكمة . فانت فعلت ما في استطاعتك ، ولا احد على هذه



الأرض ، – وهنا لاحت ابتسامة على وجه الحاكم ، – بوسعه أن يفعل اكثر مما فعلت . عاقب المخبرين الذين اضاعوا يهوذا . لكني احذرك مع هذا : لا اريد ان يكون العقاب قاسيـــاً على الاطلاق . فنحن ، اخيراً ، فعلنا كل شيء لرعاية هذا اللئيم ! آ ، نسيت ان اسالك ، – قال الحاكم وهو يمسح جبينه ، – كيف تمكنوا من رمي النقود في قصر قيافا ؟

– كما ترى ايها الحاكم . . . الأمر ليس معقداً بشكـــل خاص . لقد عبر المنتقمون الى مؤخرة قصر قيافا حيث الزقاق يشرف على الفناء الخلفي ورموا النقود عبر السور .

– مع القصاصة ؟

– تماماً كما افترضت ايها الحاكم . وبالمناسبة ، – هنا نزع افراني الختم عن الرزمة واری بيلاطس محتواها .

– العفو ، ماذا تفعل يا افراني ، لا بدّ ان الأختام اختام الهيكل !

– ليس على الحاكم ان يشغل فكره بهذه المسالة ، – اجاب افراني وهو يطوي الرزمة .

– اتكون كل الأختام معك ؟ – سأل بيلاطس وهو يتفجر ضاحكاً .

– هذا هو الاحتمال الوحيد الممكن ، ولا آخر سواه ، – اجاب افراني بصوت قاس لا اثر للضحك فيه .

– اتصور ما حدث عند قيافا .

– نعم ، ايها الوالي ، لقد اثار هذا اضطراباً كبيراً ، وقد استدعيت اليهم على الفور .

حتى في نصف العتمة المخيمة كان يرى كيف كانت عينـــا بيلاطس تبرقان .

– هذا طريف ، طريف . . .

– اجرؤ على الاعتراض فاقول ايها الوالي ان هذا لم يكن على شيء من الطرافة . بل انها قضية متعبة ومملّة الى اقصى الحدود . عندما سألتهم ان لم يُدفع لأحد في قصر قيافا مال ، قيل لي بشكل قاطع انّ هذا لم يحدث .

– هكذا اذا ؟ اذا لم يُدفع لاحد منهم مال فمعناه انه لم يدفع . وهذا ما يزيد في صعوبة القبض على القتلة .

– صحيح تماماً ما تقوله ايها الوالي .

– اي افراني ، سافضي لك بفكرة راودتني الآن فجاة : الا يكون يهوذا هذا قد انتحر ؟

– آه ، لا ايها الحاكم ، – اجاب افراني وهو يتراجع في كرسيه الى الوراء من فرط الدهشة ، – العفو ، لكن هذا امر غير محتمل على الاطلاق !

– آه ، في هذه المدينة كل شيء محتمل ! واني لمستعد على المراهنة بأن اشاعات من هذا القبيل ستنتشر في المدينة كلها في وقت جدّ قصير .

هنا رشق افراني الحاكم بنظرته وفكر قليلاً واجاب :

– هذا ممكن ايها الحاكم .

لكن الحاكم ، فيما بدا ، لم يكن يستطيع التخلي عن مسالة مقتل هذا الشخص من قيريافا ، مع ان كل شيء صار واضحاً ، فسال بلهجة من يحلم :

– وددت لو رايت كيف قتلوه .

– قتل بمهارة فائقة ، ايها الوالي ، – اجاب افراني ، وهو يلقي على الحاكم نظرة مشوبة ببعض السخرية .

– من اين لك ان تعرف هذا ؟

– تفضل والق نظرة على الكيس ايها الحاكم ، – اجابه افراني ، – اؤكد لك ان دم يهوذا تدفق كالتيار . لقد تهيأ لي ان ارى قتلى في حياتي ايها الحاكم !

– لن ينهض اذاً بطبيعة الحال ؟

– لا ايها الحاكم ، سينهض ، – اجاب افراني وهو يبتسم ابتسامة فلسفية ، – عندما ينفخ فوقه بوق المسيح الذي ينتظره الجميع هنا ، اما قبل هذا فلن ينهض !

– كفى يا افراني ! هذه المسالة باتت واضحة . فلننتقل الآن الى الدفن .

– لقد دفن المصلوبون ، ايها الحاكم .

– آه يا افراني ، تقديمك الى المحاكمة جريمة ، فانت جدير باسمى المكافآت . كيف تمّ الدفن ؟

وشرع افراني يروي للحاكم فقال انه في الوقت الذي كان يهتم هو شخصياً بقضية يهوذا ، بلغت وحدة الحرس السري



بقيادة مساعده التلة حين حلّ المساء . فلم تعثر على احدى الجثث على قمتها .

ارتعد بيلاطس وقال بصوت أجش :

– آه ، كيف لم افطن لهذا ؟

– لا يستاهل هذا قلقك ايها الحاكم ، – قال افراني وتابع روايته ، – رفع رجال الوحدة جثتي ديسماس وهيستاس اللتين فقات الطيور الجارحة عيونهما واندفعوا من فورهم يبحثون عن الجثة الثالثة . وسرعان ما وجدوها . احدهم . . .

– متّى اللاوي ، – قال بيلاطس بلهجة اقرب الى التاكيد منها الى التساؤل .

– نعم ، ايها الحاكم . . .

كان متى اللاوي مختبئاً في مغارة على السفح الشمالي من الجبل الاقرع ينتظر اطباق الظلام ، وكان معه جسد يشوع الغانوصري العاري . حين دخل رجال الحرس المغارة وهم يرفعون المشاعل ، تملّك اللاوي يأس وحنق فاخذ يصرخ بانه لم يقترف اي جريمة ، وان لأي شخص الحق ، حسب القانون ، ان يدفن مجرماً نفّذ فيه الحكم اذا شاء . وقال متى اللاوي انه لا يريد الافتراق عن هذا الجسد . كان في غاية الانفعال وكان يطلق كلاماً لا ترابط فيه ، يتوسّل تارة ، ويتوعدّ ويلعن تارة اخرى . . .

– وما كان منهم الا ان القوا القبض عليه ؟ – سال بيلاطس في تجهم .

– لا ، ايها الحاكم ، لا ، – اجاب افراني بلهجة مطمئنة تماماً ، – لقد تمكنوا من تهدئة خاطر هذا المجنون الوقح بعد ان اوضحوا له ان الجثة ستُدفن .

هدأ اللاوي بعد ان استوعب ما قيل له ، لكن اعلن انه لن يبرح مكانه ، ويرغب في المشاركة في الدفن . قال انه لن يغادر حتى ولو اخذوا يذبحونه ، بل انه عرض عليهم سكين خبز كان يحملها لهذا الغرض .

– وهل طردوه ؟ – سال بيلاطس بصوت مختنق .

– لا ، ايها الحاكم ، لا ، لقد سمح له مساعدي بالمشاركة في الدفن .

– اي مساعديك كان يشرف على العملية؟ – سأل بيلاطس.

– تولماي ، – اجاب افراني واضاف في قلق : – اتراه اقترف خطأ ؟

– تابع ، – اجابه بيلاطس ، – لم يحدث اي خطأ . بل على العموم أنا الذي بدأت اتخبط يا افراني . فانا ، كما يبدو ، اتعامل مع شخص لا يخطىء ابداً . وهذا الشخص هو انت .

وضعوا متى اللاوي مع الجثث الثلاث في عربة ، وخلال ساعتين بلغوا فجاً مقفراً الى الشمال من اورشليم . وهناك عمل رجال الوحدة بالتناوب مدة ساعة على حفر حفرة عميقة ، دفنوا فيها المصلوبين الثلاثة .

– مجرّدين من الثياب ؟

– لا ، ايها الحاكم ، فقد اخذت الوحدة معها قمصاناً لهذا الغرض . كما وضعت في اصابع المدفونين خواتم : بحزّ واحد ليشوع ، وبحزّين لديسماس وبثلاثة لهيستاس . وقد اغلقت الحفرة وطمرت بالحجارة . وتولماي يعرف العلامة المميزة .

– آه ، لو كان بامكاني ان اتوقع هذا ! – قال بيلاطس وهو يقطّب جبينه . – كان يلزمني ان ارى متى اللاوي هذا . . .

– انه هنا ، ايها الحاكم .

اتسعت حدقتا بيلاطس وتطلّع الى وجه افراني بعض الوقت ثم قال ما يلي :

– اشكرك على كل ما قمت به في هذه القضية وارجوك ان تبعث الي بتولماي غداً وان تعلمه مسبقاً اني راض عنه ، اما انت يا افراني ، – وهنا اخرج الحاكم من جيب زنّاره الملقى على الطاولة خاتماً وناوله رئيس الحرس السري قائلاً : – فأرجو ان تتقبله مني للذكرى .

انحنى افراني وتمتم :

– انه لشرف عظيم لي ، ايها الحاكم .

– ارجو ان تمنح الوحدة التي قامت بالدفن مكافآت ، وان تسجّل توبيخاً بحق المخبرين الذين تركوا يهوذا يفلت من بين ايديهم . اما متى اللاوي فاليّ به على الفور . فانا بحاجة الى تفاصيل في قضية يشوع .



– سمعاً ايها الحاكم ، – ردّ افراني واخذ يتراجع وينحني ، اما الحاكم فصفق براحته وصاح :

– الى هنا ! قنديلاً الى رواق الأعمدة !

كان افراني ينسحب الى الحديقة حين لاحت في ايدي الخدم خلف ظهر بيلاطس الأنوار ، فاذ هي ثلاثة شمعدانات توضع على الطاولة امام الحاكم ، فتراجع الليل المقمر الى الحديقة كانما اخذه افراني معه . وظهر على الشرفة بدلاً من افراني شخص غريب ، صغير ونحيل ، الى جانب قائد المائة العملاق . والتقط هذا نظرة الحاكم فتراجع الى الحديقة فوراً واختفى .

كان الحاكم يدرس الشخص القادم بعينين نهمتين يغشاهما قليل من الذعر . هكذا ينظر الانسان الى شخص سمع عنه كثيراً وفكر فيه ، وها هو ذا يظهر امامه اخيراً .

كان القادم في نحو الأربعين من العمر اسود اللون ذا ثياب ممزقة جفّ الوحل عليها ، ينظر كالذئب شزراً . وباختصار كان كريه المنظر ، اقرب ما يكون الى شحاذي المدينة الذين يتزاحم الكثيرون منهم على مدرجات الهيكل او في اسواق القسم السفلي من المدينة ، الصاخب والقذر .

استمر الصمت طويلاً ، ولم يخرقه الاّ التصرّف الغريب لهذا المساق الى بيلاطس . فقد تغيّر لون وجهه وترنّح ، ولو لم يتشبث بيده الوسخة بطرف الطاولة لهوى على الأرض .

– ماذا دهاك ؟ – سأل بيلاطس .

– لا شيء ، – اجاب متى اللاوي وقام بحركة من ابتلع شيئاً . فقد انتفخت رقبته النحيلة العارية الوسخة ثم تقلصت من جديد .

– ما الذي دهاك ، اجب . – كرر بيلاطس .

– تعبان ، – اجاب اللاوي وتطلّع الى الأرض في تجهّم .

– اجلس ، – قال بيلاطس واشار الى الأريكة .

القى اللاوي على بيلاطس نظرة ارتياب ، واتجّه الى الأريكة ونظر بطرف عينه في ذعر الى مساندها الذهبية وجلس ، انما ليس على الأريكة بل على الأرض .

– قل لي ، لماذا لم تجلس على الأريكة ؟ ، – سأله بيلاطس .

– اني وسخ ، وسنالوثها ، – قال اللاوي وهو يحدق في الأرض .

– سيقدمون لك طعاماً الآن .

– لا اريد ان آكل ، – اجاب اللاوي .

– لماذا الكذب ؟ – ساله بيلاطس بصوت خافت ، – انت لم تاكل طول النهار وربّما اكثر . حسناً ، لا تاكل . اني استدعيتك لتريني السكين التي كانت معك .

– انتزعها الجنود مني حين اُدخلت هنا ، – اجاب اللاوي واضاف في تجهّم : – اعدها الي ، ينبغي ان اعيدها الى صاحبها ، فانا قد سرقتها .

– لماذا ؟

– لاقطّع الحبال ، – اجاب اللاوي .

– مارك ! – صاح الحاكم ، فظهر قائد المائة تحت الاعمدة ، – هات السكينة .

اخرج قائد المائة من احد جرابيه المعلقين على زنّاره سكيناً قذرة لتقطيع الخبز وناولها الحاكم وانسحب .

– ممّن اخذتها ؟

– محلّ لبيع الخبز عند بوابة حفروف ، الى الشمال فور دخولك المدينة .

تامل بيلاطس نصلها العريض وتلمسه باصبعه ليرى ما اذا كان حاداً ، ثم قال :

– لا تقلق بشان السكين ، ستتم اعادتها الى المحلّ . اما الآن فيهمني امر آخر : ارني الوثيقة التي تحملها معك والتي سجّلت فيها كلمات يشوع .

رمق اللاوي بيلاطس بنظرة كراهية وابتسم ابتسامة تفيض بالشر بحيث مسخت ملامح وجهه مسخاً .

– تريد ان تسلبني ايّاها ؟ وهي آخر ما املك ؟

– لم اقل لك سلّمها لي ، – اجاب بيلاطس ، – بل قلت ارنيها .

مدّ اللاوي يده خلف عبه واخرج لفافة من ورق الرق . تناولها بيلاطس وفضها ونشرها بين الأضواء واخذ يدرس العلامات الحبرية القليلة الوضوح مضيقاً عينيه . كان بيلاطس



يشعر بصعوبة في فهم هذه السطور الملتوية فكان يزرّ وينحني الى ورق الرق ويمرّ بيده على السطور . ونجح اخيراً في تبيّن ان الكتابة عبارة عن حلقة غير مترابطة من اقوال مأثورة ومن تواريخ وملاحظات حول الحياة اليومية ومقتطفات شعرية . وقرأ بيلاطس شيئاً : «لا وجود للموت . . . البارحة اكلنا بواكير الربيع اللذيذة . . .»

كان بيلاطس يصر عينيه مكشراً من توتره وكان يقرأ : «سنرى نهر مياه الحياة الصافي . . . ستنظر البشرية الى الشمس من خلال بلّور شفاف . . .»

وهنا ارتعش بيلاطس ، فقد فك في السطور الأخيرة من الرق الكلمات التالية : «لا نقيصة اكبر من الجبن» .

طوى بيلاطس الرق ، وناوله اللاوي بحركة عنيفة .

– خذ ، – قال ، واردف بعد صمت قصير : – انك محب للكتب كما ارى ولا معنى ان تكون ، انت الوحيد ، في ثياب رثة تهيم دون ملجأ . عندي في قيصرية مكتبة كبيرة ، وانا على درجة كبيرة من الغنى واريدك ان تعمل عندي . ستنظم اوراق البردي وتحفظها ، ولسوف تشبع وتكتسي .

نهض اللاوي واجاب :

– لا ، لا اريد .

– لماذا ، – ساله الحاكم وقد اكفهرّ وجهه ، – الا تستلطفني ، ام تراك تخافني ؟

شوّهت الابتسامة التي تفيض بالشر وجه اللاوي وقال :

– لا ، بل لأنك انت ستخافني ، فلن يسهل عليك بالمرّة ان تنظر في وجهي بعد ان قتلته .

– اخرس ، – اجابه بيلاطس ، – خذ نقوداً .

هز اللاوي راسه بالرفض بينما تابع الحاكم كلامه :

– اعرف انك تحسب نفسك تلميذاً ليشوع ، لكني اقول لك انك لم تفقه شيئاً مما علمك ، اذ لو كان الأمر كذلك ، لاخذت مني شيئاً ما بالتاكيد . واعلم انه قال قبل موته انه لا يتهم احداً ، – هنا رفع بيلاطس اصبعه في حركة معبّرة ، وكان وجه بيلاطس يختلج ، – ولكان هو نفسه اخذ اي شيء حتماً

انت قاسي القلب ، اما ذاك فلم يكن قاسياً . الى اين تنوي الذهاب ؟

اقترب اللاوي من الطاولة فجأة واستند اليها بكلتا يديه وهمس للحاكم وهو يحدّق فيه بعينين مشتعلتين :

– اعلم ايها الوالي اني لا بدّ ساقتل شخصاً في اورشليم . وبودي ان اقول لك هذا كي تعلم ان اراقة الدماء لن تتوقف .

– انا ايضاً اعرف انها لن تتوقف ، – اجابه بيلاطس ، – وكلماتك هذه لم تدهشني . انت تريد ان تقتلني طبعاً ؟

– لن افلح في قتلك ، – اجاب اللاوي مكشّراً ثم مبتسماً ، – لست على هذه الدرجة من الغباء كي امنيّ النفس بذلك ، لكني ساقتل يهوذا الذي من قيريافا ، وساكرس لهذه القضية ما تبقّى من حياتي .

هنا بدت الغبطة في عيني الحاكم ، فاومأ الىّ متى اللاوي باصبعه ان يدنو منه وقال :

– لن تفلح في هذا ، فلا تشغل بالك بهذا الأمر . لقد قتل يهوذا هذه الليلة .

وثب اللاوي متراجعاً عن الطاولة وهو يتلفت حوله بوحشية وصاح :

– من الذي فعل هذا ؟

– لا تكن غيوراً ، – اجاب بيلاطس وهو يكشر وفرك يده ، – اخشى ان يكون له مؤيدون غيرك .

– من الذي فعل هذا ؟ – كرر اللاوي في همس . واجابه بيلاطس :

– انا الذي فعلت هذا .

فغر اللاوي فاه ، ورمى الحاكم بنظرة وحشية ، فقال هذا :

– ما فعل قليل بالطبع ، ومع هذا فانا الذي فعلته – واضاف : – والآن هل ستاخذ شيئاً ؟

فكّر اللاوي قليلاً ، واخذت قناته تلين ، ثم قال اخيراً :

– مُرْ لي بقطعة من الرق الصافي .

ومرّت ساعة من الزمن . بعدها لم يكن اللاوي في قصر الآن لم يكن يخرق صمت السحر الاّ وقع خطوات الحرس الخافت في الحديقة . كان القمر قد بهت بسرعة ، وكانت ترى



على الطرف الآخر من السماء نقطة مائلة الى البياض هي نجمة الصبح . كانت القناديل قد انطفأت منذ فترة طويلة طويلة . وكان الحاكم مستلقياً على متكئه ، واضعاً يده تحت خده يغطّ في نوم لا يُسمع معه صوت تنفسه . والى جانبه ينام بنغا .

هكذا استقبل فجر الخامس عشر من نيسان حاكم اليهودية الخامس بيلاطس البنطي .

## الفصل السابع والعشرون

## نهاية الشقة رقم ٥٠

حين بلغت مرغريتا آخر كلمات الفصل «. . . هكذا استقبل فجر الخامس عشر من نيسان حاكم اليهودية الخامس بيلاطس البنطي» اطلّ الصباح .

كانت تسمع في فناء البيت اصوات العصافير وهي تدير بين اغصان الخلاف والزيزفون حديثها الصباحي المرح والصاخب .

نهضت مرغريتا من اريكتها وتمطّت ، ولم تشعر الا الآن كم كان جسمها محطّماً وكم كان بودها ان تنام . ومن الجدير بالملاحظة هنا ان نفس مرغريتا كانت مطمئنة كل الاطمئنان . فافكارها لم تكن مشوشة ولم يكن يروعها بتاتاً انها امضت الليل على نحو خارق للطبيعة . ولم تكن ذكرياتها عن الليلة التي قضتها في ضيافة الشيطان ، ولا عن عودة المعلّم اليها بمعجزة لا تدري كنهها ، ولا عن انبعاث الرواية من الرماد ، ولا عن وجودها من جديد في مكانها السابق من القبو في الزقاق والذي طرد منه الواشي الوييزي موغارتش تبعث في نفسها الاضطراب . وباختصار لم يسبب لها تعرفها بفولند اي ضرر نفسي . كان كل شيء كما لو ان هذا ما كان يجب ان يكون .

مضت مرغريتا الى الغرفة المجاورة وتيقنت من ان المعلم ينام نوماً عميقاً وهادئاً واطفأت مصباح الطاولة غير اللازم وتمدّدت عند الحائط المقابل على ديوان صغير مغطى بملاءة قديمة ممزقة . وبعد دقيقة كانت تغط في النوم ، ولم تر اي احلام في

ذاك الصباح . كانت الغرف في القبو صامتة ، وكانت شقق البناية الأخرى كلها صامتة ، وكان الهدوء على الزقاق المقفر مخيّماً .

انما في هذا الوقت ، اي فجر السبت ، لم يعرف طابق كامل في احدى المؤسسات الموسكوفية طعم النوم . كانت نوافذه المطلّة على ساحة كبيرة مفروشة بالاسفلت ، تقطعها جيئة وذهاباً سيّارات خاصة تنظّفها بمكانسها ببطء وازيز ، تتدفق بانوار تخترق نور الشمس الطالعة .

كان الطابق كله مشغولاً بالتحقيق في قضية فولند ، وظلّت المصابيح مضاءة في مكاتبه العشرة طوال الليل .

وتحديداً ، كانت القضية قد اتضحت من يوم أمس ، من يوم الجمعة ، حين ترتّب اغلاق مسرح «فاريتيه» اثر اختفاء ادارته وعقب مختلف القبائح التي حدثت مساء أثناء حفلة السحر الشيطاني الشهيرة . انما القضية هنا انه ظلّت ترد الى الطابق الساهر طوال الليل ودون توقف معلومات جديدة .

والآن كان على هيئة التحقيق في هذه القضية الغريبة التي تفوح منها رائحة شيطانية ظاهرة ممزوجة بخزعبلات تنويم مغناطيسي وبجرائم جنائية واضحة تماماً ان تربط بين كل هذه الأحداث المتنوعة والمعقدة التي جرت في اماكن متفرقة من موسكو في كتلة واحدة .

وكان اركادي ابولونوفتش سيمبليباروف رئيس لجنة السمعيات اول من ترتب عليه الحضور الى الطابق اليقظ الساهر المشعشع بالكهرباء .

ففي يوم الجمعة بعد الغداء رنّ في شقته الكائنة في بناية قرب جسر كامنّي جرس الهاتف ، وطلب صوت رجالي التحدث الى اركادي ابولونوفتش . اجابت زوجة اركادي ابولونوفتش التي تناولت السماعة بتجهّم ان اركادي ابولونوفتش منحرف الصحة ، وانه استلقى ليرقد قليلاً ولا يستطيع الوصول الى الهاتف . الا ان اركادي ابولونوفتش اضطر مع هذا الى المجيء الى الهاتف ، اذ اجاب الصوت الذي في الهاتف ، ردّاً على سؤال الزوجة عن المكان الذي يُطلب منه اركادي ابولونوفتش ، فذكر باختصار مصدر المخابرة .



— ثانية . . . على الفور . . . دقيقة . . . — تمتمت زوجة رئيس قسم السمعيّات المعروفة بعجرفتها ، وانطلقت كالسهم الى مخدعها تنهض اركادي ابولونوفتش من المضجع الذي كان متمدّداً عليه وهو يعاني عذابات جهنمية من تذكره حفلة الأمس وفضيحة الليل التي رافقت طرد ابنة اخيه الساراتوفية من الشقة .

والحقيقة ان اركادي ابولونوفتش صار قرب الهاتف ، وهو بخفّ واحد في رجله اليسرى وبملابسه الداخلية ، لا في ثانية ولا حتى في دقيقة بل في ربع دقيقة وتمتم فيه :

— نعم ، هذا انا . . . سامع ، سامع . . .

كانت زوجته التي نسيت خلال هذه اللحظات كل الجرائم البشعة المتلبس فيها اركادي ابولونوفتش المسكين ضد الاخلاص الزوجي تمدّ وجهها المذعور من باب الممرّ وتلوّح بالخف الآخر في الهواء وتهمس :

— البس الخف ، الخف . . . ستصاب رجلك بالبرد . . .

— بينما كان يغمغم في الهاتف وهو يشيح عنها برجله الحافية ويرميها بنظرات وحشية :

— نعم ، نعم ، نعم ، كيف لا ، فاهم . . . خارج حالاً .

قضى اركادي ابولونوفتش المساء كله في ذاك الطابق عينه الذي يجري فيه التحقيق . كان الحديث ثقيلاً ، بل كان الحديث من اكره ما يكون ، ذلك انه اضطر الى التحدث بصراحة كاملة لا عن هذه الحفلة البشعة ولا عن الخصام في لوج المسرح وحسب ، وانما ، وبطريق العرض ، عن كل ما كان ضرورياً بالفعل : عن ميليسا اندرييفنا بوكوباتكو التي في شارع ايلوخوفسكايا ، وعن ابنة اخيه التي من ساراتوف ، وعن اشياء اخرى كثيرة كان الحديث فيها يسبب لأركادي ابولونوفتش آلاماً لا توصف .

ومن البدهي أن شهادة اركادي ابولونوفتش الانسان المتحضر والمثقف الذي شهد الحفلة البشعة والذي وصف على نحو رائع ، بوصفه شاهداً ذكياً ومختصاً ، الساحر الغامض نفسه الذي يضع القناع ومساعديه النذلين ، والذي تذكر على نحو رائع ان كنية الساحر هي فولند بالضبط ، دفعت بالتحقيق خطوات هامة الى الأمام . فقد ادّت مقارنة شهادة اركادي

ابولونوفتش بشهادة اشخاص آخريـــن ومنهم بعض السيدات اللواتي لحق بهنّ مكروه بعد الحفلة (تلك التي في ثيابهـــا الداخلية البنفسجية والتي صعقت ريمسكي ، واخريات كثيرات للأسف) والساعي كاربوف الذي أُرسـل الى الشقة رقم ٥٠ في شارع سادوفايا – أدّت هـذه المقارنة فوراً الى تحديد المكان الذي يجب البحث فيه عن مصدر كل هذه المغامرات .

حضرت هيئة التحقيق الى الشقة رقـم ٥٠ اكثر من مرّة ، ولم تكتف بمعاينتها بعناية متناهية ، بل نقرت حيطانها وتفحصت مداخنها وبحثت فيها عن مخابىء سرية . الاّ ان كل هذه الاجراءات لم تؤد الى اي نتيجة ، ولم تفلح الهيئة في أي من مداهماتهـا للشقة في العثور على اي كان ، مـع انه كان مفهوماً تماماً ان شخصاً ما موجود في الشقة على الرغم مـن ان كل الأشخاص المفروض ان لهم علاقة بالفنانين الأجانـب الذين يحضرون الى موسكو اكدوا بشكل حاسم وقاطع ان لا وجود في موسكو لساحر شيطاني باسم فولند ولا يمكن ان يكون له وجود .

ويقيناً فهو لم يسجّل اسمه في اي مكان لدى وصوله ، ولم يقدّم لأحد جواز سفره او اية اوراق او اتفاقات او عقود ، كما ان احداً لم يسمع عنـه شيئاً ! مدير البرامج في لجنة العروض التمثيلية كيتايتسيف اقسم اغلظ الأيمان بأن ستيوبا ليخودييف المختفي لم يرسل اليه اي برنامج لأي عرض لأي شخص اسمه فولند للموافقة عليه ، وان احداً لم يتصل به هاتفياً ويعلمه اي شيء بخصوص وصول فولند هذا . ولذا فهو اي كيتايتسيف لم يفهم ولم يعرف كيـف استطاع ستيوبـا ان يسمح بهذا العرض . وعندما قيل لـه ان اركادي ابولونوفتش رأى هذا الساحر في الحفلة ، ما كان من كيتايتسيف الاّ ان بسط يديه ورفع عينيه الى السماء . وكان يمكن للمرء ان يرى من عينيه ويقول بثقة ان كيتايتسيف نقيّ كالبلّور .

وبروخور بيتروفتش رئيـس اللجنة الرئيسية للعروض نفسه . . .

وبالمناسبة ، فقد عاد الى بدلته فور دخول الشرطة الى مكتبه لفرح آنا ريتشاردوفنا الجنوني ، والحيرة العظيمة لرجال الشرطة الذين ازعجوا عبثاً . وبالمناسبة ايضاً : بعـد ان عاد بروخور



بيتروفتش الى مكانه والى بدلته الرمادية المقلمة حبذ تحبيذاً كاملاً كل القرارات التي اعتمدتها البذلة في فترة غيابه القصير .

. . . هكذا اذن لم يكن بروخـور بيتروفتش يعرف بأي شكل من الأشكال شيئاً عن اي شخص اسمه فولند .

شيء مناف للعقـل حقّاً : آلاف المشاهدين وكل الجهاز الاداري في «فاريبيتيـه» ، واخيـراً سيمبليياروف اركادي ابولونوفتش ، وهو من اوسع الناس علماً وثقافة ، رأوا هذا الساحر كما رأوا مساعديه عليهم اللعنة ثلاثاً ، ومع هذا ، لا يوجد اي احتمال للعثور عليهم في اي مكان . ففيم الأمر لـو سمحتم بالسؤال : هل انشقت الأرض وابتلعته فور انتهاء حفلته البشعة تلك ، أم انه لم يحضر الى موسكو اطلاقاً كما يؤكـد البعض ؟ اذا سلمنا بالفرضية الأولى ، يكون قد اخذ معه وهـو يختفي كل ادارة «فاريبيتيه» دون شك ، واذا سلمنا بالفرضية الثانية ، الا تكون ادارة المسرح المنحوس قد اختفت من موسكو دون اثر بعد أن اقدمت على عملها الشائـن (تذكروا النافذة المحطمة في المكتب وسلوك توزابوبين !)

وينبغي انصاف رئيس هيئة التحقيق . فقد عثر على ريمسكي المختفي بسرعـة مذهلة . كان يكفيهـم ان يقارنوا سلوك توزابوبين قرب موقف سيّارات الأجرة الذي قرب السينما ببعض التواقيت ، ومنها مثلاً وقت انتهاء العرض ومتى كان بوسـع ريمسكي ان يختفي بالضبط ، حتـى يبرقوا الى لينينغراد . وجاءهم الجواب بعد ساعة (مع حلول مساء الجمعة) انه عُثر على ريمسكي في الحجرة رقم ٤١٢ في فندق «استوريا» ، في الطابق الرابع بجوار الغرفة التي نزل فيها مدير ريبرتوار احد مسارح موسكو الزائرة آنذاك ، اي في تلك الحجرة ايّاها المفروشـة بأثاث ازرق رمادي مطعم بالذهب والمتصلة بحمّام رائع كما هو معروف .

والقي القبض على ريمسكي المختبىء في خزانة الملابس في الحجرة رقم ٤١٢ في فندق «استوريا» وتـم استجوابه فوراً في لينينغراد نفسها . ثم وردت الى موسكو برقية تفيد ان المدير المالي لفاريبيتيه بدا في حالة اختبال وانه لا يجيب على الأسئلة او لا يودّ الاجابة عليها بأجوبة واضحة وانه لا يطلب الا شيئـاً

واحداً : ان يخبئوه في حجرة مصفحة ويقيموا عليه حراسة مسلحة . وجاءهم أمر موسكو برقياً بأن يحضروا ريمسكي الى موسكو تحت الحراسة . وهكذا غادر ريمسكي مساء الجمعة الى موسكو بقطار الليل وتحت الحراسة المطلوبة .

وعند مساء يوم الجمعة نفسه وقعوا على آثار ليخودييف . فقد ارسلت الى كافة المدن برقيات تسأل عن ليخودييف ، وجاءهم من يالطا جواب بأن ليخودييف كان في يالطا وانه غادرها بالطائرة الى موسكو .

الشخص الوحيد الذي لم يعثر له على أثر كان فارينوخا . انقطعت أخبار المدير المسرحي الشهير الذي تعرفه موسكو كلها .

وكان على هيئة التحقيق أن تهتم خلال ذلك بأحداث في أماكن اخرى من موسكو ، خارج مسرح «فاريتيه» . ومنها ذلك الحادث الغريب الذي جرى للموظفين الذين أنشدوا «البحر المجيد» (وبالمناسبة نجح البروفيسور سترافنسكي في ساعتين في اعادتهم الى حالتهم الطبيعية عن طريق زرقات تحت الجلد) ، وللأشخاص الذين قدّموا لأشخاص آخرين أو مؤسسات أشياء الشيطان يعلم ما هي تحت اسم نقود ، وكذلك مع الأشخاص الذين لحق بهم الأذى من جرّاء ذلك .

لكن أكره هذه الحوادث ، كما هو واضح طبعاً ، وأفضحها وأصعبها على الحلّ كان حادث اختطاف رأس الأديب المرحوم برليوز من نعشه مباشرة في قاعة غريبويبدوف الذي جرى في وضح النهار .

كان يعمل في التحقيق اثنا عشر رجلاً ، وكانوا يجمعون ، كما لو بالصنّارة ، الحلقات اللعينة لهذه القضية المعقدة المتشعبة في انحاء موسكو كلها .

احد المحققين حضر الى مستشفى البروفيسور سترافنسكي وطلب اليه قبل كل شيء تقديم قائمة بأسماء الأشخاص الذين دخلوا مستشفاه خلال الأيام الثلاثة الأخيرة . وبهذا الشكل عثر على نيكانور ايفانوفتش بوسوي ، وعريف الحفلات المسكين الذي قطع راسه . وعلى أي حال كان اهتمام المحقق بهذين الشخصين قليلاً ، اذ بات من اليسير اثبات انهما كانا ضحية نفس العصابة



التي يرئسها هذا الساحر الغامض . لكن ايفان نيقولايفتش يزدومني أثار اهتمام المحقق البالغ .

انفتح باب غرفة ايفان رقم ١١٧ مع حلول مساء الجمعة وولجها شاب مدوّر الوجه هادئ رقيق الحاشية لا يشبه بتاتاً المحقق ، مع انه كان واحداً من افضل محققي موسكو ، فرأى في السرير شاباً شاحب الوجه ضامره ، ذا عينين تقرأ فيهما غياب الاهتمام بما يجري حوله ، عينين مصوّبتين الى مكان ما بعيد فوق ما يحيط بالشاب تارة ، والى داخل الشاب نفسه تارة اخرى .

قدّم المحقق نفسه بودّ ، وقال انه عرّج على ايفان نيقولايفتش ليتحدثا قليلاً فيما حدث اول البارحة في بتريرشيي برودي .

ما كان اشدّ زهو ايفان لو حضر اليه المحقق قبل هذا الوقت ، ولنقل ليلة الأربعاء حين حاول ايفان بحماسة وصخب ان يستمع الى قصته عن بتريرشيي برودي ! وهاهو ذا حلمه في المساعدة على القبض على المستشار قد تحقق . لم يعد بحاجة للبحث عن أحد والاتصال به ، بل أتوا هم شخصياً اليه ، وبالضبط للاستماع الى روايته عمّا حدث يوم الاربعاء مساء .

لكن ايفان تغيّر تغيّراً كاملاً مع الأسف خلال المدّة التي انقضت على مصرع برليوز . كان مستعداً للاجابة بطيب خاطر وبأدب عن اسئلة المحقق كلها ، لكنك كنت تستشعر اللامبالاة في نظرة ايفان كما في نبرات صوته ، اذ لم يعد مصير برليوز يعنيه .

قبل وصول المحقق غفا ايفان وهو مستلق فمرّت أمام عينيه بعض الرؤى . وهكذا رأى المدينة الغريبة ، الغامضة ، غير الموجودة ، ذات الكتل المرمرية والأعمدة المتآكلة والأسطح المتوهجة في ضوء الشمس ، وقلعة انطونيو السوداء الكئيبة والقاسية ، ذات القصر القائم على الرابية الغربية الغارق حتى السقف تقريباً في خضرة الحديقة الاستوائية بتماثيله البرونزية المتوهجة في شمس المغيب فوق هذه الخضرة ، ورأى المئات الرومانية المتمنطقة بدروعها تمضي عند اسوار المدينة القديمة .

وظهر أمام ايفان في غفوه شخص متجسّد في اريكة ، حليق

الذقن ذو وجه أصفر مضنى ، شخص في بردة بيضاء ذات بطانة حمراء يحدّق في الحديقة الغناء والغريبة بكره وبغيظ وراى ايفان رابية صفراء ، جرداء ليس فيها الاّ اعمدة جرداء عليها عوارض خشبية .

اما ما حدث في بتريرشيي برودي فلم يعد يثير اهتمام الشاعر ايفان بيزدومني .

– قل لي ، ياايفان نيقولايفتش ، انت شخصياً كم كنت بعيداً عن الباب الدوّار حين هوى برليوز تحت الترام ؟

ولأمر ما طافت بشفتي ايفان ابتسامة لامبالية تكاد لا تلحظ واجاب :

– كنت بعيداً .

– وذو المربعات ذاك هل كان قرب الباب الدوّار ؟

– لا ، كان يجلس على المقعد غير بعيد منه .

– هل تذكر جيداً انه لم يدن من الباب الدوّار لحظة سقوط برليوز ؟

– اذكر ، لم يدْن . كان يجلس متهالكاً على نفسه .

كانت هذه الأسئلة آخر اسئلة المحقق . فقد نهض بعدها ومدّ يده الى ايفان وتمنى له التماثل العاجل للشفاء وأعرب عن امله في عودته الى قراءة أشعاره قريباً .

– لا ، – اجاب ايفان بصوت منخفض ، – لن أعود الى كتابة الشعر .

ابتسم المحقق بأدب ، وسمح لنفسه بالاعراب عن يقينه ان الشاعر في حالة وهن نفسي خفيفة ، وان هذه الحالة سرعان ما تزول .

– لا ، – ردّ ايفان وهو ينظر لا الى المحقق بل الى البعيد ، الى السماء المنطفئة ، – هذه الحالة لن تزول أبداً . الأشعار التي كتبتها سيئة ، والآن ادركت هذا .

خرج المحقق من عند ايفان محمّلاً بمعلومات بالغة الأهمية . ونجح التحقيق اخيراً باتباعه خيط الأحداث من آخره الى اوله في الوصول الى مصدر كل الأحداث . لم يعد المحقق يشك في ان هذه الأحداث بدأت من مقتل برليوز في بتريرشيي برودي . وبالطبع لم يكن ايفان ولا هذا الشخص ذو المربعات هما اللذان



دفعا رئيس **ماسوليت** العاثر الحظ تحت عربات الترام . من الناحية المادية ، الفيزيائية ان شئتم ، لم يسهم أحد في سقوطه تحت العجلات . لكن المحقق كان على يقين بأن برليوز رمى نفسه تحت الترام (أو هوى تحته) وهو في حالة تنويم مغناطيسي .

نعم ، باتت المعلومات المتوفرة غزيرة ، وأضحى معروفاً من يجب القبض عليه والمكان الذي يقبض فيه عليه . لكن المشكلة انه تعذّر بأي شكل من الأشكال تنفيذ عملية القبض . لابد من ان نكرر ان شخصاً ما كان متواجداً في هذه الشقة الملعونة ثلاثاً ، الشقة رقم ٥٠ . هذا امر لا شك فيه اذ كانت هذه الشقة تردّ احياناً على المخابرات الهاتفية بصوت رنان تارة ، اخنّ تارة اخرى ، وكانت نافذة الشقة تفتح احياناً ، بل اكثر من ذلك تسمع منها اصوات حاك . ومع هذا ففي كل مرّة كانوا يتوجهون اليها ، لم يكن يعثر فيها على ايّ كان . ولقد داهموها اكثر من مرة ، وفي اوقات مختلفة من الليل والنهار ، بل اكثر من ذلك كانوا يحملون معهم شبكة وهم يبحثون في زوايا الشقة ، كانت الشقة مشبوهة فيها من زمان ولم تقتصر الحراسة على الطريق المؤدي الى الفناء عبر الفسحة عند العتبة ، بل على المدخل الخلفي ؛ وفوق هذا وذاك وضعت حراسة على السطح قرب المداخن . نعم ، كانت الشقة رقم ٥٠ تعابثهم ، ولم يكن بوسعهم فعل أي شيء .

وامتد الأمر على هذا النحو حتى منتصف ليلة الجمعة السبت حين اتجه البارون ميغل بمهابة الى الشقة رقم ٥٠ بصفة ضيف وهو يرتدي ثوب السهرة وحذاء لمّاعاً . سنُمع كيف تُرك البارون يدخل الشقة . وبعد عشر دقائق بالضبط داهموا الشقة دون اي اخطار ، لكنهم لم يجدوا اصحابها وحسب ، بل انهم لم يعثروا ايضاً ، وكان هذا امراً في منتهى الغرابة ، على اي أثر للبارون ميغل .

وكما قلنا اذن ، امتد الأمر على هذا النحو حتى فجر السبت . وهنا انضافت الى المعطيات السابقة معطيات أخرى جديدة وهامة جداً . فقد حطّت في مطار موسكو قادمةً من القرم طائرة ركاب بستة مقاعد ، نزل منها في عداد الركاب الآخرين

راكب غريب . كان شاباً يعلو وجهه الشعر بوحشية ، لم يغتسل من نحو ثلاثة ايام ، ذا عينين ملتهبتين ومذعورتين ، لا يحمل اي حقائب ويرتدي ثيابه على نحو غريب . كان يعتمر باباخا * ويلقي عباءة لبادعلى قميصه الليلي وينتعل خفاً جلدياً ليلياً جديداً ازرق اشتري حديثاً . وما ان ابتعد عن السلّم الذي كانوا يهبطون منه من قمرة الطائرة حتى اقترب منه بعضهم . كانوا بانتظار هذا المواطن . وما هي الاّ فترة قصيرة حتى كان مدير «فاريبيتيه» الذي لا ينسى ستيبان بوغدانوفتش ليخودييف يمثل امام لجنة التحقيق . وافضى المدير امامها بمعلومات جديدة بات واضحاً منها ان فولند تسلل الى «فاريبيتيه» تحت هيئة فنّان بعد ان نوّم ستيوبا ليخودييف تنويماً مغناطيسياً ثم تمكن بطريقة ما ان يلقي بستيوبا هذا على بعد عدد الله يعلم كم هو من الكيلومترات من موسكو . ازدادت المعلومات اذن ، لكن هذا لم يخفف من صعوبة القضية ، بل لعلّها زادتها صعوبة ، ذلك انه اضحى واضحاً أن التمكن من شخص كهذا يقدم على عمل كهذا الذي أصبح ستيبان بوغدانوفتش ضحيته لن يكون بمثل هذه السهولة . وبالمناسبة وضع ليخودييف في زنزانة امينة بناء على طلبه ، ومثل امام لجنة التحقيق فارينوخا الذي اعتقل للحال في شقته التي عاد اليها بعد غياب مجهول استمر حوالي اليومين .

وعلى الرغم من العهد الذي قطعه المدير الاداري على نفسه لازازيلو بالاّ يكذب ، فقد بدا من الكذب بالضبط . وعلى اي حال يجبّ الا نقسو في لومه كثيراً . لقد حرّم عليه ازازيلو الكذب والتجالف بالهاتف ، هذا صحيح ، لكن المدير الاداري يتحدث الآن دون مساعدة هذا الجهاز . كان ايفان سافيليفتش يصرّح ، وهو يشرد بعينيه ، انه جلس نهار الخميس في مكتبه ، وشرب حتى ثمل ، ثم مضى الى مكان ما ، لكن الى اين لا يذكر ، وفي مكان ما آخر شرب «ستاركا» ، لكن اين لا يذكر ، وفي مكان آخر تمرّغ تحت سياج ولكن اين لا يذكر ايضاً . انما حين قيل للمدير الاداري انه بتصرفه الغبي والاخرق هذا يعيق التحقيق في هذه القضية الهامة ، وانه سيحاسب على هذا بالطبع ، بعد هذا

* غطاء راس قوقاسية من الفرو . **المترجم** .



فقط اخذ فارينوخا ينتحب ، وهمس بصوت راعش ، وهو يتلفت حوله ، انه انما يكذب من خوفه فقط ، من خشيته انتقام عصابة فولند التي وقع في يدها وانه يطلب ، يتوسّل ، يتعطش ان يوضع في غرفة مصفحة ويحكم الاغلاق عليه .

– تباً للشيطان ! لقد استهوتهم هذه الحجرة المصفحة ، – دمدم احد المحققين .

– لقد روّعهم هؤلاء الأوغاد – قال المحقق الذي زار ايفان .

هدؤوا من روع فارينوخا قدر ما استطاعوا ، وقالوا له ان باستطاعتهم ان يحموه بدون اي غرفة فاتضح للحال انه لم يشرب «ستاركا» عند السياج ، وان الذين ضربوه كانوا اثنين احدهم ذو ناب واصهب والثاني بدين . . .

– آه ، يشبه القط ؟

– نعم ، نعم ، نعم ، – همس المدير الاداري وهو يتجمد من الخوف ويتلفت حوله كل ثانية ، وافضى بتفاصيل اخرى عن اقامته ما يقارب اليومين في الشقة رقم ٥٠ بصفة خفاش دليل عصابات كاد يتسبب في مصرع المدير المالي ريمسكي . . .

في هذا الوقت اُدخل ريمسكي الذي احضر بقطار لينينغراد . الاّ ان هذا العجوز الأشيب المرتعش من الخوف ، والمختلّ نفسياً ، الذي كان يصعب على المرء ان يعرف فيه المدير المالي السابق ، لم يرد قول الحقيقة باي ثمن ، واظهر بهذا الخصوص عناداً شديداً . فقد اكد ريمسكي انه لم يشاهد اي فتاة اسمها غيلا في مكتبه ليلاّ ، كما لم يشاهد فارينوخا ، وكل ما في الأمر انه شعر بدوار وسافر وهو في حالة فقدان الوعي الى لينينغراد . ولا حاجة الى القول ان المدير المالي المريض انهى شهادته بطلب وضعه في حجرة مصفحة .

ألقي القبض على انوشكا حين كانت تحاول تسليم عاملة الصندوق في مخزن كبير في اربات ورقة من فئة العشرة دولارات . واستمع المحققون باهتمام الى قصة انوشكا عن الناس المتطايرين من نافذة البيت الذي في سادوفايا ، وعن الحدوة التي التقطتها من الأرض لتسلّمها الى الشرطة على حدّ قولها .

– هل كانت الحدوة من الذهب ومرصعة بالماس فعلاً ؟ – سالوا انوشكا .

– هل لي الا اعرف الماس ، – اجابت انوشكا .

– لكن هل اعطاك تشيرفونتسات كما تقولين ؟

– هل لي الا اعرف التشيرفونتسات . . .

– حسناً ، في اي وقت تحوّلت الى دولارات ؟

– لا اعرف شيئاً عن الدولارات ، ولم ار اي دولارات ، – صرخت انوشكا بصوت حاد ، – هذا حقّنا . اعطينا مكافاة . . . ونريد ان نشتري بها قماشاً . . . – وهنا اخذت تهلوس من انها غير مسؤولة عن ادارة البناية التي اسكنت في الطابق الخامس قوّة شريرة جعلت الحياة مستحيلة . . .

هنا هزّ المحقق قلمه في وجه انوشكا دليل ضيقه وضيق الآخرين الشديد بها وبهرائها وكتب لها اذناً بالانصراف على ورقة خضراء . واختفت انوشكا من المبنى لفرح الجميع .

وتلاها رتل كامل من الناس ومنهم نيقولاي ايفانوفتش الذي لم يعتقل الا بسبب غباء زوجته الغيور التي ابلغت الشرطة عند الفجر باختفاء زوجها . ولم يدهش نيقولاي ايفانوفتش الشرطة كثيراً حين وضع امامهم على الطاولة الوثيقة التهريجية بانه امضى الوقت في حفل راقص عند الشيطان . ولقد جانب نيقولاي ايفانوفتش الحقيقة الى حدّ ما ، وهو يروي لهم كيف حمل خادمة مرغريتا نيقولايفنا العارية على ظهره في الهواء الى مكان ما بعيد على النهر لتستحم وعما سبق هذا من ظهور مرغريتا نيقولايفنا متجرّدة من ثيابها في النافذة . وعلى سبيل المثال لم ير نيقولاي ايفانوفتش ضرورة لأن يذكر انه اتى المخدع وهو يحمل قميصاً داخلياً في يده ولا انه دعا ناتاشا بفينوس . فناتاشا حسب روايته هي التي خرجت طائرة من النافذة وامتطته وسحبته خارج موسكو . . .

وقال :

– كنت واقعاً تحت الضغط فاضطررت الى الانصياع ، – ثم انهى تقولاته برجاء الاّ تحاط زوجته علماً بكلمة مما قال ، الأمر الذي وُعد به .

ومكنت شهادة نيقولاي ايفانوفتش المحققين من تقرير ان



مرغريتا نيقولايفنا وخادمتها ناتاشا اختفتا دون ان تتركا اثراً . واتخذت الاجراءات للقبض عليهما .

وهكذا اتسم صباح يوم السبت بتحقيقات لم تتوقف ثانية . في هذا الوقت كانت تظهر في المدينة وتنتشر اشاعات غير معقولة وكان القدر القليل من الحقيقة يوشى بأزهى انواع الكذب . قيل انه اقيمت في «فاريبتيه» حفلة جرى بعدها القاء مشاهد الى الشارع كما ولدتهم امهاتهم ، وانه دوهمت مطبعة اوراق نقدية مزيفة ذات طابع سحري في شارع سادوفايا ، وان عصابة مجهولة اختطفت خمسة من مسؤولي قطاع الترفيهيّات ، وان رجال الشرطة القوا القبض عليها للحال ، واشياء اخرى كثيرة مما لا نوّد حتى ترديده .

خلال ذلك كان الوقت يقترب من الظهر . اذّاك رنّ الهاتف في مكان التحقيق ، وجاءت الأخبار من سادوفايا ان الشقة اللعينة ابدت من جديد علامات تدلّ على الحياة فيها . وقيل ان نوافذها تفتح من الداخل ، وكانت تنبعث منها اصوات بيانو وغناء وانهم راوا قطا اسود يجلس على حافة النافذة ويتشمّس .

وفي حوالي الساعة الرابعة من هذا اليوم الحار خرجت مجموعة كبيرة من الرجال في لباس مدني من ثلاث سيّارات على مسافة بعيدة بعض الشيء من البناية رقم ٣٠٢-مكرر في شارع سادوفايا . وهنا توزّعت المجموعة الكبيرة الى مجموعتين صغيرتين اجتازت احداهما طنف العمارة والفناء الى المدخل الرئيسي السادس مباشرة ، بينما فتحت الثانية باباً صغيراً مسمراً في العادة يؤدي الى المدخل الخلفي ، واخذت المجموعتان ترقيان درجين مختلفين الى الشقة رقم ٥٠ .

في هذا الوقت كان كوروفييف وازازيلو يجلسان في غرفة الطعام ويوشكان على الانتهاء من تناول فطورهما (وتجدر الاشارة الى ان كوروفييف كان يرتدي لباسه العادي وليس فراك الاحتفال) . وكان فولند في المخدع على عادته ، اما القطّ فلم يكن احد يعرف مكانه . ولكن اذا حكمنا من قرقعة الطناجر والقلل المنبعثة من المطبخ ، كان بامكاننا الافتراض ان بيغيموت هناك بالتحديد يأتي حماقات على عادته .

– ما هذه الخطوات على الدرج ؟ – سأل كوروفييف وهو يلعّب ملعقته الصغيرة في فنجان القهوة .

– انهم آتون للقبض علينا ، – اجاب أزازيلو وأتى على قدح من الكونياك .

– اي ، اي ، – كان جواب كوروفييف .

كان صاعدو الدرج الرئيسي قد بلغوا في هذه الأثناء بسطة الطابق الثالث ، حيث كان اثنان من عمّال التمديدات الصحية يعالجان ماسورة التدفئة البخارية . وتبادل الصاعدون وعمالا التمديدات نظرة ذات معنى .

– جمعيهم في البيت ، – همس احد العمال وهو يطرق بمطرقته على الماسورة .

اذّاك شهر السائر في المقدمة من تحت معطفه مسدساً اسود ، واخرج آخر الى جانبه رزمة مفاتيح مشتركة . وعموماً كان المتجهون الى الشقة رقم ٥٠ مجهزين كما يجب . كان في جيوب اثنين منهم شباك حريرية دقيقة سهلة النشر ، وفي جيب آخر وهق وفي جيوب سادس اقنعة من الشاش وقوارير كلوروفورم .

وفي ثانية فتح باب الشقة رقم ٥٠ الرئيسي وصار كل القادمين في المدخل ، بينما اظهر الباب المصطك في المطبخ ان المجموعة الثانية القادمة من المدخل الخلفي وصلت في وقتها ايضاً .

في هذه المرة كان النجاح ، وان لم يكن النجاح الكامل ، بادياً للعيان . ففي لمح البصر انتشر الرجال في كل الغرف لكنهم لم يعثروا على أحد ، انما اكتشفوا في غرفة الطعام بقايا فطور تخلّى عنه اصحابه للتوّ كما يبدو ، كما راوا فوق الوجاق الذي في غرفة الاستقبال قطاً اسود ضخماً يجلس قرب دورق بلوري ويمسك بقائمتيه وابوراً .

تأمل مقتحمو غرفة الاستقبال هذا القط فترة طويلة نسبياً وهم غارقون في صمت تام .

– اي . . . رائع حقاً ، – همس احد الداخلين .

– اني لا اعبث ولا امسّ احداً ، بل اصلح الوابور ، –



قال القط وهو يزوي ما بين حاجبيه بعداء ، – كما اعتبر من واجبي تنبيهكم الى ان القط حيوان قديم لا يمس .

– عمل متقن بشكل خارق ، – همس احد الداخلين بينما قال آخر بصوت عال وبوضوح :

– اي ، ايها القط الناطق الذي لا يمس تفضّل الى هنا .

نشرت الشبكة الحريرية وشبّت ، لكن الذي القى بها اخطأ هدفه لدهشة الجميع التامة ، ولم يعلق بها الاّ الدورق الذي تحطم على الفور محدثاً رنيناً قوياً .

– خسرتم ! – زأر القط ، – أورا ! – وهنا وضع الوابور جانباً واستل من خلف ظهره براوننغ وسدده الى اقرب رجل واقف قربه ، ومضت نار في يد الرجل قبل ان يتمكن القط من اطلاق ناره ، ومع طلقة الماوزر هوى القط من الوجاق وقد سقط البراوننغ من يده ورمى الوابور .

– انتهى كل شيء ، – قال القط بصوت وانٍ وانطرح بفتور في بركة الدم ، – ابتعدوا عني ثانيةً ، دعوني اودّع الارض . آه يا صديقي ازازيلو ! – انّ القط ودمه ينزف ، – اين انت ؟ – وصوّب الى باب غرفة الطعام عينين منطفئتين ، – لم تهب الى نجدتي في معركة غير متكافئة . لقد تخليت عن بيغيموت المسكين وفضلت عليه كاسا من الكونياك اللذيذ فعلاً ! ولكن ما العمل ، ليكن موتي وزراً يثقل ضميرك اما انا فاوصي لك ببراوننغي . . .

– الشبكة ، الشبكة ، الشبكة ، – تعالت الهمسات المضطربة حول القطّ . لكن الشيطان وحده يعلم لماذا علقت الشبكة داخل جيب احدهم ولم تخرج .

– الشيء الوحيد القادر على انقاذ قطّ مصاب بجرح قاتل هو جرعة بنزين . . . – قال القط والصق فمه بالثقب المدوّر الذي في الوابور مستغلاً ارتباك من حوله وذهولهم وروى جوفه بالبنزين . وللحال توقف النزف تحت قائمته العلوية اليسرى ، فوثب حياً ونشيطاً والتقط وابوره ووضعه تحت ابطه وقفز عائداً الى الوجاق ، وهناك اخذ يتسلق الجدار ممزّقاً اوراقه وما هي الاّ ثانيتان تقريباً حتى كان يجلس على افريز معدني فوق الداخلين .

وفي لحظة تشبثت يدان بستارة النافذة ونزعتاها مع الافريز فتدفقت الشمس الى الغرفة الظليلة . لكن لا القطّ الذي برىء احتيالا ونصباً ولا الوابور لم يسقطا ، بل تمكن القط على نحو ما ان يندفع في الهواء دون ان يتخلى عن الوابور ويقفز الى ثريا معلقة في وسط الغرفة .

– سلّماً ! – تعالت الصيحات من الأسفل .

– أدعوكم للمبارزة ! – زمجر القط وهو يطير فوق رؤوسهم جيئة وذهاباً على الثريا المتراقصة ، وهنا ظهر البراوننغ من جديد في قائمته ، في حين ركز الوابور بين شعاب الثريا . وسدّد القط وفتح عليهم النار وهو يطير كالمروحص فوق رؤوس القادمين . هزّ الدويّ الشقة وتناثرت على الأرض شظايا بلورية من الثريا وتصدعت المرآة على الموقد على شكل نجيمات وتعالى غبار الجصّ وتقافزت على الأرض الخراطيش الفارغة وانفجر زجاج النوافذ وأخذ الوابور الذي أصيب بطلقة ينفث بنزيناً . لم يعد الآن مجال للتفكير في الامساك بالقط حياً ، فأخذ القادمون يردون عليه بطلقات محكمة ومسعورة يسددونها من الماوزر الى راسه والى بطنه والى صدره والى ظهره . والقى صوت الرصاص الذعر على الاسفلت الذي في الفناء .

لكن اطلاق الرصاص هذا لم يستمر الا فترة جد وجيزة أخذ بعدها يهدأ شيئاً فشيئاً . والعجيب هنا ان اطلاق الرصاص هذا لم يسبب للقط ولا للقادمين أي أذى فلم يخرج أحد من المعركة مقتولاً او حتى مجروحاً ، بل خرج الجميع منها ، بمن فيهم القط ، سالمين تماماً . وبغية التحقق من هذا الأمر نهائياً افرغ احد القادمين خمس رصاصات في رأس الحيوان اللعين فردّ عليه القطّ بخفة ونشاط بمشط كامل . وكانت النتيجة كسابقتها . ولم يحدث هذا في الرجال أي أثر . كان القط يهتز في الثريا التي كانت تلويحاتها تتضاءل شيئاً فشيئاً وهو ينفث لأمر ما في فوهة البراوننغ ويبصق على قائمته . وكانت الدهشة والذهول الكاملان ينعقدان على أوجه الرجال الواقفين تحت في صمت . فقد كانت المرّة الوحيدة ، ان لم تكن واحدة من المرّات القلائل ، التي كان فيها تبادل الرصاص غير مجد . كان



بامكانهم الافتراض ، طبعاً ، بأن براوننغ القط مسدّس لعبة ، أما ماوزرات القادمين فلا يصح فيها هذا القول بحال من الأحوال . اما اول جرح أصيب به القط ، وهذا أمر من الواضح انه لم يكن فيه مجال لأي شك ، فلم يكن ، كشرب البنزين ، الاّ خدعة وتظاهراً حقيراً .

وجرت محاولة اخرى للامساك بالقط ، فالقي الوهق لكنه علق باحدى الشمعات وانقطعت الثريا . فاحدث سقوطها على الأرض دويّاً هزّ اركان البناية كلها فيما بدا ، لكن هذا كله كان عبثاً في عبث . فقد انهمرت الشظايا على الحاضرين ، بينما طار القط وحط عالياً تحت السقف على القسم العلوي من اطار مرآة الموقد المطليّ بالذهب . لم يكن في نيته الركون الى الفرار ، بل على العكس انطلق في الحديث مرة أخرى وقد شعر انه في مكان آمن نسبياً وقال من عليائه :

– لا افهم على الاطلاق أسباب معاملتي بمثل هذا العنف . . .

وهنا قاطع هذا الكلام من بدايته صوت خفيض ثقيل أتى من مكان مجهول :

– ما الذي يجري في الشقة ؟ انكم تشوشون علي عملي .

وردّ عليه صوت آخر اخن كريه :

– انه بيغيموت طبعاً ، لياخذه الشيطان .

وقال صوت ثالث مرتجّ :

– سيدي ، اليوم السبت . الشمس تنحدر الى المغيب . آن الأوان .

– اعذروني ، لا أستطيع متابعة حديثي معكم ، – قال القط من على المرآة ، – آن الأوان . – وقذف مسدسه البراوننغ وحطّم لوحين من زجاج النافذة ثم رش بنزيناً ، فاشتعل البنزين بنفسه وشب مرسلاً موجة من اللهب ارتفعت حتى السقف .

اندلعت النار بشكل غير مالوف ، بسرعة وعنف لا يعهدان حتى في نار البنزين وقودها . فقد أخذ الدخان يتصاعد من ورق الجدران على الفور واحترقت ستارة النافذة المرمية على الأرض ، وأخذت اطارات النوافذ المحطمة تدعر . وتهيأ القط وماء ، ووثب من المرآة الى حافة النافذة واختفى خلفها مع وابوره . ودوّت

طلقات في الخارج . كان الرجل الجالس على درج الاطفاء الحديدي الواقع على مستوى نوافذ شقة زوجة الصائغ هو الذي اطلق النار حين اخذ القط يطير من حافة نافذة الى اخرى متوجّهاً الى ماسورة تصريف الماء الركنية في البيت المبني على شكل حرف نون (ن) ، هذه الماسورة التي تسلّقها الى السطح .

وهناك أيضاً اطلق عليه النار الحرس القائمون على مراقبة المداخن ولكن دون جدوى مع الأسف ، واختفى القط في الشمس الغاربة التي كانت تغمر المدينة .

في هذا الوقت اشتعلت باركيه الشقة بالنار تحت ارجل القادمين ، وبدت وسط النار وفي نفس المكان الذي تمرّغ فيه القطّ بجرحه الكاذب جثة البارون السابق ميغل بذقنها المرفوعة الى الأعلى وعينيها الزجاجيتين وهي تزداد كثافة . انما لم تعد هناك أي امكانية لسحبها . كان المتواجدون في غرفة الاستقبال يتراجعون الى غرفة المكتب فالمدخل وهم يقفزون فوق الواح الباركيه المشتعلة ويخفقون براحاتهم على اكتافهم وصدورهم الملفوحة بالدخان ، بينما هرع الذين كانوا في غرفة الطعام والمخدع هاربين عبر الممرّ ، اما الذين كانوا في المطبخ فقد اندفعوا الى المدخل . كانت غرفة الاستقبال قد امتلأت بالنار والدخان . لكن احدهم تمكن على الماشي من ادارة قرص الهاتف على رقم مركز الاطفاء ومن اطلاق صرخة مختصرة في السماعة :

– سادوفايا ، ٣٠٢-مكرر !

لم يعد هناك أي مجال للابطاء . فقد امتد اللهب الى المدخل ، وبات التنفس صعباً .

ما ان تسللت من النوافذ المحطمة في الشقة المسحورة اول تيّارات الدخان حتى تردّدت في الفناء اصوات انسانية يائسة :

– نار ، نار ، نحترق !

واخذ الناس في مختلف شقق البناية يصرخون في الهواتف :

– سادوفايا ! سادوفايا ، ٣٠٢-مكرر .

وفيما سمعت في سادوفايا اصوات اجراس تروّع القلب تطلقها سيارات حمر طويلة تنطلق بسرعة من كافة انحاء المدينة ، راى الناس المضطربون جيئة وذهاباً في الفناء كيف



طارت مع الدخان من نافذة الطابق الخامس ثلاثة أطياف قاتمة رجالية كما بدا ، وطيف واحد لامراة متجرّدة من ثيابها .

## الفصل الثامن والعشرون

## مغامرات كوروفييف وبيغيموت الاخيرة

هل وُجدت هذه الأطياف فعلاً أم انها كانت مجرّد تهيؤات لسكان البناية المنحوسة في سادوفايا الذين صعقهم الخوف – ذلك ما لا نستطيع الجزم به بدقة . واذا وجدت هذه الأطياف فاين اتجهت من فورها – هذا ايضاً لا يستطيع أحد ان يعرفه ، كما لا نستطيع القول اين افترقت لكننا نعرف أنه بعد نحو ربع ساعة من اندلاع الحريق في سادوفايا ظهر مواطن طويل القامة في بزّة ذات مربعات عند ابواب تورغسين * الزجاجية في سوق سمولنسكي ومعه قط أسود ضخم .

فتح هذا المواطن الباب الخارجي للمحلّ وهو يتلوّى بخفة بين المارة فاذا ببواب صغير الحجم ناتيء العظام تبدو على وجهه امارات العداء الشديد يقطع عليه طريقه ويقول له بصوت حانق :

– ممنوع الدخول مع القطط .

– العفو ، – اجاب الرجل الطويل بصوت مرتج ووضع يده العقداء على اذنه كمن به صمم ، – تقول مع القطط ؟ واين ترى القطط ؟

جحظت عينا البوّاب ، وكان هناك بالفعل ما يدعو لذلك : اذ لم يعد يظهر اي قط عند قدمي مواطننا ، بل أطلّ من خلف كتفه بدلاً من ذلك رجل بدين ، يعتمر كبية ممزقة ذو سحنة تشبه الى حدّ ما سحنة القط فعلاً ، يسعى الى المحل وبيده وابور .

---

* معناها التجارة مع الاجانب ، اي شبكة المحلات التي كانت تتاجر بالبضائع الشحيحة في السوق بالعملة الصعبة . **المترجم** .

ولأمر ما لم يعجب هذا الزوج من روّاد المحل البوّاب المبغض للناس .

– عندنا بالعملة الأجنبية فقط ، – قال البواب بصوت جشر وهو ينظر اليهما بحنق من تحت حاجبيه الرماديين الأشعثين اللذين بدا وكأن العثّ يتأكلهما .

– ومن أين لك أن تعرف ، أيها العزيز ، أني لا أملكها ؟ – قال الطويل بصوت مرتج وعينه تبرق من نظارته الأنفية المحطمة . – هل حكمت عليّ من بزتي ؟ إياك أن تفعل هذا بعد الآن أيها الحارس الغالي ! فقد تخطىء ، وقد يكون خطؤك جسيماً . أعد قراءة قصة الخليفة المشهور هارون الرشيد على الأقل . لكن دعنا من هذه القصة الى حين فأنا اريد أن أقول لك الآن اني ساشكوك الى المدير وساروي له عنك أشياء بحيث تضطر بعدها الى مغادرة مكانك بين الأبواب الزجاجية البراقة .

– قد يكون وابوري مليئاً بالعملة الصعبة ، – تدخل البدين الشبيه بالقط في الحديث بحدّة وهو يحاول ان يجتاز باب المخزن . كان الجمهور خلفه يتدافع بالمرافق ويتذمّر . وتنحى البواب وهو ينظر الى هذا الزوج بحقد وشك ، وصار صاحبانا كوروفييف وبيغيموت داخل المخزن .

كان أوّل ما فعلاه انهما تأملا ما حولهما ، ثم أعلن كوروفييف بصوت رنّان سمع في كل أركان المخزن يقيناً :

– مخزن رائع ! مخزن جيد جدّاً ، جداً .

رفع جمهور المشترين عيونهم عن المباسط والتفتوا ، ولأمر ما تطلّعوا الى المتكلم في انبهات على الرغم من توفّر كل الأسباب لديه لكيل المديح للمخزن .

كانت منات من قطع القماش الهندي ذي الألوان المزركشة الزاهية تبدو في مربّعات الرفوف . وتكدست وراءها أقمشة من القطن الكلكوتي والشاش وأجواخ الفراك ، وعلى مرمى النظر أكوام كاملة من علب الأحذية . كانت بضع مواطنات يجلسن على مقاعد واطئة ، وقدمهن اليمنى في حذاء مهترىء واليسرى في حذاء جديد لمّاع مفتوح يدسن به على السجّادة بوجه مهموم . ومن مكان ما وراء أحد الأركان كان يسمع غناء وعزف ينطلقان من أجهزة الحاكي .



لكن كوروفييف وبيغيموت تجاوزا كل هذه الأشياء الرائعة ، وتوجّها مباشرة الى حيث اتصال قسم المواد الغذائية بقسم الحلويات . كان المكان هنا على قدر كبير من الاتساع ولم تكن المواطنات المرتديات مناديل أو قبعات صغيرة يتدافعن على المباسط كما في قسم القطن الهندي .

كان شخص قصير القامة مربّع الشكل تماماً ، حليق الذقن حتى درجة ازرقاق الجلد ، يضع نظارة قرنية وقبعة جديدة غير مكرمشة ذات شريطة ملساء ومعطفاً ليلكياً وقفازين أصهبين من جلد الجدي ، يقف قرب المبسط ويخور بلهجة آمرة . وكان بائع في ثوبه الأبيض النظيف وقبعته الصغيرة الزرقاء يقوم على خدمة الزبون الليلكي . كان ينزع بسكين حادة جداً تشبه الى حدّ كبير السكين التي سرقها متى اللاوي ، جلد سلمون وردية دسمة باكية يشبه جلد أفعى ، ذا لون ضارب الى الفضة .

وقال كوروفييف معترفاً بصوت مهيب :

– وهذا القسم عظيم أيضاً . – ثم أشار الى الظهر الليلكي وقال في لفتة كريمة : – وهذا الأجنبي لطيف .

– لا ، يافاغوت ، لا ، – أجاب بيغيموت متفكراً ، – أنت مخطىء ياصديقي ، ففي وجه هذا الجنتلمان الليلكي شيء ما ناقص في رأيي .

ارتعد الظهر الليلكي انما مصادفة على الأرجح ، اذ لم يكن بوسع الأجنبي فهم ما يقوله كوروفييف ورفيقه بالروسية .

– جيداً ؟ – سأل الشاري الليلكي بلهجة صارمة وروسية مكسّرة .

– عالمي ، – أجاب البائع وهو يحفر بدلال تحت جلد السمكة بنصل سكينه .

– جيّد احب ، السيء لا ، – قال الأجنبي بصرامة .

– طبعاً ! – ردّ البائع بحماسة .

وهنا ابتعد صاحبانا عن الأجنبي وسمكه الى طرف مبسط المعجّنات .

– الطقس حار اليوم ، – خاطب كوروفييف بائعة شابة حمراء الوجنتين ، ولمّا لم يلق منها جواباً اردف مستفسراً : – بكم الأفندي ؟

– بثلاثين كوبيكاً للكيلو ، – اجابت البائعة .

– الاسعار باهظة ، – لاحظ كوروفييف متنهداً ، – ايه ، ايه . . . – ثم فكّر قليلاً ودعا رفيقه قائلاً : – كلّ يا بيغيموت .

وضع البدين وابوره تحت ابطه وامسك باليوسفية التي في اعلى الهرم والتهمها على الفور بقشرتها ثم باشر بالثانية .

ركب البائعة رعب قاتل .

– لقد جننتم ! – صاحت البائعة وقد اختفى تورّدها ، – هاتوا الشيك ! الشيك ! – وسقطت ملاقط السكاكر من يدها .

– ياروحي ، ياحلوة ، – قال كوروفييف بصوت أجشر وهو يتطامن فوق المبسط ويغمز البائعة ، – ليست لدينا العملة الصعبة اليوم . . . ما في اليد حيلة ! الا اني اقسم لك اننا في المرّة القادمة ، ولن تتعدى يوم الاثنين ، سندفع كل ما علينا عدّاً ونقداً ! نحن لسنا بعيدين من هنا ، نحن في سادوفايا حيث الحريق .

وبعد أن التهم بيغيموت اليوسفية الثالثة دس قائمته في بناء معقد من الواح الشوكولاتة ، وانتزع لوحاً من الأسفل انهار معه البناء كله بالطبع والتهم اللوح بغلافه الذهبي .

بدا كان البائعين الواقفين وراء مبسط الأسماك قد تحجروا وسكاكينهم في أيديهم . واستدار الأجنبي الليلكي الى اللصوص ، وللحال تبين أن بيغيموت ليس على صواب : فلم يكن ينقص وجه الشخص الليلكي شيء ، بل على العكس كان في وجهه ما هو زائد : وجنتان متهدلتان وعينان شاردتان .

وصاحت البائعة بصوت كئيب دوّى في ارجاء المخزن كله وقد غطّت الصفرة وجهها كله :

– بالوستش ! بالوستش ! *

واقبل الناس من قسم القطنيّات على هذا الصياح ، اما بيغيموت فقد ابتعد عن المعجّنات المغرية وغرز قائمته في برميل كتب عليه : «فسيخ ممتاز» وسحب زوجين من الرنكة والتهمهما وبصق ذنبيهما .

– بالوستش ! – تكرر الصراخ اليائس خلف مبسط

* اختصار اسم بافل يوسفتش . **المترجم** .



المعجنات ، بينما اطلق بائع ذو لحية قصيرة مدببة من وراء مبسط الأسماك :

– ما الذي تفعله ايها الوغد ؟

في هذا الوقت كان بافل يوسفتش يهرع الى مكان الأحداث . كان رجلاً مهيباً في رداء أبيض نظيف كانه جرّاح ، يلوح من جيبه قلم رصاص . وكان رجلاً محنكاً على ما يبدو . فما ان رأى ذنب الرنكة الثالثة في فم بيغيموت حتى قوّم الموقف في لحظة ، وادرك كل شيء ادراك اليقين ، فلم يشأ الدخول في اي مهاترات مع هذين الوغدين بل لوح بيده الى البعيد آمراً :

– اصفر !

انطلق البواب من الأبواب الزجاجية الى ناصية سمولنسكي كالسهم ، وراح يصفر صفيراً منذراً بالشؤم ، بينما اخذ الجمهور يطوّق السافلين . اذّاك تدخل كوروفييف .

– ايها المواطنون ، – صاح بصوت رفيع رنان ، – ما هذا الذي يجري ؟ آ ؟ اسمحوا لي ان اسالكم ! انسان مسكين ، – وهنا اطلق كوروفييف قدراً من الرعشة في صوته واشار الى بيغيموت الذي اصطنع على الفور وجهاً بكّاء ، – انسان مسكين يعمل طول النهار في تصليح بوابير الكاز جاع . . . من اين له ان يحصل على عملة صعبة ؟

وصاح بافل يوسفتش الهادئ الرزين بطبعه يردّ بقسوة :

– دعك من هذا الهراء ! – ولوّح بيده الى البعيد في نفاد صبر هذه المرّة . واشتد الصفير عند الأبواب .

لكن كوروفييف تابع كلامه غير عابئ بمداخلة بافل يوسفتش :

– من اين ؟ هذا هو السؤال الذي اطرحه عليكم جميعاً ! انسان بائس انهكه الجوع والعطش والحرّ ، ذاق يوسفية هذا المسكين ، ماذا فيها ؟ كل سعر هذه اليوسفية ثلاثة كوبيكات ، ومع هذا بداوا يصفرون كانهم البلابل في غابة الربيع ، ويقلقون راحة الشرطة ويصرفونها عن عملها . اما ذاك فبامكانه أن يفعل ، آ ؟ – وهنا اشار كوروفييف الى البدين الليلكي فارتسمت على وجه هذا امارات القلق الشديد ، – من تراه يكون ، آ ؟ ومن اين اتى ؟ ولماذا ؟ العلّنا كنّا نشعر بالملل بدونه ؟ العلّنا

دعوناه ؟ طبعاً ، — هنا لـوى المرتل السابق فمه في استهزاء وجأر بملء شدقيه ، — انه كما تـرون في بزة ليلكية فاخرة ، منتفخ من أكل السلمون ومحشوّ كله بالعملة الصعبة . امـا أخونا ، أخونا ؟ ! — واخذ يولول كأنه اشبين في عرس قديم :

— يا لعذابي ، يا لشقائي ، يالتعاستي !

كل هذه الحادثة الغبية ، الفظّة والضارة سياسياً عـلى الارجح ، جعلت بافل يوسفتش ينتفض من الغضب ، لكنه كان واضحاً من اعين الجمهور المتدافع حولهم ان الحادثة ، على ما في ذلك من غرابة ، لقيت تعاطفاً في قلوب كثيرة ! وعندما وضـع بيغيموت كمه القذر الممزّق على عينه وهتف بصوت مأساوي :

— شكراً لك أيها الصديق الصدوق ، لقد نصرت مظلوماً !

— حدثت معجزة . فقد تحوّل عجوز هادئ لائق المظهـر تماماً ، يلبس ملابس فقيرة لكنها نظيفة ، كان يشتري ثلاث كعكات باللوز في قسم المعجّنات الى شخص آخـر فجأة . فقد انتقدت عيناه بنار القتال واحمرّت وجنتاه وقذف بكيس الكعك عـلى الأرض وصاح بصوت طفلي رفيع :

— صحيح ! — ثم خطف الصينية والقى على الارض ما عليها من بقايا الشوكولاتة المنسقة على شكل برج ايفل الذي حطمـه بيغيموت ولوّح بها ونزع بيسراه القبعة عـن رأس الأجنبي ، وهوى بيمناه بالجانب المفلطح من الصينية على رأس الأجنبـي الأصلع . ودوى صوت كذاك الذي يسمع لدى القاء صفائـح الحديد من على ظهر شاحنة على الأرض . هوى البدين عـلى ظهره وقد ابيضّ وجهه وسقط في برميـل الفسيخ دافعاً الى الخارج نافورة من مرق التخليل . وهنا حدثت المعجزة الثانية ، اذ صاح الشخص الليلكي وهو يسقط في البرميل بلغة روسية خالصة لا تشوبها أي لكنة :

— يقتلونني ! الشرطة ! قطّاع الطرق يقتلونني ! — كأنما الصدمة هي التي جعلته يتقن بغتة لغة كان يجهلها حتى تلـك اللحظة .

اذاك توقف صفير البواب ، ولمعت بين جماهير المشترين المضطربة خوذتا شرطيين واخذتا تقتربان . لكـن بيغيموت الغدّار صب من وابوره البنزين على مبسط المعجنات كما يصب



الماء من الطست على دكة في حمام ، واشتعـل البنزين من تلقاء نفسه . شبّ اللهب الى اعلى وامتدّ على طول المبسط ملتهمـاً الشرائط الورقية الجميلـة على السلال الملأى بالفواكـه ، واندفعت البائعات هاربات من وراء المبسط وهن يطلقن ولولـة وزعيقاً . وما كدن يغادرن المبسط حتى اندلعت النار في الستائر التيليّة على النوافذ واشتعل البنزين على الأرض . واطلـق الجمهور صراخاً يائساً ، واندفع من قسم المعجنات متراجعـاً داهساً في طريقه بافل يوسفتش الذي لم تعد بـه اليهم حاجة ، بينما هرع الباعة من خلف مبسط الأسماك الواحد تلـو الآخر ، وسكاكينهم المشحـوذة في ايديهم ، باتجاه ابـواب المخرج الخلفي ، في حين اقتلع المواطن الليلكي نفسه من البرميل وقد تبلّل كله بمرق التخليل وانقلب على المبسط فوق سمكة سلمون ولحق بهم . تقصف الزجاج في الأبواب البلورية الخارجية تحت ضغط الراكضين الى الفرار وتناثر ، امـا التذلان ، كوروفييف والاكول بيغيموت ، فقد اختفيا ، لكن ايـن ؟ — هذا ما تعذر فهمه . وفيما بعد قال شهود عيـان حضروا بداية الحريق في تورغسين في سمولنسكي ان الشقيين كليهمـا طارا واستترا تحت السقف وهناك انفجر كلاهما كبالونين من بالونات الأطفال . لكن من المشكـوك فيه طبعاً ان الأمر جرى على هذا النحـو بالذات ، وما لا نعرفه لا نقطع فيه برأي .

انما نعرف أن بيغيموت وكوروفييف كانا بعد دقيقة بالضبط من حادثة سمولنسكي على رصيف البولفار ، وبالذات عند بيت عمّة غريبوبيدوف . توقف كوروفييف عند السياج وقال :

— عجباً ! هذا بيت الكتّاب . تعرف يابيغيموت لقد سمعت الكثير من الكلمات الطيبة ومن الاطراء في حق هذا البيت . انتبه الى هذا البيت ياصديقي ! ممّا يفرح القلب انّ مجموعات كاملة من المواهب تحضن وتنضج تحت سقفه .

— كما الأناناس في المستنبتات الزجاجية ، — قال بيغيموت وقفز فوق القاعدة الخرسانية للسياج كيما يمتع ناظريه على نحو أفضل بالبيت العاجي اللون ذي الأعمدة .

— صحيح تماماً ، — قال كوروفييف موافقاً على قول رفيقه الذي لا يفارقه لحظة ، — وتغمرّ قلبك رهبةٌ لذيذة حين تفكـر

في ان واحداً من امثال صاحب «دون كيشوت» او «فاوست» او ، فلياخذني الشيطان ، «النفوس الميتـــة» في طريقه الى النضوج الآن تحت سقف هذا البيت ! آ ؟

– من المخيف التفكير في امر كهـــذا ، – قال بيغيموت مثنياً .

– نعم ، – تابع كوروفييف ، – اشياء مدهشة يمكـــن توقعها في المباقل الشتويـة لهذا البيت الذي يضم تحت جناحه بضعة آلاف من الرجال المتحمسين الذين عقدوا العزم عـــلى تكريس حياتهـــم بنكران ذات لخدمـة ميلبومينا وبوليغيمينا وتاليا * . هل تتصور الضجّة الكبرى حين سيقدّم احدهم الى جمهور القراء «مفتشاً عاماً» او في اسوا الاحوال شيئاً مثـــل «يفغيني اونيغين» في بداية ابداعه !

– اتصور بوضوح ، – ثنى بيغيموت على قول صاحبه مرّة اخرى .

– نعم ، – قال كوروفييف واردف رافعاً اصبعه في انشغال بال : – لكن ! لكن اقول واكرر : لكن هذه ! لكن اذا لم تهاجم هذه النبتات الرقيقة المحضونة جرثومةً ولم تنخرها في جذرها ، واذا لـم تتعفن ! وهذا ما يحدث للاناناس ! اويْ ، اويْ ، اويْ ، وما اكثر مايحدث هذا !

– بالمناسبة ، – قال بيغيموت مستفسراً وهو يحشر راسه المدوّر داخل ثقب في السياج المشبك ، – ما الذي يفعلونه على الشرفة ؟

– يتغدّون ، – اجاب كوروفييف موضحاً ، – واضيف الى ذلك ياصديقي انه يوجد هنا مطعـــم ليس سيئاً بالمرّة وليس باهظاً . وانا بالمناسبة ، كاي سائح قبـــل استئناف رحلته ، اشعر برغبة في تناول بعض المزّة وكاس كبيرة باردة مـــن البيرة .

– وانا ايضاً ، – اجاب بيغيموت ، – ومضى النذلان من

---

* اسماء ثلاث من ربات الشعر في الأساطير اليونانية وهن على التوالي : راعية فن المأساة ، وراعية الأناشيد ، وراعية فن الملهاة . المترجم .



فورهما على الطريق المفروش بالاسفلت تحت أشجـار الزيزفون الى شرفة المطعم الذي لم يحسّ بعد بالمصيبة القادمة .

كانت مواطنة شاحبة اللون تنضح بالضجـر ترتدي جوارب بيضاء قصيرة وقبعة بيضاء صغيـــرة مذنّبة تجلس على كرسيّ مضفور عند مدخل الشرفة ، في الركن حيـــث فتحت في اغصان التعريشة الخضراء فتحة للدخول ، وامامها على طاولة بسيطة من طاولات المطبخ دفتر سميك من نوع دفتر الحسابات ، كانـــت المراة تسجّل فيه لأسباب مجهولـــة اسماء روّاد المطعم . هذه المواطنة بالذات هي التي اوقفت كوروفييف وبيغيموت .

– اوراقكمـــا ؟ – قالت وهي تتطلع بدهشة الى نظارة كوروفييف الأنفية وكذلـــك الى وابور بيغيموت والى كوعـــه الممزق .

– الفُ معذرة ، اية اوراق ؟ – سال كوروفييف وهو يبدي دهشته .

– هل انتما كاتبان ؟ – سالت المراة بدورها .

– طبعاً ، – أجاب كوروفييف في وقار .

– اوراقكما ؟ – كررّت المواطنة .

وفتح كوروفييف فمه يقول لها برقة : – يا حلوتي . . .

لكنها قاطعته قائلة :

– لست حلوتك . . .

– او ، ما اشد أسفي ، – قال كوروفييف بخيبة امـــل واردف : – لكن ما العمل ، ان كان لا يروقك ان تكوني حلوة ، ولو ان هذا امر في غاية اللطف ، فبوسعك الاّ تكوني كذلـك . لكن قولي لي اذن ، هل مـــن الضروري حقاً ان تطلبي مـــن دوستويفسكي اوراقه الثبوتية لتتاكدي انه كاتب ؟ خذي اي خمس صفحات من اي رواية من رواياته وستتاكدين دون اية ثبوتيات انك امام كاتب ، واجزم انه لم يكن يحمل اية اوراق ثبوتية ! ما رايك ؟ – قال كوروفييف متوجهاً الى بيغيموت .

– اراهن ان الامر كما قلت ، – اجاب بيغيموت وهو يضع الوابور الى جانب الدفتر على الطاولة ويمسح بيده العرق عـــن جبينه الملوّث بالسخام .

– انت لست دوستويفسكي ، – قالت المرأة التي اربكها كوروفييف .

– كيف لك ان تعرفي ، كيف لـــك ان تعرفي ، – اجاب كوروفييف .

– دوستويفسكي مات ، – قالت المواطنة بلهجة لا تنم عن ثقة كبيرة .

– احتج ! – صاح بيغيموت بحماسة . – دوستويفسكي خالد .

– اوراقكما ايها المواطنان ، – قالت المواطنة .

– عفواً ، هذا مضحك في نهاية الأمر ، – قال كوروفييف وهو لا ينوي الاستسلام ، – ليس بثبوتياته يحدّد الكاتب ، بل بما كتب ! وكيف لك ان تعرفي ما الأفكار التي تجول في خاطري ؟ او في هذا الراس ؟ – واشار الى راس بيغيموت الذي نزع على الفور كبيته كانما لتتمكن المواطنة من معاينته على نحو افضل .

– دعوه يمرّ ، – قالت المواطنة وقد بدأت اعصابها تثور .

تنحّى كوروفييف وبيغيموت مخليين الطريق امام كاتب في بدلة رمادية وقميص صيفي ابيض دون ربطة عنق ، تسترخي ياقته العريضة على ياقة الجاكيتة ، يتابط جريدة . اومأ الكاتب براسه للمواطنة بودّ ورسم على الدفتر المقدّم له خطوطاً ملتوية على الماشي وتابع طريقه الى الشرفة .

– واسفاه ، – قال كوروفييف بحزن ، – لن تكون من نصيبنا كاس البيرة المثلّجة التي شدّ ما حلمنا بها نحن الجوّالان المسكينان بل من نصيبه . وضعنا مؤسف وصعب ولا ادري ما العمل .

ما كان من بيغيموت الا ان بسط يديه في حيرة مشوبة بالمرارة ووضع الكبية على راسه المدوّر المغطّى بشعر كثيف يشبه الى حدّ كبير شعر القط . وفي هذه اللحظة تردّد فوق راس المواطنة صوت خفيض لكنه آمر :

– دعيهما يدخلان ياصوفيا بافلوفنا .

بهتت المواطنة ذات الدفتر ؛ فقد برز في خضرة التعريشة القرصان ذو الصدرية البيضاء واللحية التي تشبه الاسفين .



كان يرنو الى الصعلوكين المريبين بودّ ، بل كان الى ذلك يوجه اليهما حركات من يدعوهما الى الجلوس . كانت سلطة ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش شيئاً محسوساً بشكل جدي في المطعم الذي يديره ، ولم يكن امام صوفيا بافلوفنا الاّ ان تسأل كوروفييف بانصياع :

– ما كنيتك ؟

– بانايف * ، – اجاب هذا بأدب .

سجّلت المواطنة هذه الكنية ، ورفعت الى بيغيموت نظرة متسائلة .

– سكابيتشيفسكي * ، – ازّ بيغيموت وهو يشير لأمر ما الى وابوره . وسجّلت صوفيا بافلوفنا هذه الكنية ايضاً ودفعت بالدفتر الى الزائرين كي يوقّعا فيه . كتب كوروفييف سكابيتشفسكي مقابل كنية بانايف في حين كتب بيغيموت بانايف مقابل كنية سكابيتشفسكي . ولدهشة صوفيا بافلوفنا الكاملة قاد ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش ضيفيه ، وهو يرسم ابتسامة فاترة ، الى افضل طاولة ، تلك التي في آخر الطرف المقابل من الشرفة حيث اشد الظلال كثافة وحيث كانت اشعة الشمس تتلألأ جذلى في احد شقوق التعريشة الخضراء . اما صوفيا بافلوفنا فقد ظلّت فترة طويلة تدرس التوقيعين الغريبين اللذين وضعهما الزائران المفاجئان في الدفتر وهي ترمش بعينيها من الدهشة .

وادهش ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش الندل لا اقلّ مما ادهش صوفيا بافلوفنا . فقد ازاح بنفسه الكرسي عن الطاولة داعياً كوروفييف للجلوس ، وغمز احدهما وهمس في اذن آخر ، فاذا بنادلين يسعيان بين ايدي الضيفين اللذين وضع احدهما وابوره على الأرض الى جانب حذائه المحمّر قليلاً . وعلى الفور اختفى من على الطاولة السماط القديم ببقعه الصفر وخفق في الهواء مخشخشاً بنشائه سماط آخر ابيض ، بينما كان

---

* بانايف (١٨١٢ – ١٨٦٢) كاتب وصحفي روسي . سكابيتشيفسكي (١٨٣٨ – ١٩١٠) ناقد وباحث ادب روسي . المترجم .

ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش يميل على اذن كوروفييف ويهمس له بصوت خفيض لكنه جدّ معبّر :

– ماذا اعرض عليكم ؟ عندي ظهور حفش مقددة متميزة . . . من مؤتمر المهندسين المعماريين حصلت عليها . . .

– اي . . . هات مزّة . . . اي ، – خار كوروفييف برضى وهو يستلقى على الكرسي .

– مفهوم ، – اجاب ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش بلهجة ذات معنى وهو يغمض عينيه .

واذ رأى النادلان كيف يعامل مدير المطعم الزائرين المريبين جداً تخلاّ عن كل شكوكهما وانكبا على عملهما في جدّ . احدهما قدّم كبريتاً لبيغيموت الذي اخرج من جيبه عقب سيجارة ودسه في فمه ، بينما اقبل الآخر كالسهم وهو يطنّ ببلورياته الخضر ويضع مع طقم المائدة اقداحاً وكؤوساً واكواباً رقيقة الحواف ما أحلى احتساء النارزان منها تحت الظلّة . . . لا ، بل نستبق الأحداث فنقول . . . ما كان أحلى احتساء النارزان منها تحت ظلّة شرفة غريبوييدوف التي لا تنسى .

– استطيع ان اقدم لكم فتيلة من دجاج الأحراج ، – همس ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش بصوت موسيقي . وحبّذ الضيف ذو النظارة الأنفية المتصدعة تحبيذاً كاملاً مقترحات قائد سفينة القرصان ، ورنا اليه في عطف من خلال زجاجها العديم النفع .

ولاحظ كاتب المقالات بيتراكوف-سوخوفي الذي كان يتناول غداءه على الطاولة المجاورة مع زوجته ، والذي كان على وشك الانتهاء من قطعة اسكالوب من لحم الخنزير ، بما يتصف به كل الكتاب من قوة ملاحظة ، اهتمام ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش ، واخذ منه العجب كل ماخذ . اما زوجته ، وهي سيدة محترمة ، فنقول انها ببساطة غارت على القرصان من كوروفييف حتى انها طرقت الطاولة بملعقتها . . . كانما تقول : لماذا يؤخروننا هكذا . . . حان وقت تقديم البوظة ! فما الأمر ؟

الا أن ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش وجّه اليها ابتسامة فاتنة وارسل اليها نادلاً ، لكنه لم يبرح مكانه بين ضيفيه العزيزين . آه ، ذكيّاً كان ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش ! وشديد الملاحظة



كان ، وربّما لم يكن اقلّ ملاحظة من الكتّاب انفسهم . لقد عرف ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش بقصة الحفلة في «فاريبيتيه» ، وعرف اشياء كثيرة مما جرى في هذين اليومين وسمع الكثير ، لكنه ، بخلاف الآخرين ، لم يغفل كلمة «ذو المربّعات» ولا كلمة «القط» بل احتفظ بهما في ذهنه . لقد حزر ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش على الفور من هما زائراه . وبما انه حزر فلم يشأ الدخول معهما في مشاحنات بطبيعة الحال . اما صوفيا بافلوفنا هذه فغبية ! كيف خطر لها أن تسدّ على هذين الاثنين طريقهما الى الشرفة ! على اي حال اني لها أن تفهم !

كانت بيتراكوفا ، وهي تغرز باستعلاء ملعقتها في البوظة القشدية التي اخذت تذوب ، تتطلع بعينين لاح فيهما السخط الى الطاولة التي امام الرجلين اللذين يلبسان لباس البهاليل وهي تعمر شيئاً فشيئاً بالمأكولات كانما بسحر ساحر . كانت اوراق السلطة المغسولة حتى درجة اللمعان تتدلى من اناء فيه كافيار طازج . . . وما هي الاّ لحظة اخرى حتى ظهر دلو فضي متعرّق على طاولة اخرى مستقلة دفعت اليهما خصيصاً . . .

ولم يسمح ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش بمغادرة الزائرين الغامضين الا بعد أن تأكد من ان كل شيء تم حسب الأصول ، والاّ بعد المقلاة المغطاة التي يغمغم شيء ما في داخلها تصل طائرة فوق ايدي الندل . لكنه لم يغادرهما مع هذا ، الاّ بعد ان همس لهما :

– العفو ! دقيقة واحدة ! سأشرف على القتائل بنفسي .

وهب عن الطاولة مسرعاً ، واختفى في الممشى الداخلي للمطعم . ولو استطاع مراقب تتبع اعمال ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش التالية لبدت له على شيء من الغموض دون شك .

لم يتوجّه «الرّيس» الى المطبخ للاشراف على القتائل بنفسه ، بل الى مستودع المطعم ، ففتحه بمفتاحه الخاص واغلق على نفسه الباب واخرج من صندوق جليد بحذر ، كي لا يلوّث كمه ، حفشين كبيرين ولفهما في ورقة جريدة وربطهما بعناية بخيط ووضعهما جانباً . ثم تأكد ان كان معطفه الخفيف ذو البطانة الحريرية وقبعته ما زالا في الغرفة المجاورة للمستودع ،

ومن ثم فقط مضى الى المطبخ حيث كان الطبّاخ منهمكاً في تجزيع الفتائل التي وعد بها القرصان ضيفيه .

وينبغي القول هنا انه لم يكن في تصرفات ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش كلها شيء غريب او ملغز ، ولم يكن ليعتبرها غريبة او ملغزة الاّ مراقب سطحي . فتصرفات ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش تنبع منطقياً من كل ما سبقها . فمعرفة ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش بالاحداث الأخيرة ، وخصوصاً احساسه الداخلي الفريد هما اللذان أوحيا الى مدير مطعم غريبويبدوف ان غداء زائريه ، وان كان فاخراً وسخياً ، الاّ انه لن يستمر طويلاً . وهذا الاحساس الذي لم يخدع القرصان السابق ابداً لم يخدعه هذه المرة ايضاً .

وفيما كان كوروفييف وبيغيموت يقرعان الكاس الثانية من الفودكا الموسكوفية الباردة الرائعة المكررّة مرتين ظهر على الشرفة الصحفي في قسم الأخبار بوبا كندالوبسكي المعروف في موسكو باطلاعه المدهش على كل ما يجري وهو يتفصد عرقاً وتبدو على وجهه علامات الاثارة وجلس الى بيتراكوف وزوجته . وضع بوبا حقيبته المنتفخة على الطاولة ، ودسّ على الفور شفتيه في أذن بيتراكوف وأسر له بأمور في غاية الاغراء . ولم تتمالك مدام بيتراكوفا نفسها عن الفضول ، فقرّبت هي الأخرى اذنها من شفتي بوبا المدهنتين المنفوختين ، بينما كان هذا يلتفت حوله بين الفينة والفينة وهو منهمك في همس لا يفتر ، وكان بالامكان سماع كلمات متفرقة من نوع :

– اقسم لكما بشرفي ! في سادوفايا ، في سادوفايا ، – وهنا خفض بوبا صوته اكثر من ذي قبل ، – الرصاص لا يؤثر ! الرصاص . . . الرصاص . . . بنزين ، حريق . . . رصاص . . .

– هؤلاء الكذّابون الذين ينشرون هذه الاشاعات الفظيعة ، – صفرت في سخط مدام بيتراكوفا بصوتها الخفيض أعلى مما يرغب بوبا ، – هؤلاء يجب كشف أمرهم ! لكن لا بأس ، هذا ما سيكون ، لا بدّ من ان يلزموهم حدهم ! يالها من اكاذيب ضارة !

– ايــة اكاذيب هذه ، يا انتونيدا بورفيريفنا ! – هتف بوبا مغموماً من عدم تصديق زوجة الكاتب له وعاد يصفر : –



اقول لكم الرصاص لا يؤثر . . . والآن هذا الحريق . . . وهم في الهواء . . . في الهواء ، – كان بوبا ينز دون أن يساوره أي شك في ان اللذين يتحدث عنهما يجلسان الآن قريباً منه مستمتعين بصفيره . وعلى أي حال ، سرعان ما انتهت هذه المتعة . فقد اندفع من الممر الداخلي للمطعم ثلاثة رجال في جزمات عالية شُدّت خصورهم بسيور ومسدساتهم في أيديهم وصاح الذي في مقدمتهم بصوت مجلجل ومخيف :

– لا تتحركوا ! – وللحال فتح ثلاثتهم النار على الشرفة مصوبين رصاصهم الى راسي كوروفييف وبيغيموت . وعلى الفور ذاب المستهدفان في الهواء ، وانقض من الوابور عمود من النار على المظلّة فكان شدقاً مفغوراً ذا حواف سود ظهر في المظلّة واخذ يزحف في كل الاتجاهات . وشبّت النار عبر المظلّة حتى بلغت سطح بيت غريبويبدوف واندلعت النار فجأة في أضابير الأوراق في نافذة غرفة هيئة التحرير الواقعة في الطابق الثاني ثم انتقلت الى الستائر ، وهنا زغردت النار كأنما شخص ما يزججها ، واندفعت أعمدة داخل بيت العمة .

وخلال ثوان كان يندفع على الممرات المفروشة بالاسفلت المؤدية الى السياج الحديدي على البولفار حيث وصل مساء الأربعاء ايفان أول نذر المصيبة والذى لم يفهمه اذّاك أحد ، الكتاب الذين لم يفرغوا من غدائهم والندل وصوفيا بافلوفنا وبوبا وبيتراكوف وزوجته .

وكان ارتشيبالد ارتشيبالدوفتش الذي خرج من الوقت المناسب من المدخل الجانبي في معطفه الخفيف ذي البطانة الحريرية يقف وهو يتابط جذعين من جذوع سمك الحفش . كان يقف هادئاً ثابت الجنان : لا يهرب ولا يسرع وكأنه قبطان من واجبه ان يكون آخر من يغادر سفينة تلتهمها النار .

## الفصل التاسع والعشرون

## . . وحسم مصير المعلم ومرغريتا

عنــد غروب الشمس وعلى سطح حجري عال يشرف على المدينة في واحدة من أجمل بنايات موسكو التي شيدت منذ نحو

قرن ونصف تقريباً كان اثنان : فولند وازازيلو . لم يكن فولند وازازيلو يريا من تحت ، من الشارع ، لأن درابزيناً عليه فسقيّات جصية وزهور جبسيّة كانت تحجبهما عن العيون الطفيلية ، لكن المدينة كانت ظاهرة لهما حتى تخومها تقريباً .

كان فولند يجلس على كرسي متنقل لا مسند له مرتدياً جبة سوداء وشيشاً طويلاً وعريضاً مغروزاً بين بلاطتين مفلوقتين من بلاط السطح على شكل عمودي بحيث تشكلت ساعة شمسية . كان ظل الشيش يتطاول ببطء وثبات زاحفاً على الخفين الأسودين في قدمي الشيطان . وكان فولند لا يني يرنو الى كتلة مترامية الاطراف من القصور والبنايات العملاقة والأكواخ الصغيرة التي قدر لها ان تكون مدمرة ، وهو منكمش على مقعده وواضع احد رجليه تحته وذقنه المدبب على قبضته . وكان ازازيلو الذي نزع ملابسه العصرية ، اي الجاكيت والقبعة القمعية والحذاء اللامع وارتدي السواد كفولند يقف دون حراك على مقربة من سيده . وكسيده لم يكن يرفع عينيه عن المدينة .

وقال فولند :

– يالها من مدينة طريفة ، اليس كذلك ؟

تحرّك ازازيلو واجاب باحترام :

– روما تعجبني اكثر ياسيدي .

– نعم ، انها مسألة ذوق ، – اجاب فولند .

وبعد قليل ارتفع صوته ثانية :

– ما سبب هذا الدخان هناك ، على البولفار ؟

– هذا بيت غريبوبييدوف يحترق .

– اغلب الظن ان هذا الثنائي الذي لا يفترق ، كوروفييف وبيغيموت ، كان هناك .

– لا يوجد اي شك في هذا ، ياسيدي .

وخيّم الصمت من جديد . وعاد اللذان على السطح ينظران الى الشمس كيف تتوهّج بأشعتها الباهرة المتكسرة في نوافذ الطوابق العليا لهذه الكتل الضخمة المطلّة على الغرب . وكانت عين فولند تتوقّد كواحدة من تلك النوافذ ، مع ان فولند كان يولي الشمس الغاربة ظهره .

لكن شيئاً ما جعل فولند يحوّل عينيه عن المدينة ، ويركز



اهتمامه على البرج الدائري الذي كان على السطح خلف ظهره . فقد خرج من جدار البرج رجل متجهم ، أسود اللحية ، ممزق الثياب ، ملوث بالطين يرتدي ثوباً يونانياً قديماً وينتعل صندلاً صنعه بنفسه .

– با ! – هتف فولند وهو يرسل الى الداخل نظرة سخرية ، – آخر ما يمكن توقعه هو وجودك هنا ! في اي شأن شرّفت ايها الضيف الذي لم ندعه لكننا كنا ننتظره ؟

– انا آت اليك ياروح الشر وسيد الأطياف ، – اجاب الداخل وهو ينظر شزراً الى فولند .

– اذا كنت قادماً اليّ فلماذا لم تلق التحية يا جامع العشر سابقاً ؟ – قال فولند بلهجة قاسية .

– لا اريد لك ان تكون في خير ، – اجاب الداخل بوقاحة .

– انما ينبغي عليك الرضى بهذا والتسليم به ، – قال فولند يرد عليه وقد لوى شفتيه في ابتسامة ساخرة ، – ماكدت تظهر على السطح حتى طالعتنا بقول سخيف ، وساقول لك ما وجه السخف فيه – انه في نبرات صوتك . نطقت كلماتك وكانك لا تعترف بالأطياف وكذلك بالشر . الا تتكرم وتفكر قليلاً في الموضوع : ما شأن الخير الذي تتحدث عنه اذا لم يوجد الشر ، وكيف كانت الأرض تبدو لو اختفت منها الأطياف ؟ الأطياف تصدر كما هو معلوم عن الأشياء والناس . هاهو ذا طيف شيشي . انما هناك اطياف للأشجار والكائنات الحية . الا يكون بودك ان تجرّد الكرة الأرضية مما عليها من شجر وكائن حيّ لمجرد وهم ركبك هو التمتع بمنظر العالم عارياً ؟ انت غبي .

– لا انوي الدخول في نقاش معك ، ايها السفسطائي العتيق ، – اجابه متى اللاوي .

– بل لا تستطيع مناقشتي للسبب الذي ذكرته لك : انت غبي ، – اجابه فولند وآردف يسأله : – اي ، قل لي باختصار دون ان ترهقني ، لماذا حضرت ؟

– لقد بعثني اليك .

– وما الذي امرك بابلاغي اياه ايها العبد ؟

– لست عبداً ، – اجاب متى اللاوي وهو يشتد غيظاً ، – بل انا تلميذه .

– اننا نتكلم لغتين مختلفتين كعهدنا دائماً ، – ردّ فولند ، – لكن الأشياء التي نتكلم فيها لا تتغيّر بسبب ذلك . هكذا . . .

– لقد قرأ كتاب المعلم ، – قال متى اللاوي ، – وهو يطلب اليك ان تأخذ المعلم معك وتمنحه الطمأنينة . فهل يصعب عليك هذا ، ياروح الشر ؟

– لا يصعب شيء عليّ ، وانت تعرف هذا جيداً ، – قال فولند وصمت قليلاً ثم اردف : – لكن لماذا لا تأخذانه اليكما ، الى النور ؟

– انه لم يستحق النور ، بل الراحة ، – قال اللاوي بصوت حزين .

– ابلغه اني فاعل ما طلب ، – اجاب فولند ثم اردف وقد ومضت عينه : – اليك عني فوراً .

– ويطلب اليك ان تأخذوا معكم ايضاً تلك التي احبته وتعذبت بسببه ، –قال اللاوي يناشد فولند بصوت رنّت فيه لأول مرّة نبرة توسّل .

– كأننا بحاجة اليك لندرك ذلك . غب عن وجهي .

واختفى متى اللاوي بعد هذا ، اما فولند فقد دعى اليه ازازيلو وأمره قائلاً :

– طر اليهما ورتّب كل شيء .

غادر ازازيلو السطح وبقي فولند وحيداً . لكن وحدته لم تدم طويلاً . فقد سمع على بلاط السطح وقع اقدام وأصوات مشارة ، ووقف كوروفييف وبيغيموت بين يدي فولند . لكن الوابور لم يكن الآن مع البدين ، بل كان هذا محمّلاً باشياء اخرى . وهكذا كان يتأبط لوحة صغيرة بمنظر طبيعي في اطار ذهبي ويحمل على يده لباساً من البسة الطباخين نصف محترق ، ويمسك بيده الأخرى سمكة سلمون كاملة ، بجلدها وذنبها . وكانت تنبعث من كوروفييف وبيغيموت رائحة حريق ، وكانت سحنة بيغيموت مغطاة بالسخام وكبيته نصف محترقة .

– سلام ياسيدنا ، – هتف الثنائي الذي لا يتعب ولا يكلّ ، ولوّح بيغيموت بالسلمون .

– يا لحلاوتكما ! – قال فولند .



– تصور ياسيدي ، – هتف بيغيموت بحماسة وفرح ، – اعتبروني نهّاباً !

– اذا حكمنا عليك من الأشياء التي تحملها فأنت النهّاب بعينه ، – قال فولند وهو يتطلع الى اللوحة .

– هل تصدق ياسيدي . . . – شرع بيغيموت يقول بصوت يفيض بالمودة لكن فولند قاطعه قائلاً باختصار :

– لا ، لا أصدق .

– اقسم ياسيدي اني قمت بمحاولات بطولية لانقاذ كل ما يمكن انقاذه ، لكن هذا كل ما افلحت فيه .

– الأفضل أن تخبرني عن سبب احتراق غريبوييدوف .

بسط كلاهما ، كوروفييف وبيغيموت ، يديهما في حيرة ، ورفعا عيونهما الى السماء ، في حين صاح بيغيموت :

– لست افهم ما حدث ! كنّا جالسين في دعة وبهدوء تام نمزّ . . .

– وفجأة تراخ ، – اكمل كوروفييف ، – صوت رصاص ! طار صوابنا . فاندفعت انا وبيغيموت راكضين الى البولفار فاذا ببعضهم يلحق بنا ويتعقبنا ، فاندفعنا الى تيميريازيف * !

وهنا تدخل بيغيموت وتابع قائلاً :

– لكن الشعور بالواجب تغلب على خوفنا المخزي فعدنا !

– آه ، عدتما ؟ – قال فولند ، – اذاك احترق البناء برمته .

– برمته ! – اكد كوروفييف في حزن ، – برمته تماماً ياسيدي كما تفضلت وعبرّت بدقة . لم يبق منه الاّ جمر .

وتابع بيغيموت :

– واندفعت الى قاعة الاجتماعات – ذات الأعمدة تلك ياسيدي – حاسباً اني سأتمكن من انتشال اشياء ثمينة . آه ياسيدي ، لو كانت لي زوجة لكادت تترمّل عشرين مرّة ! لكن لحسن الحظ لست متزوجاً ياسيدي . واقول لك بصراحة : اني

---

* المقصود هنا تمثال تيميريازيف عالم الطبيعيات الروسي . المترجم .

سعيد لاني لم أتزوج . آه ياسيدي هل يمكن استبدال حيـــاة العزوبة بنير ثقيل !

– بدا الهذر والكلام السخيف مرّة اخرى ! – لاحظ فولند .

– سامع ومتابع ، – اجاب القط . – اي نعم ، هاهي ذي اللوحة لم استطع اخراج غيرها من القاعة ، فقد سفعني اللهب في وجهي فعدوت الى المستودع وانقذت سمكة السلمون ، ثم الى المطبخ وانقذت الفوطة . واحسب ياسيدي اني فعلت كل ما كان بوسعي فعله ، ولست ادري كيف افسّر عبارة الشك والريبة المرتسمة على وجهك .

– وما الذي فعلـــه كوروفييف حين كنت تقوم بأعمـــال النهب ؟ – سأل فولند .

– كنت اساعد رجال الاطفاء ياسيدي ، – أجاب كوروفييف وهو يشير الى سرواله الممزق .

– آه ، اذا كان الأمر كذلك ، ينبغي بطبيعة الحال تشييد بناء جديد .

– سيشاد حتماً ، ياسيدي ، –ردّ كوروفييف ،– واجرؤ على تأكيد ذلك .

– حسناً ، بقي ان نتمنى ان يكون خيراً من سابقـه ، – لاحظ فولند .

– وهذا ما سيكون ، ياسيدي ، – قال كوروفييف .

واضاف القط :

– صدقني ، انا نبي حقيقي .

– على اي حـــال ، – قال كوروفييف بلهجـــة من يقدّم تقريراً ، – ها نحن اولاء قد حضرنا ، ونحن بانتظار تعليماتك .

نهض فولند عن كرسيـــه واتجه الى الدرابزين وظلّ فترة طويلة وحده يتطلـــع الى البعيد في صمت وقد أدار ظهره الى حاشيته . ثم انسحب من حافة السطح وتهالك على كرسيه مرّة اخرى .

– لا تعليمات جديدة . لقد فعلتما ما بوسعكما ، ولم تعد بي حاجة الى خدماتكمـــا . بوسعكمـــا اخذ قسط من الراحة . العاصفة ، العاصفة الأخيرة قادمة للتو وستنجز كل مـــا يجب انجازه ، ثم نستأنف طريقنا .



– تمام ، ياسيدي ، – اجاب المهرجان واختفيا في مكان ما خلف البرج المركزي الدائري القائم في وسط السطح .

واخذت العاصفة التي تكلم فولند عنها تتجمع في الأفق . ارتفعت سحابة سوداء في الغرب وقطعت الشمس من منتصفها ، ثم حجبتها بالكامل . شاعت البرودة على السطح ، وما هي الاّ فترة حتى ادلهمّ الظلام .

حجبت الظلمة القادمة من الغرب المدينة الضخمة . اختفت الجسور ، واختفت القصور . كل شيء اضمحلّ وكان لم يكن له ابداً من وجود . ومرق عبر السماء خيط ناري ، وهزّت المدينة ضربة . وتكررت الضربة ثانية وبدأت العاصفة . ولم يعد فولند يرى في ظلامها .

## الفصل الثلاثون

## آن الأوان ! آن الأوان !

قالت مرغريتا :

– هل تعرف ، قرأت ليلة البارحة حين غفوتَ عن الظلام الزاحف من البحر المتوسط . . . وهذه التماثيل . آه ، التماثيل الذهبية ، انها لسبب ما لا تدع لي دقيقة راحة . يبدو لي ان المطر سيسقط قريباً . الا تشعر ان الجو اخذ يميل الى الرطوبة ؟

– هذا كله جيد ولطيف ، – قال المعلّم وهو يدخّن ويبدّد اعمدة الدخان بيده ، – وهذه التماثيل ، لهـــا اللّه ! الشيء الوحيد الذي لا أستطيـــع فهمـــه على الاطلاق هو مـــا الذي سيحلّ بنا !

كان هذا الحديث يدور عند مغيب الشمس ، أي بالضبط حين ظهر متى اللاوي لفولند على السطـــح . كانت نافذة القبو الصغيرة مفتوحة ، ولو قدّر لأحد ان يلقي نظرة منهـــا لأخذته الدهشة من مدى غرابة مظهر المتحدثين . كانت مرغريتـــا قد القت بردة سوداء على جسدها العاري ، وكان المعلم في ثياب المستشفى . ذلك انه لم يكن لدى مرغريتا ما ترتديه بتاتاً ،

لأن كل اغراضها وملابسها بقيت في الدار . وعلى الرغم من ان دارها لم تكن تبعد كثيراً ، الا انه لم يكن اي مجال للكلام هنا بطبيعة الحال عن امكانية عودة مرغريتا الى بيتها واخذ ملابسها . اما المعلم الذي وجدت كل ملابسه في الخزانة وكأنه لم يغادر بيته ، فلم يرغب ، بكل بساطة ، في تبديل ملابسه ، بل ما انفك يعرض على مرغريتا تلك الفكرة التي اخذت عليه عقله عن قرب حدوث شيء ما في غاية السخف . والحق يقال انه حلق ذقنه لأول مرّة منذ تلك الليلة الخريفية (في المستشفى كانوا يقصون له شعر لحيته بآلة) .

وكانت الغرفة ايضاً ذات منظر غريب وكان من العسير جداً ان تفهم شيئاً في الفوضى الضاربة اطنابها فيها . كانت المخطوطات على السجّادة كما كانت على الديوان ، كما كان هناك كتيب ينيخ على الأريكة وقد علا سنامه . وعلى الطاولة المستديرة اعدّ غداء ، وبين الوان المزّة المتعددة انتصبت عدّة زجاجات . اما من اين حضرت كل هذه الماكولات وكل هذه المشروبات فلم يكونا كلاهما ، مرغريتا او المعلّم ، يعلمان من امرها شيئاً . صحوا فوجدا هذا كله على الطاولة .

شعر المعلم وصديقته ، وقد استغرقا في نومهما حتى غروب شمس السبت ، انهما قد استعادا قوتهما ونشاطهما تماماً . شيء واحد فقط كان يذكرهما بمغامرات البارحة : ألم خفيف في الصدغ الأيسر اما من الناحية النفسية فقد طرأت عليهما تغيرات كبيرة جداً ، كان بوسع اي كان التأكد منها فيما لو قدّر له التنصّت الى حديثهما في شقة القبو . ولكن من اين لك ان تجد من يتنصت ، فميزة الفناء انه كان خالياً على الدوام . وعند النافذة كانت أشجار الزيزفون والخلاف ، التي تزداد خضرة مع كل يوم ، تسكب رائحتها الربيعية الفواحة فيحملها النسيم الى القبو .

– ياللشيطان ! – هتف المعلم بغتة ، – شيء يُجنّن ، – واطفأ عقب سيكارته في المنفضة وعصر رأسه بين يديه ، – لا ، اسمعي ، انت انسانة ذكية ولم تُجنّ يوماً . هل انت واثقة جدّياً باننا كنا البارحة عند الشيطان ؟

– بكل جدية ، – اجابته مرغريتا .

– طبعاً ، طبعاً ، – قال المعلم بسخرية ، – صرنا اذن



مجنونين بدلاً من واحد ! الزوج والزوجة ! – ورفع يديه الى السماء وصاح : – لا ، الشيطان يعلم ما هذا ، الشيطان ، الشيطان ، الشيطان !

وبدلاً من ان تجيبه مرغريتا ، ارتمت على الديوان وراحت تقهقه وتلعّب رجليها الحافيتين ثم هتفت :

– آه ، شيء مضحك ! لو انك ترى ما تشبه !

وبعد أن شبعت مرغريتا قهقهة فيما كان المعلم يشد بخجل سرواله الداخلي المعطى له في المستشفى ، عادت مرغريتا الى جديتها واردفت تقول :

– الآن قلت الحقيقة دون قصد . الشيطان يعلم هذا ، والشيطان ، صدقني ، سيرتّب كل شيء ! – وهنا برقت عيناها فجاة ، وهبت واقفة واخذت تتراقص وتصيح : – كم انا سعيدة ، كم انا سعيدة ، كم انا سعيدة بالصفقة التي عقدتها معه ! ايه ، الشيطان ، الشيطان ! لا مفرّ لك من العيش مع ساحرة ، ياعزيزي . – ثم انقضت على المعلم وطوقت عنقه وراحت تقبله في شفتيه وانفه وخديه وخصلات شعرها الأسود غير المسوّى تتواثب على المعلم . وتوردّ خداه وجبينه تحت حرّ قبلاتها .

– اصبحت بالفعل تشبهين الساحرة .

– هذا لا انكره ، اني ساحرة واني لجدّ راضية !

– حسناً ، حسناً ، ساحرة ، كما تشائين . هذا شيء رائع وفخم ! لقد اختطفت من المستشفى اذن ؟ هذا ايضاً شيء لطيف جداً . واعدت الى هنا ، لنفرض هذا ايضاً . . . ولنفرض ايضاً انهم سيدعوننا وشاننا ، لكن قولي لي بحق كل ما هو مقدس ، كيف سنعيش ومن اين ؟ اني ، اذ اقول هذا ، انما افكر فيك ، صدقيني .

في هذه اللحظة بدا في النافذة حذاء مدبّب والقسم السفلي من بنطال مخطط . ثم انثنى هذا البنطال عند الركبة وحجبت ضوء النهار مؤخرة مكتنزة .

– الويزي ، هل انت في البيت ؟ – سأل صوت ما في مكان ما فوق البنطال وخلف النافذة .

– بدات ، – قال المعلم .

– الوبيزي ؟ – سألت مرغريتا وهي تدنو من النافذة ، – اعتقل البارحة . من يسأل عنه ؟ وما اسمك ؟

وفي نفس اللحظة اختفت الركبتان والمؤخرة ، وسمع باب الحديقة يصطك ، وعاد كل شيء الى سابق عهده . ارتمت مرغريتا على الديوان وراحت تقهقه بحيث طفرت الدموع من عينيهـــا . وعندما هدأ روعها كان وجهها قد تغيّر تغيراً شديداً فقالت بجدّ وهي تنزل عن الديوان وتدنو من ركبتي المعلم زحفاً وتحدّق في عينيه وتربت على راسه :

– كم تعذبت ، كم تعذبت ياعزيزي المسكين . ولا احد يعرف بعذابك سواي ! انظـر في راسك خيوط بيض وغضون دائمة عند الشفتين . ياعزيـزي ، ياحبيبي الوحيد لا تفكر في شيء . . . كان من قدرك ان تفكر كثيراً ، والآن سافكر انـا عنك ! واؤكد لك ، اؤكد لك ان كل شيء سيكون على خير ، خير ما يرام .

– وانا لست اخشى شيئاً ، يامارغو ، – اجابها المعلـــم فجاة ورفع راسه فبدا لها مثلما كان حين كان يكتب عما لـــم يره ابداً ، انما كان يعرف يقيناً بوجوده ، – لست خائفاً لانني خبرت كل شيء . خوّفوني اكثر مما يجب ، ولم يعد هناك ما يخوفونني به ، لكني اشفقُ عليك يامارغو ، هنا السر ، وهنا سبب الحاحي . ثوبي الى رشدك ، ما الداعي لأن تحطّمي حياتك مع انسان مريض وفقير ؟ عودي الى بيتك ! اني اشفق عليك ، ولهذا اقول لك ما اقول .

– آه منك ، آه منك ، – قالت مرغريتا في همس وهي تهزّ راسها الأشعث الشعر ، – آه منك ايها القليل الايمان والبائس . بسببك بقيت طول ليلة امس ارتجف عاريـــة ، فقدت طبيعتي واستبدلتها بأخرى جديدة ، قبعت عدّة أشهر في زنزانة مظلمة وانا لا افكر الا في شيء واحد – في العاصفة الرعديـــة فوق اورشليم ، دموع عيني جفّت من فرط البكاء ، والآن ، وقـد انهمرت علينا السعادة ، تطردني ؟ حسناً ، ساغادرك ، ساغادرك ، لكن اعلمْ انك انسان قاس . لقد خرّبوك من الداخل !

تدفقت موجة من الحنان المر الى قلب المعلم ، ولسبب ما اخذ يبكي وقد دفن وجهه في شعر مرغريتا ، فاخذت هذه تهمس



له ودموعها تجري على خديها ، واصابعهـــا تختلج على صدغي المعلم :

– نعم ، الخيوط ، الخيوط . . . امام عينيّ راسك يشتعل بالشيب ، آه راسك ، راسك الذي ذاق الكثير من العذاب . انظر الى عينيك ! انها كصحراء . . . وكتفاك كتفاك المثقلتان . . . لقد شوّهوك ، شوّهوك ، – بات كلام مرغريتـا هنا مفككاً . وكانت مرغريتا تنتفض من شدة البكاء .

اذاك مسح المعلم عينيه وانهض مرغريتا عن الأرض ونهض هو نفسه وقال بصوت حازم :

– كفى ! لقد اخجلتني . لن اسمح لنفسي ابداً ان يعتورها الضعف ثانية ، ولن اعود الى هذا الموضوع من جديد ، كوني مطمئنة . اعرف اننا نحن الاثنين ضحيتا مرضنا النفسي الذي قد اكون انـا الذي نقلت عدواه اليك . . . ولكن لا بأس ، سنتحمله معاً .

قرّبت مرغريتا شفتيها من اذن المعلم وهمست :

– اقسم لك بحياتك ، اقسم لك بابن المنجّم الذي تبينت سرّه ، ان كل شيء سيكون على ما يرام .

– حسناً ، حسناً ، – ردّ المعلم ، ثم ابتسم واردف : – بالطبع عندما يُسلّب الناس وينهبون تماماً ، كما هو حالنا ، فانهم يبحثون عن الخلاص لدى قوّة غيبية ! لا بأس ، انا مستعد للبحث عنه هناك .

– ارايت ، ارايت ، عدت كالسابق ، صرت تضحك ، – اجابت مرغريتا ، – ليأخذك الشيطان انت وكلماتك العلمية . غيبي او غير غيبي اليس الأمر سواء ؟ لقد جعتُ .

وسحبت المعلم من يده الى الطاولة .

– لست واثقاً من ان هذا الطعام لن يغور في الأرض الآن او لن يطير من النافذة ، – قال المعلـــم وقد عاوده هدوءه كاملاً .

– لن يطير !

وفي هذه اللحظة بالذات سمع في النافذة صوت أخن يقول :

– السلام عليكم .

ارتعد المعلم ، اما مرغريتا التي اعتادت الأشياء الخارقة ، فقد هتفت :

– انه ازازيلـــو ! آه ، ما احسن هذا ومـــا الطفه ! – وهمست للمعلم : – ارايت ، ارايت ، انهم لا يتخلون عنّا ! – واندفعت تفتح الباب .

– لو تدثرت بشيء على الأقل ، – صاح المعلم فى اثرها .

– لا اهمية لذلك ، – جاءه جوابها من الممر .

وما هي لحظة حتى كان ازازيلو ينحني ويسلّم على المعلم ويقدح عينه العوراء ، بينما كانت مرغريتا تهتف :

– آه ، ما اسعدني ! لم اكن سعيدة في حياتي كلها كهذه اللحظة . اعذرني ياازازيلو لأني عارية .

رجاها ازازيلو الا تقلق مؤكداً انه لـــم ير نساء عاريات وحسب ، بل حتى نساء سلخ جلدهن تماماً ، وجلس الى الطاولة في اقبال بعد ان وضع في الركن الذي عند المدفأة صرّة ملفوفة بديباج قاتم اللون .

سكبت مرغريتا لأزازيلو كونياكـــاً فشربه باقبال . وكان المعلم في هذه الأثناء يقرص بين الفينة والفينة رسغ يده اليسرى تحت الطاولة دون ان يرفـــع عينيـه عن ازازيلو . لكن هذه القرصات لم تنفعه في شيء ، فلـــم يذُبْ ازازيلو في الهواء . والحق يقال انه لم تكن الى هذا اي ضرورة او حاجة ، اذ لـم يكن في هذا الرجل القصير القامة المائل الى الصهبة اي شيء مخيف اللهم الا عينه ذات الغشاوة ، لكن هذا يحدث حتى دون اي وجود للسحر ، والاّ ثوبـه غير المألوف بعض الشيء الذي لا تدري اهو بردة او جلباب ، لكن حتى هذا يُصادف كثيراً اذا تمعنّا في الأمر جيداً . والكونياك كان يشربه بخفّة ، ككل الناس الطيبين ، اقداحاً كاملة دون ان يمزّ . ومن هذا الكونياك نفسه دارت راس المعلم واخذ يفكر :

«لا ، مرغريتا على حق ! امامي الآن رسول الشيطان طبعاً ! انا نفسي قبل فترة لا تتعدّى ليلة ما قبل البارحة كنت ابرهن لايفان انه انما التقى في بتريرشيي الشيطان بالذات ، والآن لا ادري لماذا ذعرت من هذه الفكرة ، واخذت اثرثر عن المنوّمين



المغناطيسيين وعن الهلوسات ، ولكن اي منوّمين هؤلاء بحق الشيطان !» .

واخذ يمعن النظر في ازازيلو فتاكد ان شيئاً ما مكرهـــاً عليه ، ان فكرة ما تلوح في عينه ، وانه يتريث في الافضاء بها . «لم يات لمجرّد الزيارة ، بل حضر في مهمة ما» – قال المعلم في سره .

ولم تخنه قوّة ملاحظته .

وقال ازازيلو بعد ان شرب الكاس الثالثة التي لـم تؤثر فيه اي تاثير :

– ياله من قبو مريح ، لياخذني الشيطان ! انما هناك سؤال واحد ينغّص مضجعي ، ما الذي يمكن ان يفعلـــه المرء في هذا القبو ؟

– هذا ما كنت اقوله ، – اجاب المعلم ضاحكاً .

– لماذا تقلق راحتي يا ازازيلو – سالت مرغريتا ، – بشكل من الاشكال ؟

– ماذا تقولين ، ماذا تقولين ، – هتف ازازيلو ، – لـم تخطر حتى ببالي فكرة ازعاجك . وانا ايضاً اقول ، بشكل من الاشكال . كدت انسى ، سيدي يقريكمـا السلام ، كما امرني بابلاغكما دعوته للقيام معه بنزهة صغيرة ، هذا اذا كنتمـــا توافقان طبعاً . فما رايكما ؟

لكزت مرغريتا المعلم برجلها تحت الطاولة .

– بكـــل سرور ، – اجاب المعلـم وهو لا يزال يتفحّص ازازيلو ، بينما تابع هذا كلامه :

– ونأمل الا ترفض مرغريتا نيقولايفنا ايضاً دعوتنا ؟

– لن ارفض بالطبع ، – قالت مرغريتا وراحت رجلها تمرّ على رجل المعلم مرّة اخرى .

– شيء مدهش ! – هتف ازازيلـو ، – هذا مـا احبّ ! واحد ، اثنين وكل شيء جاهز ! لا كما حدث تلك المرة في حديقة الكسندروفسكي !

– آه ، لا تذكرني يا ازازيلو ! كنت غبية اذّاك . وعلى اي حال لا يجوز ان تبالغ في لومي . فليس يلتقي الانسان كل يوم بروح شريرة !

– بالتاكيد ، – قال ازازيلو مثنياً ، – ولو حدث مثل هذا كل يوم لكان شيئاً لطيفاً .

– انا نفسي تعجبني السرعة ، – قالت مرغريتا في اندفاع ، – تعجبني السرعة والعري . كما من الماوزر – واحٌ ! آه ، ما امهره في الرمي ، – صاحت مرغريتا مخاطبة المعلم ، – ورقة السبعة تحت المخدّة والنقطة التي تشاء . . . – كانت الخمر قد اخذت تدور في راس مرغريتا مما جعل عينيها تتوقدان .

– ونسيت ايضاً ، – صاح ازازيلو وهو يلطم جبينه ، – لقد نال مني التعب تماماً . فسيدي بعث اليك بهدية ، – هنا كان ازازيلو يوجه كلامه الى المعلم بالذات ، – زجاجة نبيذ . وارجو ان تلاحظ انه نفس النبيذ الذي كان حاكم اليهودية يشربه . نبيذ فالرنو .

من نافل القول ان هذا الشيء النادر اثار اهتمام كل من مرغريتا والمعلم . واخرج ازازيلو من قطعة الديباج التابوتي دورقاً غطّاه العفن تماماً . شموا النبيذ وسكبوه في كؤوس واخذوا يرنون من خلاله الى الضوء يختفي في النافذة قبيل العاصفة . وراوا كيف كان كل شيء يتخضب بلون الدم .

– في صحة فولند ! – هتفت مرغريتا وهي ترفع كاسها .

ادنى ثلاثتهم شفاههم من كؤوسهم وجرعوا جرعة كبيرة . وللحال اخذ ضوء ما قبل العاصفة ينطفيء في عيني المعلم واحتبست انفاسه واحس ان نهايته قد حانت . ورأى ايضاً مرغريتا التي علت وجهها صفرة الموت تلقي راسها على الطاولة وهي تمدّ اليه يديها في وهن . وسقطت مرغريتا على الارض .

– ايها القاتل ، – صاح المعلّم بما بقي فيه من قوّة ، واراد استلال السكين من على الطاولة كي يطعن بها ازازيلو ، لكن يده سقطت عاجزة عن السماط واكتسى كل ما يحيط بالمعلم في القبو باللون الأسود ثم اختفى تماماً . سقط المعلم على ظهره . وشجّ وهو يسقط جلد رسغه على ركن المكتب .

عندما سكن المسمومان ، بدأ ازازيلو عمله . وكان اول ما فعله ان انطلق من النافذة ، وفي لحظات كان في الدار التي كانت مرغريتا نيقولايفنا تقطنها . اراد ازازيلو الدقيق والمنظّم دائماً التاكد من ان كل شيء نُفّذ كما يجب ، وقد كان كل شيء



كما ينبغي . رأى ازازيلو امراة متجهمة الوجه تنتظر عودة زوجها تخرج من مخدعها ، ثم يشحب لونها بغتة وتضع يدها على قلبها وتصيح بصوت عاجز :

– ناتاشا ! شخص ما . . . اليّ ! – وسقطت على الأرض في غرفة الاستقبال دون ان تبلغ المكتب .

– كل شيّ على ما يرام ، – قال ازازيلو ، وفي لحظة طار الى جانب العاشقين الصريعين . كانت مرغريتا منطرحة على الأرض ووجهها مدفون في السجادة . قلبها ازازيلو بيديه الحديديتين كانها دمية وادار اليه وجهها وحدّق فيه . وعلى مرأى منه اخذ وجه القتيلة المسمومة يتغير . كان بالامكان حتى في الظلام الهابط مع اقتراب العاصفة رؤية حَوَلها السحري المؤقت وقساوة ملامحها وعنفها تختفي . واشرق وجه الميتة ورقّ اخيراً ، ولم تعد تكشيرتها تكشيرة وحش ضار ، بل تكشيرة تفيض بالأنوثة والعذاب . اذّاك باعد ازازيلو اسنانها البيض المطبقة ، وسكب في فمها بضع قطرات من نفس النبيذ الذي سممها به . تنهدت مرغريتا وشرعت تنهض دون مساعدة ازازيلو واستوت في مقعدها وسألت بصوت واهن :

– لماذا يا ازازيلو ، لماذا ؟ ما الذي فعلته بي؟

ورات المعلم الراقد فارتعدت وهمست :

– لم اكن اتوقع هذا . . . يا للقاتل !

– لا ، قلتُ لكِ لا ، – اجاب ازازيلو ، – سينهض الآن . آه لماذا انت متوترة الأعصاب هكذا !

وصدقته فوراً لشدة ما كان صوت الشيطان الأصهب مقنعاً . وثبت مرغريتا قوية حية وساعدت في اسقاء الراقد الخمر . فتح هذا عينيه ، والقى نظرة متجهمة وكرّر في حقد كلمته الأخيرة :

– القاتل . . .

– آه ! الاهانة هي المكافاة المالوفة على العمل الجيد ، – اجاب ازازيلو ، – احقاً انك اعمى ؟ ابصر اذن بسرعة .

وهنا هب المعلم واقفاً ، وتطلع حوله بعينين حيتين مشرقتين وسأل :

– ما معنى هذا الشيء الجديد ؟

– معناه ان حان الأوان . اخذت العاصفة ترعد ، الا تسمع؟

الظلام يطبق والخيـــول تفحص الأرض بحوافرها ، والحديقـــة الصغيرة تهتز . ودعّ القبو ، ودّعه بسرعة .

– آه ، فهمت ، – قال المعلم وهو يتلفت حوله ، – لقد قتلتنا ، نحن الآن أموات . آه ، ما أذكى ما فعلت وكم جاء في وقته ! الآن فهمتُ كل شيء .

– آه ، عفوك ، – أجابـــه ازازيلو ، –أانت الذي تقول هذا ؟ صديقتك تدعوك المعلم ، وانت تفكر ، فكيف يمكن أن تكون ميتاً ؟ أيجب حقاً كي تعتبر نفسك انساناً حياً أن تجلس في هذا القبو وتلبس قميص وسروال المرضى ؟ هذا مضحك !

– فهمتُ كل ما قلتَه ، – صاح المعلم ، – لا تكمل ! انت محق ألف مرّة .

واخذت مرغريتا تردّد :

– فولند العظيـــم ! فولند العظيم ! لقد تفتّق ذهنه عن أفضل مما تفتق عنه ذهني . انما الرواية ، الرواية ، – راحت تصرخ للمعلم ، – خذ الرواية معك اني طرت .

– لا داعي لذلك ، – أجابها المعلم ، – فأنا احفظها عن ظهر قلب .

– لكن الن تنسى كلمة . . . كلمة واحدة منها ؟ – سألت مرغريتا وهي تلتصق بصدر عشيقها وتمسح الدم عن صدغه .

– لا عليك ، فمنذ الآن لن انسى اي شيء ابداً ، – اجاب المعلم .

– النار اذن ! – صاح ازازيلو – النار ، منهـــا بدأ كل شيء وبها ننهي كل شيء .

– النار ! – صرخت مرغريتـــا بصوت رهيب . اصطكت النافذة وقذفت الريح الستائر جانباً . ودوّت في السماء قصفة رعد ممراحة قصيرة . دس ازازيلو يده ذات المخالب في الموقد وسحب جمرة مدخّنة واضرم بها النار في السماط على الطاولة . ثم اضرم النار في رزمة صحف قديمة على الديوان ثم المخطوط فستارة النافذة . أما المعلم ، الذي اخذته نشوة الانطلاق المقبل على ظهور الخيل ، فقد قذف بكتاب من الرف على الطاولة ونتف أوراقه والقى بهـــا في السماط المحترق . وزغردت النـــار في الكتاب .



– احترقي ، احترقي ايتها الحياة السابقة !

– احترق أيها العذاب ! – صاحت مرغريتا .

اخذت الغرفة تترنح بين الأعمدة الأرجوانية ، وهرع ثلاثة يركضون مع الدخان من خلال الأبواب ويصعدون الدرج الحجري حتى صاروا في الفناء . وكان اول ما رأوه طبّاخة صاحب البيت تقعي على الأرض وقد تناثرت حولها رؤوس البطاطـــا وبضع حزيمات من البصل . كانت حالة الطباخة مفهومة . فقرب العنبر كانت ثلاثة أحصنة دهم تحمحـــم وتنتفض وتفجّر الأرض تحت اقدامها . وكانت مرغريتا اول من امتطى حصاناً فتبعها ازازيلو ثم المعلم . اطلقت الطباخة أنيناً وارادت رفع يدها لرسم اشارة الصليب ، لكن ازازيلو صاح من فوق السرج متوعداً :

– اقطعْ يدك ! – وصفر فشبت الجياد وانغرزت في سحابة سوداء واطئة محطمة اغصان الزيزفون . وللحال اندفع من نافذة القبو دخان ، وتناهى من اسفل صراخ ضعيف ، بائس للطباخة :

– حريق ! . .

كانت الجياد تمرق الآن فوق سطوح موسكو .

– اريد القاء نظرة وداع على موسكو ، – صاح المعلم مخاطباً ازازيلو الذي كان يعدو في المقدمـــة . واكل الرعد بقية جملة المعلم . اومأ ازازيلو برأسه واطلق جواده خبباً . كانت تندفع باتجاه الطائرين سحابة لما تتفجر بالمطر .

كانوا يحلقون فوق بولفار بدأت تتساقط عليه أولى قطرات المطر فراوا اشكال الناس الصغيرة تتراكض هنا وهناك محتمية من المطر . وحلقوا فوق دخان هو كل ما تبقى من غريبويبدوف . وحلقوا فوق المدينة التي غمرها الظلام . كانت البروق تلمع فوقهم . ثم اعقب البيوت بساط كبير من الخضرة . اذّاك انهمر المطر وحوّل الطائرين الى ثلاث فقاعات ضخمة في الماء .

كانت مرغريتا قد خبرت الاحساس بالتحليق اما المعلـــم فلا ، ولهذا اخذته الدهشة من سرعة بلوغهم الهدف ، بلوغهم من اراد ان يودعه ، لأنه لم يكن عنده من يودّعه سواه . وتعرّف من فوره في زبد المطر على بناء مستشفى سترافنسكي وعلى النهر وعلى الحرش القائم على الضفة الأخرى الذي درسه جيداً . وهبطوا فوق مرج في دغل غير بعيد من المستشفى .

– سأنتظركما هنا ، – صاح أزازيلو وهو يعقد يديه على شكل بوق ، تجلوه البروق تارة ويغيب في الغشاوة الرمادية تارة اخرى ، – ودّعاه ، انما بسرعة !

وثب المعلم ومرغريتا عن سرجي جواديهما وانطلقا يلوحان تارة ويختفيان تارة ، كأنهما شبحان مائيان ، عبر حديقة المستشفى . وما هي الاّ لحظة اخرى حتى كان المعلم يزيح بيد معتادة شبك الشرفة في الغرفة رقم ١١٧ . تبعته مرغريتا ومضيا كلاهما الى ايفان دون أن يراهما أو ينتبه اليهما أحد في زمزمة الرعد وعوائه . وتوقف المعلم عند السرير .

كان ايفان متمدداً دون حراك كعهده آنذاك ، حين راقب العاصفة في بيت استجمامه لاول مرة . لكنه لم يكن يبكي كما في تلك المرّة . ولما حدّق ملياً في الطيف الأسود المتسلل اليه من الشرفة ، نهض قليلاً ومدّ يديه وقال بفرح :

– آ ، هذا أنت . انتظرتك بفارغ صبر . وهاذا انت ياجاري .

وأجابه المعلم :

– انا هنا ! لكني لا استطيع ان اكون جارك بعد الآن مع الأسف . سأطير بعيداً عنك والى الأبد . ولم آت اليك الا لأقول لك وداعاً .

– كنت اعرف هذا ، لقد خمنته ، – اجاب ايفان بصوت خافت وسأل : – هل التقيت به ؟

– نعم ، – قال المعلم ، – وقد اتيت اودعك لأنك كنت الانسان الوحيد الذي كلمته في الفترة الأخيرة .

اشرق وجه ايفان وقال :

– حسن انك اتيت الى هنا . سافي بوعدي . لن اكتب شعراً بعد اليوم ، شيء آخر يشغلني الآن ، – وهنا ابتسم ايفان ورنا بعينيه المجنونتين الى مكان ما بمحاذاة المعلم ، – اريد كتابة شيء آخر . لقد فهمت اشياء كثيرة خلال اقامتي هنا .

اضطرب المعلم لهذه الكلمات فقال وهو يجلس على حافة السرير الى جانب ايفان :

– هذا جيد ، هذا جيد . ستكتب تتمةً عنه !



28—1951

توقدت عينا ايفان .

– الن تفعل ذلك بنفسك ؟ – وهنا اطرق ايفان واردف في شرود : – آه . . . ما لي اسالك ، – وتحوّل ببصره الى الأرض في نظرة شزر وحدّق في ذعر .

– نعم ، – قال المعلم فبدا صوته لايفان غريباً ومكتوماً ، – لن اكتب عنه بعد الآن ، فانا مشغول باشياء اخرى .

وقطع جلبة العاصفة صفير بعيد .

– أتسمع ؟ – سأل المعلم .

– انه صوت العاصفة . . .

– لا ، انهم يدعونني ، آن الأوان ، – قال المعلم موضحاً ونهض عن السرير .

– تمهّل ! كلمة اخيرة ، – قال ايفان يرجوه ، – هل وجدتها ؟ هل ظلّت على اخلاصها ؟

– هاهي ذي ، – اجاب المعلّم واشار الى الجدار . وانسلخت مرغريتا الغارقة في السواد عن الجدار الأبيض ودنت من السرير واخذت تنظر الى الشاب الراقد في سريره والحزن يشيع في عينيها .

– مسكين ، مسكين ، – همست مرغريتا في صوت غير مسموع وانحنت فوق السرير .

– ما اجملها ، – تمتم ايفان دون حسد ، انما بحزن وبشيء من الانبهار الهادئ ، – انتهى كل شيء على خير عندك ، اما انا فلا ، – وفكّر قليلاً ثم اردف في شرود : – ومن يدري ، لعلّه كان خيراً لي . . .

– خير ، خير ، – همست مرغريتا وازدادت انحناء فوق الراقد على السرير ، – ساقبل جبينك ، وسيكون كل شيء عندك على خير . . . صدقني ، لقد رأيتُ كل شيء وعرفتُ كل شيء .

طوّق الشاب الراقد عنقها بيديه وقبلته .

– الوداع ، ايها التلميذ ، – قال المعلم بصوت لا يكاد يسمع واخذ يذوب في الهواء . ثم اختفى واختفت معه مرغريتا وانغلق شبك الشرفة .

ألمت بايفان حالة من الاضطراب . جلس على سريره وتلفت حوله في جزع ، بل أطلق أنيناً واخذ يكلم نفسه ثم نهض . كانت العاصفة تزداد صخباً ، وهي ، فيما يبدو ، التي بثت في نفسه القلق . والذي زاد من اضطرابه ايضاً انه التقط بسمعه الذي الف الهدوء المتواصل وقع خطوات مضطربة واصواتاً مكتومة خلف الباب ، فنادى ، وقد انتابه توتر ورعدة :

– براسكوفيا فيودوروفنا !

كانت براسكوفيا فيودوروفنا تلج الغرفة وهي تتطلع الى ايفان في تساؤل وقلق .

– ماذا ؟ ماذا ؟ العاصفة تثيرك ؟ بسيطة ، بسيطة . . . سنساعدك . سأدعو الدكتور فوراً .

– لا ، يابراسكوفيا فيودوروفنا ، لا داعي لاستدعاء الدكتور ، – قال ايفان في جزع وهو لا يتطلع الى براسكوفيا فيودوروفنا ، بل يحدّق في الجدار ، – لم يحدث لي شيء غير عادي . الآن اخذت افهم ، لا تخافي . – ثم طلب اليها بود قائلاً : – الأفضل ان تقولي لي ما الذي حدث الآن هناك ، في الغرفة ١١٨ ؟

– في الـ١١٨ ؟ – كررت براسكوفيا فيودوروفنا السؤال وزاغت عيناها ، – لم يحدث هناك شيء . – لكن ايفان لاحظ على الفور رنّة الزيف في صوتها ، وقال :

– اي ، يابراسكوفيا فيودوروفنا ! انت انسانة جدّ مستقيمة . . . تحسبين اني سآخذ في الهياج ! لا ، يابراسكوفيا فيودوروفنا ، لن يحدث هذا . الأفضل ان تقولي لي بصراحة ، فانا اشعر بكل شيء يحدث خلف الجدار .

– مات جارك الآن ، – همست براسكوفيا فيودوروفنا وقد عجزت عن مغالبة استقامتها وطيبتها ، والقت نظرة مذعورة على ايفان وقد تسربلت كلها بنور البرق . لكن شيئاً ما مقلقاً لم يحدث لايفان ، اذ اكتفى هذا برفع اصبعه في حركة ذات معنى وقال :

– هذا ما توقعته ! واؤكد لك يابراسكوفيا فيودوروفنا انه توفي الآن في المدينة انسان آخر . واني لأعرف هذا الانسان ، – وهنا ابتسم ايفان ابتسامة غامضة ، – انه امرأة .



## الفصل الحادي والثلاثون

## على تلال فوروبيوف

تلاشت العاصفة وكأنها لم تكن ، وامتد فوق موسكو من اقصاها الى اقصاها قوس قزح متعدد الألوان على شكل قنطرة ، واخذ يشرب من نهر الموسكوفا . وتراءت في الاعالي فوق التلة ثلاثة اشباح سود بين دغلين . كان فولند وكوروفييف وبيغيموت يمتطون جياداً دهماً مسرجة وهم يرنون الى المدينة الممتدة وراء النهر بشمسها المنكسرة المتلالئة في آلاف النوافذ الموجهة الى الغرب ، الى ابراج دير ديفيتشي الكعكية الشكل .

وصرّ الهواء ، وحط ازازيلو مع المعلم ومرغريتا اللذين كانا يطيران عند ذيل بردته الأسود على الأرض ، قرب مجموعة المنتظرين .

وتكلم فولند بعد فترة من الصمت ، قال :

– كان لا بدّ من ازعاجكما ، يا مرغريتا نيقولايفنا ويا ايها المعلم ، لكنكما لن تنقما علي ، فلست اظن انكما ستندمان على ما فعلت . والآن هيّا بنا ، – قال فولند موجهاً كلامه الى المعلم وحده ، – ودّع المدينة . آن الأوان ، – واشار بيده المدفونة في قفّاز أسود ذي طرف متسع الى حيث كانت الشموس التي لا تعدّ ولا تحصى تصهر الزجاج وراء النهر ، وحيث كان الضباب والدخان والبخار المتصاعد من المدينة المحمّاة طوال النهار تنيخ على هذه الشموس .

قفز المعلم عن السرج مبتعداً عن الجالسين وعدا الى جرف التلة والبردة السوداء تنسحب على الأرض وراءه . واخذ يرنو الى المدينة . تسلل الى قلبه في اللحظات الأولى حزن وجيع ، اعقبه بسرعة كبيرة قلق لذيذ كاضطراب غجري متنقل .

– الى الأبد ! يجب أن أعقل هذا ! – همسّ المعلم ولحس شفتيه الجافتين المتشققتين . واخذ ينصت ويتبين ما يجري في نفسه بدقة . تحوّل قلقه الى شعور عميق ، صميمي بالضيم ، كما بدا له . لكن هذا الشعور لم يكن راسخاً ، اذ اختفى وحلّت محله ، لسبب ما ، لامبالاة زهو التي هي الاحساس المسبق بالطمأنينة الدائمة .

كانت كوكبة الفرسان تنتظر المعلم في صمت . رأت مجموعة الفرسان كيف كان طيف المعلم الأسود الطويل على حافة الجرف يؤشر ، فتارة يرفع رأسه كأنما يحاول القاء نظرة يحتضن بها المدينة كلها حتى تخومها ، وتارة ينكس رأسه كأنه يتفحص العشب الذابل الذي داسته الأقدام .

قطع بيغيموت الذي اخذ الضجر منه كل مأخذ الصمت وقال :

– اسمح لي ياسيدي ان اصفر قبل العدو مودعاً .

– من الممكن ان تخيف السيدة ، – اجابه فولند ، – ثم لا تنس ان كل اعمالك القبيحة اليوم انتهت .

– آه ، لا ، لا ياسيدي ، – ردت مرغريتا التي كانت تجلس في السرج كالفارسة وهي تضع يدها على خاصرتها وتدلي ذيل ثوبها حتى الأرض ، – اسمح له أن يصفر ، فقد تملكني الحزن قبل الانطلاق في هذا السفر البعيد . أليس صحيحاً ياسيدي ان هذا الحزن طبيعي تماماً ، حتى ولو كان الانسان يعرف أن السعادة تنتظره في نهاية هذا الطريق ؟ فليضحكنا والاّ أخاف ان ينتهي الأمر بالدموع فيفسد كل شيء قبل الرحيل !

أوما فولند لبيغيموت ، فدبّ فيه نشاط وحيوية كبيران ، وقفز عن السرج على الأرض ووضع أصابعه في فمه ، ونفخ وجنتيه وصفر . تردّد رنين شديد في أذني مرغريتا وشب جوادها على قائمتيه ، وتساقطت الأغصان اليابسة من الأشجار ، واجفل سرب كامل من الغربان والعصافير وامتد عمود من الغبار الى النهر ، وشوهدت بضع كبيّات تتطاير من على رؤوس ركاب مركب نهري يمرّ بمرسى . ارتعد المعلم من صوت الصفير لكنه لم يلتفت ، بل أخذ يؤشر باضطراب أكبر رافعاً يده الى السماء كأنه يتوعد المدينة . وتطلّع بيغيموت الى من حوله في خيلاء .

– هذا صفير ، لا أماري في ذلك ، – لاحظ كوروفييف في تسامح ، – انه صفير فعلاً ، لكن اذا اردنا الحقيقة دون تحيّز ، فهو صفير متوسط جداً !

– لكني لست مرتلاً ، – اجاب بيغيموت بوقار وهو يتأفف ثم غمز لمرغريتا بغتة .



– آه ، دعوني أحاول بعضاً مما حفظت ذاكرتي ، – قال كوروفييف وفرك يديه ونفخ على أصابعه .

– لكن ايّاك ، ايّاك ، – علا صوت فولند الصارم من فوق جواده ، – ايّاك والاعيب المضرّة !

– صدقني ياسيدي ، – ردّ كوروفييف ووضع يده على قلبه ، – لمجرّد المزاح ، لمجرّد المزاح فقط . . .

وهنا تمطى واستطال كأنه من مطاط ، وصنع من أصابع يده اليمنى شكلاً معقداً وفتل كأنه لولب ثم انحلّ بغتة وصفر .

لم تسمع مرغريتا هذا الصفير ، بل رأته لحظة انقذفت هي وحصانها الجامح نحو عشرات الامتار جانباً ، وانقلعت سنديانة من جذرها ، وتصدعت الأرض حتى النهر حولها ، ونزلت طبقة هائلة من الضفة مع المرسى والمطعم في النهر . فار الماء في النهر واصطخب ، وانقذف المركب النهري كله بركابه الذين لم يلحق بهم سوء الى الضفة المقابلة الخضراء الواطئة . وانقلب عند قوائم جواد مرغريتا المحمحم زاغ صرعه صفير فاغوت . واجفل هذا الصفير المعلم فامسك رأسه بيديه وهرع عائداً الى مرافقيه الذين كانوا بانتظاره .

قال فولند يخاطب المعلم من فوق جواده :

– هل سويت كل حساباتك اذن ؟ هل انتهى الوداع ؟

– نعم ، انتهى ، – اجاب المعلم وحدّق في وجه فولند بصراحة وجرأة وقد عاد اليه هدؤوه .

اذّاك دوّى فوق التلال صوت فولند المخيف كأنه صوت البوق :

– آن الأوان ! !

ودوّى معه صفير بيغيموت وقهقهته .

اندفعت الجياد وارتفع الفرسان في الاعالي وانطلقوا خببا . وشعرت مرغريتا ان حصانها الجامح يعض الشكيمة ويشدها . فيما رفعت الريح بردة فولاند ونشرتها فوق رؤوس الفرسان ثم اخذت تحجب السماء عند الغسق . وحين انزاح الحجاب الاسود جانباً للحظة التفتت مرغريتا وهي تواصل سيرها ، ورأت ان البروج المتعددة الالوان والطائرة المحلقة فوقها قد اختفت ، كما

اختفت منذ فترة بعيدة المدينة نفسها التي غارت في الارض ولم يبق منها الا الضباب .

## الفصل الثاني والثلاثون

## الغفران والماوى الأبدي

ايتها الآلهة ، ايتهـــا الآلهة ! ما اشد كآبة الأرض عنـد المساء ! وما أحفل الضباب فـــوق المستنقعات بالأسرار ! الذي تاه في هذا الضباب ، والذي تالم كثيراً قبل الموت ، والذي طار فوق هذه الأرض حاملاً على كتفيه عبئاً يفوق طاقته – ذاك يعرف هذا . كما يعرفه المتعـــــب ، فتراه يفارق دون أسف ضباب الأرض ومستنقعاتها وأنهرها ، ويسلم نفسه بقلب راض الى يدي الموت مدركاً انه وحده الذي يريحه .

وحتى الجياد الدهم السحرية تعبت فراحت تحمل فرسانهـا ببطء ، واخذ الليل الذي لا مفرّ منه يلحق بها وسكن حتـــى بيغيموت الذي لا يكلّ ولا يمل وقد احس به خلفه ، فراح يطير صامتاً رزيناً وقد تشبث بمخالبه في السرج ونشر ذنبه . واخـذ الليل يغطي الغابات والمروج بملاءة سوداء ويشعل في المدى البعيد تحتهم انواراً حزينة غريبة لم يعد فيها ما يغري او ينفع مرغريتا او المعلم . واخذ الليل يسبق كوكبة الفرسان وينزرع فوقها ، وينثر في السماء المكتئبة تارة هنا وطوراً هناك نقطـاً نجمية بيضاً .

كان الليل يزداد كثافة ، وكان يطير الى جانب المنطلقين ، ويمسكهم من بردهم ، وينزعها عـــن اكتافهم ويفضح خداعهم . وكلّما كانت مرغريتا ، التي تلفح الريح الباردة وجهها ، تفتـح عينيها كانت ترى هيئة المندفعين معها الى هدفهم تتغير . وعندما اخذ البدر الأرجواني يخرج الى لقائهم من طرف الغابة ، اختفت كل الوان الخداع ، وسقطت الملابس السحرية المهلهلة في المستنقع وغرقت في الضباب .

من المشكـــوك فيه انه كان بوســـع احد التعرّف الى



كوروفييف-فاغوت الذي ادعى انه يعمـــل مترجماً لدى المستشار الغامض الذي لا يحتاج الى اي ترجمة في شخص ذاك الذي كـان يطير الآن الى جانب فولند مباشرة وعن يمين صديقة المعلم . اذ كان يعدو الآن مكانَ ذاك الذي غادر تلال فوروبيوف تحت اسم كوروفييف-فاغوت وفي ملابس سيرك ممزقـــة فارس ذو لون بنفسجي غامق ووجه مفرط في تجهمـــه لا يعرف الابتسامة ابداً وهو يصلصل بسلسلة الزمام الذهبية . كـــان مسنداً ذقنه الى صدره ، لا ينظر الى القمر ولا يكترث بالأرض تحته ، بل كـــان يفكر في شيء ما يخصه وحده ، وهو طائر الى جانب فولند .

وعلى صفير الريح سألت مرغريتا فولند بصوت خفيض :

– لماذا تغيّر كل هذا التغير ؟

– هذا الفارس مزح ذات مرّة مزحة غير موفقة ، – اجاب فولند وهو يدير الى مرغريتا وجهه الذي اشتعلت فيه عينه بنور خافت ، – الكلام ذو المعنيين ، المبهم الذي كتبه وهو يتكلـــم على النور والظلام لم يكن جيداً تماماً . واضطر فارسنا ، بعـــد هذا ، الى الاسترسال في المزاح اكثـــر مما حسب ، لكنها اليوم ليلة تصفّى فيها الحسابات . ولقد سدّد فيها الفارس حسابـه والغاه !

وقطع الليل ذنب بيغيمـــوت المنفوش ونزع شعره ونثره نتفاً نتفاً فوق المستنقعات . فاستحال ذاك الذي كان قطاً يسرّي عن امير الظلام شاباً نحيفاً ، ووصيفاً جنياً وافضل مهرّج وُجد على وجه الأرض . كان القطّ السابق قد استكان ، واخذ يطير دون اي صوت وقد عرّض وجهه الفتي للضوء المنهمر مـــن البدر .

والى جانب الجميع كان ازازيلو يطير وقد لمع فولاذ درعـه وخوذته وكان القمر قد غيّر وجهه ايضاً . فقد اختفى نابه القبيح غير المعقـــول دون اثر ، وبدا حوّله مزيفـــاً ، بانت عيناه متشابهتين تماماً فارغتين وسوداوين ، ووجهـه ابيض وبارداً . كان ازازيلو يطير الآن بهيئته الحقيقية بوصفـــه جنيّ صحراء قفراء ، جني قاتل .

لم يكن بوسع مرغريتا ان ترى نفسهـا ، لكنها رات جيداً كيف تغيّر المعلم . كان شعره قد ابيض في ضوء القمر وانعقدت

ضفيرة من الخلف ، وكانت الضفيرة تتطاير في الهواء . وحين كانت الريح تزيح البردة عن رجلي المعلم ، كانت مرغريتا ترى نجيمات المهمازين على جزمته العالية يخبو نورها حيناً ويلمع تارة اخرى . وعلى غرار الجنيّ الشاب كان المعلم يطير دون ان يحوّل نظره عن القمر بل كان يبتسم له كانه شخص اليف جداً ومحبوب ، ويغمغم محدّثاً نفسه ، بفعل العادة التي اكتسبها في الغرفة رقم ١١٨ ، باشياء لم يكن من الممكن تبينها .

واخيراً كان فولند يطير هو الآخر في هيئته الحقيقية . وكان يصعب على مرغريتا القول على وجه اليقين مما صنع زمام جواده ، وتراءى لها ان الزمام ربما كان سلاسل قمرية صغيرة ، وان الجواد نفسه ليس الاّ قطعة من الظلام ، وان عرف هذا الجواد سحابة سوداء ، ومهمازي الفارس بقع نجمية بيض .

وهكذا طاروا في صمت طويلاً الى ان بدات الأرض تتغير تحتهم . غرقت الغابات الحزينة في ظلام الأرض وجذبتْ وراءها نصال الأنهر الكامدة ، وظهرت في الأسفل جلاميد صخرية ، ثم اخذت تلمع ، بينما اسودّتْ بينها هُوى لا ينفذ اليها ضوء القمر .

حط فولند بجواده على قمة صخرية مستوية كئيبة ، ومضى الفرسان خلفه وهم يسمعون الى جيادهم تسحق الصوان والحجارة بنعالها . كان القمر يغمر المكان بنور اخضر ساطع . وسرعان ما تبينت مرغريتا في هذا الخلاء اريكة يستوي فيها طيف بشري ابيض . ولعلّ الجالس كان اصم او مستغرقاً اشد الاستغراق في التفكير ، اذ لم يسمع الأرض الصخرية تهتزّ تحت ثقل الجياد . ودنا الفرسان منه دون ان يزعجوه .

ومدّ القمر لمرغريتا يد العون ، اذ كان ينير المكان افضل مما يمكن ان يفعله افضل مصباح كهربائي ، فرات ان الجالس الذي بدت عيناه عمياوين يفرك يديه فركات قصيرة ، وانه يحدق بهاتين العينين غير المبصرتين في قرص البدر . ورات مرغريتا الآن كلباً ضخماً مرهف الأذنين اسود الشعر يتمدد الى جانب الأريكة الحجرية الثقيلة التي تتلالا فيها شرارات من ضوء القمر ، وانه كصاحبه يتطلع الى البدر في قلق .



وعند قدمي الجالس تناثرت شقف دورق مكسورة . وامتدت بركة حمراء ضاربة الى السواد لا تجف .

واوقف الفرسان جيادهم .

واخيراً تكلم فولند وهو يستدير الى المعلم :

– لقد قراوا روايتك ، ولم يقولوا فيها الاّ شيئاً واحداً وهو انها لم تنته مع الأسف . وهكذا ، فبودّي ان اريك بطلك . انه يجلس منذ نحو الفي عام في هذا المكان ويغطّ في النوم ، لكن حين يطلع البدر ، تراه يعاني الأرق كما ترى ، وهو لا يعذبه وحده ، بل يعذب حارسه الأمين ايضاً – الكلب . واذا كان صحيحاً ان الجبن هو اكبر نقيصة ، فالكلب كما ارى ، لا ذنب له ، فالشيء الوحيد الذي كان الكلب الشجاع يخافه هو العواصف الرعدية . لكن ما العمل ، فعلى من يحب ان يشارك من يحب مصيره !

– ماذا يقول ؟ – سالت مرغريتا ، واختلج وجهها الذي كان يشيع فيه هدوء تام تحت سحابة من الشفقة .

وعلا صوت فولند :

– انه يردّد الشيء نفسه ، يقول انه لا يشعر براحة مع طلوع البدر ايضاً وانه ذو منصب رديء . هكذا يقول دائماً حين لا يكون نائماً ، وحين ينام لا يرى الاّ شيئاً واحداً – طريق القمر ، ويريد ان يسير فيه ويتحدث الى المعتقل الغا نوصري لانه ، كما يؤكد ، لم يقل كل ما كان يريد قوله آنذاك ، منذ زمن طويل ، في الرابع عشر من نيسان . لكن لأمرٍ ما ، وواسفاه ، لا هو يفلح في الخروج الى هذه الطريق ولا احد يأتي اليه ، فلا يبقى له الاّ التحدّث الى نفسه . وبالمناسبة ، لا بدّ من بعض التنويع . ولهذا تراه يضيف الى حديثه عن البدر بعض الأحيان ان ابغض شيء الى نفسه في هذا العالم هو خلودُه وشهرته المنقطعة النظير . ويؤكد استعداده لاستبدال مصيره بمصير المتسكع الصعلوك متى اللاوي .

– اثنا عشر الف بدر مقابل بدر واحد اذاً ، اليس هذا اكثر مما يجب ؟ – سالت مرغريتا .

– او تتكرر قصة فريدا ؟ – قال فولند ، – لكن لا تشغلي

بالك يامرغريتا . فكل شيء سيكـون في محلّه ، وعلى هذا يقوم العالم .

– اطلق سراحه ، – صرخت مرغريتا بصوت حاد بغتة كما صرخت اذّاك حين كانت جنيّة ، فانقلع لصرختها حجر في الجبال وراح يتدحرج الى الهاوية صامّاً الجبال بدويه . لم يكن بوسع مرغريتا القول ان كـــان هذا دويّ سقوط أم دوي ضحكـة شيطانية . ومهما يكن من أمر ، كان فولند يضحك وهو يتطلـع الى مرغريتا ويقول :

– لا داعي للصراخ في الجبال ، فهو ، على أي حال ، قـــد اعتاد الانهيارات ، ولن يقلق هذا راحته . ولا داعي لشفاعتـــك يامرغريتا لأن ذاك الـــذي يصبو الى التحدث اليه قد سبـــق واستشفع له ، – وهنا استدار فولند الى المعلم من جديد وقال له : – حسناً ، والآن تستطيع ان تنهي روايتك بجملة واحدة !

وكان المعلم كان ينتظر هذا وهو واقف دون حراك ينظـر الى الحاكم الجالس . فعقد يديه على شكل بوق وصرخ حتى اخذ صدى صراخه يقفز على الجبال المقفرة الجرد :

– انت حرّ ! حرّ ! انه في انتظارك .

حوّلت الجبال صوت المعلم الى رعد ، وهذا الرعد هدّمها . سقطت الجدران الصخرية اللعينة ، ولم تبق الا الرقعة الصغيرة التي عليها الاريكة الحجرية . واشتعلت بالأضواء فوق الهاويـــة السوداء ، التي غارت فيها الجدران ، مدينـــة مترامية الأطراف تهيمن عليها تماثيل متلالئة في الحديقة التي زادت خضرتها كثافة وبهاء على مدى هذه الالاف من البدور . وامتد الى هذه الحديقـة راساً طريق القمر الذي طال انتظار الحاكم له . وكان الكلـــب المرهف الأذنين أول من اندفع يعدو فيـــه . نهض الشخص ذو البردة البيضاء ذات البطانة التي بلون الدم عن الاريكة ، وصرخ بصوت مبحوح ، متقطع ، ولم يكن بالمستطاع تبيّن ما اذا كان صراخه بكاء أو ضحكاً وما الذي قاله في صراخه . جلّ ما امكـــن رؤيته أنه اندفع أيضاً يعدو في طريق القمر مقتفياً اثر حارسه الأمين .

– وانا أيضاً الى هناك ، في اثره ؟ – سأل المعلـم في انشغال بال وقد امسك بالزمام .



– لا ، اجابه فولند ، – علام اقتفاء اثر ما انتهى ؟

– هل الى هناك اذن ؟ – سأل المعلم واستدار وأشار الى الوراء ، الى حيث نهضت في المؤخرة المدينة ، المهجورة منذ وقت قريب ، بابراج ديرها الكعكية الشكـل وشمسها المتكسرة شظايا في الزجاج .

– أيضاً لا ، أيها المعلم الرومنطيقي ! – اجابه فولند وقد غلظ صوته وراح ينساب فـــوق الصخور . – ذاك الذي كان البطل الذي اختلقته والذي اطلقت بنفسك سراحه قبل قليل ، يتحرق الى رؤيته ، قرأ روايتـــك ، – وهنا التفت فولند الى مرغريتا وخاطبها قائلاً : – لا يمكن للمرء الا أن يصدق ، يـــا مرغريتا نيقولايفنا ، انك حاولت أن تختلقي للمعلم افضـــل مستقبل ممكن ، لكن لعلّ ما اعرضه عليكما ، وما استشفـــع لكما ، لكما بالذات يشوع فيه ، يكون افضل . دعوهما وشأنهما ، – قال فولند وهو يميل على سرج المعلم من على سرجه ويشير باتجاه الحاكم المغذّ في السير ، – تعالـــوا لا نعيقهما ، فقد يتفقان على شيء ما في نهاية الأمـــر ، – وهنا لوّح فولند بيده باتجاه اورشليم فانطفأت .

– وهناك أيضاً ، – قـــال فولند واشار الى المؤخرة ، – ماذا بوسعك ان تفعل في القبـــو ؟ – وهنا انطفأت الشمس المتكسرة في الزجاج . لماذا ؟ – واردف فولنـــد يقول بصوت مقنع ورقيق : – ايها المعلم الغارق في الرومنطيقية الا تريـــد حقاً ان تتنزه مع صديقتك في النهار تحت اشجار الكرز التـــي بدأت تزهر ، وتستمع في المســـاء الى موسيقى شوبرت ؟ الا تستحق حقاً الكتابة بريشة على انوار الشموع ؟ أو لا تريد حقاً أن تجلس كفاوست فوق انبيق على امل ان تتمكن من تكوين انسان جديد ؟ الى هناك ، الى هناك . هناك ينتظركما بيت وخادم عجوز ، الشموع اشعلـــت وعمّا قليل ستنطفىء ، لانكمـــا ستستقبلان الفجر فوراً . في هذا الطريق ، ايها المعلم ، في هذا الطريق . الوداع ! آن لي أن انصرف .

– الوداع ! – ردّ عليه المعلم ومرغريتا بصرخة واحدة . اذّاك اندفع فولند الأسود الى الهاوية ، وهو لا يتبين اي طريق امامه ، وهوت اثره حاشيته في جلبـــة ودوي . وغارت الصخور

والساحة الصغيرة وطريق القمر واورشليم من حولهما ، كما غارت الجياد الدهم . ورأى المعلم ومرغريتا الفجر الموعود ، بزغ للحال بعد بدر منتصف الليل . سار المعلم مع صديقته في سنا اشعة الصباح الأولى عبر جسر صخري صغير مغطى بالطحلب . قطع العاشقان المخلصان الجسر وخلفاه وراءهما ثم مضيا في طريق رملي .

– انصت الى السكون ، – قالت مرغريتا للمعلّم ، وكان الرمل يخشخش تحت قدميها الحافيتين ، – انصت واستمتع بما لم تُعطه في الحياة – الهدوء . انظر ، هـا هو ذا بيتك الأبدي الذي كوفئت به . واني لأرى نافذته التي كنوافذ بيوت البندقية ودالياته المعرّشة حتى السطح . هاهو ذا بيتك . هاهو ذا بيتك الأبدي . اعرف انه سيأتي اليك في المساء من تحبهم ، ومن تهتم بهم ومن لا يعكر عليك صفوك . سيعزفون لك ، وسيغنون لك ، وسترى كم هو ساطع الضوء في الغرفة حين تشعل الشموع . وستغفو بعد أن تعتمر طاقيتك المتسخة التي لا تفارقك . ستنام والبسمة على شفتيك . وسيشد النوم من عزيمتك ، فتأخذ في التفكير بحكمة . ولن يعود بمقدورك أن تطردني ، لأني أنا التي ساحرس نومك .

هكذا كانت مرغريتا تتكلم وهي ماضية مع المعلم الى بيتهما الأبدي . وبدا للمعلم أن كلماتها كانت تنساب كما كانت الساقية التي خلّفاها وراءهما تهسهس وتهمس ، واخذت ذاكرة المعلم ، ذاكرته المضطربة المثلومة ، تخبو شيئاً فشيئاً . أحدهم أطلق سراح المعلم كما أطلق هو نفسه (المعلم) سراح البطل الذي خلقه ، قبل قليل . وهذا البطل غار في الهاوية ، غاب دون رجعة ابن الملك المنجم ، حاكم اليهودية الخامس الظالم الفارس بيلاطس البنطي الذي غفر له ليلة الأحد .

## خاتمة

ومع هذا ، فما الذي حدث في موسكو بعد أن غادر فولند العاصمة عند غروب شمس السبت مختفياً مع حاشيته من تلال فورووبيوف ؟

لا حاجة الى القول انه سرت في العاصمة كلها لفترة طويلة همهمات ولغط مزعج باشاعات من اغرب ما يمكن ، وان هذه الاشاعات امتدت بسرعة فائقة الى الريف ، دانيه وقاصيه ، لكن مجرد تكرار هذه الاشاعات يثير في النفس القرف .

وقد سمع كاتب هذه السطور الصادقة شخصياً وهو يتوجه بالقطار الى فيودوسيا قصة عن خروج الفي شخص من المسرح في موسكو عراة بالمعنى الحرفي للكلمة ، وعن تفرّقهم الى بيوتهم بسيّارات الأجرة وهم في هذا المظهر .

كانت همسة «قوّة شريرة . . .» تسمع في الطوابير الواقفة امام دكاكين اللبن وفي الحافلات الكهربائية والمخازن والشقق والمطابخ والقطارات ، قطارات الضواحي والمسافات البعيدة ، وفي المحطات كبيرها وصغيرها وفي المصايف ، وعلى البلاجات .

ومن البدهي أن أكثر الناس تطوراً وثقافة لم يشاركوا أي مشاركة في هذه الحكايات عن القوة الشريرة التي زارت موسكو ، بل انهم كانوا يسخرون من رواتها ويحاولون ردّهم الى جادة العقل . لكن الواقع يظلّ رغم كل شيء واقعاً كما يقال ، وانكاره دون تقديم أي تفسير أمر غير جائز على الاطلاق . لقد كان أحدهم في العاصمة ، والفحم المتبقي من غريبويدوف واشياء اخرى كثيرة ابلغ تاكيد .

واخذ الناس المثقفون والواعون بوجهة نظر التحقيق : لقد عملت في العاصمة عصابة من المنوّمين المغناطيسيين والمنجمين الذين يملكون ناصية فنهم ببراعة فائقة .

واتخذت ، بطبيعة الحال ، الاجراءات الفورية والشديدة للقبض على العصابة في موسكو كما في خارجها ، لكن هذه الاجراءات لم تؤد الى اي نتيجة للأسف الشديد . فقد اختفى ذاك الذي كان يدعو نفسه فولند مع كل اعوانه ، ولم يعد الى موسكو بعد هذا ، ولم يظهر في اي مكان آخر ، ولم يأت بما يوحي بوجوده ، فكان من الطبيعي تماماً ان تظهر فرضية تقول بهروبه خارج البلاد ، لكن حتى هناك لم يظهر ما يشير الى وجوده .

استمر التحقيق في قضية فولند طويلاً . فالقضية ، على اي وجه قلبتها ، مريعة ! فهناك قتلى ، ناهيك عن اربعة بيوت محروقة ومئات من الذين انتهوا الى الجنون . عدا عن ان اثنين من القتلى يمكن القول يقيناً انهما من ضحاياه وهما : برليوز وذاك الموظف السيء الحظ في مكتب تعريف الأجانب بمعالم موسكو ، البارون السابق ميغل . نعم ، هذان قتلا . لا شك في ذلك . وقد وجدت عظام البارون المتشيطة في الشقة رقم ٥٠ في شارع سادوفايا بعد اخماد الحريق . نعم ، كانت هناك ضحايا ، وهذه الضحايا تستدعي التحقيق .

انما كانت هناك ضحايا اخرى ، ولكن بعد أن غادر فولند العاصمة . وكانت القطط السود ، على ما في هذا من دواعي الأسى ، الضحايا هذه المرة .

فقد قتل بالرصاص او ابيد بطريقة او باخرى نحو مائة من هذه الحيوانات المسالمة المخلصة للانسان والنافعة له في اماكن مختلفة من البلاد واحضر نحو خمسة عشر قطاً ، واحياناً في هيئة مشوهة تماماً ، الى اقسام الشرطة في مدن مختلفة . وعلى سبيل المثال احضر احد المواطنين في ارمافير الى قسم الشرطة واحداً من هذه الحيوانات البريئة وقد اوثق قائمتيه الأماميتين .

تربّص مواطننا لهذا القط لحظة كان هذا بمنظره المتلصّص (ماذا باليد اذا كان للقطط هذا المنظر ؟ هذا ليس سببه ان القطط سيئة ، بل انها تخاف ان تلحق بها الكائنات الأقوى منها ، الكلاب او الناس ، ضرراً او اهانة . وهذه وذاك ليسا



بالأمر العسير ، لكن لا فخر في هذا ، اؤكد لكم . نعم لا فخر على الاطلاق) ، اذن لحظة كان القط بمنظره المتلصص يتحفز للانطلاق نحو راعي الحمام .

ارتمى المواطن على القط واخذ يغمغم بسخرية ووعيد وهو ينتزع ربطة عنقه ليقيده :

– ها ، ها ! شرّفت الينا في ارمافير الآن اذن ، أيها السيد المنوّم ؟ لكننا هنا لا نخاف منك ! اي لا تتظاهر بالبكم . نحن نعرف من تكون !

واقتاد المواطن القط الى الشرطة . كان يجرّ الحيوان المسكين من قائمتيه الأماميتين المربوطتين بربطة عنق خضراء ، وهو يُعمل فيه رفسات خفيفة كي يجعل القط يمشي على قائمتيه الخلفيتين .

– اي انت ، – كان المواطن يصرخ مواكباً بصفير الأطفال حوله ، – اي انت ، دعك من التباله ! لن يجديك هذا نفعاً ! تفضل امش كما يمشي الناس !

كان القط الأسود يدير فيما حوله عينين ناطقتين بالعذاب ، اذ لم يكن بوسعه ، وهو المحروم من نعمة النطق ، الدفاع عن نفسه بكلمة . واذا كان الحيوان المسكين مديناً لأحد بخلاصه فللشرطة اولاً ولصاحبته وهي ارملة عجوز محترمة ثانياً . فما ان احضر القط الى قسم الشرطة حتى ايقنوا هناك أن رائحة سبيرتو قوية جداً تفوح من المواطن ، مما ادّى بهم الى الشك في شهادته والطعن فيها فوراً . في هذه الأثناء كانت العجوز التي عرفت من جيرانها بأمر قطها تندفع راكضة الى القسم وتصل في الوقت المناسب . وصفت العجوز قطها بأفضل الأوصاف واوضحت انها تعرفه من خمس سنوات ، حين كان لا يزال قطاً صغيراً ، وانها واثقة منه وثوقها من نفسها ، وبيّنت انه لم يأت في حياته عملاً سيئاً وانه لم يسافر الى موسكو ابداً . فهو لم يغادر ارمافير منذ ان ولد فيها وترعرع وتعلّم اصطياد الفئران .

حلّ رباط القط واعيد الى صاحبته . ولكن بعد ان ذاق مرارة الألم ، وعرف عملياً ما معنى الخطأ والافتراء .

وبالاضافة الى القطط لحق الأذى ببعض الناس . فقد جرت

عدّة اعتقالات . ومن بين الذيـــن اعتقلوا لفترة قصيرة : في لينينغراد المواطنان فولمان وفولبير ، وفي ساراتوف وكيبيـف وخاركوف ثلاثة يحملون كنية فولودين ، وفي قازان فولوخ ، وفي بينزا ولأسباب مجهولـــة تماماً المرشّح في العلوم الكيميائية فينتشينكفتش . . . الاّ ان هذا كان هائل القامة اسود الشعر وذا بشرة سمراء غامقة .

وبالاضافة الى هذا وقع في ايدي الشرطة وفي اماكن مختلفة تسعة بكنية كوروفين واربعة بكنية كوروفكين ، واثنان بكنية كارافايف .

وفي محطة بيلغورود اخرج احـد المواطنين مكبلاً من قطار سيفاستوبول . وكان هذا المواطن قد خطر له ان يسلّي الركاب ببعض العاب الشعوذة بالورق .

وفي ياروسلافل ، وفي فترة الغداء تماماً ، ظهر في احـد المطاعم مواطن يحمل وابور كاز كان قد اخذه للتو من محـل التصليح . فما ان رآه البوابان حتى تركا مكانيهما في المشجب ، واطلقا ساقيهما للريح ، وانطلق وراءهما كل روّاد المطعـم وعمّاله هاربين . وخلال ذلك اختفى عند عاملة الصندوق كـل الايراد على نحو ملغز .

وحدثت اشياء اخرى كثيـرة يتعذر تذكرها كلها . نعم ، كانت هناك بلبلة عظيمة في العقول والأفكار والخواطر .

وعلينا هنا أن نعود مرّة ثانية وثالثة فنقـول كلمة حقّ في التحقيق . فقد اتخذ كل ما يجب اتخاذه ليس للقبض على المجرمين وحسب ، بل لتفسير وجلاء كل ما اقترفوه . وقد تم تفسير كل شيء ، ولا مجال امامنا الاّ الاعتراف بأن هذه التفسيرات معقولة ولا يمكن دحضها .

فقد اثبت ممثلو التحقيق والأطبـاء النفسيون الخبيرون ان أعضاء هذه العصابة المجرمة ، او ربّما احد اعضائها (والاشتباه انصبّ هنا على كوروفييف في الدرجة الاولى) كانوا منوّميـن مغناطيسيين ذوي قدرة غير معهودة ، بامكانهم اظهار انفسهم حيث لا يوجدون اصلاً وفي مواقع وهميّة ، متحوّلة . وبالاضافة الى ذلك كان بامكانهم الايحـاء بيسر الى الأشخاص الذين يحتكون بهم أن بعض الأشياء او الأشخاص توجد في مكان ليست موجودة



فيه او لم توجد فيه بالفعل ، وبالعكس كانوا يبعدون من مجال الرؤية الأشياء او الأشخـاص الموجودين في مجال الرؤية هذا فعلاً .

في ضوء هذه التفسيرات بات كل شيء مفهوماً على وجـه اليقين ، بما في ذلك حتّى مناعة القطّ ضد الرصاص حين أطلقت عليه النار في الشقة رقم ٥٠ لدى محاولة اعتقاله ، هذه المناعـة التي اثارت العقول والخواطر اكثر من غيرها والتي بدت عصيـة على التفسير .

لم يوجد اي قط على الثريا بطبيعة الحال ، ولم يفكر احـد بتبادل اطلاق النار معه ، بل كانوا يطلقون النار في الفراغ ، في حين كان بامكان كوروفييف ، الذي أوهمهم ان القط يفتعـل اشياء واشياء على الثريا ، أن يوجد بكل سهولة خلف مطلقـي النار وهو يستهزئ ويسخر ويستمتع بقدرته الهائلة ، انمـا المستخدمة استخداماً اجرامياً ، على الايحاء . وهو نفسه بطبيعـة الحال الذي صبّ البنزين في الشقة واضرم فيها النار .

وستيوبا ليخودييف لم يطر بطبيعة الحال الى اي يالطا (فحتّى كوروفييف لا يستطيع لعب مثل هذا الملعوب) ، ولم يرسل اي برقيات من هناك . فهو بعد ان اغمي عليه في شقة زوجة الصائغ مذعوراً من لعبة كوروفييف الذي اراه قطاً يمسـك فطراً مخللاً بالشوكة ، ظلّ فيها الى ان البسه كوروفييف على سبيـل السخرية طاقية لبّاد وارسله الى مطار موسكو بعد ان اوحـى مسبقاً لمحققي المباحث الجنائية ، الذيـن كانوا في انتظاره ، ان ستيوبا سينزل من الطائرة القادمة من سيفاستوبول .

والحق يقال ان مباحث يالطا الجنائية اكدت انها استقبلت ستيوبا حافي القدمين وارسلت برقيات الى موسكو بشأن ستيوبا ، لكنه لم يعثر بيـن أوراق القضايا عـلى اي نسخة من هذه البرقيات ، ممّا حملهم على الانتهاء الى نتيجـة مؤسفة ، لكنها لا تدحض ، وهي ان عصابة المنومين المغناطيسيين تملك قدرة التنويم على مسافات بعيدة جداً ، وليس تنويم افراد متفرقيـن وحسب بل مجموعات كاملة من الناس . وفي هذه الحالة بوسع المجرمين ايصال اكثر الناس توازنـاً واشدهم بنية نفسية الى حافة الجنون .

فهل بقي ، بعد هذا ، داع لقول شيء في الاعيب تافهة كدستة الورق في جيب شخص غريب في صالة المسرح والثياب النسائية المختفية او القبعة التي تموء واشياء اخرى من هذا القبيل ! مثل هذه الالاعيب يمكن لأي منوّم مغناطيسي ممتهن ذي قدرة متوسطة القيام بها فوق اي مسرح ، بما في ذلك الملعوب البسيط عن الرأس المقطوع لعريف الحفلة . والقطّ الناطق هو ايضاً لغو خالص . فلتقديم قطّ كهذا امام الناس يكفي الالمام بالأسس الأولى لفن التكلم من البطن ، ومن الصعب أن تجد أحداً يشك في ان مهارة كوروفييف تتعدى هذه الأسس كثيراً .

نعم ، القضية هنا ليست قضية دستات الورق والرسائل المزيفة في حقيبة نيكانور ايفانوفتش . فهذه كلها امور تافهة . القضية هي انه ، هو كوروفييف ، الذي ساق برليوز الى موت أكيد تحت عجلات الترام ، وهو الذي دفع بالشاعر المسكين ايفان بيزدومني الى الجنون ، وهو الذي جعله يحلم ويرى في احلامه المريعة اورشليم القديمة والجبل الاقرع المكتوي باشعة الشمس وعليه المصلوبون الثلاثة . انه هو وعصابته الذين حملوا مرغريتا نيقولايفنا وخادمتها ناتاشا على الاختفاء من موسكو . وبالمناسبة ، عمل رجال التحقيق باهتمام زائد على حلّ هذا اللغز . اذ كان المطلوب جلاء ما اذا كانت عصابة القتلة ومضرمي النيران هي التي اختطفت هاتين المراتين ام انهما هربتا مع هذه العصابة المجرمة برضاهما . وقررت لجنة التحقيق بعد الرجوع الى شهادة نيقولاي ايفانوفتش غير المعقولة والمتناقضة ، وبعد الأخذ بعين الاعتبار رسالة مرغريتا نيقولايفنا الغريبة والجنونية التي تركتها لزوجها والتي تخبره فيها انها ذاهبة لتصبح جنية ، وبعد الأخذ بعين الاعتبار ترك ناتاشا ملابسها في مكانها ، قررت اللجنة بعد هذه الاعتبارات كلها أن سيدة البيت وخادمتها نُوّمتا اولاً كما نوّم كثيرون غيرهما ، واختطفتا بعد ذلك . وراودت المحققين فكرة ، ولعلّها كانت صائبة تماماً ، وهي أن المجرمين فتنوا بجمال المراتين .

أما الذي بقي مغلقاً على التحقيق تماماً فهو الدافع الذي



حمل العصابة على خطف المريض النفسي الذي يسمي نفسه المعلم من مستشفى الأمراض النفسية . هذا الأمر لم يفلح التحقيق في جلائه ، كما لم يفلح في الوصول الى اسم المريض المخطوف ، وهكذا اختفى المعلم الى الأبد تحت هذا الاسم الذي لا يعني شيئاً : «الرقم ١١٨ من الجناح الأول» .

وهكذا انجلى كل شيء تقريباً ، وانتهى التحقيق كما ينتهي كل شيء عموماً .

ومضت أعوام ، وأخذ المواطنون ينسون فولند وكوروفييف والآخرين . وحدثت تغيرات كثيرة في حياة اولئك الذين عانوا من فولند واعوانه . ومهما يكن من تفاهة هذه التغيرات وعدم اهميتها الاّ ان الاشارة اليها امر واجب .

جورج بينغالسكي مثلا رقد ثلاثة اشهر في المستشفى ثم خرج منه معافى ، لكنه اضطر لترك العمل في «فاريبتيه» في عزّ الموسم حين كان الجمهور يتدافع تدافعاً للحصول على بطاقات ، فذكرى السحر الشيطاني وفضحه لا زالت حيّة . فترك بينغالسكي فاريبتيه لأنه ادرك ان الظهور مساء كل يوم امام الفي شخص لا بدّ أن يتعرفوا عليه حتماً ، والتعرّض دائماً لأسئلتهم الساخرة عن حالته ان كانت أفضل برأس ام بدون رأس امر موجع اكثر مما ينبغي .

وبالاضافة الى ذلك فقد عريف الحفل قدراً كبيراً من مرحه وهو شرط ضروري ولازم جداً في مهنته . وبقيت لديه عادة كريهة ومضنية هي الوقوع في حالة من القلق عند اكتمال البدر ربيع كل عام ، والامساك برقبته بغتة والتلفّت حوله في ذعر ، والانخراط في البكاء . كانت هذه النوبات تمرّ ، ومع هذا كان يتعذّر عليه مع وجودها ممارسة عمله السابق ، فتقاعد واخذ يعيش من مدخراته التي يُفترض فيها ، في حسابه المتواضع ، أن تكفيه خمسة عشر عاماً .

ترك العمل اذن ولم يعد يلتقي بفارينوخا الذي اكتسب شهرة ومحبة واسعة ، حتى بين المديرين الاداريين للمسارح ، لعطفه وأدبه الخارقين . فطالبو البطاقات المجانية على سبيل المثال لم يكونوا يدعونه الاّ «أبانا المحسن» . وفي اي وقت كان يرنّ فيه الهاتف في «فاريبتيه» ، كان يسمع في السمّاعة صوت رخيم

انما حزين يردّ دائماً : «نعم» ، وكان نفس الصوت سرعان ما يردّ على من يطلب اليه استدعاء فارينوخا الى الهاتف بقوله : «انا في الخدمة» . ولكن بالمقابل كـــم عانى ايفان سافيليفتش من أدبه الجمّ هذا !

اما ستيوبا ليخودييف فلم يعد امامه مجال للتحدث بالهاتف في «فاريبيتيه» . اذ نقل فور خروجه من المستشفى الذي امضى فيه ثمانية أيام الى روستوف حيث عيّن مدير مخزن كبير للمواد الغذائية . وهناك اشاعات تقول انه كفّ عن تناول «البورتفين» ولم يعد يشرب الاّ الفودكا المنقوعة في براعم عنب الثعلب مما اكسبه صحة وبدانة . ويقـال انه اضحى صموتاً ، متجنبـاً للنساء .

ولم يعد طرد ستيبـــان بوغدانوفتش من «فاريبيتيـه» على ريمسكي بالفرحة التي كان يحلم بها بقوة طوال سنوات . فبعد المستشفى وكيسلوفودسك قدّم المديـــر المالي الذي دبّت الشيخوخة في اوصاله واخذ راسه يهتزّ استقالته من «فاريبيتيه» . والطريف أن زوجة ريمسكي هي التي حملت كتاب استقالته الى «فاريبيتيه» . اذ ان غريغوري دانيلوفتش لم يجد في نفسه القوّة على الذهاب حتى في وضح النهار الى البناية التي رأى فيها زجاج النافذة المتصدع المغمور بضوء القمر واليد الطويلة المتسللة الى المزلاج السفلي .

التحق المدير المالي بمسرح العرائس في زاموسكفاريتشيي بعد اعتزاله العمل في «فاريبيتيـه» . وفي هذا المسرح لـــم يعد ريمسكي مضطراً للتصادم مع اركادي ابولونوفتش سيمبليباروف الموقر بشأن السمعيات . فقد نقل هذا على الفور الى بريانسك وعيّن مديراً لنقطة تحضير الفطور . والآن ياكل الموسكوفيون الفطور المملحة والفطور البيض المخلّلة ولا يملّون من اطرائها والاعراب عن سرورهم البالغ بنقل سيمبلياروف . القصة قديمة انما يمكننا القول ان شؤون السمعيّات لم تستقـــم بين يدي اركادي ابولونوفتش على الرغم من كل محاولاته تحسينها ، فقد ظلّت على ما كانت عليه .

ومن الأشخاص الذين قطعوا صلتهم بالمسرح ، اضافة الى اركادي ابولونوفتش ، ينبغي ان نذكر اسم نيكانور ايفانوفتش



بوسوي ، مع ان هذا لم يكن يربطه بالمسرح الاّ حبه للبطاقات المجانية . لم يعد نيكانور ايفانوفتش يتردّد على أي مسرح سواء بغير المجان او بالمجان وحسب بل صارت ملامحه تتغير عند اي حديث عن المسرح . وكره نيكانور ايفانوفتش بالاضافة الى المسرح ، وبدرجـــة ليست اقلّ بل اكبر ، الشاعر بوشكين والفنان الموهوب سافا بوتابوفتش كورالبسوف . وبلغ من كرهه هذا الأخير انه حين رأى في العام الماضي في الصحيفة اعلانـــاً مجلّلاً بالسواد ينعى الفنّان الذي قضى في اوج عطائه بنوبة قلبية ، احمر وجهه حتى كاد يلحق بسافا بوتابوفتش وجار : «هذا ما يستحقه !» . زد على ذلك ان نيكانور ايفانوفتش الذي ايقظ موت الفنان المشهور في نفسه الكثير والكثير من الذكريات الأليمة ، جلس ذلك المساء وحده برفقة البدر الذي كان ينير سادوفايا يشرب . وشرب حتى تعتعه السكر . ومع كل كاس كانت تتطاول امامه سلسلة ملعونة من أوجه بغيضة ، وكان في هذه السلسلة دونتشيل سيرغي غيراردوفتش والحسناء اللعوب ايدا غيركولانوفا ، وذاك الأصهب صاحب اوزات المصارعة ، وكانافكين نيقولاي الصريح .

وهؤلاء ماذا حدث لهم ياترى ؟ العفو ، لم يحدث لهم شيء على الاطلاق ، ولا يمكن أن يحدث لهم شيء ، لأنه لم يكن لهم وجود في الحقيقة ، كمـــا لم يكن وجود للفنّان اللطيف عريف الحفلات ولا للمسرح نفســـه ولا للحيزبون البخيلـــة عمـــة بوروخوفينكوف التي تركت العملة الأجنبيـــة تتعفن في القبو ، ناهيك عن الأبواق الذهبية والطهـــاة الوقحين . هذا كله رآه نيكانور ايفانوفتش في الحلم بتأثير كوروفييف الرجيم . الشخص الوحيد الحيّ الذي طار الى نيكانور ايفانوفتش في الحلـــم كان الفنان سافـــا بوتابوفتش بالذات ، ولـــم يقتحم على نيكانور ايفانوفتش حلمـــه الاّ لأنه انغرز في ذاكرته بفضل برامجـــه المتعدّدة بالراديو . هذا وجد فعلاً ، اما الآخرون فلم يوجدوا اطلاقاً .

ولعلّ الوبيزي موغاريتش لم يكن له وجود هو الآخر ؟ أوه ، لا ! هذا لم يكن موجوداً وحسب ، بل لا زال حياً حتى

الآن ، وفي المنصب الذي تخلّى عنه ريمسكي بالذات ، اي في منصب المدير المالي لفاريبيتيه .

ايڤن الوييزي ، بعد ان صحا بعد نحو اربع وعشرين ساعة من زيارته لفولند ، ووجد نفسه في القطار في مكان مـــا قرب فياتكا ، انه نسى ارتداء سرواله حين غادر موسكو لسبب ما في حالة من الاختبال ، لكنه لم يدرك بالمقابل السبب الذي دعاه لسرقة دفتر المشتركين العائد لصاحب البيت والذي كان عديم الفائدة له . دفع الوييزي مبلغاً ضخماً من المال الى مضيف القطار ، واخذ منه بنطالاً عتيقاً وملوثاً وعاد ادراجه من فياتكا . لكنه لم يجد بيت صاحب الدار مع الأسف . فقد التهمت النيران البيت القديم بكامله . لكن الوييزي كان على قدر عظيم من روح المبادرة فما هما الا اسبوعان حتى كان يقطن غرفة رائعة في زقاق بروسوف . وما هي الاّ بضعة اشهر حتى كان يجلس في مكتب ريمسكي . وكمـــا عانى ريمسكي من ستيبان ، عانى فارينوخا الآن من الوييزي . والآن لا يحلم ايفان سافيليفتش الا بطرده بعيداً عن «فاريبيتيه» ، لأنه ، كما يهمس فارينوخـــا احياناً في مجالسه الخاصة ، «لم يصادف في حياته نذلاً كالوييزي هذا ، وانه يتوقع من الوييزي هذا فعل اي شيء» .

لكن لعلّ المدير الاداري كان صاحب هوى . اذ لم تسجّل على الوييزي اية امور غامضة ، بل لم تسجّل عليه اية امور اللهم الاّ تعيينه شخصاً اخر مكان مدير البوفيه سوكوف . اما اندري فوكيتش سوكوف هذا فقد توفي من سرطـــان الكبد في مستشفى تابع لجامعة موسكو بعد نحو تسعـة اشهر من ظهور فولند في موسكو . . .

نعم ، مرّت عدة سنوات ، وخبت الأحداث الموصوفة في هذا الكتاب بامانة وصدق ، وانطفـــأت في الذاكرة ، انما ليس عند الجميع . لا ، ليس عند الجميع .

ففي كل عام ، ما ان يهلّ بدر العيـــد الربيعي حتى يظهر تحت اشجار الزيزفون في بتريرشيي برودي شخص في الثلاثين من عمره او يزيد قليلاً – شخص ضارب الى الصهبة ذو عينين خضراوين وملابس متواضعـــة . انه الاستاذ في معهد التاريخ والفلسفة البروفيسور ايفان نيقولايفتش بونيريف .



ما ان يبلغ أشجار الزيزفون حتى يجلس تحتها ، ودائماً على نفس المقعد الذي جلس عليه في ذلك المساء الذي رأى فيه برليوز ، الذي نسيه الجميع من فترة بعيدة ، لآخر مرّة في حياته البدر المتساقط قطعاً .

كان البدر ، الأبيض اللون في أول المساء ، الذهبي اللون في آخره ، الذي تراءى على صحنه ما يشبه تنيناً داكنا ، يسبح فوق الشاعر السابق ايفان نيقولايفتش ويقف في الوقت نفسه في مكانه نفسه في عليائه لا يبرحه .

ايفان نيقولايفتش على علم بكل ما جرى ، انه يعرف كل شيء ويفهم كل شيء . . يعرف انه كان في شبابـه ضحية منوّمين مغناطيسيين مجرمين ، وقد عولج وشفي . لكنه يعرف ايضاً انه لا يستطيع السيطرة على شيء مـــا وهذا الشيء هو البدر عند اكتماله في الربيع . فما ان يبدأ القمر يقترب من اكتماله ، وما ان يأخذ الكوكب الذي تدلى في وقت ما فوق الشمعدانين بخمس شعلات ينمو ويطفح ذهباً ، يغدو ايفان نيقولايفتش قلقاً ، متوتراً ، يفقد شهيته ورغبته في النوم ، ويأخذ في انتظار اكتمال البدر . وما ان يكتمل حتى لا يعود في وسع شيء في الوجود امساكه في بيته . فيخرج مـع المساء ويتوجه الى بتريرشيي برودي .

وهنا يأخذ ايفان نيقولايفتش ، وهو جالس في مقعده ، يحدث نفسه بصوت عال ويدخن ويزرّ عينيـــه باتجاه البدر تارة ، وباتجاه الباب الدوّار الذي لا زال يذكره جيداً تارة اخرى .

ويمضي ايفان نيقولايفتش ساعة او ساعتين على هذا النحو . ثم يخلـــع نفسه من مكانـه ويمضي دائمـاً في نفس الخط عبر سبيريدونوفكـــا الى ازقـــة اربـات بعينين فارغتيـــن غير مبصرتين .

ويجتاز محل بيع الكاز ثم ينعطف حيث يتدلى مصباح الغاز القديم المائل ، وينسل خفية الى السور المشبك الذي يرى خلفه حديقة كثيفة لكنها لم تكتس بعد بزهو الربيع ، وفي الحديقة يرى داراً قوطية يلوّنها البدر من جانبها الذي يبرز منه المنور بنافذته الثلاثية الدرف ، بينما يغرق جانبها الآخر في الظلام .

لا يعرف البروفيسور ما الذي يشده الى السور ومن الذي

يقطن هذه الدار ، لكنه يعرف أن لا جدوى من مغالبة نفسه عند اكتمال البدر . ويعرف ، الى ذلك ، انه سيرى في الحديقة خلف السور الشيء نفسه .

سيرى كهلاً وقوراً ملتحياً يضع نظارة أنفية ، ذا ملامح تشبه ملامح الخنّوص شبهاً طفيفاً جالساً على مقعد . وايفان نيقولايفتش يفجأ دائماً ساكن الدار هذا في نفس الوضع الحالم ، وهو يسمّر نظره على القمر . ويعرف ايفان نيقولايفتش ان الجالس سيحوّل عينيه ، بعد أن تتململيا من منظر القمر ، الى نوافذ المنور لا محالة ، وسيسمرهما عليها كأنه يتوقع ان تنفتح على مصاريعها ويظهر على حافة النافذة شيء ما خارق .

ويعرف ايفان نيقولايفتش ما الذي سيحدث بعد هذا عن ظهر قلب . وهنا لا بدّ من الامعان في الاختفاء خلف السور اذ ان الجالس سياخذ في هزّ راسه في قلق واضطراب ومحاولة التقاط شيء ما في الهواء بعينيه الزائغتين ، ورسم ابتسامة مبهورة بالتاكيد ، ثم سيضرب كفاً بكفّ فجاة في شيء من الكآبة اللذيذة وسيغمغم ببساطة وبصوت عال قليلاً :

– فينوس ! فينوس ! . . آه ، يالي من غبي ! . .

وياخذ ايفان نيقولايفتش يهمس وهو يختبيء وراء السور دون أن يحوّل عينيه الملتهبتين عن الغريب الغامض :

– ايتها الآلهة ، ايتها الآلهة ! هاكم ضحية اخرى من ضحايا البدر . . . نعم ، ضحية اخرى مثلي .

وسيتابع الجالس كلامه :

– يالي من غبي ! لماذا ، لماذا لم اطر معها ؟ لماذا خفت ، أنا الحمار العتيق ! حصلت على ورقة ! تحمّل الآن ايها المغفّل العتيق ! !

ويستمر الأمر على هذا المنوال الى ان تصطفق النافذة في الجانب المظلم من الدار ويظهر فيها شيء ما ضارب الى البياض ويتردد صوت نسائي مزعج :

– اين انت يا نيقولاي ايفانوفتش ؟ ما معنى نزواتك هذه ؟ اتريد الاصابة بالملاريا ؟ تعال اشرب الشاي !

وهنا سيصحو الجالس طبعاً وسيجيب بصوت كاذب :

– اردت تنشق بعض الهواء ، ياروحي ! الهواء هنا رائع !



وسينهض من مقعده وسيلوّح بقبضته خلسة باتجاه النافذة المنغلقة في الأسفل متوعداً ويمضي جاراً قدميه الى بيته .

– يكذب ، انه يكذب ! ايتها الآلهة ما أكذبه ! – يغمغم ايفان نيقولايفتش وهو يبتعد عن السور ، – ليس الهواء هو الذي يشده الى الحديقة ، بل انه يرى شيئاً ما على البدر في ليلة اكتماله الربيعية ، وفي جوّ الحديقة ، في العلو . انا مستعدّ لان ادفع غالياً ثمن النفاذ الى سرّه ومعرفة اية فينوس تلك التي ضيّعها ويطوّح الآن بيديه عبثاً في الهواء للامساك بها !

ويعود البروفيسور الى بيته وقد بلغ به المرض أشده . تتظاهر زوجته بأنها لا تلاحظ حالته وتستحثه للايواء الى فراشه . اما هي فلا تاوي الى فراشها بل تجلس الى مصباح وكتابها في يدها ، وتاخذ تتأمله بعينين تفيضان بالمرارة . انها تعرف ان ايفان نيقولايفتش سيصحو عند الفجر مطلقاً صرخة اليمة ، وسياخذ في البكاء والتقلّب على جنبيه . ولهذا ترى على السماط امامها تحت المصباح محقنة جاهزة وامبولة مملوءة بسائل بلون الشاي الكثيف .

وتشعر المراة المسكينة المرتبطة بالمصاب بهذا المرض الخطير أنها حرة الآن وبوسعها الاستسلام للنوم دون خوف . فايفان نيقولايفتش سينام الآن حتى الصباح بوجه تعلوه السعادة وسيرى في نومه احلاماً لا تعرف كنهها ، لكنها احلام سامية وسعيدة .

والذي يوقظ العالِم ويوصله الى اطلاق الصراخ البائس في ليلة اكتمال البدر شيء واحد لا يتغير . فهو يرى سفاحاً غير طبيعي لا انف له يطعن برمحه ، وهو ينطّ ويطلق صوتاً مدوّياً ، هيستاس المعلّق الى خشبة والفاقد الصواب في قلبه . ولكن لم يكن السفاح مرعباً قدر ما كانت الاضاءة غير الطبيعية في الحلم الناتجة عن غيمة تغلي وتفور وتهوي على الأرض كما يحدث أوقات الكوارث العالمية فقط .

بعد الابرة يتبدل كل شيء امام النائم . يمتد من السرير الى النافذة طريق قمري عريض ، وينتصب في هذا الطريق شخص في بردة بيضاء ذات بطانة بلون الدم ويأخذ في المضيّ الى القمر . ويمضي الى جنبه شاب ذو ثوب ممزق ووجه مشوّه . . .

السائران يتحدثان بحماسة ، يتناقشان ويريدان الاتفاق على شيء ما . .

ويقول ذاك الذي يرتدي البردة وهو يحوّل الى رفيق دربه وجهاً متغطرساً :

– ايتها الآلهة ، ايتها الآلهة ، يالها من ميتة سمجة ! لكن قل لي من فضلك ، – وهنا يتحوّل وجهه من الغطرسة الى الضراعة ، – لكنه لم يكن شيء من هذا ، أليس كذلك ؟ قل لي ، أتوسل اليك ، لم يكن شيء من هذا ، أليس كذلك ؟

– طبعاً ، لم يكن شيء من هذا ، – يجيبه رفيق دربه بصوت مبحوح ، – ان هذه الاّ تهيؤات .

– وتستطيع أن تقسم لي على هذا ؟ – يرجوه لابس البردة في استعطاف .

– اقسم لك ، – يجيبه رفيق دربه ، ولأمر ما تبتسم عيناه .

– لست في حاجة الى اكثر من هذا ! – يصرخ لابس البردة بصوت متقطع ويغذّ الخطو صعوداً الى القمر جاذباً رفيقه ، يتبعهما كلب هائل مرهف الأذنين هادئ ومهيب .

اذّاك يأخذ درب القمر في الفوران والغليان ويتدفق منه نهر قمري يفيض على جانبيه . القمر يصخب ويلعب ، القمر يرقص ويتشاقى . اذّاك تتشكل في التيار امرأة خارقة الجمال تمسك بيد شخص نامي اللحية يتلفت حوله مذعوراً وتقوده الى ايفان . يتعرف عليه ايفان على الفور انه الرقم ١١٨ ، زائره الليلي ، ويمدّ ايفان نيقولايفتش اليه في الحلم يديه ، ويساله في حماسة :

– بهذا انتهى الأمر ؟

– نعم ، بهذا انتهى الأمر ياتلميذي ، – يجيب الرقم ١١٨ ، اما المرأة فتدنو من ايفان وتقول له :

– طبعاً ، بهذا . كل شيء انتهى ، وكل شيء ينتهي . . . ساقبلك في جبينك وسيكون كل شيء عندك كما يجب أن يكون .

وتنحني المرأة فوق ايفان وتقبل جبينه ، وينهد ايفان اليها ويحدّق في عينيها ، لكنها تتراجع وتغادره مع رفيق دربها باتجاه القمر .



اذّاك يأخذ القمر في الهيجان : يصب تيارات الضوء على ايفان مباشرة ويرش الضوء في كل الاتجاهات ، ويبدأ في الغرفة فيضان قمري . يهتز الضوء ويعلو شيئاً فشيئاً ويغرق السرير . اذّاك فقط يغفو ايفان نيقولايفتش بوجه تغمره السعادة .

ويصحو في الصباح صموتاً ، انما في كامل هدوئه وعافيته . ذاكرته المثلومة تهدأ وتستكين ، وحتى اكتمال البدر التالي لن يزعج البروفيسور أحد ، لا قاتل هيستاس الأجدع ، ولا حاكم اليهودية الخامس الظالم الفارس بيلاطس البنطي .

١٩٢٩–١٩٤٠

## فهرس الكتاب


ميخائيل بولغاكوف وروايته (ترجمة عبد الله حبه) . . ٣

الجزء الاول .

الفصل الأول . لا تتحدثوا ابداً الى اغراب ! . . . ١٦
الفصل الثاني . بيلاطس البنطي . . . . . ٣١
الفصل الثالث . البرهان السابع . . . . . ٥٨
الفصل الرابع . المطاردة . . . . . ٦٤
الفصل الخامس . . . . وحدث في غريبويبيدوف . ٧٢
الفصل السادس . فصّام ، كما قيل . . . . . ٨٧
الفصل السابع . الشقة المشؤومة . . . . . ٩٧
الفصل الثامن . مبارزة بين البروفيسور والشاعر . ١١٠
الفصل العاشر . انباء من يالطا . . . . . ١٣٠
الفصل العاشر . انباء من يطالطا . . . . . ١٣٠
الفصل الحادي عشر . ايفان يصاب بالازدواجية . . ١٤٤
الفصل الثاني عشر . السحر الشيطاني وفضحه . . ١٤٧
الفصل الثالث عشر . ظهور البطل . . . . . ١٦٤
الفصل الرابع عشر . المجد للديك . . . . . ١٨٨
الفصل الخامس عشر . حلم نيكانور ايفانوفتش . . ١٩٨
الفصل السادس عشر . الصلب . . . . . ٢١٢
الفصل السابع عشر . نهار مضطرب . . . . . ٢٢٦
الفصل الثامن عشر . الـزوار المناحيس . . . . ٢٤١




الجزء الثاني


الفصل التاسع عشر . مرغريتا . . . . . ٢٦٦
الفصل العشرون . دهان أزازيلو . . . . . ٢٨١
الفصل الحادي والعشرون . الطيران . . . . . ٢٨٧
الفصل الثاني والعشرون . على ضوء الشموع . . . ٣٠٢
الفصل الثالث والعشرون . حفلـــة رقص كبرى عنـد
الشيطان . . . . . ٣١٧
الفصل الرابع والعشرون . انتشال المعلم . . . . ٣٣٥
الفصل الخامس والعشرون . كيف حاول الحاكـم انقاذ
يهوذا الذي من قيريافا . . . . . ٣٦٢
الفصل السادس والعشرون . الدفن . . . . . ٣٧٤
الفصل السابع والعشرون . نهاية الشقة رقم ٥٠ . . ٣٩٩
الفصـل الثامـــن والعشرون . مغامـــرات كوروفييف
وبيغيموت الاخيـرة . . . . . ٤١٧
الفصل التاسع والعشرون . . . . وحسم مصير المعلم
ومرغريتا . . . . . ٤٣١
الفصل الثلاثون . آن الأوان ! آن الأوان ! . . . ٤٣٧
الفصل الحـادي والثلاثون . على تلال فوروبيوف . . ٤٥١
الفصل الثاني والثلاثون . الغفران والمأوى الأبدي . . ٤٥٤
خاتمة . . . . . ٤٦١